كتاب

شرح الحكم العطائية

للشيخ

علي بن عبدالله باراس

١٠٢٧-١٠٩٤هـ

اعتنى به

أحمد بن عمر بن طالب العطاس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد ابن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن والاه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فمما من الله به علينا العثور على كتاب شرح الحكم العطائية للشيخ علي بن عبدالله باراس نفعنا الله به وبعلومه في الدارين آمين ، ولكم كنت متلهف للحصول على شئ من مؤلفاته لكثرتها ولم يسعدني الحظ ، ولم أجد حتى من يذكرها أوحتى يترجم له سوى الحبيب علي بن حسن العطاس في كتابه القرطاس في مناقب الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس ترجم له ترجمة واسعة ، وفي كتاب تاج الأعراس ترجم له ترجمة وجيزه .

وبما أن الشيخ علي المذكور من خواص مريدي الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس والذي يقول فيه : من فرق بين عمر وعلي لايفلح ، فكان من الواجب علينا أن نهتم بمؤلفاته أسوة باهتمامنا بمؤلفات الحبيب علي بن حسن العطاس ومؤلفات أهلنا التي من الله علينا بها وتشرفت بطباعتها وتوزيعها على المحبين .

ومن المؤسف أنني لم أعثر على شئ من مؤلفاته سوى هذا الكتاب لذي بين أيدينا (شرح الحكم العطائية) ، وقد تم الحصول عليه من مكتبة الأحقاف بتريم أحضرها مشكورا لنا ولدنا المجمل عمر بن عبدالرحمن بن طالب العطاس فجزاه الله عناخيرا وبارك فيه .

الكتاب المذكور عدد صفحاته ٧٠٨ حجم الصفحة ١٥×٢٢ وتم تصويرها بالماسح صورة طبق الأصل مكتوبه بخط نسخ جميل ، الشرح باللون

الأسود والمتن باللون الأحمر ، إلا أن بعض الكلمات لاتوجد فيها نقط مما يصعب قرآئتها وكتابتها إلا بعد إعادة الجملة كاملة عدة مرات مما يسبب لي التوقف . وفي نفس الوقت الكتاب لاتوجد به أبواب ولافصول إنما كان الشرح سرد ومستمر دون توقف أووقف فتجده عندما ينتهي من الحكمة السابقة يربطها بالحكمة التي تليها بقوله : ولذا قال المؤلف ، أوقال المؤلف وهكذا ، وقد نسختها حسب ماهي موجودة في الكتاب دون إضافة ماعدى فواصل بين المواضيع حتى يسهل التوقف عندها . وليس لي فيما كتبته إلا النقل ، فإن أصبت فهذا من فضل الله وإن أخطأت فأستغفر الله على جرأتي على كلام الصالحين ومؤلفاتهم ، إنما هذا لمحبتي فيهم ورغبتي الإنضمام في سلكهم ،ونشر مؤلفاتهم للإنتفاع بها ، وقد من الله علي بطباعة المتوفر من مؤلفات الحبيب علي بن حسن العطاس ومؤلفات أهلنا وأجدادنا وغيرهم أسأل الله الكريم أن لايحرمنا بركتهم ويفيض علينا من فائضات فهومهم .

وكان عملي فيها على النحو التالي :

ترجمة مؤجزة للمؤلف

ترجمة مختصرة للشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري

نساخة متن الحكم

عمل الحكم في الشرح بخط عريض ووضعها بين قوسين هلالين .

الآيات وضعتها بين قوسين مزخرفين ووضع رقم الآية والسورة .

عمل فهرس في آخر الكتاب . نسأل الله التوفيق والإعانة .

أحمد بن عمر بن طالب العطاس الأحساء : ١٤٣٨/٥/١٧ هـ

ترجمة موجزة عن المؤلف

نسبه : هو الإمام الشيخ العارف بالله ، مربي السالكين ، وكعبة القاصدين من المريدين ، وقبلة أرواح الواصلين ، قطب زمانه ، ووحيد عصره ، بحر المعارف والحقائق ، ومعدن الأسرار الربانية ، : أبومحمد علي بن عبدالله بن أحمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد بن عمر باراس الكندي .

ولادته ونشأته :

ولد رضي الله عنه (بحريضه) قرية من قرى وادي عمد سنة ١٠٢٧ هـ ونشأ بها ، وصحب في بدايته الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس وتربى في حجره تربية عليه أزلية ، وتعلم القرآن العظيم بحريضه على نظر شيخه المذكور ، وبعد أن ختم القرآن جعله الحبيب عمر يعلم القرآن في وادي عمد بقرن المال ، وكذلك علم في غيرها من البلدان في عمد ، ثم ارتحل إلى بلد عمد بإشارة الحبيب عمر ، وصار مدة يقرأ العلم الشريف على الفقيه العارف بالله : أحمد بن علي بابحير حتى تفقه وبرع ، وصار علما يهتدى به .

وكان كثير الأذكار ، وله حضرات وأربعينيات وخلوات في الذكر . ثم بعد ذلك سافر على قدم التجريد بإشارة شيخه الحبيب عمر قاصدا الحج والتملي بالمشاعر العظام ، وزيارة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام . ثم أنه بعد أن وصل من الحج وأتى إلى بلده حريضه لحضرة شيخه الحبيب عمر ؛ أمره بسكنى دوعن ؛ فاستعفاه من السكن بدوعن رغبة منه في مشاهدة محياه الجميل ، فقال له سيدنا عمر : إن أردت دوعن وإلا

سيرناك إلى دُهر وعرما (بضم الدال المهملة وكسر العين المهملة) فامتثل أمره ، وأمره بنشر الدعوة في جهات دوعن ، فأقبل الناس إليه من كل ناحية ، وتخرج به جماعة من أهل دوعن ، وقصده الناس للزيارة من أهل حضرموت وغيرهم ؛ من السادة القادة آل أبي علوي وسائر الناس ، وكانت هجرته من حريضه إلى الخريبة سنة ١٠٤٥ هـ .

شيوخه :

تتلمذ على كثير من العلماء منهم :

الإمام الكبير القطب الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس .

الإمام الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم .

الفقيه الشيخ العارف بالله : أحمد بن علي بابحير .

تلاميذه : وقد أخذ عنه الكثير منهم :

الإمام الحبيب الحسين بن عمر بن عبدالرحمن العطاس .

الشيخ محمد بن أحمد بامشموس .

الحبيب العلامة عبدالرحمن بن عمر البار .

الحبيب علي بن محمد باهارون .

الفقيه الشيخ عبدالله باعباد .

الشيخ العلامه عبد الله بن أحمد باهرمز .

الشيخ الإمام سهل بن أحمد بن سهل التميمي بن إسحاق .

مؤلفاته :

له الكثير من المؤلفات ، منها :

شرح الحكم العطائية (هذا الذي بين أيدينا)

مشكاة الأفكار في حقائق الأذكار
تنبيه الغافل وترقي الواصل ، شرح راتب الحبيب عمر العطاس
فتح الوهاب في كلام السادة الأحباب
شيم الحسن الأنيق ؛ شرح قصيدة لبامخرمه
شرح قصيدة الشيخ أبي بكر اﻻلعيدروس
شرح على همزية الشيخ بن حمرطاس
له نبذة في آداب الذكر وشروطه ، وآداب التلقين وطريق أهله وما اصطلحوا عليه في ذلك .
الروضة الخضراء شرح قصيدة لأبي مدين شعيب
له وصايا نافعة
له تائية عظيمة
له شرح على قصيدة للسودي .
وفاته :
كانت وفاته في الخريبة يوم الأربعاء شهر ربيع الأول سنة ١٠٩٤هـ . رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه فسيح الجنان ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .
المؤلفات المذكورة قليلة التواجد ولم نطلع عليها ، ونسأل الله أن يوفق أحفاده ومجبي العلم بالحفاظ عليها إن وجدت عندهم للإستفادة حتى لاتضيع كما ضاعت غيرها من المؤلفات القيمة لسلفنا وذلك بقصد النفع والإنتفاع .
هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

نبذة مختصرة عن مؤلف كتاب الحكم

هو تاج الدين أبو الفضل : أحمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالله بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي نسبا ،

ولد بالأسكندرية حوالي عام ٦٥٨هـ ونشأ كجده لوالده الشيخ أبي محمد عبدالكريم ابن عطاء الله فقيها يشتغل بالعلوم الشرعية حيث تلقى منذ صباه العلوم الدينية والشرعية واللغوية .

صحب الشيخ أبو العباس المرسي واستمع إليه بالأسكندرية ، وأصبح من أوائل مريديه ، ثم تدرج في منازل العلم والمعرفة حتى قال عنه شيخه أبوالعباس : والله لايموت هذا الشاب حتى يكون داعيا إلى الله وموصلا إلى الله ، والله ليكونن له شان عظيم ، فكان كما أخبر .

له مؤلفات كثيرة تنيف على عشرة ، من ضمنها : الحكم العطائية على لسان أهل الطريقة هذا الذي بين أيدينا وهي من أهم كتبه ، وقد حظيت بقبول وانتشارا كبيرا حتى قيل عنها : لوجازت الصلاة بشئ غير القرآن لجازت بحكم ابن عطاء الله .

توفي الشيخ ابن عطاء الله كهلا بالمنصورة في القاهرة سنة ٧٠٩هـ ودفن بمقبرة المقطم بسفح الجبل بزاويته التي كان يتعبد فيها .

اللهم انشر نفحات الرضوان عليه ، وأمدنا بالأسرار التي أودعتها لديه

متن الحكم العطائية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن عطاء الله السكندري رضي الله تعالى عنه :

١ - من علامة الإعتماد على العمل ؛ نقصان الرجاء عند وجود الزلل .

٢ - إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب ؛ من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد إنحطاط عن الهمة العلية .

٣ – سوابق الهمم لاتخترق أسوار الأقدار .

٤ – أرح نفسك من التدبير ؛ فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك .

٥ – إجتهادك فيما ضمن لك ؛ وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك .

٦ – لايكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجب ليأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك ؛ لافيما تختاره لنفسك ، وفي الوقت الذي يريد لافي الوقت الذي تريد .

٧ – لايشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه ، لئلا يكون قدحا في بصيرتك ، وإخمادا لنور سريرتك .

٨ – إذا فتح لك وجهة من التعرف ؛ فلاتسأل معها إن قل عملك ، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك . ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ؛ والأعمال أنت موردها إليه ! وأين ماتهديه إليه مما هو مورده عليك ؟

٩ – تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال .

١٠ – الأعمال صور قائمة ؛ وأرواحها سر الإخلاص فيها .
١١ – أدفن وجودك في أرض الخمول ؛ فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه .
١٢ - مانفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكره .
١٣ – كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ! أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ! أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ! أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته !
١٤ – الكون كله ظلمة ؛ وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أوعنده أوقبله أوبعده ؛ فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار .
١٥ – مما يدلك على وجود قهره سبحانه ؛ أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه .
١٦ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ماكان وجود كل شيء ؟ ياعجبا ! كيف يظهر الوجود في العدم !؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم ! ؟

١٧ – ماترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه .

١٨ – إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس .

١٩ – لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ؛ فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج .

٢٠ – ما أرادت همة سالك أن تقف عند ماكشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ، ولاتبرجت له ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلاتكفر.

٢١ – طلبك منه إتهام له ، وطلبك له غيبة منك عنه ، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه .

٢٢ – ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه .

٢٣ – لاتترقب فراغ الأغيار ؛ فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه .

٢٤ – لاتستغرب وقوع الأكدار مادمت في هذه الدار ، فإنها ما أبرزت إلا ماهو مستحق وصفها ، وواجب نعتها .

٢٥ – ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولاتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك .

٢٦ – من علامات النجح في النهايات ؛ الرجوع إلى الله في البدايات .

٢٧ – من أشرقت بدايته ؛ حسنت نهايته .

٢٨ – ما استودع في غيب السرائر ؛ ظهر في شهادة الظواهر .

٢٩ – شتان بين من يستدل به أويستدل عليه ؛ المستدل به عرف الحق لأهله ، فأثبت الأمر من وجود أصله ؛ والإستدلال عليه من عدم الوصول إليه . وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه ! ؟

٣٠ – لينفق ذو سعة من سعته : الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه : السائرون إليه .

٣١ – اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة . فالأولون للأنوار ؛ وهو الأنوار لهم لأنهم لله لالشيء دونه . **{ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون }** .

٣٢ – تشوفك إلى مابطن فيك من العيوب ؛ خير لك من تشوفك إلى ماحجب عنك من الغيوب .

٣٣ – الحق ليس بمحجوب ؛ وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لوحجبه شيء لستره ماحجبه . ولو كان له ساتر لكان وجود حاصر ، وكل حاصر لشيء فهوله قاهر ، وهو القاهر فوق عباده .

٣٤ – أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ؛ لتكون لنداء الحق مجيبا ، ومن حضرته قريبا .

٣٥ – أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها . ولأن تصحب جاهلا لايرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأي جهل لجاهل لايرضى عن نفسه !؟

٣٦ – شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ؛ وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده ؛ لاعدمك ولا وجودك .
٣٧ – كان الله ولاشيء معه ، وهو الآن على ماعليه كان .
٣٨ – لاتتعدى نية همتك إلى غيره ، فالكريم لاتتخطاه الآمال .
٣٩ – لاترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره ماكان هو له واضعا ! ؟ من لايستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا ؟
٤٠ – إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه ؛ فحسن ظنك به لأجل معاملته معك ، فهل عودك إلا حسنا ؟ ! وهل أسدى إليك إلا مننا ! ؟
٤١ – العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه ، ويطلب مالابقاء معه **{ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور }**
٤٢ – لاترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى ؛ يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ، ولكن إرحل من الأكوان إلى المكون **{ وأن إلى ربك المنتهى }** وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم **" فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ؛ أوامرأة يتزوجها ؛ فهجرته إلى ماهاجر إليه "** فافهم قوله عليه الصلاة والسلام ، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم ، والسلام .
٤٣ – لاتصحب من لاينهضك حاله ؛ ولايدلك على الله مقاله .
٤٤ – ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان منك صحبتك من هو أسوأ حالا منك .

٤٥ – ما قل عمل من قلب زاهد ، ولاكثر عمل برز من قلب راغب .

٤٦ – حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق في مقامات الإنزال .

٤٧ – لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة ؛ إلى ذكر مع وجود يقظه . ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة ؛ عما سوى المذكور ، وماذلك على الله بعزيز .

٤٨ – من علامات موت القلب عدم الحزن على مافاتك من الموافقات ؛ وترك الندم على مافعلته من وجود الزلات .

٤٩ – لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ؛ فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه .

٥٠ – لاصغيرة إذا قابلك عدله ؛ ولاكبيرة إذا واجهك فضله .

٥١ – لاعمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ؛ ويحتقر عندك وجوده .

٥٢ – إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا .

٥٣ – أورد عليك الوارد ليستعملك من يد الأغيار ، ويحررك من رق الآثار .

٥٤ – أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك .

٥٥ – الأنوار مطايا القلوب والأسرار .

٥٦ – النور جند القلب ؛ كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار ، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار .
٥٧ – النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإقبال والإدبار .
٥٨ – لاتفرحك طاعة لأنها برزت منك ؛ وافرح بها لأنها برزت من الله إليك **{ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون }**
٥٩ – قطع السائرون له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم . أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها ؛ وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها .
٦٠ – مابسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع .
٦١ – ماقادك شيء مثل الوهم .
٦٢ – أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع .
٦٣ – من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان ؛ قيد إليه بسلاسل الإمتحان .
٦٤ – من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .
٦٥ – خف من وجود إحسانه إليك ؛ ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجا لك **{ سنستدرجهم من حيث لايعلمون }**
٦٦ – من جهل المريد أن يسيئ الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول : لوكان هذا سوء أدب لقطع الإمداد ؛ وأوجب الإبعاد ، فقد يقطع المدد عنه من

حيث لايشعر ، ولو لم يكن إلا منع المزيد . وقد يقام مقام البعد وهو لايدري ، ولولم يكن إلا أن يخليك وماتريد .

٦٧ – إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الإمداد ؛ فلا تستحقرن مامنحه مولاه ، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ، ولابهجة المحبين ، فلو لا وارد ماكان ورد .

٦٨ – قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته **{ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا }**

٦٩ – قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة ؛ لئلا يدعيها العباد بوجود الإستعداد .

٧٠ – من رأيته مجيبا عن كل ماسئل ؛ ومعبرا عن كل ماشهد ؛ وذاكرا كل ماعلم ، فاستدل بذلك على وجود جهله .

٧١ – إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ؛ لأن هذه الدار لاتسع مايريد أن يعطيهم ، ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لابقاء لها .

٧٢ – من وجد ثمرة عمله عاجلا ؛ فهو دليل على وجود القبول آجلا .

٧٣ – إذا أردت أن تعرف قدرك عنده ؛ فانظر فيما يقيمك .

٧٤ – متى رزقك الطاعة والغنى به عنها ؛ فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة .

٧٥ – خير ماتطلبه منه ؛ ماهو طالبه منك .

٧٦ الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليه من علامات الإغترار .

٧٧ – ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته ؛ بل العارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده ، وانطوائه في شهوده .

٧٨ – الرجاء ماقارنه عمل ؛ وإلا فهو أمنية .

٧٩ – مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية .

٨٠ – بسطك كيلا يبقيك مع القبض ؛ وقبضك كيلا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كيلا تكون لشيء دونه .

٨١ – العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذاقبضوا ، ولايقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل .

٨٢ – البسط تأخذ النفس منه حظها ، والقبض لاحظ للنفس فيه .

٨٣ – ربما أعطاك فمنعك ؛ وربما منعك وأعطاك .

٨٤ – متى فتح باب الفهم ؛ عاد المنع عين العطاء .

٨٥ – الأكوان ظاهرها غرة ؛ وباطنها عبرة . فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها ؛ والقلب ينظر إلى باطن عبرتها .

٨٦ – إن أردت أن يكون لك عز لايفنى ؛ فلا تستعز بعز يفنى .

٨٧ – الطي الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك ؛ حتى ترى الآخرة أقرب منك .

٨٨ – العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان .

٨٩ – جل ربنا أن يعامله العبد نقدا ؛ فيجازيه نسيئة .

٩٠ – كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا .

٩١ – كفى العاملين جزاء ماهو فاتحه على قلوبهم في طاعته ، وماهو مورده عليهم من وجود مؤانسته .

٩٢ – من عبده لشيء يرجوه منه ؛ أوليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه ؛ فما قام بحق أوصافه .

٩٣ – متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرف إليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك .

٩٤ – إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه .

٩٥ – ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا في الوصول .

٩٦ – معصية أورثت ذلا وافتقارا ؛ خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا .

٩٧ – نعمتان ماخرج موجود عنهما ؛ ولابد لكل مكون عنهما ؛ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد .

٩٨ – أنعم عليك بالإيجاد ؛ وثانيا بتوالي الإمداد .

٩٩ – فاقتك لك ذاتية ؛ وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها ، والفاقة الذاتية لاترفعها العوارض .

١٠٠- خير أوقاتك ؛ وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وترد فيه إلى رجوع ذلتك .

١٠١- متى أوحشك من خلقه ؛ فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به .

١٠٢ – متى أطلق لسانك بالطلب ؛ فاعلم أنه يريد أن يعطيك .

١٠٣ – العارف لايزول اضطراره ؛ ولايكون مع غير الله قراره .
١٠٤ – أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وأنار السرائر بأنوار أوصافه . لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ؛ ولم تأفل أنوار القلوب ، ولذلك قيل : إن شمس النهار تغرب بالليل ، وشمس القلوب ليست تغيب .
١٠٥ – ليخفف ألم البلاء عنك ؛ علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك ، فالذي واجهتك منه الأقدار ؛ هو الذي عودك حسن الإختيار .
١٠٦ – من ظن انفكاك لطفه عن قدره ؛ فذلك لقصور نظره .
١٠٧ – لايخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ؛ وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك .
١٠٨ – سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية .
١٠٩ – لاتطالب ربك بتأخر مطلبك ؛ ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك .
١١٠ – متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره ، ورزقك في الباطن الإستسلام لقهره ، فقد أعظم المنة عليك .
١١١ – ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه .
١١٢ – لايستحقر الورد إلا جهول : الوارد يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار ، وأولى مايعتنى به مالايخلف وجوده . الورد هو طالبه منك ؛ والوارد أنت تطلبه منه . وأين ماهو طالبه منك مما هو مطلبك منه . ؟!

١١٣ – ورود الإمداد بحسب الإستعداد ، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار .

١١٤ – الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل ؟ والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به ؟

١١٥ – إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شيء ؛ لغيبتهم عن الله في كل شيء . فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء .

١١٦ – أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته ، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته .

١١٧ – علم منك أنك لاتصبر عنه ؛ فأشهدك مابرز منه .

١١٨- لما علم الحق منك وجود ملل لون لك الطاعات ، وعلم مافيك من وجود الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات ؛ ليكون همك إقامة الصلاة لاوجود الصلاة ، فما كل مصل مقيم .

١١٩ – الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب .

١٢٠ – الصلاة محل المناجاة ، ومعدن المصافاة : تتسع فيها ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار . علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها ، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها .

١٢١ – متى طلبت عوضا على عمل طولبت بوجود الصدق فيه ؛ ويكفي المريد وجدان السلامة .

١٢٢ – لاتطلب عوضا على عمل لست له فاعلا ؛ يكفي من الجزاء لك على العمل إن كان له قابلا .

١٢٣ – إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك .
١٢٤ – لانهاية لمقامك إن أرجعت إليك ، ولاتفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك .
١٢٥ – كن بأوصاف ربوبيته متعلقا ؛ وبأوصاف عبوديتك متحققا .
١٢٦ – منعك أن تدعي ماليس لك مما للمخلوقين ؛ أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالين ؟
١٢٧ – كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد ،
١٢٨ – ما الشأن وجود الطلب ؛ إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب .
١٢٩ – ماطلب لك شيء مثل الإضطرار ، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذل والإفتقار .
١٣٠ – لو أنك لاتصل إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا . ولكن إذا أردت أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعمته ، فوصلك إليه مما منه إليك لابما منك إليه .
١٣١ – لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول .
١٣٢ – أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته .
١٣٣ – الستر على قسمين : ستر عن المعصية وستر فيها ، فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق ، والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق .
١٣٤ – من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ؛ ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك .

١٣٥ – ماصحبك وهو بعيبك عليم ؛ وليس ذلك إلا مولاك الكريم ، خير من تصحب من يطلبك لالشيء يعود منك إليه .

١٣٦ – لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها .

١٣٧ – ماحجبك من الله وجود موجود معه ؛ ولكن حجبك عنه توهم موجود معه .

١٣٨ – لولا ظهوره في المكونات ماوقع عليها وجود إبصار ، لوظهرت صفاته اضمحلت مكوناته .

١٣٩ – أظهر كل شيء لأنه الباطن ، طوى وجود كل شيء لأنه الظاهر .

١٤٠ – أباح لك أن تنظر مافي المكونات ؛ وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات **{ قل انظروا ماذا في السموات }** فتح لك باب الإفهام ولم يقل : انظر السموات ؛ لئلا يدلك على وجود الأجرام .

١٤١ – الأكوان ثابتة بإثباته ، وممحوة بأحدية ذاته .

١٤٢ – الناس يمدحونك لما يظنون فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها .

١٤٣ – المؤمن إذا مدح استحيا من الله أن يثني عليه بوصف لايشهده من نفسه .

١٤٤ – أجهل الناس من ترك يقين ماعنده لظن ماعند الناس .

١٤٥ – إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل ؛ فأثن عليه بما هو أهله .

١٤٦ – الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الحق ، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الحق .
١٤٧ – متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء ؛ وإذا منعت قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك ؛ وعدم صدقك في عبوديتك .
١٤٨ – إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا ليأسك من حصول الإستقامة مع ربك ، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك .
١٤٩ – إذا أردت أن يفتح عليك باب الرجاء ؛ فاشهد ما منه إليك ، وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه .
١٥٠ – ربما أفادك في ليل القبض مالم تستفده في إشراق البسط { **لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا** }
١٥١ – مطالع الأنوار ؛ القلوب والأسرار .
١٥٢ – نور مستودع في القلوب مدده من الورد الوارد من خزائن الغيوب .
١٥٣ – نور يكشف لك به آثاره ؛ ونور يكشف لك به عن أوصافه .
١٥٤ – ربما وقفت القلوب مع الأنوار ؛ كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار .
١٥٥ – ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ؛ إجلالا لها أن تبتذل بوجود الإظهار ، وأن ينادى عليها بلسان الإشتهار .
١٥٦ – سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه .

١٥٧ – ربما أطلعك على غيب ملكوته ، وحجب عليك الإستشراف على أسرار العباد .

١٥٨ – من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية ؛ كان اطلاعه فتنة عليه ؛ وسببا لجر الوبال إليه .

١٥٩ – حظ النفس في المعصية ظاهر جلي ، وحظها في الطاعة باطن خفي ، ومداواة مايخفى صعب علاجه .

١٦٠ – ربما دخل الرياء عليك من حيث لاينظر الخلق إليك .

١٦١ – استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك ؛ دليل على عدم صدقك في عبوديتك .

١٦٢ – غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك .

١٦٣ – من عرف الحق شهده في كل شيء ، ومن فني به غاب عن كل شيء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا .

١٦٤ – إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك .

١٦٥ – إنما احتجب لشدة ظهوره ؛ وخفي عن الأبصار لعظم نوره .

١٦٦ – لايكن طلبك تسببا إلى العطاء منه ؛ فيقل فهمك عنه ، وليكن طلبك لإظهار العبودية ؛ وقياما بحق الربوبية .

١٦٧ – كيف يكون طلبك اللاحق سببا في عطائه السابق ! ؟

١٦٨ – جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل .

١٦٩ – عنايته فيك لا لشيء منك . وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته ؟ لم يكن في أزله إخلاص العمل ؛ ولاوجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ، وعظيم النوال .

١٧٠ – علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية ، فقال **{ يختص برحمته من يشاء }** وعلم لوخلاهم وذلك ؛ لتركوا العمل اعتمادا على الأزل ، فقال **{ إن رحمة الله قريب من المحسنين }**

١٧١ – إلى المشيئة يستند كل شيء ؛ ولاتستند هي إلى شيء .

١٧٢ – ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته ، واشتغالا بذكره عن مسألته .

١٧٣ – إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال ؛ وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال .

١٧٤ – ورود الفاقات أعياد المريدين .

١٧٥ – ربما وجدت من المزيد من الفاقات مالاتجده في الصوم والصلاة .

١٧٦ – الفاقات بسط المواهب .

١٧٧ – إن أردت ورود المواهب عليك ؛ صحح الفقر والفاقة لديك **{ إنما الصدقات للفقراء }**

١٧٨ – تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزه ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته .

١٧٩ – ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الإستقامة .

١٨٠ – من علامات إقامة الحق لك في الشيء ؛ إقامته إياك فيه مع حصول النتائج .

١٨١ – من عبر من بساط إحسانه ؛ أصمتته الإساءة ، ومن عبر من إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء .
١٨٢ – تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ؛ فحيث صار التنوير وصل التعبير .
١٨٣ – كل كلام برز وعليه كسوة القلب الذي منه برز .
١٨٤ – من أذن له في التعبير ؛ فهمت في مسامع الخلق عبارته ، وجليت إليهم إشارته .
١٨٥ – ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ؛ إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار .
١٨٦ – عباراتهم إما لفيضان وجد ؛ أولقصد هداية مريد . فالأول حال السالكين ؛ والثاني حال أرباب المكنة والمحققين .
١٨٧ – العبارات قوت لعائلة المستمعين ؛ وليس لك إلا ما أنت له آكل .
١٨٨ – ربما عرض عن المقام من استشرف عليه ؛ وربما عبر عنه من وصل إليه ، وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة .
١٨٩ – لاينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته ؛ فإن ذلك يقل عملها ويمنعه وجود الصدق مع ربه .
١٩٠ – لاتمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق ؛ إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك ، فإذا كنت كذلك فخذ ماوافقك العلم .
١٩١ – ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه لإكتفائه بمشيئته ؛ فكيف لايستحي أن يرفعها إلى خليقته ؟ !
١٩٢ – إذا التبس عليك أمران ؛ فانظر أثقلهما على النفس ، فإنه لايثقل عليها إلا ماكان حقا .

١٩٣ – من علامات اتباع الهوى ؛ المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات .

١٩٤ – قيد الطاعات بأعيان الأوقات كي لايمنعك عنها وجود التسويف ، ووسع عليك الوقت كي تبقى لك حصة الإختيار .

١٩٥ – علم الله نهوض العباد إلى معاملته ؛ فأوجب عليهم وجود طاعته ، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب . عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل .

١٩٦ – أوجب عليك وجود خدمته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته .

١٩٧ – من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ؛ وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية . **{ وكان الله على كل شيء مقتدرا }**

١٩٨ – ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما من به عليك .

١٩٩ – من لم يعرف قدر النعم بوجدانها ؛ عرفها بوجود فقدانها .

٢٠٠ – لاتدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ؛ فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك .

٢٠١ – تمكن حلاوة الهوى من القلب ؛ هو الداء العضال .

٢٠٢ – لايخرج الشهوة عن القلب إلا خوف مزعج ؛ أوشوق مقلق .

٢٠٣ - كما لايحب العمل المشترك ؛ كذلك لايحب القلب المشترك ، العمل المشترك لايقبله ؛ والقلب المشترك لايقبل عليه .

٢٠٤ – أنوار أذن لها في الوصول ؛ وأنوار أذن لها في الدخول .

٢٠٥ – ربما وردت عليك الأنوار فوجدت قلبك محشوا بصور الآثار ؛ فارتحلت من حيث نزلت .
٢٠٦ – فرغ قلبك عن الأغيار ؛ يملأه بالمعارف والأسرار .
٢٠٧ – لاتستبطئ منه النوال ؛ ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال .
٢٠٨ – حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها ؛ وحقوق الأوقات لايمكن قضاؤها . إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد ؛ وأمر أكيد ، فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقضي حق الله فيه ؟ !
٢٠٩ – مافات من عمرك لاعوض له ؛ وماحصل لك منه لاقيمة له .
٢١٠ – ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا ؛ وهو لايحب أن تكون لغيره عبدا .
٢١١ – لاتنفعه طاعتك ؛ ولاتضره معصيتك ، وإنما أمرك بهذه ؛ ونهاك عن هذه لما يعود عليك .
٢١٢ – لايزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ؛ ولاينقص من عزه إدبار من أدبر عنه .
٢١٣ – وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ؛ وإلا فجل ربنا أن يتصل به شيء أويصل إليه بشيء .
٢١٤ – قربك منه أن تكون مشاهدا لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟ !
٢١٥ – الحقائق ترد في حال التجلي مجملة ؛ وبعد الوعي يكون البيان ، **{ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه }**

٢١٦ – متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد عليك **{ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها }**

٢١٧ – الوارد يأتي من حضرة قهار ؛ لأجل ذلك لايصادفه شيء إلا دمغه : **{ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق }**

٢١٨ – كيف يحتجب الحق بشيء ؛ والذي يحتجب به هو ظاهر ؛ وموجود حاضر .

٢١٩ – لاتيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور ، فربما قبل من العمل مالم تدرك ثمرته عاجلا .

٢٢٠ – لاتزكين وارادا لاتعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الأمطار ؛ وإنما المراد منها وجود الأثمار .

٢٢١ – لاتطلبن بقاء الواردات بعد ان بسطت أنوارها ؛ وأودعت أسرارها ، فلك في الله غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عنه شيء .

٢٢٢ – تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له ، واستجابتك لفقدان ماسواه دليل على عدم وصلتك به .

٢٢٣ – النعيم وإن تنوعت مظاهره ؛ إنما هو لشهوده واقترابه ، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه . فسبب العذاب وجود الحجاب ؛ وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم .

٢٢٤ – ماتجده من الهموم والأحزان ؛ فلأجل ما منعته من وجود العيان .

٢٢٥ – من تمام النعمة عليك ؛ أن يرزقك مايكفيك ، ويمنعك مايطغيك .

٢٢٦ – ليقل ماتفرح به ؛ يقل ماتحزن عليه .
٢٢٧ – إن أردت ألا تعزل ؛ فلاتتول ولاية لاتدوم لك .
٢٢٨ – إن رغبتك البدايات ؛ زهدتك النهايات ، إن دعاك إليه ظاهر ؛ نهاك عنها باطن .
٢٢٩ – إنما جعلها محلا للأغيار ، ومعدنا للأكدار ؛ تزهيدا لك فيها .
٢٣٠- علم أنك لاتقبل النصح المجرد ؛ فذوقك من ذواقها ماسهل عليك وجود فراقها .
٢٣١ – العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه ؛ وينكشف به عن القلب قناعه .
٢٣٢ – خير العلم ماكانت الخشية معه .
٢٣٣ – العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك .
٢٣٤ – متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ؛ أوتوجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لايقنعك علمه ؛ فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم .
٢٣٥ – إنما أجرى الأذى على أيديهم كي لاتكون ساكنا إليهم . أراد أن يزعجك عن كل شيء ؛ حتى لايشغلك عنه شيء .
٢٣٦ – إذا علمت أن الشيطان لايغفل عنك ؛ فلاتغفل أنت عمن ناصيتك بيده .
٢٣٧ – جعله لك عدوا ليحوشك به إليه ؛ وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه .

٢٣٨ – من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر ؛ إذ ليس التواضع إلا عن رفعة ، فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر حقا .

٢٣٩ – ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ماصنع ، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ماصنع .

٢٤٠ – التواضع الحقيقي هو ماكان ناشئا عن شهود عظمته ؛ وتجلي صفته .

٢٤١ – لايخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف .

٢٤٢ – المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرا ؛ وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا .

٢٤٣ – ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضا ؛ أويطلب منه غرضا ، فإن المحب من يبذل ذلك ؛ ليس المحب من تبذل له .

٢٤٤ – لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين . إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها ، ولاقطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك .

٢٤٥ – جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ؛ ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنت جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوناته .

٢٤٦ – إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك ؛ ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك .

٢٤٧ – الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب ؛ مسجون بمحيطاته ، ومحصور في هيكل ذاته .

٢٤٨ – أنت من الأكوان مالم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك .

٢٤٩ – لايلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ؛ إنما الخصوصية كإشراق شمس النهار ، ظهرت في الآفاق وليست منه : تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك ، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك وإليك ؛ ولكنه وارد عليك .

٢٥٠ – دل وجود آثاره على وجود أسمائه ؛ ووجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته ؛ إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه . فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ، ثم يردهم إلى شهود صفاته ، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه ، ثم يردهم إلى شهود آثاره ؛ والسالكين على عكس هذا . فنهاية السالكين بداية المجذوبين ، وبداية السالكين نهاية المجذوبين لكن بمعنى واحد . فربما التقيا في الطريق : هذا في ترقيه وهذا في تدليه .

٢٥١ – لايعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت ، كما لاتظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك .

٢٥٢ – وجدان ثمرات الطاعات عاجلا ؛ بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا .

٢٥٣ – كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك ؟ .

٢٥٤ – قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم ، وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم ، وقوم لا أذكار ولا أنوار ؛ نعوذ بالله من ذلك .

٢٥٥ – ذاكر ذكر ليستنير قلبه ؛ وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا . والذي استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدى ؛ وبنوره يقتدى .

٢٥٦ – ماكان ظاهر ذكر ؛ إلا عن باطن شهود وفكر .

٢٥٧ – أشهدك من قبل أن يستشهدك فنطقت بإلاهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر .

٢٥٨ – أكرمك بكرامات ثلاث : جعلك ذاكر له ؛ ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك ، وجعلك مذكورا به إذ حقق نسبته لديك ، وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك .

٢٥٩ – رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده ، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده .

٢٦٠ – من بورك له في عمره ؛ أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولاتلحقه الإشارة .

٢٦١ – الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لاتتوجه إليه ، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه .

٢٦٢ – الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار .

٢٦٣ – الفكرة سراج القلب ؛ فإذا امتنعت فلا إضاءة له .

٢٦٤ – الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ؛ وفكرة جهود وعيان . فالأولى لأرباب الإعتبار ، والثانية لأرباب الشهود والإستبصار .

تمت وبالخير عمت

كان الفراغ من نقلها صباح الخميس ١٤٣٧/١٢/٧هـ بالأحساء

كتاب

شرح الحكم العطائية

لسيدنا الشيخ العلامة بركة السلف وعمدة الخلف
شيخ الطريقة وبحر الحقيقة الشيخ
علي بن عبدالله باراس
نفعنا الله به وسائر علومه آمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

اعتنى به
أحمد بن عمر بن طالب العطاس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله منور الظلم ، ومظهر الوجود من العدم ، الموصوف بالقدم ، ومفجر ينابيع الحكم ، من خضم تيار الكرم ، وممنح من اختصه من البرايا بمزيد العطايا المكنونة في خزائن الحكم ، وشرح صدور ذوي الإختصاص بالتنزه في فسيح صفيح سروح شروح رياض الحكم ، فتبادرت جياد عتاد أرواحهم ؛ وطوالع بوالغ هممهم بمطالعة أسرار القدم ، فوقعت عندما شهدت ذلك في يم العدم . فصادها ماتوهمت اصطياده فرجع كل فصل لفصله ، فصدق عن كشف تحقيق ليس كمثله . والصلاة والسلام المتصلان بدوام تجلياته ، بأحدية ذاته ، المستمران بمظاهر جماله وجلاله ، السائران الظاهران على خفايا وظواهر آياته ، ذاتا وصفاتا وأفعالا على درة صدفة الوجود ، ومحتد مقامات الشهود ، وأصل كل موجود ؛ أول من أومت روحه في الوجود لله بالسجود ، فتوجهت الأرواح الجمالية إليه ، فوجدت لها إماما ، ومن الفتن والأهوى لها هداية وعصاما ، سيدنا محمد الحامد بجوامع المحامد ، ورسوله الداعي إلى أكمل المقاصد . عبدالله ونعم العبد ، سيد ولد آدم ، الناطق بالقول الأقوم ، والقائم بدائرة الإسم الأعظم ، المؤتى جوامع الكلم ، الذي أبان الله به الوجود من العدم . وعلى آله ثمرة دوحته النبوية ، وبروج شمسه الخفية ، برازح النشأتين ، وخلاصة الصفوتين . وأصحابه كذلك ، كما اختصهم الله لذلك ، وأهلهم لماهنالك . نجوم هدايته ، وبدور ولايته ، وشموس عنايته . وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادته لنفسه والملائكة وأولوا العلم من خلقه .

أمابعد : فإني استخرت الله سبحانه بعد أن صدرت إلي إشاره ؛ في طيها بشارة . من صدر زمانه ؛ وقطب أوانه ، العارف بالله ذوقا وكشفا وتحققا وعلما ، سيدي عمر بن عبدالرحمن بن عقيل بن سالم بن عبدالله باعلوي السقاف ؛ أن أضع تعليقا لطيفا على كتاب الحكم ، للشيخ العارف بالله : عبدالكريم ابن عطاء الله الشاذلي الأسكندري نفع الله به وبعلومه ، وأبان لنا من لوائح فهومه ، مايكشف لنا ولكل مسترشد إلى طريقه ؛ عن غوامض إشاراته ورموزه ، ويفتح لنا ماتضمنه كلامه من الحقائق واللطائف والرقائق . فوجدت عند ذلك أثر الإستخارة ، بركة قبول الإشارة ، فقدمت معتمدا على ماينقدح بنور الفهم . ولم أكن بعد قد وقفت لهذا الكتاب على شرح غير شرح الشيخ محمد بن إبراهيم ابن عباد النفري ، فجعلت في بعض ما أضعه كلامه أولا لأويد كلامنا أسا ، وقد كان كثيرا يعرض واضحات النقول ، وجليات المعقول . وأنا منتظر مايلقا في الفؤاد من لوائح الوداد ، فيكون أخذه بلاتقليد ؛ وهو الذي نريد . فتكلمنا بحسب مايظهر لنا من لوائحه ، متيمين ببركاتهم الشاملة ، ومستنزلين المواهب والفتوح من سماء ساميات أسرارهم القدسية ، ومتهدفين للألطاف والمنوح بالإنتماء إلى مذاهبهم ، ومتمسكين بأذيال طرائقهم ، ومتعرضين لإستعطاف ألطاف مصونات حقائقهم . مع اعترافنا بالقصور عن شأوهم وعزيز منالهم ، مستشفعين بهم إلى الله في أن ينيلنا عزيز وصالهم ، وطالبين من جدواهم كل منحة ، ونستمطر التحقيق من سحب أقوالهم وشريف أحوالهم ، ونستنشق الأنفاس العلوية في كل نفحة ، ونستهدي التوفيق في كل ماينسب إلينا من قول وفعل ونية . ونسأل

الله أن يجعلنا ممن سمع الخطاب فوعى ؛ وشهد التحقيق فدعا إلى الله على بصيرة ، وصفو سريرة ، ومحجة منيرة . ويوفقنا لحسن الإتباع ، ويجنبنا الزيغ والإبتداع . وأن يجعلني مترجما لامتحكما بنفسي ، وأن ينفعني والمسلمين بما أوردته في هذا الكتاب وغيره من كل فعل وخطاب ، وأن يجعله لنا حجة يوم الحساب ، ومحجة إلى كشف الحجاب . وأن يجعلنا ناطقين بالصواب ، وأن يجمعنا مع الأحباب ؛ مع النبيين وخواص المقربين من الأقطاب ، والأئمة والأوتاد والبدلاء والأنجاب ، ومشايخنا في الدين ، ومن والانا فيك وواليناه والقرابات والأصهار والأنساب ، وأن يعم بنفعه كل طالب منيب أواب . ولي في ذلك شعرا :

كل الوجـــود مشير إن رأيت إلى   نحو الأحبة دونك هذه الخـــيم

واسمع خطاب نداء الحق المبين ولا   يدخلك ريب بما في مجمع الكلـم

ففي الصدور سطور النور منه عـلى   صفائح النفس أسرار من القدم

إذا بدا ذاك نار الكون منه فـــلا   غير يرى عزه من سائـر الأمـم

وكان هذا أوان ابتداؤنا في شرح كلام المؤلف رضي الله عنه ، مستعينا بالله ومتوكلا عليه ، ومستندا في أموري إليه . فمن وجد في كتابي هذا لفظا أومعنى مخالفا لما عليه أهل السنة والجماعة ؛ فأنا برئ عن ذلك المقال ، وهذا أس المقال ؛ إذ قال المؤلف رضي الله عنه :

(من علامات الإعتماد على العمل ؛ نقصان الرجاء عند وجود الزلل)

هذه علامة كافية ، ودلالة وافية . وهذه أحد علامات الإعتماد على العمل ؛ وله علامات ودلائل يطول تعدادها ؛ ومن جملتها : الإدلال وازدراء من لم يعمل بمثله ، إلى غير ذلك . والفرق بين من يعتمد على الله

دون علمه وعمله أنه لو بات قائما وغيره نائما إلى الصباح لم ير نفسه عليه بمزيد ، وهي للواقف على عمله وعلمه وجميع ما منه دون الإعتماد على الله ؛ علامة حجابه ، ووقوفه دون محض العبودية على مقتضى طبعه . وطلب حظه من نيل ثواب ؛ والهروب من العذاب . وهذه العلل تناقض العبودية .

وأما العارفين والسادات المقربين قصروا نظرهم وعكفوا بهممهم على امتثال أمرسيدهم دون حظ عاجل وجزاء آجل ، فهم مع الله ذاتا وصفاتا وأفعالا ، وفي جميع حركاتهم كائنة ماكانت ، فإن كان مايصدر منهم من قبيل الموافقات استغرقهم جماله وحسن أفعاله ، ومع ذلك تصحبهم هيبة سطوات جلاله . لأنه حيث ظهر وصف الجمال فالجلال باطن ، وحيث ظهر سلطان الجلال فالجمال باطن ؛ لذلك لاينفك جلاله . فأورث لهم حالات سنية ، ومقامات عليه ؛ كالحياء والرهبة والإلتجاء والخشية ، والإنطواء تحت سلطان الرهبوت . وإن أقامهم في تجلي جماله أسكرهم شراب جماله ، وأذهلهم لذيذ وصاله ، وأدهشهم كماله . فانبعثت منهم القوى الباطنة ، والحركات الظاهرة بمقتضى الشكر من خالص ذكر وصافي فكر، بين روح مشاهدة الجمال وتهذيب الجلال . وحيث سمعت بزلة أوهفوة صدرت في عبارة ؛ فاعلم أن زلات العارفين وهفواتهم غالبا في الرخص والمباحات ، وعلى الندور تكون في كبيرة . وحيث كانت فهم يطالعون سابق العلم على علم منهم قبل وقوعها على يدهم أنها ستكون ، ولابد أما بأن يشهدون ذلك في أم الكتاب مسطرا ويحدثون به بلا امترا ، ولكن الله يقرن لهم البشرى بقبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم . فلذلك حج آدم

موسى كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو لم يكن ذلك لذابت أرواحهم وتلاشت أشباحهم حبا وتعظيما . وحال وقوعهم فيها وصدورها عنهم يحجبون عن شهود العلم ، وإلا لم يتمكنوا من فعلها ليقضي الله أمرا كان مفعولا . فمراتبهم تعطيهم التعظيم والإجلال ؛ كما يكون لغيرهم من الخوف والإذلال ، خارجين عن كونهم بأنفسهم قائمين ، وعن حولهم وقوتهم متبرئين ؛ في جميع مايصدر منهم وعنهم . وكيف يشهدون ذواتهم وصفاتهم ؛ فضلا عن أفعالهم وهم متلاشين بين مشرقات جماله ، ومضمحلين تحت محرقات جلاله ، فإن أشهدهم ذاته غيبهم عن ذواتهم ، فيكون مقامهم الهيبة والأنس ، وإن أشهدهم صفاته أخذهم عن صفاتهم فحالهم القبض والبسط ، وإن أوقفهم تحت أحكام أسمائه قاموا بحكم الخوف والرجاء ، هذه مقامات الرجال ، والسادات الأبدال .

وأما عامة الخلق فواقفون في مضيق الحجاب عندما يتوهمون صدوره منهم أوكونه منهم من طاعة أوعصيان ، أوعطاء أوحرمان ، فلا يفارقون الشرك الخفي أو الجلي ؛ وأما الخفي أوالجلي فإذا نظروا إلى مايبرز منهم في صورة طاعة عدوه أرجاء بضاعتهم ، وعمدة نفاعتهم ، وغابوا عن معونة الله لهم وسابق هدايته لهم ، وعظيم منته عليهم ، وأجلها إيجادهم بعد أن لم يكونوا ، وتوالي إمداده وإرسال أنبيائه ، وإنزال كتبه ، وبسط أرضه ، ورفع سمواته ، وتسخير موجوداته ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوه** ﴾ [الآية ١٨ النحل] ومن جملتها طاعتهم المنسوبة إليهم مجازا وإن وقعت منهم زلة ؛ وحصلت منهم هفوة ، ماكان عندهم من الرجاء لشهودهم صدورها عنهم ، واستنادهم إلى حولهم وقوتهم ، فرؤيتهم حولهم وقوتهم في إيجاد شئ أشد

من معصيتهم . والحزن المطلوب للعباد لالكونهم لهم فيها حقيقة إيجاد واختراع ، ولكن لكونها برزت على أيديهم فهي من نوازل البلاء ، وسطوات القضاء . فإذا فهمت ذلك تبين لك حالات العامة ؛ ومقامات الخاصة ومايعطيهم الحال من الفناء عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ؛ وحال العامة ومايعطي من الحجاب ، ومايقاسونه من رؤية أنفسهم من النصب والعذاب ؛ فالعذاب فرع من ضرب الحجاب . قال الله جل ذكره ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم** ﴾ [الآيات ١٥-١٦ المطففين] والعارف أما متحقق متمكن ؛ وأما مصطلم متلون ، فالمتمكن يعطي كل ذي حق حقه ، ويؤفي كل مقام مستحقه . فمع كونه فانيا عن أفعاله وأوصافه وذاته ؛ فهو باق بربه ، يأتمر لأمره وينتهي لنهيه ، ويعرف حكمة الله في إثبات العبد مع الله ، مع أن الله قال ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ [الآية ٥٤ الأعراف] وقال في مقام آخر ﴿ **لها ماكسبت وعليها مااكتسبت** ﴾ [الآية ٢٨٦ البقرة] وهنا علوم تخرجنا عن شرح الكتاب ، ولكن كن وقاية له فيما لايليق إضافته إليه ، واجعله وقايتك فيما يحسن أن يضاف إليه من المحامد ، وكل مافي إطلاقه ذم أوإشارة إلى ذم ولو من بعض الوجوه تكن وقايته فيها ، فما كان من المجهودات فإليه خلقا وإيجادا ، أوماكان فيه ذم أويتوصل فيه إلى ذم ولو من بعض الوجوه فإليك إضافة وإستنادا ، وماكان فيه من وجه مدح ومن وجه ذم فوجه المدح إليه ، ووجه الذم إليك ؛ هذا مشهد الأدباء . وأما العامة فإنهم بالضد من ذلك

يضيفون ماكان ممدوحا إليهم ، وماكان مذموما تبرأوا منه وأضافوه إلى الله . فهذا بعض ما أبرزته إشارة الوقت ، ووراء هذه علوم وأسرار لايسع كشفها لغير أهلها . شعرا :

فكن على كرم الرحمن معتمدا　　لاتستند لا إلى علم ولاعمـــــل

ففضل ربك لاتمنعه معصـية　　ولايضاف إلى الإعراض والعلل

فنسأل الله هداية وتوفيقا ، وصوابا وتحقيقا . وقال المؤلف رضي الله عنه :

(إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد إنحطاط عن الهمة العلية)

الإرادة حالة من حالات القلب ، ووصف من صفات العبد ، وهي جائزة كهو ، وهي تخصيص الأمور وتدبيرها ، وقد علمت ما العبد عليه من القصور والعجز لجهله بتقدير الأمور ، والعجز من لوازم إرادته الأشياء واختيارها . والمطلوب من العبد حيث كان كذلك أن يكون بتدبير الله واخنياره تاركا لإرادته وسائر أوصافه وأفعاله ، ويبقى بتدبير من له الإرادة الكاملة ، والقدرة النافذة ، في حركاته الظاهرة والباطنة . فعلى ذلك لوأبيح له أن يختار لكان من حقه ترك الإختيار ؛ فكيف والعبد مأمور بترك الإختيار لقوله تعالى ﴿ **وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة** ﴾ [الآية ٦٨ القصص] وبعض الأمور أظهر من بعض في ظهور الحكمة . فطلب التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب الشهوة فيه خفية غامضة جدا من حيث أنها طاعة ، لكن بدقيق النظر في دقائق الحقائق يتبين لك شهوة النفس ومخادعة الشيطان ، أما شهوة النفس فمن حيث استعجال الراحة

، وأما مخادعة الشيطان فمن حيث إخراجك عن تدبير الله الذي لم يقترن به مذموم شرعا إلى تدبيرك لنفسك المشوب بالحظوظ ، وأما طلب الخروج من التجريد إلى الأسباب فقبحه ظاهر جلي . واعلم أن الأسباب هي كلما يوصل إلى غرض دنيوي ، والتجريد هو التفرغ عن كل شاغل يشغل عن الله ، وعائق عن طاعة الله .

واعلم أن التجريد حال شريف ومقام منيف ، يقيم الله فيه خاصة أصفيائه وصفوة أوليائه . وعلامة من أقامه الله فيه كثرة الرضا وعدم الشكوى ، وعدم الركون إلى المعلوم ، ويجتنب كل فعل ملوم وخلق مذموم ، والإستغناء بالله ، وإنزال جميع حاجاته ومهماته بالله ، والبذل عند الوجد ، والصبر عند الفقر ، والرأفة بعباد الله والشفقة ، ورفع الهمة عن التشوف إليهم في أمر من الأمور ، وإذا نزلت به الحاجة لم يتوجه في قضائها إلى غيرالله .

وهم في ذلك ثلاثة : منهم من يسأل ولايأخذ ، ومنهم : من يسأل وإذا أعطي قبل ، ومنهم : من يسأل عند ماتنزل به الفاقة . فالأول روحاني ، والثاني تارك الإختيار ؛ قائم مقام الإفتقار ، والثالث كفارة سؤاله صدقه في فاقته ، والمتجرد تجرد عن أسباب وتلبس أحوال ؛ فما يتجردون ليتفرغون ولكن يتجردون عن أسباب دنية لأحوال سنية . فمن لم يكن في حال تجريده ذو همة عالية ، وعلوم وافية ، وأخلاق رضية ، وعلوم سنية ، وأذواق روحية ؛ فتجريده بطالة ، وطريقه ضلالة . وإذا كان بهذه الشروط تولى الله رعايته ، ونشر عليه سر ولايته ، وتوجهت إليه الكائنات بستر التسخير ، وكفي هم التدبير . فإذا توجهت همته إلى غيرالله

كائنا من كان ذلك الغير ؛ فقد انحط عن هذه الرتبة العلية ، ونزل عن هذه الهمة السامية العلوية ، وحجب عن هذه الحالة السنية ؛ فما أعظم مصيبته وأشد عقوبته ، وما أقبح حماقته حيث عاد من اليقين إلى الوهم ، وتلبس بالجهل عوضا عن الفهم إن لم يتداركه الله بتوبة وسرعة أوبة . فإن لم يتدارك بذلك كان من لم يسلك أحمد حالا منه ، لأن من لم يسلك لم يطلق عليه أن سلك طريق ورجع عنها . ولايخفى ضلال رأي من خطب إلى مقام الملك والأتراب ، ورجع إلى سياسة الدواب ، وفي مثل ذلك أقول شعرا :

كيف بالأسباب يقنع من   لحما التجريد قد طلـــبا
من بمولاه توثـــــــقه   ثم يرجع يطلب السببا
كانت الأسباب تطلبـــه   وهو بالأنوار محتجـــبا
فترى التنزيل يخـــبرنا   بحديث العمى قوم سبا
إن فيها آية ظـــــهرت   تخبر الطلاب بالعجـــبا
برغيد العيش أنكـــــده   يطلبون البعد والتعـــبا

إن في ذلك لآية وكفاية ، ولاتحسبن الله يقص عليك هذا الحديث عبثا ولكن أنت المراد ، فإياك ثم إياك والتصامم عن هذا الخطاب ، فيكون أيسر أحوالك العقاب ، بشنيع الخطاب ، هذا الذي رجع عن الباب ، واستخار البعد على الإقتراب ، وآثر مجالسة الأجناب على مشاهدة الأحباب ، وأشد حالته الطرد والحجاب ، وأليم العذاب . فهذه بعض إشارة إلى تقبيح حال من انحط عن التجريد إلى الأسباب .

وأما المتسبب الذي أقيم في الأسباب وأريد بها ؛ فعلامة ذلك تيسيرها وحصول النتائج فيها من المنافع الدينية ؛ من صلة رحم وإرفاق ذوي الفاقات مع حفظ الأوقات ، وعدم الفرح بما أتى والتأسي على مافات . فإذا ظهرت هذه العلامات علم بأنه مراد بالمقام فيها ، فليحسن في مقامه بتحليل حلاله وتحريم حرامه ، ولايطلب الخروج عنها بنفسه حتى يكون الحق هو الذي يتولى إدخاله وإخراجه ﴿ **وقل رب أدخلني مدخل صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ [الآية ٨٠ الإسراء] على هواي وسائر أعداي ، فالمدخل الصدق والمخرج الصدق أن يدخل في الأشياء ويخرج عنها كماذكرنا لك .

ومن آداب المتسبب بل وظائفه وعلامة صدقه أن لايحتجب بالأسباب عن مسببها ، ويكون إعتماده على حول الله وقوته في جميع ماياخذ ويدع . ومن وظائفه مراعاة القوانين الشرعية فيما يصح له الإقدام عليه وما يطلب منه فيه الإحجام عنه . ويأخذ من الفقه كلما يحتاج إليه من كل مايريد الدخول فيه والتلبس به ، فما يقوم بوظائف الأسباب إلا الأقوياء الكمل العالمين بدقائق المعاملات . وإذا قام بما ذكرنا فقد أدى حق التسبب ووفا بمقامه ، وهو أيضا مقام شريف أقيم فيه جماعة من أكابر الصحابة وجهابذة العلماء ، فإذا قام بماذكرنا وتحقق بما وصفنا فلا يطلب الخروج منها حتى تدفعه الأسباب إلى الله ، أي تتركه . والمتجرد إذا تركته الأسباب فلاتتيسر له أسبابها وتغلق دونها أبوابها ، وتخطف الحقائق وتنسلخ عنه العوائق ، فإذا كان كذلك الله يقيمه مقاما حسنا ،

ويكليه كلاءة مرية ، ويحييه حياة طيبة ، ويغذيه بعيشة هنية ؛ بأن يملي قلبه نورا وفرحا وحبورا ، ويوصل إليه ماقدره له ، ويكفيه هم ذلك بأن ييسر له من يوصله إياه ؛ أما من أبناء جنسه وأما أن يمد له موائد الغيب ، أوتكون له أرزاقا معنوية وأقواتا خلدية قربية تتلون له كما تتلون لأهل الجنة ، فقد تكون من ذلك في الدنيا لبعض المرادين كما كان لإبنة عمران **﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عندالله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾** [الآية ٣٧ آل عمران] ولانصب ولاعقاب فهكذا يعامل الأحباب :

من قام لله في الأحوال قام له كل الوجود بتسخير وتيسيري

ولنرجع إلى شرح كلام المصنف بلا تطويل ولا إكثار ، قال رضي الله عنه :

(سوابق الهمم لاتخرق أسوار الأقدار)

الهمة قوة في النفس تتحصل عند توجهها إلى الشئ بإذن الله تأثير ، وقد أشار بالسبق يشير إلى قوة التأثير وسرعته . وحيث أطلقت فتعلقها بالفضائل واستعمال كل وسيلة من وسائل الخيرات ؛ لطلب المنازل العالية ورفيع الدرجات وسني الحالات ، والنزوع عن مواطن الرذائل والغفلات ، إلى فسيح المكارم ونيل المقامات وبواهر الكرامات . وكل همة إلى غير ذلك فهي من المكر ؛ ولكن من حيث حد الهمة . ومع ذلك ؛ أي كونها مؤثرة سريعة التأثير فهي موقوفة على مشيئة الله وقدرته ، فمتى لم تجد نفوذا في سور القدر الإلهي لم يكن تأثير في شيء البتة .

فالتخصيص الإرادي والإبرازالقدري أصل بروزالممكنات ، والهمم السوابق والعزائم الخوارق آثار وفروع عنها ، فلاتتعدى همته دون قدرة الله وإرادته ، والهمة قوتها وضعفها على قدر ماعند الإنسان من الإستعداد . والهمة سفينة العارف في بحار الوجود ؛ بها يترقى عن حضيض الحظوظ والشهوات ، وبها يخترق المنازل الروحانيات ، وهي براق السالكين وبرهان الواصلين ، وبها سار من سار على الماء ؛ وبها طار من طار في الهوى . لكن قوة نفوذها وسرعة نفوذها وسرعة تأثيرها على قدر ماعند السالك من الإستعداد ، فإذا توجهت في فعل شئ لم تبرزه القدرة عادت كليلة ، أوفي دفع شيء وقد سبق في العلم تقديره ظهر في الوجود تأثيره ولم تدفع عنك الهمة تقديره . ولي في ذلك شعرا :

إن الهمم تحت حكم الأمر دائرة   فليس تنفذ فيما صانه القـــدر

فهمة المرء مالم تلق منفـــذها   في سور الأقدار لايظهر لها أثر

فحيث علمت أن لالشئ تأثير في شئ دون إرادة الله وقدرته فعلام العنا ، وفيما الإعتناء ، فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أرح نفسك من هم التدبير ، فما قام به غيرك عنك لم تقم به لنفسك)

راحة النفس في الكف عما ليس من شأنها ، والتدبير من نعت الربوبية . قال الله جل ذكره ﴿ **يدبر الأمر يفصل الآيات** ﴾ [الآية ٢ الرعد] ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض** ﴾ [الآية ٥ السجدة] فالتدبير فيما كفيت والتعرض لما عنه نهيت أشد تعب وأعنى نصب ، فمالك أيها

المسكين والتدبير في أمورك وقد كفاكها عنك غيرك ، ومع كونك تتعب وتنصب فلايغني عنك تدبيرك ، ولم ينفعك تقديرك ، فكن بتدبير الله لك لابتدبيرك لنفسك . فالتدبير والإختيار لمن له الإرادة والتدبير وذلك الله الحكيم القهار ، فشان العبد أن لايزاحم مولاه فيما انفرد به . وكل تدبير ندبك الشرع إليه فليس يدخل تحت مطلق الذم على التدبير ، فكل تدبيرات الشرع لامنك ولا إليك فاسمع وأطع ، وإنما التدبير المذموم أن تدبر في المقسوم أوتتهم في المعلوم ، فما قدر فلا بد أن يكون ، ومالا فلا . فما ذا يغني تدبيرك ، وماذا يجدي اختيارك وتقديرك وربك يخلق مايشاء ويختار و﴿ **ماكان لهم الخيرة سبحان الله عما يشركون** ﴾ [الآية ٦٨ القصص] معه من تدبيرهم واختيارهم . ولي في ذلك شعرا :

يامن يدبر أمرا وهـــو ليس له   في خيرة الله تدبير ولاقدر
إن كنت لابد مختارا لخيرة من   بيده الأمر والتدبير والقدر
فدبر أن لاتدبر في الأمور وكن   كالميت الفان لاعين ولاأثـر

فشأنك أيها المسكين أن يكون فكرك وتدبيرك فيما ندبك إليه يسدك من القربات ، ودعاك إليه من الموافقات ، وتذر مامضى ولاتهتم بما هو آت من الأسباب الدنيويات إن كنت ذا بصيرة ناظرة ، وسريرة صافية ، وروح حاضرة ، فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(اجتهادك فيما ضمن لك ؛ وتقصيرك فيما طلب منك ؛ دليل على انطماس البصيرة منك)

الإجتهاد هو بذل المجهود في طلب المقصود ، وليس مقصودا غيرالله ، أومايقرب إلى الله . فمن بذل مجهوده لمقصود غير الله فهو ذا

بصر مطموس وعقل معكوس ، والمضمون هو الرزق المقسوم ، والنصيب المعلوم بقوله ، وقول الحق ﴿ **وكأئن من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم** ﴾ [الآية ٦٠ العنكبوت] وقوله ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ [الآية ٦ هود] وقوله ﴿ **نحن نرزقك** ﴾ [الآية ١٣٢ طه] إلى غير ذلك من الآيات ، وقال في المطلوب منك ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الآية ٥٨ الذاريات] وقوله ﴿ **واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا** ﴾ [الآية ٣٦ النساء] وقال ﴿ **فإياي فاعبدون** ﴾ [الآية ٥٦ العنكبوت] إلى غير ذلك ، فتقصيرك فيما خلقت لأجله وندبت إلى فعله ؛ وهو العبادة لله بالذلة والإنكسار والمسكنة والإفتقار وكثرة الأفكار ، وصفو الأفكار آناء الليل والنهار ، واجتهادك فيما ضمن لك واعتراضك على الأقدار ، ونظرك إلى الأغيار، محجوبا بسحب الآثار عن النافع الضار ، المقدر المختار ؛ دليل على انطماس البصيرة منك ؛ أي غيبتها واستتار نورها عنك . والبصيرة هي نظر القلب بنور الله ، فليس للبصيرة نظر غير جمال الله وجلاله ، وكمال قدرته وحسن أفعاله . فمن نور الله عين بصيرته وجلا صفو سريرته لم يؤثر على الله غيره ، ولم يترك فيه لغيره بقية ، ورضي بالله ربا وحاكما ومدبرا ومقدرا ، وبذل وسعه في عبادته ، وسلك طريق هدايته ، ولم يجتهد إلا فيما يقربه لديه ، ولم يعول إلا عليه ، فضلا عن أن يتهمه في ضمانه ، وأن يقاومه في مملكته وسلطانه . وقد أحسن الأدب في عبارته وبديع إشارته ، فعبارته أقرب الأدب ، وأوفق لنيل

الأرب ، حيث عبر يطلب بصيغة ما لم يسمى فاعله ، إشعارا منه بشرف الطالب ، فبين عبارة طلب وطلب مالايخفى على من له أدنى ذوق في فن الأدب ، لأن طلبه على سبيل التعبد ، والملك والسلطان لاعلى سبيل التلقي والإسترفاد ، وطلبه لك لالحاجته إليك ؛ ولكن من عظيم منته عليك وسبوغ نعمته لديك أن عرفك طريق نجاتك ومافيه سعادتك في حياتك ومعادك . وقوله : اجتهادك ليس تقبيح على طلب المضمون على الإطلاق ولكن إن اقترن به تقصير فيما طلب . شعرا :

يامن سعى في طلب ماكان يطلبه   عما تضمنه الرزاق في القـــــدم
يأتيك رزقك من لاحيث تحسـبه   إن تتق الله تعطى مزيدا الكـرم
فبادرن بما في الوقت تطلـــــــبه   ولاتطالب بما قد خط بالقــــلم
فأكمه القلب من يطلب مآربـــــه   ومطمس النور محبوس في الظلم

فحيث اجتهدت فيما ضمن لك ؛ وتركت ماطلب منك ؛ فحقيق أن ينوه عليك بطمس البصيرة ، والإزورار عن المحجة المنيرة . فالمضمون هو مايقوم بالأود ، ولايتقيد بوقت دون وقت ولاطعام دون طعام ، ولايقدر من كثرة أوقلة وقد قدر الله الأرزاق وأوقاتها وأقدارها وأوصافها في أي وقت وحال ومكان ، وماهي قبل بروز المرزوقين إلى عالم الخلق . وكذلك كلما وعدك به من إجابة دعاء هو أعلم بوقته ومكانه ، فإياك واستبطائه فقد وعد عباده بإجابة دعائهم كما وعدهم بإيصال أرزاقهم ، فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لايكن تأخر امداد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجب ليأسك ؛ فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لافيما تختار لنفسك ، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد)

العطاء هنا هو مارفعته إليه من حاجاتك ، وأنزلته به من مهماتك فيما تزعم أنه عطاء ؛ أوتظن أنه رفع بلاء ، فلايكن همك من دعائك الظفر بمطلوبك تكن متحكما عليه ، فالمنع منه عطاء لمن كشف عنه الغطاء والبلايا ، حيث أشهدك تعرفه إليك هدايا ، فلايكن تأخر ماطلبت موجب ليأسك . قال صلى الله عليه وسلم " **يستجاب لأحدكم مالم يقل دعوت فلم يستجب لي** " فالإستجابة إليه لا إليك ، وفيما يختار لافيما تختار لنفسك ، فلاتختص بمرادك دون مراده ، بل مرادك إن وافق الدعاء وقته ؛ وخصصت الإرادة فعله برز على وفق مرادك ، وسمي استجابة عاجلة .

وقد خاف الأكابر من سرعة ذلك لما روي أن الله سبحانه إذا دعاء العبد يقول الله " **أخروا إجابة عبدي فإني أحب أن أسمع صوته** " ويقول لآخر " **عجلوا حاجته إني أكره أن أسمع صوته** " وهذا على الندور ، وأما في غالب الأحوال أن الله يكرم أوليائه بإجابة دعائهم وتعجيل مرادهم ولكن موقوف على مراده ، فلا يتقدم وقته ولايتعدى حده ، فمتى استعجلت الإجابة فقد تحكمت عليه في ملكه ، ولم ترض بقضائه ، ولم تصبر على بلائه . ولايخفى عليك مضادة هذه الأحوال للعبودية ومنازعتها للربوبية ، واتهمت من لايخلف الميعاد في وعده فيعود وبال ذلك عليك ، فإنه قد قال : " **أنا عند عند ظن عبدي** " وقد أيست من الإجابة

فيخشى أن تعامل بسوء ظنك حيث قطعت بعدم الإجابة ، فيقال لك ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم** ﴾ [الآية ٢٣ فصلت] فالإجابة لها أوجه ومقاصد ، فمنها : مايؤخر لآخرتك وهو الأنفع لك . وفي بعض الأخبار " **يبعث الله رجلا فيقول الله له : ياعبدي لم لاتدعني وقد أمرتك بدعائي ، فيقول : قد دعوتك ، فيقول : ألم آمرك برفع حوائجك إلي ؟ فيقول : بلى ؟ وقد رفعتها إليك ، فيقول الله : ماسألت شيئا إلا أجبتك فيه ؛ لكن أنجزت لك البعض في الدنيا ومالم أنجزه في الدنيا فهو مدخر لك فخذه الآن ، فيقول ذلك العبد : ليته لم يقض لي حاجة في الدنيا** "

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **مامن داع إلا استجاب الله دعوته مالم يدع بإثم أوقطيعة رحم** . فإذا علمت ذلك فاعلم أن الدعاء أيضا قد يتلقا من البلايا ويدفع من الذنوب والخطايا مالو تحققت بعض ذلك لكنت تود على الكشف أنها لم تقضي لك حاجة كما يراد لك في الآخرة عيانا .

ومن الدعاء مايظهر أثره في المدعو فيه إلا أنه قد يكون عاجلا وقد لايأتي وقته إلا بعد ، كما في دعاء موسى صلى الله عليه وسلم على آل فرعون حيث قال ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم** ﴾ [الآية ٨٨ يونس] قال الله جل ذكره ﴿ **قد أجيبت دعوتكما فاستقيما** ﴾ لكن لم يأت إلا بعد أبان وقت نفوذها وظهور تأثيرها ﴿ **ولاتتبعان سبيل الذين**

لايعلمون ﴾ [الآية ٨٩ يونس] وهم الذين يستعجلون الإجابة لجهلهم بالمقادير الإلهية في الأزمنة والأحوال والأعمال هذا في الإجابة .
أما في الدعاء فالخلق فيه ثلاث طبقات : عامة وخاصة وخاصة الخاصة ، فأما العامة فحالهم في دعائهم وغاية مقصدهم الظفر بحاجتهم ونيل مراداتهم ، فلا يخفى قصور هذه الطبقة ودنو هممهم وقلة أدبهم بين يدي سيدهم .
وأما الخاصة فهم في الدعاء بحكم العبودية حيث سمعوا قوله جل ذكره ﴿ **أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ [الآية ٦٠ غافر] فسمى الدعاء عباده ؛ بل محض العبادة كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك من رحمته بعباده حيث ندبهم إلى مافيه غايات آمالهم ، وأقصى رغباتهم ، وأشرف مقاماتهم . وأي شرف أشرف من مناجاة الحبيب ؛ والدنو إلى مقامات التقريب ، وما اكتفى لهم بمطلق الدعاء حتى قال صلى الله عليه وسلم " **إن الله يحب الملحين في الدعاء** " فما أعظم فضل الله عليك ، وأجزل مواهبه لديك .
ومع الإلحاح أيضا يقال إن الله يقول " **أخروا حاجة عبدي إني أحب أن أسمع صوته** " كما قدمنا ذلك . فالحمد لله على ذلك ، فحاجة العبد إلى الله وإن قضيت حاجة تجددت له إليه حوائج اضطرارية في دوام أنفاسه ، وتوالي حالاته ، وكرور أوقاته وأيامه وشهوره وسنينه . وهذه من سوابغ نعمه حيث لم يقطعك عنه ولاجعل حوائجك إلى واسطة دونه لتكون نجيا .

وأما الطبقة الثالثة فهم خاصة الخاصة ، فالباعث لهم على الدعاء منازلة سيدهم وتعطف مليكهم حيث يقول مولانا جل ذكره " **لبيك ياعبدي إذا قال العبد يارب** " كما ورد ذلك في بعض الأخبار أن موسى صلى الله عليه وسلم قال : يارب ، قال الله لبيك ، فقال يارب هذا لي خاصة أولعبادك عامة ؟ قال : بل لكل من دعاني بهذا الإسم ، أوكما قال . فهؤلاء ليس لهم غرض في مطلوب ولاخوف من مرهوب إلا حب تلبية ربهم ، وتعرضا لمحاورته ولذيذ مجاورته ، وصافي مواصلته ؛ فأي عطاء أفضل من ذلك ! وأي حاجة أنجح مما هنالك ، وفقنا الله لذلك ، وأتحفنا بما هنالك ، وسلك بنا أشرف المسالك ، وصرفنا عن المعاطب والمهالك ، إنه ولي ذلك . فاليأس من روح الله وصف الكفر ونعت الجاحدين ، حيث أخبرنا على لسان نبيه يعقوب حيث قال ﴿ **لاتيأسوا من روح الله** ﴾ [الآية ٨٧ يوسف] وهو تفريج ماهم فيه من الكروب ، والظفر بالمطلوب ، ونيل المرغوب على أسر حال وأهناه ، وذلك ثمرة حسن ظنه بالله ، حيث أمر به من لم ينال ماناله بأسا ، ولم يلحقه يأسا . فعلى مثل هذه الحالة فكن ، وأما مع مساعدتك بقضاء حوائجك ونيل مآربك فلم تتحقق بذلك إلا هناك ، شعرا :

ففي دعا العبد إلى مولاه مكرمـــــة ... ونيل حاجته من كل مرغـــوب
فكن طريحا على أبواب عـــــزته ... عن اختيارك وعن حالتك مسلوب
لاييأس العبد من تاخير حاجــــته ... فالعبد للرب بالتسليم مطلــوب

فإياك والشك ؛ فالشك أيضا من صفات الكفر وشيم المبعدين ، قال الله جل ذكره ﴿ **بل هم في شك من ذكري** ﴾ [الآية ٨ ص] هذا الشك في الله والشك فيما عند الله وماوعد الله ، ﴿ **بل هم في شك منها** ﴾ [الآية ٦٦ النمل] أعاذنا الله من الشك بعد اليقين . فلذلك قال المؤلف بأثر هذه الحكمة مشيرا إلى معناها ، وناصا لمبناها ؛ قال رضي الله عنه :

(لايشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود به وإن تعين زمنه ، لئلا يكون ذلك قدحا في بصيرتك ، وإخمادا لنور سريرتك)

فحيث وعدك الحق وعد فهو لايخلف الميعاد ، فمتى شككت في صدق وعده ؛ واستبطأت وجود عونه ونصره ، فذلك قدح ؛ أي نقص في بصيرتك وهذا دون ماسبق من اليأس عند تأخر العطاء ، فإشارته في اليأس إلى طمس البصيرة أبعد وأكثف من القدح فيها ، فإن القدح فيها مع وجودها أخف من الطمس لأصلها ، فإذا فهمت ماذكرنا لك علمت أن الشك هنا ليس من الشك في الله ولا من الشك فيما عند الله من حيث التكذيب بما وعد ، ولكن من حيث تجويل عدم وقوعه من حيث العدل ، وأن له أن يمنع ذلك أويفعل مثله . ومثل هذا التشكيك في عدم وقوع الموعود قد يخالج قلوب بعض المؤمنين ؛ سيما إذا تعين زمنه . ولكن من علامات مباشرة الإيمان للقلوب ؛ وانكشاف استتار العيوب بصريح الإيمان ، وإغراق أنوار الإيقان أن يكون الإنسان حسن الظن بالله ، ويقطع بصدق وعدالله ثقة منه بأنه يفعل معه الفعل الحسن كما جرت به سنة الله بأنه يفي إذا وعد ، ويلوي أي يفي إذا وعد ، فإذا عدم وقوع الموعود

به فليعلم العبد عند ذلك أن لله في الأمورعلما استأثر به دون خلقه ، وليعلم أن هناك حكمة اقتضت التأخير أوعدم الوقوع ؛ أما لتأخر شرط قد قدر مقارنته له في سابق علمه ونافذ حكمه فلا تتغير الحكمة الإلهية لأجل حظك وتحقيق مرادك ، فمتى شككت في وعدالله وأردت غير مراد الله كان ذلك قادحا في بصيرتك ، مخمدا نور سريرتك . والبصيرة هي للقلب كالبصر للقالب ، والسريرة هي نور ذلك البصر القائم بذلك البصر ، والخمود خبوء إضائتها وانتشارها في أرجاء القلوب ، وكونها تحت استتار كثائف الشهوات وظلم القلوب ، مع بقاء أصلها . فالشك في الطرف الأقرب إلى جانب اليقين من اليأس ، كما أن الظن أقرب أيضا من الشك ، فكأنك تيقنت وعدالله لكن حيث لم يأت على ماظننت ، سيما وقد وجدت مخائل إبان وقوعه كاضطرار ووجود إعسار ، واحتباس أمطار ، وصبر عند مقابلة عدو لطلب الإنتصار ، وغير ذلك مما وعد به من اليسر مع العسر ، والنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب . فمع عدم وقوع ذلك عند تعين أزمانه فلا ينبغي لمن كان ذا بصيرة وصفو سريرة أن يشك في وعدالله ، فالموعد صادق ، والوعد حق ، فلا يشك العبد في وعد سيده ومولاه ، وليطمئن إلى وعده ، ويعلم يقينا أنه واقع ليس له مانع . قال الله جل ذكره ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ [الآية ٢١٤ البقرة] فإياك أن تسيئ الأدب فينالك التعب والنصب . شعرا :

فلا تشكن في الموعود إن له وقت متى حان جاء بالفتح والفرج
لاتخمدن لنور السر واعزله من همتك أوشك المقرون بالحرج
كم ماتضيق أمر العسر كان له من الفرج مخرج والضيق منفرج

قال رضي الله عنه :

(إذا فتح لك وجه من التعرف فلا تبال معها وإن قل عملك ؛ فإنه مافتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ؛ والأعمال أنت مهديها إليه ؟ وأين ما أنت مهديها إليه مما هو مورده عليك)

هذه الحكمة أصل لما بعدها ، وهي تحتوي على معانيها ؛ وإنما أتى بهما زيادة إيضاح وتفصيل لما أجمله ، وتحقيق لما فصله ، فلذلك عبر بفتح ، فالفتح أثر من آثار إسمه الفتاح ، وهو لأعيان الوجود ، ومنازلات الشهود مفتاح ، فإذا اختص الله به عبده كان له من أخص العطايا ، وأعظم المنن وأشرف الهدايا ، فلذلك كان آية محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء ، وكان لخواص أمته من ذلك ﴿ **وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾ [الآية ١٣ الصف] والفتح هو وارد رباني ونفس رحماني ، تفاجأ به القلوب من مصونات الغيوب ، وهو يعطي الكشف العرفاني ، والإختصاص الإمتناني . فإذا أتحف به عبد وكشف له عن مصونات الأسماء وقام لها بما تستحقه من آداب العبودية ، وتلقى ماتعطيه من ذخائر العطاء تحت أستار الإبتلاء في كل ماواجهه منها عطية وافية ، وحكمة شافية ، ومرتبة قريبة ، فيكون معها العبد بحكم ماتعطيه لابحكم طبعه وتمنيه ، فيكون بحكم ما أقيم أما شكر أو صبر ، أوشهود منة أوتوبة ، فهي لم تأتي إليك إلا بما أودع فيها من أسرار تعرفه لولم يكن الذنب في بعض الأحيان خير للمؤمن من العجب ماقدر عليه . الحديث ، فإنه يريد أن يتعرف إليك في كل شئ حتى لاتجهله في شئ ، ففرض العارف الفناء

في الأفعال ونوافله الأسماء والصفات ، وغاية مطلبه ومحتد همته الذات ، كما أن فرائض العموم الصلوات والصيام والصدقات ، ونوافلهم سائر طرق الخيرات ، فإذا تقرب الخلق بصيام وصدقة وصلاة تقربوا العارفين بمحو صفاتهم ؛ واستهلاك ذواتهم . فمن كانت حالته الفناء والإضمحلال فلا يبالي وإن قلت منه الأعمال ؛ كيف يبالي بما فات وهو مطالع لجمال الذات في جميع الذوات وتجلي الصفات على دوام الأوقات ، ووجدان المواصلات ، والصلات الموهبيات في الملائمات والمؤلمات . فإذا طالع حسن التدبير وبديع التصوير وعجائب التقدير ؛ علم أن تدبير الله واختياره له أتم من تدبيره لنفسه ، وتحقق إنما أورده الله عليه من صنوف البلاء متضمن له على منن وألطاف وإسعاف بعطايا جزيل ، وعلم يقينا أن المنع عين العطاء .

وتعبير المصنف رحمه الله بالفتح من بديع حكمته وذكاء فطنته ، وبالوجه وبالتعرف ، فإن الفتح يعطي الشهود ، ومعرفة حقائق الوجود . فلقد أحسن وأتقن . وتعبيره أيضا بفتح باستتار ضمير الفاعل ينبئ أيضا أن ذلك من قبل الله لا للعبد فيه علة ، ولا يتوصل إليه بحيلة ؛ بل ذلك من باب المنة التي لايترقب بوقت مخصوص أوعمل ، بل لاسبيل إلى فتوح المعارف وإشراق وجوه اللطائف ومحو ظلمات الكثائف إلا بمساعدة عناية ربانية ، وجذبة اختصاصية ، ونفحة إلهية ، وتعريضة وقتية ، ونفس رحمانية ذرية غيبية ، في الأيام الجمالية الأزلية .

والفتح يكون في كل مقام بحسبه ؛ فيكون في أسرار الشرائع والأعمال ، وفي دقائق طرائق الأحوال ، وفي مطالع صفاء الأسرار ، وفسيح تنزه

الأرواح في مسارح الجمال ، ومنائح المعارف وروائح نفحات الوصال ، وفي مطالعات محرقات الجلال . وقد تكون لأهل الوصال بالتلاشي والإضمحلال ، عند ظهور سلطان الكمال ، وورى ذلك فتوح ومنوح لم تجري ولايفي بها التعبير والمقال ، ولم تدخل تحت التكييف والمثال ، ولم تخطر بعد على بال ، مما لوبدت غبرة من رمال بحورها الطافحة لذابت صم الجبال ، ولم يقو على سماعها سمع ولم يحتمل أثقال مقالها حال ، وفتوح وجهة التعرف لايكون إلا عند مطالعة الجمال والجلال ، والجمال في الجلال ، والجلال في الجمال . فهو مورد ذلك عليك .

فافهم الإشارة في قوله : مورده عليك ؛ أنه مما لايلائم طبعك فهو مورد ذلك إليك ومتطول ، ومع كونه مورده عليك ومتطول فهو متفضل به عليك ، فاعرف قدره فذلك خارج عن وسعك ، وقاصر عنه فهمك ،حتى فتح وجه تعرفه إليك فيه . ووجه التعرف هو أن يرزقك الفهم عنه فيما من به عليك ؛ من رفع درجات ، وزيادة حسنات ، وتكفير خطيئات ، ممالايحصى شكره من الفضائل والنعم والمنن ، في مواطن البلايا والمحن .

وإليه الإشارة بقوله جل ذكره ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ [الآية ٢٠ لقمان] الظاهرة ماظهر من نعم الطاعات والموافقات ، والدلالات النبويات ، والطرق العمليات ، والأعمال البدنيات ، وغير ذلك من سائر النعم الحسيات . وباطنه من المثوبات والقربات ، والتعرفات الربانيات ، في مواطن المحن الدنيويات ، ومالك في ذلك من المصالح الدينيات والدنيويات ممايطول تعدادها وتكثر أعدادها .

وقد أومأت إلى بعض ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبويات ، وشرحت أبعاض منها أفاضل السادات . وقد شوهدت بركاتها وبواهر آياتها عليهم ، وأينعت ثمراتها لديهم . وأين ما أورده من ذلك إليك مع غيبتك فيه عن حولك وقوتك ، وإدلالك بأعمالك وعلومك مما أنت مهديه إليه من أعمالك وطاعتك المشوبة بظلمة نفسك وإعجابك ، وطلب حظك من الجزاء ، وماذا تطلب من جزاء على عمل هو متفضل به عليك ، ومقبل بهدايته إليك ؟ وماعسى أن يخلص من مطالبه الإخلاص فيه من الرياء وآداب الإقتداء ، وماعلمت أنك في عملك وطاعتك أحوج إلى الإعتذار ، مما اقترفته في حال تلبسك من الأوزار ، مماتستحق به دخول النار ، لولاتفضل الكريم الغفار . فإذا أنت فيه أحوج إلى الإستغفار . ومما هو مورده عليك سالم من ذلك بل فيه من مضادة هوى النفس مما لايخفى على من تحقق بمجاهدة النفس ، فمن ذلك ضعف قوتها وسد أبوابها ، سيما ومن ذلك الحمى والفقر وغير ذلك من منغصاتها عن وخيم مرعاها ، ومشوبات هواها ؛ فإلى ذلك أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : إنها أي الحمى طهور ، أي عن الخطايا والأوزار في حديث " **يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم** " وذلك خمسمائة عام ، وغير ذلك مما لو بسطناه لأدى إلى الإكثار ، وقصدنا في ذلك الإشارة والإختصار .

فإذاعلمت ذلك ظهرلك وجه استلذاذهم للبلاء ، ورؤيتهم لها أنها منح مثل مايروى في ذلك عن حكيم الترمذي ، ومايحكى عن أبي العباس ابن العريف فيما حكاه عن السادة الأصفياء الذي اختصوا بطريق الإبتلاء الذي

به ثمر شجرة الإصطفاء ، وتحقيق طريق الإجتباء ؛ إذ ذكر فيها أبوالخير رضي الله عنه ونفعنا به ومن والاه من البدلاء الأصفياء الأخفياء ؛ كمحمد الأسبخي وماحكاه عن شيخ طرسوس حيث قال : أشرفنا على خزائن العطاء فلم نجد عند الله شيئا أقرب ولا أشرف من البلاء ، فسألناه إياه ، ثم قال بإثر ذلك مستحقرا مانزل به راويا عن من هو أعظم منه حال ، وأعلا مقاما وأشد بلاء ؟ كيف بك لو رأيت سيد الزهاد وقطب العباد ، وإمام الأولياء والأوتاد ، في غار بأرض طرسوس وجبالها لحمه يتناثر ، وجسده يسيل قيحا وصديدا ، وقد أحاط به الذباب والقمل ، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة ، وأسكن جسده من العاهة حتى يشد نفسه بالحديد فيستقبل القبلة ، فيصلي عامة ليله حتى يطلع الفجر . انتهى ما أردنا إيراده في هذه ، فهذا تصدق قوله صلى الله عليه وسلم " **نحن معاشر الأنبياء أشد بلاء والأمثل فالأمثل** " فانظر كيف استلذوا ما تألم منه غيرهم ، واستلانوا مااستوعره البطالين ، ولم يروا أن ذلك بلاء بل رأوه منة وعطاء ، يجب عليهم القيام بالشكر عليه ، فهذا وجه التعرف فيما يأتي من المنغصات والمؤلمات ، على خلاف ماتطلبه النفس من السكون إلى الراحات والمستلذات ، فإذا أشهدهم ذلك وحققهم به فحري أن لايبالي وإن قلت الأعمال الدينيات . شعرا :

من بعد مايفتح المولى تعرفه ... فلا تبال إذا قللت في العمل
فما من الله تطهير بمنته ... وما من العبد منسوب إلى الخطل
فكل مامنه محفوظ بلا ريب ... وكل ما منك لاينفك عن خلل

فلا فلاح ولا نجاح للعبد إلا في الخروج عن المرادات النفسانية ، والشهوات الحيوانية . وذلك حاصل فيما يتعرف به إليك ، ومرادها أن تعيش عيش المترفين ، وتتوصل بصالح أعمالها إلى سعادة الآخرة ، فقل أن تصفو تلك الأعمال مع ماذكر من الإتراف واسعادها بمراداتها وحظوظها ، فكان اختيار الله لعبده أن يخرجه عن مراده إلى مراد سيده ومولاه . وفي ذلك منتهى الصلاح وغاية الفلاح . قال رضي الله عنه كالمفرع إلى ما أشار إليه من التعرف ، وأن تلك التعرفات آثار عن الأسماء ، فلذلك قال :

(تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال)

فالأعمال فروع ، والأحوال أصول تلك الفروع ، والأسماء أصول فروع الأحوال ، والصفات أصول الأسماء ، والأسماء فروع ، وآثار الأسماء تظهر على القلوب ، وآثار الصفات تتجلى على الأسرار ، والقلوب تظهر آثارها على الأعمال الظاهرة ، والأسرار تظهر أنوارها على النفوس الطاهرة . فغاية الإفاضة القلبية الأعمال القالبية ، ومنتهى التجليات السرية الأخلاق السنية ؛ والحالات السنية . فكل فرع من الأعمال بحسب ماشاكله من الأحوال ، والأحوال بحسب ماتقتضيه مظاهر الأسماء . فمن ذلك تنوعت أجناس العبادة ؛ فالعبادات أنواع ، وهي للأحوال أتباع ، كما أن الأحوال تحت حكم الأسماء ، فكل اسم يقتضي ظهوره عباده ، فالذكر باللسان ، والصلاة بالأركان ، والزكاة في الأموال ، والصيام بكف الشهوات واجتناب الآثام ، والحج أيضا بالأركان ؛ فهي عبادة واختلفت أنواعها لما علمت من افتراق الأحوال بحسب اختلاف وظهور الأسماء ، فالأحوال آثار للأسماء ، وإن

شئت قلت أنوارها ، فكل اسم يطلب مقتضى الفكر من العبادات غير مايطلبه غيره ، فلذلك تنوعت الأعمال بحسب تنوع الأحوال التي هي آثار الأسماء ، فمن الأسماء مايقتضي مظهره من العبد الذلة والخضوع والخشوع والتمسكن والتملق ، فله من الأعمال الصلاة ، ومن الأحوال الهيبة والتعظيم . ومنها مايقتضي ظهوره من العبد : الصبر والكف والخروج عن الوصف والهيكل التجويفي إلى التعلق . والتخلق بالإسم الصمداني ، فله من العبادات الصوم ، ومن الأحوال الإستغناء . ومنها : مايقتضي ظهوره وإشراق نوره التوجه والإقبال والقصد . والإمتثال فله من العبادات الحج . ومن الأحوال الإستغراق والإقبال بكليته إلى المعبود ، والإنطماس تحت مظاهر الشهود ، فهذا تنوع تجليات الأسماء واختلاف أجناس الأعمال ، وافتراق أنواع الأعمال .

وحال ماتلقى الأسماء على القلوب آثارها ، وتتجلى عليها أنوارها تسمى أحوالا ، وحال بروزها بمقتضاها ؛ أي ماتقضيه من التعبد تسمى أعمالا . ومايرد على الأرواح من أنوار الصفات فتسمى مقامات من حيث العبد ومايتأثر به من آثارها ، فهي تقتضي قيام القلب بمقتضى وارداتها ، كما قام القالب بمقتضى تجليات الأسماء . فحالات القلب أيضا متنوعة ، ومقامات الأرواح متمايزة وإن اجتمعت من حيث الشهود ، فحالات القلب كالبسط وله أنواع من جنسه ، وللقبض وله أنواع من جنسه . ومقامات الأرواح كذلك متمايزة ؛ كالهيبة والأنس وماتتلقاه الأرواح عن الأسرار فليس هذا محله ، وسيأتي إن شاء الله . شعرا :

تنوع أعمال الورى فهم لهـــــا   بحسب ماتثمر أحوال كذا أنواع

إن الفروع على الآصال دائــرة   بحكم ماتعطي الأسماء أتـــــباع

فالأعمال لها من التزكية واللطف بحسب المحل القابل لما يرد عليه ، والمحل له من الصفا والوفا بحسب مايلقا عليه ، فلذلك قال المصنف رضي الله عنه :

(الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها)

فالأعمال تتفاوت بحسب العاملين ، فصورة كل عمل مشاكلة لحالة من صدر عنه ذلك العمل ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ [الآية ١٣٩الأنعام] فمن العاملين من أعوز وجود الأنوار ، فعمله صورة بلا روح ، ومن العاملين من يقتبس من المشاكة القلبية وهم الأبرار المستصبحين بمضيئات الأنوار ، وإخلاص كل عامل بحسب مقامه : فحالة الأبرار تخليص الأعمال عن شوائب العلل ، وإخلاص العمل من غير تشوف إلى جزاء آجل أوحظ عاجل ، فهؤلاء عاملين لله بصدق المعاملة ، فهم مطالبون بتصفية الأعمال عما يفسده ويبطله ؛ كالتخلص من الرياء وحب الثناء والعجب والسمعة والإلتجاء إلى الله بحسن الإنابة في قبول ذلك . وكل عمل بلا إخلاص صورة بلا روح ، فلا يصلح للعرض ولا تقبله سماء ولاتشهد به أرض ، فهؤلاء مقامهم ووصف حالهم ﴿ **إياك نعبد** ﴾

وأما إخلاص المقربين : فهو خلاصة الإخلاص وتحقيق الصدق ، فإخلاصهم بعدم رؤيتهم نفوسهم في جميع الأعمال والأحوال ؛ فهم قائمين بالله فانين عنهم ، فوصف حالهم وتحقيق مقامهم **(إياك نستعين)** فلما استوى على قلوبهم مشهد الفردانية وسلطان الوحدانية ؛ فبالحري أن

لايشهدوا لهم فعلا ولا وصفا ، وعند شهود الأحدية أن لايشهدوا لهم ذاتا ولانعتا ولامقاما ، فكم بين العامل لله مع وجود نفسه ، وبين القائم بالله مع غيبته عن نفسه ، فالأول مطالب بالإخلاص يعمل على خروج الخلق عن رؤيته ، فهو يترقى في مراقي الإخلاص ، والثاني طالب إخلاص عن شهود نفسه ؛ يتنزه في رياض خلاصه ، فبان لك تنوع الأعمال بتنوع أجناس الأحوال إلى أبرار يتقربون بأنواع القرب لله ، وإلى مقربين يتوصلون بتحقيق الفناء عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم . فانظر ماذاترى في قوم فارين إلى الله عن الخلق ، وفي قوم لائذين بالله وعائذين به على أن لايشهدوا لأنفسهم مع الله وجود ، ولا لأفعالهم مع أفعاله شهود حسنات أواقتراف سيئات . شعرا :

الأعمال أشكال والإخلاص حالات   والسابقين لهم في القــرب آيات
فكل حال له في العاملين بــــــه   تخليص أعمال أوتحقيق حـالات
شواهد ظهرت في العاملـــين كما   ترى في العالم الأعــلا دلالات
إخلاص أرباب حالات اليقين لها   في مشهد العلم تحقيق الهدايات
وأرواح أجساد أعمال العباد هنـا   كما لأحوال أصحاب المقامـــات

ثم لما كان في الخمول مايحمد كل صاحب مقام علا مقامه ؛ ويثبت فيه أقدامه ويعينه على بغيته ، ويحصل به في أقصى منيته ، قال في إثر ذلك :

(أدفن وجودك في أرض الخمول ؛ فما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه)

قوله هنا : أدفن ؛ فيه إشارة عجيبة وترشيحة بديعة ، بل نقول : غب عن شهودك بوجود معبودك . وتمثيله بالدفن يشير إلى أن الأولى بالمريد إيثار الخمول على الإشتهار ، لكونه معينا له على الإخلاص ، ووسيلة إلى

الخلاص ، وأزكى لأخلاقه وأعماله ، وأصفا لأحواله ، والإشتهار غالبا أبعد عن ذلك في حق المبتدئين ، فما يقوم ويثبت مع شهرة الحال إلا كمل الرجال وسادات الأبدال ، الراسخين في المعارف ، المتمكنين من الأحوال ، فلذلك حث المشايخ على الخمول لما فيه من السلامة من القواطع عن نهج الوصول ، مع مايحصل من صفاء الوقت عن المكدرات والمحرقات لكوامن الأخلاق المذمومة والأحوال الملومة ، فلذلك حذروا كل مريد وسالك ، وعملوا كتب ورسائل نصحا وشفقة على عباد الله ، وخذوا في طريق الأكابر لما فيه من الراحة العاجلة والسلامة . وحب الخمول هو صنعة النفس في المنازل عندما يتكرع القلب في المناهل ، فيتحرونه ويستديمون التخلق به حتى يكون لهم التواضع خلقا وحالا ، فلايجدون ألم ضعة النفس ، بل يستمرونه ويستحلون ذوق الذلة ، فتتغير حالاتهم لفقدها ، ووجود العز والجاه حتى رويت عندهم في ذلك أحوال ينكرها عليهم ظاهر العلم ، وجوز لهم ذلك تداويا لما ألم قلوبهم وكدر حالاتهم ، وأمرض أحداق بصائرهم حتى يتوجهون إليهم الخلق بالذم وعدم المنزلة عندهم ، فيعودون حينئذ إلى أحوالهم بالذم والإيذاء بمحو صفات النفس المذمومة ، بل بعدم رؤيتها بالكلية تصفو لهم الأوقات ، وتتجلى لهم أسرار الصفات . مثل مارأيت فيما يروون عن السادات كأويس القرني وأبي تراب ممن جعلوا الفلوات والمفازات والخرابات لهم مأوى ، فعاد ترابها لهم حلوى ، وصاروا للسالكين قادة في محو الهوى وقبيح العادة ، فيحنون إلى الخمول والخلوة ، لما فأجا قلوبهم من الجلوة ، فعلت منهم الأحوال ، وصفت منهم الأعمال ؛ من شوائب الرياء ومهاوي الضلال ، كالعجب والفخر والإدلال ، بعكس

ماعليه أبناء الدنيا المغرورين الجهال ، المستدرجين الضلال ، من طلب العلو والظهور من غير نية لهم في ذلك إلا مجرد هوى ، ومحض دعوى . فترى نفوسهم اللئيمة تستروح إلى رفع الصيت بالمنصب والمال ، ويخيل أنها من أهل المقام والحال ، من العارفين والعلماء الأبطال ، وهو راكب للمحال ، مقتحم لجة ضلال . فانصح نفسك أيها المسكين ولاتذبحها بغير سكين . ففي الخمول تحت أذيال الذلة غاية المأمول ، وفي دفن وجودك في تراب ذلة العبودية وسكونك تحت سلطان السكينة ، وانطراحك في تراب فناك وترك دعواك ، فعند ذلك تتفتق الحبة القلبية ؛ المعبر عنه باللطيفة الربانية في الأرض القالبية ، فهي البذرة الأزلية في الفطرة الإنسانية ، فتنفتح فيها بابان : باب يعلو ويسمو ويتسع وينمو ، وباب ينزل إلى أرض العبودية في العوالم الشهادية . وتجري في ذلك الباب نازلة تدور على الطرق السنية ، وإخراج الأخلاق النفسانية والدواعي الهوائية ، كما تدور العروق في الأرض . فلا يزال الباب العالي يستقوي نموه وارتقاه ؛ وتتفتق الأزهار ، وتشرق منه الأنوار ، وتنبع ألوان الثمار ، وتكثر منه الشعب العرفانية ، والأزهار الإيمانية ، وتتعالى وتتسع في هوى الملكوت الحقاني أغصانه ، وتظهر في الفسيح الرباني أعيانه ، وتتلون في حقائق الأسماء أفنانه . ولاتزال هذه الأبواب الملكية تتسع في طرق العبودية ، وتمتد إلى أصلها وتربتها ، فتنمو تلك الصاعدة بحسب تمكن هذه ورسوخها ، وتربوا هذه النازلة بحسب صعود تلك وسموها .

وكل نبت لم يدفن كذلك لم يتم نتاجه إنها لم تنفتح البابان فتبقى في رتق الجهل والعدم وإن انفطرت أبوابها فلا تجد نزول إلى الأرض البتة ؛ لأنها لم

تدفن فيها ، ولاترقى إلى سماء الحقيقة لعدم نموها وقعود سيرها ، فلم تسعد في سماء الحقائق أغصان ، ولم تنفتح له في أرض الشريعة أعيان ! فانظر ما أبدعها من إشارة وأوضحها من عبارة ، وما أسناها من بشارة لمن ستر وجوده بوجوده ، وغاب عن شهوده بوجود معبوده ، وما أدري ذلك مراد للمؤلف أم لا ؟

وأما فضل الخمول قبل أوان التحقق بالأصول والتحلي بملابس الوصول فله فضائل ودلائل من الكتاب والسنة ، قال الله جل ذكره ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولافسادا** ﴾ [**الآية** ٨٣ القصص] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على فضيلة الخمول ، والتقلل من الدنيا والذبول عن رونق الشهرة قبل تحقق المأمول . ولم يتحقق ذلك إلا بمفارقة الدنيا والعبور على الصراط وكل مهول . وأما الدلائل من الحديث المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم فأكثر من أن تحصر ، فمن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نوه فيه بأويس القرني رضي الله عنه ونبه على عظيم أمره رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حلقة من أصحابه إذ قال : ليصلين غدا معكم رجل من أهل الجنة . قال أبوهريرة رضي الله عنه : فطمعت أن أكون أنا هو ذلك الرجل ، فغدوت فصليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فأقمت في المسجد حتى انصرف الناس وبقيت أنا وهو ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود متزر بخرقة ومرتدي برقعة ؛ فجاء حتى وضع يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

يانبي الله أدع الله لي بالشهادة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم له بالشهادة ، وإنا لنجد منه ريح المسك الأذفر ، فقلت يارسول الله : هو هو ! قال نعم ؛ وإنه لمملوك بني فلان ، فقلت أفلا تشتريه فتعتقه يانبي الله ، فقال : وأنى لي بذلك ؛ إن كان الله يريد أن يجعله من ملوك الجنة وساداتهم ، يا أبا هريرة : إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤسهم ، المغبرة وجوههم ، الخمصة بطونهم من كسب الحلال ، الذين إذا استؤذنوا على الأمر لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المنعمات لم ينكحوا ، وإن غابوا لم يفقدوا ، وإن حضروا لم يدعوا ، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم ، وإن مرضوا لم يعادوا ، وإن ماتوا لم يشهدوا . قالوا يارسول الله : كيف برجل منهم ؟ قال : أويس القرني . الحديث بطوله ؛ قال فيه : وإنه لرجل أشعث ذو صهوبة بعيد مابين المنكبين ، أوكما قال .

وحديث : رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبوا عنه أعين الناس ، مدفوع عن الأبواب ؛ لو أقسم على الله لأبره . الحديث . وحديث أبوأمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله عز وجل **(إن أغبط أوليائي عندي المؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر ، وكان غامضا في الناس لايشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك ، ثم نفض يده فقال : عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قل تراثه)** الحديث .

قلت : والله أعلم أن هذه حالة الملامتية من الأولياء ، وبذلك الإسم عند الطائفة عرفوا بذلك الترسم بين الأولياء وسموا . فمن جملة مايعرفون به أن

عبادتهم فيما بينهم وبين الله لم يطلع عليهم ، يحبون لوظهرت عنهم مايسقطهم عند الناس ، ولايحبون الشهرة بالطاعات والورع ، فتراهم لايسألون عن ورعهم لما عندهم من الشاهد القلبي ، فكلما حال عندهم تركوه ولم يحتاجون إلى من يخبرهم الجواز أخذه أم لا ، وذلك لما شربت قلوبهم من صرف الصدق ، فهم النيابون باصطلاح القوم الذين تكشف بهم عن الخلق أزمات الأمور ، ولايظهرون خير ولايبطنون شرا ، هم بين الناس وقلوبهم عاكفة بين الرفيق الأعلا ، صلاتهم في الأماكن المعطلة عن الخلق في أماكن غيبيه ، تحت أكناف الغيرة واستتار الغيب ، لهم التصرف النافذ في الوجود بالروح والقلب والجسد ، قد نزع عنهم الغل والحسد ، محلهم الصفيح الأيمن من العرش ، رضي الله عنهم ونفعنا بهم . ولو شرحنا بعض حالاتهم لخرجنا عن مقصود الكتاب .

وعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يسير من الرياء شرك ؛ وأن ماعادى أولياء الله فقد بارزالله بالمحاربة ، والله تعالى ليحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفقدوا ، وإن حضروا لم يدعو ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح أهل الهدى ، يخرجون من كل غبرا مظلمة . الحديث . فيكيفك هذا القدر في مدح الخمول وإيثاره وطلبه بالتستر بأثواب الذلة والمسكنة ، هذا وماكاد أن يخرج عن الحصر من حكايات الصالحين في شان ذلك .

واعلم أن الخمول وماورد فيه من الفضائل ، وماورد في أفضليته على الشهرة لاعلى الإطلاق إلا إذا اقترن بالخمول فضيلة خلا عنها في الشهرة وذم الشهرة ، إلا إذا اقترن بها مذموم ، ولكن الخمول أقرب إلى جانب

السلامة ؛ هذا في السالكين المبتدئين ، وأما أهل التمكين والسادات الواصلين فلا عليهم إن أقامهم الله في مقام الشهرة أوالخمول ، فليس لهم في شيء طلب وتعمل لأنهم متحققين بالعبودية موخوذين عن أنفسهم تحت أحكام الربوبية ، فلايعطيهم مقامهم أن يتجروا مع الله على مقتضى إرادتهم واختيارهم ، بل يكونون في قبضة مملكته يجرون حيث أجراهم ، ويقومون حيث أقامهم ، غابوا عن الخلق بل عن أنفسهم ، فلم يروا من يختفون عنه غير الله ، وهؤلاء هم الصوفية حقا ـ فلايحبون دونه محبوب ، ولايطلبون غير مراده مطلوب ، فعبدالله يكون مع الله حيث ماتقلبت به الحالات ، واختلفت به الشئون ، فمن أحب مع الله حالا دون ما أقامه الله فيه فقد تحكم على الله ، ونقض عقد العبودية على مذهبهم ، فهم المقربون الذين حسنات قوم سيئات غيرهم ، فعبدالله لايبالي أظهره الله أوأخفاه ، فلا أظهر ولا أشهر من مناصب الأنبياء والخلفاء ، ولكن هذا غور بعيد المهوى ، زلت فيه أقدام كثير من المدعين لظنهم أنهم قائمين بالله لابأنفسهم ، ولو تغيرت عليهم حالة من حالاتهم أوعادة من عاداتهم افتضحوا بدعواهم القيام بالله ، فلو كانوا بالله لم تغيرهم الحادثات ، ولم تنقض عزائمهم العادات ، فليحذر الإنسان من ذلك ولينصح نفسه ويعرف منزلته ، ولايدعي ماليس له ، فيظن أنه اتصف بصفات الأكابر من الخلفاء والسادات الأولياء ، وأنه ترقى في مقامهم ، وهيهات ؟ أين أنت من ظهورهم واشتهارهم ، فإنهم قائمين في الأمور بالله ، يعدون نفوسهم من جملة غمار خلق الله ، لايتميزون عنهم بشهوة دنياوية بل يضيقون على أنفسهم ويوسعون على عباد الله .

ومن تتبع أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله وأخلاق الخلفاء الراشدين من بعده علم ما أشرنا إليه ، وتحقق ما أومانا إليه . ومن ذلك ماروي أنه صلى الله عليه وسلم كان يطوي الأيام المتتابعة حتى قالت له بعض نسائه قبل أن يتوفاه الله بأيام : لو دعوت الله أن يوسع عليك ؟ فقال : ما أحب إلا أن يلحقني بإخواني من أولي العزم ، أونحو ذلك . وماروي عن عمران بن الحصين لما زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وكان معه عمران ، فاستأذن عليها ، فلما دخل هو وعمران فقالت : ما أجد ما أواري به جسدي ، ولفت على جسدها بعباءة ووارت رأسها بملأة خلقة . فانظر هذا التواضع مع شامخ عالي منصبه وشهرة مقامه . فهذا فإنهم في عالي شهرتهم ورفعة منصبهم ، ومع ذلك هم في غاية التواضع والذلة لله ، وغموض العين عن الدنيا وزهرتها . شعرا :

أدفن وجودك وغب في أرض مسكنه منكس الراس باكي العين ذا حزن
وفارق الأهل والجيران منـــــتزح عن التأنس بالمألوف والوطــــــن
لاتلو عن جيرة الوادي فإن بــــه حور المعارف يخطبها ذوي الفطن

فحيث عرفت شرف الخمول وإيثاره وضرورة طلب الإشتهار وآفاته ، قال :

(ماعرف القلب شئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة)

فاعلم أنه لا أعون على الخمول من العزلة ، فهي ذوي مرض الخلطة المضرة ، وهي خلطة من لم يتقيد بالأدب وهم الأحداث المثبطين عزمات المريدين ، الذين لم تحتنكهم الرياضة ، والعوام الغافلين المتهورين في العادات ، المعرضين عن العبادات ، المنتهكين أعراض الخلق بالغيبة والشتم والتحقير

والتخبيط في الأقوال والأفعال ، فلا أضر على القلب من مخالطتهم ، ولا أقبح على المريد من مجالستهم ، وغاية نصحهم وفر حاجاتهم أن يحرضوا من جالسهم على جمع الدنيا والحرص على الرئاسة والصلف ، وحب الثناء . فمخالطتهم أعظم ضررا على القلوب .

وأما من كان مساعدا وعونا لك على ما أنت طالبه فداء القلب مصارمته ومقاطعته ، ودواه مجالسته ومصاحبته ، فإن لمرايا الصادقين استنشاق بعضها من بعض ، فلذلك إذا عدم الشيخ المربي قام الإخوان مقامه كما يقوم التراب في استباحة الصلاة مقام الماء ، ونفاعة القلب سلامته عن أمراض الإعراض والإنهماك في مهلكات الشهوات ، والوقوع في ورطات الهفوات ، ودواعي الأغراض البشريات . والقلب هو لطيفة نورانية ؛ فمتى أوردت عليها هذه الكثائف الظلمانية أضررت به لامحالة . وضرره طمس نوره ، وأخفا مشرقات بدوره تحت سحب سجف ظلمات أسباب الدنيا ، وأراجيف الخلق وأباطيل تزوير الشيطان بترويجات الغرور ، وسفساف مذموم الهوى الطبيعي النفسي ظلمات بعضها فوق بعض . فهذه أمهات الحجب الكونية الظلمانية ، وبالعزلة ينقطع معظمها ؛ لكن بشرط كون المعتزل يعلم مايلزمه فيها ، فمن ذلك علم اليقين ، والقيام بكل ماطلب الشرع منك القيام به ، واستصحاب الفكرة الصافية في بديع الصنع ، فمعظم الدوى في الحمية . فعند القيام بحقها يرجى له الشفاء من أمراضه ، والإقبال بعد إعراضه ، والعزلة من أحد أركان طريق الله ؛ بل هي الركن الأعظم إذا صحبها الصدق ، فلذلك لم تزل دأب الصادقين وأكملهم محمد سيد المرسلين ، كان يتخلى في حر الليالي ذوات العدد حتى قالت قريش

: أن محمدا يخلو بربه في حرا حتى فاجأه الوحي وهو فيه . والعزلة عزلتان : عزلة بالأبدان وعزلة بالجنان ، فأما عزلة الأبدان فهي للعباد السالكين والزهاد والمريدين ، ولها شروط ظاهرة وهو ماقدمنا ، وأركان باطنة وهي تحقيق الإرادة بالصدق وصريح الإيمان .
واعلم أن لله على الإنسان له حقوق وللنفس والخلق كما ورد الخبر ، ومن الحقوق ما يمكن أن تقضى بدون مباشرة الإنسان ، وبعضها لايقضى إلا بالمباشرة . ومن الحقوق مايمكن أن تقضى بدون مباشرة الإنسان ، وبعضها لايقع إلا بالمباشرة ؛ ولم تسقط عنه هذه الحقوق بوجه مادام بين أظهر الخلق إلا أن يغلبه حال ويحكم عليه ، فلم يبق له تصرف من تصرفات نفسه لغيبته عن حسه وفناه عن أنسه ، أويكون صاحيا لكن جعل لديه منازلة حقية عرفها الله إياها بتعريف إلهي لايدخله ريب في أنه أمرالله الخاص ، فذلك بحكم حالته ، وموكول إلى صدقه في مقالته ، فإن كان صادقا فهو قائم لله بأتم طاعة فلايدانى ، فذلك مما اختص به أنبياه وخواص خلاصة أصفياه ، وإن كان على غير ذلك فليتق الله في دعواه ، ولينزع عن متابعة هواه إلى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ندبه إليه ودعاه ، وإن تغيرت حالته بمخالطة الناس في ذلك فطريقه أن يخرج من بين أظهرهم إلى محل يسقط عنه ذلك ، والله أعلم ؛ ماحمل العباد والزهاد والصالحين على الخروج إلى الفلوات ، وسكون الجبال وبطون الأودية والفرار عن الأوطان ومهاجرة الأقران . لكن ذلك يحتاج معه إلى قوة يقين وحقيقة توكل وتمكين وحسن تولي من الله ، وإلا فالبادية ميدان فرسان الشياطين . فإن لم تكن معه قوة تعينه على ذلك ،

وتدفع عنه شر ماهنالك وإلا خيف عليه أن تستوليه بطغيانها ، وتخوفه بتلوين سحرتها وتغول غيلاتها ، فالأولى بضعيف اليقين السكون في الديار لصحبة الأخيار وتجنب الأشرار ، وتحري الإستغفار بالأسحار ، ودوام الأذكار آناء الليل والنهار ، فيلحقه الله بالصالحين ، وينيله مراتب الصادقين من البدلاء الأبرار ، وتتدراكه العناية بحسن الرعاية ، وتتولاه بالإختصاص والولاية ، فيلحق إن شاء الله بمن تفرد وزيادة فوائد . فمنها : رؤية التقصير واعتماده على نصرالله دون تدبيره واختياره .

ومن علاماته الباطنة أن يكون متعلقا بالله ومتحققا بأوصافه ، ومتخلقا بأوصافه ، ومتخلقا بأسمائه ، فلايرى نفسه في ذلك فضلا عن أن يرى لها ، ولاينظر إلى الخلق بالمقت والإزدراء ، ولكن يشكر الله على ما أولاه من نعمه ، وعافاه مما يشغله عنه من دواعي هواه ، ويكون على الخلق مشفقا ولهم راحما وعليهم متحننا لطيفا عطوفا ، ويكون ذافكرة صافية وبصيرة وافية ، دائم الذكر لله ، متوالي الشكر على نعم الله ، دقيق النظر في مواضع الخطر ، غاض البصر عن الدنيا ومافيها ومن فيها ، كثير السهر والجوع ؛ ففي السهر تنوير البصيرة ، وفي الجوع صفو السريرة ، وذلك بعد توفيق الله ومعونته صارت الأبدال أبدالا ، فهذا من بعض شروط عزلة العباد والزهاد السالكين والمريدين الصادقين .

وأما عزلة الأكابر العارفين وأفاضل الصديقين ؛ فعزلتهم بالجنان دون الأبدان ، مباينين الخلق بالقلوب والقوى القائمة بالأركان دون التغيب بالأبدان ، فمن كان مقامه الإحسان ولم يشهد معه ثان ، فعن من يعتزل ؟ ولمن يبتذل ؟ فهو مع الله مستغرق الجنان ؛ سامع عنه ناظر إليه بالعيان

، في كل حين وأوان . في الفطر والأعيان متجليا ، وعليها متوليا ، مشتغلا بذكره باللسان ، وطاعته بالأركان ، كيف ماتقلبت به الحالات فهو جليسه ، ومن بين جلسائه أنيسه ، كما قالت رابعة رضي الله عنها في بعض مايروى عنها من الأقوال ، في طفحات الأحوال شعرا :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي مؤنس لجليسي

فمن كان كذلك فخلطته عزلة وعزلته خلطة ، ومعنى ذلك أنه إذا خالط الخلق مباينهم بقلبه ، معتزل عنهم بوجوده لربه ، وإذا اعتزلهم كان مصاحبهم بربه لشهوده الكثرة الخلقية ؛ في الوحدة الحقية ، اضمحلالا واندراجا ، والوحدة في الكثرة الخلقية إحاطة وعلما وشهودا وحفظا وقياما وكلاية وتصرفا واحتكاما . واعلم أنه وإن كان كذلك فينبغي له وإن بلغ من القرب مبلغا فلا غنى له عن ساعة ووقتا يخلو فيه ليعود بركة خلوته على تفرق جلوته ، فيكون في الخلوة ملحوظا ، وفي الجلوة محفوظا . ومن ذلك ماروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لي وقت لايسعني فيه إلا ربي . شعرا :

بعزلة المرء يسلم من معاطبه وتبرئ القلب من الأمراض والعلل

بصافي الفكر يدرك من مآربه ويبلغ السؤل والمطلوب والأمـــل

فلما كان القلب لايصفو بدون ماذكر من العزلة عن مكدرات القلوب ، ومؤبقات الذنوب ، قال : كالمتعجب من حال من يطلب أن تشرق القلوب وهي ملتبسة بقبائح العادات ، ومشؤمات العيوب . قال رضي الله عنه :

(كيف يشرق قلب وصور الأكوان منطبعة في مرآته)

إذا علمت استحالة اجتماع الضدين ، والإشراق هو وجود الحق ، والأكوان ظلمة ، إذا اعتبرت وجودها من حيث هي ، والنور والظلمة ضدان لايجتمعان في آن واحد ، ولكن لما لم يكن وجود أحدهما مانع من ورود الآخر عليه في ثاني الحال ، وإنما العجب ممن يظن أحدهما وسيلة لوجود ضده ، ولكن الله ببالغ حكمته وسابق إرادته أن جعل لكل مقصد وسيلة ، ولكل عمل صناعة وحيلة . وهذه المقامات سردها المؤلف في هذه المقالات لقرب تناسبها ، وإلا إذا نظرت بدقيق الفهم رأيت لكل مقام منها عمل ومقال ، فجعله الإشراق للقلوب لأنها محتد النور والظلمة ، وهو معترك الجيشان ، فكلما قام به ظهر أثره في الجوارح ، فكلما ظهرت الآثار الظلمانية الداعية إلى الإهلاك والإغواء ، فمن المادة الظلمانية واللمة الشيطانية ، وكلما ظهر أثره من الشهوة الهوائية فمن المادة النفسانية . وكلما ظهر أثره من الأعمال السنية والأخلاق النبوية فمن المادة الروحانية واللمة الملكية . وماكان من الأحوال العرفانية والمقامات القربية فمن الواردات الربانية والتنفسات الرحمانية . ولكل أثر باب نافذ إلى القلب ، وعرق متصل من القلب إلى النفس ، وحركة من النفس إلى القالب ، ونور مشرق من الرب إلى العبد مراتب عالم الفضل ودركات عالم العدل .

وفي كل باب من تلك الأبواب صور شتى ؛ وكل صورة منها حجاب على وجه القلب ، كما أن كل خلق له إشراق ؛ فجملة مادة عالم الفضل ومادته من لمة الملك الروحاني ، والجانب الرحماني ، والتفضل الرباني ، واللطف الإمتناني . كما أن جملة مادة عالم العدل من اللمة الشيطانية ، والدواعي الهوائية والشهوات النفسانية ، ولايمكن اجتماع هذين الضدين . فإن أردت

ورود هذه الأنوار ، وظهور تلك الأسرار فعليك بتخلية القلب عن ظلمات الأغيار ، وكسح غبار الأنا ، وكنس الأوساخ الشهوانية والأقذار . ولذلك معاملة ومعالجة ؛ فمن أنجح المعاملة وأوجز المعالجات عن كشفها من القلوب بالذكر التلقيني ، وهو ذكر النفي والإثبات المعهود عند أهله ، مع القيام بالوظائف الشرعية ، والسلوك في جميع مايأخذ ويذر على يد شيخ بصير بآفات النفوس ، مؤيدا بأنوار القدوس . وعند ما تنجلي عنه هذه الظلم يرجى له ان تنجلي له هذه الأنوار ، وتبدو له هذه الأسرار ، فيمحو عن مرآة قلبه بمصقله **لاإله إلا الله** طوابع المكونات ، ويجلوها بصافي الفكر في بدائع المصنوعات . فعند ذلك تقابل مرآة القلب الصقيلة العوالم العلويات ، والأسرار الملكوتيات ، فتبدو فيها عجائبه فيفيض آثار ذلك على ظواهر الأعمال ، وزواكي الأخلاق وسوامي الأحوال ، وبسط ماتضمنته عبارته ، وأومت إليه إشارته ، وأسع الأنحا غزير المعنى ، فلنقتصر على مايفهم ما اشار إليه . فإشراق القلوب شموس المعارف ؛ وبدور اللطائف لايجتمع مع ظلمات الكثائف الكونية . شعرا :

لايشرق النور في قلب إذا انطبعت   بصورة فيه طابع ظلمة العـدم
إلا إذا زال ليل الطـــبع وانبعثت   بصحبة الذكر ثم الفكر في الحكم

لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهوته)

يفهم من قوله هنا : يرحل إلى الله ، أن الشهوات عوائق عن السير في منازل السلوك العلمية ، وعبارته في الأولى يفهم التعثر في البقايا الظلمانية عن الأسرار القلبية ، وعبارته دالة عن التنصل عن القيود العادية ،

ومفارقة الأخلاق الأرضية والطبائع الحيوانية . وهذا طريق إلى المعاملة القلبية ، فالإختبال بالأسباب الدنياوية ؛ والمحبوبات الكونية ؛ قيد عن السير في الحضرة القربية ، وهي معان متقاربة . لكن لكل شيء منها ملحظ ؛ فطريق محو الظلم كاذكرناه آنفا من إخلاص الذكر وصفاء الفكر ، وطريق ذلك في الرياضة النفسانية من باب التروك ، ولا أعون عليها من التفكر في انصرام الأجل وفوات الأمل وزوال الشهوات ، وحصول المصائب والحسرات عند فراقها وندامة الفوات ، فنقنعها بخوف القطيعة وتنظر فيما خولته الدنيا نعيمها ؛ كيف تقشعت عنه سحائب خلبها وسراب خدعها ، فالرحيل إلى الله بقطع عقبات النفس ، وأهبة الأخلاق السنية وطريقة اتباع الآثار النبوية ، والأخذ بعزائم السنة ، ومخاوف تلك الطريقة الشبه وقواطعها الحظوظ الدنياوية ، والشهوات النفسانية ، والتغريرات الشيطانية ، والتزينات الهوائية . وزادها التقوى ، ومطيتها الهمة . وحادي تلك المطية الشوق ؛ وسائقها الخوف ، وزمامها الغرم ، وآلات رحيلها العلم ، وقوتها الحكمة ، ومراحلها الأنفاس ، ومقصدها الحضرة ، وضيافتها الجنة ، وكراهتها الرؤية ، وسرورها الرضوان ، ومقيلها الأمان ، وتحيتها السلام ، وعرائسها الحور الحسان . شعرا :

إن القيود عن الترحال عائـــــقة إن شئت فارم قيود الطبع واستبق
كبول شهواتك اللي فيك حاكمـة فبادرن واخرجـــن عما عليك بقي
فكل الأكوان عن مطلبك قاطعة واقطع عن الكون واترك من بذاك بقي

(أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابات غفلاته ! ؟)

أم كيف يطمع بعد ماعلم بأن حضرة الله الخاصة بأنبيائه وأوليائه وهي حضرة الإحسان ، ومحل الجلي العيان عند ذهاب صور الأكوان وفناء الأعيان ، أنه لايدخلها من لم تكمل طهارته من جنابات غفلاته ، كأنه لما اجتهد في تلطيف كثائف ظلماته ؛ وطرح شهواته ؛ وترك مقعدات عاداته ، ظهر منه رائحة طمع أنه بذلك دخل حضرة الله وهو بعد لم يدخل ، وهو يرى في نفسه ذلك حتى يغيب عن كونيته ، ويتطهر بماء التقديس من جنابات الدعوى ونجاسات التلبيس . فلا يدخل ذلك الحضرة وهو يرى له من نفسه بقية ، فمتى حصل على تلك الحضرة وحظي بتلك النظرة فحينئذ يرى ظهور جنابته ، وقد منعك شرعا حضرته الحسية حال قيام الجنابة الحسية بك ، فأولى أن يمنعك عن الحضرة الخاصة حال تلبسك بالجنابة الخاصة . ففي عبارته إشارة لطيفة إلى أن حضرة الإحسان خاصة في المقامات القربية ، كاختصاص المسجد في الحضرات المكانية . فالمسجد حضرة صورة العبادة ، والإحسان حضرة تجلي المعبود ؛ وأين هذه من تلك . وقد حضر الشرع دخول هذه الحضرة مع وجود الجنابة ، وما سميت جنابة إلا لأجنابها بمن قام به عن حضرة القرب ، ومستوى الإستقامة إلى البعد تحت كثيف غطاء الشهوة على جميع الجوارح . فالغسل حياتها وردها إلى مواطن إقبالها ، فيعم جميع الجوارح لتحيا لأن في الماء سر الحياة فتحيا بعد موتها ، واحتراقها بنيران بعادها . فالحمد لله الذي من بلطفه ، وتفضل بعطفه ، فما الحياة للجنابة المعنوية تجلي اسمه الحي على من أمات الحجاب من وجود الشهوة ، فالماء أثر اسمه الحي ، فالحي تحيا أموات الصور ؛ كما تحيا الأرض بوابل المطر ، وبوجود المؤثر

وشهوده يحيا المعنى القائم في الإنسان بصورة ذلك التجلي الذي الماء أثره ، وبحياة المعنى يغيب عن شهود كونيته وظهور آينيته ، فجنابة الصورة الحسية الذي هو أثر ذلك المعنى يحيا بالماء الذي هو أثر عنه أيضا . والمعنى المذكور هو وجود الحق القائم بها ، فبالماء يحيي الصورة من أجناب جناباتها ، ويتجلى اسمه الحي يحيي ذلك المعنى ، وحياته رجوعه إلى أصله ، واجتماعه بعد فرقه ، واتحاده بأصله بعد فصله . شعرا :

فكيف تطمع أن تدخل لحضرته ولم تطهر عن الإعراض والجنب
وكيف تطلب أن تدنو لوصلته وأنت في غفلة محفوف بالحجب

ولما كانت ظلمات الجنابات والذنوب مانعة عن إشراق القلوب ؛ وصادة عن السلوك إلى المحبوب ، وحاجبة عن نيل المراد والمطلوب ؛ حتى تعود عن إعراضك وتتوب . قال المؤلف رضي الله عنه :

(أم كيف ترجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته)

الرجاء هنا ضد القنوط ، وهو في أصله محمود حيث اقترن بالتقوى عن المخالفات ، واجتناب المنهيات ، والإتيان بالمأمورات ، وإلا فهو أمنية . وإذا صحح التوبة يرجى أن يفتح له أبواب العلوم ، وتظهر من أكنتها دقائق أسرار الغيوب ، وتسري إليه الأحوال الوهبيات ، وتلقى عليه العلوم الوهبيات ، ودقائق الحكم الغيبيات ، وتتراءى له الأسرار الملكوتيات ، في الحقائق الجبروتيات ، والشواهد الملكيات . قال الله جل ذكره ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله** ﴾ [الآية ٢٨٢ البقرة]

والتوبة عن الهفوات أول مقامات التقوى وله مراتب ، ولكل مقام رتبة في التقوى ، فلم يدرك دقائق العلوم في رقائق المقامات حتى يتوب عن الخطرات فضلا عن الهفوات الظاهرات ؛ وبعد ذلك مقامات ورتب . وأركان التوبة ثلاثة إذا لم يتعلق بها حق للخلق وإلا فأربعة ، ولكل أهل مقام توبة على حسب مقامه ، فكلما لطف المقام لطف سر التوبة وظهرت له ذنوب خفيات ، ولايزال يلطف حتى يتوب مما يصدر منه من سائر الأحوال والأقوال والحركات والسكنات ، ومما يعد من الطاعات ، وذلك يعرفه من تحقق به . فالتوبة مفتاح الخيرات ، وكل أهل مقام يفتح في توبتهم بحسب مقامهم وفهمهم عن الله ، والتوبة هي الرجوع إلى الله فتنفتح فيها دقائق علوم ولطائف أسرار ، ولوائح أنوار . فالعوام يعطون الفهم في الشرائع والأحكام ، والخاصة يعطيهم مقامهم في التوبة الفهم في الحقائق والتمكن في الأحوال . وخاصة الخاصة يعطيهم مقامهم في توبتهم المعارف في لطائف الوجود والتحقق بالوصال ، فهذا من ثمرات التوبة لأهل كل مقام في توبتهم ، وورى ذلك مالم يكن إذاعته من مكونات العلوم ، ومصونات الأسرار ، وبواهر مشرقات الأنوار ، ومحرقات الأغيار ، وأحوال عالية ، ومعارف سامية . شعرا :

دقائق أسرار مكنون العلوم وما ... تحت الكثائف من محجوبة القدر
مفتاحه التوبة الصدق النصوح كما ... يكون مفتاح فلق الحب بالمطر

فإذا علمت استحالة اجتماع الضدين ؛ وهو الظلمة والنور فاعلم أن العبد ذاتا ووصفا وفعلا دون الله عدما محضا ، وهو المشار إليه بالجنابة ، وهو

أيضا الجهل . فلقرب هذه المعاني جمع المؤلف شملهن ونظم سلكهن في سبك لفظه بالتواتر . ثم قال كالشارح لذلك :

(الكون كله ظلمة ؛ وإنما أنار ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أوعنده أوقبله أوبعده فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار)

الكون هو كل ماسوى الله عز وجل ، وماهو صادر عن تكوينه، وهو بجملته وتفصيله دون مكونه ظلمة ؛ كما علمت في العدم ، والنور هو الوجود. فالكون من عرش وكرسي ، وسماء وأرض ، وجنة ونار ، وإنس وجان ، ومعدن ونبات ، وحيوان وهوى ، وماء وأملاك ، وأفلاك وجبال ، وعمل وحال ، وحياة وموت ، وطمس وظهور ، وفروع وأصول ، وظلمة ونور ، وجنس ونوع ، وليل ونهار ، وشموس وأقمار ، ونجوم وعلوم ، ومعلوم وموهوم ، وغير ذلك ممايطول تفصيله من جملة الكائنات وتفاصيلها واختلاف أعيانها وألوانها عدم باطل دون وجود الحق ، فحقق أن كل ماكان وجوده لابنفسه فهو عدم ، وحقيقة الوجود لمن هو موجود به ، وذلك هو الله الذي شهدت بوجوده أعيان موجوداته ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ [الآية ٣٥ النور] والنور هو الوجود كما قدمنا أن النور هوالوجود ، والظلمة هو العدم . فهذا من مقام من شهده فيه ، ومن شهده عنده ، يصدق عليه قوله ﴿ **سنريهم في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شي شهيد** ﴾[الآية ٥٣ فصلت

] ومن شهد بعده فمشهده قوله تعالى ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾ إلى قوله ﴿ **فذكر** ﴾[الآيات ١٨-٢٠ الغاشية] والتذكير لايكون إلا بعد سبق نسيان ، فمن لم يشهد المكون قبل الكون ، ولم يعثر على المصون قبل الصون ؛ فلا يخلو أما أن يكون من الذين يشهدونه عند الأشياء عندية منزهة عن الجهة ؛ ولكن عندية استغراق وقيام . وأما أن يشهده بعده فيستدل بالأثر وبحسن الخبر ، فيستدل بالأثر على المؤثر ، وبالصنعة على الصانع . وهذه آخر مقامات الموحدين .

وأما من يشهده بل يثبت الأكوان عرية عن وجوده فقد طمس على عين بصيرته ، وأظلمت عليه نور سريرته عن شهوده وحقيقة شهوده . فيبقى تايه في ظلماته ، غافل عن شهود آياته ، مقهور عن شهود الأنوار ، محجوب عن شموس المعارف وبدور الأسرار ، ونجوم العلوم بسحب العوايد وكثائف الآثار . فظهر عليه سلطان العدل وتجلي الجبار كما ورد أن حجابه النار . وماذكره مما يوهم الظرفية أوالمثلية ، أووجود زمان القبل والبعد أوجهة ، فليس على مايفهم من ذلك في الزمان والمكان والآن والأوان ؛ حادث موسوم بوسم الحدثان ؟ ولكن تجليات وتنزلات وتلطفات يعرف ذلك أرباب الشهود والعيان ، فليس له في ذاته ولاوصفه ولافعله شريك ونظير ولاثان . فالذي يشهده قبل الأكوان مستهلك بنفسه ؛ مختطف عن حسه ، ووجوده متلاش تحت جلباب الأوصاف فناب عنه فتسمى به ، وهذه رتبة في المحبة القربية والنيابة الوصفية ، فقام عنه فأخبر عن شهوده لنفسه بنفسه . وهذا الشهود له ديموميا لاينفك عنه ،

مستمر الشهود لنفسه بنفسه ؛ أزلا ووجودا وأبدا . والذي شهده عند الكون شاهد ظهور صفاته من تحت أستار حكمته ، والذي شهده بعده يطلب الدليل على وجود المكون لغلبة شهود المكونات على قلبه ، فلا يتمكن من غيبتها عن نظره إلا بعد إمعان نظر . فهذا والله أعلم مراد المؤلف بقبل وبعد وفي ، لاعلى على مايفهم من ظاهر الكلام . فالأولون أرباب الكشف والعيان ، والذين يلونهم أرباب النور والبيان ، والذين من بعدهم أهل الدليل باللسان والإيمان بالجنان . ومن لم يشهده بعد ذلك فقد أعوزه ؛ أي أعدمه وجود الأنوار ﴿ **ومن لم يجعل له نورا فماله من نور** ﴾ [الآية ٤٠ النور] فحجب عن الأنوار العرفانية ، والهداية الإيمانية ، والدلالة البيانية . وحجبت عنه هذه الشموس الظاهرة ، والبدور الباهرة ، والنجوم الزاهرة ؛ فهو حائر في ظلمات البشرية ، والعوائد الطبيعية . والسحب الأرضية هي الشهوات الحيوانية الذي تنشأ عن أرض النفس الطمأنينة الهوائية ، فكلما كانت تمكنها من النفس أقوى كانت سحب جهلها على شموس المعارف أكثف وأظلم ، فإذا ارتفع عنها سحائب طبائعها بعواصف هوائها حجبت المعارف القلبية ؛ والشموس الإيمانية ، والأخلاق الروحانية السماوية . شعرا :

من يشهد الحق قبل الكون كان له ... من المعارف أعلى رتبة فـــيها
ومن شهد ذاك عند الكون عامله ... من حالة الصدق ماعزت مراقيها
من كان مشهده بعد فليس لـــه ... إلا الدلائل والأقــوال يحكــيها
ومن تخلف عن هذا تقابـــله ... سحائب آثار عادات توافــيها

فإذا علمت أن الكون عدم وأن لاموجود سواه ، ولاظاهر في مظاهر الكون إلا إياه ؛ استشهد باسم القهر ، وعرفك أن ذلك مما لايكون أن الباطل يحجب الوجود الحق إلا من حيث تجلي قهره ، وغلبة أمره ، فقال رضي الله عنه :

(ممايدلك على وجود قهره سبحانه ؛ أن حجبك عنه بما ليس موجود معه)

قد علمت مما تقدم أن الكون كله ظلمة ؛ أي عدم ، ومع ذلك أي كونه عدم أنك محجوب به عن مكونه ، فذلك دليل على وجود قهره وغلبة أمره ، وإلا فكيف يظهر العدم مع الوجود ؟ أم كيف يظهر الغيب في الشهود ؟ أم كيف يثبت الحدث مع القدم ؟ فإذا قارن الحدث القدم اضمحل ولم يبق له أثر ، والحجاب إنما هو أثر القهر على بصيرة المحجوب ، وإلا جل الله أن يحويه مكان أويحده أوان ، أويكيفه أويحده أوان ؟ أويكيفه عيان ؟ أويتقدمه زمان .

والحجاب ينقسم إلى ما هو حجاب ظلماني كثيف ، وإلى ماهو نوراني لطيف ، والحجاب الظلماني يكون في توحيد الأفعال للعوام الجهال ، والمبتدعة الضلال . والحجاب النوراني يكون للخواص في توحيد الأسماء والصفات ، الآخذين في طريق الأعمال ، المشاهدين لما يصدر عنهم من حسن الأفعال وسنيات الأحوال ، ولكل حجاب علامة على من قام به . فعلامة حجاب العوام برؤية الخلق وأفعالهم دون الله ، وعلامة حجاب الخواص برؤية أعمالهم ، وأن لهم فيها حول أوقوة ، فالحجاب الظلماني يقتضي العذاب وسوء الحساب ، والثاني يقتضي الإلتفات إلى الأغيار وكثائف الأستار ، والتعوق عن اللحوق بأهل التحقق والعيان ، فمن كان

مشهده أفعال الخلق دون الله فهو بعد لم يخرج من حيز المبعدين ، ولم يعد في أصحاب اليمين فضلا عن أن يكون من المقربين السابقين ، ومن شهد أن لافعل لهم دون الله فهو معدود في غمار عامة المؤمنين ، ومن جملة أصحاب اليمين ، فهو موحد في الأفعال ، وذلك متعين على كل مسلم متدين . فحيث صح له ذلك فقد نجا بحمدالله من ورطة الجحود ، وانتظم في نظام الايمان ، وتكفل له بالأمان من جملة عباد الرحمن ، ومن ترقى عن ذلك بأن شهد أن لاحياة لهم فذلك رتبة في التوحيد ، ومقام في التفريد الخاص بالمقربين وهو أول رتبة في طريق الإرادة ، وشروق شمس السعادة ، وقد أذن له في الدخول وأذن له بالوصول والظفر بالمأمول .

ورتبة القرب الخاص في الخاص أن يشهد وجودهم عين العدم لإستغراق روحه في شهود القدم بمطالعة أنوار الذات المحرقة ، وأسرار الصفات المشرقة ، فهذا هو الواصل والإمام الكامل ، فلو كلف على رؤية الغير لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، ولم يظهر له وجود ، فكيف يرى الأكوان مع شهود العيان ؟ أم كيف تحجبه الأعيان عن التحقق بكل من عليها فان ، فلم تزل الأكوان في فنائها أزلا ، ووجودا وابدا هالكة من حيث نسبة غيريتها باقية من حيث حقيقتها ، فالوجد الحقي هو الظاهر على صفحات الأكوان ، المشهود به الأعيان ، القائمة به الذوات والأوصاف والأفعال والأبدان ، تنزه عن أن يحجبه كون ، أويطلق عليه باتصال أوبون . فهو سبحانه مباين الأشياء من حيث ذاته ووصفه ، محيط بها من حيث علمه ، مدبرها بحكمه ، مستغرقا لجميع أفعالها وصفاتها وذواتها من حيث قيوميته وشهوده وقيامه . شعرا :

مما يدل على قهـــــــر الإله بما حجبك عنه بما هو باطل عدم
إن الحجاب من المحجوب ليس كما يظنه الجاهل الغر الغبي الفدم
فلما تحقق وجوده ؛ واستغراق الأشياء بشهوده قال المؤلف رضي الله عنه :

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذي أظهر كل شئ)

كيف يحجبه الشئ وهو الذي أظهره ، وبلطيف حكمته وبديع صنعته دبره وقدره ، ومن العدم أبرزه ، وبما أشرق عليه من نور وجوده أوجده ، وبالشيئة عرفه ، فكيف تحجبه الأشياء وليس من الوجود إلا ما أظهره فيها . شعرا :

مثل الزجاجة ينظر من تأملها أن ليس موجود إلا نور باريها
فلما كان الظاهر فيها نوره ، والحاكم عليها سلطان ظهوره ؛ قال المؤلف رضي الله عنه :

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذي ظهر لكل شئ)

فكل شئ تراه ظهر به وجود موجده وكمال مبدعه وحكمة صانعه حتى استدل المستدلون عليه ، واهتدى بها السالكون إليه ، فقال عز وجل

﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ [الآية ٢١ الذاريات] شعرا :

وجود الأشياء تدل العاقل الفطن وتوجد الطالب المشتاق للوطن
فهذه الحكمة تدل على شهود تجلي وصفه ، والتي تليها تنبي عن تصرفه في الأشياء بنافذ قدرته وبالغ حكمته ، لذلك قال :

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذي ظهر في كل شئ)

قوله : كيف ؛ صيغة تعجب ! كيف يتصور ، والتصور هو ثبوت صورة الأمر في الخارج أوفي الذهن . وقوله : يحجبه ، يستر وجوده ، وذلك الشيء من جملة افراد حكمته ، وصورة من بديع صنعته ، فلا تخلو الأشياء أما أن تكون عن تجلي جماله ؛ أوظهور جلاله ، أوتحت حكم اسم من أسماء فضله أوفهم عدله . شعرا :

ظهور أوصافه في كل كائـــــنة … أونور أسمائه الأفعال تحكـــيها
إن المظاهر في الأوصاف كامنة … كالماء في سائر الأشجار يحيـيها
تفرقت حسبما تعطيه من صفة … قامت به الكل علقمها وحاليها

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذي أظهر كل شئ)

في وجوده فأوما له بالإقرار ، وسبح له بلا إنكار . وذلك لما شهد من الإقتدار ، وتجلى له من الأنوار ، في مختلف الأطوار ، وقامت له من الأسرار ، من وراء الحجب والأستار . فمن مشاهد ظهر له في صم الأحجار ، ومن مشاهد شهده في الكواكب والشموس والأقمار ، أومن وراء حجاب النار إلى غير ذلك . ومن مشاهد للحقائق متبرجة بلاخمار ، وظاهره له بلا استتار ، فشهد صرف التوحيد ونعته بما أشهده من صريح تمجيده بلا ريب ولا إنكار ، أولئك الصفوة الأخيار ، والسادة الأبرار ، الذين شاهدوا صرف اليقين ، وتحققوا بحقائق التمكين ؛ الأمين المحمديين . شعرا :

لقد عم الظهور لكل شئ … وسبح كل موجود بحمده
وأنقذ أمه من ٠٠رووعي … وفرج عنهم كـربـا وشــده
وثالث رحمته من كان حي … بأحمد صفوته خيرة عبــده

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الظاهر قبل وجود كل شئ)

لثبوت أوليته ، وتحقق أزليته ، وهو ظاهر لنفسه في أزله وأبده ، فلم يقيده وجود الأشياء ظهورا لم يكن له ؛ فكيف يحجب الحادث الجائز القديم الواجب ؟ أم كيف يحجب الصانع صنعته ؟ شعرا :

فكيف يحجبه من كان صنعته وحادث بعد ماقد كان في العدم
قد كان موجود قبل إنشأ بريته فكيف يحجب نور الحق بالظلم

فإذا كان ظاهر قبل وجود الأشياء فهو أظهر منها بعد وجودها ، لذلك قال رضي الله عنه :

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أظهر من كل شئ)

هذا إذا ثبت وجود الشئ فموجد الشئ ومخترعه منه من حيث سبق شهود الشاهد إلى ذلك الشئ ، فالحق أظهر بالوجوب والقدرة والتخصيص والحكم ، فالأشياء جائزة الوجود ناقصة القدرة عاجزة عن التخصيص ، فمن كان وجوده بغيره وقدرته عن غيره فحكمه كالعدم ، فقدرة العبد وإرادته محكوم عليها بالقهر تحت أحكامه الغالبة ، وقدرته النافذة . فأصل العبد وقدرته العدم ، وفضله العجز والنقص . هذا برهان ظهور الحق على الأشياء لمن كان تحت كن الحجاب ، وأما أهل الكشف فرؤيتهم للأشياء عين العدم كما قدمنا ذلك قريبا . شعرا :

الله أظهر أن يخفى مظاهره وجود الأعيان أوشئ من الغير
الله أكبر أن يوجد مناظره وجل عن مثل مايخطر في الفكر

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الواحد الذي ليس معه شئ)

ثبوت وحدانيته لم تبق لغيره معه وجود ، وظهور تجليه لم يبق لغيره شهود . وإذا قرنت الحادث بالقديم اضمحل وجوده وانطمس شهوده ، فكيف يكون معه وقد وجب تنزيهه عن الثاني في ذاته وصفاته وأفعاله ؟ ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لأبتغو إلى ذي العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبير** ﴾ [الآيات ٤٢ الإسراء] ﴿ **لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ [الآيات ٢٢ الأنبياء] والكلام على الوحدانية يقتضي البسط والتطويل ، وفي الإشارة بذلك كفاية لمن شرح الله صدره بنور اليقين . شعرا :

الله واحد لايثبت له ثاني فليس له جل أمثال وأقراني

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أقرب من كل شئ)

كما نطق بذلك الكتاب ، وشهدت به السنة ، قال الله عز وجل ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ [الآية ٨٥ الواقعة] وقال أيضا ﴿ **أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد * ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط** ﴾ [الآيات ٥٣ - ٥٤ فصلت] وأقربيته لا تشبه أقربية الأجسام بل هو القائم على كل نفس بما كسبت ، بل قربه قرب شهود وإحاطة وكلاءة وقدرة وعلم بل وبذاته ، وإنما عبرنا بالصفة لأن الصفة لاتفارق الموصوف ، واستغراق جميع الأحوال والقوى ، لاحول ولاقوة إلا بالله كنز تحت العرش أوكما قال . شعرا :

لله قرب إلى الأشياء بقدرته فليس يشبه قرب الخلق بالصور

فهو القريب إلى كل وقربته　　　من كل شئ هو التأثير في الأثــر

(كيف يتصور أن يحجبه شئ ولولاه ماكان وجود شئ)

أي لولا وجو ذاته لما ظهر تجلي وصفه ، ولابرزت أعيان مخترعاته ، ولاوجدت أرضه وسمواته . لأن الأشياء مخترعة ومبتدعة فلا بد لها من مخترع ومبتدع ، ولايكون كذلك إلا عالم مريد قادر حي كامل منزه عن النقائص ، إذ لو لم يكن كذلك للزم أن لايوجد شئ ، أويكمل شئ ، أويكمل من خالقه موجده . ولايخفى استحالة ذلك ، فوجود الأشياء صادرة عن فاعله ، ومقتضيات أحوالها بارزة عن أمره . شعرا :

لولاه ماكانت الأشياء بارزة　　　ولاظهر من عيون الكون من أثر

قد كان ثم ولاشئ ولاسمــة　　　وهو كما كان جاء هذا في الخـــبر

(ياعجبا كيف يظهر الموجود في العدم)

لأن العدم باطل ، والوجود حق ، والباطل ظلمة ، والوجود نور . ولايخفى عدم اجتماع الظلمة والنور ، فكل ماسوى الله عز وجل عدم باطل ، والله هو الموجود في الوجود ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ [الآية ٣٥ النور] فكيف يظهر ليل العدم في صبح نهار الوجود ؟ شعرا :

فكيف يظهر في صبح الوجودعمى　　　أم كيف يخفى نهار الحق بالعدم

(أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم)

﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [الآية ٨١ الإسراء] أي بطل واضمحل وتلاشى ، فإذا ظهر الوجود الحقي ذهب التوهم الغيري ، وتلاشى العالم الخلق . بيت :

لولاح أدنى بارق من وجهها　　　صار الوجود إلى الفناء المفضع

ولزال الإلتباس وذهب اليأس ونطقت الحواس ، وبرزت الحقائق لكل محب صادق من تحت أستار البشر وتحقق الخبر ، وانطمس الأثر عند ظهور مؤثره . فحقيق أن يتزلزل ولايثبت ، فتزلزل أراضي النفوس وتخرج أثقالها ، وتحدث أخبارها ، وتكشف أستارها ، وتكون الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . وفي هذه إشارة لطيفة لذوي الأسرار ، عند البروز من الآثار ، لله الواحد القهار . فعند ذلك تظهر لهم لطيفة المحبة الكامنة في لباب الحقائق الكائنة في لطائف الأعمال ، المودعة في أصداف المعاني ؛ بأن ماسوى الواحد هالك فاني . شعرا :

فكيف يثبت حادث عدم　　　إذا قرنته بالموصوف بالقدم

واعلم أن عبارته هذه بديعة ، وهي متعلقة بعضها ببعض ، وبعضها ألطف من بعض وهي كلها من علوم الكشف الخفي ، والتجلي الوصفي ، والمظهر الإسمي . فلا شئ منها متعلق بالمعاملة القلبية ؛ وإنما هي حقائق مصونة وأسرار مضنونة ودرر مخزونة ، ولم نبين منها إلا مايصح بيانه على طريقة العلم . فقوله في بعضها : كيف أعلم أن علماء الكلام اختلفوا : هل يجوز إطلاق الكيف أم لا ؟ فعامة المحققين يجرونه حيث لم يقترن باعتراض على الله ، ودليلهم من الكتاب والسنة قوله ﴿ **أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده** ﴾ [الآية ١٩ العنكبوت] ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ [الآية ٤٥ الفرقان] إلى غيره من الآيات . والحجاب في عبارته كل ذلك معروف من الكتاب ، والسنة قوله صلى الله عليه وسلم " **إن لله**

سبعين حجابا من النور " اوماهذا معناه . فلما أنهى الكلام على ذلك أخذ يتكلم في حكم العبد مع الله فيما يقتضيه منه ربوبيته فقال رضي الله عنه :

(ماترك من الجهل شيء من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أحدثه الله فيه)

فكل من نازع الله في أحكامه واعترض عليه في اقتداره ؛ فقد برز في حلة الجهل التي هي أقبح لبسة كما روي أن الله خلق الجهل في أقبح صورة فقال له : **وعزتي وجلالي ماخلقت خلقا أحط منزلة عندي منك ، لأجعلنك في أبغض خلقي ، وأحطهم منزلة عندي** . فالكافرين ذوونفوس وجهل ، والمؤمنون ذوو قلوب وعقل . فكل من أراد غير مراد الله له فقد جمع الجهل ، ومن جهل بالله فهو بغيره أجهل . وحكم العبد التسليم لأمرالله فيما قضى ، والسكون تحت ما أبرزه وأمضى ، كما قال القائل شعرا :

خليلي لودارت على رأسي الرحى   من الذل لم أجزع ولم أتكلم

فحيث أقيم العبد في أمر لم يكن للشرع عليه فيه اعتراض ولم يطالبه الحق بنقيضه ؛ فحقه الرضا بعلم الله دون علمه ، لأن الله عالم من كل الوجوه ، والعبد جاهل من كل الوجوه ، فاللائق به أن لايطلب غير ما أقامه فيه سيده ومولاه إن كان مرضيا ، وإلا يكن كذلك بأن كان مما يخالف الأمر ؛ كأن رضي بالكسل والوقوع في المناهي فذلك من المكر الخفي وتلبيس من الشيطان المغوي ، بأن يجعل القضاء حجة له ، ويظن أنه بحكم مولاه وإنما هو بحكم هواه . فالرضا بالقضاء من حيث كونه قضاء ؛ والقضا أيضا من حيث كونه قضاء دون المقضي من حيث كونه عمل ، فهنا أمور غلط فيها

جملة من ينتمي إلى التصوف دون علم ، بمجرد الزي دون التحقق بمقامه ، فتراهم يحتجون بالقضاء ويبرءون نفوسهم على ذلك ، فاللائق عكس ذلك ، وبالأول الذي هو وقوف على رؤية الأشياء دون الله ، وبذلك هلك الجم الغفير باعتراضهم على الله فيما قضى ، وتبرمهم مما في مملكته أمضى من إحالة أفعاله الملومة على التقدير ، وجعله ذريعة له إلى التقصير ؛ فقد أخطأ الحكمة .

والوقت عند الصوفية له إطلاقات : فمنهم من ذهب إلى أنه ماطلبه الحق منك ، ومنهم من ذهب إلى أنه كل تجلي فيه من الشئون الإلهية ، والوقت أيضا عندهم مراعاة الأنفاس وإعطاها ما تستحقه من عبادة أوعبودية أوعبودة ، فيستغرقهم ذلك عن الماضي والمستقبل ، لذلك يقال : الصوفي ابن وقته ، أي كل ما اقتضاه تجلي الوقت عليه كأن نعته ذلك التجلي ، فكل من لم يقطع الأنفاس فيما طلبه الحق منه كانت عليه حسرة ، فحري أن يندم على فواتها ، ويتحسر عند انكشاف خزائنها . فالوقت إذا لم تقطعه بما طلبه الحق منك قطعك عن الطاعات بالموت . شعرا :

الوقت در ثمـــــين لامرد له   والموت يقطع عنا غـــــالي الدرر
كن ابن وقتك إياك أن تصاولـه   فلا ترد غير مايبرزه مقـــــتدر
فسلم إن كنت ذا عقل فليس له   مرد يمنـــــعه من سائر البشر
فمن يرد غير ماقدره فاعلـــــه   فوصفه الجهل يحكى ذا عن الأثـــر

فإذا علمت أن الوقت سيف قاطع ، سريع المرور يفوت نفائس الأعمال وسنيات الأحوال ، قال المؤلف رضي الله عنه :

(إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس)

العبد مركزه الجسماني في دار الدنيا ؛ ومحتده الروحاني في دار الآخرة . والمركز الجسماني فاني ومطالبه شتى ، والمحتد الروحاني باقي ومطلبه واحد . فالأعمال وإن كثرت أجناسها وتعددت أنواعها فمرجعها إلى شئ واحد ؛ هو الله عز وجل . فإذا طالبه هذا العالم الروحاني بالعمل بسائر أنواعه سواء كان العمل بالأركان أوبالجنان فالواجب عليه إجابته ، وقطع دواعي أشغاله الجسمانية ، فإذا أجاب العالم الروحاني وترك أشغال العالم الجسماني فذلك هو الكيس الفطن ؛ بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وثناء الله عليه بقوله ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات** ﴾ [الآية ٩٠ الأنبياء] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت** " والرعونة هي الحماقة ، قال صلى الله عليه وسلم في شطر الحديث " **والأحمق من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني** " ومن جملة ذلك أنه منهمك في أشغاله الدنياوية ، وكل شغل منها تتولد منه أشغال كثيرة ، فإذا لم ينهض عن فترته ويستيقظ من رقاد غفلته فجدير أن تطول حسرته ، وتتوالى عليه مدلهمات ضلالته ؛ إما أن يختطفه الموت على حين غفلة أويركن إلى الدنيا ونسي قرب نقلته . والموفق الميمون من استغنم فرصة الإمهال ، وقطع علائق الأشغال ، وبادر الأيام والليال ، ولم يلهه عن ذكر الله مال ولاعيال ، وقام بعبادة الله على كل حال ؛ مرض أوصحة ، فقر أوغنى ، صيف أوشتاء ، سفر أوحضر ، إلى غير ذلك من تقلب الأحوال فلم يدر متى تفجأه قواصف الآجال ، وتغيرات الأحوال .

شعرا :

يامن يريد خروجا من مـــــآربه　　　علام تطلب مجالا ليس تدركــــه

فانهض على ضعفك المقدور فأت به   إن شئت تفرغ عن شغل فأتركـه

غيره :

رعونة النفس أن توعدك بالعمل   وتستبد إلى الشهوات والكسل

وتنسي المرء منا سرعة الأجـل   ويعتريه بذاك الهم والمـــــلل

فإذا أقامك الحق في عبادته ، واستعملك بأعمال طاعته فلم تتم عبوديتك إلا بالتسليم له في أمر ربوبيته لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتطلبه أن يخرجك من حالة يستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج)

لاتطلب أيها المؤمن الراضي بتدبيره واختياره ؛ الخاضع تحت أمره واقتداره أن يخرجك من حالة هو مرتضيها لك ومقدرها عليك ، وإن خالفت مرادك وناقضت طبعك ، ونافرت هواك ، فهو أعلم بمافيه منفعتك ، فلا ينبغي لك أن تعرفه بما يصلحك وتذكره بما ينفعك . فإذا طلبت منه فاطلب أن يرزقك حسن الأدب معه ، وترك الإعتراض عليه . فافهم ماعلى من الأدب مع الله سيما فيما استأثر بعلمه دون خلقه ، فإذا أقامك في حالة دينية أودنيوية لم يطالبك العلم بالخروج عنها ولم يذمها منك ، فالأدب أن لاتتحكم وتتخير على الله بالخروج عنها ، فلو أراد ذلك لاستعملك فيما طلبت من غير استعمال خروج منك ؛ كما أدخلك واستعملك فيما أنت فيه ولم تكن طلبت الدخول فيها قبل ، فطلب العبد لذلك لفرط غباوته وجهله بربه ، حيث استدرك عليه في علمه . وإن كانت تلك الحالة غير ملائمة له ومنغصة للذته ؛ فحق العبودية أن لايتعرض ولايتبرم بل يقبل كلما

أبرزته الربوبية ، وتكون حالته الرضا ، فإن لم يقوى على ذلك فالصبر ، فهو رخصة في العبودية .

والحالة هي كل ماكان العبد فيه سواء كان من قبيل الحركات الجسمانية ومن قبيل الخطرات والإرادات القلبيات . وأما إذا كانت تلك مما فيه مناقضة للعلم ؛ ومباينة للأمر فينبغي أن يضرع إلى الله ويبتهل في إخراجه ، فليس ذلك مما نهى عن الطلب فيه المصنف ، بل ذلك مما يقتضيه كلامه ، أوفي حالة قصور أوفتور فينبغي أن يطلب من الله المزيد كما ندب نبيه صلى الله عليه وسلم المتخلق بأعلى مراتب العبودية ، الذي خص من الأدب بأكمله ، ومن العلم بأفضله ، حيث قال الله عز وجل في حقه ، وتنبيها لأدباء أمته ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾ [الآية ١١٤ طه] وقال في حق من طلب الخروج من المآثم ﴿ **ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ [الآية ٧٥ النساء] فالطلب المحضور هو أن تطلب الخروج من حالة مرضية إلى حالة أخرى لم ينص الله ولارسوله على تفضيلها على ما أنت عليها ، فتكون كالمستدرك عليه في علمه ، ومعترض في حكمه ، فلايخفى مافي ذلك من سوء الأدب . شعرا :

لايطلب العبد أن يخرجه سيده   من حالة يرتضيها قامه فـــــيها
فلو أرادك لأن الحكم في يـــده   لاستعملك قبل أن تظهر مباديها

فنسأل الله حسن العافية فيما قضى ، والخيرة فيما استعمل وأمضى ، فشأن العبد أن يمضي في مراد سيده ، ولاتشرف نفسه إلى جزاء عاجل من

قبيل الأحوال ، ولاثواب آجل في الآخرة من قبيل الدرجات ، بل يكون عبدا محضا ، أمره سيده فامتثل أمره ، ونهاه فاجتنب نهيه . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ، ولاتبرجت ظواهر المكونات إلا نادته حقائقها : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ [الآية ١٠٢ البقرة]

الإرادة حالة قلبية يتبعها العزم وهي أثر اسمه المريد ، وهي واجبة في حق الله تعالى ؛ أحد صفات المعاني وبرهانها التخصيص ، وفي حق العبد جائزة ناقصة ، وهي أن نفوذ إرادة العبد متوقفة على سبق إرادة الله ، فإن وافقتها عملت حسب ماقدر أن تعمله . والهمة هي العزيمة التي تصدر عن الإرادة ؛ وهي مبادي الحركات القلبية ، ومنها تظهر على الحركات الأفعال المرادة ، وهمة السالك أبلغ الهمم ، لأن همته مجموعة من متفرقات الأشغال ، فلذلك عند توجهها للأمر المهم تنفعل بها أمور خارجة عن إقتدار البشر ، وهمة السالك الصادق جادة في سيرها في مفاوز المجاهدة ، وعاكفة بكليتها على إرادة المواجهة والمواصلة ، فإذا كشفت لها الأنوار نادتها الأسرار من وراء الأستار : إياك والوقوف مع الأغيار ، والهاتف يكون معنويا عليما ، وقد يكون حسيا جسميا ، والهواتف الإلهية تطرق طروقا أوترمق رموقا تفهمها من أيده الله بنور المعرفة الحقية ، فإذا أراد أن يقف يظن أنه وصل إلى المراد ؛ رمقته الأعين السرية ، وطرقته النفثات الروحية ، ونادته الألسن القربية : إن الحقيقة المطلوبة أمامك فجد في السير ؛ فعن

قريب يرفع عنك حجاب الغير ، ويقول بعد لاضير ، وأين الوصول وأنت باق بأوصافك ، فمتى بقي لك وصف فأنت محجوب ، فعند تحقيق الوصول تفنى إرادتك وتمحى نعوتك ، فإياك والوقوف مع وصفك فتكون محجوبا بما تظن انه كشف ومبعد بما تظن أنه قرب ، فأمامك المقصد حتى يكون أمامك وراك ، وصباحك مساك ، فأنت مادمت بين جهاتك وفي مضيق صفاتك ، وتحت حجاب ذاتك ، فأنت بعد لم تصل إلى بغيتك ولم تنل أمنيتك ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا نادته حقائقها . التبرج هو التكشف عن الزينة ، أي ماانكشفت للسالك الصادق ظواهر زينة المكونات الدنياويات ، والمدرجات الأخرويات ، والمقامات الملكوتيات ، والعوالم السماويات ، والكواكب العلويات ، والأفلاك الروحيات ، والصور الكرسيات ، والعلوم اللوحيات ، والأسرار العرشيات ، والكراسي الجبروتيات ، إلى غير ذلك مما يسع كشفه لغير أهله إلا نادته حقائقه الذي بها حسنت ، وبها وجدت ، ومن بديع سناها اشتهرت . لأنها لله ناطقة ، ولهم مفاوضة : إنما نحن دون موجدنا ، ومبدع حسننا ، ومظهر نورنا ، ومالك أمرنا ، ومدبر خلقنا ، ومعيرنا من باهي جماله جمالنا ؛ فتنة واختبار لمن وقف به عند ظهورنا . فإياك والوقوف .

فهذه وما أشبهها من نصائح هواتف الحقائق لمن سبقت له من الله هداية ، ومن عليه بنور الولاية ، فكل من كان الله معه بالعون والتولي ؛ كانت سائر الأكوان تناديه بأسرارها ، وتشرق عليه بأنوارها ، وتخبره بمنافعها ومضارها . فلا يزال يترقى في مراتب الوجود ومنازل الشهود ، وهي تكسوه علوما وتمنحه فهوما أبدا كذلك حتى يخرج عن العوالم الكونية سالما

من فتنها ، معافا من وبيل محنها . ويلقى في يم التوحيد ولجة التفريد وقضاء تفرقة التعديد . فمن وقف مع شئ دون الله فهو كافر ، أي ساتر ، بمعنى أنه ساتر وجود الحق بثبوت شئ معه . وقد علمت أنه لايثبت مع ظهوره شئ ، فما أثبت شئ إلا وقد ستر عنه وجود وحدانية الحق . شعرا :

فلا تقف همـة من دون مقصدها إلا أجاب لديها السعي والأمـل
فكيف من وابل التحقيق يقنـعها شفان وهم ومصر الظن بالوشل
يامن تبرج له الأكوان ظاهرهـــا هلا تخاطبك الأسرار بالمقـــل
إن كنت تطلب من الأقوال أحسنها فاسمع نصائح لاتغـــتر بالكلل

فإن كانت الزينة دنيوية ففتنتها ظاهرة جلية ، وإن كانت من قبيل الدرجات الأخروية والأحوال السنية ففتنتها باطنة حقية . فالوقوف مع زينة الدنيا غرور ، والتمسك بها قطيعة . وإن كانت من قبيل الدرجات والأحوال فالوقوف حجاب عن منازل الشهود والإقتراب ، فالنظر إلى زينة الدنيا حال الضلال والجهال ، والنظر إلى بهجة الأحوال والوقوف دون مراتب الكمال شان من لم يؤهل للوصال ؛ ولم يطالع مشرقات الجمال ومحرقات الجلال ، ولم يجتلى لروحه مخدرات الحقائق من أفق مشارق شموس الأسرار . فنسأل الله هداية وتوفيقا وصوابا وتحقيقا . شعرا :

فليس للسالك المحفوظ من أرب إلا اقتناص صريح الكشف والأدب
إن الحقائق نـادت كل مكتسب إلى سلوك طريق الحـــق والسبب
فلا تقف فالذي تطلـبه مغترب وراخب الكون جز الأكوان واقترب

فإذا كان الأمر كذلك ، أي لم يصل رتبة الوصل الخاص إلا بمحو الأوصاف ، ومحو الأوصاف يقتضي الحضور ؛ ومع هذا فالعبد مطالب بالأدب في الطلب، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(طلبك منه إتهام له ، وطلبك له غيبة عنه ، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره لوجود بعدك منه)

فهذه أربعة أقسام : قسمان ظلمانية كثيفة لأهل البعد والضلال ، وحجب نورانية لأهل الوقوف مع الأسباب . وكل حجاب أكثف من قسيمه ، فطلبك منه ماضمنه لك ووعدك إياه اتهام له في وعده واستعجال لما ضمنه ، فذلك ذنب عند العارفين وقلة أدب عند الموحدين . ولايخفى مافي ذلك من المناقضة لحالة العبودية ، فلا ينبغي للعبد أن يعرف سيده الذي لايعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، والذي تطلبه أما أن يكون نفع أودفع ، وكل صادر عن تجلي اسمه وظهور وصفه ، فكيف تطلبه رفع ما أنزله وهو لم يبرزه إلا وقد قدر وقته ومحله وعينه وماهيته ووضعه ، اللهم إلأ أن يكون طلبك لإظهار وصف ضعفك وتحقيق فقرك ، وتعلقا بقوته وغناه ، وامتثالا لأمره حيث ندبك إلى دعائه لاكراهة وتبرما لقضاه ، وكذلك دعاك لجلب منافعك وانزال مصالحك . كذلك لاينبغي أن تكون في دعائك له متحكما عليه ، بل تدعوه مع تفويض الخيرة إليه فيما هو النفع لك من حصول غرضك أوعدمه ، وإظهارا لفاقتك إليه وقلة حيلتك في إيصال منافعك ومنال مآربك ، فليكن العبد في دعائه مراعي الأدب ، فلا يكون الباعث له غير امتثال الأمر ؛ لا لأغراضه فهو أعلم بوقت حصولها ، ففوض ذلك إلى علمه ، وليكون

اعترافا وإظهارا لفاقتك ، وتحقيق ضعفك وعدم حولك وقوتك ، وشهود وصفه ونفوذ قدرته وشمول حوله وقوته . فمتى كنت كذلك كنت عبدا مصيبا مهذبا دينيا ، وإذا كنت تطلب منه ولاتطالب نفسك له كنت بالجهل موصوفا وبالحماقة معروفا ، وقد اتهمته فيما وعد واستبطأته فيما ضمن ، وذلك غاية الجهل بالله وبأوصافه ، وطلبك له لوجود حجابك عنه ، فأي وجود لغيره معه . فلو كنت ذا كشف جلي ، وشهود قلبي لم تر لغيره وجود ، ولم يظهر لسواه شهود . فكيف تطلبه وبه قام وجودك وتحقق شهودك ، وبقيوميته قام الوجود بأجمعه ، فمتى غاب حتى يصدق عليه الفقد ، فالعارف يطلب وجود نفسه ليقضي بوجودها حق معبودها ، فلم يجد هنالك إلا عبودية لمعبود في صورة عبد قام لمعبوده . شعرا :

فكيف يتهم المخلوق خالقه فيما وعد جل من قد قدر القسم
فلايطالب بالمضمون رازقه إلا إذا القلب لم يستنج الحكم

غيره :

ماغاب من أودع الأعيان خالقها من قبل مظهرها في عالم النسب
فكيف تطلب والأكوان أجمعها تشهد بمظهره دان ومقترب

وطلبك لغيره لقلة حيائك منه ، فكيف يؤثر عليه وجميع المحاسن والمآرب وعاليات المطالب لديه ، وناهيات المحاسن وغرائب طرائق الجمال صادرة عن سناء محاسنه ، ومجتناة من دوحة روض كماله ، فكيف لاتستحي منه وهو معك كما ترى بجميل رأفته ، وعطف محبته ، وعظم رحمته ، وحفظه وكلاءته ، وجميل مودته ؛ يرقيك حين تغفل عنك العيون ، ويحفظك إذا خلا عنك الأنيس ، ويؤنسك إذا أوحشك الجليس . فكيف تطلب غيره

وهو يطلبك فترغب إلى سواه وهو يقربك ! ماهذا الجفاء وقلة الوفاء ! أتطلب من إذا رأى لك عورة هتكها ؛ ولوبيده نعمة عنك أمسكها ، ومع ذلك هو عاجز عن إيصال منافعه لنفسه وعن دفع مضاره ، وهو عن إيصال المنافع ودفع المضار عن غيره أعجز ! فكيف تطلب وتدعو من هو عنك غافل ونجم وجوده آفل ، أما يطرقك الحياء من الله أنه يطلبك لحضرته ومحل رضوانه وشهوده في فسيح جنانه وأنت شارد شرود البعير عن أهله ؟ وتطلب ماليس ينفعك دونه وهو أيضا غافل عن دعاك في صباحك ومساك ، وماتريد شئ دون وصاله ، وماذا يغيبك عن شهود جماله وظهور كماله ، وهو يريد أن تكون من الخدام وينزلك في داره دار السلام ، ويحييك فيها بالسلام ، ويتحفك بلذيذ الكلام ، ويجعلك من أهل حضرته وخواص محبته . فإذا علمت ذلك فجدير بك أن لاتطلب سواه في أرضه وسماه ، وإلا نودي عليك بالآمة في في عرصات القيامة ، وتوسم بالآمه حيث طلبت غيره .

يروى عن الشيخ الجنيد رضي الله عنه أنه كان جالسا في أصحابه إذ أتته إمرأة تخاصم زوجها إليه ، فقالت : ياشيخ أنا زوجة هذا الرجل وقد تزوج علي إمرأة غيري ؟ فقال لها الشيخ : له ثلاث غيرك ، أوكماقال ، فقالت له : ياشيخ لويجوز كشف وجه الأجنبية لكشفت لك عن وجهي ، فلو رأيتني لحكمت بأن مثلي لايؤثر عليه ، فصاح الشيخ عند ذلك حتى غشي عليه . شعرا :

من طلب غيره بآء منه بعتب ووبيل قبح وشين مـــلام ؟
كل شئ دونه من قصوروغرب وفتوح و.......نيل مقـــام ؟

فهو للواقفين غـــرور وحجب ومنى العارفين هو والسلام

وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه ، فأدل شئ على بعدك عنه أن تطلب من غيره ماهو موجده وبيده خزائنه ، فهذا بعد الحجب الظلمانية ، وأكثف الأغشية القلبية . وأقبح الحالات النفسية أن تنزل حاجتك بمن هو كذلك فجدير أن يخيب أملك ؛ وتوكل إلى من يسلمك أحوج مايكون إليه وتبرأ منك ، وتفتضح بين الأشهاد وتمقت عند العارفين وتهان عند الموحدين وتنسى عند الذاكرين . " **من أنزل حاجته بغير الله لم تقض حاجته** " الحديث .

فلو أردت قضاها لقصدت بابه وتعلقت بجنابه وابتهلت في طلابه ، وقل : اللهم إني انزل بك حاجتي وإن قصر رأيي وضعف عملي ، فأسألك يا قاضي الأمور وياشافي الصدور . فمن نزل عن هذه الرتبة فقد انكفأ به صراط الإستقامة في نار البعد عن الكرامة ، ويهان في الأعيان عن القاصي والدان ، فلايرى له حرمة ويستعبده الأخساء اللئام ، ويحقر في أعين الكرام ، فهو أضل من الأنعام سبيلا . وفي هذا المقام تظهر المعاصي والآثام القليبية : كالكذب والخلف للوعد والخيانة والفجور ولدادة الخصام ، وغير ذلك مما يطول تعداده من المعاصي الظاهر والباطنة ، أعاذنا الله والمسلمين منها . شعرا :

فكل أمر تحاوله وتطلـــــبه فانزله بالله تلق العـــــز والظفر

فمن طلب من سواه نيل مطلبه ناء عن القرب باقصى البعد في النظر

فإذا طلبت فاطلب من الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . وأهم ذلك أن تطلب منه أن ييسر عليك ويقيمك فيما هو طالبك به من أداء حق العبودية ، والقيام بالحقوق ونسيان الحظوظ ، لذلك قال رضي الله عنه :

(ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه)

الأنفاس ظروف ورسل حاملة إلى العبد من الله ما أودعه فيها من أسرار قدره وأصناف غيره ، والرسول راجع إلى مرسله ؛ أما مكرما شاكرا لمن نزل به إذا أكرمه واحترمه ، وكرامته باستعماله فيما خلقت من أجله ، واحترامه صيانته عن استعماله في قاذورات المعاصي ورذائل الشهوات ، فإذا استعمله بحسب مايعطيه الوقت أن يجلى عليه بالنعم ، فبالشكر أوبالطاعة فبشهود المنة ، أوبالبلية فبالصبر ، أوبالمعصية فبالإستغفار ، فيعود بمقابلة ما أهداه بعمل مرضي أوخلق سني أوحال سيئ ، فيشكرك بين الملاء الأعلى ويكون ذلك العمل خزانة مدخرة عند الله ، لايتطرق إليها تغيير ، ويصير ذلك النفس حي في صورة نورانية قائم لله إلى أن يعيده الله إليك في يوم الجمع ، فيعود إليك شاكرا لفضلك ذاكرا ، فيذكرك عند الله كذلك ويشفع فيك من جملة الشفعاء ، ويثني عليك غاية الثناء ؛ حيث أكرمته في دار الدنيا أن يكرمك في كل موقف من مواقف الآخرة ، وحيث أجبته أن يجيبك ، وحيث آنسته أن يؤنسك ، وحيث رفعته أن يرفعك كذلك جزاء وفاقا . هذا إن كان مما يقابل الشكر ، وإن كان من قبيل الصبر أوشهود المنة أوالإستغفار إذا قمت بهذا كذلك حيث اقتضاها وارد الوقت ؛ إن كان الصبر عاد مسبحا ، أوشهود المنة عاد مشاهدا ، أوالإستغفار عاد مستغفرا . ثم يعود في يوم الجزاء يودي إلى صاحبه ما

أتمنه فيه من سر ذلك العمل ، فحق على العبد أن لايشتغل إلا بأداء حقوق واردات الأقدار ـ فللرسول حق على من نزل به أن يكرمه ويحترمه لكرامة مرسله وحرمته ، كيف وذلك عائد عليك وراجع سره إليك ، فلايهمل الأنفاس إلا الغافلين الأنجاس ، الذين يحويهم الإبلاس عند ظهور الباس ، كما قال الله عز وجل ﴿ **وأنذرهم** ﴾ أي حذرهم ﴿ **يوم الحسرة** ﴾ وهو يوم يعود عليك ما أسلفته ﴿ **إذ قضي الأمر** ﴾ وهو الموت المحتوم والأجل المعلوم ﴿ **وهم في غفلة** ﴾ عن الله وعن حقوق الله ﴿ **وهم لايؤمنون** ﴾ [الآية ٣٩ مريم] بما وعد الله وأوعد . فإذا لم تكرمها كذلك ؛ وقتلتها بالغفلة وأهنتها باستعمالها في غير ما يحمد فترجع إلى الله وهي ذامة ، ولك مخاصمة ، وتعود عليك في يوم الجزاء بما أودعته عندها ؛ أما حية أوعقرب أونار أوظلمة أوغير ذلك من أصناف النكال حسب ذلك العمل الذي أودعتها إياه ﴿ **إن الله لايظلم الناس شيئا** ﴾[الآية ٤٤ يونس] قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى " **ابن آدم إنما أعمالكم أحصيها ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله** " يعني الذي وفقه لها وحفظها له ونماها عنده وأعانه على القيام بها ومدحه على ذلك وأجزاه ، وألهمه إياها بعد لم يكن يعرف مقاصدها . " **ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** " فهو أمات أنفاسه بالغفلة ، وضيع أمانة الله لديه ، فأمات الأنفاس بالمعاصي وعطلها بالغفلة ، فما أجدره بالندامة حيث أتته أمانة الله وأضاعها ، وهدية الله ولم يكرمها بل تركها خزائن فارغة عن متاعها .

فالأنفاس قيام بالعبد ثلاثة : أماجوهرة لاقيمة لها لنفاستها ؛ وهو كل نفس أحياه بذكر الله ، أوعمل من أعمال الطاعة ، وأما بعرة لاقيمة لها لخستها ، وهو كل نفس خرج مع غفلة ، وأما حسرة لاآخر لها وهو كل نفس استعمله في معصية . فهذه الثلاثة الأحوال لازمة لكل نفس من أنفاس الإنسان . وله من الأنفاس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف جوهرة من جواهر الحقائق الإلهية ، والأسرار الربانية ، والدرجات الأخروية الذي انتهى صاحبها إلى دار السلام ، موضع سوط منها خير من الدنيا ومافيها ، فكيف حال من استبدل بها أربعة وعشرون ألف نوع من أنواع النكال والدركات الظلمانية العدلية . شعرا :

إن النفائس في الأنفاس مودعـــــة فليقتنصها أولي الألباب والفطن
فكم حوت من عجائب سر مكـرمة يذوقها من تجــــافى لذة الوسن
في طيها علم تكوين ومعــــــــرفة من نالها قام منهاجه على السـنن
فمن يرى ذا يرى الأكوان محكمـــة على دوائر أنفاس من المـــــنن

فلا يقوم الأنفاس إلا أقطابها الذين كشف لهم عن مراد الله فيهم وبهم في كل نفس ، فيتلقونها بالإكرام قبل بروزها عندهم ، وعند بروزها يقومون بحق عبودية الحق فيكتسبون من علم التكوين والتعرف مايرجح بأعمال المتقين ، وذلك لهم في كل نفس كما يرى أن شمتة من عارف توازي عمل الثقلين ، وهو الذي رجح أبوبكر الصديق رضي الله عنه الأمة وهم أرباب الحقائق ، ولهم علامات يعرفون بها أقطاب هذا المقام . فمن جملتها : أنهم في عالم البرزخ أحياء بحياة خاصة بهم يشهد بها أسرار الأعمال ، ويتلذذون بذلك لايقطعها عليهم الموت كما يقطعها على غيرهم ممن كان يهمل الأنفاس

ولايعبأ بها ، ولايعرف زيادته فيها من نقصانه منها ، فما يقوم بها غير من خرج عن أوصاف البشر . كما يروى عن بعض سادتنا العلوية رضي الله عنهم ، وذلك سيدنا ومولانا عمر بن عبدالرحمن السقاف رضي الله عنه أنه قال : إن لي في كل نفس ألف من ياحفيظ . أنظر كيف وسع الله له نفسه حتى يقضي فيه حق الله الذي يقتضيه منه . وأهم ماهناك حفظ المقام على الدوام ، لذلك كان تعلقه بالإسم الحفيظ ، هذا لمن شهد دقة المقام على الأنفاس ونفاستها ، فأقل قائم عندهم من قام بشكر ظاهرها وهو أربعة وعشرون ألف حمد ، فأين من كان هذا مقامه وحال من حالات المحتبلين بحبائل البشرية الذين شغلتهم الشهوات الحيوانية عن القيام بالوظائف الحقية . فنسأل الله أن يلحقنا بأوليائه ، وينظمنا في سلك أصفيائه ، إنه ولي ذلك ، والمأمول لما هنالك . فلما كان المطلوب من العبد مراعات الأنفاس في كل آن من غير انتظار زمان ولامكان ؛ قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتترقب فراغ الأغيار ؛ فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه)

وذلك لأن فراغ الأغيار وانقطاع الآثار لاينقطع عنك مادمت مقيما في هذه الدار ، فمن راقب فراغها ضيع ماهو المطلوب منه ؛ وذلك مراقبة الله فيما يقيمك ، فلا تجتمع مراقبة الله ومراقبة غيره ، فالمراقبة لما يتجلى به من الأوصاف والنعوت ، والمحاسبة على ما يظهر على العبد من الكلام والسكون في سائر الأعمال . فمن فاته مقام المحاسبة فاته حق العبادة ظاهرا ، ومن فاتته المراقبة فاتته العبودية باطنا ، فمتى يخلون عن المطالبة

بالقيام بالعبادة والعبودية حتى يترقيها في آن ثان ، وترقب فراغ الأغيار وانقطاع آثار حجابه عن شهود الأنوار . فالفقير الصادق يقطع كلما عرض له من عوارض الأغيار ، ويزيل عن وجه قلبه كثيف الآثار ؛ بموالاة الأذكار وصافي الأفكار . فلايترقب فراغ الأغيار وليكون بحكم وقته ، فترقب العبد إلى ماهو آت وضياع الحال ضلال ، فإذا لم تحكم الوقت الذي أنت فيه فما تدري مايأتي الوقت الآخر وأنت باق على ما أنت عليه ، أوقد خرجت عن الإمكان أما بمفارقة الحياة أوعدم مساعدة الوقت الآخر بذلك العمل لك . قال صلى الله عليه وسلم **بادروا بالأعمال سبعا ؛ هل ترون إلا سبعا** " وذكر منها الموت والمرض والهرم والفقر والغنى ؛ والدجال شر غائب ينتظر والساعة أدهى وأمر " فعلى العاقل أن يبادر وقته قبل أن يبدره ، ويقطعه بالطاعة قبل أن يقطعه بالفوت . فيقوم على حسب حاله من صحة أومرض أوغنى أوفقر أوحضر أوسفر ، فلايدري مايحدثه الله بالغد ، فإذا أحكم الحال فقد حصل على خير ، وأن تدخل النار وأنت طائع خير من أن يدخلك الجنة وأنت عاص فيرحم الله ابن الفارض حيث قال في ذلك المعنى شعرا :

فقم زمنا وانهض كسيرا فحظك الـ ـبطالة ما أخرت عزما لصحتي
وكن صارما كالوقت فالمقت في عسى وإياك علا فهي أخطر علـــتي

فهذا وماشاكله من الروايات والنصائح والتحريض على المبادرة بالمقدور والإتيان بالميسور . شعرا :

يامن يريد فـــراغ القلب عن أرب ذا لايكون فإن شئت أبدر المهل
فلا تقف دون ماتطلب على سبب إن الوقوف عليها أصعب العـلـل

فلما كانت شواغل الدنيا لاتنقضي ، وآفاتها لاتنتهي ، قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتستغرب وقوع الأكدار مادمت مقيما في هذه الدار ، فإنها ما أبرزت لك إلا ماهو مستحق وصفها وواجب نعتها)

وأنه لايستغرب وقوع المكدرات ووجود المنغصات للعيش ، المؤلمات للقلب والبدن ، ووقوع المصائب ، ونزول البلايا وحدوث المعاطب إلا مغرور خبيل ، وذو عقل قليل . فالمكدرات للعيش في هذه الدنيا من قبيل المصائب الدنياوية ، والحوادث الكونية ؛ وذلك إما بفراق محبوب أونزول مرهوب أوقصور عن مطلوب ، حاصل العبد منه المقاساة والتعب إذا لم يعتد له بعدة الرضا والتسليم ، وفوات الثواب والأجر إذا لم يتلقاه بالصبر . ومع كونه يفوته ذلك الحال الشريف فلامرد له عنده بحيلة ، ولاتفريق ، فمن أعون الأسباب على حصول هذه الأحوال التي هي الرضا والتسليم الغنا عن أوصافك بأوصافه ؛ فعند فناك عن وصفك والتعلق بوصفه يستلذ البلا وتستحليه ، لأنك بوصفه لابوصفك ، فلا تستبعد ذلك ، كيف ودلال الحبيب أعظم لذة من إقباله كما يرى ذلك من ذاق في هذا المشهد ، وتحقق بذلك المقصد ، وحكاياتهم في ذلك تكاد تخرج عن الحصر . شعرا :

بلاء الحبيب إلى الحبيب عطية ودلاله عطف ولطف يشمل
لايلهي المشغوف نيل هـــدية تثنيه عن وجه الحبيب المقبل

وأما الصبر فأحسن مايستعان به على احتمال البلاء بذكر ما أعد الله للصابرين من عظيم المدح وجزيل العطاء في الآجل ، والثناء في العاجل ،

وتوطين القلب على نزول تلك المصائب قبل نزولها ، ويعطى هذا المقام الفناء في الأفعال ، والتحقق من التمكن في الأحوال ، وانتظار اللطف من دقائق الأوقات . شعرا :

من كان من تحت القضاء أمره فليس سوى الصبر الجميل يعينه
إن المصائب وإن تشدد عسره فاليسر يتبعه بنور يقيـــــــنه

هذا في المصائب الدنياوية ، وأما أن يكون ذلك التكدر من قبيل الأحوال مما يعرض للسالكين في طريقهم من العوائق عن مقاصدهم ونيل مطالبهم وذلك لما ركب فيهم من الشهوات ، فيلحقهم من الغفلات ، فماداموا في هذه الدار فما تنفك عنهم هذه الحالات ولو على الندور في الأوقات ، ولكنها لهم سابقة إلى اللجاء إليه الذي هو أشرف حالات العبودية . شعرا :

لاتوحشن إذا ألم بك البـــــلاء فالصبر يعقبه الهـــنا والمغنم
فاستصحبن الصبر ماعشت إنه ماخاب ذو صبر ولايتـــندم
هلا ترى من عارف تسألـــــنه عما هناك من المكارم تغـــنم
من علقم الصبر المرير لأنـــــه صعب على العز الذي لايعلم
فالق البلاء بصبر ساعة إنـــه لابد يجلى ليله المتـــــعتم
فلأن صبرت لتحمدن في غـبه إن المصائب لاتهين المكـــرم

هذا في الصبر على البلاء الدنياوي المفضي بعد ماذكر الله من كرامة الصابرين ، وماورد من الأخبار والآثار في ذلك . وأما علم ما الدنيا محتوية من مكدرات العيش وذلك حكمه لئلا يرغب فيها ويسكن إليها عباده ، فهي تضيق عما أعد لهم وما يريد أن يكرمهم به من عظيم الكرامة التي لاتدخل تحت علم عالم ، ولم يخطر على قلب بشر من خفي الألطاف

وجزيل الإسعاف ، وصفو المواهب . وذلك التكدير هو ماعجنها به من شوب الشهوات والدواعي البشريات ، والأعراض المختلفات ، فلا ينفك مادام في هذه الدار إقامته ، فلا تستغرب أيها المؤمن وقوعها ، ولايستقر طلوعها ، فهي لم تأتك بغير حقيقة وصفها .

والدنيا من حيث مايطلق عليها من الذم هو كل ماشط بك عن الطريق ، وتعوقت به عن الفريق ، وهذه هي بعينها شهوات الدنيا المعتادة ، وأنى لك بالخلوص عنها ما دمت مقيما فيها . ومن مكدراتها أيضا لوازمها من وجوب زوالها وسرعة إرتحالها وقرب إنتقالها ، فلاتتعب بغير ذلك لأنه لايوجد فيها غيره . وكل ماكان فيها من لذة وصفو بطاعة أوارتياح بروح وصلة فمكدره خوف سلبه ، وعدم تحقيقه بكلية المقام على التمام أنه يتخلف عنه من التحقيق بقدر ماعليك من الأوصاف الطبيعية الترابية ، ولابد وإن قل ذلك فبحسبه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب اللحوق بالرفيق ، فماذاك إلا ليستكمل مقام التحقيق وهو الكامل المكمل صلى الله عليه وسلم . ولي في ذلك شعرا :

في هذه الدار لايستغرب الكدر ... إلا جهول عن التحقيق والعبر

فكيف يطمع ذو عقل وذو بصر ... في أن يعيش في الدنيا بلا ضرر

وقد تنغص فيها أشرف البشر ... وسائر الأنبياء والأولياء الغرر

فلما كان الرجوع إلى الله في جميع الأحوال أصوب ، والإتكال عليه أنسب ؛ قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولاتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك)

أي ما استصعب ولاتأخر مطلب من المطالب الدينية والدنياوية المراد لله بحسن النية وصدق الطوية ؛ أنت طالبه وداخل فيه بربك ، متخلعا عن فعلك ووصفك ، متبرئا فيه عن حولك وقوتك ، متمسكا بحول الله وقوته ؛ إلا أنجح الله لك ذلك المطلب ، ويسر عليك أسبابه ، وفتح لك مغلقات أبوابه . ولاقمت في بشئ بحولك وقوتك معتمدا على علمك وعملك ، ملتفتا إلى حيلك وتدبيرك إلا وكلت إلى ذلك ولم تنل بغيتك ، وخاب سعيك وبطل جمدك . فأهم أحوال المريد الإستعانة بالله في كل أمر وحال من فعل أوترك ، ويكون نظره واعتماده وعونه واستمداده إلى الله وبالله ، فإذا كان على ماذكرنا قابلته الألطاف وساعدته العناية ، ومن ساعدته أدرك من كل أمر مراده . فالتوكل على الله نعت المؤمنين ، والإعتماد عليه وصف الموحدين . ولي في ذلك شعرا :

من كان بالله في الحاجات مطلبه فلا تشكن أن يعطى الذي سألا

ومن عطي ذاك فالتوفيق يصحبه وكلما حاوله من أمـــــره نالا

ولاتيسر ما بالنفس يطلـــــبه إن اعتمادك على الأغيار إضلالا

فلما كان المطالب لاتقضى دون الإعتماد على الله وأعظمها تيسير طريق السلوك إلى الله ؛ قال المؤلف رضي الله عنه :

(من علامات النجح في النهايات ، الرجوع إلى الله في البدايات)

فالرجوع إلى الله في بدايات الأمور وعدم رؤية النفس في شئ ؛ علامة من علامات النجح في نهايات المطالب ، والنجح هو الظفر بالمطلوب على التمام ، والإعتماد على الله نعت المريدين الصادقين ، والسالكين المتداركين ، والإعتماد على غير الله علامة على القطيعة ، والرجوع عن المرتبة الرفيعة

. فما رجع من رجع عن الله إلا لقلة مستصحبه له في بدايته ؛ فحزم نجح نهايته ، فمن بالله تعلقه وحسن توكله كان إلى الله نهايته ، وتولاه بحسن ولايته ، ورعاه وكلاه في مصادره وموارده ، وكان مع الله بلاعلاقة ، وفر إليه من جميع أحواله وقواه وعلمه وعمله ، وخرج عن حوله وقوته ، ولم يستند إلى سواه ، ولايأوي إلا إليه ، ولايتوكل إلا عليه . فجدير أن ينال بغيته ويظفر بمنيته ، ويحمل عنه كل ما يعبأ به غيره . ومن كان على غير هذا الوصف خيف عليه أن يوكل إلى مأمنه فلايفلح إلا أن يتداركه الله فيفتح له باب الفهم عنه ، فيعود من مشهده هذا ويرجع عن زلته . ولي في ذلك شعرا :

فارجع إلى الله فيما أنت طالبه تظفر بغايات أقصى السؤل والأمل
ولاترى النفس في شئ تقابله واترك دعاويك في علم وفي عمل

فإذا كان الرجوع إلى الله في البداية علامة على النجح في النهاية عبر المؤلف رضي الله عنه لهذا المعنى فقال :

(من أشرقت بدايته أشرقت نهايته)

فإشراق البداية بالفناء عن أفعالك وشهود فعله ، والتبرئ عن الحول والقوة في كل فعل ، والإعتماد على حول الله وقوته ، وإشراق النهاية ؛ فناك عن وصفك بوصفه ، وذهاب ذلك عند لوامع تجليات ذاته ، وفقد أنانيتك عند توالي ظهور مشرقات جماله ، واحتراق أوصافك بمحرقات جلاله ، وذهابك وفقدك عند تجلي سلطان كماله . فهذا وماشاكله من جملة إشراق النهايات ومباديها . وأما كلياتها ونهاياتها فلا تفي به العبارة ، ولم تؤمي إليه الإشارة لقصر الأفهام عن ذلك ، فالفناء عن الأفعال هو إشراق ،

والإشراق لايكون إلا عبارة عن النور الذي علمت فيما تقدم أنه الوجود ، والظلمة هي العدم . فما لم يشرق نور أفعال الله على ظلمة أفعالك بقيت رؤية أفعالك حجب ظلمانية ، ومالم تشرق أوصافه على وجود أوصافك بقيت محجوبا بحجب كونية ، ولي في ذلك شعرا :

إشراق أفعاله نور يشاب به وجـــود وصفك فاخرج عنه وارتحل

إلى شهود كمال الذاهبين بـه عن كل وصف وعن ذات وعن علـل

فلما كان النهايات غيب والبدايات شهادة ظهر في شهادة البدايات ما استودع في غيب النهايات ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماastودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر)

ماستودع من نور الذكر وحقيقة الصدق وبدر الهداية وسر الولاية ولطيفة الإيمان ، وتجلي الإيقان ، وإشراق شموس الإحسان ، وشهود العيان في سريرة الإنسان وفطرته ، فلا بد وأن يلوح على هيكله آثاره ، وتشرق عليه أنواره ، وتزكى ظواهر أعماله ، وتصفو سرائر أحواله ، وتنغمر بنور القبول في مسامع الخلق أقواله ، وتجلا لديهم إشارته ، وتفصح بالصواب عبارته ؛ ولذلك دلالات وظهور آيات يعرف بها من أودع الله نور الإيمان في سريرته كما سنذكره قريبا إن شاء الله عند قوله : لو أشرق نور اليقين . ومن جملتها الطمأنينة بذكر الله والنفرة عن معاصي الله ، والتوكل على الله ، والرضا عن الله ، والصبر في ممرات الأمور لله ، والتعلق على دوام الأوقات بذكر الله ، والتوله في شهود جمال الله ، والتحير في جلال الله ، واستعمال الجوارح باستفراغ الجهد في طاعة الله ، واتباع محاب الله ، واحترام حرمات الله ، واتباع رسول الله وإجلال الله ، ومحبة اولياء الله

ومناصرتهم وامتثال أوامرهم ، وبغض معاصي الله ، ومجانبة من ينتهك محارم الله وإن كان أقرب أحبائه وأحب أولاده وأحنا إخوانه وخواص عشيرته . لذلك قال جل ذكره ﴿ **لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولوكانوا آباءهم أوأبناءهم أوإخوانهم أوعشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان** ﴾ [**الآية** ٢٢ المجادلة] فحسن أسرة المرء دليل على حسن سريرته ، كما كان قبح الأسرة يدل على قبح السريرة ، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **لوخشع قلب هذا لخشعت جوارحه** " أوكما قال . فمن إدعى أن سريرته حسنة وهو مهمل لأوامر الله غير مكترث بمعاصي الله لم يقبل ذلك منه ، بل يحمل على ما أظهره من أمره ، ونكل سريرته إلى الله .

قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : إنا كنا نأخذ بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الوحي قد انقطع ، يعني وحي النبوة ، ولابقي إلا أن ناخذ ماظهر لنا ، فمن أظهر لنا خيرا قبلناه وأمناه ونكل سريرته إلى الله ، ومن أظهر لنا غير ذلك لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال أن سريرته حسنة . وأما وحي الإلهام والتحديث باق مستمر أبد الآباد كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف عمر نفسه " **إن يكن من أمتي محدثون فعمر منهم** " وكل من غلبت على سريرته الآداب الإلهية وتوالت على سره الأخلاق الربانية ظهرت عليه آثارها ، وسطعت على أفعاله أنوارها ﴿ **سيماهم في وجوهم من أثر السجود** ﴾ [الآية ٢٩ الفتح] في

عالم الأرواح يظهر خشوعها في الأشباح ، فكلما أكنته السرائر فلا بد وأن يلوح على صفائح الظواهر . ولي في ذلك شعرا :

أشباح تحكي بما في السر منــــكتم كما الزجاجة للأنوار تحكـــيها

فما بكن في مصون الغيب من حكم لا بد أن يشهد التحقيق رائيها

فلما كان الأمر مبني على غيب وشهادة وهو عالم الغيب والشهادة ؛ ولكن الغيب شهود الحق مقرون في نظر الخلق بوجود الأسباب خطب من سرادقات الغيب قلوب الأحباب ، عبره المحبة أسرار المجذوبين المحبوبين ، واستخلصت حضرة الأزل أرواح المجذوبين المرادين ، ونفيت قلوب السالكين تحت حكم سلطان اسمه الطاهر ، في متعددات المظاهر . قال المؤلف رضي الله عنه :

(شتان بين مستدل به أويستدل عليه ، فالمستدل به عرف الحق لأهله ؛ فأثبت الأمر من وجود أصله ، والإستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا متى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه ؟)

شتان ، أي بعد مابين الفريقين ، وبون ما بين الطرفين ، أي طريق المستدلين به على وجود الأشياء ، لأنهم موجودين عن رق الأغيار ، وشهود الآثار ، بظهور وحدانية الواحد القهار ، ومتلاشين في متلاطمات بحار الأنوار ، ومستغرقين في شهود الأسرار ؛ فأنى يثبت في مشاهدهم رؤية مليكهم ، أويلوح لهم غيره وهم عاكفين في حضرة القدم ، غائبين عن الحدوث والقدم . فأسرارهم على كراسي الولاية لم تلوي إلى رؤية مرئي حسي أومعنوي دنيوي أوخروي ، ملكي أوملكوتي وإن تعاقبت على

ظواهرهم مختلفات العادات ، فلأحكام سبقت ، وأقسام قدرت ، يدخلون فيها قبل رؤيتها ، فهم به وله لابأنفسهم ولالأنفسهم ، فانين عنها حال وجود ظهورها في عالم الشهادة والملك ، غائبين عنهم لاتشعر أسرارهم بسواه ، ولاتنظر إلا إياه ، فهؤلاء صفوة أولياه ، وخيرة أتقياه . لايسلكون إليه إلا طريق المحو في وجود الصحو ، يريحون من تابعهم ، ويوصلون إليه به من واصلهم . نعمة من الله سابغة ، ورحمة من الله بالغة ، يألوفون ويولفون من والفهم في الله ، لاتتدنس بواطنهم بلوث الغل ، ولاتتغير بتغير الأحوال ، نفوسهم ظاهرة وأنوارهم باهرة ، وأعمالهم دائمة . وهم في أمان وعافية ، والخلق منهم في أمان وعافية ، لايؤذون جليسهم ولايمارون نديمهم ، هينون لينون ، إيسار تحكم أحوالهم على كل من رآهم بالإحترام لهم والإجلال ، ويثبت الحب لهم في قلب أهل الإيمان ، تحد إليهم نجائب القلوب المجدة في طلب المحبوب ، ويلوح من أنفاسهم بوارق الغيوب ، يغني طالب القرب برؤيتهم ، وتوصله محبتهم . فلوذهبنا نصف ماجللهم الله به من عظيم المنة ، وما أتحفهم به من جزيل النعمة لطغى علينا طوفان الألطاف ، وغطى جبال أعلام وجودنا ، وفي الإشارة كفاية لمن أشمه الله نسيم قربهم وأذاقهم حلاوة حبهم . ولي في ذلك شعرا :

يغذيهم الحب من ألبان منتـه   شهد التجلي ونعت الذات في الأزل

بغير تكييف يحكى كيف كنتـه   فجل عن كيف يحويه ولامــــثل

فكل محبوب يشهد ذاك سنتـه   قد صار محفوظ عن عمد وعن زلل

من لاحظته عيون ألطاف رأفته   لم تعتريه كروب الجبن والملـــــل

فهذا في المجذوبين المحبوبين ، وأما السالكين المحبين الذين غطت حقائق إيمانهم وجود أعيانهم فالإيمان والعلم فيهم غيب تحت أسجاف القوالب البشرية ، والحجب الطبيعية ، والشهوات الحيوانية ، التي هي لأهل الكشف دلائل الكمال ، فخوطبوا بالرجوع إلى أوطان الحقائق القدسية بعد مادنستهم الظلمات الأرضية . فأمطرت أصلاد أراضي نفوسهم السحائب النبوية ، والدلائل الرسالية ، والشواهد القرءآنية ، بعد ما أيبستها حرارة نيران الجهل فوسمتها بوسمي الجباه ، فسمعت النداء فثارت البذرات الإيمانية الكامنة فيها ، فاهتزت بهزة خوف البعد والقطيعة ، وربت بالتربي في طريق السلوك إلى ملك الملوك ، وأنبتت من كل زوج من أزواج الحقائق الأسمائية بهيج رائق . فهكذا يتدرجون في مدارج الأحوال ، ويترقون في بروج المعارف . وشرح ذلك يطول ، فليفهم ذلك من عرف هذه الطريقة ، وحقق في سلوكه أتم تحقيق ، ومن لم يحقق ذلك ولم يعلم ماهنالك فليلقي نفسه إلى شيخ يعرفه حقائقها ، ويفهمه دقائقها ، ويرقيه في بروج معارفها ، فإن جل هذا الأمر مايحققه على كماله إلا صاحب كشف دائم . وأما من يأخذ علمه وطريقه لا عن شيخ فلا تتضح له الطريق غالبا ، بل يبقى في حجاب نفسه وموضع حبسه لاينفك عن قيد التلبيس ولو بلغ في ظنه مابلغ ، لكثافة حجاب النفس . فما يلطف حجابها إلا مشاهدة من يستنشق بصفاء مرآته حقائق الغيوب ، وتنجذب بصفائه القلوب . ومثل ذلك قل في الأقطار سيما في هذه الأعصار وجوده ، فالسالكين يهديهم سلطان الجلال ويربيهم تربية الأطفال ، وينقلبون في أطوار الأفعال ، فأخذوا بوجود الأشياء على وجود موجدها ، وذلك

لطمس أنوارهم تحت غياهب ظلمات الجهل الطبيعي ، وإلا لو لم تنطمس أنوارهم الإيمانية وشواهدهم الإحسانية . متى غاب عن الشهود وهو لم يزل موجودا منعوتا بنعوت كماله ؟ متى تصدق عليه الغيبة حتى يحتاج أن يستدل عليه بما هو أثر من آثار قدرته ، وعين من أعيان حكمته . فمن عرف الأشياء بالله واستدل به على الأشياء فقد عرف الحق لأهله ، وأثبت الأمر من أصله ، إذ المعرفة وصريح العلم يعطي أن لاترى الصنعة دون صانعها ، والمبدعات قبل مبدعها ، وأن تعرف الفرع بالأصل ، لاالعكس الذي هو دليل على العكس ، وهو شهود الأثر دون مؤثره ، والصنعة دون صانعها . ومتى بعد حتى تكون الآثار توصل إليه ، فلايستدل عليه إلا به ، ولايتوصل إلى معرفته إلا بتعريفه ، ولايعمل بطاعته إلا بتوفيقه ، فهو الموصل بإعانته والموفق بهدايته ، والحافظ بولايته ، وإليه يرجع الأمر كله .

وكلا الفريقين مجذوبين محبوبين ، إذا لولا سابق عنايته لم يهتدي إليه السالكون ، ولاحقق شهوده المحبوبون . فإذا علمت أن الكل على الحقيقة مجذوب ومخطوب علمت أن الإصطفاء قد شمل الفريقين ، فالحمدلله على ذلك . قال الله تعالى ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا** ﴾ [الآية ٣٢ فاطر] قيل هو **لاإله إلا الله** ، قال صلى الله عليه وسلم " **سابقنا سابق ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له** " أوكما قال . وعند أرباب الفهوم فيما يعرفونه من طريق الإشارة والإقتباس أن الظالم لنفسه هو الأكمل . ولهم في ذلك معاني ورموز تظهر من كنوز خزائن المعارف ، ولاسبيل إلى ضرب بعض الأقوال ببعض وتناقضها ، بل فسيح المعرفة يعطي أن لكل مقام

كلام ، ولكل حال رجال ، ولكل حال مقال ، فلامشاحة في اللفظ ، فاللفظ الواحد قد يوضع لمعان كثيرة ، والمعاني الكثيرة قد تعبر بعبارة واحدة . وقد يكون الكلام واحد ويأخذ كل إنسان مايناسب حاله ويليق بأفعاله . شعرا :

فكيف يفقد من هو ظاهر وبنا قيوم قائم لايخفى ولم يـزل
هو أول في بطون قبل مظهرنا وظاهر آخر بلا انتهاء تلي
ودائم كيف ماكان الزمان بـــنا لازاد مظهرنا شئ ولاقلـل

فلما كان المجذوبين المحبوبين أخذ بهم طريقة المنة من غير اكتساب ، ولاترقب ولااحتساب ، كان إنفاقهم من خزائن معارفهم على الطالبين ، كذلك ما أمدهم الله به . والسالكون المحبوبون ليسوا كذلك لأنه سلك بهم طريق الكد والتكليف ؛ فيكون إنفاقهم من وسع ماهم عليه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لينفق ذوسعة من سعته : الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه : السائرون إليه)

هذه إشارة عجيبة ، وترشحة بديعة ؛ حيث عبر بالإنفاق ، والإنفاق لايكون إلا في خير والخسارة ضده ، وإنفاق الواصل من خزائن المنح الربانية ، والنفحات الرحمانية ، على أطفال التلقيات الفهمية ، والأركان العملية ، والمشاهدة العلمية التخلقية ، وأهل الإقتداء والتبعية . فالأولون وهم المجذوبون المحبوبون ينفقون من سعة وسع المواهب ، والسالكون ينفقون من قدر المكاسب ؛ من وراء الفحص وتحري المذاهب . فالأولون خارجون عن مضيق عقولهم المحصورة القاصرة عن درك الحقائق إلى فضاء

وسع التوحيد ، فينفقون من معارفهم بلاتعب ولاعنا ولانصب ، فيريحون الجليس ويفسحون صدور الطالبين بالشرح المبين ، لما عندهم من التوسع لما هنالك ، والسالكون يشددون المسالك ، ويخوفون المهالك لما عندهم من ذلك . ولي في ذلك شعرا :

من وسع الله في التحقيق مشـهده   لاشك ينفـــق بلا ضيق ولاتعب
ومن يكن في مضيق الكسب مشهده   أن يحمل أثقال أعباء الكد والتعب

وقال كالشارح لحالتي الفريقين بعبارة أخرى ، وهي تعبيره بالإهتداء للسالكين والإجتباء للواصلين :

(اهتدى الراحلون إليه بأنوارالتوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة . فالأولون للأنوار ، وهؤلاء الأنوار لهم ، لأنهم لله لالشئ دونه)

فالإهتداء هو تتبع الآثار ، والبحث عن الأخبار من وراء الحجب والأستار ، ومختلفات الآثار . والرحلة هي الأخذ في السير إلى المقصد ، والرحلة غالبا كثيرة الأخطار وشديدة الأوعار ، ومعرضة لفوات الأعمار ، ونكبات المخاوف والأضرار . لذلك ورد " **السفر قطعة من النار** " فإذا صدقت العزمة وقويت الهمة وأخلصت العملة وأفردت النية أثمر لك صدق العزيمة وإخلاص العمل وتجرد النية ؛ أنوار الهداية لسبيل المشاهدة ، وتحقيق الولاية . قال الله تعالى ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ [الآية ٦٩ العنكبوت] وأما الواصلون : فلهم أنوار المواجهة وهي المشاهدة ، وهم المعنيين بآخر الآية وهو قوله تعالى ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ومقام الإحسان هو الإستغراق بمشاهدة المحبوب كما فسره صلى الله عليه وسلم

بقوله " **الإحسان أن تعبدالله كأنك تراه** " ومحال أن تراه وترى معه سواه . ومن كان الله معه كانت الأشياء معه وله ، لاهو معها إذا الله معه فلم يكن فيه معية أخرى ، فهو غائب عن شهود وجوده فضلا عن فعله مع فعل موجوده وهو الله سبحانه وتعالى ، فمن لم يكن كذلك فمن لازمه شهود الأغيار ، والتقيد في مخايل الأخطار ، ويشهد الوسائط ويراعي الشرائط ، فيطالب بمقتضى مشهده ، ويترقى إلى محتده . شعرا :

من كان مشهده الإحسان كان له   كل الوجود بعون الله محـــــتكم
ومن تعـــــثر في الأذيال أن لـه   أن يحتكم تحت مايشهده من علم

ثم استشهد المؤلف على مقام الواصلين الكمل الموحدين بهذه الآية لما فيها من التصريح الخالي عن التلويح ببطلان ماسوى الله عز وجل بقوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولمن فهم عنه سر خطابه من خواص أصفيائه ونجائب أحبابه ﴿ **قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون** ﴾ [الآية ٩١ الأنعام] ففي هذه الآ ية كفاية لمن فهمها وعلم سرها ، أشارت إليه **(قل الله)** فليس بعد الله ، فهذا فيه مرتبة توحيد الإشارة ، وهو مختص بنبينا صلى الله عليه وسلم وهو قوله **(قل)** فحارت الحقائق القربية ، واللطائف الحبية في هذا البحر الذي لاساحل له ، ولايعرف لأوليته ابتدأ ، وإن تعددت مظاهره ، فقال لها هاديا لحيرتها ، وآخذا بأزمة بصائرها ﴿ **الله** ﴾ كلما رأيته فليس سواه ، ولا مشهود إلا إياه ، ولابعد ذلك إلا خوض ولعب ، لأنه إذا ظهر الحق فما فائدة التطلب إلا الخوض في الباطل . واللعب هو كثرة ترديد مالاجدوى له ، وهو كثرة ترديد بلا غرض ، ومن

ذلك اللعاب وهو الريق الخالي عن الخليط ، وسمي ذلك لكثرة تردده والله أعلم . والوقوف على الحق عند ظهوره وصف الموحدين ، والخوض واللعب وصف الجاحدين الضالين عن سبيل الهداية ، والسالكين طريق الغواية . شعرا :

الله قل فهو المقصود بالطلب ولاتزد بعد ذا في الخوض واللعب

فإذا كان العبد منطويا تحت عظمة أولية الحق كان حكمه ووصفه ترك الفضول وإيثار الخمول ، فتحقق بصرف العبودية لله تعالى ، وإذا كان كذلك كان أجل همه تصفية أوصافه وتهذيب أخلاقه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(تشوفك إلى مابطن فيك من العيوب ؛ خير لك من تشوفك إلى ماحجب عنك من الغيوب)

لأن تشوفك إلى مابطن فيك من العيوب حق الحق منك ، لأن الله مدح أهل تزكية النفوس عن الأخلاق اللئيمة بقوله ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ [الآية ٩ الشمس] وذم من تركها متدنسة بقبيح أوصافها وسفساف مركزها فقال ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ [الآية ١٠ الشمس] أي دنسها ، ولأن يخرج عن ذم الله وتدخل في مدحه خير واجب من أن تطلع إلى فضول النقول ولمحات الوصول . فمن لم يحقق الأصول لم ينل الوصول ، فالأصل التزكية عن الرذائل ثم التحلية بأوثق الوسائل ، وهو التمسك باتباع ذوي الفضائل وهم الأنبياء وسادات الأولياء وفحول العلماء ، سيما أفضلهم وأجلهم وأكملهم وأتمهم خلقا وخلقا ، وأعلاهم مقاما **محمد** صلى الله عليه وسلم ،

فتحلية الأوصاف بحلية الإتباع هو فرع باب المحبة الذي يكون بها التحلية ، قال الله منبها على ذلك ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله** ﴾ ووجدتم ذلك في مرايا إيمانكم ، وظننتم أن ذلك صادر عنكم ﴿ **فاتبعوني** ﴾ [الآية ٣١ آل عمران] بمحو أفعالكم ، وفنا أوصافكم يظهر لكم أصل محبتكم ، ويبين لكم من أين وجدتم ذلك ، فعند فنائكم عن أفعالكم وأوصافكم يتحقق لكم أنه الذي أحبكم ، وتبدوا لكم ثمرة الإتباع ما أودع فيها من سر المحبة السابقة ، فيعود الأمر عودا على بدوه ، فهذا مقام التحلية . وشاهد ذلك الحديث القدسي حديث النوافل حيث قال " **لايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه** " ولانافلة إلا ماصدرت عنه صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا ؛ وأمرا صريحا أوضمنا وتلويحا ، ولكن لم تصل إلى صفاء النوافل عن الشوائب إلا بطهارة النفس عن رذائلها ، ولم يعثر على ذلك إلا إن عرضتها على بصير بعيوبها ، فيجري أمورها على يد عالم بتهذيبها ، فارغ عن تهذيب نفسه ، متفرغ لصلاح غيره . فحينئذ يعرفك بدسائس النفوس ومخادع الشيطان ، ومعاطب الهوى ، وكوامن الشهوات ، وقبح الدنيا وبهجة الآخرة ، وحسن الأخلاق وسببها ، وتكون حالتك بين يديه كحالة الميت بين يدي الغاسل مسلوب الإختيار مطموس الأعلام والآثار ، لاخير لك عنك . وما أعز في هذا الزمان شيخ يوجد كذلك ، وما أعز المريدين من يطلب ذلك ، فاالله المستعان وعليه التكلان .

وإذا صدق الله المريد في إرادته كان الوجود كله له أستاذ ؛ إن كان عدوا ساقه إلى الله باللجاء من شره ، ونبهه على دسائس خفايا عيوب لم يطلع

هو عليها ، يرى قبح الجهل فيجتنبه ، أوصديق محب يثني فيشهد ثناء الله فيزداد لذلك شكره لله حيث أظهر جميله لذلك المثني ، وستر عنه قبيحه . وما أحسن من كان نفسه أرضا وقلبه سماء ، وأحواله نجوما ، وروحه شمسا ، وعقله قلما ، ونفسه لوحا . شعرا :

تشوف المرء عيب فيه مستتر أتم له من ترقب عائب القدر

فرؤية النقص توقفه على الحذر وفي ظهور غيوب الحق يعتبر

فلما كان الحق ظاهرا وإنما حجبت عنه بما قام بك من الأوصاف الظلمانية ، والكثائف الأرضية ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لوحجبه شئ لستره ماحجبه ، ولوكان له ساتر لكان لوجوده حاصر . وكل حاصر لشئ فهو له قاهر ، وهو القاهر فوق عباده)

هذه براهين عقلية ، وشواهد نقلية جمعها في هذه الألفاظ المتقاربة تحتوي على جمل من معاني التنزيه ، وتشير إلى نفي التشبيه ، وتبطل اعتقاد التجسيم والتحليل والجهة ، وتبين أن جميع حركات المكونات دائرة على مقتضى علمه ، وجارية تحت سلطان قهره . فقوله : ليس بمحجوب ؛ إذماسوى الله باطل والحق هو الله فليس بمحجوب ، إذ الباطل لايحجب الحق ، وماسوى الله فهو باطل . وإنما المحجوب أنت من حيث أنيبتك ووصفك وفعلك ، فلوفنيت عن أنيبتك وتبت عن ثنيتك لرأيت الحق ظاهرا ، ورأيت الكائنات من حيث ذواتها وأوصافها وأفعالها دونه لم تخرج عن العدم ، فالحجاب عليه تعالى محال . فمن البراهين أن الحاجب لشئ قاهره ، وقد علمت وجوب قهره سبحانه لما سواه . وأيضا فالحجاب دلالة

الإنقهار وماسواه مقهور به . فتحقق أن الحجاب عن الله إنما هو في ذوات الكائنات ، إذ وصف العدم الحجاب ، والكائنات من حيث ذواتها عدم . فلما أراد أن يكشف سر وجوده ، ويظهر تجلي شهوده ، رش على عدم ذوات الكائنات من نور ذاته وصفاته وأفعاله ما أظهر به وجود ذواتها وأوصافها وأفعالها ، فاستعدت لذلك التجلي الظهور . فمن شاهد بنور الذات ؛ ومن شاهد بنور الصفات ، ومن متحقق في الأحوال والمقامات . وبحسب هذه التنزلات تكون الدرجات ، والرؤية في الجنات ، وتظهر حقائق المعاملات . " **رب رجلين يستوون في العمل وعمل أحدهم إلى جنب عمل الآخر كالذرة إلى جنب أحد** " كما ورد ذلك .

وماورد أن لله سبعين حجابا من الظلمة ، وسبعين من النور ، فالحجب الظلمانية هي ماانطوى عليك تركيبك ، والسبعين التي من النور ماحواه ترتيبك لاغير . وتعداد هذه الحجب في التركيب والترتيب مما يطول تعداده ، ويحتاج إلى معرفته ما احتويت عليه من مجموع السبع الأرضين ، ومانطوى عليك من أنوار السبع السموات من كل واحد مجموع هذه عشرة حجب تحتوي على متعددات أنواع ، حتى أن السالك يستعين في تلطيف بعض هذه ببعض ، فكل حجاب ظلماني يقابله بنوراني حتى تفنى عنه الحجب الظلمانية ، فيوخذ في التوحيد في فناء الحجب النورانية حتى يخلص عنها ، فيشهد الحق بالحق ، وهو الشاهد والشهود والمشهود ، وهوقوله ﴿ **شهد الله أنه لاإله إلا هو** ﴾ [الآية ١٨ آل عمران] ومن البرهان على استحالة الحجاب عليه أن الظرف قبل المظروف . وقد علمت وجود قدمه ووجوب حدوث ماسواه ، وبرهان وجود القدم بروز الممكنات ،

وبرهان حدوثها مشاهدة انعدامها ، لأن ماوجب قدمه استحال عدمه ، وهذا بحمد الله ظاهر لايحتاج إلى زيادة بسط ، وتلك الفوقية ؛ فوقية حكم وولاية ، وقهر ولاية الرب للمربوب ، والسيد للعبد ، والمحكوم عليه للحاكم ، والإستيئلاء والإستعلاء والتولي ، ولي في ذلك شعرا :

الحق ظاهر لاتحجبه صنعـته والكون في غبية من ظلمة العدم

فكيف من بعد ماشهدت أدلته إن الحوادث لاتثبت مع القــــدم

فحيث علمت أن الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عنه ، علمنا أيضا أن ليس هناك حجاب سوى أوصافك وما أنت عليه من التركيب البشري ، فإن أردت كشف ذلك الحجاب فاخرج عن أوصافك ، وفارق مقتضياتك . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ؛ لتكون لنداء الحق مجيبا ، ومن حضرته قريبا)

الخروج عن الأوصاف البشرية المناقضة لوصف العبودية من أنفع الوسائل لكشف الحقائق التي هي حلية الأسرار ، وبهجة الأرواح ، وروح القلوب ، وشرح الصدور . والخروج عن هذه الأوصاف البشرية أول مبادئ إرادة مريدين سلوك الطريق إلى الله ، والأوصاف هذه منها مايكون ظاهرا في قوالب الأفعال ، ومنها ماهو باطن في القلوب . والظاهرة هي كل فعل أوقول ندبك الشرع إلى تركه من محرم أومكروه بسائر أنواعه ، ومجموعها سبعة أبواب في ظاهر الجسم ، فمنها : اللسان وهي أشدها ضررا ، والعينان والأذنان والفرج والبطن واليدان والرجلان . وحد كل عضو من هذه الأعضاء من المحرمات والمكروهات معروف عند مريدين

سلوك طريق الله ، وهي مواضع ظهور المقدورات ، ومظهر ما انبهم في غيب القبضيات : قبضة اليمين والشمال . فهذه على إجمالها قسم مايجب على المريد الخروج منه من الأوصاف البشرية المناقضة للعبودية . والقسم الثاني هي أوصاف القلوب الحاجبة لها عن أسرار الغيوب وهي أيضا كثيرة وصعب علاجها إلا على ذي بصيرة ، فمنها : الكبر والحسد والرياء والعجب ومايتولد عن ذلك من رذائل الأخلاق ، فالخروج عن كل وصف العبودية وهو الذي يشيرون إليه الصوفية بالتخلية ، والتحلي بأضداد هذه الظاهرة ، بصفو الأعمال الظاهرة عن الشوائب الهوائية ، وتصفية الأعمال الباطنة عن المكدرات الظلمانية ، والتصفية الظاهرة سيما شريعة ودنيا ، والأخذ في الأعمال الباطنة وتصفيتها عن كدورتها سيما طريقة وتصوفا ، وعند صفاء الأعمال الظاهرة والأحوال الباطنة والأخذ في طريق المواهب والأحوال سيما حقيقة ومشاهدة ، والغيبة عن الإحساس استغراقا وفنا ، والثبوت معه على مقتضى الأمر والنهي سيما صحوا وبتا ، فإذا فني عن الأوصاف البشرية فقد صفا عن مناقضات العبودية ، وإذا صفت العبودية توالت عليه ألطاف الربوبية . وإذا كان كذلك كان لنداء الحق مجيبا تحقيقا بقوله ﴿ **ياعبادي لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ [**الآية ٦٨ الزخرف**] ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ [الآية ٤٢ الحجر] فيقول الله تعالى له " **ياعبدي حقا ؛ فيقول لبيك يارب صدقا** " وهذه غير عبودية القهر الذي لعموم من في السموات ومن في الأرض . وإذا بعد عن أوصافه وعن نفسه كان قريبا إلى حضرة ربه ، فكل ماكان عن نفسه أبعد

كان إلى ربه أقرب . وليس حضرة ربه إلا فنائه عن فعله ووصفه وذاته وبقائه بوصف عبوديته ، فخرج عن هذا مالا يطالبك الحق بالخروج عنه من أوصاف البشر ، فليس من ذلك في شئ لأنه أباح لك منها ما تتوصل به إليه ؛ من كل فعل أوقول أونظر أوسمع . ورتبة المباح بين الأمر والحصر وتتحاد بها الحضرتين ، ويتناولها المقامين ، فإن كان في الغالب على الإنسان الأمر فلا بد أن يسلك بمباحاته مسلكها . فمن الصادقين من يسلك بالمباحات البشرية طريق الواجبات الأمرية بحسن النية وصدق الطوية ، ومن السالكين من يسلك بالمباحات طريق المندوبات لما هو عليه من المحافظة للمطلوب ، والتباعد عن ورطات الذنوب . ومن المتهورين المنهمكين من يسلك بها مسلك كبائر الذنوب لما هو الغالب عليه من التهور وعدم الحضور مع الله في الأمور . ومن بدل المباحات والمحرمات بالواجبات والمندوبات استحق أن يسمى بدلا . ومن هنا يسمى الأبدال لأنهم بدلوا الأوصاف البشرية بالنعوت الروحية ، وهذه بعض إطلاقات اسم الأبدال . وأما اسم البدل الخاص فهو من فني عن الذات الغيرية ، وبقي مستغرق السر في المشاهد القربية ، والصفات الأزلية ، لاشعور له بسوى الواحد الحق لانفسه ولاغيره . ولي في ذلك شعرا :

يامن يريد دنـــــوء القرب فابتدر   اخلع عذار قيود الحس والبشر
وبادرن تدرك المأمول والظـــــفر   وكل وصف يرده صحة النـــظر
فاترك وسر في طريق السادة الغرر   تلقا من اللطف فيها ألطف العبر

وأصل كل خلق مذموم وطبع ملوم ؛ هو الرضاء عن النفس ورؤية الكمال لها ، فالرضاء عن النفس أصل كل بلية دينا ودنيا ، فما أهلك عامة الخلق

إلا الرضاء عن أنفسهم ، واستحسان أفعالها ، ورؤيتها بعين التعظيم .
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضاء عن النفس ، وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضاء منك عنها)

هذا أصل كلي ؛ إذ مجموع المعاصي الظاهرة والباطنة كبيرة أوصغيرة رضاء الإنسان عن نفسه بعد سبق تقدير الله وإرادته ، فإذا سبق على العبد أن تجري على يديه شؤم المعاصي وظلمة الغفلة وتحرقات نيران الشهوة حجب عن رؤية نقص النفس وعيبها ، وضلالتها وغيها ورى حسن مايصدر عنها وإن كان قبيحا ، فعند ذلك لايفيد فيه نصحا ولا يبين له من ليل غفلته صبحا ، فإذا استحسن أفعالها غفل عن تفقد أحوالها ، وعند غفلته عن أحواله تستولي عليه دواعي الشهوات في مواطن الغفلات وكبائر الضلالات ، فلا يحق حقا ولايبطل باطلا ، منقاد بقياد الهوى ، تائها في مهامة الجهل . ومن أشكل عليه ذلك فلينظر إلى أصفياء وخيرته من خلقه من الأنبياء وسادات العلماء وخواص الأولياء ، هل رضوا من أنفسهم فعلا ؟ أواستحسنوا لها حالا ؟ فمن عرف نفسه لم يأمن من أن تلقيه في مهلكة ، فلايزال كثير التيقظ . ومن كان حالته اليقظة رآى مايرد عليه من دواعي الهوى ، وتسويلات الأغوى ، وسلم قلبه عن ورود ظلمات الشك ، واستنار بأنوار الإيمان ، وأشرقت عليه شموس الإحسان ، وطلعت على سره طلائع الكشف والعيان . وأصل ذلك عدم رضاه عن نفسه حيث اتهمها ولم يرض عنها ، فأمعن التفقد في أحواله ، وصفا عن كدر الهوى أعمالها ، فصار يتعفف عن سفساف دواعيها ، ويجتنب وخيم

مراعيها ، وألزمها مافيه فلاحها ، وجرعها مافيه نجاحها ، فأكرمها بكرامة لا إهانة بعدها ، وطهرها طهارة لاتدنس بعدها ؛ وذلك بنظر الإيمان . لأن نورالإيمان أن يريه الحق حقا فيتبعه ، والباطل باطلا فيجتنبه .

ومر أن النفس من حيث مركزها الجبلي ، وطبعها الحيواني باطلا . ومن حيث محتدها القدسي ومظهرها الروحي وتجليها السري ووسعها الإسمي حق فيتبعه . فالمسمى بلسان الذم نفس هو المركز الجبلي الحيواني ، فالرضا عن هذا المركز والهبوط إلى هذا المحتد أصل كل معصية . لأن المعاصي لاتظهر إلا فيه ، ولاتعرف الشهوات وظلمات الغفلات إلا به . إذ العالم الهبوطي محل المظهر الهوى ، والعالم العلوي بطبعه لايقبل ذلك كله ؛ لا المعصية ولا الغفلة ولاالشهوة لايعصون الله ما أمرهم ، يسبحون الليل والنهار لايفترون ، طعامهم التسبيح ، وشرابهم التهليل . وجعل الله ببالغ حكمته الإنسان مجمع العالمين ، العلوي بقلبه والسفلي بنفسه ، فإلى أيهما كان ميله ورضاه كان الحكم له والدولة على من سواه ، فإذا رضي عن النفس آثرها على القلب فاستعملت في عالمها وقادته إلى طبعها ، وحيث كان ساخطا عليها لم يكن الحكم لها بل عليها وآثر القلب في استعمالها في محابه . وقد علمت أن العالم العلوي ماهم عليه من الصفاء واليقظة والحذر من المخالفة ، فحينئذ تتصف بوصفه ويعود فرعها لأصله ؛ فتسمى مطمئنة ، وتدخل في جملة عباده الخاصين بحضرته الصالحين لخدمته . ولي في ذلك شعرا :

لاترض عن نفسك إن النفس مركزها ... يحيد بالقلب عن مشهوده السامي
وكن عليها معينا كي يكون لــــــها ... من ربها من شهود القرب إنعــامي

وأكثر من يرضى عن نفسه ويستحسن أحواله من انتما إلى حاله من مايترفع به ؛ أما علم أوحسب وهوى ، أما ظاهر جلي وأما باطن ، فقل من قام به شئ من ذلك أن يخلا عن الرضا عن النفس ولو في بعض الأحوال ، إلا من حفظ سره وألبسه الحفظ وحفه بكلاية العناية وجلله بنور الولاية . فلايغتر بذلك ولم يخدع لما هنالك ، وصحبة المغرورين غرور لأن للصحبة في المصحوب أثر ظاهر ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ولأن تصحب جاهلا لايرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ! فأي علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأي جهل لجاهل لايرضى عن نفسه)

فالصحبة عند المشايخ لها أصل أصيل ، بل هي عمدة الطريق ، وهي الركن الأعظم . لأن للصحبة تأثير في الجماد والهوى ؛ فكيف في النفوس المقابلة مايلقاها مشاهدة وفعلا ونظرا وسمعا ، وفائدتها ترقي الصاحب إلى حالة المصحوب وانتقال أوصافه إلى أوصافه وأفعاله ، كذلك إلى أفعاله وأخلاقه وجميع هباته بواسطة المحبة ورابطة التآلف الروحي حتى يصير الذاتين والوصفين والفعلتين والهيأتين كشئ واحد ، لاينفك أحدهما عن الآخر من حيث استحالة كون الفردين فرد ، فإذا صاحبت من يرضى عن نفسه وقد علمت أن الرضا عن النفس أصل كل معصية وغفلة وشهوة . فأي خير في صحبة من تأصلت فيه المعاصي ، وتحكمت عليه الغفلة ، ورسخت فيه الشهوة .

واعلم أن اسم العلم لمن هذا الوصف وصفه مجازا لاحقيقة ، والعلم على الحقيقة إنما هو من عرف الطريق الموصل إلى سعادة الأبد ، والجهل إنما

هو كلما غرك بالله وصدك عن عبادة الله ، وقد علمت أن أصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضاء عنها ، فأين الجهل لمن تأصلت فيه الطاعة ، وحكمت عليه العفة وغمرته اليقظة . فصحبة من هذا حاله أصل كل الخيرات ، ومجمع المسرات ، ومفتاح البركات والسعادات ، وسلم القربات ، فهو حقيق بأن يتخذ إماما ، ويلازم شهورا وأعواما ، ليسري إلى المصحوب بركات صحبته .

وأما من كان حالته الإغترار بالله ، والإعراض عن أوامر الله ، وانتهاك محارم الله فصحبته أضر الأشياء سيما إذا كان مترسما بمراسم العلماء ، ومتزيئ بزيئ الحكماء وهو غافل عن عيوب نفسه ، ومحجوب عن حضرة قدسه ، متطاول في الكلام متكالب على الحطام ؛ فضرورة صحبته أشد من ضرورة صحبة من لم يترسم بذلك الرسم ، ولم يعرف بذلك الإسم . لأن من لم يدعي ذلك ترجى توبته وتعرف له ولغيره زلته فلا يتبع فيها .

قال الإمام رضي الله عنه في بدايته : أضر الأشياء صحبة عالم غافل وصوفي جاهل . واصل ضرر هؤلاء رضاهم عن نفسهم بما هم عليه هذا من العلم ، وهذا من المنصب والإنتساب إلى أولي الفضائل ، وعبارة المصنف في هذا الأسلوب عجيب إذ جعل الرضا عن النفس أصل للمعاصي الظاهرة والباطنة ، والمعاصي أصل الغفلة لأنها حصلت بسبب ظلمة المعاصي . والغفلة أصل للشهوات لأنها نتيجة الغفلة ، فلقد أحسن في ذلك فجزاه الله خيرا . ولي في ذلك شعرا :

معاصي الله يجمعها وينتـــجها   رضاك عن نفسك الزوراء ياانسان
لاتخدعنك في تزوير غـــرتها   وكن ذكي الفهم إن الحـــــر يقضان

إياك تصحب من لم يدر خبرتها　　فصحبة الغافل المغـــرور خسران
من لم يفتش عن أسرار سيرتها　　طاحت بصيرته والقلب حـــيران

فلما ميز حاله المحق وهو الذي لايرضى عن نفسه لأمرين : أما ظهور نور العقل فيرى نقصها ، أوشهود العلم فيرى عدم إخلاصها ، أوبنور الحق فيرى مضادتها لوجود باريها بادعائها أنها وإن لها ومنها من حالة المبطل الذي عمي عن هذه المشاهدة ولم تظهر عليه هذه الفوائد ، أضرب عن المبطلين وباطلهم ، وأخذ في تفصيل أحوال الساكين ومشاهدهم ، فقال رضي الله عنه مشيرا لذلك المعنى :

(شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده ؛ لاعدمك ولاوجودك)

عبارته بالشعاع تشير إلى أثر نورالإسم الظاهر أثره على ظواهر الأركان ومحسوسات الأبدان ، فتخر الأذقان خضوع ، وتجري وابلات سحائب الدموع ، وتسلين عن الظماء والجوع . فهذا ماظهر من الشعاع وذلك ثمرة الإطلاع : روية العبد اطلاع الله على حركاته وسكناته ، ويكون مشهده من الكتاب ﴿ **وماتكونوا في شأن وماتتلوا منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه** ﴾ [الآية ٦١ يونس] فهذا مشهد من شهد أقربية الحق إليه من كل شئ ، فيؤثر حبه على حب كل شئ ، وذكره على ذكر كل شئ ، وطاعته على كل شئ ، وصحبته والحياء منه على كل شئ وفي كل شئ . فلا يرى شئ إلا ويراه لأقرب إليه من ذلك الشئ قربا لايكيف بكيف ولايحد بأين ، ويحاور قربه قرب الإثنين ، فلا

تدرك عنده رتبة البين ، فهذا شعاع البصيرة الفائض من إشراق نور السريرة .

وأما عين البصيرة فهي عين القلب الذي تدرك به المعارف وتميز به اللطائف عن الكثائف ، فيشهد اللطائف أنها أنوار من أنوار الله ؛ أما من أنوار ذاته وأما من إشراق صفاته وأما من تجليات أسمائه ، وأسماءه وصفاته وذاته حق ، والكثائف ظلمات عدمية وصورة وهمية . فيتحقق عند ذلك ضرورة وجود الحق من حيث اللطيفة الوصفية أوالإسمية ، أوالقبضة الذاتية وعدم وجود هذه الصورة الوهمية ، وذلك ظاهر بالعيان ، ومشهود بالبيان ، ومتحقق بالدليل والبرهان .

وأما حق البصيرة وهو نور الحق الظاهر وسره الباهر وصبح وجوده السافر فلايشهدك سواه ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [الآية ٨١ الإسراء] فما ذا بعد الحق إلا الضلال ، والضلال هو الباطل العدم فلا يشهد بنور الحق سواه ، فهو الشاهد والشهود والمشهود ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق** ﴾ لأهل الشعاع ﴿ **وفي أنفسهم** ﴾ لأهل العيان وظهور البيان ﴿ **حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[الآية ٥٣ فصلت] فهنا تفنى وجود وهم الشأن ، وتخرس اللسان ، ويقبض العنان ، ويحقق معنى قوله ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ فتستغرق هويته جزئيات الأعيان ، وتنطمس عند وجوده الملوان . فإذا ظهرت الأحدية وهبت تنويه الثان ، والبصير ة من حيث هي نور وجودي يقبل الإفاضات الحقية ، ويشرق

شعاعها على العوالم الخلقية ، وهي تقابل عالم الشهود من الوجود ، وهي الأمانة المعنية . والله أعلم . ولي في ذلك شعرا :

شعاع نور البصـــيرة يستضاء به من ظلمة الجهل من هو سالك السبل

بعين مشهدها يعطى مآربــــــــه ويغتني عن عبـــور الشئ بالمثل

وحق ذاك وجودا لايشاربــــــــه وتنطوي دونه الألباب والمقـــــل

فإذا تحققت ماهو عليه من صفات الكمال ، وأنه العالم بكل حال ، وأن لديه وعنده من صنوف الإفضال مالايدخل تحت حصر مقال ، وهو متصف به من جميل الأفعال . فلاتتعداه المطالب ولايرى من غيره الرغائب ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتتعد همتك إلى غيره ، فالكريم لاتتخطاه الآمال)

الكريم هو الذي يعطي من لم يرجى نفعه ولايخاف شره ، ولايبال بمن أعطى ولابما أعطى ، لثبوت غناه عن إيصال المنافع إليه ، وتعاليه عن أن يدرك كنهه سواه ، أويثني عليه حق ثناه إلا إياه . فهو الكريم المفضال الذي لاتتخطاه الآمال ، ولم تعتريه مغيرات الأحوال . فحيث علمت أنه كذلك فلاينبغي لك أن تتعدى بهمتك في حوائجك إلى سواه ، ولاتقصد في مهماتك إلا إياه . فلا لغيره حقيقة وجود في ذاته وصفاته فضلا عن أن يكون عنده ماتطلب ولديه ماتقصد ، ولايرضاك تقصد غيره ولاتعرض عن معروفه وخيره . كيف وقد علمك ذلك ودلك عليه ، ونبهك على ماعنده من عظيم الفضل فقال ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ [الآية ٧٤ آل عمران] وذلك على إنك لايوحشنك عظيم جرمك وكثير ذنبك ، فهو الذي إذا

قدرعفا ، وإذا اعتذر إليه قبل وما استقصى فقال ﴿ **أدعوني أستجب لكم** ﴾ [الآية ٦٠غافر] وقال ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ [الآية ٣٢ النساء] وقال ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه** ﴾ [الآية ٣٩ المائدة] وقال ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاصالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ [الآية ٧٠ الفرقان] إلى غير ذلك . ومن لطفه بعبده أن جعل لعباده من كل اسم من أسمائه خلقا ، فالحمدلله . فقل من تجد من أهل دائرة الإسلام لم يتخلق بواحد من أسمائه ، فلك من اسمه الكريم أن تكرم نفسك وتصونها عن رذائل أخلاقها ، وتكرمها بالتقوى ، وتكرم كل عضو من أعضائك بإحيائه بالأعمال المقربة إلى الله زلفى ، ولي في ذلك شعرا :

إن كنت ترجو لديه الفضل والأمل   فلاتعـــــــداه للأنساب والحيل
إن الكريم إذا مانيل لم يـــــــنل   يعطي ويغضي عن الإجرام والزلل
فكيف تعرفه يوما وتبـــــــتذل   إلى الخلائق أوتلجاء إلى العـــلل

فلما كان هو الذي يورد الحاجات عليك كما أنه يهديه الزلفى لديك نعمة منه ليردك إلى بابه لتقرع بكف الفقر والإضطرار باب الغنى ، وخزائن العطاء المودوعة تحت وجود الإنكسار والإضطرار . قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره ماكان هو له واضعا ؟ من لايستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه ، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا !؟)

الرفع هو الطلب وعكوف الهمة على باب المرفوع إليه ، أما في رفع نازلة في الحال ؛ أوخوف في المآل ، أوعطية أودفع بلية . فإذا علمت ذلك ، وإعطاء نور التوحيد أن لافاعل إلا الله علمت أن وجود المنافع ودفع المضار آثار لمؤثرات ، وتلك المؤثرات أما من ظاهر الأفعال الظاهرة آثارها في ظواهر الأعمال والأقوال ، وأما من آثار تجلي الصفات التي تظهر آثارها في الملكوتيات والمقامات الأخرويات . وإذا تحققت أن لا فاعل ولامؤثر ولامحرك ولامسكن ولانافع ولاضار ولاواضع ولارافع إلا الله ، ولاموصوف بصفات الكمال والظاهر بالجمال والجلال إلا الله ، علمت يقينا أنه لايرفع مانزل بك سواه ، وعلمت أن غيرك مثلك في عجزه عن رفع مانزله ، أوتبديل ماقدره ، فماجاز عليك جاز على غيرك ، فإذا لم تقدر على رفع مانزل بك فغيرك أعجز . كيف تنزل الحوائج أوترفع المطالب إلى غيره ؟ أم كيف يجمل بك أن تقضي مطلبا لطلب إلى سواه ، وقد علمت فقر غيره وثبوت غناه ، وعجز غيره وثبوت عزه واقتداره ، أم كيف تنتصر بمن هو مفتقر في وجود غناه ؟ ياعجبا أترى يرفع غيره ما أنزله ؟ أويطلب من سواه مالايوجد إلا في خزائنه ! ؟ أترى لغيره من القدرة ماليس له ؟ أويوجد معه من هو مالك في وجوده وغائب في شهوده ؟ ويكفيك من العتب أن أثبت الباطل مع الحق ، فكيف وقد أثبت الباطل وآمنت به وكفرت الحق أي سترته . قال الله ﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون** ﴾ [الآية ٥٢ العنكبوت] ومن أخسر حالا وأخيب سؤالا ممن رفع حوائجه بمن هو غافل عن دعائه ، ومتبرئا عن ولائة . فإذا

كانت الأمور صادرة عنه ، وقد علمت كمال علمه وغناه ، ونفوذ حكمه ، وأنه لاراد لأمره ولامعقب لحكمه ، فكيف تراك تقصد غيره وهو لايرضى ذلك لك ، أليس في ذلك غاية الجفاء وعدم الإنصاف وترك المبالاة بالجناب الإلهي ؟! فما ترجع إلى بابه إلا وقد حاولت كل حيلة ، وتلوذت بكل وسيلة . أترى للوسائل من جلب النفع ودفع الضر ماليس له ؟ أم تراه لايسمع بذلك ويعلم ضراك إلا بتذكير المذكرين ؟ كيف وهو الذي نصب الدلائل وأبان الوسائل . هذا العتب إذا غفلت عنه وغفلت بسواه ، ولم تشهد سر الله في الوسائط والوسائل ، وإلا إذا كنت لذلك شاهدا وله في الأمور ذاكرا فلاحرج أن تتوسل إليه بوسائله ، وتتضرع إليه بأصفيائه وخواص أوليائه وشعائره ، ومااحترم لحرمته فهو الذي نصب الأسباب ، وعرفك الأبواب ، فقال ﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾ [الآية ١٨٩ البقرة] فسماه برا ، وقد علمت ما أمرك أن الله تشفع إليه وتدعوه به من أسمائه ، وماعرفك في كتابه إذا قال ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوها بها** ﴾ [الآية ١٨٠ الأعراف] وقد ثبت أن شفاعة الأنبياء والعلماء كل على حسب جاهه عنده ، لكن بعد الإذن في ذلك فقال ﴿ **ولايشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ [الآية ٢٨ الأنبياء] وأحقهم بذلك المقام أخشاهم ، فقال ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾ [الآية ٢٨ الأنبياء] ولي في ذلك شعرا :

ياطالب النجح في الحاجات والظفر	أقصد هديت إلى ذي الجود والكرم
كن عاكفا الهم في الحالات بالنظر	إلى الذي خيره جم النـــــــدى عمم

وأصل الإعتماد على الله حسن الظن بالله ، وأصل الإعتماد على غير الله سوء الظن بالله أعاذنا الله منه . وحسن ظنك به يلزمك إن لم تحسن ظنك به لكونه أهل الفضل ، ولأوصافه الغنى ، ونعوته الفضلا ، فلما يصل إليك من الآلاء والإحسان ، وعظم الإمتنان ، فذلك ملازمك على ممر الزمان ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إن تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه ؛ فحسن ظنك به لأجل معاملته معك ؛ فهل عودك إلا حسنا !؟ وهل أسدى إليك إلا مننا !؟)

حسن الظن بالله أصل كل خير ، ومنبع كل فضيلة ، وأنجح كل وسيلة . وبه نال ذوي الفضائل ، واعتمده كل محقق واصل ، وعنده يكون لك كل ما أنت آمل ، وتصلح معاملة كل عامل . فإذا أراد الله أن ينيل عبده فضيلة ويوليه جميلة جعل حسن الظن بالله له إليه سلما .

والخلق في حسن ظنهم بالله على قسمين ؛ بل أقسام كثيرة ، فمن خاصة وعامة ، وهم أيضا صنوف وأقسام عديدة : فالخاصة لما عرفوا ما هو عليه سبحانه من النعوت العلية والصفات الجميلة ، حسنوا ظنهم به لما ترشح في مشاهد أسرارهم من أنوار صفاته ، وتجليات ألطاف ذاته ، فلم تغيرهم اختلافات العوارض الكونية والآلام البدنية - ماتمكن في أسرارهم من لطيف جماله ، وعلي كماله . فهؤلاء حسن ظنهم به لا لشئ ولابشئ ، بل هو عليه وبه لابحدوث عرض . والعامة لما لم يشهدوا ذلك ، ولم يحظوا بما هنالك ولكن حسنوا ظنهم به لكون أيادي فضله عليهم متواصلة ، ومزايا بره لديهم متزايدة ، ولم يعودهم إلا لطفا وإحسانا وفضلا وامتنانا . فالأولون مأمونون الإنقلاب عما هم عليه ، لأنهم حسنوا ظنهم لالعلة ولابعلة .

والعامة غير مأمونين الإنقلاب لتقلب الأحوال ، فلربما يضعف عن حسن الظن به مع وجود المؤلمات وحصول المنغصات . والذين حسنوا الظن به لكونه أهلا لذلك ، ومستحقا له لايتطرق إليهم سوء الظن لأجل حصول شئ مما ذكر ،لأنهم مستغرقين في شهود الأوصاف العلية والنعوت السنية . والأحاديث والأخبار والآثار في حسن الظن أكثر من أن تذكر ، وأظهر من أن تشهر . منها : حديث قدسي **" أنا عند حسن ظن عبدي بي "** ومنها " **لايموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله** "

وأما الآثار فما روي عن أحد من أهل الله إلا وكان أغلب أحواله في عموم أوقاته حسن الظن بالله ، فطرزوا به الكتب والدفاتر ، وزينوا به الخطب والمنابر ، سيما من كان مقامه أرفع وعلمه أوسع ، فلا يكون جل مقامهم وبالغ كلامهم إلا في حسن الظن بالله ، فهو من أجل مقامات العبودية . فلو كان عمل الرجاء منهم أوحال أشرف منه لكان ينبغي للعبد أن يتصف به عند خاتمة عمره ، فلما لم يكن أشرف منه حال ولا أرفع منه من أحوال العبد كما دلنا عليه الناصح الشفيق فقال : لايموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله . فلا ينبغي للعبد أن يفارقه حسن الظن بالله لمحة ولافلتة خاطر ، لأنه لم يأمن هجوم الموت عليه في حال من أحواله . ولايناقض كونه خاشيا وخائفا ، فإنك إذا قدمت على ملك كريم أوعدك بالعطاء وجميل الوفاء تكون على ثقة من ذلك مع ما أنت عليه من هيبة الملك وخوف سطوته ، فذلك مشاهد . ويتاكد حسن الظن عند النوازل لأنه قال " **أنا عند حسن ظن عبدي بي "** فإياك أن تخرج عن حضرة عنديته إن خير فخير وإن شر فشر ، فالكل ظان بالله ظن فكل ظن على حسب

ماحقيقة العبد عليه منطوية ، فلا أدل على سابقة الحسنى من الله للعبد من حسن الظن بالله ، ولايكون حسن الظن وهو مخالف للأمر ومنتهك للمحارم . وأما إذا كان كذلك أي منتهك للمحارم تاركا للأوامر فهو زندقة وخروج عن الحد المطلوب ، فإن تمادى وتدين به ونبذ أوامر الله فذلك دليل المكر ، فكل من كان ظنه بالله أحسن كان لأمره أحفظ ، وعلى محابه أحرص ، ومن مكره واستدراجه أخوف . وذلك دليل القرب إذخاصة الملك أشد خوفا وهيبة من أهل البوادي والقاصين في أباعد النواحي . ومع كونهم أشد الخلق خوفا منه هم أرجى الناس لفائضات عطاياه ، وأحراهم بمنته ومزاياه ، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم . ولي في ذلك شعرا :

فحسن الظن كي تحظى بـه وكـذا   يكون لك كل ماترجو وتحتسب
إن لم تنل من شهود الواصلين فذا   لما إليك من الإنعـــــام والنسب
فكيف ترجع عن باب الكريم إذا   قصدته عند فقد الحول والسبب

فإذا أردت حسن كمال الظن بالله فعليك في عامة ليلك ونهارك بتعلق قلبك بوحدانية الله ، واستعمال جوارحك وجهدك فيما يقربك إليه زلفى ، وابذل الوسع فيما يبعدك من القواطع عنه ، فعند ماتصفوا لك المشارب ؛ وتتحقق لك المطالب ترى يقينا أن كل ماسوى الله عز وجل مفارقك ومتخلف عنك ومتبرئا منك ، وأن الذي لايفارقك ولا يتخلف عنك هو سيدك ومولاك عز وجل ، وذلك السوى كائن ماكان من دنيا وأهل وأقرباء وأصدقاء . فعند ما يتحقق ذلك تخلف الكل عنه ، وانفكاك كل مقارن وعينة كل معاين . قال المؤلف رضي الله متعجبا بعد تحقق ذلك :

(العجب كل العجب ممن يهرب مما لاانفكاك عنه ، ويطلب مالابقاء معه ، ﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الآية ٤٦ الحج]

العجب هو التعجب من حسن الشئ ومن قبحه ، فإذا بلغ غاية الحسن تعجب من بداعة الصنع وكراهة القابل ، ومن ذلك **" عجب ربك من شاب ماصبا ، وعجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل "** . ومن قبح الشئ إذا بلغ الغاية في القبح والحماقة ومنه ذلك . ثم لم يرضى بالعجب مجردا بل أكده بقوله : كل العجب ممن يهرب مما لاانفكاك له عنه وهو الله سبحانه لاانفكاك للعبد عنه ، فكيف عن من لايظهر وجود في ممر وجوده إلا به ، ولم تنفك عنه معيته أزلا وأبدا ووجودا أوكل من سواه من سائر محبوباته من جميع شهواته وملذوذاته متخلف عنه ومنفك عنه بالموت ، وبعوارض أخرى تعرض له ، وهو الذي أظهرها له من خبوء العدم ، ثم بعد ذلك يهرب عنه ويسكن إليها ، فذلك دليل على عمى قلبه وانطماس نوره . وقد علمت أن نظر القلب في عواقب الأمور ومكنونات المعاني ومشاهدة العجائب الملكوتية ، ولاتظهر عجائب الملكوت على من سكنت نفسه إلى الشهوات ، وحارت فكرته في مترادف الظلمات ، فإذا هربت عن من لاانفكاك لك عنه ، واستوحشت وطلبت من أنت غني عنه وهو الذي يطلبك ، واستأنست بمن هو عين وحشتك ، ويريد فرقتك ؛ فذلك دليل على انطماس النور وعمى القلب ، والإستئناس بالمرهوب ﴿ **فإنها لاتعمى الأبصار** ﴾ لأن عمى الأبصار مع نظر القلوب قربة وتحفة لأنها

معينة على جمعك على نظر القلب ، وأبعد عن التفرقات الشاغلة عن لذيذ الفكر وخفي الفكر . مع ماورد في ذلك من جزيل المواهب ونيل الرغائب ، كحديث **" من أخذت حبيبتيه ورضي عني فما جزاؤه إلا النظر إلى وجهي "** هذا عمى الأبصار إذا استنارت القلوب . والعمى كل العمى هو أن يعمى القلب عن الله ، وعن شهود مظاهر آياته وعجائب مصنوعاته ، ويستأنس ويستلذ المحرمات ، ويستوطن مواطن الغفلات . فإشارته بالقلوب التي في الصدور احترازا عن القلوب المدبرة والظواهر المحجوبة عن الأنوار ، التائهة في ظلمات الآثار التي هي مواضع التدبيرات الدنياوية ، والشهوات الحيوانية . فإن الصدر هو المشكاة والقلوب المعنية التي المعول عليها في كلام الله وكلام رسول الله ، وإشارات أولياء الله هي المصباح ، فهذه القلوب التي في الصدور ، فإذا فقد ذلك النور وأنكسفت هذه البدور تؤدي بأنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .
ولي في ذلك شعرا :

إن العجب منك أن تهرب إلى الغير   من بارئ الكون والموجود في الأثر
لو كنت شاهدت مافي الكون من عبر   غنيت بالقلب عن منظرك بالبصر

ولو استأنست به لم تستوحشك المصائب ، ولم تسترقك ملذوذات الرغائب ، ولغنيت عنها وافتقرت إليك ، ولكن لما استأنست بها واستلذذتها توحشت عليك واستوعرت ، ونفرت عنك الأشياء لأنها مع الله حيث كان الله مع عبده بالعون والنصر والهداية كانت الأشياء كذلك ، وحيث استوحشت من الله أوحشته الأشياء أونافرته وخذلته أحوج مايكون إليها . فلما كانت الأشياء من حيث غيريتها متساوية في أنه لاينبغي

للعبد أن يساكنها وأن يرضاها دون الله قبح حال من يرحل من كون إلى كون . فقال رضي الله عنه :

(لاترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى ، يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾) [الآية ٤٢ النجم]

الرحلة هو الإرادة والهمة والعزم على السير ظاهرا بالأركان القالبية ، وأما باطنا بالحركات المعنوية والجمعية القلبية ، ولالنا إلى السفر بالأبدان حاجة ولاله تعنى ـ ولكن المراد السفر إلى الله بالقلوب من مواطن الشهود ، ومحال الغفلات في ميدان النفس . ويبدأ مراحل العادات الحاجبات عن حضرة الإقتراب ؛ فلا ترحل أيها المريد الصادق من كون من الأكوان وتعلق همتك بنيل حال أورفيع مقام أومستلذ وصال ، ولكن ارحل من الكون جملة ؛ ظلماني أوراني من الظواهر والمعاني إلى الملكوت ، فعند أول نظرة هناك يندرج فيه جميع ما في الأكوان من الحسن والإحسان ، وجميع ما في الجنان من كل مالايوصف بلسان ويشاهد بعيان ، فهذا أول نظرة . وماورى ذلك مما ادخره في خزائن الإحسان وذخائر الإمتنان عند الشهود والعيان **﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾** [الآية ٤٢ النجم] فهو منتهى الحسن والإحسان ، ولقاه منية القاصي والدان . فلو لم يكن ذلك مأمول في الجنان لما طاب في الجنة المقيل ، ولاظهر في النار العويل . فمن رغب عن ذلك وطلب شئ هالك ؛ إذ كل من سواه هالك ، فهو حقيقة بأن يوصف بوصف الحمار ، ومن البلادة والإنغمار ، في جملة الأشرار ، الذين

حجبوا عن الأنوار ، ولم يحظوا بمشاهدة الأسرار ، ولم يخرجوا عن ظلمة الإنكار وحيطة الإنقهار . وهذه غاية الجهل لأن يرتحل إلى ماعنه سار ، فلايزال كذلك ولم ينفك عن حركات التدوار في الآثار ، وترقب الإنتقال والخروج عن الآثار إلى الأطوار ، فلم تفتح له مطالبه ، ولم تواجهه رغائبه . ولو كان إلى الله سيره لرءآه قريبا ولدعاه مجيبا ، ولقاصده حبيبا ، ويظهر له مقام جنته في صورة نار ، فيطير له شرر ، وتبدوا منها مبادئ المحبة ، وتفتح في خزائن المحبة أسرار مفاتيح شهود المحبوب . وفيها يلاقي ماهو لاق ، ويلتف الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق . وبعد ذلك يفتح باب السباق للعتاق ، في السير إليه يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ولنرجع ونقتصر على الإشارة إلى ذلك ، فمن كان همته في سيره نيل مقام أوحصول على حال دون أن يوفي الربوبية حقها ، فذلك لبقايا خفيات النفس ودسائس غوامض كوامن الهوى . ولي في ذلك شعرا :

ارحل إلى الله لاتلوي على أحد وكن كليلا عن الأكوان والغـير

فمنتهى كل مأمـــــول ومنقلب الله قل وكلا الأغيار عنك ذر

وآخذ في الإستشهاد على معنى كلامه بحديث جامع لفنون المعاني ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم ؛ قال المؤلف رضي الله عنه :

(فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أوإمرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه " فافهم قوله عليه السلام ، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم ، والسلام)

قوله : فانظر ، فالنظر في أسرار المعاني وبواطن الألفاظ دأب أولي الإنتباه ، وهو اول مبادي الفتوح القلبية ، النظر والأخذ فيه بالأحسن . وأحسن ماينبغي أن يدقق النظر ويحرر فيه العبر بعد كلام كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، الجامع لأشتات المعاني ، فلا أجمع منه بعد كلام الله كلاما ، ولا أبين منه برهانا . كيف لا وهو صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكون اختصارا . واستشهاده على كلامه بهذا الحديث مرضي موافق لغاية المراد . فمن هجرته ؛ الهجرة هي مفارقة الوطن ، وقد علمت ما النفوس مجبولة عليه من حب الوطن بمؤانسة الجار والسكن ، فما يفارق محبوبه إلا لنيل مطلوب . والمطالب أما مطلب سني ومراد علي ، وأما مطلب دني . فالمطلب العلي هو طلب الله ورسوله ، ولا أعلامن الله ورسوله ، وماسوى ذلك فهو دني ، وصاحبه أدنى منه ، فمن فارق محبوباته واجتنب شهواته فقد هاجرعنها ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم **" المهاجر من هجر مانهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد هواه "** فلا يعد فتح مكة هجرة إلا مهاجرة محارم الله ، وكل عائق يعوق عن الله . فمن لم يفارق ذلك ولم يهاجر عما هنالك مما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا . فإذا علمت شرف الهجرة فشرفها بحسب المقصد ، فإن كان لله ورسوله لالحظ عاجل ولا لجزاء آجل فنعم الهجرة ، ومن كان لحظ من حظوظه دون ذلك من شهواته فقد خسرت صفقته وخابت بيعته وتحققت عيبته ، فمجمع الشهوات الدنياوية مجموعها ماذكر في هذا الحديث ، وهي الدنيا والتنعم بمطاعمها ومشاربها وملابسها ومراكبها وجاهها ، وجميع المآرب العاجلة والحظوظ الفانية ، وخص لذة من ملذوذاتها بالذكر ، إذ هي

بمجموع الشهوات كالرأس من الجسد ، وهي حب النكاح وجمع الهم له ، هذا على السالك الطالب ، ومن جعل في عزمه إرداة لشئ دون الله ورسوله فهو حقيق بالذم ، إذ المرادات الشهوات الظاهرة أوالمطالب المستأثرة .

وقوله : أي افهم ، إشارة الحديث الباطنة التي نبهت أولي العزم على تجريد الهمة في السلوك إلى الله لا إلى شئ دونه ، فمادون الله مقصد يصمد ، ولامرام يعمد ، والسلام . فما بعد هذا الكلام كلام ، ولابعد المطلوب مرام ، وعند السلام ينتهي الكلام . وفي هذا الحديث إشارة والله أعلم تشير إلى المرادات الدنياوية والحظوظ النفسية إذا أريدت لله ورسوله من عارف بتصحيح النية صادق الطوية أنها تكون لله إذا أريدت له ؛ كأن يبتغي الدنيا ليتوصل بها إلى مقاصد مرضية ، والنكاح ليتحصن به عن الوقوع في المعاصي وإرادة ولد صالح وغير ذلك من المقاصد المحمودة . والذم إنما يتوجه حيث جردت عن هذه النيات ، بل بمقتضى داعي الشهوة وقضاء النهمة ، فهذا ظاهر كما سمعنا ذلك عن شيخنا وإمامنا العارف بالله عمر بن عبدالرحمن فسح الله في مدته ، وأفاض علينا من هواطل فتوحه وجزيل مواهبه ، وهو قوله في الحديث **" فهجرته إلى ماهاجر إليه "** ولي في ذلك شعرا :

من هاجر السوء قاصد باب مولاه　　　ولم يعرج إلى دنيا ولاجاه

ولالمطلوب دون الله يهـــــــواه　　　عليه من ربنا الرحمات تغشاه

فإذا أردت أن تسلك هذه المسالك ، وتصفي من كدورات الأغيار بالك ، وتنزه عن رؤية الأسباب حالك ، وتستعين على سنن الإستقامة أعمالك

وسائر أفعالك ، فعليك بصحبة من استقامت أعماله ، وصفت أحواله ، وحسنت أفعاله . ومن لم يكن كذلك فإياك وصحبته فإن مخالطته ورؤيته واستحسان حالته أضر على دين المرء من السم على ظاهر جسمه ، إذ بالسم على ظاهر جسمه فناء الجسم الفاني ، وبصحبة من هذه حالته هلاك الدين . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتصحب من لا ينهضك حاله ولايدلك على الله مقاله)

النهي عن الشئ أمر بضده ، كما أن الأمر بالشئ نهي عن ضده ، فترك النهي سلامة ، وفعل الأمر غنيمة ، والسلامة مقدمة على الغنيمة . لذلك أثر جانب النهي بالذكر وضمنه بالأمر ، فصحبة الشياطين في حضيض الحظوظ الذي لم تنهض هممهم إلى الأوج العلي ، ولم تجول قلوبهم في المنهج السوي ، فرؤيتهم قسوة ، وصحبتهم شقوة ، وأقوالهم في الخوض واللعب مستعملة ، لاتنتج حكمة ، فالحكم عنها محجوبة والمعاصي لها مصحوبة . فأي فائدة في صحبة من لا تنهضك أحواله ، ولم تدلك أقواله ، ولم تهدي بأفعاله ، ولم تصلحك أعماله . فالصحبة في طريق أهل الله أصل كبير ، ومنهج منير ، كما مضوا عليه أئمة الطريق وعلماء التحقيق ، كيف وأول من شرع منهاجها ، وأعذب أجاجها ، وأنار سراجها أصحاب رسول الله ، إذهم الأصحاب والسادة الأنجاب ، والصاحب يشرف بشرف صاحبه . لذلك لم توازي فضائلهم ولم تدرك وسائلهم ، مع أن غيرهم اجتهد أعظم من اجتهادهم في الأعمال ، ولم تساوي جبال غيرهم أقل ذرات أعمالهم ، وماذاك إلا لما فاض عليهم من آثار الصحبة وهواطل غوامر القربة .

والصحبة مع الله ومع رسول الله ومع أولياء الله ومع خواص عبادالله ، ومع عموم خلق الله .

ولكل صحبة أدب وحد ، فالصحبة مع الله هي الأصل وعليها يبني أساس الدين وعماد اليقين . أما أن تصحبه بامتثال الأمر واجتناب النهي ، ويكون نصب عيناك ، وعند سمعك ولسانك ، فتحفظ مااستودعك ، وترعى مااسترعاك في جميع أحوالك وأقوالك ، فهذا في صحبة العموم لله . وأما صحبة الخصوص هو أن تفنى عن أفعالك ، وتغيب عن أوصافك ، فتكن لديه حاضرا وإليه ناظرا ، وتمحق بقايا شعورك بذاتك وآنيتك ، وظهور أثنيتك مع ما أنت عليه من الصحو والقيام بوظائف العبودية ، والإنطواء تحت توليات الربوبية ، والغيبة عن ظهور الحدثية ، ومضادة الثنوية بظهور الأولية والآخرية ، هو الأول والآخر . والصحبة مع رسول الله بحفظ وصيته وتحكيم شريعته ، وحسن متابعته في جميع أخلاقه ومنورات أفعاله ، وباهرات أقواله على التمام ؛ إلا مااختص به دون غيره . ولاتحكم رأيك على سنته بل يكون هواك تبع لماجاء به دون تعقل أوتأمل وإجلاله ومحبته ، ومحبة أصحابه وأهل بيته وموادتهم ، وإجلال من قام بشريعته ومحبة الفقراء ، وإيثار الآخرة على الدنيا - وإحياء مشاعر الدين ، والنصيحة لكافة المسلمين ، وعدم الغش ، وتثبيت مالايرضى من القول والعمل . إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره ، ولو كانت الخلق كتابا والأشجار أقلاما ، والبحار مدادا من كريم أحواله وعظيم أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، وأن يحفظه في جميع ما وصل إليك من أمره ونهيه بعد مماته كما في حياته ، ليكون لك من الصحبة الخاصة حظ ونصيب ؟ فمن حفظ

ذلك أتى في يوم الجمع بعد طول الإشتياق إلى التلاق بمزيتين : مزية الصحبة على الغيب ، ومزية اشتياقه صلى الله عليه وسلم حيث قال " **واشوقاه إلى الإخوان ، مؤمنون آخر الزمان** " فينال من الإكرام رتبة الحبيب القادم من الغيبة على أهل المكان ، فيالها من بشارة لمن صحب صلى الله عليه وسلم من أهل آخر الزمان ، لذلك ضاعف له المثوبة ، وخفف عليه العقوبة ، حيث قال " **العامل منهم كخمسين منكم** " قالوا بل منهم قال : بل منكم : وقال أيضا في التحقيق : من عمل بعشر ما أمر نجا . فالحمدلله .

وأما صحبة أولياء الله فهي المواصلة الموصلة إلى الله سيما من كملت فيه مظاهر السنة ، وتوفرت فيه مكارم الأخلاق ، واستنارت بصيرته وطابت سريرته ونشرت دعوته ، وظهرت محبته ، وانتشرت في القوابل معرفته ، وعمرت حاضروه بركته ، وكان متجافي عن الدنيا عالما بمكامن الأهوى . فما أسرع تأثيره في القلوب ، وأكشفه لحقائق الغيوب ، وأوصله للمحب بالمحبوب ، وما أعز من يوجد قائم على طريق الإستقامة قدمه ، وراسخ في علوم الحقيقة ورسوم الطريقة ، يعطي كل طالب وفق مزاج حقيقته ، فهم الأطباء الذين طالعوا عالم الأزل بنور لم يزل ، فينزلون كل من أتاهم منزلته ، ويقيمونه على حسب مقامه ، ويبلغونه فوق مرامه ، فصحبتهم دوى لأمراض الهوى نافع ، ورؤيتهم ترياق لأدواء القلوب ناجع . فإذا تنفس منهم عارف في زمان ، فبشارة أهله بالأمان ، والمغفرة والرضوان . فصحبتك معهم بعدم الإعتراض عليهم باطنا وظاهرا ، وقبول مشورتهم وتوقيرهم واحترامهم ، وتخرج عن عقلك ونقلك وفعلك وقولك ، ويكون

فانيا عنك ، مبادرا لما يأمرون ، محاذرا عما ينهون . فما أقرب الفتوح إليك ، وأجزل المواهب لديك إذا كنت كذلك ، متصفا بما هنالك . وإذا لم تجد من هو على هذه الحالة ، ولم تظهر بكمالها فلا تترك نفسك تتبطل ، وفي هواها تتعلل ، ولكن أنظر من الإخوان من اتصف بوصف حسن فلا تستقله فإنه ما أعطي وصف مرضي إلا وهو عند الله مرضي . وإن لم يبلغ الكمال ، ولم يظهر عليه علامات الوصال ، ولم تلوح عليه سمات الأولياء وعلامات الأبدال . فيكون لك على أمرك معينا ، وفي مهامك قرينا . والخطاء على الإثنين أبعد منه على الواحد لكن تراعي فيه الدين والعقل والمروءة والزهد والأمانة وحفظ السر ، وأن لايكون أحمق ولافاسق ولاكذاب ولاجاهل . ولو أن يتصف ببعض هؤلاء الأولات ، ويجتنب بعض هذه المذكورات . فما ترك البعض إلا لما عنده من الإيمان وإلا فعل البعض ، أي اتصف إلا لما عنده من الإيمان وبشرطه أن يترك المنهي عند تيسير فعله ، ويتصف بالمأمور مع تيسر ضده ، وإلا كان عاجزا لاتاركا ولامتصفا . فهذه حده وآدب صحبتك معه إذا أشار بأمر لاينقضه عليك العلم أن تمتثل مشورته ، ففي المشورة بركة ، حيث كانت ممن كانت ، والحرص على حفظه وإيثاره في الأسباب الدنيوية ، وتنبهه على المعايب بالتلطف وترك مماراته ، ورعايته بعد موته في الدعاء له ، وبرأهل مودته إلى غيرذلك من وجوه البر .

وأما صحبة عامة الخلق فمع الجهال بالتعليم وترك الدخول في مداخلهم ، وحفظ العين عن النظر إلى أفعالهم ، وصون السمع عن سماع أراجيفهم ، وعدم الحضور في محافلهم إلا ماكان خيرا ، والتحرز عن الإجتماع بهم لغير

ضرورة ، والدعاء لهم بظهر الغيب ، والإهتمام لمهامهم ، وستر مساويهم ، وعدم التكبر عليهم والتضجر لما يجري من سوء أخلاقهم ، وأن تنظرهم بعين الرحمة والشفقة ، فهذه صحبة عامة الخلق ، ولانطيل في ذلك . ولو ذهبنا نبتغي طبقات الخلق لطال بنا ، وقصدنا شرح كلام المصنف وفي ذلك كفاية .

وللصحبة شرائط وضوابط ، فمن الضوابط أن تكون لله لا لعلة ولابعلة ، بل يكون الإجتماع عليه والتفرق عليه . ومعنى التفرق عليه أن يفترقا وهم مجتمعين عليه ، لم تعتريهم عما هم عليه الحوادث . وأهم الصحبة صحبة من لم يفارقك في حياتك وموتك وخلوتك ويقظتك ونومك ، لكن لم تصل إلى حسن الأدب معه إلا بصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم إذ هو أعرف بالأدب معه ، ولم تصل إلى حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتأدب بآداب أولياء الله الوارثين محاسن أخلاقه : السادات العارفين والعلماء المحققين ، فبالتأدب بآدابهم تصل إلى التأدب بآداب رسول الله ، وبالتأدب بآداب رسول الله واقتفاء آثاره والتخلق بشمائله تصلح الأمور مع الله . ولو كان الإنسان يدرك مقام الصحبة مع الله من ابتداء نشأته لما شرع صحبة نبي ولاولي ، ولكن الله بلطيف حكمته جعل ودائع التربية الإلهية في الوسائط الخلقية ، وجعل الوسائط الخلقية كالحقيقة النبوية ؛ ظاهرها من عالم الملك والخلق ، وباطنها من عالم الملكوت . والحق لذلك قبلت الحقائق بباطنها وأدتها إلى الخلق بظاهرها ، فقبلت الخلق مايلقى إليها من الحقائق الملكوتية بواسطة ظواهر خلقة الأنبياء الإرسالية . لأن الحقائق ولو تجردت لعالم الخلق من غير واسطة لم يكن فيها

أهلية لقبولها ، فأدتها إليها ماهو ظاهر من جنسها ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ [الآية ١٢٨ التوبة] وإعطاء كل قابلية مايليق بها " **أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم** " وهذه إجازة الأولياء بقدر أنصبتهم من الوراثة ، والعلماء ورثة الأنبياء . فتحقق أن الوارث من أخذ علمه من حيث أخذ مورثه ، وهو من أخذ العلوم لاعن تعلم بل يأخذها عن الله ، وإن جرت له لسان معلم أخذه عنه كأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل صلى الله عليه وسلم ما أدى إليه إلا ما قد علمه الله حقيقيته ، لذلك كان صلى الله عليه وسلم يسابق جبريل في التلاوة حتى أنزل الله عليه ﴿ **ولاتعجل بالقرآن من قبل ان يقضى إليك وحيه** ﴾ [الآية ١١٤ طه] وهنا سر دقيق ومشهد رقيق يفهمه ذوي التحقيق من كل مقرب صديق . فلو أخذنا في كشف هذه الأنوار وتحقيق هذه الأسرار لثار ثائر الإنكار من طوائف الأغمار ، ولا استطار من ظلمات النفوس شرر وكثيف بخار . ولكن الله حد لكل قوم كلام ولكل ناس مقام .

وأما شرائط الصحبة إذا كانت لله أن لايزيد عندك بطاعة ولايبقين بهفوة لأن هذه علل ، وقد علمت أن الصحبة لله لالعلة ولابعلة . ومن شرائطها ما أسلفناه في أول الكلام على هذه الحكمة . ولي في ذلك شعرا :

من لاتدلك على الله مقالــته   وليس ينهضك منه الحال في الهمم

لاتصحبنه فلا ترجى سلامته   إن البلا صحبة الجافي الغبي الفدم

فلما كان فائدة الصحبة الخروج عن أوصاف بشريتك إلا برؤية قصورك عن أحوال الرجال ، ولم تر قصورك وظهورفتورك وانطماس نورك إلا عند

إشراق أنوار الأبدال الكارعين مناهل الحكمة المتبوئين منازل الوصال ، المتمكنين في المقامات والمتصرفين في الأحوال ، فعند رؤيتهم والتعلق بأذيال سيرتهم ، يتبين لك قبح ما أنت عليه من الإغترار ، وما أنت متلبس به من أخلاق الأشرار ، فصحبتهم تريك قصورك ، وترفع بك عن حضيض تعثرك بمحبطات بشريتك وكثائف ستورك . وأما صحبة من هو دونك في المقام ، ولم يخرج عن رق العادات ، ولم يحظى بصفو العبادات ، فهو دليل البعد عن التأهل للإرادة ، وأبعد عن درك السعادة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالا منك)

رب تأتي للتعليل غالبا كنت ربما كنت مسيئا في حالك مخلطا في أفعالك مقصرا في أعمالك ، فأراك إحسانك ورفعة شأنك ، وعلو مكانك على أقرانك ، وظهور نفسك في طول لسانك وبذل بنانك ، من هو أسوأ حالا منك ، فترى قصوره عن مقامك وجهله بكلامك ، فتغتر بذلك وتظن أنك قد حصلت من الطريق على شئ . فأكثر ما توقف الطالبين وتعتري السالكين هذه الآفة الجامعة لآفات لاتحصى ، ومهالك لاتستقصى . ولو كان ميمونا وإلى النهاية مطلوبا لما سلط عليه الأشرار وحجب عنه الأخياروقنع بزخرف هذه الدار ؛ من رفع الصيت وظهور المنصب والإشتهار . ورضي عن صحبة المحققين بمجالسة البطالين . فما أعظم مصيبته وما أشد بليته ، أعاذنا الله من سوء القدر ، والوقوع في مصائد الحذر . فنسأل الله أن يعافينا من هذه البلية وسائر البلايا في الدين .

ويلطف بنا ولنا في كل حال ، ويوالينا بسائر أنواع المنن وتزايد النعم والإفضال ، ولي في ذلك شعرا :

فربما رأيت ممن دونـــك الحسنا ولو صحبت الرجال السادة الأمـــنا

لما اغتررت بظن فيك قد كمـــنا يريك أنك فوق الدون حين ثـــنا

فلما كان الزهد عزوف القلب والتجافي عن المزهود فيه لماهو أشرف منه حسا أومعنى ، وكان منبع الأعمال وقطب رحاها هو القلب لأن القلب مدار النيات ، والأعمال بالنيات كان حقا أن ينزه ويصفا عن مكدرات الأشغال ، لتصلح الأعمال وتزكوا الأحوال ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماقل عمل برز من قلب زاهد ، ولاكثر عمل برز من قلب راغب)

الأعمال مقاديرها بحسب صفاء القلوب ، وطهارتها عن شوائب العيوب . فقلوب الزهاد صافية ، وأحوالهم وافية ، فأعمالهم كثيرة ، وأحوالهم مستنيرة . فأي قلة في عمل خرج محفوفا بالأنوار ، سالما عن الأكدار ، بنسبة قلب طاهرذا نورظاهر . وعمل الراغبين بحسب ماقلوبهم متلبسة من ظلمات الأشغال ، وتكدير الأحوال ، بمصائب المال والعيال . فلا يكاد يصفو قلبه ساعة ، ولاتزكو له طاعة ، والزهد منه واجب ومندوب . وزهد ثالث لأهل المقام الثالث فالواجب في الحرام والمندوب في الشبهة والفضول ، والثالث هو الزهد في الزهد هو أن يكون في الأشياء بلااختيار ، ويدخل في الأسباب بمسبب الأسباب ، ولايكون ذلك إلا لمن أحكم مقام البقاء بعد استيفاء مقام الفناء حقه ، فيرجع إلى الأشياء بالله بعد أن خرج عنها لله . فالزهد على حسب تفاوت مقاماتهم تكون زكاة أعمالهم وصفاء أحوالهم

، فأعمالهم مأمونة عن دخول القوادح فيها والشوائب لديها لما هم عليه من الإعراض عن الأغيار ، والتعلق بالله في جميع حركاتهم وسكناتهم فلا ينزع قلوبهم إلى غيره ، ولاتسرح هممهم إلى سواه ، والراغبون لاينفكون عن الشوائب ودخول الآفات عليهم لما هم عليه من التعلق بالأغيار ، وطلب الأعراض في سائر الحركات ، لذلك قل مايصدر عنهم لعدم الإخلاص فيه لله ، وكثر أعمال الزهاد وإن كان قليلا لخلوصه عن الشوائب التي هي سبب عدم قبول الأعمال : كالرياء والسمعة وحب الثناء وطلب العلو والإعجاب وغير ذلك من رذائل الأوصاف وقبح الأحوال التي هي نتائج حب الدنيا ، فإذا كان رغبة الدنيا في القلب قل أن يسلم عمل وإن خرج حب الدنيا عن القلب خلصت منه النيات ، وصفت الحالات وتزكت الأحوال وبورك في الأوقات . فإذا حصل زهد وعلم وعمل فقد استكمل أنواع الخيرات ، وتوالت لديه صنوف المسرات والبركات ، فلو وزنت في جنب عمله أعمال سائر أهل العبادات لخفت في جنب عمله . ولي في ذلك شعرا :

ماقلت أعمال ذو زهد وذو ورع ولابكثر العمل مقرون بالعـــلل
فليس راغب في الدنياء مكـترع موارد القرب ذي هي خانه العمل

فلما كان متعلق الأحوال القلوب ، ومتعلق الأعمال الجوارح ، وقد علمت أن الأصالة للقلوب في ظهور الأعمال ، فالأعمال نتائج ، والأحوال أصول ، وبحسب الأصل تظهر النتيجة ، وحسن الحال بحسب ماينازله الحق من المقامات في العلوم الوهبية . قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره)

أخذ يتكلم في الذكر لأنه أشرف العبادات ومقدمها فرضا ونفلا ، وهي له وسيلة وهو المقصود ، قال الله جل ذكره ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾ [الآية ١٤ طه] والذكر هو ذكر الله ؛ أما باللسان وأما بالقلب وأما بهما وهو المقصود ، والذكر أما في الأفعال وهو الواجب على الكافة ، وأما بطريق الوصف وهو للخاصة ، وأما بطريق الذات وهو لخاصة الخاصة ، وكل عمل أريد به وجه الله نوع من أنواع الذكر لكن بالوسيلة لابالقصد . وأما الذكر المقصود هو ذكر **لاإله إلا الله** ، أوذكر **الله** أوهو غير ذلك من سائر أسماء الله الحسنى ، ولكن يجمع سائر الأذكار في معارج الأفكار ، ذكر **لاإله إلا الله** وهو الإسم الأعظم بإجماع من يعتد بهم ، وقال غيرهم الإسم الأعظم **هو** ، وكل من مشى على إسم كان عنده هو الإسم الأعظم ، فأسماء الله كلها عظام ، ولكن كل الأسماء مندرجة تحت هذا الإسم كإندراج الكواكب تحت نور الشمس ، قال الله ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ [الآية ١٨٠ الأعراف] فكل اسم ذكرت به كنت ذاكرا **لله** ، وإذا ذكرت بإسمه **الله** ، كنت ذاكرا **لله** بأسمائه كلها . فانظر ما أشرف هذا الإسم وأعظم مقدار الذاكر به أنه إذا ذاكرا لله بجميع أسمائه تعالى ، وفي بعض الأحاديث القدسية " **أنا جليس من ذكرني** " فناهيك أنك جليس الله إن كنت جالسا أوقائما أومضطجعا . وفضائل الذكر وآدابه لايحتمل هذا الشرح استيعابها ، وفي الحديث **"كأني بأهل لاإله إلاالله ينفضون رؤسهم**

من التراب بأجساد عليها نور البقاء مشرق ، رمى الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ، قائلين " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " أوكما قال .
ويقال : أن رفع الأصوات بالذكر يحل ماعقدته الأفلاك الدائرة وغير ذلك ، فإذا عرفت فضيلة الذكر وعظم شأنه على سائر العبادات كأنك تقول : قلتم فيما تقدم أن العمل باللسان دون القلب لاجدوى له ولاطائل فما ذا يغني عمل بلاجدوى ، فاترك العمل رأسا ، يقال له : لاتترك العمل لعدم حضورك مع الله فيه ، لأن الله يكون جليس جارحتك التي ذكرته بها ، فأولى بك أن يكون لك مع الله مجالسة ببعض أعضائك وإن تخلفت بقية أعضائك من أن تنسد أبواب سائر أعضائك وقواك ، فإذا واظبت على ذلك وأدمت قرع الباب فحري أن تجاب ، لأن غفلتك عن الذكر بالكلية دليل على طمس حقيقتك وقطع وثيقتك ، فهذا أشد من كونك ذاكر غير حاضر . فكونك غير ذاكر أشد بعدا من كونك ذاكر غير حاضر ، فإذا كنت ذاكر غير حاضر فقد ثبت لك اسم الذاكرين ، ودخلت في غمارهم ، وهم القوم لايشقى بهم جليسهم كما ورد : **أن الله يباهي الملائكة بالذاكرين فيقول " ماتركتم عبادي ؟ فيقولون : يذكرونك ويحمدونك ، فيقول : وماذا يخافون وماذا يرجون ومايريدون ؟ فيقولون : يخافون النار ويرجون الجنة ويريدونك ، فكلما قالوا خصلة قال : هل رأوها أوهل رأوني ؟ فيقولون لا ! فيقول : أرأيتم لورأوها ؟ قالوا : لكانوا أشد شوقا إليك وخوفا من النار وطمعا في الجنة ، فيقول الله لهم : أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقولون : إن فيهم فلانا لم يأت إلا لحاجة ؟ فيقول الله : هم القوم الذي لايشقى بهم جليسهم** ، أوكما قال . شعرا :

لاتترك الذكر في الأوقات ياانسان لفقد يقضتك في المعنى وتبـــيان
فداومن سوف تدرك لطف منان من الحضور وفضل منه واحسان
وذكر اللسان أولا مجردا دون القلب غالبا تصحبه الغفلة ، لكن يظهر بكثرة ملابسته وإدامة مجالسته قدح خفي يطير إلى الحراقة اللطيفة القلبية ، فلا بد وأن يعلق بها شرره ، ويظهر فيها أثره ولو بعد زمان ؛ بشرط الملازمة والإدمان ، إن أخطأت هذه لم تخطي الأخرى ، وهلم جرا . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور ، وماذلك على الله بعزيز)

فعسى من الله واجب ، ومن الخلق رجاء وطمع ، ولكن يغلب الطمع مع وجود إدمان اللسان أن يرفع الذاكر عن إسم الغفلة الذي هو وصف الذاكر باللسان دون القلب إلى اليقظة التي هي وصف القلب المنتبة عن نومة الجهل وجمود الطبع إلى يقظة العلم ونور العقل ، فعند طلوع فجر شموس العرفانية من المطالع الأزلية يكون يقظانا ، وإذا علق الذكر بلطيفة القلب يكون شأنه تقويته وصونه عن عوارض له حتى يتسع في أرجاء القلب ، ويستنير في النفس ، فيخنس عند ذلك الخناس الكناس في ليل الجهل ، فيتحقق بالإفلاس ، وينزل على مشكاة القلب قبة مثمنة عنوانها ﴿ **قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شرالوسواس الخناس** ﴾ إلى آخر السورة ، فتطلع بدوره ويدنو حضوره ، فتنطق لسان الروح في

كل صورة ، ويعطى مسطوره ، فيقرأ سطوره سورة سورة ، فيتحقق حقيقته ويمحى تزوير زوره ، فيستكمل الذكر كل ذرة من ذراته ، وحركة وسكنة من حركاته ، فعند ذلك يحضر في حضرة الروحانيين حضرة الحضور ، والتطلع إلى مشاهدة المذكور ، فلا يقر دونه قراره ، وتحقق في **هو** الهوية أطياره ، ويرتفع من واسطة الجنود نور ينادي : الرحيل معشر الرعيل ، فلا إلى القرار دون اللقاء سبيل . فتدخل بعضها في بعض ، وتفنى جهات الأمام والورى واليمين والشمال والطول والعرض ، وتزلزل الأرض ويجتمع الفرق ، وتبدو شمس الشهود من سماء سمو الإسم ، فتدور دائرة الجمع ، فيذهب البصر والسمع . وعند نزول هذا الذكر الهوي يكون الغيبة عما سوى المذكور ، وما ذلك على الله بعزيز ، ولا أعظم منه . وعند ذلك تنفتح زورنة البقاء ودوام اللقاء ، وذهاب الأكوان ، وطمس الأعيان ، ويتزايد على ممر الزمان والأوان ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ ولا لأيام الله انقضاء ، ولالشؤنه إنتهاء . فانظر ماذا تعطيه هذه الكلمة ، مايفتح بهذا المفتاح من مواهب الفتاح . ولو بسطنا ذلك لخرجنا إلى حد لم يتضمنه الأصل من المقامات ، وأسرار الفتوح الموهبيات . ولكن في الإشارة إلى ذلك كفاية ، فلنقبض العنان عن جواد اللسان في ميدان الإمتنان .

ولنرجع ونقول : ذكر اللسان تصحبه الغفلة وذكر القلب تصحبه اليقظة . وذكر الروح يصحبه الحضور ، وذكر السر يصحبه الشهود والغيبة عما سوى الموجود . وورى ذلك مقامات عن مقامات الذاتين ، وبعده

استغراق المهيمن في الذات ، الفانيين عن الأحوال والمقامات ، فما ذا بعد الحق إلا الضلال . ولي في ذلك شعرا :

ذكر اللسان بدون القلب يصحبه ... آفات مايعمى البصرا عن الخلل
وينقل المرء لحواه ويتعبه ... ويعتريه مريد الكد والملل
والقلب يوقظه ذكرا ويصحبه ... أنس يعين ويسلي عن عباء النقل
والروح يحضره في طيب مشربه ... ويكسب القرب من من لاله مثل
والسر يفني ويغني نيل مطلبه ... عن كل مشهود تنظر ذا بلا علل

ومن ثمرات الذكر وفوائده معية الله الخاصة **" وأنا معه حين يذكرني "** وهذا الذكر يعني به ذكر الغيبة عما سوى المذكور هو الذي هاج عن الوارد ، ولاللعبد فيه تعمل ولاعليه فيه كلفة يجري عليه ، وتتوالى تنزلاته لديه كتوالي المطر على بقاع الأرض ﴿ **يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ [الآية ١٠٥ البقرة] فليحسر عن أوصاف البشر عند نزول المطر . ومن فقد هذه المواهب ، ولم يحظى بهذه الرغائب ، ولم يجد لذلك الماء فليستدل بذلك على موت قلبه ، ووجود سلبه ، أعاذنا الله من ذلك .

قال المؤلف رضي الله عنه :

(من علامات موت القلب عدم الحزن على مافاتك من الموافقات ، وترك الندم على مافعلته من المخالفات [من وجود الزلات])

العلامة هي الدلالة على الشئ وبيات كليته إذ هي بعض ، والدلالة أما حسية أومعنوية وهي غالبا تكون فعلا حسي على أمر معنوي كهذا ، والقلب هولطيفة نورانية وحقيقة ربانية ، والقلب أرض وهي له سماء ،

والإيمان النازل من سماء السر يسمى إيمانا وبه حياة تلك الأرض واهتزازها ، وله علامات تظهر على الأركان القلبية والصفات النفسانية ، كما تظهر على وجه الأرض نتائج المطر من حياة الشجر وظهور الثمر ، وموته أيضا له علامات ؛ فموته بخلوه عن الإيمان . ومعنى أنه ميت أومظلم أومعدوم ، فإذا خلي عن الإيمان مات ، ومعنى مات عدم ، إذ حياته بالإيمان ، وعلامة موته عدم الحزن وهو ضد الفرح ، إذ لوكان حيا لحزن على فوات الموافقات لأنها قوامه ، وفيها راحته وفرحته لأنها دليل الرضا عن الله ، وذلك غاية مطالب المؤمنين ورضا رب العالمين ، وعدم الندم على فعل المخالفات دليل على موته ؛ إذ هي من مؤلماته لأن فيها البعد عن الله والسخط من الله . وأي أشد على الإيمان من ذلك . فإذا لم يتألم بذلك دل على موته ، لأن الميت لايجد ألم المؤلمات ولذة الملائمات . وفي الفرح بالموافقات من حيث دليل الرضا من الله على عبده ، ووجود الروح بعدم استعماله في المخالفات أيضا يستلزم ذلك ، لأن في الحديث **" من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن "** دليل على وجود الإيمان وحياة القلب .

ومن فوائد الحزن على فوت الموافقات الإنبعاث في الإتيان بها ، وعلامة الندم على فعل المخالفات شدة الحذر من الوقوع فيها والتباعد عن الأسباب الموصلة إليها ، وليس أنه يحزن ولم ينبعث في الطلب ، ولا أنه يندم ولايتباعد عن العطب . ولي في ذلك شعرا :

حياة قلبك بالإيمان تعـرفها ... إذا سررت بفعل المرضي الحسن
وضد ذلك لايدري تصرفها ... في أي فعل يخالف واضح السـنن

فإذا عرفنا أن الحزن على فوات الموافقات هو الإنبعاث على فعلها ، والندم على الذنب تركه ؛ لا الأمن ولا القنوط . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه)

لايعظم عند العارف شئ وإن اتسع ظهوره ، لأن الله سبحانه هو الظاهر بأوصافه وبواهر آياته ، والذنب أثر من آثارقدرته وحكم من أحكام مشيئته . والذنب إذا قرنته بعظيم فضله وعميم كرمه رأيته كلاشئ ، وإذا عرفت ذلك فاعلم أن إستعظام الذنب على وجهين : أحدهما حياء وهيبة من عظمة الله وخوف وبيل عقاب الله ، ولكن الله بعميم فضله قد وعد ووعده الحق ؛ التائبين بالمغفرة ، وأتحفهم بالمحبة ، وبين لهم طرق ذلك ، وأن ذلك إذا رجعوا إليه بالتوبة والإنكسار لايضرهم . فإذا العظمة الحاملة للعبد على التوبة والرجوع إلى الله محمودة ، وهي دأب المؤمنين وأكابر العلماء وخواص المقربين ، واستعظام الذنب شرط من شرائطها ، إذ هو الحامل لها على الندم والعزم على أن لايعود إلى مثله . وأما استعظام يفضي بصاحبه إلى القنوط واليأس من رحمة الله فهذا استعظام مذموم ، وصاحبه ملوم ، لأنه بجهله استعظم الأثر على المؤثر ، وكيف تستعظم ذنب أوغيره مع وصف الله سبحانه ، إذ وصفه الكرم والفضل ! كيف وقد وقد علمت أن الذنب مظهر أوصاف فضله وشمول رحمته وعفوه ، فإذا لم يعصي فعلى من تظهر أوصاف الكرم وشمول الرحمة وعظيم العفو . وفي الحديث : **" لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله**

فيغفر لهم " وفي الحديث أيضا **" إذا أذنب العبد ذنبا فقال يارب اغفرلي ، يقول الله تبارك وتعالى ، عبدي أذنب ذنبا علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اذهب فقد غفرت لك ، فافعل ماشئت "** أي مادمت تذنب فتستغفرني ، فإنا أغفر لك . وفي الحديث القدسي **" ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ولم تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة "** وقرابها ملاها أومايقارب ملاها . والتائب راجع إلى ربه مدبر عن نفسه منكسر مفتقر ، وهذه أخص أوصاف العبودية . وأما إذا لم يحمله على الرجوع إلى الله بل بقي مصر عليه غير منزجر عنه ، ومستخف بالذنب ومحتقره ، ومستكثر مايظهر عليه من الطاعة ومعجب بها فهذه أوصاف المنافقين ، لأن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يراه كالذباب قال به هكذا عن وجهه ، كما ورد ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه . وما يعامل الله به أهل الإنكسار من الكرم أعظم من طاعاتهم ، ومايعامل به أهل اليأس والقنوط أعظم من سيئاتهم ، فحسن الظن بالله وإن كثرت الخطايا وعظمت البلايا بشأن أهل الإيمان وضده شأن أهل الكفر والطغيان .

يروى أن بعض الخطائين لما حضرته الوفاة أوصى إلى أمه إذا أنا مت فلاتعلمين بي الجيران فإنهم يشمتون بموتي ، وهذا خاتم مكتوب عليه **لاإله إلا الله** إذا مت فاجعليه في ناحية قبري لعل الله يرحمني ، وإذا مت فضعي رجلك على خدي وقولي : هذا جزاء من عصى الله ، وإذا مت فابتهلي إلى الله وقولي : اللهم إني رضيت عنه فارض عنه . قال الراوي : فخرجت من عند أنس بن مالك بالبصرة فإذا بجنازة يحملها أربعة من الزنج

وامرأة تتبعها ، فقلت : سبحان الله جنازة في البصرة يحملها أربعة من الزنج لأكونن خامسهم ، فدنوت فقلت لهم : تقدموا وصلوا عليها ، قالوا كلنا فيها سوى إنما نحن استأجرت نحن هذه المرأة ، فتقدمت فصليت عليها ، فلما فرغنا من دفنه إذبهذه المرأة قد ضحكت وحمدت الله وأرادة الإنصراف ، فقلت لها : لاينجيك إلا الصدق ؛ مم تضحكين ؟ فأخبرتني الخبر ، قالت : ففعلت جميع ما أوصاني به ، فلما دفن سمعت صوتالا أشك فيه أنه صوته يقول : إذهبي يا أماه قدمت على رب كريم راض غير غضبان .

فانظر رحمك الله معاملته مع أهل الإنكسار الذين لم تصدهم عنه كثير الجرائم والأوزار ، بل كان اعتمادهم على كرمه وعظيم عفوه ، وقاموا مقام الأذلا البائسين بين يدي المولى الغني الكريم المحسن البر الرحيم . فماذاترى مايكرم به من أتاه بذلته وانكساره ، وخضوعه واستكانته وافتقاره ؟ ولي في ذلك شعرا :

فلا يصدك عن باب الكريم وإن كثرن منك خطيات وأوزار
فليس يعظم عند العفو ذنب وإن كانت عظام فإن الرب غفار

فإذا تجلى بفضله صغرت الكبائر ، وإن واجهك بعدله عظمت الصغائر .

قال المؤلف رضي الله عنه كالمفسر لما أسلفه في هذه الحكمة :

(لاصغيرة إذا قابلك عدله ، ولاكبيرة إذا واجهك فضله)

الصغيرة من الذنب كلما كفر بالطاعات عند أهل الفروع ، والكبيرة كلما أوجبت حدا أونص عليها الشارع ، وبينهما أوساط للنظر فيها مجال . وعند أهل الأصول أنك إذا نظرت إلى كبرياء من عصيت كانت كلها كبائر ، والأدلة الشرعية تفضل وتحد لكل حد . وحيث علمت أن الصغائر هي

التي تكفر بفعل الطاعات وبالتوبة المجملة . وعلمت أيضا أنه إذا حصل الإصرار على الصغائر لحقت بالكبائر ، وأنه أيضا إذا قابلك بعدله كانت صغائرك كبائر على ما قاله من قال : عند نظرك كبرياء من عصيته تصير كبائر ، وإذا تفضل عليك بالتوبة وإحسان العمل وإصلاح الخلل وتجلى عليك بوصف الفضل صغرت الكبائر ، وصارت في جنب العفو كغبرة في رمال ، وقطرة في جنب بحار ، بل أقل من ذلك وأحقر ، بل لاشئ . وعبر بالعدل بالمقابلة ، لأنه إذا قابلك بالعدل كفاك ، وأوبقك أقل شئ من الذنوب ، واستغرق طاعاتك أقل شئ من النعم والمواجهة من الإكرام ومن قبيل الإنعام . فإذا أحب الله عبدا تقبل حسناته وادخرها ، ومحى سيئاته وغفرها . وإذا أبغضه وناقشه أحصى قبائحه ، وعدد عليه فضائحه ، وفتش عليه في العمل ، وبثّ من حسناته مواضع الخلل ، فيستقيل منها كما يستقيل من السيئات ، ويستغفر منها كما يستغفر من الهفوات . ولي في ذلك شعرا :

إن واجه الفضل صارت كل معصية ... صغيرة مثل شفاف على حدب
أوقابل العدل عادت كل معصـــية ... صغيرة مثل أعظمها في النسب

فإذا كان إعتماد العبد على فضل الله تعالى وكرمه صغر عنده كل شئ دون ذلك ، بل إذا استحكم رؤية الفضل أثمر رؤية المفضل الكريم ، وعند رؤية الأوصاف الأزلية تضمحل الصفات البشرية ، فضلا عن أن يكون لها عملا أوعلما أووصفا ، فعند ذلك تزكوا أعمال العبد ويفيض على القلوب أنوارها ، وتكسى الأحوال أسرارها ، وتنشط الجوارح والقوى ، ويصحو من سكر الهوى . وذلك ثمرة غيبة العبد عن كونه عاملا فيكون كالآلة في

يد الصانع يحركها ويسكنها كيف شاء ، وعلى ذلك المعنى صح أن النسخة على ماهي عليه . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاعمل أرجا للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويحتقر عندك وجوده)

لاعمل أنفع للقلوب ، ونفع القلوب بالعمل مايفيض عليه من أنوار القبول ، وخلع أسرار الوصول ، والأعمال إذا غاب العامل لها عن كونه عاملا تركت عن ظلمات القوادح ، وسلمت من آفات الرياء والإعجاب ، ولايكون كذلك إلا من قد محقت بقاياه ، وتلاشت أوصافه ، ومحيت ذاته تحت مشرقات أنوار التوحيد ، وسحقت تحت عظمة التفريد ، وإلا يكون كذلك فلا ينفك غالبا من محبطات الأعمال ، من رذائل الأوصاف وشوائب الأحوال ، والمجاهدة وإن كان لها أثر في الظواهر بعد مزيد المجاهد ، وتحري طرق الإخلاص والصدق ، لكن لاكمن كان ماجودا عن نفسه غائبا عن حسه مع بقايا الصحو في الأعمال ، والحفظ في الأحوال . فسبحان من رفع شان قوم وأعلا مقامهم ، وتمم سابغات فضله مابتلى به غيرهم من الآفات ، فرجاء العمل للقلب ، أي لصلاحه وحصول نجاحه بالغيبة عن رؤية النفس ، فكل عمل يظهر فيه لايعتد به وإن كان خطيرا ، وكلما غابت عن رؤيتها فيه فهو العظيم وإن كان حقيرا، ولي في ذلك شعرا :

فلا شئ من الأعمال يرجى   لجلب الخير والقدرالخطير
من أعمال تغيب النفس فيها   ولايقدر لها وزن نظـــير

فلما كانت الواردات تبعث على النهوض وتعين على أداء النوافل والفروض ، كان إيرادها عليك من الله لتكون عليه بها واردا لالتكون عنه شاردا . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما أورد عليك الوارد لتكون عليه واردا)

إنما ؛ كلمة حصر يريد إنما أورد عليك الوارد سواء كان ذلك الوارد من قبيل الملائمات وضروب المسرات كالنعم وصنوف الطاعات ، لتكون عليه وارد من طريق الشكر وشهود المنة ، أومن المؤلمات والمنغصات وسائر وجوه التعرفات لتكون عليه واردا من طريق الصبر ، أوأورد عليك وارد من طريق الأحوال ؛ كالرجاء والخوف والقبض والبسط والهيبة والأنس ، لتكون عليه وارد ، فالرجاء بزيادة الأعمال وحسن الأخلاق وصفو الأحوال والخوف لترد عليه من طريق الفرار من المخالفات والحذر من الوقوع في الهفوات . أوأورد البسط لترد عليه من باب الأدب والإنكماش ، أوأورد عليك وارد القبض لترد عليه به من باب الإلتجاء وصدق الإفتقار ووجود الإضطرار ، أوأورد عليك وارد الأنس لتكون وارد عليه من طريق الفناء تحت مشرقات الجمال فارغ السر عن سائر الأشغال ، أوأورد عليك وارد الهيبة لتتلاشى وتضمحل عند ظهور سلطان الجلال ؛ فانيا عن سائر المقامات والأحوال ، فقير عن الأعمال . وغير ذلك من ضروب الواردات لترد عليه بها لالتقف معها دونه . فالوقوف معها أما غرور وأما دعوى وزور،عافانا الله من الفتن في الدين .

ومراد المؤلف رحمه الله بالوارد ؛ الوارد العرفاني والفيض اللدني الإمتناني ، وما أورد عليك إلا ليصح لك دخول حضرته ، وتمشى لك أفعال خدمته

، ولم يورده عليك لتنصب نفسك وتظهر به على الخلق لتستقيم الجاه ، وتنال به الحشمة والتقدمة ، فهذه كلها ومانحا نحوها من محبطات الأعمال ، شاردة بك عن بابه ، وجانحة بك عن جنابه . شعرا :

فكل وارد لايدخل بصاحبه   على الإله فإن المكر يصحبه

فرد عليه بما اختصيت جانبه   فذاك لم به كيما يقـــــربه

وإنما أورد عليك من أحسن عطاياه وأفضل مواهبه وهداياه إلا ليستخلصك ويستفديك من رق الأغيار وظلمات الآثار ، فلا تعود إليها بعد أن أخرجك عنها مستحقا لأصناف العقوبات وأنواع النكال ، لأنك رجعت إليها بعد أن استخلصك منها ، واستخرت عليه بعد أن استخارك . ولايخفى مافي ذلك من قل الأدب معه . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أورد عليك الوارد ليستعملك من يد الأغيار ، ويحررك من رق الآثار)

أورد عليك مواهب قدسية ليخرجك من مضايق حسية ، أورد عليك عطائه ليشهدك كرمه ووفائه ، أورد عليك الواردات ليستلمك من رق العادات . فالأغيار استأسرتك عن سعة التوحيد وروح التفريد ، وسجنتك في مضيق التعديد ، وقهرتك الآثار عن شهود الأنوار ، فاسترقتك واستعبدتك بما فيك من الطمع فيها والركون إليها والإقبال عليها ، فتداركك بلطيف فضله وعميم كرمه ، فأورد عليك من أنواره ، وأنزل عليك أسراره ، واستخلصك لخدمته ، ومن عليك بمحبته . فجذبك من بين أعدائك ، وأولاك فضله وامتنانه ، وعرفك قبح الدنيا وفناء الأشياء ، فافتداك وجعلك له عبدا خالصا بعد أن كنت بين تشاكس الدواعي

الهوائية ، ومطالبات الشهوات الحيوانية ، والظلمات الأرضية ، والحظوظ العرضية . وأشهدك الحضرة الربوبية ، وبوأك المنازل القدسية ، فأصحبت ذا ملك كبير وعز خطير،فله الحمد أهل الثناء والمجد . ولي في ذلك شعرا :

قد كنت تحت حجاب الغير مقهور وتحت رق من الآثـــار مأسور

فاستسلمك بلطيف الفضل مأثور وحررك فاظهرت منك التباشير

فلما كان قهرك واستيئسارك هو وقوفك مع رؤية وجودك دون وجود موجدك ، فكان ما أورده عليك هو ظهور شهوده عند غيبة وجودك . ولايغيب عنك وجودك إلا بوارد موهبي وفيض امتناني ، وكشف عياني . قال المؤلف رضي الله عنه :

(أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك ؛ إلى فضاء شهودك)

عبارته لوجودك دون موجدك بالسجن ، ولشهودك دون رؤية وجودك بالفضاء ، إشارة منه إلى ضيق البشرية والعوالم الخلقية والحظوظ النفسية ، وإلى سعة العوالم الحقية والأطوار الأمرية والتنزهات الروحية . ولقد أحسن في ذلك . فلا أضيق من الظلمة ، ولا أوسع من النور . فالحق نور والأغيار ظلمة ، فأبنيتك وظهور خلفيتك سجن ضنك ، وظلمة حلك . فإذا أراد الله أن يمن على عبد من عباده أورد عليه واردات الشهود ، المغنية لسائر الوجود . فاختطفته من يد الشهوات ، وأنقذته من مهالك الهفوات ، واستسلمته من ظلمات الجهل ومعاطب الغفلات ، فتسلط الأنوار القلبية والقواهر الحقية على الدواعي الهوائية والحواجب النفسية ، فتستأسرها وتستعبدها وتحلها معها في رفيع محلها ، فتطمئن لربها ، وترجع

بالإقبال إلى خالقها . فتصير من جملة الرفيق الأعلى ، وتحل في فسيح الملكوت الأبهى . فأكرم بها منة ، وأعظم بها نعمة . ولي في ذلك شعرا :

استخلصك من يدالأغياروالصور   إلى فسيح كريم المشهد النظر

ثم اعلم أن مفازة السلوك في ميادين النفوس أرض سحيق وطريق عميق ، لاتسلك إلا بمطايا ، وأزواد وجيدة الروايا . ومطايا هذا الطريق المؤصلة إلى أعلى رفيق وأنزه فريق هي الأنوار القدسية والأسرار القربية . فالقلوب لاتقوى على سير هذه الطريق الكثيرة التعويق إلا بورود هذه الأنوار . قال المؤلف رضي الله عنه :

(الأنوار مطايا القلوب والأسرار)

الأنوار الواردة هي أما من تجلي الصفات وأما من تجلي الأفعال ، فالقلوب مطاياها الأنوار الواردة من مظاهر الأفعال الحقية ، فتكون حائلة عن القلوب ماتجد من الآلام والكروب . والأنوار الوصفية الغيبية تحمل عن الأسرار ماتجد من ألم الأغيار ، والوقوف في محبطات الآثار ، فيظهر من سر الإقتدار حسن الإختيار ، فيحمل ثقل ظلماتها . فعند ماتستمطي القلوب مطاياالغيوب ، وتجد في السير إلى المحبوب يشرع لها أنبوب ماء من أنابيب المشارب الفهمية . وعندما تركب الأسرار نجائب الأنوار تجري لها أنهار العلوم اللدنية الغيبية والأسرار الملكوتية والأعيان العلمية ، والأزهار الحقية والثمرات المطوية ، في غيب الكلمات الأزلية . فالحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . ولي في ذلك شعرا :

مطايا القلوب النازلة من سما العلي   تنيخ بها في موطن الوصل والقرب

ونوق رحيل السر يسري بــها إلى   رياض الحكم في موطن القدس والحب

فهذا الكلام يشير إلى معنى واحد . ثم أخذ في تعبيره بقوله :

(الأنور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار ؛ وقطع عنه مدد الظلم والأغيار)

النور هنا عبارة عن وجدان الحق أما بعلم اليقين أوبعين اليقين أوبحق اليقين ، لذلك وحد اسم النور ثم عدد مظاهره فقال : جنود جمع جند ، فمن تلك الجنود الواردة عن طريق العلم وهو أضعفها تأثيرا في قهر العدو وقمع الهوى . ومنها الوارد بطريق العين وهو أقوى من الوارد بطريق العلم في التأثير في ذلك وأضعف بالنسبة إلى الحق . فالحق لايبقي للباطل وجود ، والعين لايبقي للشك مجال . والعلم ينفي الشرك والجحود ، والعين تكسب الفناء في الشهود ، والحق يلحق بالبقاء السرمدي . فهذه جنود . وفي كل مرتبة من هذه المراتب تعداد مقامات وسني حالات ، والجنود هي أركان المملكة الأعظم ، فلاينتظم أمر المملكة الإنسانية بدونه . فالمملكة الإنسانية قصرها الأعظم القلب ، وسلطان تلك المملكة الإيمان ، ووزيرها الأعظم العقل وبوابه العلم ، وريئس الجيش الذكر . ولاتغاير بين تعبيرنا بالإيمان عن القلب وبين عبارة المصنف رحمه الله تعالى بالقلب . وعبر بالقلب إذ هو الملك إذا اعتبر كون القلب المعني النور الرباني بالإيمان ليتميز عن القلب اللحمي . وعبرنابالقلب اللحمي بأنه قصر الملك لتعرف القلب الذي نسبته إلى الله ، والقلب الذي نسبته إلى العبد ، ووزيره الأعظم التقوى بالنور ، وسلاحه الزهد ، وترسه ودرعه الورع ، وحاكمه السنة ، وخدامه الحواس ، ومطاياه العزائم ، وخيوله الهمم . كما أن جند النفس الظلمة ، ووزيرها الأعظم الهوى ، وقائدها الشيطان ، وحاكمها

الجهل ، وسلاحها الحرص ، وملاك جيوشها الطمع ، ورئيس جيشها طول الأمل ، فالظلمة إسم لهذه الجيوش . فإذا أراد الله أن ينصر عبده أنزل سلطان الإيمان في سويداء الجنان ، وثبته بالشهود والعيان ، وأيده بنصرة العقل ، وتدبير العلم وقوة الذكر وسلاح الزهد ودرع الورع ، وثواقب البصائر ، وصلاح الضمائر . وحكم عليه السنة فيما يأخذ ويذر ، وأخدامه الحواس ، وإصلاحه عن الأشر والبطر ، وسدده بصواب النظر في معاني الصور ، وحسم عنه مواد الظلمة ، وقهر له جنودها ، ومكنه من سلطانها ، وعرفه مخادع مكامن قطاعها ، وكفاه هم عوارض الطريق ، والقوادح في التحقيق ، وكفاه هم الأغيار ، والإغترار بوجود أنوار دون تحقق بحقائق الشهود والإستبصار . وإذا أراد أن يخذله كان الأمر بالعكس والعياذ بالله ، فلا أجدر بالعبد من اللجاء إلى الله واللياذ به في أن يكفيه هذه الأعداء والقطاع عن طريق المولى ، ولي في ذلك شعرا :

النور جند لقلب العبـــــد ينصره ويهدي الحائر المسجون في الظلم

كما ترى العكس جند النفس تخذله وتسلمه كل موعـــــود من الألم

ثم بين حالات القلب وصفات كشفه فقال رضي الله عنه :

(النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإقبال والإدبار)

النور كما علمت أنه العلم ابتداء والحق إنتهاء ، فابتداه يكشف عن وجه القلب حجابه ، ويؤذنه باقترابه ، وتنفتح به إلى العلا أبوابه . والبصيرة كما علمت أنها عين القلب ، فإذا كانت العين صحيحة . ولكن لابد لها في حصول النظر من نور ، فلوكانت العين صحيحة ولكنها في ظلمة لم تر ضوء نار ولانجم ولاقمر ولاشمس ولاشفق ولافجر ؛ لم تدرك بمجرد العين نظر ،

فالعلم هو نجوم ليل هذا القلب ، والعين قمره ، والحق شمسه ؛ وإن قلت النجوم شريعته ، والقمر طريقته ، والشمس حقيقته . فإذا كشف عن عين القلب ظلمة الجهل بأي نور من هذه الأنوار أبصر ما انطوى عليه المقام من الأسرار ، فلذلك يحكم به فلا يدخله شك ولايمتريه تردد . فإذا كان كذلك كان للقلب الإقبال على حكم بصحته ، والإدبار عما تحقق بطلانه ، وتبين ضلالته . فالقلب كشخص قائم وله أوصاف شتى ، فالموصوف بتصرف الأوصاف هو الشخص بجملته لاالصفة مجردة عن آدابها ، والقلب أيضا سمع وحياة وقدرة وإرادة وعلم وكلام ، فهو الواسطة بين الملك والملكوت . فالصفات الخلقية تستنشق من وراء هذه الصفات القلبية ، والصفات القلبية واجهة ، ومقابله الصفات الأزلية . لذلك كان له الإقبال على الله والإدبار من حيث مايفيض عنه إلى عالم الخلق .

ولو أخذنا نبين كل صفة وماتقبله ومايفيض عنها على الصفات الخلقية القالبية لانكشف سر نحن بصدد صونه عن الإذاعة ، لأن القوابل لاتطيق سماعه ، وفي الإشارة إلى ذلك كفاية لمن فتح عين بصيرته ، واطلع بشمس سريرته ، ولي في ذلك شعرا :

النور يفتح باب القلب بالمدد وفي البصيرة يظهر سره الصمد

فلما كانت الطاعات بارزة على الظواهر مااستنشقته القلوب من السرائر ؛ يفرح بها من وجهين : وجه من حيث كونها من الله ، ووجه من حيث كونها منك . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتفرحك الطاعة لأنها برزت منك ؛ وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ [الآية ٥٨ يونس] **)**

الفرح هو ابتهاج القلب بأمر محمود عاجلا وآجلا ، وفرح الجهال بالأمور العاجالة ليس هو من هذا القبيل ، لكن الفرح هنا بالطاعة على ضربين : أما بوجودها من حيث هي طاعة ومتوبة وسلامة من عقوبة ، لامن حيث أنه أبرزها من خزائن فضله ، فذلك فرح المحجوبين ، والعامة الجهال الغافلين . لذلك نهى المؤلف رحمه الله عن الفرح بها من حيث كونها برزت منك ، لأنك لاتفرح إلا بما تيقنت بقاءه ، ومتى تتيقن براءة أعمالك من مفسداتها والقوادح فيها وإخلاصها . وأعظم من ذلك أنك حجبت بها عمن أبرزها ، فلو كنت ذا كشف واهتداء لرأيت من ألهم ذلك وأعان عليه ووعد بالجزاء . فإذا كنت كذلك ؛ أي علمت من أين صدرت ولما ذا أنت عملته أنها من جملة عنايته بك وأنت بعد لم تهتدي إليه إلا بهدايته ، ولم تقوى عليها إلا بإعانته ، فعند ذلك تفرح بها لكونها دليلة على عناية سيدك بك ، فيكون فرحك بفضله وقد أمربذلك **﴿ قل بفضل الله ﴾** وهدايته من أعظم الفضائل عليك ، **﴿وبرحمته ﴾** وهي إعانته من أتحف الهدايا لديك ، وفرحك بفضله ورحمته خير مما يجمعون من مايصدر منهم من مجموع أعمال ، وتحسين أحوال . فأين ماتجمعه مما تمنحه ، فلو كان عدد أنفاس العالم زواكي أعمال وسنيات أحوال وأنت فرح بها معتمدا عليها لم تغن عنك من الله شيئا قدره ، من عارف بالله معتمد على فضل الله فرح

بنعمة الله لاتوازيها أعمال العاملين ، وأحوال السالكين مع رؤيتهم لها دون موجدها . ولي في ذلك شعرا :

فافرح بفضله فإن الفضل مقصود   لمن له المن والإحسان والجود
ولاتكن به دون الله مـــــردود   يكن بلاشئ إن الغير مفـقود

فلما كان الغيبة عن رؤية الأعمال دأب السالكين الأنجاب ، والواصلين الأحباب ؛ قال المؤلف رضي الله عنه :

(قطع السائرون إليه والواصلون إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم ، أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله تعالى فيها ، وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها)

قطع لم يمكنهم السائرون ، هم السالكون على قدم الصدق في بيداء الإرادة وميادين الأعمال على نجائب الأحوال ، وقد قطعهم عن رؤية أعمالهم وصفو أحوالهم عدم تحقق الصدق إذ هو شرط قبولها وهم بعد لم يخرجوا عن رؤية النفس فيها ، فلذلك لم يعتدوا بها ولم يعتمدوا عليها . وذلك أنك لاترى إلا ماخلص عن شوائبه وتظهر من معائبه ، ولم تأمن من دخول الآفات مادامت النفس ظاهرة .

وأما الواصلون فحجبهم عن رؤيتها شهوده ، وإذا تحقق شهوده لم يبق لغيره فعل ولاوصف ، فالأعمال مصادر الأفعال ، والأحوال مصادر الأوصاف ، فلم يبق لغيره فعل فيرى له عمل ، ولابقي لغيره وصف فيرى له حال ، فهذا يعطيه مقام الشهود والتحقق بالوجود لاترى معه موجود ، فصح أن رؤية الأعمال دون الله حال المحجوبين الذين لم يحظوا بعزيز الصدق ، ولم يشهدوا رائحة نسيم الوصل . فالواصل الذي يشهد مجري الأعمال ومنشيها

، والصادق الذي يتهم نفسه فيما يصدر عنها ؛ ويرى عدم الإخلاص وشهود النقص والتقصير عن الجد والتشمير ، حتى لورأى مارأى من الأعمال والأحوال لم يرها إلا بعين الدعوى ،

وفي ذلك المعنى كثرت حكاياتهم كما روي عن الواسطي مع أصحاب أباعثمان حيث قال لهم : إنما أمركم بالمجوسية المحضة حيث قالوا : كان يأمرنا بالأعمال ورؤية التقصير فيها ، وقال : هل لا آمركم بالغيبة عنها برؤية منشيها ، هذا في مقام الواصلين . وأما مايروى في ذلك المعنى في طريق السالكين فكثير ، يروى عن بعض سادتنا العلوية رضي الله عنه وهو سيدنا عمر المحضار رضي الله عنه أنه قال : لوتقبلت لي تسبيحة لفعلت لجميع أهل بلدي دعوة ، أوكما قال .

وآفة السالكين رؤية أعمالهم ، والإعتماد في سلوكهم على مايصدر من أفعالهم ، ومنه ينتج الإدلال والإعجاب ، وضروب من الآفات سلم منها الموفقون ، وتحصن عنها المتقون . شعرا :

فالواصلون قطع عن عـين رؤيتهم ... شهود سيدهم عن كل منـــظور

والسالكون سبيل الصدق منهجهم ... أن لا يروا صور الأعمال مسطور

فلما انتهى الكلام على ذلك أخذ يتكلم على مايعتوي المريدين من مقاطع الطريق ومايلتبس على الجهال المغرورين فقال رضي الله عنه :

(مابسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع)

عبر بحالة الذل للمخلوقين ؛ كشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤس الشياطين ، وبالبسوق إلى الطول في العالم الهبوطي ، فإن طولها معنوي تتصل ثمرته بالرعيل الظلماني والمحتد القاصي عن الله .

والأغصان هي ماتتشعب من هذه الشجرة من الأخلاق اللائمة والصفات المشومة التي هو أصل النفاق ومنبع طرق الفساق ، ولاتبسق هذه الأغصان ، وتمتد هذه الأفنان وتخر عزيزات الأذقان إلا على بذر طمع . والبذر هو الحب الذي يراد للإستنبات ويطلب منه النبات . والطمع للمخلوقين دليل الحجاب عن رب العالمين ومالك يوم الدين ، وهو علامة المنافقين وسيما المتعبدين ـ والعزة بالله من أشرف أخلاق المؤمنين ، وأعز أحوال الموقنين . والعزة بالله لاتكون لمن في قلبه قبح الطمع المباين لحالة الورع ، وقد وصف الله الفريقين ونعت الطريقين بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . ولو كان لهم في غيره طمع أوإلى غيره مطمح نظر لتخلق بهم عن ذلك المقام ، ولقام الإكرام مقام اللئام حيث قال في الفريق الآخر ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين** ﴾ [الآية ٢٠ المجادلة] والفرقة الأقلين يوم القيامة ، والطامع أبدا في عنا وقلة غنى إذ منشأه الشك في الله واليأس من روح الله . والطامع لايشبع ، والحريص لايقنع كيف ماتقلبت به الأحوال . والطمع على ضربين : طمع ظاهر جلي يعرفه كل أحد ؛ كالطمع في الأغراض الفانية فلايخفى قبحه ، والإعراض عنه محمود لكل أحد ، والتنزه عنه مطلوب عند كل أحد ؛ حتى عند من يتعاطاه من الجهال والغواة الضلال . وطمع باطن خفي لايعرفه أكثر الخلق ؛ كالطمع في المستلذ الأخروي فلا يترك الطمع فيه إلا محجوب دنيوي أومقرب بمقام الشهود حظي ، فلايطمع في شئ دون سيده والقرب منه والشهود له ، ولايترك الطمع في الفضل الأخروي إحتقارا ؛ ولكن لما ظهر له وبدأ قلبه

من الإمتلاء بشهود المولى ، وبدأ له من الجمال الذي حسن به مستحسن ما أخذه عن الأكوان ، وشغله عن التلذذ بالجنان ومافيها من الحور الحسان ، وبان له من العرفان مااستغرق الأركان ، واستملك الجنان والعين واللسان . فالخاصة يوصفون بترك الطمع في الأعراض الفانية الدنياوية دون الفضائل والدرجات الأخروية ، وخاصة الخاصة يوصفون بترك الطمع فيما سوى سيدهم ومنتهى مطلبهم ، وغاية آمالهم بشهود الواحد الحق ورضوانه عنهم ، لايلتفتون إلى غرض فاني ، ولايعرجون على حظ كائن ماكان ذلك الحظ دنيوي أوأخروي .

ويقابل الطمع الورع ، والورع أيضا على درجات شتى : فورع العامة وورع الخاصة وورع خاصة الخاصة ، وورع ظاهر وورع باطن ، وورع فرض وورع نفل ، وهو يتفاوت بحسب تفاوت الأحوال ، والورع في الأفعال والأقوال والأحوال . فورع الفرض في الحرام الصرف في الأفعال والأقوال وهو ورع العامة وهو في الظاهر لابالباطن ، وورع في دقائق الأعمال وخفيات الأفعال يظهر لأهلها بشواهد السنة والتطلعات على خفيات الآثار ، والفحص عن أحوال الأخيار . وورع خاصة الخاصة وهو في الأحوال بمراعاة التعظيم والإجلال . وورع خاصة خاصة الخاصة بالفناء والإضمحلال . وورع العامة عن الحرام ، وورع الخاصة عن الشبهات ، وورع خاصة الخاصة عن الفضول من الحلال . ومازال بهم الورع يترقى في مدارج الأحوال حتى وقف بهم وأشرف بهم على السر المصون والعلم المخزون تحت حيطه كن فيكون ، فيكون ما أرادوا من غير تكلف وتحري في الإقدام على شئ وإحجام ، فياخذون بالله ويتركون لابأنفسهم ، فوقعوا

على حقيقة الأمر ، ونزلوا على بصيرة تترائ لهم في كل شئ علامة تدلهم على أخذه أوتركه ، لأن الله وليهم ﴿ **ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [الآية ٥٦ المائدة] لايهجمون بالظنون ولايحجمون ، كما يكون لأصحاب الظواهر الذين لم تستنير منهم القلوب ، ولم تصفوا لهم الضمائر بل واقفون مع مايتوهمون ، ومتبعون مايظنون ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس** ﴾ [الآية ٢٣ النجم] وقصروا عن الهدى الذي جاءهم من ربهم ﴿ **ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ [الآية ٢٣ النجم] ومن الدلالات القرآنية والمعجزات النبوية ، فوقفوا عن رسمهم المحصور وحدهم المقصور ، ولم يحظوا بالشاهد القلبي الذي أرشدهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال **" استفت قلبك وإن أفتوك "** فالفتوى القلبية هي الهدى الذي جاءهم من ربهم ، هذا في حال من يتحرى الورع . وأما المنهمكون الذين لم يبالوا من أي شئ أخذوا ، ولابأي فعلوا فلا يتوجه إليهم هذا الخطاب ، ولم يعنيهم في هذا الجواب ، بل نقول كما قال ربنا فيهم ﴿ **فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم** ﴾ [الآيات ٢٩-٣٠] وأحوال السلف في الورع مشهورة وهي أكثر من أن تحصر ، وأظهر من أن تشهر . ويكفيك في ترك الحرام زاجر قوله سبحانه ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا** ﴾ [الآية ١٠ النساء] وأموال غيرهم كأموالهم ، وكالأكل

غيره من الشرب واللبس والمسكن وغيره من وجوه الإنتفاعات . وقوله صلى الله عليه وسلم **" من لم يبال من أين أكل لم يبال الله به في أي واد من أودية النار هلك "** أوكما قال . والذي يتعبد من غير ورع كالذي يبني على السرجين ، وقالوا : إن الغذاء بذر والأعمال نتيجة ، فمن أكل الحلال الصرف خرجت منه الأعمال الخالصة الصرف ، ومن أكل الشبهات خرجت منه الأعمال المشبوهة ، ومن أكل الحرام نتجت منه الأعمال المحرمة . ولو أخذنا في تبيين أحوال الناس في ذلك لطال ، ويحتاج إلى إفراد كتاب .

وأما تنوير القلب ففي أدق من ذلك من دقائق اللحظات ولطائف الخطرات ؛ فأثر ذلك يظهر في القلوب تنويرا وظلمة وثقلا وخفة ، فورع الخاصة في تتبع ذلك والبحث عما هنالك ، ويظهر ورع خاصة الخاصة في أدق من ذلك من تضييع حقوق الله في الأنفاس ودقائق الأوقات ، أوعدم الصدق في ذلك ، وأدق من ذلك الإلتفات إلى مامنك ، أورؤية وجود السوى الواحد المعبود . قالوا : وكل رتبة أدنى من ذلك تعم سائر المراتب زيادة ونقصا ، فأما في العامة فما ذكرنا من نتيجة الأعمال الخالصة بأكل الطيب وضدها بضدها ، وتؤثر في أصحاب الأحوال ثقل وقلة إنشراح ، وضدها من خفة وانشراح إن كان الضد ، وأما في أهل المقامات والمعارف فكثرت الخواطر من غير جدوى ، واختلاف المعارف واشتباهها وضدها ذلك بضده ، أي بالطيب ضبط الخواطر وحفظ الوقت وتمييز المعارف . فانظر اتصال هذا الدين واعمل مايعمل في الأصاغر في الأكابر بحسب

الحال ، ففرق بين مايكون في الحرمان وبين من تشتبه عليه صنوف الأغيار . ولي في ذلك شعرا :

إن الطمع حرفة التجويف يعرفه من يقتربه ويدري ماهو الخبر

فاجعل بدل ذاك واوا لاتصرفه عين بها قام نور الله في الصور

فمبنى الطمع الوهم ، وغايته الذل والعبودية لمن لم يستحقها ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماقادك شئ مثل الوهم)

القود هو القهر من القائد والإنقهار من المنقاد ، والحكم من القائد والإستسلام من المنقاد . وما أقبح حالة من انقهر للوهم وانقاد للشك المعدومين في أنفسهما ، فالطمع في الخلق طمع في وهم لاحقيقة له ، إذ من كان من عدم في ذاته دون الله فكيف يطمع فيه ، ولكن النفس من حيث مركزها الجبلي خلقت من الظلمة فلم تعرف غيرها ، فلذلك ناسبت حالها أفعالها . وأما نفوس أهل العرفان لم تلتفت إلى ثان لثبوت أن كل موجود دون الله فان ، أي معدوم الأصل ، فلم يطمح نظرهم ولم تحول هممهم إلى غير لفناء الأغيار وانطماس الآثار تحت أحدية الواحد القهار ، فقنعوا به عوضا عمن سواه ، فأوردتهم الرضاء عنه ، وعوضهم لذة المشاهدة وطيب المؤانسة ، فعرفوا ماجهل الأغبياء ، ونظروا ماعمي عنه الأشقياء ، فحيوا حياة طيبة لفراغ بواطنهم عن التعلق بالأوهام ، وسلامتهم عن ورود الظلم ومقارفة الآثام ، ونعتهم الأحرار عن استرقاق الأغيار ، وخلصوا عن نار الطمع والإدلال إلى جنة الورع والإتصال ، واستظلوا تحت شجرة الحكمة

فأينعت عن ثمار العلوم اللدنية : إذا رأيتم زهد الرجل فادنوا منه فإن الحكمة تلقى عليه ، والمواهب تدنوا إليه . ولي في ذلك شعرا :

الوهم أكذب مايلقى إليك فكـــن على يقين فإن الوهم معدوم

من نازله صرف أنوار اليقين يكن بربه لايجبل الوهم مخطـــوم

وانقياد المنقاد أما على سبيل الرغبة في المنقاد أوعلى سبيل الرغبة ، وكلا الأمرين يقتضي العبودية من المنقاد للمنقاد له ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أنت حر عما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع)

ذكر الحرية أولا لأنها الأصل ، إذ الأصل أنك حر عن الأغيار ومنطلقا عن وثاق الآثار ، فإذا عدت إلى أصلك علمت أن الأشياء طالبة لك ومتوجهة بالإقبال عليك ؛ وذلك قبل طروالجهل الجبلي ، لكونك متصف بالعلم ، ومتحلي بالشهود ، فأنت في ذلك المشهد آيس عما سوى الواحد الحق . لأن الوهم الظلماني لم يظهر بعد فلم تتوجه ناصية العبودية لغير ، فإذا عاد السالك إلى ذلك وتحقق بماهنالك وصف بالحرية عن الغيرية ، وعبوديته للأغيار متوهمة لاحقيقة كهي إذ لم تكن العبودية لغيره في أي معبود ، ولم يشهد سواه في كل مشهود . وإنما سبب الغيث في ذلك توهم الغيرية بكثيف حجاب البشرية ، عافاناالله والمسلمين من التوجه إلى غيره ، والعبادة لسواه . فالموحدون عن الأغيار آيسون ، وبالله مستأنسون ، وعليه متوكلون . قد سقط عن قلوبهم الطمع ، وأصحبها الورع ، وذلك لما كشف عن قلوبهم ظلمة الأوهام والشكوك ، بصدق المجاهدة في فيافي السلوك . فرأو عجز من سواه من إيصال مايرجى ، ودفع مايخشى .

وتعلقت مطامعهم فيمن بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجع مصادر الأمور ، وبه تطمئن وجلات القلوب ، وعنده خزائن الخيرات ومفاتيح المسرات ، ودفع المضرات دنيا وأخرى . فأيئسوا عن الأغيار ، وتحرروا عن رق الآثار . وكانوا له عبيدا فوجوده واجدا مجيدا لطيفا حليما ، غافرا متفضلا كريما . إلى غير ذلك من صفات جماله وفضائل نعوته ومننه ، وسوابغ نعمه وغوامر رحماته ، ومن آيس عن الله وتعلق طمعه بالأغيار وسأل مآربه وعلق رغائبه وأنزل حوائجه بالخيالات الكونية ، والظلمات الهوائية ﴿ **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾ [الآية ٤١ العنكبوت] ولي في ذلك شعرا :

إن الطمع يملك الحر الكريم إذا رام التوصل منه انحاز وامتـنعا
ومن يكن آيسا يأتي إليـه كـذا كل الذي كان في الأوهام ممتنعا

فلما نظر العارفون إلى الأغيار بنور اليقين ؛ تحقق زوال نعيمها وذهاب طراوتها واستمرار حلاوتها ، وواجههم الله بعظيم فضله وتحلى لهم بجميل نعته ؛ لم تسترقهم الأكوان ، ولم تحكم عليهم الشهوات ، بل تحرروا عنها وأعرضوا عنها وركبوا الفلوات وأنسوا بذكره ، وجعلوه عوضا عن كل محبوب ، ونسوا في دونه كل مطلوب . إذا سترتهم الغياهب افترشوا له الأقدام ، وتملقوا له تملق موانسة وإكرام ، وإجلال وإعظام . فأفاض على قلوبهم مواهب الإنعام ، وخاطبهم من أسرارهم خطاب حبيب لحبيبه ، ودنو قريب إلى قريبه . فعادوا الأكوان لذلك ، وخرجوا عن كل مايعوقهم عن خدمته ، ويعثر عن نيل محبه . وأخبارهم مأ ثورة وحكاياتهم في ذلك

مشهورة ، وأعلامهم منشورة . فأقبلوا إليه بطريق المحبة والمنة لامن طريق الإضطرار والمحنة . والله سبحانه يريد توجه عباده الذين سبقت لهم منه الرحمة ، وأفيضت عليهم المنة . وأن يوصلهم إليه إما بطريق الإختيار وإما بطريق الإضطرار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان ؛ قيد إليه بسلاسل الإمتحان)

فهذا خطاب لفريقين وبيان طريقين ؛ أما الطريق الأول هم أهل الإقبال الذين أقبلوا إليه بطريق الطوع والفرح وهم الذين استجابوا لله من غير توقف ولاتعوق ولاتعثر كما أشار إليه بالإقبال ، والإقبال لايكون إلا عن رضى وفرح واستيئناس وطرب ، وذلك لما رآهم من جميل وصفه وعميم فضله وسابق منته وتوالي نعمته ، فهم الشاكرون لله الذين تعرضوا لزيادة إنعامه وتوالي إفضاله . وقوم آخرون لم يرجعوا إليه كذلك ولم يقبلوا ، وقد سبقت لهم من الله عناية ، قيدوا إليه بسلاسل الإمتحان ، والقود لايقع إلا عن قهر ، سيما بالسلاسل فإنها أبلغ في ظهور القهر إذ القود بالسلاسل أبلغ مايقهر به المستعصي عن الإنقياد ، فعبر بالمصائب وضروب المتاعب في الدنيا للمؤمن في الدنيا بالسلاسل ليرده إلى حضرته وليختصه برحمته **" عجبا للمؤمن أمره كله خيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن "** وتلك السلاسل هي مايبتلى به المؤمن في هذه الدنيا من المصائب في الأهل والمال والعرض وتغير الأحوال ، فترده إلى الله بالتضرع والإبتهال وانكسار النفس بذلك ، وماينالها من التعب مما يقلل رغبتها ويزعجها عن الركون والطمأنينة في الدنيا في ذلك غاية السعادة وجزيل الزيادة ، فسبحانه من كريم ما ألطفه بعباده وأرحمه بهم . فلو تركهم ومايحبونه لهلكوا

هلاك الأبد كما يكون ذلك لأهل البعد حيث قال ﴿ **نوف إليهم أعمالهم فيهاوهم فيها لايبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار** ﴾ [الآيات ١٥-١٦ هود] فالحق سبحانه يستدعي عباده إلى عبادته ومحبته بورود النعم والأرزاق والعافية ، وملاطفات الأحوال . فإن لم يجيبوا بذلك دعاهم عن طريق الإبتلاء ﴿ **من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات** ﴾ ثم قال ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾ [الآية ١٥٥ البقرة] أعقب ماابتلوا به مع وجود الصبر بالبشرى والمدح من الله عز وجل ، كما مدح من قام بصنوف الطاعات ووظائف الأوقات . ثم بين قولهم ما هو الحال فقال ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله** ﴾ ملكا وخلقا وعبودية ﴿ **وإنا إليه راجعون** ﴾ [الآية ١٥٦ البقرة] في جميع الأحوال والأقوال والأفعال حقيقة . فانظر ماذا حصل عليه من قيد إلى الله بسلاسل الإمتحان كيف صاروا في مرجعهم إليه محوا ؛ لاحول ولافعل ولاوصف . وهذه مرتبة العبودية الخاصة فوصلوا إلى مقام الشكر ؛ وهو رجوعهم إليه في جميع مامنهم . وهذه طريقة السالكين طريق الترقي في مدارج السلوك ، ومعارج الأحوال في بروج الوصال ، في سماوات الأوصاف وكرسي القرب وعرش المستوى الرحماني . فإذا علمت أن ابتداء السلوك الصبر على ممرات كؤوس المجاهدة وانتهاؤه الشكر على الكشف والمشاهدة ، عقب ذلك بقوله شارحا لما أسلفه في الحكمة قبل ، ومبينا لأحوال الشاكرين ، وحاثا على ماهو

المطلوب الأغر وهو الشكر على النعم المؤذن بدوامها ، والجالب لشأنها ، فقال رضي الله عنه :

(من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)

الشكر هو الثناء إلا أنه أعم من ذلك ، إذ هو الثناء باللسان والإعتراف بالجنان ، واستعمال الأركان ، فيما هو المطلوب من خلق الإنسان ، إذ قال أعز من قائل ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الآية ٥٦ الذاريات] والشكر مورده عام ومتعلقه خاص ، فالحمد بذلك الإعتبار فرد من أفراده ، وهي أي الحمد بالضد من ذلك خاص المورد عام المتعلق . والشكر بحسب أحوال الخلق له ثلاث مراتب : شكر العموم وشكر الخصوص ،وشكر خصوص الخصوص . فالمرتبة الأولى أن لاتعصيه بنعمته التي أنعم بها عليك ، والرتبة الثانية أن تصرف جميع نعمه فيما خلقت لأجله ، والرتبة الثالثة أن يشغلك شهود المنعم عن رؤية النعمه .

والنعم أما خاصة وأما عامة ، وأما ظاهرة وأما باطنة ، وأما دينية وأما دنيوية ، وأما حسية وأما معنوية . فأما النعمة العامة فنعمتان لم يخرج منهما موجود وهي نعمة الإيجاد أولا بعد أن لم تكن شيئا مذكورا فذكرك ، ومن ذايقوم بنعمة من ذكره قبل أن يذكر ، وأي عقل يقوم بشكر ذكر الحق له وهو لم يكن . وفي هذا الذكر دخل كل موجود توجه إليه الإيجاد بمجموع العلم البالغ ، والإرادة النافذة والقدرة الكاملة . فأي نقص في هذه الأوصاف ؟ ومن أنت حتى تتوجه إليك هذه الصفات الكمالية بعد ذكر الذات لك ، ولو أخذنا فيما انطوت عليه هذه النعمة لاستغرق الوقت .

والنعمة الأخرى هي نعمة الإمداد ، أي إمداد بالقيام على ممر الأنفاس ، فما من نفس إلا والحق سبحانه يمد العالم به حسية ومعنوية بإمداد بحسب مراتب الوجود ، فللروحانيين إمداد ، ولأطوار الخلق من إنس وجان وحيوان ونبات ومعادن وجماد إمداد ، وتلك الإمدادات هي ماتلقيه الأملاك على دوائر الأفلاك ، ويتصل من الأفلاك بحسب اختلافها على مراتب عالم الملك . والأركان الأربعة فلها أرواح أربعة على أربع مراتب من مراتب العالم الخلقي ، وكل عين من أعيان الحيوانات تلقى مجموع الأربع المراتب . وهذه النعم العامة يكثر تعداد مراتبها بنسب استنادها ، وكل من وصل إليه شئ من هذه الإمدادات ماعدى الثقلان فهو شاكر ، لأنه لم يصنع ماوصل إليه في غير المراد منه ، فبقي طالب بالشكر هذا النوع الإنساني ، لأنه الذي أعطي التصرف في الأشياء كيف شاء ، وركبت فيه طبائع أرضية ولطائف سماوية ، فالسماء من شأنها الطوع والتمكن ، والأرض من شأنها الكره والتلون ، فما كان الأفعال بالوضع السماوي فهو الشكر ، وماكان من الأفعال بالوضع الأرضي الظلماني فهو الكفر .

وأما النعم الظاهرة فيعجز عن عدها الحصر ، فمنها ماهو في تركيبك ومنها ماهو في ترتيبك ن فمن جملة ماهو في التركيب السمع والبصر والشم والذوق ، وتسوية الخلق على أعدل هيئة وأتم بنية ، والحركة والسكون والنطق وسائر نعم الجسم القائم بتركيبه ، وإيصال الأغذية وسائر المنافع المختصة بالجسم . وأما النعم الترتيبية كالعقل والعلم والقابلية والأوصاف القلبية ، والمقامات الروحانية والمراتب الملكوتية . وأما الباطنة فما ادخره واستأثر به من ماهو الأصلح ، ومااختص به روحانيتك من بين الذرات

في عمى الجهل ، وظلمة العدل من إلباسها وتحليتها بفيض تجلي أوصافه ، وأودع في تلك اللبسة سائر المقامات الدينية ، وقابلها بجميع أسمائه ؛ فعرفته بكل مظهر من مظاهر مرائي الوجود فلم تجهله في كل معاين مشهود ، فتكون في كل ماتجلا عليها من الأسماء بحكمه لابما يعطيها الطبع الحيواني والمشهد الظلماني ، وهذه النعمة لامطمع في إحصائها لأن تجليات الحق في مراتب الوجود لانهاية له . وقد علمت أن في كل تجلي نعمة أما ظاهرة وإما باطنة . وتعبيره بالقيد هو إشارة إلى إدامة النعمة بوجود الشكر والمزيد منها . قال الله جل ذكره ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ [الآية ٧ إبراهيم] إذ ثواب كل طاعة غير ماوعدبه من التضعيف والتنمية طاعة أعظم منها ، فيكون تضعيف في الظاهر بذلك وتضعيف في الباطنماادخر عنده حيث يربيها كما يربي أحدكم فلوه ، إذا القيد هو مايمسك به الشئ المغتبط به ، ولكل شئ قيد .

وقيد النعم بالشكر لله لأن الملك إذا أهدى إلى أحد خاصة هديته وقبلها على أحسن وجه وعمل بها فيما يرضاه منه الملك عمله ، فحري أن يزيده من نعمه ، ويسدي الله من منته ، وإن لم يقبلها كذلك ولم يصرفها فيما هنالك فما أجدره بالعقوبة ، وما أبعد عطايا الملك عنه ، والعقال هو أبلغ في الحفظ من القيد أوزيادة عليه ، فحيث لم يعصه بنعمه فقد قيدها ، وحيث أطاعه بها وصرفها في محاب سيده فقد عقلها ، فهو . أحرى بالزيادة ، وأجدر بعدم الإنفلات وسوء الإنقلاب . والشكر على كل نعمة دينية أودنيوية ، وإذا كان النعم دينية فالشكر من أجل النعم . فلعمري لقد عجز العبد عن

شكر الله إذا كان شكره لله نعمة تقتضي بانفرادها شكرا ، فغاية الشكر من العبد أن يعترف بأن مابه من نعمة فمن الله .
وفي أخبار داود عليه السلام : يارب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك ؛ قال : ياداود إذا عرفت ذلك فقد شكرتني . فأبلغ الشكر شكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال **" لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك "** والكف عن استعمال الجوارح إذ هي من جهة النعم بل من أعظمها ، وصرف النعم في معاصي الله أول مراتب الكفر كما قررنا ذلك ، وشكر الوسائط من الشكر . قال صلى الله عليه وسلم **" من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله "** وشكر الناس بأن تدعو لهم في مقابلة ما أوصله الله من النعم على أيديهم . كذلك وتراهم أسباب نصبها الله لالهم ولامنهم ولابهم . والغر ينسب الأشياء إليهم نفعا ودفعا ويغيب عن الله ، فهذا شرك ظاهر جلي ، ومن ثمرته الذلة لهم وتحسين أفعالهم وإن كانت قبيحة ، فهذا نفاق لامرية فيه . وأما رجل مصطلم لايرى للوسائط أثر ولايشهد لها عين ولايسمع لها خبر غاب عن الأكوان ورأى أن ليس معه ثان ، فحجب عن الأكوان ولم يطلع على ما أودع الله في الموجودات من سر القدرة ، وأبدع فيها من غرائب الحكمة والكمال يعطي هذا المقام على التمام ، فيرى انفراد الله في الأمر في سائر الأعيان ، فيشهد الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة ، فلاتطغى حقيقته شريعته ، ولايحجب شريعته ظهور حقيقته . فالحمد لله على ما ألهم ، ونشكره على ما أنعم . ولي في ذلك شعرا :

الشكر قيد ويجلب غائب النعم   من لم يقيدها فليقـــبل النقم

إذا علمت أن الشكر قيد النعمة والكفر مفتاح النقمة كأنك تقول : إنا نرى من يتعاطى المعاصي ولايعمل الطاعات تزايد عليه سوابغ النعمة ، فاعلم أن ذلك من علامات المكر كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجا ﴿ سنستدرجهم من حيث لايعلمون ﴾) [الآية ٤٤ الأعراف]

الخوف من أحوال المؤمنين ، والأمن من صفات الغافلين . فأرباب القلوب يخافون من الإستدراج بالنعم أكثر مما يخافون بغيرها ، كما عرفوا ذلك من أحوال المبعدين وسيما المطرودين ، حيث قال الله فيهم مخوفا لعباده وزاجرا عن التشبه بأفعالهم ، ومحذرا عن الإقتداء بأحوالهم من الفرح بالأعراض الفانية الدنياوية ، والإنهماك في الملاذ البشرية ، فلما انهمكوا بما أوتوا من النعم والحظوظ العاجلة ، ونسوا الحقوق الربانية ، ونسوا بها الأقسام الآجلة ؛ فتحنا عليهم أبواب كل شئ من المطالب الشاغلة عنا ، وعن أداء حقنا التي توصلهم إلينا ويودون بها حق شكرنا ، فاغتروا بذلك وأنسوا إلى ماهنالك من الملاذ الفانية ، وقالوا : إن الله ما أعطانا هنا إلا وسيعطينا إن كان رجعنا إليه ، فاستطالوا بذلك على الفقراء وظنوا أن الله ما أعطاهم ، وردوا الفقر إلا لحظهم وهوان الفقراء ، فرغبوا عن طريق العبودية التي قطب دائرتها الإفتقار إلى الله في جميع الأحوال . والذلة التي هي مقتضى حال العبيد ، ونازعوا في أوصافه من الإستغناء والعظمة والكبرياء ، فبذلك سلطت عليهم دواعي الأهواء ، وانفتحت طرائق ، فأخذوا أخذ ذي قوة متين بغتة من حيث لايظنون ذلك ، فإذاهم مبلسون . فانظر واعتبر ؛ فلو كان الذي يعطى حظوظه الدنياوية أحظى ممن يمنعها

لانعكس الحكم بأن يكون أحوال المبعدين من الفجار والطغاة الكافرين أحسن من أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين ، لأن أحوالهم في الأغلب العزوف عن الملاذ الدنياوية ، والإبتلاء بالمحن في عموم الأوقات ، ولم يفعل ذلك معهم هوانا ولااحتقارا ، بل ليوفر لهم مالديه وجبرا لقلوب الفقراء ، حيث سلك بأنبيائه وخيرته وأصفيائه مسلكهم سيما أعظمهم وأكملهم وأرفعهم لديه محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال **" الحياة حياتكم والممات مماتكم "** أي حياتي حياتكم ومماتي مماتكم ليظهر عدله في كافة خلقه لئلا يظن ذو فهم سقيم أن الأنبياء والأولياء ليسوا بشر كما وقع لبعضهم من قوم عيسى ، فرد الله عليهم ماقالوا ، وأبطل ماحكموا بأن قال جل ذكره ﴿ **ماالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام** ﴾ [الآية ٧٥ المائدة] فهذا مايلقى في الفهم من حكمه مايصان به الأنبياء وأكابر الأولياء مع مايريد أن يدخره لهم عنده ، ويزلفهم به من جزيل الكرامات ورفيع المقامات ، وهو يقدر أن يعطيهم من غير ابتلاء ولكن يتعرف إليهم من سائر الأسماء ليشهدوه بكل مشهد فلايجهلونه في شئ ، فيصير في حقهم بهذه المثابة عطاء .

وأما المستدرجين والعياذ بالله من وبيل استدارجه ومكره أنهم إذا عملوا سيئة جدد لهم حظ دنياوي ، وإذا عملوا حسنة ظهرت بلية فيرون أن هذه البلية عقوبة على هذه الحسنة ، وأن ذلك الحظ الذي نالوه ثواب تلك السيئة ، فيخيل إليهم أن المثوبة في مقابلة السيئات ، والعقوبة في

مقابل الحسنات ، فيثبت عندهم ذلك ، فهذا من أشد وجوه الإستدراج والمكر ، أعاذنا الله من ذلك .

فمن هنا اشتد خوف الأكابر عند تجدد النعم الدنياوية عليهم ، ودوام العوافي البدنية لديهم ، وعظم فرحهم بوجود المصائب من حيث أنها مصائب . ولكن لما ترتب عليهم من العواقب فإذا لاح لهم من هذا لائح طاشت العقول وانزعجت القلوب من خوف المقام المرهوب . ولي في ذلك شعرا :

حق كل إحسان يسديه إليك على ما أنت مجترح من فعلك الزلل

وكل مكروه نال العبد منه فلا يجزع لذلك إن المثل بالمثل

فإذا عرفت ذلك فاعلم أن الإحسان الذي قد يكون به الإستدراج والمكر أما أن يكون من قبيل النعم الظاهرة فذلك ظاهر قد يبتلي به عموم الخلق ويعرفه كل أحد ، وأما أن يكون من قبيل الآيات والعلوم والكرامات فهذا مما يبتلي به المريدين وطوائف السالكين المبتدين ، وهذا أشد من كل بلية غيره ، وأخفى مما ذكر من الإبتلاء بالنعم الظاهرة ، لذلك عقب بذكر هذا المصنف وأبلغ في كشفه وحقق وصفه ، فقال رضي الله عنه :

(من جهل المريد أن يسيئ الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول : لوكان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد ، فقد يقطع المدد عنه من حيث لايشعر ، ولولم يكن إلا منع المزيد . وقد يقوم مقام البعد من حيث لايدري ، ولولم يكن إلا أن يخليك وماتريد)

من هنا تبعيضة ، والجهل له وجوه ظاهرة ووجوه باطنة ، والجهل بمجموعه أقبح حالات العبد ؛ فظاهره حالات الكفار والعتاة الفجار ،

وباطنه سيما المنافقين والضلال المغرورين . والمريد هو كل طالب لمقصد أومأرب ، وأشرف المقاصد وأحسن المآرب وأتحف الرغائب هي إرادة الله مجردا من غير تعلق بمطلب أوتشوف لمأرب . وقد يكون مريدا لما عند الله من الفضل ، وكلهم يشملهم اسم الإرادة ، وأحاطت بهم السعادة . وخفاء الجهل في تحقيق الإرادة أولا ثم تحقيق المراد مما يصعب إلا على أفراد المجذوبين وجهابذة السالكين المحققين .

والجهل ظن الأمر على حقيقته واستقامت طريقته ، والتحقيق فيه على خلاف ماظنه . فجهل الكفار ظاهر حيث آمنوا بالطاغوت وكفروا بالله ، وجهل المنافقين حيث خدعوا الله بإظهار الإسلام ، والبواطن على خلاف الظواهر ، فجهلوا عموم العلم وأنه لايعلم من خلق ، وعلى هذا المنوال من حذا حذوهم من يظهر خلاف مايبطن . وأتى هنا لبعض أحوال المريدين في جهله ، والمريد يعز عليه أن ينخرط من سلك الإرادة جملة ولكن يسيئ الأدب ويرد موارد العطب . وسوء الأدب هو إتيانه فعل حضره الله عليه تحريما أوكراهة ، أوترك أمر ندبه إلى فعله وجوبا واستحبابا . والمريد إذا أينعت له شجرة الأعمال ، وأشرقت عليه أزهار العلوم ، وبرزت عليه مخدرات الأحوال من كمائم الوجود ، ربما يطول عند ذلك ويصول بوجود ما هنالك ، فيستقره الحرص على إظهار ما أودعه ، وأذاعه ما استوعه ، فيبرز أوان بروزه ، فتجف عن وابل المريد أشجاره ، وتأفل عن شاهد اليقين أنواره ، وتبقى آثار من تلك الأطيار ، ويأنس مما يجده من نسيم الأسحار . فلايزال يتمادى به ذلك ويمتاز عن مواطن القرب ، ويدخل في مداخل السوء ، ويبعد عن لذيذ الأنس شيئا شيئا من حيث لايشعر ،

فحينئذ لم يحجب جملة واحدة . فالحجاب بعد شئ ، كما أن الكشف شيئا بعد شئ كما جرت بذلك سنة الله إلا على الندور يكون الكشف في أقرب وقت ، كما يكون كذلك أيضا السلب لجملة من المحرومين ، وسبب انجرار بعض الحجب في بعض حتى تستولي جنود الظلمة فينقاد بقياد الهوى ، ويتبذخ بفضيع تقبيح الدعوى ، واستحسن من حاله وأعماله مايستوجب به البعد . وكلما انكفى عن رتبة وقع في ظلمة فثار دخان الهوى وشهد باستحسان أفعاله ، ورضي عن نفسه بعد أن كان متهما ، وقام لها بعد أن كان قائما عليها ، وتقول عند تعاطيه سوء الأدب المقصية له عن الباب : لوكان هذا سوء أدب لقطع الإمداد ، وقد انقطعت الإمدادات التأئيدية والنصرة الروحانية . فلولا الجهل وانطماس نور العقل لم يخف قطع المدد على مثل ذلك ، فالمدد إذا توالت وارداته وأشرقت أنوار آياته ، اضمحلت عنه دواعي شهواته ، وانمحت مظاهر صفاته ، وتلاشت مظاهر ذاته ، فكيف يخفى ذلك على من له أدنى مسكة بصيرة . وتأخير العقوبة مع نسيان التوبة والتمادي على الأخلاق اللائمة والأفعال المذمومة من دلائل شدة الإنتقام ، والطرد عن المقام ، وقد أوجب البعاد أيضا . فالبعد عن الله بانتهاك محارمه ، والجرأة على جرائمه ، فليس من الجناب . ومنازل الإقتراب أيضا ليست حسية وإنما هي مقامات وأحوال معنوية ؛ مثل مقام التوبة والصبر والورع والتوكل والرضا والتسليم . وأحوال المجيد كالبسط والقبض والهيبة والأنس والمحبة والخلة والمعرفة والقربة وغير ذلك من الأحوال الشريفة ، والمقامات المنيفة .

فما أبعدمن يسيئ الأدب مع الله عن ذلك ، وما أقصاه وما أجدره بصده عن طرو الهوى ودركات البعد ومهاوي الإغواء . قال : فقد يقطع المدد من حيث لايشعر ، ولكن الغالب شعوره ، ولكن حلاوة الهوى يحكم عليه ولايفلته من يديه ، فيتحسره ويسخر به أعداءه ، فلا هو يقدر على ترك ماهو ملابسه ، ولاينسى ماكان موانسه ، ويرجى من الله التوبة لمثل هذا . والمصيبة أن يقطع عنه وهو لايشعر كما عبر به المؤلف رضي الله عنه ، فيصدق عليه قوله عز وجل أولئك ﴿ **الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ [الآية ١٠٤ الكهف] وقوله : ويحسبون أنه على شئ عافانا الله وأحبابنا والمسلمين من مكره واستدراجه ، ولطف بنا وبهم كذلك فيما جرت به مقاديره وقضاه ، ووفقنا لما فيه رضاه ، وأذاقنا حلاوة محبته ، وأراحنا من مكابدة الهوى بجذبة وهبية ونفحة لطفية .

روي عن الشيخ عبدالوهاب الشعراوي في كتابه المعروف بالعهود بأنه سمع مناديا يقول : إذا أردت أن لايمكر بك فقل بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب : اللهم إني أعوذبك من المكر والإستدراج من حيث لا أشعر ؛ إنك جواد كريم . ثلاث مرات . قلت ويحسن أن يقول في قوله : من حيث لاأشعر أن يقول أيضا : ومن حيث أشعر إنك جواد كريم . ولولم يكن من عقوبة مسيئ الأدب إلا منع المزيد ، والتخلف في زمرة أهل التقليد وأهل العدد من العبيد لكفى ذلك زاجرا ، فكيف وهو لم يقطع عنه المزيد إلا ويخلد إلى مألوف عاداته واتباع شهواته ، فلايبقى للعبد نفس إلا وهو في قرب وازدياد وأما في تقاص وابتعاد . وبين أنه أخذ

بالإستدراج يقام مقام البعد ، وهو ماوصفنا من اتباع الشهوات ، والتشرب في قلبه بحب العادات ، وينسى الترقي في المقامات ، والتلذذ بالواردات الموهبيات من حيث لايدري ، ولكن على الندور ، كما في حال من قطع عنه المدد من حيث لايشعر .

ومقام البعد هو قطع المدد الرباني والفتح الإمتناني نفسه . وعبر في المدد بحيث لايشعر ، وهنا في مقام البعد بلا تدري ، وفرق مابين الشعور والدرية ، فالشعور أبعد عن الدرية ، لأن الشعور يعم الحس والمعنى ، والدرية لاتكون إلا في المعنى ، والشعور قد تشعر بالشئ ولاتدريه ولاعكس ، أي لايدري الشئ ولايشعر فكان عدم الشعور يقطع المدد أظهر على بعد من قام به من عدم الدراية والتحلية . والنفس من أعظم المصائب فلو كان له عند الله قدم لم يخلي ومايريد ، ولكان بمراد الله لابمراد نفسه . فعلامات المقربين فراغ قلوبهم عن جميع إراداتهم في حركاتهم وسكناتهم إلا عند كل مراد ندبهم الحق إليه ، واجتناب منهي زجرهم الحق عن الإقدام عليه ، فهم أشد الناس إعتناء وأكثرهم إهتماما بذلك . فالأدب أساس مبنى الإرادة ، ومفتاح ابواب السعادة . وكل إهتمام أهل الله وخاصته بتحقيق النظر في طريقه ، ولا أوفر حظا وأعظم قسما في ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ الذي تولى تربيته وأحسن تهذيبه هو سيده ومولاه ، لذلك قال صلى الله عليه وسلم **" أدبني ربي فأحسن تأديبي "** فقال ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الآية ١٩٩ ا] كسائر الأنبياء ، فإن الله مؤدبهم وولي تربيتهم ومهديهم ؛ لكن لاكتأديب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله جمع له أدب جميعهم

وخصه بمزايا من الآداب ولطائف من التربية ، فقال عز من قائل بعد ما أعد أجلاء الرسل ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ [الآية ٩٠ الأنعام] ولايؤمر بشئ إلا ويقوم بما أمره به سيده . والمجذوبين والواصلين أيضا من الأولياء قد يتولى الله تربيتهم من غير واسطة كما كان الخضر ، قال الله فيه ﴿ **وعلمناه من لدنا علما** ﴾ [الآية ٦٥ الكهف] وبواسطة كمل السادات الصحابة وسائر الأمة .

فالشيخ للجميع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأودع فيه أسرار الآداب النبوية يوم برز الأرواح قبل ظهور الأشباح في ذرات مخصوصة ألبسها حلة من السر الرسالي ، وحلة من السر النبوي ، وحلة من السر الإيماني ، وحلة من العلم الإلقائي ، وحلة من العلم النقلي والفهمي ، وحلاها لحلية الهيبة وزينها بزينة الأنس ، ودرعها بشعار الخشية ، وتوجها بتاج المعرفة ، وبهاها ببهجة الجمال . إلى غير ذلك من مصونات النفائس وفاخرات الملابس .

فلما برز صلى الله عليه وسلم إلى عالم الأشباح خرج متحليا بكل حلية نفيسة ، ومتلبسا بكل لبسة أنيقة أريسة . فلما نظرت الذرات إلى هذه الصورة الجامعة لمحاسن الجمال ، ومتدرعة بمدرعة الجلال ، وعليها من كل زينة من مراتب الوصال لطيفة ، تعشقت تلك الملابس والنفائس إلى أصلها ، فعرفت بعد ماجهلت ، ووجدت بعد مافقدت ، فتعشقت إلى أصلها تعشق الحديد إلى المغناطيس ، فتعطفت هذه الروح الكاملة تعطف الوالد الشفيق على الوليد ، فشكت إليه فرط البعد عن تلك المرابع ،

والتنائي عن الأوطان ، فقال لها : عندي لكم الدلالة والرجوع إلى أوجكم العلوي ، والتنزه في مشهدكم الأقدس ؛ والمحل الأنفس . ففتح لهم في كل رتبة بابا ، وأفصح لهم في كل مسئول عنه جوابا ، وقال لهم : اتبعوا هذه المقالة ، واقتدوا بهذه الدلالة ، فقالوا : ومن لنا بعد أفول هذه الشمس المحمدية دليلا ، ولما تطلبه منيلا ؟ فأبرز تلك الحقائق المودوعة من خبوء أرض النفوس الظاهرة ، وأشهدهم أني قد استخلفت فيكم من يدلكم على طريقتي ؛ ويهديكم إلى محجتي : علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ، ومن قام بالدعوة قام بالرسالة نائبا . فكان الإقتداء بمن تحلا بتلك النفائس ، وتلبس بتلك الملابس إقتداء بالمستخلف . وإذا نظرت علاماتها وطلبت دلالاتها وجدتها على أئمة الصوفية لائحة ، وعلى ألسنتهم الآداب فائحة ، وبأحوالهم يترقى كل سالك أواب . فكل من لم يأخذ من المؤدبين بقي بطال ، وذلك لأن جل آدابهم في التفتيش عن أخلاق النفس واتهامها ، ومن صدقها في دعواها ، وانقاد بانقيادها ؛ دعته لامحالة إلى مرادها ، فلا يقف على غوائلها ، ولايستكسب فضائلها إلا بالإقتداء بإمام بصير بعيوب النفس ، ينظر بنظر أولي البصائر المطلعين من الله ماتكن الضمائر . فإن لم تجد من هذا وصفه فاجعل لك صديقا دينيا وأديبا مشفقا هينا لينا ، فإذا وجدت فارغا عن تهذيب نفسه متفرغا لإصلاح غيره فقد عثرت على كنز جميل ونعمة سابغة ، ورحمة صابغة ؛ فاشدد عليه يديك . فما أعز وصفه ، وأغرب من هذا نعته . فلاتغتر بكثرة الأعمال من غير أدب فإنها لاطائل لها دون التأدب في الأحوال والأقوال والأعمال .

فمن اغتر بحالة صدرت منه من غير اقتداء فيها بشيخ من مشايخ الطريق ، وإمام من أئمة التحقيق ، فقد عدم التوفيق . فكل من لم يجرب أفعاله على يد غيره فهو مردود من حيث يظن الوصول ، ومن لا له شيخ فشيخه الشيطان . وإياك وصحبة من ينتمي إلى الطريق من غير تحقق بآداب السلف ، والسلوك على منوالهم واقتفاء آثارهم .

ومن سوء أدب المريد عذر النفس فيما يصدر عنها ، ومعادات الأقران لأجل استحقارهم إياها ، ومنه اتباع شهواتها وإجابتها إلى مادعت إليه من شهواتها ، وطلب المعاذير لها من الرخص في تناول مباحات الشهوات ، وترك العزيمة والركون إلى الدعة والراحات ، والإنهماك في الحظوظ العاجلة من غير مبالاة . فمن تتبع أحوال السلف ونظر في سيرهم وشاهد أحوالهم ، علم يقينا أن كل مريد يطلب الدعة والراحة ويترك الجد والإجتهاد ، ويؤثر الملاذ الدنياوية أنه لم يجي منه شئ في طريق الإرادة ، وإن بقي على الطلب فعلى رسم العادة . فأول قدم يخطوه المريد الدنيا وماحوله ، والقدم الثاني الآخرة حتى يكون معشعش روحه الحضرة الوصفية ، وقضى طيران سره في فضاء الوسع الذاتي . فمتى يكون له إلى هذا العالم الضنك التفات فضلا أن ينافس فيه ويطمأن إليه .

وعوارض المريد في طريق إرادته كثيرة ، ومهالكه ومعاطبه أكثر وأخطر . لاسيما إذا كان مقيما بين أظهر الخلق ؛ فمنها : الإفتتان بطلب القبول عندهم والحشمة ، وقبول القول ، وارتفاع الصيت ، والإكرام والتبرك ، وقضاء الأوطار والإعتراض على الأقدار ، بل هي أعظمها ، لأنه استدراك على الجناب الإلهي ، ومنازعة في السر الرباني . ومنها : السخط في الأقضية

الجارية لأنه مناقض للعبودية التي من أجلها أنزلت الكتب ودونت الصحف ، والركون إلى أبناء الدنيا الراغبون الأنتان والأحداث والنسوان ، التي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم ، فقال صلى الله عليه وسلم **" إياك ومجالسة الأنتان ، ففي صحبتهم مبدأ البعد والهجران "** ومباينة لأحوال الإخوان ، أهل الصفاء واليقين والصدق والإيمان . وقد انعزل عن ميدان فرسان المجاهدة في طريق العرفان ، وركن إلى أوهام وآراء تخذله في مجالس أهل الصدق ، وتحقره عند مواجهة عند مواجهة أهل الحق ، فما أقبح من استبدل بصحبة الصادقين والسادات المقربين ؛ صحبة البطالين ، والأغبياء المغرورين .

وحالات الصادقين لاتعود من الصفاء في الأحوال ، والإخلاص في الأعمال ؛ ومباينة مرادات النفس إلى الظلمة ، والتخليط واتباع النفس إلا الطرد وعدم أهلية أزلية لمقام القرب ، وعدم إخلاص في ابتداء الطلب . وكان من أحوال السلف أنهم إذا وقفوا فيما يناقض العزيمة استأنفوا الإرادة وعد ذلك من أعظم ذنوبهم فيجددون له توبة ، ويتوسلون إلى رجوعهم إلى مواطن العزائم بمجاهدات وأعمال ، وتبدوا لهم عقوبة الإسترسال مع الشهوات المباحة ، كما يعاقب غيرهم على الذنوب المحضورة . فالزلة في القرب تعدل سبعين زلة مع الحجاب ، يغفر للمجاهد سبعين ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنبا واحدا . الحديث .

وكانوا يواخذون نفوسهم على الخطرات وخفاياالخطيات ، ودقائق النظرات ، ويحاسبونها على خليات الشهوات . فهؤلاء لايقرن الله عليهم حسابين ، ولايجمع عليهم عتابين . لأنهم حاسبوا أنفسهم وأوقفوها بين يديه بالإختيار

، فلم يقيم عليهم الحساب في مقام الإضطرار ، فلم يجمع على عبده حسابين ولاموتتين . فمن مات عن الشهوات وطوى بساط اللذات لم تكن عليه إلا الموتة الأولى ، والوقاية من عذاب الجحيم . كما وقوا الجناب الإلهي بنفوسهم ، وآثروه عليها ووقاهم عذاب الجحيم . فانظر قوله صلى الله عليه وسلم **" موتوا قبل أن تموتوا "** فمن لم يفهم دقائق الخطاب ورقائق فحوى المعاني فليس من الإرادة في شئ . فهمنا الله عنه ، ورزقنا حسن التلقي عنه ، وجعل لقلوبنا في كل باب من أبواب التنزيل مفتاح ، إنه المفضل الفتاح . ولي في ذلك شعرا :

الجهل أقبح حال العبد يعرف من   شم الوجود بنور العلم يافـــــطن

ولي أيضا في ذلك :

إن الأديب بنــــور الله مقتبس   يدرك تائيد عون الله والمـــــنن

ومن يكن ذا يقين فهو محــــترس   في حصن أمن من الأخطار والفتن

من ساء تأديبه فالنــــور مختلس   منه كما يختلس ثوب عن البـــدن

قد كان محفوف ألطـاف ومحتبس   عنه العناء الضائر المفضي عن الوطن

فاصبح كما يصبح الحيران مبتلس   ناء عن الحي بعـد الأنس بالخـدن

فهذا كله في حال المريد السالك ، وهذه الآداب من وظائفه والسلوك والترقي في حالة أكثر أهل هذه الطريق ، فلذلك لما عرفوا العارفين ذلك تدلوا عن أعلا مقامهم الذي يعطى فناهم عن أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وذواتهم إلى مقام المعاملة ، وتهذيب الأخلاق . وراثة محمدية ، تشريع لعامة السالكين ، مناهج الطريق وتبيين لمعالم التحقيق . ومقام المقربين لايسوغ للمبتدي الأخذ فيه إلا بعد إحكام أساس طريقته ، لأن

كل مقام الإبراز مقام شريف ، وهو عمدة السالكين ، ومقام المقربين ، يقتضي أن ذلك سيئة حيث رأى نفسه ، فربما تقف على أحوال أجلاء المقربين ، وأئمة العارفين والمخطوبين المحبوبين من سيما أحوال مايقلل عندك هذه المعاملة ، ويصغر في عينيك ما أقام الله فيه عامة هذه الطائفة . فاعلم أن الكل محبوبين ، فلولا محبته وسابق منته مااستعملهم في أصناف خدمته ، وأدام لديهم واردات موارد القربات ، ووعدهم عليها جزيل المثوبات . لذلك قال المؤلف :

(إذا رأيت عبدا أقامه الله بوجود الأوراد ، وأدامه عليها مع طول الإمداد ، فلاتستحقرن مامنحه مولاه . لأنك لم تر عليه سيما العارفين ، ولابهجة المحبين ، فلولا وارد ماكان ورد)

إذا رأيت أيها المتفرس في أحوال القوم ومتحري الأحسن من مسالكهم ، فلاتخلوا أما أن تكون من المقربين مسلوك بك طريق المحبوبين ، مخطوب لمواهب العارفين ، متنزه في حضائر المجذوبين ؛ فلاجرم أنك إذا رأيت ماهم عليه من البقاء بربهم ؛ وموافقة إرادته والسكون تحت جريان مقاديره ؛ ومايفاض عليه من غير طلب منهم ؛ ولامزيد تعب وطول نصب أنك تستحقر أحوال من يتجرون في طريق الأعمال بالتخلص عن رؤية الناس ، والتحرز عن ورطة الإعجاب ، فلاينبغي لك أن تستحقر مامنحوا من دوام الأوراد ، وورود الإمداد ؛ فلو لم يكن وارد من الله اختصاصي ماكان ورد .

وفي تلك الحكمة تسكين وتطمين لقلوب المريدين مما أزعجها من عظيم العتب وخوف وبيل المكر . فلا يكاد سالك إلا ويوجد منه سوء أدب ،

ومن الذي وفا الأدب مع الله حقه فتنزعج القلوب لذلك . وربما تستحقر الأعمال فلا تلتفت إليه لأنها لاتؤمن من دخول الآفات عليها ، فعقبها بهذه الحكمة تسكينا لأنزعاجها ، وتقويما لميلها واعوجاجها ، فاستحقار الأعمال جهل واغترار . ومايوجد به في طريق العارفين والمقربين والمحبوبين المجذوبين إلا القليل . وانتهاء سير السالكين ومحتد مقصد المريدين هذا المقصد الشريف ، فلا بد أن يوصل كل سالك مقصده ، وكل صادق محتده . وأقل حالاتهم الأجر الجزيل حيث قال الله فيهم ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ [الآية ١٠٠ النساء] فقد غمر الجميع بعميم فضله ، وأحاطت بهم دائرة إحسانه وامتنانه . والأوراد هي أصناف وظائف العبادات من صلاة وتلاوة وذكر وسرد وهو الصوم ، وأفضل الأوراد البدنية الصلاة ، وأفضل الأوراد القولية ذكر **لاإله إلا الله ، أوالله الله ، أوهو هو** ، وهذا في طريق الفتح والترقي في المعارج الروحية ، والبروج السماوية ، والمدارج النفسية . وأما في طريق الكسب والتضعيف فيجمع فضائلها ويلم متفرقاتها مجموع الباقيات الصالحات وهو عند العلماء **" سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم "** والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها فتح أيضا وتقوية على الورادات الحقية ، يستعين به من غلبته وقهرته . وفيها من الفضائل الدينية والدنيوية والحالية والبرزخية والحشرية وللجواز ما يحصى كثرة .

فمن ذلك كفاية العموم وتفريج الكروب ودفع الغموم . ومنها الشفاعة ومنها المحبة في القلوب ، ومنها قضاء الحوائج الدينية والدنيوية والأخروية ، ومنها البركة في الرزق وقرب المناسبة النبوية في المجالس العلوية والدرجات الفردوسية وغير ذلك كما صحت به الأحاديث . وتركنا إيراد الأحاديث الواردة في ذلك لطول إسنادها وتعديد وجوهها وعد رجالها . وليس هذا الشرح موضوع لذلك .

والإستغفار وقد ورد فيه أيضا أحاديث منها : من لزم الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا وغير ذلك . وأما الصوم ففيه من تنوير القلب وضعف حجاب النفس وإرغام الشيطان ومجازفة الأجر مما لايرغب عنه إلا كل بطال متهاون في الطلب لطريق الآخرة .

وأما الأوراد القلبية فكالفكر في باهر صنع الله ومحاسبة النفس على دقائق الخطرات ، والمراقبة على ممر الأوقات ، والمشاهدة للأرواح ، والإستغراق للأسرار ، والإمداد هي هذه الوظائف القلبية والمشاهد الروحية والتنزلات الوصفية ، فهذه هي الإمدادات الواردة على أسرار العارفين . وأرواحهم وقلوبهم من الله تعالى بلا عملة في ذلك ، لأن هذه من باب الأحوال ، والأحوال وهبية لاكسبية ، والأوراد من طريق الكسب ، والعبد مخاطب بالسعي فيها ، فتنسب إليه بحسب ورود الخطاب له ، وإلا فالكل حقيقة من باب الوهب .

وعلامة أنه مراد من الله بها أي الأوراد إدامته عليها وحصول النتيجة ، ومن أقامه في خدمته فقد أظهر عليه آثار عنايته ، ومنح سر ولايته . فلولا أنه من الله بمكانه ما أقامه في خدمته . إذا أردت أن تعرف ما أنت

عند الله فانظر إلى ما أقامك فيه فإنه لايختص لخدمته إلا صفو بريته وأهل تقيته وهم أولوا التقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض . ولانطيل في ذلك ففي الإشارة إلى بيان كلام المصنف كفاية ، ولي في ذلك شعرا :

إقامة الله لك في الورد يا انسان فضل ومكرمة من جود منان

لاتحقرن ما منح من بر وإحسان لولا العناية لما أهل لذا الشان

ثم أخذ في بيان حال الفريقان المسلوك بهم سبيل التعرف ، والمسلوك بهم طريق التكليف ، وهم العباد وعامة السالكين الزهاد ، رضي الله عنه :

(قومهم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم إختصهم بمحبته ومعرفته ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا ﴾ [الآية ٢٠ الإسراء] **)**

قوم أي جماعة كثيرة وهم من قاموا من غير مقوم لهم من جنسهم لكثرتهم وغلبتهم وشدة إستقامتهم على محجتهم أقامه الحق وهو الله ، وإشارته بالحق لينفي الوسائط والأسباب ، لأن الحق مالايبقي للباطل معه ذكر في إيجاد ولا إعدام ، ولا إحجام ولا إقدام بل يذهب ويضمحل ، قال الله عز وجل ﴿ **قل جاء الحق وزهق الباطل** ﴾ [الآية ٨١ الإسراء] وأتى بلفظ الإقامة للقائمين في مقامات الخدمة لله ، لايكاشفون بعد طريق الإختصاص والمنة والإقامة ؛ فيها إشارة إلى رائحة قهرية وبقية أرضية ، فهم السالكين طريق التكليف ، يهذبهم بخوف سلطان جلاله ، ويربهم بلطيف تعطف جماله . وقوم إختصهم بمحبته ومعرفته ، فالإختصاص من غير استحقاق وتقدم سبق طلب وهو من باب المنة واللطف ، والمنة والوسيلة لهم إلى

ما اختصوا به إلا محض تكرم سابق المشيئة . والمحبة أشرف خلة وأرفع رتبة مختص أفراد الرجال ، لذلك كانت نصيب الحبيب مقام محمدي . والمحبة لها مقام عظيم عند أرباب الكشف ، ومحبة الله فردانية لامناسبة بينها وبين محبة الخلق ، كما لامناسبة بين الله وبين خلقه . ولايزال يترقى إلى الله والله يتدلى إليه ويوالي الحق والله يتولاه . فالحق نائبا عنه في عظم خلقته ، والعبد نائبا عن الله في ظهور حقيقته وهكذا .

والمعرفة فرع المحبة للمحبوبين ، والمحبة فرع المحبة للسالكين . وبين علماء هذا الشان خلاف في أن الأصل المعرفة والمحبة متفرعة عنها ، والحق والله أعلم أنه ينظر في ذلك إلى ما أشرنا إليه من حالة السالك والمجذوب والمحب والمحبوب والمحبة من الحب ، وهو الإناء الذي يجتمع فيه الماء والمحبة تشير إلى رتبة الجمع وذهاب الأوصاف الحدثانية من البصر والسمع ، وكلا الفريقين القائمين بعمارة تلك الطريقين ممدود بالعطاء الرباني ، ومجموعين تحت تجلي الإسم المعطي الصادر عنه كل عطاء وهبي أوكسبي ﴿ **وماكان عطاء ربك محظورا** ﴾ فكل مربوب له عطاء مخصوص ونصيب غير منقوص ، فلا حصر لعطائه كما لاحصر لوصفه كما لا حصر لذاته ، لكن التفاوت من حيث المعطيين لامن حيث المعطي ولا من حيث العطاء بالنسبة إليه . فالكثير كالقليل إليه ، لأن الوصف توجه إلى الكل الحقير والخطير ولاتفاوت في وصفه ، وإنما التفاوت من حيث مراتب المخلوقين من حيث نسبته إليهم . وهنا لوائح تلوح وروائح تفوح تشم من قوله عزمن قائل ﴿ **ماترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ [الآية ٣ الملك] من حيث

نسبتها إلى الوصف وقيام الرحمة بها ، فأضاف العطاء إليه وأتى بنون الجمع لنفهم مارمزنا إليه ، ونتحقق ما أشرنا إليه ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** ﴾ [الآية ٤ الأحزاب] فصدور مدد المجذوبين المحبوبين بتجلي وصفي ، وصدور عطاء السالكين بتجلي فعلي ممزوج بمظهر خلقي ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله ، ولي في ذلك شعرا :

من خصه الله بالتعريف قام له ... كل الوجود بتعظيم وإكـــــرام

ونال من ربه مالاينال لـــــه ... إلا بتوفيق محفوف بإنعـــــام

ومن يكن في مقام الكد كان له ... إلى مقام الرضا والصدق إقـدام

فالكل مشمول بالتوفيق نائلـه ... من رتبة إحسان وإيمان وإسلام

وذلك لحكمة منه بالغة ، لالعلة ولابعلة ﴿ **لايسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ [الآية ٢٣ الأنبياء] فلا للعبد فيما يرد من الله تعمل . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة ؛ صيانة لها أن يذيعها العباد بوجود الإستعداد)

قل ماتكون على الموجودين المحجوبين بالكون الواردات إلا بغتة ؛ يعني غالبا إتيانها بغتة من غير تربص وترقب ، والواردات هي مايرد على القلوب والأرواح والأسرار من الله من الألطاف ، والفتوح الوهبية والمنوح الوقتية ، وهي أما من طريق تجلي الأفعال أو من طريق الصفات أو من تجلي الذات . وهي مختلفة التأثير واحدة المورد ، فمن الوارد عليه من يتجلى له الإسم البصير أوالسميع أوالعالم أوالقادر أوالحي أوالمتكلم أوالمريد أومن بقية

الأسماء . أما أسماء النعوت وأسماء الأفعال فإذا ورد وارد الإسم **البصير** نقلت بصيرته لسائر المدركات والمتخيلات والمعاني المتجسدات المتشكلات بالصور الحسيات ، أوورود وارد تجلي الإسم **السميع** فيسمع كل المسموعات بالحس والمعنى بسمع لايشك فيه ولايمتري ، بل يسمع نطق الجمادات بفصيح التسبيح ناطقات ، وصرير الأقلام العلويات على الألواح السفليات ، ويفهم سائر اللغات الكونيات والإشارات الغيبيات . وهكذا يسمع الخطاب الأزلي ثابت من غير أصوات حرفيات ، وكذا ورود تجلي الإسم **القادر والمريد** فتنفعل له سائر المقدورات وتمتثل إرادته سائر المرادات المكونات . وإذا ورد تجلي الإسم **العالم** يعلم كل المعلومات من حيث القدر اللائق علمه بالإنسان وهو علم كليات العالم لا جزئياتها والله أعلم . فلاتعزب عنه علوم المكونات الملكيات والملكوتيات والجبروتيات ، ويعلم سر الكلمات التي ينفد البحر لو كان لها مدادا ، والشجر لوكانت أقلاما دون إحصائها والوقوف على غايات نهاياتها ومباديها . وكذا **المتكلم** يفصح عن غرائب الكلم ومجموعها بتعبير قدسي ولسان أزلي ، وكذا **الحي** إذا ورد من تجلي الإسم الحي يحيي موات النفوس والجهل ، وكذا كل ماتوجه إليه حيي فتحيا به العباد والبلاد . وهكذا اختلاف مواجيدهم باختلاف هذه التأثيرات .

وقد تتعاقب على الواحد هذه الواردات ويطلق له التصرف بسائر هذه الصفات ، وكذا إذا ورد وارد إسم نعت أوإسم فعل كان حالة من ورد عليه ذلك الإسم ، ولاتحصى الواردات لعد حصر الأسماء التوقيفيات ، وما استأثر به على عالم الغيب والشهادات فلا تحصى متعلقاتها ولاتنتهي آياتها

﴿ **فأي آيات الله تنكرون** ﴾ ومن استودع سر من هذه الأسرار ، وحظي بهذه الأنوار ، فعليه أن يصونها كما صانها الله عن دعوى العباد ، والصيانة هو ستر الشئ النفيس الغالي ، ولا أنفس من مواهب الله ، ولا أعلا ولا أغلا من أسرار الله عند عباد الله العارفين ، فهي حرية أن تصان وتكرم ولاتهان .

والدعوى من جهل النفس المفطورة عليه ، فإذا وافق فعل من الله فعلا آخر من أفعال الله قد ظهر عليها فلجهل كون الفعل الأول من الله وتضيفه إليها ، وإذا وافق الفعل المتأخر وجودالفعل المتقدم نسب الفعل المتأخر إلى الفعل المتقدم ، ونسبت المتقدم إليها وجعلته أصلها ، وإضافة بعض الأفعال إلى بعض . وهكذا تنسب الأول إليها وتنسب الثاني للأول ، فتفطن لغباوتها وجهلها أن الأفعال بها ومنها ، وهذا من الجهل المركب من جهلين : فالأول نسيانها بروز الفعل الأول من الله وهي بعد لم تكن شيئا مذكورا ، والجهل الثاني حيث ظنت أن الفعل الثاني مستند غير مستمد ، والإستعداد هو ما خلقه الله في كل فطرة لما فطرها عليه من خير وشر قاعد أفعال الخيرات وطهارة الأخلاق لظهور السعادات ، ورذائل الأخلاق وقبائح الأعمال لما سبق من الشقاوة . وبالإشارة إلى ذلك يقال : الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات ، فلما قد جعل الله ذلك الإستعداد في سائر الذرات لطف بعباده ، وتلطف لهم في أيصال ما من به عليهم لئلا يوافق فعل الله الذي لم يلابسه المظهر الخلقي واللبس البشري ما قد يلابسه ذلك واستتر به ، وامتزج ضريح بروزه من الله صرفا بظهور الخلق المتوهم ، فيقوم الجهل الكامن فيدعي أنه وجد لذلك باستعداده

فأوردها الله بغتة رحمة منه بعباده ، ليعرفوا بذلك عناية الله بهم وتمام نعمته عليهم ، وورود منته إليهم ، فيقرعون إلى الله بالشكر على ذلك فيزدادون من الألطاف المتوالية مالايتناهى من الأضعاف . ولي في ذلك شعرا :

الواردات على حسب المواجيد | لها مظاهر والمجموع توحـــــيد
فلا ترد في مظاهرها بتوريـــــد | لأنها من خزين الفضل والجـود
فليس فيها سوى المنان محمـــود | وكل غير سوى المفضال مفقود

فإذا علمت أن المواهب النفسية تصان ولاتذاع لأنها من أسرار القدر والإبداع ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من رأيته مجيبا عن كل ماسئل ؛ ومعبرا عن كل ماشهد ؛ وذاكرا كلما علم ، فاستدل بذلك على وجود جهله)

إذا أردت أن تعرف حالك أين أنت من أهل العلم والأمانة ؟ أم أنت من أرباب الجهل والخيانة ؟ فاعرض نفسك على مثل هذه العبارة ، فالإجابة عن مصونات العلوم ونفائس المعارف ولطائف الحقائق وجواهر الدقائق وغوالي الرقائق لايسمح بالإجابة بها لكل من سأل عنها من غير أهلها ، إلا إذا أريد التشويق إليها والدعوة بها بجواب يليق بالسائل ، ويحسن عنده طلبها . ولايجيب على هذه النية كل سائل إلا جاهل بها ، إذ لوعرف قدرها وتحقق سرها لظن بها وغار على ظهورها ، فكل من عرف نفاسة شئ لايسمح بظهوره بل يغيبه ما أمكنه بتورية وتغييب ، وإن كان عنده من يجهله . فترى الوحوش وسائر الحيوانات يغيب ولده ما أمكنه لأنه أنفس ما عنده وأحب مالديه ، ومعبرا عن كل ماشهد بالإجابة عن

العلم على حقيقة ماهيته والتعبير عن الحقائق المشهودة ، لأنها لايمكن تفهيمها على ماهي عليه إلا أن يعبر عنها إلى مشهود في الحس والإعتبار من صفات أولي الأبصار والإستبصار ، فاعتبروا يا أولي الأبصار . فالعبور عن مشهود حسي إلى كل غائب معنوي شأن أولي النهى من كمل العلماء ، والتعبير عن المغيبات بالحسيات غير منكور كما عبر صلى الله عليه وسلم باللبن إذا شربه أنه العلم ، والتعبير سيما كل عالم بصير وهو من شواهد التنوير على حاسة الضمير . فإذا عبر عن كل مشهود من أسرار الوجود فقد تنطمس الحدود وترفع الستائر ، فتنكشف الأسرار المأمور بصيانتها ، المندوب إلى حفظها عن إذاعتها ، ولكن التعبير فيما يحسن عنه التعبير ، والسكوت فيما يحسن فيه السكوت شيمة الأكياس ، ودليل على وفور العقل والأمانة والحفظ ، وضد ذلك بضده .

وذاكرا كلما علم يتبذخ ويتمدح بما علمه ويطول بكل مافهمه ، فيذكره في معرض الفخر بزيادة الفطنة وكمال القريحة وصحة الحافظة وتمام العقل ، فهذه صفات الجهال وطريق الضلال . وأحوال العلماء بالضد من ذلك كله ؛ فإنهم كانوا يراعون فيها أحوال السائلين كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي أحوال السائلين ، ويفصح لكل عما يليق به ، فكذلك العالم ينبغي له أن يتفرس أحوال السائلين ولايفشي الأسرار ، بل يكون في الأمور الذوقية إعتماده فيها الإشارة ، لأنها لاتفهم إلا بها ولايدعي على الله الإحاطة بجميع المعلومات ، وأنى بك فيما سبق من قولنا : إذا تجلى عليه بوصف العلم علم سائر المعلومات الداخلة تحت حيطة الكون لا الخارجة عنه ، فالعالم بأجمعه معلوم من معلومات ، وأيضا فالعلم بذلك

لامن حيث هو ؛ ولكن من حيث ماتجلى عليه واستغرقه عن وجوده ، فالعلم باق على وصفيته لله عز وجل لالغيره ، وإنما ظهر على من تجلى عليه إلا من حيث المقابلة والإستنشفاف ، كما يقابل الصورة المرآة الصقيلة فتحكي الصورة من غير انتقال للصورة عن ماهيتها ، ولاخروج للمرآءة عن كونيتها . وكلما إزدادت المرآءة صفاء اختفى جرمها وظهرت الصورة حتى يظن من لاعلم له أن الظاهرة الصورة مجردة من غير واسطة ، ويظن انعدام المرآءة فلا وجود لها وكلاإن المرآءة على صورتها والصورة على ماهيتها . وهنا قال من قال من أهل الشطح والإصطلام بما قال ، وفاه بما فاه ، وعلم من علم من أهل الكمال والتمكين ـ فأعطى كل شئ حقه ، ووفا كل حق مستحقه ، ولي في ذلك شعرا :

ماكل مسئول يحسن أن يجيب به   نعم ولا كل تعبـــــــير بمشهود

وكل معلوم فاذكره لصاحـــــبه   وامنعه عن غيره إن الفضل محسود

وإذا رأيت أنك لم تظهر لك الكرامات ، ولم تسامحك المقدورات ، ولم تواتيك المسرات الدنياوية ، ووردت عليك صنوف المصائب وأنواع المتاعب والضرورات ، فلا تحزن لذلك ، ولاتهن لما هنالك . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ، لأن هذه الدار لاتسع مايريد أن يعطيهم ، ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لابقاء لها)

إنما هذه يؤتى بها للحصر ، والحكمة في تأخير الآخرة الصافية عن المكدرات ، والسالمة عن التغييرات الدائمة ، المأمونة الإنقطاع والفناء ، وآخرها عن هذه الدار الموصوفة بهذه الصفات إلا ليجازي بها عباده الخاصين به دون

غيره الذين لم تستعبدهم الأهوى ، ويجعلها محل لما ادخره لهم من الكرامة وأخفاه من قرة الأعين مما لاتسمعه أذن ولم تره الأعين ، وذلك من أجل كراماته وأعظم عطياته . إن أخر المستحسن وقدم الكربة لنزول كراهته بوجود راحته فكأنه لم تمسه الضراء حيث عقبها السراء من عظيم عذابه ووبيل عقابه ، أن يقدم المستحسن المستلذ ، ويعقبه المؤلم المستقبح ، فكأن لم يكن لما تقدم وجود بالنسبة للمتأخر عنه . كما ورد ذلك أن أشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة يغمس في الجنة غمسة فيقال له : ابن آدم هل مر بك بؤسا قط ؟ هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لاوعزتك وجلالك مامر بي بؤسا قط ولارأيت بؤسا قط ، وإن أنعم أهل الدنيا من أهل النار يغمس في النار غمسة ، فيقال له : يابن آدم هل مر بك خيرا قط ؟ فيقول : لاوعزتك وجلالك مامر بي خير قط ولارأيت خيرا قط . الحديث أوكماقال .

وسميت الدار والله أعلم لأنها دورة من دورات الفلك الأطلس ، فله دورات عرشية ودورات سماوية وملكوتية ، ودورات أرضية شهادية ملكية دنياوية ، ودورات برزخية خيالية ، ودورات أخراوية نشرية حشرية تحقيقية ، ودورات حسابية ، ودورات صراطية جوازية ، ودورات ديمومية خلدية فضلية أونارية عدلية ، ودورات جمالية وتجليات كشفية لاتتناهى دوراتها في العوالم الوصفية والخزائن الرحموتية ، وإليها الإنتهاء كما بدأنا أول خلق نعيده . ولو أخذنا في بيان تدوار هذا الفلك في الأطوار ؛ لانقضت الأعمار دون الوصول إلى بيانه الأعمال . لأنه لاحد لمبتدعات الأقدار من ابتداء نقطة هذا البيكار إلى منتهى ما إليه استدار ،

لأن منه ظلمات ودورات أنوار ، ودورات أرزاق ، ودورات أعمار ودورات سعادات ، ودورات شقاء ، ودورات هوى ، ودورات ماء ، ودورات ضياء ، ودورات شتاء .

والدار واحدة في الكثير والقليل ، والكبير والصغير ، والحقير والخطير ، حتى رأيناها مستغرقة جميع الدارات ، والحركات والسكنات ، والخطرات والنظرات إبتداء وانتهاء . ورأينا في ذلك الفلك أن الحركة الواحدة كسائر حركات الوجود من إبتدائه إلى انتهائه على حد سوى ، وأصغر الموجودات كأكبرها من حيث النسبة الدورية وهو سر قوله عز من قائل ﴿ **ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ [الآية ٢٨ لقمان] ولم أقف على من أفصح بعلم هذا التدوار ولا من أظهر منه هذا المقدار ؛ إلا أن إشارات الإمام الطائي الحاتمي تشير إليه ، وتؤمي بطريق الإشارة . وكذلك أكابر الأولياء عند إمعان النظر في إشاراتهم تشم عبيره وتظهر تناشيره ، وترفع أساريره . وعندما ماظهر لي لمحة بارقة من علم ذلك كاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار ، وعند انتهاء كل دارة تظهر عجائبها ، وتبدوا محاسنها من قبائحها بصورة الدارة التي تليها ، ثم بصورة التي تلي التي تليها . وهكذا حتى تنتهي إلى نهاية محتدها وابتداء دارتها ، وسمي جزاء الإجازة ذلك العمل على وفقه كائنا ماكان . لأن كل دورة تدور في مجرتها وتسعى في محرتها .

وأصول الدارات دارتين صادرة عن دارة وتشعبت من الدوائر ، وخلق دارة فضلية نورانية جمالية ، وخلق أعمال مرضية وأرواح جمالية لطفية ، وخلق دارة برزخية جامعة للراحة والعتب ، والوسع والضيق ، والنور

والصفاء والتكدير ، وغير ذلك من الأضداد . وخلق محل تمييز يميز فيه الخبيث من الطيب ، وخلق دار فضل ونعمة ، ودار عدل ونقمة . فأجرى الأرواح الجمالية الصافية السماوية في مجرت الفضل والنعمة ، وجرت الأرواح الأرضية الظلمانية بالعكس من ذلك **" إنما أعمالكم ترد عليكم "** فيجوزون تلك المجرات ؛ فتجزون هذه المسرات . وأما أن تجوزون في مفاوز الهلكات في بروج النحوس والشقاوات ، فتجزون هذه العقوبات والنكال وسائر المؤلمات الجلاليات ﴿ **اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق** ﴾ [الآية ٢٠ الأحقاف] فكل يجازى بوفقه في المقام الأخراوي ، ويظهر عليه تعبير المثال الدنياوي بالعكس مما كان عليه في الدنيا : فالكبر جعله بالهوى ، والذل بالعز . وقس على ذلك سائر الأفعال في الدنيا تعبر عنها إلى تأويلها في الدار الآخرة ، وقد جر سفينة الحصر طوفان المطهر الحقي في بحر العلم الإلهي الذي لاساحل له ولاغاية يوصل إليها .

فلنرجع إلى شرح كلام المؤلف رضي الله عنه حيث قال : الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ، لأن هذه الدار لاتسع مايريد أن يعطيهم لضيقها وكدرها ، وماهي عليه من التغيير والإنفلات ، لأنه ورد أن آحاد المؤمنين في ملك واحد ، منهم مسيرة سبعمائة عام ؛ هذا لآحادهم ، وأما ساداتهم مما لايصفه الواصفون ، ولايحيط بعجائبه المعبرون ، ولأنه أجل أقدارهم على أن يجازيهم في دار لابقاء لها ، إذ لم يجازي فيها إلا أعدائه ، ويزوي عنها أوليائه إكراما لهم وإدامة لنعيمهم ، لأن الدار الآخرة هي مستقر النعيم

، وفيها دوامه وبها تمامه ، ولأنها مأمونة الإنقلاب بل متزايدة المسرات ومتواترت البركات . لذلك ادخرها لجزاء عباده وصرف عنها أعدائه ، وجعل جزاهم في الدار الفانية الحقيرة ، قليلة الجدوى كثيرة البلوى ، ولي في ذلك شعرا :

جزا العباد في الأخرى يسر به　　من كان لله في الطاعات مجـــتهدا
ينال من ربه الإكرام مطلبـــه　　أن يشهد الله جل الواحد الصـمدا
أخر جزا عبده كيما ينال بـــه　　في جنة الخلد جـاز السادة الشـهدا

وأكبر الكرامات وأرفع المقام النظر إلى وجه الله وتعظيم الله ، حيث يسميه باسمه ، ويرسم إليه رسمه كما ورد : أن العبد المؤمن يأتيه مكتوب من الله عنوانه : من الحي الذي لايموت إلى الحي الذي لايموت . فإذا فتح الكتاب وجد فيه : عبدي اشتقت إليك فزرني ، فيقول : هل جيئت بالبراق ؟ فإذا ركب البراق غلبه الشوق فيحمله الشوق ، ويتخلف عنه البراق إلى بساط اللقاء . ولي في ذلك شعرا :

إن البراق براق الشوق يحمل مـن　　ناء عن القـــرب فاستدعاه مولاه
ومن يكن ذابه الكأس اللذيذ فمـن　　يدنوا دنوا ويدنو منه إيـــــــاه
يدار له خمرة الساقي العقـــار إذا　　من غير فـرج شهي الوصل يهواه
فكأسه الوصل إن حققت أس لـه　　حظي به فيه والمشروب معنــاه
يازايرا للحما المعهود صرت حـــيا　　استمطرت من سحاب الإسم محياه

فالعمل شجرة طيبة ، وثمرته سر وجدان سر ذلك العمل ، أما من طريق الإيمان وأما من طريق العيان . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من وجد ثمرة عمله عاجلا ، فهو دليل على وجود القبول آجلا)

الوجدان مختلفة ، فمن وجدان في الأعمال بطريق الإيمان على صدق الوعد بالموعود فيسهل إليه عسيره ، وتهون عليه وعوره ، ويتحقق لديه ظهوره ، ويشرق عليه نوره . وأما بطريق الشهود والعيان ؛ فتنكشف له ستوره ، وتستولي عليه تباشيره ، وتزف إلى العامل عرائسه وحوره ، وتتغشاه أنوار القرب ، وتشوقه لوامع الحب . وأول ذلك مكابدة ومجاهدة ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ [الآية ٦٩ العنكبوت] وهو طريق الفناء فينا ، ونعوضهم بما ذهب منهم معيتنا ، ونشهدهم حسننا وإحساننا ، فنصفهم به ونجعله لهم نعتا فنعتهم محسنين ، وذلك لما ظهر عليهم من حسن معيتنا التي لم تبقي عليهم من أوصافهم وصفا ، ولم تدع فيهم عمل من رؤية نعوتهم نعتا .

وورد في ذلك : " **إذا أخلص عمل لله ولايقبل الله إلا ماكان خالصا** " مثل قوله في الحديث " **من أخلص لله أربعين يوما جالت روحه في الملكوت الأعلى ، وعادت بطرائف الحكم فنطق بها قلبه على لسانه** " فهذا من ثمرات العمل المقبول ، ولايقبل الله إلا من المتقين ، لذلك قال ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله** ﴾ [الآية ٢٨٢ البقرة] فهذا من ثمرات التقوى . والتقوى منها ماهو عمل ومنها ماهو علم والكل عمل . وقوله صلى الله عليه وسلم : **"من عمل بما علم أروثه الله علم مالم يعمل "**

وإذا علمت أن ليس ثم ثمرة للعمل إلا العلم اللدني الذي يظهر لك وجه الصواب في كل عمل وحال من الله ، بلا تعلم ولاتعمل بل يكون الحق لصاحبه يدا ومؤيدا وقلبا وعقلا ، فهذا وماشاكله من ثمرات العمل المقبول

. ولابد لكل سالك في ابتدائه في الأخذ في العمل من كلفة وتجشم تعب ومشقة ، ثم تعقبه الراحة والمسرة . والثمر لايوصل إليه إلا بعد حركات حسية وتدبيرات معنوية ، يعجز عن الوصول إلى الثمرة من لم يتحمل العنا في غراس الشجرة . وهذا معروف لايمتري فيه ذو قلب سليم وعقل سالم ، بل كل شواهده في الحس ظاهرة ، وأمثاله على الأعمال في المحسوسات متظاهرة . ومن عمل ولم يجد لذلك ثمرة ، ولا للإقبال على الأعمال مسرة ، ووجد عند مايطلبه ، ولم يصابر الأعمال على ممر الأحوال ؛ فليفتش عن إخلاصه في عمله ، ولينظر فيما يقتضي الرد عليه من أحواله ، فإنه منه أوني ، وليجتهد في التفتيش على دسائس الأعمال ، فإنه ربما كان ذلك في اعتقاد في الله غير موافق كما هو الصواب عند أهل الحق ، أوفي شئ مما يوجب رد عمله عليه ، أوفي الأعمال مما يحبط الأعمال ؛ كالقيام على حالة من أحوال الضلال في الأعمال والأقوال ، فإن رذائل الأحوال واجتراح الأوزار ترتد به الأعمال . كما ورد في حديث معاذ : أن عمل العبد يعرض على أهل كل سماء فيرد بذنب حتى يعرض على الله فيرد بعد إرادته به وجه الله . فانظر ذلك وامعن النظر فيما يرد عملك عن القبول الذي توجد به ثمرات الأعمال ، وتزكية الأخلاق ونمو الأحوال ، فإنه رب ذنب يحرم قيام ليلة ، ورب ذنب يحرم قيام سنة ، ورب كلمة تقلد عنه باب لم يفتح ذلك الباب إلا بالترويح عنها وتبديلها بضدها . ولربما لم يعد إلى ماكان عليه قبل ذلك ، فإن الكتاب على البياض قبل أوقع من الكتاب فيه بعد المحو من السواد ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة** ﴾ [الآية ٦٣ النور] ولا أعظم من الإفتتان بالأكوان ونسيان مكونها ، والحجاب

بالأعيان عن مبدعها ومعينها . وأول الفتنة أعاذنا الله وأحبابنا وسائر المسلمين منها مخالفة الأمر . فياإخواني إياكم وإياها ، فمخالفة الأمر مصارمة ومقاطعة للأمر ، فما ذا يجد من قاطع الله وصارمه ، فهذه نفثة القابية ألقاها المفضل الوهاب على قلب عبده وأبداها على شهادته ، وأجراها على يديه . ولي في ذلك شعرا :

فمن يجد ثمرة الأعمال عاجـــلة فليحمد الله أهل الفضل والمنن

عناية الله في الإنسان حاصلة فيما تقبله من سر ومن علــــن

ومن جملة ثمرة الأعمال إدامتها عليك والإغتباط بها والمسارعة إليها ، والنشاط فيها . وإذا كنت كذلك فاعلم أنك عند الله بمكانة ، وأنه قد رضيك لخدمته ، واصطنعك لنفسه ، واصطفاك لمحبته . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إن أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيما ذا يقيمك)

إن أردت أيها الطالب المريد والطالب المستفيد أن تعرف قدرك عند الله ؛ هل أنت ممن اصطفاه وأحبه ؟ وقربه ورفع ذكره ؟ وأكرمه وأعزه ؟ أم أنت ممن أذله وأهانه ، وحرمه وطرده ، ورسمه في جريدة أعدائه . فانظر ؛ فإن لكل فريق علامة ، ولكل قوم مقامه . فعلامة فريق الكرامة طريق السعادة ، وعلامة فريق الإهانة والبعد طريق الشقاوة . والطريقين معلومتين ؛ فالسعادة هي الأعمال الموافقة للأمر المرضي ، واجتناب النهي المفضي . وقد ورد في الجديث **" من أراد أن يعرف منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده "** فإن كان لله معظما ومكرما ، وللأولياء محبا وواليا ، ولأعدائه مجانبا ، وعن مناهيه متباعدا ، ولنعمائه شاكرا ، وبمنته

معترفا ، وعلى صروف قضائه صابرا ، وعلى كل مايقرب منه مثابرا ، فليعلم أن الله له معظما ، ولقدومه مكرما ، وعن كل مايكرهه صارفا ، فإن الله يوفي عبده بما عامله ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الآية ٦٠ الرحمن] والكل حقيقة من الله ابتداء ، وإليه يعود انتهاء ، فهو المتفضل بما عامله به عبده ، فهو الذي أوجده ووفقه وأعانه وتقبله وأهله ، ومنه جزاه في دنياه وأخراه . وإذا كان العبد عن طاعات الله متباطيا ، وإلى معاصيه مسارعا ، ولمحارمه منتهكا ، وبأوليائه مستهينا ، ولأعدائه مواليا ومكرما ، فليستدل بذلك على أنه عند الله مهانا ، وبعلامة البعد موسوما ، وعن الخيرات محروما مالم يتدراكه بتوبة وعفو وغفران . وهو المرجو من فضله أن يهدينا ويعفو عما نحن عليه من الجرائم ، وانتهاك المحارم ، وأن يوفقنا لمرضاته ، ويسلك بنا طريق خواص أهل تقاته ، إنه الجواد الكريم البر الرحيم . وكذلك سائر أحبابنا ومشايخنا وسائر المسلمين ، ويجنبنا وإياهم مضلات الفتن ، ويقينا من شؤم المعاصي وصروف المحن . ولي في ذلك شعرا :

إذا أردت أن تقف يوما على قدر   هل أنت من أهل قرب الله في الأزل
فانظر إلى مايقيمك فيه مقـــتدر   من فعل مكروه أومن خالص العمل
إن السلامة تظـــهر كل مستتر   في طي مكنون ماقـد كان في الأزل
فمن يكن في طريق الخير منتشر   فذاك محبوب مثل المثل في المثـــل

ثم قال متمما لما قدمه : لئلا يغتر ذي رأي ضعيف بالطاعة دون الله تعالى ، فلذلك قال :

(متى رزقك الطاعة والغنى به عنها ؛ فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرا وباطنا)

متى رزقك أيها الطالب والمتعبد الآيب الطاعة وهي كل أمر محبوب موافق مرضي . والطاعة رزق القلوب ، ورزق الأرواح مشاهدة المحبوب ، ورزق الأسرار الإستغراق في متلاطمات بحار الأنوار ، ورزق النفوس بمستلذات الأطعمة . والطاعة هي رزق القلوب السماوية والنفوس الزكية ، والطعام رزق النفوس الأرضية الحيوانية . ومتى رزقك الإستعانة وهي رزق الأرواح هو الإستعانة عن كل شئ لإقبالها عليه دون كل شئ وهو الفناء به عن الأشياء ، وهذا هو العبادة الظاهرة ؛ أي الطاعة والإستغناء به هي العبودية باطنا ، وهذا المطلوب من العبد أن يكون قائما لله ظاهره بما يقتضيه الأمر ظاهرا ، فانيا عنه باطنه بما يقتضيه الحق باطنه . فإذا كان كذلك فقد أكمل الله عليه نعمته وأسبغها ، وأفاض عليه منته وأوسعها . ومع العلم بذلك يكون له شاكرا ولآلائه ذاكرا ، فتستحق المزيد مما لديه . ومع الجهل بذلك ربما تنسى الشكر على هذه النعمة الجليلة ، ولاتذكر هذه المنن النبيلة فتتعرض لسلبها . ولي في ذلك شعرا :

رزق القلوب في الطاعات يعرف ذا   من كان ذا قلب للعلـياء مخطوب
متى رزق ذاك فليعـــــلم بأنه ذا   ماقام بالشكر صار الخير مجلـوب

وهذه من أجل نعم الله على عبده حيث أقامه في عبادته واختاره لخدمته ، وشغله به عن رؤيته ، فكان لله ظاهرا وبالله باطنا . وهذا هو مطلب الصفوة الأخيار ، والنجباء الأبرار . لأن خير ماعندهم أن يقيمهم في خدمته ويسلمها عن الآفات القادحة فيها ، ومن كان حاله الإستغناء بالله عن

الأشياء فقد سلمت عبادته ، وتمت سلامته . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(خير ماتطلبه منه ماهو طالبه منك)

خير مطلب للعبد من الله أن ينال رضا سيده ، ورضاه متعلق بطاعته بشرط سلامته عن محبطاتها ، فليكن العبد لذلك مراعيا في جميع أحواله وأعماله وأقواله لينال رضا ربه . ورتبة القرب منه الذي يليها تطاولت أكابر الأنبياء وسادات المقربين الأصفياء ، وكل مطلوب دون ذلك فهو مشوب وموسوم بالحظ ، ولأن يطلب العبد حق مولاه الذي هو العبادة ظاهرا والفناء عن الأوصاف والأحوال والأعمال باطنا ؛ أولى به وأتم من أن يطلب مالايدري عاقبة أمره ومصدر وروده ؛ أفيه الخير أم لا ؟ وإذا كان فانيا عن اختياره وقائما بأمر الله تولى الله رعايته ، واختار له ما هو الأصلح في أفضل الأمور ، فلا تعلمه بما يصلحك وقم له بما أمرك . واعلم متى كنت كذلك كنت من العبيد الأدباء ، فيصلح من يكون حاله ذلك أن يكون من أخص الوزراء ، فيدعى لذلك المقام ويخطب ويحظى ويزداد في الملاء ذكرا . ومن مستغلا بحظه غافلا عن سيده منازعا له في تقديراته ، ومشاركا له بتدبيراته ؛ فيوشك أن يبعد عن الحضرة ولايثبت له في ديوان الوزراء إسما ، ولايرفع له هناك ذكرا بل يدخل في غمار العوام والجهال الطغام . إلا أن يستأنف المقام ويعود يقتدي بإمام ذامقام تام ، فيرجى أن تستقيم أحواله وتهذب أخلاقه وتصفو أعماله ، فأحسن ماطلب الأدب واشتغب به النجباء قصر الطلب على ماهو مطلوب الحق منهم ، فكانوا يستعيذون من أن يكون طلبهم لمقتضى حظوظهم العاجلة ، بل كل

هممهم متعلقة بتصفية عبوديتهم لله ، وخائفون من كل قادح يقدح فيها خوفا منهم أن لاتقبل منهم ، فأكبر مثوبة لديهم قبولها منهم ، وغوبتهم عن رؤية مامنهم ، فهم مطالبون نفوسهم لله على ممر الأنفاس ، متبريئون عن الحول والقوة في الأفعال والأقوال وسائر الأحوال ، لايشغلهم هم ما هو آت ، ولاتدبير مالا يؤمرون بالتدبير فيه ، بل هم وقوف على ما أبرزه الوقت ، يقومون بمقتضى ذلك من العبادة ، لايلتفتون إلى ماض ولامستقبل . ولي في ذلك شعرا :

أطلب من الله توفيقا لخدمته ... فخير مايطلب أن يرضاه مولاه

وكن بحقه وأشهد سبق منـته ... ولاترى في جميع الكون إلاهـو

فإذا علمت شرف القيام بالخدمة وانقطاعها عنك بعوارض الأقدار ، فدليل الصدق الحزن على فواتها كما يحزن كل محب على فوات محبوبه ، وعلامة الحزن الحث على النهوض وتلافي بقية الوقت ما أمكن ، وإذا لم ينهض الحزن على النهوض ويحث على التلافي فهو الحزن الكاذب كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها ؛ من علامة الإغترار)

الحزن هو تألم القلب أما لفوات محبوب أوخوف مرهوب ، والحزن على فوات المحبوب أظهر ، وكل مايوصل إلى المحبوب ورضى المحبوب فهو محبوب ، فلذلك يحزن المحبوب على فواتها ، ويغتبطون بوجودها . فإذا وجد الحزن ولم ينهض إلى الإتيان بها فدل ذلك على أنه حزن كاذب ، ولو كان صادقا لبادر المهل ، وشمر في تلافي المطلوب ، وإذا كان حزن وبكى من غير نهوض إلى الإتيان بالأوامر والإنزجار عن النهي فذلك علامة

الإغترار ، ودليل المكر من الله ، وهو كاذب وهو بكاء المغرورين ، فإذا منع ماينفعه وأعطي مايغتر به فلا مرية أنه محروم .
وأما الحزن الذي يبعث على النهوض فهو من أشرف أحوال السالكين ، وأحسن سمات المريدين . وكيف والقلب إذا خرج منه الحزن خرب . والحزن من علامات الخائفين وشعار العلماء والزهاد ، ودثار الناسكين والعباد ، ولليلة من حزين تعدل قيام أعوام من الفرحين أهل الرفاهة المترفين المطمئنين إلى زهرة الدنيا ، الراغبين فيها المشتغلين بها عن التعلق برب العالمين إله الأولين والآخرين . وحكاياتهم في ذلك كثيرة ، وأحوالهم فيها شهيرة . كما يروى عن بعض زهاد هذه الأمة وأحبارها كالفضيل بن عياض ومن حذا حذوه ونحا نحوه ، يقال أنه لم يرى ضاحكا أربعين سنة . ولا أحق بالإتباع وأوصل لمريد الإنتفاع من الإقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن شمائله أنه متواصل الأحزان ، دائم الفكر . ويقال : أنه إذا أحب الله عبدا نصب في قلبه نائحة ، وإذا أبغضه نصب في قلبه مزمارا . ويروى أن الله يحب كل قلب حزين . ولي في ذلك شعرا :

الحزن حالة أرباب السلوك ومـن   خلا عن الحزن يحرم كل مطلوب
إن قارن الحزن عزم فهو بغية من   يطلب إلى الله في الأجوال مرغوب

فلما انتهى الكلام على ماتقدم أخذ في تبيين حالة العارف المحقق من غيره ممن ينتمي إلى المعرفة دون حقيقتها ، فقال رضي الله عنه :
(ليس العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته ، بل العارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده ، وانطوائه في شهوده)

ليس العارف المحقق والعارف باسم التعريف هو هذا ، وهو الذي ينطق عن وجوده ويشير عن شهوده ، قد انطوى في مشهده أعيان الوجود ، واضمحلت لديه تعديدات الحدود ، إذ الإشارة حجاب عن الجمع الذي تذهب فيه ظهور الأغيار ، لأنه الإشارة والمشير والمشار إليه ، فلايخفى ما في ذلك من ظهور التفرقة والبعد عن مقام الجمع الذي هو نعت العارف المحقق والواصل المقرب ، كيف تكون له إشارة أو إفصاح عبارة وقد غاب عن وجوده ، وفني عن شهوده ، فانطوى واندرج ليل أفعاله ، ونجوم علومه وسائر أفعاله وأعماله وأوصافه ، وتلاشت ذاته بظهور شموس المعارف من أفق الإحسان الذي تنطوي تحت ظهوره مقامات الإيمان ومعالم الإسلام انطواء النجوم والأقمار عند ظهور النهار ، فمن التحق ذاتا ووصفا وفعلا بالعدم عند تجلي أسرار القدم ؛ فأين له الإشارة والإفصاح بالعبارة .

وفي اصطلاح الطائفة أن الإشارة الإفصاح عما يتضمنه الوجد قولا في الأقوال ، وفعلا في الأفعال ، وحالا في الأحوال ، ومقاما في المقامات . فمنهم من يجد المشار قبل الإشارة وهم العارفون ، ومنهم من يجد مع الإشارة وهم الواصلون إلى مبادي المعرفة ، ومنهم من يجده بعدها وهم السالكون الآخذون في طريق السلوك ولم يصلوا بعد . ولي في ذلك شعرا :

إن الإشارة تفصـــح كل منبهم	من المعاني مكنون عن الغـــــير
والعارفون لهم من فوق ذا همم	نالوا مقاما خلي عن ذلك النظــر
ومن يكن دون ماقلـناه محتكم	في حيطة العلم محتوس في الصور ؟

والإشارة على ضربين : فإشارة حق وهي الإشارة إلى الحق بالحق ، وإشارة مردودة غير مقبولة وهي إشارة الخلق إلى الحق لأنه ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبير** ﴾ [الآية ٤٣ الإسراء] إذ لا أين ولا كيف ولا لم . ثم أخذ في بيان الرجاء الحق من الرجاء الباطل الصادق عليه بالأمنية ، فقال رضي الله عنه :

(الرجاء ماقارنه عمل ؛ وإلا فهو أمنية)

الرجاء مقام شريف من مقامات السالكين ، وحال مرضي من أحوال الأبرار والعلماء الأخيار ، ويلتبس به حالة غارة وخصلة ضارة تسمى الأمنية ، وهي تلبيس على من لاعلم عنده بطريق الرجال ، ولاتحقيق سنيات الأخلاق ورفيعات الأحوال ، فيظن بجهله ويتخيل أن الرجاء المحمود والخير الموعود هو الأمنية الكاذبة التي يتخذونها المفاليس من الأعمال عدة ، فيعدون نفوسهم الأمارة بوسع الرحمة وعظيم العفو مع ماهم مقارفون من انتهاك المحارم ، والتبذخ بالمآثم والتظاهر بالجرائم من غير مبالاة بالجمال الإلهي ، فيجعلون جنابه أهون الأشياء عندهم ؛ ويقولون نرجو حيث لم يواخذنا في الدنيا ولاقطع عنا الرزق ، وأنعم علينا بأصناف النعم وألبسنا العوافي في الدنيا أن يكون لنا في الآخرة أحسن من ذلك ، ونحن عبيده وهو يعطي الآخرة كما يعطي الدنيا ، وماشاكل ذلك من الأماني والتغريرات الكاذبة . وماعلموا أن الدنيا محل التكديرات غالبا إلا من لم يؤهل للنعيم الأخراوي والسرور السرمدي .

والرجاء على الحقيقة هو أن تمتثل الأمر إئتمارا وانتهاء ، وترجو أن يتقبل ذلك منك ، وأن يثيبك عليه كما وعدك بذلك ووعده الحق ، وليتك إذا امتثلت كما أمرت تقبل منك . ولك في حرث الدنيا مثل يعرف ذلك من أرسل نظر الإعتبار وحقق الإستبصار ، فلم تجد الأثمار ومفتقات كمائم الأزهار إلا عند من اتخذ الجهد صاحبا على ممر الأيام . فإذا حان إبان أوقات الأمطار رجاء أن يصيب أراضيه ، فإذا أصابها رجاء أن يخرج له صنوف الأثمار . وأما من اتخذ البطالة ديدنا ثم رجا مارجا صاحب الجهد في طول سنته فلا مرية أن ذلك إغترار واستهانة بجناب الواحد القهار ؛ أولم يعلم المغرور أنه إذا لم يجازى في هذه الدار ببطالة وندامة ؟ أترى الآخرة أقل منها حتى يجازى فيها على بطالته غنى ؟ أوترى الذي يجري في الدنيا غير الذي يجري في الآخرة ، والله سبحانه يقول ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ماسعى * وأن سعيه سوف يرى *ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ [الآيات ٣٩-٤١ النجم] فهاهنا بحسن الرجاء ، وقد أطلق الذم على قوم اغتروا بالأغراض الدنياوية وتمنوا المغفرة فقال عز من قائل ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا** ﴾ [الآية ١٦٩ الأعراف] وقال صلى الله عليه وسلم في وصف من اتبع نفسه هواها قال صلى الله عليه وسلم " **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني** " وقال عز من قائل في وصف قوم جهال توهموا أن العطاء الدنياوي دفع عنهم

ماسيحل بهم من العقاب وأليم العذاب ﴿ **وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين** ﴾ [الآية ٣٥ سبا] فقال سبحانه ردا عليهم خطاهم ورادعا جهلهم وسوء رأيهم ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى** ﴾ [الآية ٣٧ سبا] ثم بين أن نيل الكرامة والزلفى بالإيمان الجازم والرأي الحازم والعمل الصالح ، فقال جل ذكره ﴿ **إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا** ﴾ [الآية ٣٧ سبا] الجزاء الأوفى مقابلة الأعمال ، وتصفية الأحوال بالإيمان ، وتهذيب الأخلاق والأقوال والأعمال ، فبين لكل عامل جزاء ، ولكل عمل من جنسه ردا . ولي في ذلك شعرا :

إن الرجايبعث الطالب على العمل ويزعج السالك الصادق عن الكسل

فلا تظن الرجاء تزوير مختدع يدعو إلى فعل محضور من العمل

وربما يقول إني حسن الظن بربي ، ولوكا ن به حسن الظن لكان له حسن المعاملة ، ومعه مهذب الأخلاق صفي الآداب ، متبع ماهو به أمر ، ومجتنب ماهو عنه له ناه . وهذا مقام في اليقين وقدم في التحقيق ، ولكن العارف له كلام رفيع ومثال منيع فوق ذلك ، وعنده يحصل حسن الظن على التمام ، وبراءة على الكشف والعيان ، بلا تلبيس فيه ولاغرور ، بل على المحجة البيضاء ، يعطي الأمور حقها ، قد خرج عن الحظوظ والأغراض ، وقام بالحقوق ، لايعتريه فتور ولايمازجه اعتراض ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(مطلب العارف من الله تعالى الصدق في العبودية ، والقيام بحق الربوبية)

المطلب هو المقصود من الفعل ، والمطالب شتى بحسب الأفعال والفاعلين ، فلكل فاعل مطلب يطلبه ومحتد يقصده ، والمطالب إما طلب نفع وجلب ؛ أوطلب دفع مؤلم قالب أوقلب . وهو أيضا إما دنيوي أوأخروي ، فالخلق ثلاثة أصناف من حيث إجمال المطالب : إما عارفين مقربين ، وإما علماء أبرار وزهاد أخيار وعباد أحرار ، وإما جهلاء أشرار وغافلين أغرار ؛ لايمترون بين ظلمة الليل وضوء النهار ، فهؤلاء مطالبهم المنافع الدنياوية ، ودفع الضراير الجسمانية ، فلا نرفع لهم ذكر ولانشغل الوقت بالخوض في تفاصيل أصنافهم .

وأما العباد والزهاد فمطلبهم في الحال سلامتهم عن ملاحظة الخلق كيلا يبطل ثوابهم ويحق بهم عقابهم ، وعند انبعاثهم على العمل يكون الداعي لهم رجا مايعود عليهم من الثواب والسلامة من العقاب وأليم العذاب ، فهؤلاء وإن كان مطلبهم محمود ومقامهم مشهود ؛ وهم الأكياس من حيث أنهم عملوا لله كي ينالوا ذلك ، ويسلموا من مخدورات الذنوب . وأما من عمل للجنة دون الله ، أومن النار دونه فلاخفا في أن ذلك باطل كما أفتى به الفخر الرازي . وكلامنا فيمن يعمل لله لينال الثواب ويسلم من العقاب ومن كان كذلك فمقامه محمود ، ومطلبه عزيز بالنسبة إلى من دونه .

وأما العارفين والسادات الموحدين والخواص المقربين فإنهم يعملون على غيبة نفوسهم عن العمل ، وإخراج رؤيتهم عن شهود صدوره منهم ، فلايشهدون لهم ولامنهم ، وجل مطلبهم وكل بغيتهم القيام بحق سيدهم

والمثول على بابه ، والإقبال على جنابه ، لايتلفتون إلى عاجل حظ ولا آجل جزاء . والعارفين هم الحكماء ؛ والمعرفة هي الحكمة ، وهم المهذبين الأدباء والميامين الأمناء ، غرباء الأوقات محيين من السنة مافات ، والمتداركين من الأوقات مافات . والمعرفة هي الخير الكثير والحي المطير ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** ﴾ [الآية ٢٦٩ البقرة] والذكرى هي فهم الأسرار وتحقيق المعارف بزوال الأستار الكونية ، وفنا مظاهر الأغيار وانطماس معالم الآثار . فمن خلص من رؤية ذلك وتخلفت عنه مقاطع الإغترار فقد قام التذكار ، وحصل من كل شئ على لبابه ﴿ **ومايذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ [الآية ٢٦٩ البقرة] فشتان بين من همته القيام بحقوق ربه وبين من يريد حظه من ربه . شعرا :

هموم العارفين كذا وقـــوف　　على مايرضي المولى تعـالى
ومطلب غيرهم دائم عكـوف　　على نيل ثواب وصفو حالا
وهم في نيل مطلبهم صـنوف　　ولكن الشهود له رجــــالا

ثم أخذ كالمفسر لأحوال الأبرار ، ومشيرا إلى حالات الموحدين وخواص العارفين ، فالقبض والبسط أحوال ترد على قلوب الواجدين من الله تعالى ، وله في كل وارد حكمة يترقى في سلمها السالك ، والقبض أثر من آثار جلاله ، والبسط أثر من آثار جماله ، وهو المسمى بالقابض والباسط ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(بسطك كي لايبقيك مع القبض ، وقبضك كي لايتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كي لاتكون لشئ دونه)

يسطك أولا من قبض الجهل وظلمة الحجاب بأن كشف عنك غطاء الطبع وأشهدك فسيح الجمع ، وأخرجك من ظلمة الهوى إلى نور العلم ووسيع المشهد الرفيع ، ثم قبضك بشهود الآثار الجلالية والسطوة الإنتقامية والزواجر الحجابية المؤذنة بالبعد والطرد والمكر ، وذلك كي لايبقيك مع البسط فيفوتك من المعرفة به حسب مايفوتك من هذه المظاهر . فكمال المعرفة يقتضي أن لاتجهله في شئ بل تعرفه بجميع أوصافه ولانهاية لها ، فلانهاية لترقي العارف في الدنيا والآخرة ، وما أظهرها عليهم في هذه الدار إلارحمة بهم في دار القرار فما أن تنقضي هذه الدار تنقضي عليهم هذه المظاهر وتندرج معارفها لهم ، وتنفتح عليهم الخزائن الرحموتية ، وتزف إليهم المواهب الإمتنانية ، ويظهر سر التضعيف السرمدي . والقبض والبسط حالان يردان على قلوب السالكين يتولد عنهما الخوف والرجاء ، وعند ماترد على السالك بسط المواهب يخاف عليه من برد الأمن المفضي بصاحبه إلى أن يدل على الله ويصول على عباده وينزل عن علو العزيمة إلى حظيظ الرخصة فيتداركه الله بأن يورد عليه وارد القبض فلا يبقيه مع البسط بل يفنيه عن الوجود ، وتنطمس معالمه فلايرى له بقية ، ولايشهد لنفسه قدرا ، ولايسمع عنها خبرا بل يكون حاله الإنطماس والإنكماش في الأعمال ، وترك الدعاوي لما يرد على قلبه من محرقات الجلال المزعجة عن الدعة ، فهذه من نعم الله على عبده . وأشار بقوله : لايبقيك ، وتعبيره بقوله : بسطك كي يبقيك مع القبض لأن القبض يقتضي بقاك ومعرفتك ، وبقوله : كي لايتركك مع البسط ؛ لأن البسط يقتضي فناك وجمعك ، فإذا تركك كذلك فاتك من مقام العبودية حظا وافيا ،

فعبر بكي لايتركك فانيا عنك ، وعبر بقوله : كي لايبقيك ليريحك عن ظلمة حجابك وغمة عتابك في إيابك ومآبك . ثم قال : وأخرجك عنهما ، أي القبض والبسط لأنهما من مقتضى التغيير ، والبقاء معهما حبس عن مقام عدم التقيد بالأغيار ، وقيد عن الذهاب فيه والوصول إليه ، فالتمكين رتبة العارفين وسمة الموحدين ، والتلوين حالة السالكين وسمة المريدين المبتدئين ، فالخروج عن مضيق الوجود إلى فضاء الشهود لايكون للعبد فيه مدخل ولامنه تعمل ، وظهور عناية على من يدوربه واختص به ، لأن العطايا الوهبية والمنازل القربية لم يكن للعبد بها شعور ولالها في مخيلته ظهور وإن كان لايسمع بها لكنه يسمع بذلك ، فإذا ظهر له تحقق بعد أنه لم يكن ذلك مايحتسبه ونظر مالا يتخيله . فالقبض والبسط آثار ومظاهر أسماء الأفعال ، والخروج عنهما إلى فضاء الوصف الذي لاحصر له ولانهاية ، ويكون حالته الهيبة بدل القبض ، والأنس بدل البسط . والهيبة يكون لاشئ من الأسباب ولابشئ من الأعراض ، ولكن يكون مقتضى المقام من غير شئ يزيد على ذلك ، والأنس أيضا كذلك لابشئ ولابجنس من الأجناس ونوع من الأنواع بل المقتضي المقام ، فلا يعطيك غيره في حال تجليه عليك وتدليه إليك ، لأن الجمال مأنوس والجلال يهاب . وإن ظهر في الجلال مايقتضي الأنس وفي الجمال مايقتضي الهيبة فلا يكون حال العبد في ذلك المقام إلا مقتضى المقام ، ولاحكم بعد لما يظهر من الآثار ، إذ الحكم لله العلي الكبير .

ومن كان كذلك لايكون تحت حكم الآثار ولايتغير بتعاقب الأطوار ، ولايتكدر برؤية الأغيار ، ولاينبسط بجنة ولاينقبض من نار ؛ بل يكون

مع ربه فانيا عن الأغيار كما يروى في مثل ذلك المعنى عن إبراهيم بن أدهم لما رؤي منقبضا فجعل يقول له السائل : من كذا من كذا ؟ وهو يقول : ماكذا ماكذا . والهيئة والأنس أصل القبض والبسط لأن القبض والبسط يظهر أثره في عالم الأفعال ، والهيبة والأنس غيب تظهر عن تجلي الأوصاف القدسية والنعوت الأزلية في عوالم الإجمال ، وبالنظر إلى تفاوت هذين المشهدين يكون الجمع والفرق . فالنظر في عالم التفصيل يقتضي الفرق والتغاير لامحالة ، والنظر في عالم الإجمال يقتضي الجمع لامحالة . فلذلك لم يكن للأغيار ظهور في عالم الإجمال بل لم يكن ثم إلا موصوف بوصف ، ومنعوت بنعت وذلك لايقتضي التعدد . فلذلك قال : أخرجك عنهما كي لاتكون لشئ دونه ، ومتى نظرت لسبب وجود في إيجاد شئ أوإعدامه أي سبب في أي شئ فأنت له حتى تتخلص عن رؤيته أن له أومنه أوبه ، فعند ذلك تنظر لإنفراد الحق بالإختراع والإبداع ، فتكون له لأنك لم تر لغيره شهود ولاحقيقة وجود . ولي في ذلك شعرا :

القبض والبسط غير إن وقفت به ... دون الحقيقة إن حققت ياانسان
جز المقامات والحالات وافن به ... فثم تشهد بعد الحالة الشان
فإن تفرقت في التفصيل كنت به ... أغشى البصيرة في الأكوان حيران
مخايل الطرف تحكم إن نظرت به ... أنك ترى منه أن الواحد اثنان

ثم لما كان القبض والبسط حالان ، ولكل حال في العبد أثر يقتضي أن يكون العبد متصفا به ، فحالة القبض تظهر على العبد أثرا بالإنكسار والإنقهار تحت أحكام القهار ، وهذا هو حالة العبد القائم بين يدي السيد الجبار ، ومن هنا كان خوف العلماء على حسب قربهم وصفا مشهدهم ،

والبسط حالة انبساط في فسيح متسع الجمال يظهر أثره على العبد بصولة الفرج والتردد بين رياض الحكم ، وتغني أطيار السرور على أرائك سرير المقامات ، وتدلي أشجار الكلم فلايشك أن العبدعند ذلك يخشى عليه صولة الإدلال ، فتنقطع عنه إمداد الوصال ، ويسد عنه أبواب الإتصال ، فلذلك اشتد خوف العارفين عند البسط والقبض حق الحق من العبد ، والبسط حظ العبد من الحق ، وأن يكون بحق سيده أولى من أن يكون بحظ نفسه . فإذا كانوا بالبسط كانوا أخوف منهم إذا كانوا بحالة القبض ، والقبض أسلم لحالة العبد الضعيف ، إذ لم يقف على الأدب مع البسط إلا القليل من كمل العارفين الذين ملكوا أزمة الأحوال ، وضبط الأفعال والأقوال على تغاير الأحوال . ثم قال المفسر لحالتي البسط والقبض وحاكما عند أرباب المواجيد العارفين بأسباب الحقائق ، السائرين على أوفق الطريق . فقال :

(العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ، ولايقف على حدود الأدب في البسط إلا القليل)

العارفون بالله وبأوصافه ونعوته وتجليات أسمائه ، ولايكون عارف إلاكذلك ، والمعرفة أخص من العلم وترادف الحكمة ، بل غالبا مايطلق عليهم بأنهم الحكماء وأنها المعرفة ، وهي من أجل منح الله على من قامت به . والعارف يكون له التمكن والعالم التلون ، وهو خواص أهل هذا الطريق وسادات سائر الطوائف ، وهم درجات عندالله . فمنهم الفاضل ومنهم الأفضل ، ومنهم المحققون وهم المتمكنون الذين يعرفون الله في سائر المظاهر فيعطونه الأدب في كل معاين وكل متخيل ، وهم الأدباء الخواص

الغرباء ، محيين ما أمات الناس من السنن ، الناجين عند ظهور الفتن ، المصلحين من الدين ما أفسده الناس ، الذين يحيون في عافية ويموتون في عافية ، ويبعثون في عافية . يمشون بين الناس بالنصيحة بأجسام ميتة عن الدنيا ، وقلوب عاكفة في الصفيح الأعلى ، يأوون إلى جناب الحق كما تأوي الطير إلى أوكارها ، ويحنون إلى لقائه حنين الثكلاء ، لايكنهم مأوى ، ولاتقلهم أرض ولاتظلهم سماء . تتقلب قلوبهم في الملاء الأعلى ، تخلع عليهم ملابس الرحمة العرشية ، وتنزل عليهم السكينة الكرسية ، ويحيون من الله بالسلام بين الأنام . فقليل ماتراهم الأعين بل هم تحت القباب ؛ مخدرين أسجاف الحجاب ، لايطلع الله عليهم إلا من اختصه بقربه وأتحفه بحبه ، فيعرف إياهم ويحببه إليهم .

وقد أشار المؤلف في هذه الحكمة إلى بعض علاماتهم وأنهم إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ، وهذه من جملة سماتهم ، وذلك لخوفهم الوقوع في سوء الأدب مع سيدهم ، والسقوط من عين مليكهم . وغاية سرورهم ومنتهى حبورهم في كل فعل يكونون فيه بحق الله ، ومنتهى شرفهم ومطمع نظرهم الإنكماش في خدمته ، والدوب على إتيان محابه ، وغاية حذرهم من ضد ذلك ، والوقوع في محذور سوء أدب معه ، ويخافون ذلك الوقوع فيه مع البسط أكثر منه في القبض ، والقيام بالحقوق الشرعية بحالة القبض أقرب . فلذلك يكون أخوف في البسط منهم في القبض لذلك المعنى . وخوفهم في البسط الوقوع في حالة تضاد حالة العبودية والأدب ، فيخاف الوقوع في العطب . وكيف لا وهو لم يقف على الأدب مع البسط إلا القليل ، فيخافون لامحالة أن يبدر منهم ماهو خلاف الأدب مع الله كما

هو مشاهد أن أكثر الهفوات تكون مع الإنبساط ، ولذلك قالوا : قف على البساط وإياك الإنبساط . ولي في ذلك شعرا :

البسط أخوف عند العـارفين إذا كانوا مـــع الله يطلب منهم الأدب
والقبض حال يكون العبد فيه كذا بحـــــق سيده في مشهد السبب
لأن تكون بحق الله مجــــــتهدا أحب منك بحظ النفس في النسب
والعارفون بنوا سرا تــــــراه إذا مالم بالبسط ضاعف عنده الأدب

فالبسط تأخذ النفس منه حظها ، وحظها بل أجل حظوظها بتخترها واختيالها وإدعاء ماليس لها مما هو حق موجدها ونعت باريها ، والقبض عن ذلك بمعزل . لذلك قال المؤلف هذا المعنى وهو قوله :

(البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح ، والقبض لاحظ للنفس فيه)

البسط هو ماعلمته أنه حالة ترد على القلب من الله ، وهو حالة في القرب لأنه من الله وبالله لامن غيره ولابغيره ، وكل بسط بشئ من الأسباب الدنياوية والمثوبات الأخراوية فليس من ذلك في شئ ، وكل بسط ورد بسبب فهو بحسب ما أورده وليس من البسط الذي قلنا ، وأراد يورده الله على القلب بتجلي وصفي وهذا هو الذي يشيرون إليه الطائفة في اصطلاحاتهم بالبسط . وإذا أردت أن تعرف البسط الوارد عليك أهو من الله أم مورده بسبب ؟ فاعرض عليه سائر الأسباب الدنياوية والأخراوية ، فإن لم تجد شئ منها فاعلم أنه من الله فاشكرالله حيث وجه إليك عنايته ، وساق إليك واردات مواهبه . وحالك فيه مع الله الأدب ، ومع الخلق الإرشاد واللطف بهم وعدم الترفع عليهم . وإن

ماأورد ذلك البسط إلا بسبب من الأسباب فلا يكون لك به اعتداد من حيث الأحوال ، بل يكون من جملة النعم التي يجب الشكر عليها ، والفرح لازم البسط ، وقد ذم الله الفرحين بغيره والأغيار كيف ماكانت سواء كانت من الأعراض أم من الأحوال ، قال الله جل من قائل ﴿ **لاتفرح إن الله لايحب الفرحين** ﴾ [الآية ٧٦ القصص] وقال أيضا ﴿ **ولاتفرحوا بما آتاكم** ﴾ [الآية ٢٣ الحديد] فالفرح بالأغيار ولو من الأحوال والكرامات فضلا عن الأعراض الفانية من علامات الإغترار والجهل بما تحت مستورات الأقدار ، ولكن الفرح بالله هو المطلوب . ولايعرف مقام الفرح بالله إلا الصديقين الخواص المقربين ، وأما غيرهم فقد يلتبس عليه المقام ولايوفيه على التمام . والقبض سالم عن هذه المخاوف لاحظ للنفس فيه ولافيه الفرح ولايصحبه المرح ، بل هو أسلم أحوال السالكين . وأما من مقامات الواصلين وحالة العبد مع الله في البسط القبض والأدب ، وفي القبض السكون حتى يمضي وقته وتستوفي دولته دورها ، وتكمل صورها ، ولايطلب الخروج منه قبل إبان وقت انقضاء ذلك ، فلربما يكون ذلك سوء أدب منافيا للإستسلام والسكون تحت جريان الأحكام ، ولايخفى في ذلك من سوء الأدب . ولي في ذلك شعرا :

قد تاخذ النفس حظ العبد إن وردت ... مـوارد البسط واستولت على البشر

والقبض لاحظ فيه أصلا إذا نظرت ... في مشهد القبض يرجع خاسي النظر

فإذا ورد عليك مايوجب البسط من الأسباب فلاينبغي لك أن تفرح به لجهلك بعاقبته واندماج سر خاتمته ، فربما كان ماتفرح به مما يكون فيه الترح وضده كذلك . قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما أعطاك فمنعك ؛ وربما منعك فأعطاك)

رب تأتي للتقليل وقد تأتي للكثرة ، وهنا المراد بها أكثرية لأنه إذا أعطاك مراداتك وماوعدك على نيل شهواتك منعك أسباب العطايا الهنية والمشتهيات المرية التي لايعقبها زوال ، ولايعتريها تغير ، ولايعتريها كدر . فالمنع في مثل ذلك العطاء ظاهر ، ربما منعك من شهواتك وبغض عليك مستلذاتك ، وعوق عليك أسباب دنياك فأعطاك الجزاء الأوفى ، وأنالك المقام الأعلى وأدخلك في زمرة الكرماء ، ونظمك في سلك الأصفياء ، فأعطاك أعالي الكرامات ؛ وأي عطاء أوفا من ذلك ، وأي زلفى أعلى مما هنالك ، فكان العطاء الذي باختيارك وبدلك بيان كل تدبيرك منعا ، ويكون كل منع خالف هواك وباين إرادتك عطاء ، فاختر عطاء يكون حقيقته منعا ، ومنعا يكون حقيقته عطاء . ولي في ذلك شعرا :

إن العطاء خير ماتعطى بخيرته   إن كان منعا فذاك أقرب إلى الظفر

وكلما اخترت أن تعطى فخيرته   فذاك منـــــعا بلا ريب به الضرر

ولايعرف وجه المنع في العطاء والعطاء في المنع إلا بفتح لدني وفهم اختصاصي ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى فتح لك باب الفهم في المنع ، عاد المنع هو عين العطاء)

متى فتح لك من خزائن الفهم المكنون ، واطلعت على دقائق العلم المصون ؛ فرأيت مافي المنع من عظيم النفع دنيا وأخرى ، علمت لامحالة أن المنع

عن مراداتك فيها ذخائر سعاداتك ، فلاجرم أن يعطيك نور الفهم أن المنع عن إرداتك الفانية ؛ وحظوظك العاجلة عطاء لاينفد وذخرا لايفقد . ومن أمده الله بالفهم عنه أراه عواقب الأمور قبل أن يغتر بأوائلها ، وكشف له باطنها قبل أن يختدع بظواهرها . والفهم من أعز علوم الصوفية لأنه يخلقه الله في القلب يدرك به الأشياء إصابة وخطاء ، فيعطيه أن لايأخذ ولايذر ولايسمع ولاينظر ولايتحرك ولايسكن إلا بما كان محبوبا ؛ موافقا لما في باطن الأمر عندالله ، وإن ظهر في ظاهر الأمر أنه موافقا أومذموما ، وفي الباطن على العكس من ذلك ، فياخذ صاحب ذلك المشهد ماهو الحق عند الله ويذر ماسواه وإن أفتاه بضده . ولايدرك المشهد من كان قياده بيد هواه ، وسياسته بنفسه دون اقتداء بمن يطلعه على كوامن الهوى ، ويخرجه عن رين محبة الدنيا . إن الفهم في الأمور لايكون إلا عن صفاء سريرة ، ولاتصفا وهي ملوثة بكثائف الهوى ومدنسة بمحبة الدنيا .

ولي في ذلك شعرا :

الفهم يعطيك في الأشياء أحسنها ويخرجك عن مضيق الجهل بالخبر
إذا علمت أن ذاك الفهم تعلم من ينظر به إن العطاء في المنع منتظر

فلما كان الفهم يعطي من قام به أن ينظر بواطن الأمور ولايغتر بظواهرها ، وينظر عواقبها ، ولاينخدع بأوائلها . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة ، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها ، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها)

الكون هو ماعدى المكون ، وهو كل مادخل تحت كن من سائر أصناف المكونات الحسيات والمعنويات ، والمراد هنا كل مايمكن أن يكون للنفس

إليه نظر وحظ ، والنفس من حيث الطبع والجبلة مجبولة ومطبوعة على الجهل وهي النفس الحيوانية ، والقلب هو عبارة عن لطيفة نورانية ألبسها الحق من أنوار أوصافه ما أخرجها عن وصف النفس وحلاها بنور أوصافه ، وأفاض عليها من تجليات أسمائه ، فهي أبدا تتقلب في حلل تجليات الأسماء ، وتتنزه في فسيح الأوصاف الأزلية ، تتلقى من صفة العلم ومن صفة الكلام ومن صفة البصر والسمع ، والحياة والقدرة والإرادة بقدر ما أعطاها وقسم لها ، ويظهر عليها من تجلي اسم مايظهر به من سلطان ظهوره ، فهي لأوصاف الحق وأسمائه كالمرآة الصقيلة تحكي ما تنجلي به عليها ، وتفيض ماتلقيه إليها . والقلب الصنوبري اللحمي كالعود الكثيف الذي تلصق به المرآة مجاوزة لاممازجة ، ومظهره في الجهة اليسرى الإنسانية ، ومشهده في الجهة اليمنى مواجهة . والنفس من حيث هي حيوانية أرضية أمارية في الجهة اليمنى وهي مواجهة لجهة الشمال .

ولو أخذنا في تبيين ذلك لخرجنا عن مقصود الشرح ، فلنرجع وناخذ في بيان قوله : الأكوان ظاهرها ، وهو محل الحظ النفساني والطبع الحيواني في غرة يغتريها من أعوز الفهم في بواطن الأمور ، ولم يحظى من النور القلبي بما يخرجه عن صفة الجهل ، وينعته بنعت العلم الفهمي بل كان جهل نفسي وجسمي أرضي ، يتصفح ظواهر الأكوان في مستحسنات الألوان ، ومصقلات الأبدان ، فتفتنه بحسنها وتملكه وتستسخره تحت خدمتها ، وتستعبده بمحبتها ، ويكون كما قلت في ذلك شعرا :

إذا لم ترى ماتحت أثواب حسنها   بقيت بها مفتون ولهان حـــــائرا
ولو كنت ذاقلب بصير بفتــحها   نظرت إلى ما الأمر في ذاك صائرا

وباطنها عبرة يعتبر بها ذوي البصائر فيرون فناها في حال وجودها رؤية كشف وبصيرة وحجة منيرة بتحقيق قوله ﴿ **كل شئ هالك إلا وجهه** ﴾ [الآية ٨٨ القصص] ووجهه في كل شئ سر وجوده في الأشياء ، فيعتبر أولوا القلوب بما هي عليه من الإنعدام في حال وجودها عارية عن وجه الحق ، فلا يكونون مع الأكوان بل مع مكونها ، فيرون وجود الحق في كل فطرة ، فيكونون مع الأكوان ظاهرا ومع الحق باطنا ، فإن خاطبوا فمعه ، وإن نظروا فإليه ، وإن سمعوا فعنه . فتخاطبهم الأسرار الحقية من وراء كشف الأستار الخلقية . كما يروى في مثل هذا المعنى عن معروف الكرخي رضي الله عنه حيث قال : لي نحو من عشرين سنة أخاطب الحق والخلق يظنون أني أخاطبهم . أوكمال قال .

هذا في مشهد المحققين ، وأما الأبرار والمريدين وعامة السالكين فعبرتها أن يرون تغير أحوالها وسرعة انتقالها وكثرة عنائها وقلة غنائها ، وخسة شركائها ، فيكسبون العزوف عنها والتنزه منها . فمن دعت إليه اليها النفس بظاهر غرتها صرفهم عنها القلب بباطن عبرتها ، فسبحان من أوصل قوم بما قطع به آخرين . فعبرة المريدين بالقلوب بأن ينظر إليها بالإستحقار والتجافي والإستصغار . وعبرة الأسرار للعارفين بأن يشاهدون وجود موجدها عند رؤيتها ، فهم الذين يوفون الحقوق ويكملون في الآداب ، ولايذمون شيئا ولايستصغرونه ولايحقرونه . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذم طعاما ولااستحقر عطاء ولاحقا ، بل وفا وعفا ، وذلك لما أعطاه المشهد الحقي في المظهر الخلقي . وبالجملة فالعبرة بشان ذوي البصائر ، والعبرة هي العبور من الصور إلى المعاني ، فما من صورة

خلقية إلا وهي تشير إلى لطيفة حقية ، فمظاهر التركيب مشيرة إلى حقائق الترتيب . ولي في ذلك شعرا :

إن الشهود يريك الحق موجـــود   في كل مظهر في الأكوان والصور

فالسر خاطب من له سر موجـود   وفي الحقيقة مايخفى ذوي العـــبر

وكل شئ دون الله هالك ، والهالك لاوجود له ، فمن استند واعتز بالعدم فلا جرم أن عزه به خذلان ، واستناده إليه حرمان ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إن أردت أن يكون لك عز لايفنى ؛ فلاتستعزن بعز يفنى)

إن أردت أيها المسترشد والطالب المسترفد عز وهو رفعة وثناء لايفنى ، وهو العز بالله إذ لم يستحقق سبل هذا الوصف ، وهو الغنى غير الله سبحانه ، وكل من سواه فذلك من لازمه ، فكل عز بفاني فان ، وكل عز بباق باق . وإذا أردت العز الباقي المخلد والفضل الدائم المؤبد فلا تتوصل إليه بضده ، إذ تطلب الباقي بالفاني ، ولكن إن أردت ذلك فاستعز بالباقي . والعز بالباقي هو دوام التعلق به واليأس من غيره ، ودوام الإلتجاء إليه ، والإنكماش في خدمته ، وانتظاره في كل أزمة وكشف كل غمة ، فلا يكون إلى فاني استنادا ، ولا على مخلوق إعتمادا . ومن أنزل مهما ته بسواه فقد أعوزه ما أراده وفاته ماقصده ، فإذا استعزيت بالأكوان وصلت بها واعتمدت عليها أسلمتك أحوج ماتكون إليها ، فإنها مع مليكها وتحت حكمه ، وطائعة لأمره . فمن أعزه الله أعزته ومن أهانه أهانته ، ومن أكرمه أكرمته ، ومن خذله خذلته . فعليك بالتعزز به والتعلق بجنابه .

ومن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم **" اللهم إني أنزل بك حاجتي "** ولي في ذلك شعرا :

العـــز بالله شيمة كل ذي أدب يغني عن الكون في الأحوال ذا بصر
ومن تعــــززز بالأكوان كان له ذل طويل كما جا ذاك في الخـــــبر

فإذا كان عزك بالله عن كل شئ لم يقدر أن يذلك شئ ، وإن استعزيت بغيره واستهونت بجنابه أذلك كل شئ ، وسلط عليك كل شئ . واعتزاز المؤمنين بصدق عبوديتهم لسيدهم . وصدق العبودية لايكون مع وجود حظ النفس ، فلما نظر العارفون إلى ذلك كانت جل أشغالهم في الخروج عن أوصاف النفس لتصفا لهم العبودية من شوب الحظوظ النفسانية ـ فيطلبون الإنطواء والإنطماس عن رؤية نفوسهم وأوصافهم ، ولم يطلبوا أن تطوى لهم المسافات البعيدة لغناهم عن ذلك الطي ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الطي الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك ؛ حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك)

طي مسافى الدنيا هنا طي معنوي لاطي حسي ، وهي مسافة الدنيا برؤية فناها وسرعة انقلابها وقرب الآخرة ، فتضمحل الأسباب الدنياوية فتزول المستحسنات الكونية بفكره ساعة جميع الدنيا ولذاتها ومحبوباتها بشروق نور اليقين في القلب ، وهو الذي يعطيك رؤية الأشياء على ماهي عليه من الحسن والقبح ، فعند شروقه في القلب ينظر الآخرة وبقاها وحسنها ودوام نفعها ، والدنيا وخستها وقرب فناها وسرعة زوالها وكثرة عنائها وقلة جدواها وكثرة بلواها ، فتنطوي لامحالة وتنزوي وتتحقق الآخرة وتترآء ،

فيغيب الباطن الفاني ويتحقق الحق الباقي . وعند تمكن اليقين من القلب يظهر له الجمال الأزلي والمشهد الأقدس العلي ، فتنطوي الآخرة عنده كما انطوت مسافة الدنيا عند شروقه في ابتدائه . لكن طي الدنيا طي حجب ظلمانية وفي مسافة الآخرة طي حجب نورانية ، فهذا عندهم هو الطي حقيقة لاطي المسافة في لحظة . فقد تكون لك على الندور من باب المكر، ولاطي الأيام بوصال الصوم فليس هو المراد ، مع ترك القلب مكبل في مضيق الدنيا وأسبابها ومراداتها ، بل يكون ذلك محمودا إذا أخلص لله ، وكان لمحض العبودية وأعطاها حقها كان ذلك مشكورا وفضله مشهورا ، ولكن أين السير بالأحوال من السير بالأعمال ؟ فالسيلا بالأحوال سير المرادين الواصلين ، والسير بالأعمال سير المريدين السالكين ، وشتان مابين الفريقين . ولي في ذلك شعرا :

الطي طي مسافات النفوس إلى حضائر القدس واستعلامراقيها

ليهن ركب سرى شوقا يسير إلى منازل السر واستنزه بواديـــــها

فإذا طويت المسافات الخلقية وبانت لك الفتوحات الوهبية ، بان لك يقينا أن ما أشار إليه المؤلف هاهنا من قوله :

(العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان)

وذلك أن رؤية العطاء منهم حجاب عن الله كثيف ، ورؤيتهم دون أن يكون منهم أولهم حجاب ؛ لكنه ألطف من إضافة أن لهم فعل معه ، فإذا رأيت العطاء منهم فقد حرمت من اليقين بقدر ما أضفت إليهم . ولذرة من اليقين ماتقوم لها الدنيا وماحوته من جميع نعيمها ومحبوباتها ، وذلك يتولد منه أي عدم اليقين تقلد مننهم واستعبادهم إياك ، وسقوط منزلتك

وابتذالك . وأي منع أعظم من منع العطاء الذي إذا نلته نلت جميع خيرات الدنيا والآخرة ، والعز السرمدي الذي لايعقبه ذل وهو اليقين ، فإذا فقدت اليقين فقد حرمت خير الدنيا والآخرة . والمنع من الله إحسان لأنه يوقفك على الله واللجاء إليه ، والإفتقار لديه ، والذلة والإنكسار بين يديه . وأي عطاء أفضل من ذلك ، وأي فضل أعظم مما هنالك .

فأعياد الصادقين ومواسمهم وجود فاقاتهم إليه ، ووقوفهم بين يديه ، فأي إحسان يزيد على ذلك . وإذا أحببته كان كلما يصدر منه محبوب عندك ، وإذا أعدمك اليقين كنت بالضد من ذلك بأنك تؤثر محبة الأغيار ، والوقوف على الخلق عند ورود الحاجات وحصول نوازل المهمات ، فتقف على من لايغنيك ، وتستند إلى من لايأويك . ولي في ذلك شعرا :

إن العطاء حيث لم يصدر من الله　　حرمان يحرم ماهو صرف إحسان

وكل منع من المولى فإن بــــــه　　كل العطاء وكل الفضـل ياانسان

وإذا علمت ما أرشدناك إليه من أن العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان ؛ علمت أن الله سبحانه يجازي عباده في الدنيا والآخرة على أعمالهم ، فجزاهم في الدنيا مايجدونه من اليقين والإنشراح والترقي في سني الحالات ورفيع المقامات ، ومايوصله إليهم من صنوف النعم وضروب المنن التي لاتحصى ، مع مايدخره لهم في العقبى ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(جل ربنا أن يعامله العبد نقدا فيجازيه نسيئة)

أي ترفع وتعالى وتعظم عن ذلك الوصف ، لان ذلك ينبني من العجز والعدم ، وهو منزه عن أن يعجزه ذلك بل له ، وهو الأغلب أن يفيض

على عباده جزاهم في الدنيا ، ويثيبهم في العقبى . إن خزائن جوده لاتتوقف على محل دون محل ، بل فائضة الجود مستمرة الوجود كيف ماكانت الأحوال وتغايرت الأزمان والأوان ، فهو الذي يجازي عباده بأعمالهم في الدنيا بما يجدونه من ثمرات الأعمال من تضعيف الطاعات على الطاعة وزيادة اليقين ، والترقي في مراتب الإيمان ومقامات الإحسان ، ومالايقدر قدره غيره من فواضل المنن وفوائد الإمتنان ، مع ما يدخره لهم من الثواب في العقبى ، وما أعد لهم من ضروب النعم والإحسان ، وما أعد لهم في الجنان ولم تفصح به لسان ولاتحده عيان ، وسوف يعلم ويرى وتشاهده الأعين ويعلمه الجنان . ولي في ذلك شعرا :

فجل ذا الجود والإفضال والمـنن أن لايجازي في الدارين باحسان

هو الكريم إذا ما سيل ياانسان يجده طالبه فرد ومـــــــــنان

فمن جملة جزائه وفيض عطائه أن رضيك لخدمته ، وأهلك لطاعته كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا)

أي يكفيك من جزاء الطاعة من الله ، لو لم يكن غير أنه رضيك لها أهل ، كيف وهذا جزء من جملة أصناف الجزاء العاجلة والآجله . وهذا من أعظم النعم وأوفر القسم أن أهلك لها قبل ظهور وجودك وأنت بعد لم يأت إبان ظهورك ، وقد جعلك من أهل طاعته ، وكتبك في جريدة أهل محبته ، ورسمك في مرسوم خاصيته . ولم يكن لك هناك إخلاص عمل ولاوسيلة ولاتضرع وطلب . بل ابتداك بالنعم ابتداء ، وخولك الممالك إنتهاء ، وأمدك بالإمداد قبل ظهورك في الإيجاد ، فيكف تطلب جزاء

على عمل هو ممتن به عليك ، وفضل هو موصله إليك . ولكن بوعده الصدق وقوله الحق أنه ابتداك بالإحسان من غير سؤال أن يثيب عباده بعظيم الإفضال وجزيل النوال . فمن أنت وما أنت حتى تكون أهلا لخدمته أومحلا لمحبته ، فاعرف قدرك والزم شكرك تكن لفضله مستزيدا ، ولإحسانه عتيدا ، ولي في ذلك شعرا :

كفاك إن كنت ذا عقل وإيمان إن الإله رضيك أهل لذا الشان

لطاعته فكفى ذا منه إحسان فالكل إلا به حق وتبـــــيان

ثم بين من جملة مايورده الحق على عباده صنوف الجزاء في الدنيا دون مايدخره في العقبى فقال رضي الله عنه :

(كفى العاملين جزاء ماهو فاتحه على قلوبهم في طاعته ، وماهو مورده عليهم من وجود مؤانسته)

فلما كان النظر فيما تقدم من كون مرضاة العبد أهلا لطاعته جزاء ؛ أخفى في بيان مايظهر أثره عند كل عامل صادق من وجود الفتوح وورود المنوح في أصناف الأعمال ؛ من وجود صفاء الأحوال والتمتع بلذيذ الوصال ، واللطف بموانسة تدليات الجمال ، مما يصغر في جنبه كل جزاء ويتضاءل عنده كل عطاء . فذكر الثمرات العملية بوصف الفتوح ، وذكر الموانسة بإيراد المنوح ، يشير إلى أن الموانسة والمشاهدة لاتدخل تحت أحكام المجاهدة ، ولكن المجاهدة طريق إليها وتعرض لديها . وأما الفتوح الذي يريهم إياها من طريق الدليل والبرهان ، وأما من طريق الكشف والعيان ، فتتشكل لهم صور الأعمال صورة نورانية ، ومقامات أخروية ، ونعايم خلدية ، وسرر وأرائك ملكية ، وأنهار مائية لبنية ، وأنهار عسلية ذوقية

، وأنهار خمرية لطفية . إلى غير ذلك مما يفتح على قلوبهم في كل سورة وفي كل كلمة وفي كل حرف من منايح الفتوح مما يندرج فيه نعيم الجنان ، وتختفي عند ظهوره حسيس النيران . ولايقدر أحد أن يصف مايفاتح به قلوب العاملين على البصيرة البيضاء والمحجة السمحاء ، ومالم يجد العامل شيئا مما وصفنا ، بل فوق ما أشرنا . فهو بعد لم يخرج عن مضيق الهوى ودهليز الدعوى ، ولم تخلص طاعته عن شوب الحظوظ .

وأما مايورده من الموانسة فلا يقدر أحد على وصفه ، لأنه لايكون غاية كماله وكلية وصاله إلا بعد استقرار أهل الدارين حين سألهم الحق سبحانه : اسألوني عبادي ، فيقولون ماذا نسألك وقد أعطيتنا ما لم تعط أحد ، فيقول : رضاي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا . فهذا وماشاكله من لذيذ الخطاب وشهي الجواب من الموانسة ، وقد يجد أهل الله في الدنيا طرف من ذلك ، ونسيم لطف مماهنالك ، فيتلذذون به ويتروحون من عناء البعد . ولذلك يقولون : ليس شئ يشبه نعيم الجنة إلا مايجده المحبون من التملق مع الحبيب ، وتدلي القريب ، ولي في ذلك شعرا :

إن الجزاء في قلوب العاملين به ... فتح يجده أولوا الألباب والفـــطن
ولذة الحب في الدنيا يحاولـــــه ... من كان ذا شغف في السر والعلن

ثم بين أن عبادة المحجوبين معلولة ، ونياتهم مدخولة ، فقال :

(من عبده لشئ يرجوه منه ، أوليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه ، فما قام بحق أوصافه)

من عبده وقام بعبوديته على حسب امتثال الأمر واجتناب النهي ؟ والعبادة هي هذه لأن الله سبحانه تعبد عباده على أن يعبدوه لايشركون

به شيئا ، ومن أشرك حظ نفسه في انبعاثه على العبادة فما أدا حق وصف الحق ، لأن حقه الطاعة على العباد مجردا من غير جزاء ، لأنه سيدهم وخالقهم ومالكهم ، ولايستحق المملوك على مالكه جزاء ، وإن جازاءه فمحض تكرم . وإذا طلب العبد على عبادته جزاء وسلامة من عقاب فأوفى بحق العبودية . ومنشأ ذلك الجهل بأوصاف الله وماهو عليه من الغنى ، وما العبد عليه من الإفتقار .

وقد وردت أحاديث دالة على أن العبد لايكون باعثه على العبادة إلا محض المحبة لله ، كحديث **" لايكون أحدكم كأجير السوء إن أعطى عمل وإن لم يعطى لم يعمل ، ولا كعبد السوء إن خاف عمل وإن لم يخف لم يعمل "** والقلب إذا امتلا بمحبة الله لم يبق فيه متسع لذكر الجزاء ، فغاية مطلب العارفين ومنتهى نظر المحققين إلى تخليص العبادة لله لالشئ من الحظوظ العاجلة ولا الآجلة . وماورد من طلب الجنة والإستعاذة من النار فليس يناقض هذا المعنى ، لأن طلب الفضل من جملة وظائف العبودية ، والفرار من الإنتقام أيضا من جملتها ، فالطلب يحقق مقام الفقر والفاقة والفرار من الإنتقام يحقق مقام الضعف ، ويظهر الذلة وقلة الطاقة لمقاومة أوصاف الجلال ، وهذا لايخفى أنه من جملة مقامات الرجال في مقام الأحوال . وأما عند خلوصهم عن رؤية الأغيار وارتفاع الأستار عن مصونات الأوصاف العلية ، فلايكون للعبد شعور بالأغيار ولاطلب لجنة ولاهرب من نار ، لإندراج كل ذلك تحت أوصاف جماله وجلاله ، فلذلك قائل منهم في حال الخطاب ومراجعة الجواب : لاعبدتك لجنتك ولاخوف من نار ، بل حبا لك وقياما بربوبيتك ، ووفاء بما أنت له أهل ، فأنت

أهل بأن تطاع ولاتعصى ، وتشكر فلاتكفر ، وتذكر ولاتنسى . فمن أقيم في مقام المحبة وفا هذا المقام حقه على الذوق الصريح والكشف الصحيح ، ومن لم يحظ من مقام المحبة بحاله فلا يمكنه الوفاء بذلك ، بل لابد من علة تبعثه وخوف ينشطه ، والعلل سواء كانت دنيوية أوأخروية ، ومن كان باعثه الجزاء أوالحظ فلا يخلو ا أما أن ينبعث لله لينيله ذلك . فالمرجو من فضل الله أن يجزيه الجزاء الأوفا ، وبقية ماهو خائف منه . وأما أن لايخطر له غير ذلك الحظ المرغوب أوالعقاب المرهوب ؛ فلاتصح عبادته على الفتوى عند العلماء . والذين قاموا لله متفاوتون : فمنهم القريب والأقرب . ومنهم من يرغب إلى الله ويفزع إليه في تحقيق مطلوبه والأمان من مرهوبه ؛ فهذا من الأبرار . ومنهم من يرغب في تحقيق الصدق في عبادته له لا لشئ . ومنهم من يفزع إليه ويرغب ويضرع في فناء وصفه وغيبته عن رؤية عمله ، وإخراجه عن مضيق وجوده إلى فضاء شهوده ، قد شغفه عشق الحبيب عن أن نرجو أونخاف غيرا ، ويطمح نظره إلى سواه ، أويشهد إلا إياه ، فهذه رتبة في القرب وهي أوائل مقامات المقربين . ومنهم من لو كلف على رؤية الأغيار ونفسه من جملتها لم يجد إلى ذلك سبيلا ، فهذا هو الذاهب في الله عن نفسه ، والماخوذ عن حسه ، المفارق بجبه وأنسه ، الغائب عن الوجود ، المختطف في الشهود . ولاخفا أن ذلك كل الوجود له لأنه لله لالشئ دونه ، تكل عن وصفه الفهوم ، وتعجز عن تحقيق حالته الرسوم ، فلايقدر قدره ، ولايحقق أمره سوى من بيده ملكوت الأشياء ، وتحت حكمه حقائق الآخرة والدنيا . وأما من سوى ذلك فهم الآخذين في التفاني الذين تغاير فيهم الحقائق والمعاني .

والقيام لله لايكون إلا بالله إذ لم يقم بحق وصفه من بقيت فيه من البقايا الغيرية والنعوت البشرية ، كيف والذين خلقوا من عالم الصفاء المجبولين على الوفاء من الأنبياء والأصفياء والعرفاء وأهل المحل الرفيع والمنزل المنيع . ملائكة القرب يقولون : ماعبدناك حق عبادتك ، وسيد الأنبياء ومقدم الأصفياء أكرم أهل الأرض والسماء يقول **" سبحانك لا أحصي ثناء عليك "** ولكن بحسب منازل القرب ونتائج الحب يكون بحسبها القيام . فكلما كان منزلته أقرب وتحقيقه في المحبة أصوب كان قيامه بحق العبودية أتم ، ونتيجة محبته أعظم . وكل من الصوفية في هذه المشاهد تكلم وأعرب عما سنح له وترجم عما منح ، فمنهم من قال : إني أستحي أن أعبده لشئ ، ومنهم من يقول : ماعبدناك لجنتك ولاخوف من نارك بضمير الحاضر . ومنهم جعله ذلك بضمير الغائب على مواجيدهم .

وأما تحقيق هذا الأمر فماقام بحقه سواه ، ولاقدر حق قدره إلا إياه . وللذاهبين عن رؤية وجودهم المستغرقين في حضرة شهوده ، والمتعلقين بوصف معبودهم لهم نصيب من ذلك . ولي في ذلك شعرا :

من كان يعبده لنيل مطلـــــبه   من حظ عاجل أومرغوب في الأجل
أو أمن خوف فذاك الحظ يحجبه   عن رتبة القرب منضاف إلى العلـل
كن عبده لاتكن تطلب سواه ولا   ترغب ولاتجزعن من صـولة الأسل
فما وفا حق مـــــولاه وسيده   من كان يطلب منه الحــظ بالأصل
لكن يكن يطلب الفضل العميم فما   في ذاك لـــــوم ولاعتب ولازلل

فعند ما يفتح للعارف الفهم عن الله في جميع مايصدر من التعرفات يكون يشهد معروفه ، وينال بغيته ومطلوبه في كل مابرز عليه من تحت سجاف الحكمة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره . فهو في كل ذلك متعرف إليك ؛ ومقبل بوجود لطفه عليك)

العطاء محبوب بالطبع ، ومستلذ بالجبلة ، والمنع ثقيل على النفوس لأنه من تجلي القهر . لكن إذا فتح للعارف باب الفهم عن الله ظهر من تعرف الله إليه مايخفف عنه ثقل القهر ، ويعرف فيه وجه الأمر . ومطلوبه أن يعرف الله بكل إسم من أسمائه ، ووصف من أوصافه ، ونعت من نعوته . فإذا كان كذلك فلا جرم أن يكون البر والقهر سيئان لأنه إن كان طريقه الكشف استوى ذلك لديه ذوقا وحالا ؛ لشهود أحدية الفاعل ؛ وواحدته أوصافه ، وفردانيته نعوته . وتقابل أفعاله وإن كان من أهل الحجاب لكن له بطريق العلم والإيمان نظر ؛ فلاجرم أيضا أن لايجهله في ذلك ، وأن يشهد اللطف في القهر كما يشهده في البر . لكن ذوق وحال بلاعلم وتصديق إيمان فهذا له من إقبال اللطف بحسب إيمانه ووفور علمه . وكثرة فهم أهل المثوبات والحسنات وأهل الكشف الذين يشهدون على الكشف والذوق هم أهل الدرجات الرفيعة ، والمقامات الشامخة المنيعة . والمطلوب من العبادة والحكمة في خلقهم معرفة سيدهم على ماهو عليه من الصفات والنعوت ، ولاطريق في الوصول إلى ذلك إلا بمايتحلى من الأفعال الموافقة البرية ، أوالمؤلمة القهرية .

والأسماء أما أسماء جمال أوأسماء جلال ، ولابد لكل من ظهور بمقتضى تحليه يغاير غيره . فينبغي للعبد أن يكون طلبه لمعرفة ربه بجميع أسمائه وإن خالفت طبعه وباينت جبلته ليكون لله لالنفسه . وإذا علمت أن الله تعالى قد توجه إليك باللطف قبل وجودك ، وخزائن العطاء لديه ودفع البلاء موقوف عليه ، وأنت تعلم نفوذ قدرته وبلوغ حكمته علمت أنه لم ينزل بك بلية ولامنعك عطية إلا لمصلحة تعود عليك ، علمت لامحالة وجود اللطف في كلا الحالين ، فقد يكون العطاء سبب لمنع العطاء ، وقد يكون البلاء سبب لدفع البلاء ، ولايعرف ماقلنا إلا من مارس مطالعة كتب المحققين ، ووقف على أحوال العارفين وماهم عليه من الثبات عند تغير الأحوال . وأما من استرقه الهوى واستعبده فلا يكاد يصدق بذلك فضلا عن أن يتحققه ، فإن أردت أن تعرف لطفه بعباده في جميع مايتجلي به عليهم ويورده من صنوف التعرفات لديهم فاعمل على جلاء مرآتك ، واخرج عن مرادك ، وافن وجودك تحت تراب الآثار الحقية ترى ذلك عياناوتحقيقا وبيانا . وإلا فمن لازمك طلب الحظوظ ؛ وطلب الحظوظ حاجبة عن صفو العبودية . ولي في ذلك شعرا :

إن العطا يشهد العبد اللبيب إذا رأى من البر مايـــــورد من النعم

ومشهد القهر يهديه ويكشف عن وصف الإله في الآزال والقـــــدم

إذا شهد ذا تحقق لامحالة إن اللـ ـطف في ذاك مصحوب فلا يسأم

فإذا تحققت أن العطاء نعمة ظاهرة وفي المنع نعمة باطنة لم تتأثر بتغايرهما ، إذ هما نعمتان من الله . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه)

قد تقدم في قوله : إذا فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء ، وإذا تألم العبد عند ورود صفات القهر وتجليه عليه بمثل المنع وسائر الآثار الجلالية دل ذلك على عدم فهمك عن الله في ذلك الوارد ، ووجود حجابه عن أوصاف الله تعالى وماهو عليه من الكمال ؛ فليستأنف الإرادة إن كان مريدا ، ويتخذ له في طريقته دليلا ، وليعمل على تلطيف مرآه قلبه بأنواع الرياضات وأصناف المجاهدات . فعند ذلك يرجى له من الله أن يفتح عليه باب الهداية ، والفهم عنه في جميع مايواجهه من تعاقب الأحوال .

والفهم كما علمت أن يريك ما أعد الله فيه للراضين ومايتيل الصابرين إن لم تكن من الموحدين ، الذين غاية مطوبهم من الله أن يعرفوه بجميع أوصافه ، وأن يحققوا وجوده في جميع الآثار الصادرة في جميع الأحوال لئلا يجهلوه في شئ ، فإذا كان مراده المعرفة كما وصفنا كان كلما ظهر عليه له فيه الزيادة الكبرى والمنزلة الزلفى . فلاشك أن تستوي لديه الأحوال ، ولايشمأز من منع ، ولاياخذه العطاء بل يكون مع الله كيف ماكانت الحالة ، إن منع كان مشهده الإسم المانع ، وأن أعطي كان مشهده للإسم المعطي وهو أحدي الذات وأحدي الصفات . والمريد لذلك السبيل دائم يتصفح وجود الحق في أعيان الوجود فيراه موجود بكماله في كل موجود ، فلا غرو أن يعطي الله الأدب في جميع مظاهر أسمائه ومبادئ آياته . ولي في ذلك شعرا :

فللتألم إن لم البـــــــــلاء إذا ولاتـرى غيره في كل مشهود
فالفهم عنه في الأشياء يكشف ما ستره عنك جمود الطبع محمود

والفقير المعتمد على الله يكون جل مرما نظره إلى عواقب الأمور ومصادر الأفعال ، والمغرور الجاهل بالضد من ذلك ، أي ينظر إلى حاصل مايفعله ولاينظر إلى ماتتضمنه العاقبة . لذلك نبه المؤلف على هذهه الخصلة بقوله :

(ربما فتح لك باب الطاعة ومافتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب ، فكان سببا في الوصول)

رب تأتي للتقليل كما قدمنا الإشارة إليه ، وقد تأتي للتكثير فهذا تنبيه منه للمريدين ونصيحة للطالبين وتحقيقا لقصد العاملين ، فينبغي للبصير أن لاينظر إلى صور الأعمال أحسنها وسيئها ، فلربما يصحب مايفعله من الأعمال الحسنة ماتحجبه عن القبول مثل الخصال القادحة ؛ كالإعجاب والإدلال ، ورؤية أنه خير ممن لا يفعله فيوجب إحباطه ورده ، وإحباط كل عمل يعمله وهو مستشعر لماذكرناه من إعجابه أورياثه أوإدلاله . فإن العامل حال عمله وهو مستشعر لذلك يكون باب القبول منه مسدود ، وسبيل الوصول عنه مردود . فلاتنظر إلى عمل حتى تعلم أن قد قبل وأنى لك بذلك . ومتى أراك تقف على خفايا الرياء ودقائق الإعجاب ودقائق الحسد وبقايا المنازعات للأوصاف الربانية مثل التكبر والتعظيم . فإذا علمت ذلك فاعمل واعتمد على فضله وخف من اقتراف شئ من هذه المحبطات فإنها على من ظهرت عليه الأعمال واشتهرت منه الأحوال أقرب ممن لايكون بهذه المثابة ، لذلك اشتد خوف العاملين العباد ، والمجاهدين والزهاد ، فإنها ترد في بعض الأحيان على حين غفلة منه عنها . ولايوحشك أيضا وجود الذنب وحشة تفضي بصاحبها إلى أن يقطع بالبعد

بسبب ذلك ، فلربما كان أنفع له من طاعة يصحبها ماذكر ولم يتحقق خلوصها . فالذنب يتوصل صاحبه إلى الإنكسار واستحقار نفسه واستصغارها ، وتعظيم غيره ممن لايفعله ويوقفه في خضوع التائبين وخشوع الخائفين طول عمره كلما مرت عليه صورة ذلك الذنب تجدد عنده من الحزن والإنكسار ، وتنفس الصعداء بالإستغفار ، ولوم نفسه واحتقارها مالايوازيه كثير من الأعمال في كثير من الأعصار . فانظر إلى عاقبة الفعل وباطنه ولاتنظر إلى صورته في الحال . قالوا : رب ذنب أدخل صاحبه الجنة . وهو يقتبس من قوله تعالى ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم** ﴾ [الآية ٢١٦ البقرة] فالأصلح للعبد أن يعمل الطاعات ويجتنب المنهيات وهو غير حاكم بخيرته هذا ولابشرية هذا ، من حيث الحيثية لامن حيث حيثية نفس الطاعة والمعصية . فأما نفس الطاعة مع سلامتها من القوادح وقبولها فهي خير بلاشك ، وكذلك المعصية إذا لم يقترن بها التوبة منها والإتيان بضدها والحزن على فعلها ، وصحبها التمادي والإصرار عليها فهي شر بلاشك . ولكن الكلام هنا فيما يترتب على وجود المعصية من شرائف الأخلاق والطاعة ، ومايترتب على الطاعة من سيئ الأخلاق والمعاصي كالإعجاب وماكان من قبيله ، فلذلك عبر بربما . وأما الغالب فالطاعات شهادة العناية بمن أقيم فيها ، والمعصية علامة الشقاء لما قام عليها بشرط سلامة الأول مما ذكر ، وبقي على ذلك ولم يبق إلا أنا لانقطع على هذا بالشقاء ولانحكم للأول بالسعادة للجهل بالسابقة وماتكون الخاتمة ، وذلك لحكمة بالغة لئلا يطلع السعيد على

سعادته فيتكل ويترك العمل ، ولئلا يطلع الشقي فيزداد في غيه وباقي الأشياء من غير مبالاة ولاتوقف ولغير ذلك مما لايطلع الله عليه من خفي الحكمة . فقد ورد : **والذي نفسي بيده أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لايكون بينه وبينها إلا ذراعا ، أوقال شبرا فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع أوقال : شبرا فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها** . فمن ذلك لم يقطع بسعادة ولاشقاوة ولكن لكل شئ دلالة ولكل رسم علامة . ولي في ذلك شعرا :

فربما يفتح الأعمال خالقـــــــــها ومافتح باب مايصلح به العـــــمل
وايضا المعاصي لاتوجب لصاحبــها بعدا إذا صلحت الأحوال والخلـل
إذا صحب صاحب الأعمال رؤيـتها كانت كما جملة الأوزار والزلـــــل
وصاحب الذنب يقنط عند رؤيتها إن سال من حزنه الأجفان والمقل

إذا علمت أن حكمة الطاعة إظهار العبودية وهي لزوم أوصافك ومعرفة نفسك والتعلق بأوصاف الله فيها يحصل معرفة الله عز وجل ، فإذا صحب الطاعة مايناقض ذلك وصحب المعصية ذلك كان ماقاله المصنف هاهنا وهو قوله رضي الله عنه :

(معصية أورثت ذلا وافتقارا ؛ خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا)

هذا زيادة بيان لما أسلفه ، معصية جرت وقضية حكمت وهفوة سبقت ، ثم صحبها الندم والإنكسار ، والذلة والإفتقار واستصغار النفس ، فمعصية أعقبت هذه الأحوال وأثمرت هذه الآداب وأقامت صاحبها على جادة العبودية التي هي سلم إلى تحقيق كمال الربوبية خير بلاشك ولاريب من

طاعة باينت هذه الأخلاق ، ونازعت في أوصاف الخلاق ، وهي العزة والإستكبار . فإذا صحب الطاعة ذلك فلا شك أن معصية أثمرت لك صرف العبودية خير من طاعة نازعت بها أوصاف الربوبية ، وكان ذوي البصائر الناظرين إلى ما من الله به من الفضل يكرمون الخلق على قدر ماهم عليه من الإنكسار والذلة والإفتقار . فقد يأتي عاص منكسر وناظر إلى الله بالحياء منه والخشية وتعظيم جنابه ، ومقت نفسه واحترام غيره ممن لايكون على مثل حاله ، فيكونون معه كما يكون الله له ، فتزيد له الرحمة عندهم ، وتضاعف له الكرامة ، ويأتي غيره على غير هذه الأخلاق فيكونون عليه كما يكون الله عليه بالمقت والإهانة لرؤيته نفسه دون الله ، ويرى أنه له عند الله المنزلة بما هو عليه من الطاعة ، ولايرى لغيره مايوجب له الرحمة ، فيعامل هو بذلك . فإذا أتى هذا المنكسر على مثل هذه الحالة وهو نظرالله إليه بالمغفرة والرحمة لما هو عليه من إضطرار الحال ، وهو يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

وقد يأتي المطيع بالضد من ذلك العزة والصولة والتكبر وازدراء عباد الله وتعظيم ماهو عليه ، واعتماده عليه دون فضل الله فيمقت ويبعد . كما يروى في مثل ذلك المعنى في عابد بني إسرائيل وخليعهم حيث جلس الخليع إلى جنب العابد وهو متشفع به إلى الله ، ومحترم لجنابه ومعظم لشانه ، ومحتقر لنفسه وماقتها ، والعابد معظم نفسه ومستصغر للخليع ومترفع عنه ، وعلى رأس العابد غمامة تظله ، فحولت الغمامة على رأس الخليع ومقت العابد على رؤيته أنه عند الله بمحل رفيع لما هو عليه من العبادة . نعوذبالله من سوء القدر . هذا إذا صحب المعصية الندم والرجوع

وعدم الإصرار ، وكانت منه على غير معاندة وأمانة يرتكب المعاصي ويطلب التقرب ، فلايقول بذلك قائل .
والطاعة أيضا إذا صحبها العزة والإستكبار المناقضة لها والمباينة لحكمها الذي أقيمت ، ومن أجلها طلبت . وإلا فالطاعة لايقول عاقل أنها تكون دون المعصية ، أوأن صاحبها يهان ، بل هي الذي بها الزلفى والكرامة دنيا وأخرى . وتعظيم أهلها من أجل القرب ، وإهانة أهل المعاصي المقيمين عليها والمصرين المتهورين في معاصي الله كذلك من أعظم الرتب . فالود والحب لأهل الطاعة من صريح الإيمان ، والبغض والمنابذة لأهل المعاصي والطغيان دليل على كمال الإيقان ، لقوله تعالى ﴿ **لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** ﴾ [الآية ٢٢ المجادلة] وقال في وصف أهل الإيمان ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ وقال فيهم أيضا ﴿ **يحبون من هاجر إليهم ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ [الآية ٩ الحشر] فينبغي لمريد سلوك الآخرة أن يتحرى أخلاء الصدق والوفاء ، ويجانب أهل الخيانة . فإن موانسة أهل الغفلو ظلمة ، ومباينة أهل الصدق وحشة وغمة . فإياك والركون إلى الفساق ، والفرار من أهل الحق وأهل التفرد والإشفاق ، فإن ذلك من الغرور . وماذكر إلا لئلا يركن مريد إلى نفسه ومايصدر عنه فيكون محجوبا بفعله ومبعود ، فلايظن أن المقصود بذلك نفس الطاعة والمعصية ولكن الممدوح مايصدر من الأخلاق السنية ، والمذموم مايظهر من الأحوال المذمومة والأخلاق الملومة . ولي في ذلك شعرا :

فالطاعة إن كان يصحبها ويصحب من قامت به فعل مذموم هي العطب
ومعصية أورثت ذلا ومسكنـــة كانت لصاحبها من جملة القــرب
فلاتكن تنــظر الأشياء بصورتها وانظر لماتثمره من خالــص الأدب

ولما كان العبد مطلوبا بالعبودية لله تعالى على الدوام ، والقيام له على اللزام ، لدوام إنعامه وتوالي إحسانه عرفك بأنك لاتخلوا عن نعمه نفس . فمن جملة تلك النعم ماقاله المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

(نعمتان ماخرج موجود عنهما ، ولابد لكل مكون منهما : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد)

النعمة هي مايحمد عاقبتها وإن كان غير ملائمة لطبع البشر من حيث مطلق اسم النعمة ، فالذي يستحق عليه الشكر هو المستلذ طبعا ، ولا ألذ من الوجود إذ به تدرك سائر الملاذ الحسية والمعنوية ، والعدم لايوصف بلذة ولا بألم . ونعمة الوجود هي التي أبرزت الوجود من العدم السابق ، ونعمة المدد هي التي يحفظ بها من العدم اللاحق . والممد لهذه النعم وغيرها مما يعجز عن حسبانها ، ولاتقف قرائح العقول إلى الوصول على عد أصنافها ، هولله سبحانه وله الحمد ، فلو كان فيما كان فلاانفكاك له عن هذه النعمتان العظيمتان ، والمنتان الجليلتان ، ولكن نعمه مستمرة غير منقطعة وهي التي تستحق بأن تسمى نعمة حقيقة ونعمة منقطعة منقضية معقوبة ، أما بالعدم وإما بوجود الألم ، فمن هذا التقسيم يعرف النعمة من اللذة الإستدراجية ، وهذا قدمه ليبين افتقار الكل إليه ابتداء ودواما ، فلا غنى عنه لشئ وانفراده بالغنى المطلق دون الأشياء ، فكل ماتوجه إليه التكوين فله هذه النعمتان ، ونبه عليهما لأنهما أكثر ما يغفل عنهما الجهال ، فلذلك

تراه يتقلب في نعم الله وهو لايشعر بكونه في نعمة ، ولو خلي عنه المدد الإلهي والقيام الرحموتي ، واللطف الرباني لاضمحل ولانعدم . شعرا :

فكم من الله إمداد يجـود بها — على الوجود بفيض الفضل والكرم

فنعمة الله مابرحت يجود بها — على الـــبرية في الأشباح والنسم

فنعمة الإيجاد هي الأصل وهي التي قبلت الإمداد ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أنعم عليك أولا بالإيجاد ، وثانيا بتوالي الإمداد)

أنعم عليك وتفضل ومن وتطول بالإيجاد قبل أن لاتكون شيئا مذكورا ، بل كنت شيئا منسيا ، لم تكن أهلا لإيراد مدد ولاتحويل عدد . ثم أمدك بأمداد عظيمة وآلاء جسيمة ، وتفضيل إمداد النعم كل شئ على حدته ممالامطمع فيه ولكن الإشارة إلى البعض منها تدل على الكل ، والمعرفة بالجملة تغني عن التفصيل . فمن النعم ماكانت نعم أزلية سرية ، ومن النعم ماهي نعم روحية ملكوتية ، ومن النعم ماهي نعم قلبية علمية ، ومن النعم ماهي ملكية حسية .

فالنعمة الأزلية هي أن رش من نوره وجوده على ظلمة عدمك فوجدت وتهيأت فيك القابلية لكل ما يلقى إليك من الأسرار التوحيدية الحقية ، وأما النعمة الروحية فهو أنه توجه إليك بالخطاب وألهمك الصواب في الجواب . وأما النعمة القلبية فهي أنه أنزل في قلبك نور الإيمان بما سبق من خطابه وأنتج فيه نتائج الزينة والثبوت عليه من غير تردد ولاتوقف ، وفتح فيه خزائن العلوم الغيبية وروازن الرحمات العرشية ، والصور النورانية اللوحية على الصفائح الكرسية ، وجعله مرآة تظهر تجليات

الأسماء الألهية ، ففيه يظهر هيولا الحقيقة ؛ الهيولي أصل الشئ كالفضة في الدرهم فإنها أصله ، ومنه تفيض سبل الطريقة ، وتجري أنهار العلوم وخلجان الفهوم ، وعليه يكون مستقر المملكة الإنسانية ؛ والسلطنة الإيمانية .

وأما النعم الملكية الحسية فهو ما من به من القيام على ما أرشدك إلى القيام به والقوة على القيام بالوظائف الشرعية والدوام عليها ، والصبر عن مناقضاتها واجتناب قوادحها ، وصرف النفس عن شهواتها ودواعي تزويراتها وهي لاتنحصر . ومع كونه من عليك بذلك وأنعم مدحك عليه ، وأثابك ووعدك عليه جزيل العطاء وعظيم الفضل ، ووجه إليك جميع الأسباب ، وجعلها لك بسر التسخير متوجهة وإليك مقبلة ، فلاتحصى نعمه ، ولاتنحصر أيادي جوده . فمن لم يتفقدها لم يشكرها ، ومن يشكرها فقد تعرض لزوالها وانتقالها عنه . فمن أين للقوى البشرية الترابية أن تتأهل الشئ من هذه النعم لولافضله وعميم جوده ، وحفظها والثبوت عليها مما لايقدر ضعف البشر عليه . فإن الأحوال معرضة للتغييروالزوال وسرعة الإنتقال . فينبغي للعبد أن يضرع إلى الله ويديم اللجاء بين يديه في حفظ ذلك عليه ، ودوام توجهه إليه ، وصرفه عن ضده وتقربه منه .

ولوأخذنا في عد ما في صورة الإنسان من النعم الإمدادية على ممر الأنفاس في سائر الحواس لاستدعا إلى طول في تقسيم أصنافها وتعديد أنواعها . ولي في ذلك شعرا :

أنعم عليك بإيجاد وتصـــوير   ومد من فضله إيمان وتـنوير

فلم تزل تتوالى اصناف نعمته   مقدر الكل من الأشيا بتدبير

فإذا عرفت هذه النعمتين ؛ نعمة الإيجاد أولا ونعمة الإمداد ثانيا ودواما ؛ تبين عندك حقيقة افتقارك ، وظهرلك وجود اضطرارك إليه أبدا سرمدا ، إذ لايستغني وجود عن المدد الذي يكون به موجودا دنيا وأخرى . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(فاقتك لك ذاتية ، وورود الأسباب مذكرات لك بماخفي عليك منها ، والفاقة الذاتية لاتدفعها العوارض)

فاقتك أيها الإنسان ذاتية لك ، والفاقة هي شدة الإحتياج إلى مدد يدفع عنه مايناقض حالة الوجود وهو مايدفع عنه العدم . فاقتك أيها الإنسان إلى وجود اللطف والإحسان من المحسن المنان ذاتية ؛ أي أصل ذاتك تطلب ذلك والإنفكاك لها عنه ، فذاتك أبدا طالبة مستمدة لاغنى لها ، وإن وجدت لديها الأسباب العرضية فلا ترفع هذه الفاقة الذاتية ، إذ الأسباب خارجة عنها لاتغني عنها لأنها أيضا أي الأسباب مفتقرة ومستمدة ، فكيف ترفع عن غيرها أوتمد غيرها ماهي محتاجة إلى من يدفع عنها ويمدها ، فثبت عموم افتقار جميع المسببات وأسبابها في ذواتها وأوصافها وسائر أفعالها من حركاتها وسكناتها دنيا وأخرى وبرزخا ومقرا . والغنى لله ذاتي في أوصافه وأفعاله وجميع مقدوراته ومراداته . وعلى هذا الأسلوب فاعلم مباينة الله لمكوناته في جميع أوصافه وأفعاله فله الوجوب ، ولها الجواز وله الكمال ، ولها النقص وله الغنى ، ولها الإفتقار وله القدم ولها الحدوث .

وأوصاف الحق لاتفارقه فلا تتغير بتغير الأحوال ولاتختلف باختلاف المظاهر ، وأفعاله أيضا لاتحتاج وتفتقر إلى الآلات والإرتباطات كما تكون

أفعال الخلق بذلك موصوفة . فإذا علمت أن الفاقة لك ذاتية لاتفارق وجودك إلى من يقيمه ويديم بقاه .

ثم هذا لايكون مفهوما لكل أحد بل أكثر الناس لايعلمون هذا الإفتقار الذاتي لهم ، فرحم الله عباده بورود الأسباب المناقضة لماهم عليه من الوجود ليرجعوا إليه في كشف مانزل بهم ، وإيصال ماهم إليه محتاجون ، فذكرهم ذلك وصفهم الذي هو لهم بحكم الأصالة فيكونون في جميع أوقاتهم وتغاير أحوالهم شاهدون وصفهم من الإفتقار والإضطرار ، ومستمدين من الله فضله شاهدين لما هو عليه من صفات الكمال ، فيقومون لله بحق عبوديته ويعرفون له سر ربوبيته ، فلاينازعونه في صفاته ولايدعون نعوت كماله ، فكلما ورد عليهم بسبب تناقض ماهم عليه من وجود الغنى ردهم إليه بقهره ، فكان القهر يرد إلى الله خلقه بالطوع والخضوع ودوام الخشوع ، لأن النفس من شأنها إدعاء الأوصاف الربانية ؛ فرحم الله نفوس المؤمنين فلم يتركها وماهي عليه من الإستطالة ، فأظهر لها سر قهره فأجابته خاضعة لسلطان جلاله ، معترفة بواحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله ، معترفة بافتقارها ومقرة بعجزها واحتقارها . فإيراد الأسباب لهذه الحكمة ظاهرة ، ولو تركها وماهي عليه من دوام مساعداتها في أغراضها ، وأنهماكها في حظوظها لبقت على دعواها ووخيم مرعاها ساذجة ، فأخذها بقهره الذي لايطاق ، وبطشه الذي لايغلب ، ولايفلت عنه من أوثق ، ولايتخلص منه من فيه علق كما يفعل بأعدائه ؛ فيما يروى عن أشد الناس عتوا وأكثرهم على الجناب الإلهي تكبرا وتجبرا تركهم وماهم فيه ، فلم يزعجهم بما يعرفهم وجود افتقارهم ويوقفهم على وصف اضطرارهم ، بل تركهم يتقلبون

في العوافي ، وساق إليهم من الدنيا ماينسيهم الرجوع إليه والوقوف بين يديه حتى إذا انقضى أمرهم وانتها عددهم فسلط عليهم من سر القهر مالايقدرون على دفعه ، ولم يتفرغوا إلى معرفة من أورده عليهم وسلطه ، بل أخذ على القلوب أن تفقه ، والألسن أن تنطق ، والأعين أن تبصر ، والأذان أن تسمع . فوردوا الآخرة بهذا الوصف صم بكم عمي . فانظر إلى حكمة الله في إيراد الأسباب على العباد أنها لهم نعمة ، ووجودها لديهم رحمة لهم ولكن الخلق في وجودها يتفاوتون بتفاوت أحوالهم ؛ فمنهم من يتلقاها بالرضى والفرح ورؤية المنة لله فيها كما يرى غيره ذلك في الملائمات ، ومنهم من يتلقاها بالصبر والتحمل لله ، ومنهم من يتلقاها بالتبرم والتضجر ؛ فللأول الرضا وللثاني العطاء وللثالث نفوذ القضاء . ولكن إذا نظرت في فاقتك الذاتية علمت أن الأسباب العرضية لاتدفعها فلاتستغني وإن أعطاك ووقاك ، فلايفارقك وصفك ولايزايلك نعتك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولكن قد يفيض على وجودك فائضات الإمتنان فيغمرك وجود الإحسان فتضمحل أوصافك وتبقى هذه الملابس الإحسانية والخلع الإمتنانية ، فلاتكاد تظهر أوصافك إلا بالعلم بها ؛ وذلك في العالم الأخراوي حتى يلبسهم ملابس فضله وامتنانه ، في محل رضوانه وتجلي إحسانه في دار جنانه . ولي في ذلك شعرا :

الفــــقر للعبد ذاتي وإن بلغت ... منه العطايا إلى أقصى نهايتها
قد يورد أسباب تؤلم من تلم به ... لكن بها يعرف الإنسان غايتها
وترجعـــه لاصل فاقته وحاجته ... ويذكر أوصاف في ذاته بدايتها

فإذا علمت أن خير أوقاتك وقت تعرف فيه مقام عبوديتك لسيدك ، وتشهد فيه كمال ربوبيته ، سلط عليك من الأسباب مايثير ذلك من الأوصاف القهرية ليقيمك في خير مقاماتك ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وترد فيه إلى وجود ذلتك)

خيرأوقات العبد مثوله بين يدي سيده ، ممتليا بمحبته ، مبتهجا بقربه ، راض عنه في قضائه ، ساكنا خاضعا تحت جريان أحكامه ، منطرحا في أرض عبوديته ، يرى الخير فيما يختاره له لافيما يختار هو لنفسه ، خارجا عن حوله وقوته ، واثقا بحول الله وقوته . فهذا وماشاكله من كل مايكون خارجا عن ملائمة طبعه ومقتضى هواه ، ومباينا لمراده من مطلوباته النفسانية وشهواته الحيوانية ، واثقا بربه معتمدا عليه ، وناظرا إليه ، ومستكينا بين يديه . فهذه أعياده ومواسمه وغاية رغبته فيما يعامل به ربه من نفسه ، فلا أحسن من حالة العبد إذا كان فرحه بقرب سيده ، والدخول في غمار أهل حضرته الأدباء ؛ وخاصته الأمناء . فخير أوقاتهم أوقات الضرورات لأنها تخرجهم عن الإعتماد على الأغيار ، وتباين لهم الأسباب الحاجبة لهم عن شهود مليكهم . فمتى زالت عنهم ووقعوا في ضرورة الإلتجاء إلى الجناب الإلهي ، وصمدت بهم الفاقات وملمات الحاجات إلى من يصمد في الحوائج إلا إليه ، ولايطلب المواهب إلا منه ؛ فأي وقت أحسن من هذا وقد أوقفهم مع الله وردهم من بعد الأسباب الغيرية والأوهام العدمية إلى اليقين والتحقق بمقامات القرب والتمكين .

وكان السلف الصالح يشكرون الله على الفاقات وإلمام الحاجات والضرورات ، كما يشكر غيرهم على الظفر بنيل الحاجات وقضاء الأوطار ودفع المهمات ، حتى أنهم يقومون لله بحق الشكر في ذلك ، ويرون أنه مايفعل ذلك بهم إلا لعنايته بهم وحسن تربيته لهم ، ويرون ضد ذلك من قل الحظ عنده إلا على الندور ، لأنه مسلك خواص أنبيائه وخيرة أصفيائه ـ يسلك بهم مسلك الإضطرار إليه ، ووقوف الحاجات عليه . حتى أن بعضهم يقبضه وحاجته تتلجلج في صدره لم تقض له في الدنيا ، وعد ذلك من خير عباده لوقوفه بين يديه ، واعتماده في ذلك عليه ، ورضاه بعلمه به ونظره إليه . ولي في ذلك شعرا :

فخير أوقات سلاك الطريق إلى جنابه العالي السامي ذوي الهمم

إن يشهدوا فيـه فاقتهم وذلتهم لديه ذلة محـــــتاج إلى الكرم

فنازل بجــــناب الله حاجته لم يخش هم ومكـــروه من الألم

ولم ينفر عنك الخلق ويعسر عليك الأسباب إلا وهو يريد أن يصافيك ويستخلصك من يديها ، ويعتقك من رقها ، ويطلقك من وثاقها ، فتكون عبده صدقا ، وطالبه حقا . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به)

الوحشة هي إنقباض القلب يوجد عند مواجهة مباين ؛ أما في الحس وأما في المعنى ، وإذا أوحشك من الأغيار فذلك دليل على مباينة من الأغيار ، ورفع الحجب عنه والأستار ، وقد نزلت منازل الأخيار في حضائر القرب والأنس ، وتبوأت فسيح القدس ومنيع التمتع بالوصال وباينت الإنفصال ، وترقيت أعالي المقامات وسنيات الأحوال . فلاجرم أن

تستوحش من الأغيار ، وتهرب من التعثر في كثائف الآثار ، وله علامة في النفس وفي الخلق وسائر الأسباب . فمن علامات الأنس بالله الإنقطاع إليه ، والتعلق في جميع الأحوال به ، والتوله بذكره والهرب من النفس ودواعيها ، وعدم الإعتماد على الأشياء وسقوطها عن القلب بالكلية ، فلايلتفت إلى محبوبها ولايخاف من مكروهها ، بل هي عنده في عين عدمها لن تخرج عنه ولم تبرز منه ، فيرى أسباب متحركات بتحريك أقضية قدريات تحت أستار غيبيات بيد قادر مريد لجميع المقضيات ، ويرى الأسرار تحت أستار عدميات بها من حجب ، وعبدها من عبد وعرفها من عرف ، فيستأنس بالوجود الظاهر الذي باشر قلبه ، ويستوحش من العدم الذي باينه ولم يجتمع معه ، إذ الوجود مباين العدم والنور ينافر الظلم . والخلق كل موجود غير الله سواء كان من الصور الحسية أومن العجائب الغيبية ، فلاتسكن قلوب المشتاقين إلى غيره . ومن لم تطمئن نفوس المحبين إلى سواه كائن ماكان ذلك الغير والسوى .

والأنس مقام من مقامات الوصال ، وحال عال من سنيات الأحوال ، فمن حاله أن لايوحشه شئ وأن يستأنس بوجوده كل شئ حتى الجماد وسائر الحيوانات فلاتنفر منه البهائم والطيور الوحشية بل تستأنس به وتسكن إليه .

وكان بعض سادتنا العلوية رضي الله عنهم يقول : بلغت من الأنس أن لووضعت المنشار على مفرقي وانشق نصفين فلم أحس بذلك ، ولو القيت في النار لم أجد لذلك ألما . والحكايات في مقام الأنس أكثر من أن تحصر . وكان يروى عن الجنيد رضي الله عنه أنه قال : كنت أسمع من السري

كلاما في هذا المعنى ، وكان في باطني شيئا حتى بلغت ذلك ، فوجدت الأمر على ماذكر أني لوضع المنشار على مفرقي ماحسست به أوماهذا معناه . ولي في ذلك شعرا :

الأنس بالله حال مـــايقاس به   حال ولم يعـــتري صاحبه تغيير

يستوحش الخلق سر لايقال به   إلا لمن بان عن شاهده تصويري

هذه رمـــوز خفيات يشار بها   إلى معـــــان بلا كيف وتقدير

إذا استغنى الإنسان عن الله بوجود الأعيان صمت عن إطلاق اللسان عن الطلب ، وإذا أطلق اللسان وأيقظ الجنان واستعمل الأركان فليعلم العبد أن ذلك دليل على فتح باب العطاء وإقبال عليه بوجه الرضا ، كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك)

متى أطلق لسانك وحل قيد جنانك وحرك في خدمته أركانك ، وجعل لك الهمة مطية سفرك ، والصدق في الطلب حالتك ؛ فاعلم أنه لم يبعث ذلك فيك ولم يحرك به عزمتك إلا وهو يريد أن يعطيك ، ومافتح لك باب السلوك إليه إلا وهو يريد أن يواليك ، ولا ألهمك تصفية أحوالك وسائر أفعالك إلا وهو يريد أن يصافيك . وإطلاق اللسان بالتضرع إليه والثناء بجميل أوصافه من علامة توجه الإرادة إلى العبد بنيل مطلوبه وإسعاف مرغوبه ، فمتى وجد العبد ذلك فليعلم يقينا أنه قد توجهه إليه العطايا الإلهية ، والمنوح الربانية ، علم ذلك أولم يعلم لذلك ، قال الصديق رضي الله عنه :

لو لم تردني لما أرجو وأطلبه   من نيل فضلك ماعلمتني الطلبا

أوكمال قال . والطلب بصدق النية من أشرف أخلاق العبودية وأجل مقامات القرب إذ لم يلهمه إلامن توجهت إليه العناية ، واللسان يطلقها في ميدان الدعاء باعث قلبي تترجم عنه بما هو عليه من الإلتجاء وصدق الرغبة إلى الله فيما عنده من الفضل ، والهرب إليه من سطوات العدل ، ويعقلها عقله القلب عن ذلك ، واستغناؤه بالأسباب والركون إلى مايظن أنه به مستغن ، وإلى مايظن أنه يدفع عنه فتعتقل اللسان ويخرس الجنان ، ويعمي الروح وتلهو النفس وتتعطل الأركان ، وتظهر منه الجرائم والطغيان ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى** ﴾ [الآيات ٦-٧ العلق] وبوجود ماينقاض ذلك من ورود الفاقة ونزول الحاجة ينبعث بلا شك في الدعاء ويرغب في الطلب ، وذلك علامة عناية الله بعباده ، وإرادة إيصال فضله وعطاياه إليهم ، وتوالي إحسانه وامتنانه لديهم . فالحمد لله رب العالمين ، فما ألطف الله بعباده أن يحسن إليهم ويتقرب منهم فيما تنفر عنه طباعهم ، وتأباه نفوسهم من ممرات القضاء ، وورود ماينقاض أعراضهم وذلك من أتحف مامنحهم ، وأعظم ماخولهم . ولي في ذلك شعرا :

أورد عليك صـروف الضر والألم ... كيما تكون به من جمـــــلة الخدم
واطلق لسانك لنيل الفضل والكرم ... سبحان ذي الحكمة المنان بالنـعم
من ظن شيئا سوى هذا فلا جرم ... أن يبرمه كلما وافـــــا من الألم

فإذا علم العبد دوام افتقاره إلى الله ، وأنه لاغنى له عنه لفتة ناظر ولافلتة خاطر ، ولايصدر هذا الشهود إلا عن صاحب وجود مستغرقا في حضرة المشهود وهؤلاء الحكماء العارفون ، وأما الجهال المغرورون فلا يتأتى لهم

ذلك ، ولايصدر عنهم إلاما وصفهم الله به حيث قال جل ذكره ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذوا دعاء عريض** ﴾ [الآية ٥١ فصلت] إذا تحقق أن العارف يشهد قيوميته إياه على ممر أنفاسه ومختلفات أحواله فلا غرو أن يقال :

(العارف لايزول إضطراره ، ولايكون مع غيرالله تعالى قراره)

العارف هو من عرف الله وعرف حكمته في أقضيته ، وتحقق بأوصافه وأسمائه ، فأعطى كل مشهد حقه ، وأوفا كل إسم مستحقه . وهو مع ذلك فان عن ذاته بوحدانية الله ، وعن صفه بفردانيته ، وعن فعله بقدرته ومشيئته . لذلك يكون محوا عن ذاته ووصفه وفعله أزلا ووجودا وأبدا من كونيته وغيريته وجودا من حيث وجود موجده ، لذلك لايزول اضطراره في وجوده أزلا ووجودا وأبدا ، ولايكون مع غير الله تعالى على قراره انعدام الأغيار ، وانطماس ظلم الآثار بظهور تجلي الواحد القهار ، فأين تكون معية الأغيار ولاوجود لها ، وأين القرار إليها والعدم حاكم عليها ، فأتى بهذه الحكمة مبينة لما تقدم في الحكمتين قبلها ، لأن الوحشة من العدم وعدم القرار لازم ؛ كذلك الطلب دائم لوجود دوام الإفتقار ، فهؤلاء نعمتين من نعوت العارفين ، وصفتين من صفات الموحدين ، فيعرفون نفوسهم بافتقارها لإدامة وجوده ، واضطرارها إلى إمداده في حركاتها وسكونها . فمن عرف نفسه بدوام الإضطرار ووجود الإفتقار عرف ربه باختراع الإيجاد وتوالي الإمداد . فلايزال مفتقرا ، ولايبرح مضطرا . فهكذا حكم العارف .

وأما عامة الخلق وهم العبيد ؛ عبيد التعديد فهم محبوسون في مضيق الحس الغالب عليهم كونهم مع ماوافق محسوسهم ولايم نفوسهم ، فإذا وجدوا ذلك أعرضوا عن الله . وإن اضطروا إليه رجعوا بالصراخ والعويل والإستشفاع إليه بالأسباب والوسائل ، فهم أبدا محجوبين في كلا الحالين . بخلاف العارفين فهم مضطرين إليه أبدا سرمدا ، أغنياء عمن سواه ، لايرجعون في مهامهم إلى غيره ، ولاينزلون حوائجهم بسواه . ولي في ذلك شعرا :

فلايزال اضطرار العـــــارفين وإن ... نـالوا من الحظ مايقضي به الوطر

فلاتقـــــــــربهم من دونه ارب ... ولايروق لهم في غـــــــيره نظر

قد باينوا كل مألوف كذاك فإن الـ ... ـمرء يفرق بين العين والأثـــــــر

فلاتزايل ذوي العرفان حاجـــتهم ... يروى عن العارفين السادة الغــرر

ومن علامة العارف وبعض مشاهده أن يكون مع الله باطنا وظاهرا ، فيرى جميع القوى الظاهرة آثار نور الإسم الظاهر ، والقوى الباطنة آثار الإسم الباطن . ومن لم يتحقق ذلك لم تصح معرفته ؛ فلم يعرف نفسه ولم يشهد ربه . فأرشد المؤلف إلى أنه لم يتحقق بالإضطرار مالم يعرف ذلك ، فيتحقق بلاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم الذي هو كنز من كنوز العرش فقال :

(أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وأنار السرائر بأنوار أوصافه)

إنارة الظواهر المحسوسات الخلقيات بأنوار آثاره ؛ أي أفعاله ، وهو كلما توجهت إليه القدرة والإرادة والعلم ، فكل مقدور مراد معلوم فهو أثر بمؤثر فيه ، وكل مؤثر فيه فهو حادث بمحدث . وماصح حدوثه جاز عدمه ،

وكل ماسوى الله فهو محدث بإحداثه وموجود بإيجاده . فالوجود كله أثر لمؤثره ومدبر تحت حكم مدبره ، ومصرف بتصريف مصرفه . فالفناء والإنعدام متطرق إليه ، وأوصاف الله قديمة بقدمه باقية ببقائه ، واجبة بوجوبه . وأنوار الظواهر هو وجودها .

وقد علمت أنها من أنوار الآثار ، وموسومة بسمة الأغيار . وأنوار السرائر من نور الأوصاف الأزلية لذلك لم يتطرق إليها تغير ، ولايتوجه إليها الإنعدام بل هي أزلية سرمدية الدوام . وأنوار الظواهر هي الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والذوق والحس ، وتعلقها بالظواهر ومايتعلق بها فلاتتعلق بالأمور الغيبية والصفات العلية ، وإنما هي قاصرات عن إدراك الأمور الخلقية حسا ومعنى ، وأنوار السرائر هي من أنوار الصفات فتعلقها بها وهي باقية لافناء لها ، ولازوال ولاغيبة ولاارتحال ، بل هي دائمة بدوام ما هي متعلقة به وموجودة منه وهو الوصف الإلهي ، فالسرائر هي اللطائف الإنسانية كالقلب والروح والسر وإنارتها بما أفاضه عليها من نور ذاته وصفاته وأسمائه ، فالسر بالإستغراق ، والروح بالشهود والإستبصار ، والقلب بإفاضات العلوم ولطائف الفهوم ، والظواهر إنما تتعلق بالتدبيرات الكونية والإدراكات الحسية الخلقية ، لذلك تطرق إليه بزوال متعلقها وغيبته ، لذلك أي لأجل أن تعلق أنوار الظواهر بالأعيان الظاهرة المحسوسة المحكوم عليها بالفناء والزوال ؛ أفلت الأنوار الظاهرة وغابت شموسها لتبدل أرضها وانكشاط سماها ، ولم تأفل الأنوار السرية والمشاهد الحقية لثبوت مشهدها ودوام حقيقتها . ثم أنشد المؤلف لنفسه رضي الله عنه مشيرا إلى هذا المعنى ومؤيدا لهذا المبنى فقال شعرا :

طلعت شمس من أحب بليـل فاستضاء ت فمالها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليــــ ـل وشمس القلوب ليس تغيب

وذلك أن شمس النهار من أنوار الظواهر فتطرق إليها الغيبوبة والأفول لأنها من جملة الأنوار الظاهرة ، فغيرها كذلك من سائر الأنوار الظاهرة . لذلك قال الخليل صلى الله عليه وسلم ﴿ **لا أحب الآفلين** ﴾ [الآية ٧٦ الأنعام] وكل ماكان من الأنوار المحسوسات والصور الخلقيات فلا بد من أفوله كائنا ماكان ، فلاينبغي أن تقصر عليه المحبة لأنها تزول بزواله ، وتذهب بفنائه ، وشمس القلوب وهي المعارف والعلوم والأسرار اللدنية والإلقاءات الوحيية ليس تغيب لأنها أنوار أزلية وأسرار حقية ، وواردات ربانية ، ولطائف سرية ، ونفحات وقتية ، ومواهب إمتنانية ، وعطيات رحمانية ، وملابس قدسية ، ومشاهدات وصفية . فأين تغيب هذه ؛ بل هي مستمرة باستمرار ماعنه صدرت وبه تعلقت .

فعلى المريد الصادق الأديب الموافق أن يكون كل همه التعلق بهذه الشموس التي لاتأفل ولاتغيب ، وكل طلبه لذلك عسى أن يكون له نصيب مما هنالك ، ولايشتغل بالأنوار الآفلة والحظوظ العاجلة . فالإنسان من حيث شرفه وعلومقامه بالأنوار الباقية والحقائق الدائمة ، والمشاهدات الصافية ، والعلوم الوافية لابالجسم الفاني ومتعلقاته ودنيات حظوظه ورذائل شهواته ودنيات مطالبه ومآربه الفانية المتوهمة التي لا حقيقة لها ، ولاطائل ولاجدوى ولانائل . ولي في ذلك شعرا :

إن كنت تخطب نعيما لابقاء لـه فليس ما أنت مهـــــــتم به طلبا
الجسم فـان وإن جلت مكانته فعن قـــريب تزول العين والسببا

فمطلب الروح أولى ان يقام له بغاية الجهـــــد والتشمير والطلبا
إن كنت إنسان فاعلم ماتراد له فأنت بالــروح معروف لك النسبا
فكن بشانه حريصا كي تكون له حيا لتجتمع الأحباب والقـــــربا
فكل ماكنت من معنى تحاولـه فاعلم بأنك بــــذاك السر مختطبا
كما تمكنت فاطلب وسع بالــته من قبل يفـــترق الآلات والنسبا

فإذا كان حالة العبد النظر في الأوصاف العلية ، وكان الغالب على قلبه التعلق بها كان كلما يصدر عنها له بغية ولديه منية ، وإن كان الغالب عليه شهود الأنوار الآفلة والحظوظ العاجلة كان بالعكس من ذلك . فخاطب المؤلف من كان الغالب على قلبه التعلق بالأنوار الأزلية والصفات العلية فقال :

(ليخفف ألم البلاء عنك ؛ علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك ، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الإختيار)

ليخففن ويحملن عنك أيها المؤمن بأن كل مايصدر في الوجود من الأحكام صادرة عن مشيئته ومعلومة له ومخترعة بقدرته ، وكنت محبا لمن هذه الأوصاف أوصافه وراضيا به ربا وحاكما وقاضيا ، فلا جرم أن يخفف عنك الألم ويكون تألمك باعتراضك على محبوبك ، وعدم محبتك لما أحب ألم أشد مما ابتليت به ، لأنماابتليت به سينقضي وينتهي ، واعتراضك عليه ألم دائم ولوم لازم ، يلزم صاحبه في الدار الآخرة عار .

فإذا علم ذلك خفف عنه لامحالة مايجده ، فلا يتألم إلا الجسم والقلب ساكن ، بل قد إذا غلبه الحب يلتذ ، وإذا التذ القلب فلاعبرة بما يوجد في الجسم . فإذا سرت محرقات البلايا من الجسم إلى القلب ؛ فإذا كان راضيا

سليما سكنت تلك الحرارات ولانت خشونة الطاعات ، وانعكست على الجسم لينها وبرودتها ، فيستريح لذلك وإن كان الألم باقيا فلاتستبعد ذلك . فلقد تلذذ بالبلاء مالايحصون من الصفوة الصوفية الذين باشر قلوبهم صرف اليقين ، وتحققوا بحقائق القرب والتمكين وإذا كان الأمر بالضد من ذلك . فإذا سرت البلية بحرارات وهجها إلى القلب ووجدته ممتليا بالحزن لذلك والتبرم مما هنالك والسخط ؛ تضاعف ألمها وانتشرت على الجسم إحتراقاتها ، فهذا من كان ممتليا بالشهوات ومكبلا في قيود العادات ، قد ضربت على قلبه كثائف الظلمات الحاجبة عن التعلق بالأنوار القدسيات ، والمشاهد الروحيات والألوان انكشفت عن قلوبهم هذه الأغطية الكونيات والحجب الظلمات . فتعلقت قلوبهم بالأوصاف العلا ، وتقدست أسماءهم بالإمتلاء بشهود المولى ، فلاتغيرهم العوارض ولاتزلزل مواجيدهم عواصف القضاء ، بل يكونون محفوظين عند ورود القضاء ، موصوفون بالرضاء وإن تعاقبت على ظواهرهم التغييرات فالقلوب باقية على ماهي عليه ، فلايختلجهم زيغ ولايمتريهم ريب ، بل تخرج أرواحهم وهي مشتاقة وإلى ماهي متعلقة به تواقة . فانظر بما يمنح الله عباده من صفوة وداده . فالحمد لله رب العالمين ، ولاعدوان إلا على الظالمين . فالذي واجهتك منه الأقدار المناقضة لمرادك هو الذي عودك حسن الإختيار ، فلا يكون ظنك به سبحانه إلا أن الخيرة في ذلك المختار كما عودك .

فالعبد قد يكون الإختيار له غالبا فيما يناقض مراده ويخالف هواه وذلك ظاهر ، لأن المصائب الدنياوية مناقضة لمراد الإنسان وهي خير له في العقبى بلا شك ولامرية في ذلك . لأن الإنسان إذا أمعن النظر وحقق

واستبصر رأى كل محبوب عنده مصيبة ، وكلما كان أشد حبا كانت المصيبة عنده أعظم . فكل مصيبة تصيبه في دنياه فهو عندها : أما ذو فرحة لما يحتسبه عندالله من عظيم الأجر بوعده الصادق على ذلك ، وأما متخلص من وبيل تفجعه كل حين بتوقع المصيبة بها . ولي في ذلك شعرا :

يخفف آلام مايـــنزل بذي الألم علمه بأن الإله الحق مخــــتار
فذا الذي أنزل المقدور واحتكم هو الذي أورد أسرار وأنـــوار
ليحملن مـــــرير الضر والسقم حسن انتظار لفضل منه مدرار

وإذا كان للعبد بصيرة وصفو سريرة حمل عنه مايشهده من لطف الله في قضاياه ، فلا قضية ينفك عنها اللطف ، واللطف هو وجود الحق في ذلك الوارد أما بطريق الجلال إن كان مما يلائم البشر ، وأما بطريق الجمال والعطف والإحسان إن كان ، فكل من نظر بذلك النظر واستبصر بذلك المعتبر علم ما أشار إليه المصنف رحمه الله بقوله هنا رضي الله عنه :

(من ظن انفكاك لطفه عن قدره ، فذلك لقصور نظره)

من ظن وحكم ظنه بأن اللطف لم يقترن بالمقدور وينفك عنه فذلك الظن الفاسد صادر عن قصور النظر على ماهو الحالة الراهنة في الوقت دون أن يرمق عواقب الأمور ، أو يمعن النظر فيما قارنه من المصالح ، ودفع ماهو أعظم منه ضررا وأكثر خطرا ، ولم يعطى النظر في العواقب وخفيات الألطاف إلا ثواقب أنوار اليقين . وإذا كان قاصر النظر عن ذلك فاستدل به على ضعف يقينه بقدر مايفوته من شهوده في المقدورات من الألطاف . فلذلك لما كمل يقين الأنبياء وأكابر الصديقين وخواص المقربين الأصفياء ، استلانوا البلايا ورأوها من جملة الفضائل والعطايا ، كما قال

صلى الله عليه وسلم " **نحن معاشر الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل** " فمن البلاء ماهو في العرض والبدن ، ومنها مايكون في المال والأهل والولد ، فإذا تتبعت أحوال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لقيتهم أعظم الناس إبتلاء وأشد مصايبا ، وأكثرهم على ذلك صبرا وأجملهم تجلدا وتحملا . فمن العرض ما رأيت ماينسبونهم إليه من الجنون والسحر والتكذيب والتسفيه والسخرية ، وغيرذلك من أنواع القلب . وفي المال مايروى أن منهم بل أكملهم وأعظمهم عصب الحجر على بطنه ، ومات ودرعه رهين ؟ ويقال : أن سبعين نبيا ماتوا في السجود من الجوع ، ومنهم من قتله القمل ، والولد أما ترى أولاد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كلهم قبضوا في حياته ولم يقل إلا خيرا . ولم يحملهم على تحمل ذلك إلا وفور اليقين والثبوت في مكان التمكين ورؤية ما أودع الله فيها من خفايا الألطاف .

وأما أحوال الصحابة والتابعين فأكثر من أن تحصر وأظهر من أن تشهر مع ماهم عليه من الصبر الجميل الذي يراهم من لايعرف مانزل بهم في زي من ترد عليه صنوف النعم ؛ من أنعم عليه بالمنة أودع منها من الطاقة مايستحقر إلى جنبها كل نعمة ، فكانوا لايحبون زوال مانزل بهم من البلاء ، كما لايحب من نزل بها الرخاء زواله عنه ولاتحويل منه ، وماصير البلاء عندهم بمنزلة الرخاء عند غيرهم مايرد على قلوبهم من الألطاف ، ومايباشرها من روح اليقين وما أمرها عند غيرهم إلا قصور النظر عن ذلك ، وخلو القلب مما هنالك ، فاللطف المقارن للبلايا أما أن يكون من طريق الايمان والعلم ، وأما أن يكون من طريق اليقين والكشف . فالأول أما أن يكون فيما وعد الله الصابرين من الجزاء وما أعد لهم من المثوبة

والمدحة على ذلك ، أوما يدفعه عنهم مما هو أعظم مما هو فيه . فعند إرسال النظر في ذلك الميدان يعلم ما لله عليه فيه من المنة واللطف الذي لايوازيه عمله ولايبلغه مطمعه إلا بذلك الإبتلاء ، فيتحمل ويصبر بل يشكر الله فيه عليه من عظيم الأجر وخفي اللطف ، فهذا وماشاكله من حسن النظر من نتائج العلم والإيمان . وأما ماكان من طريق اليقين والكشف فهو مايتعرف الله به إلى قلوب أوليائه من خفيات آلائه ، ومايمنح به أسرارهم من لطيف ولائه ، فيكشف لهم خزائن القرب والعطاء فيخيرهم مايختارون ، فيرون دنوه في حالة اضطرارهم وعندية إنكسارهم ، فيختارون ذلك إختيارا ، وقد حمل عنهم أثقالماينزل بهم من البلايا مايرد على قلوبهم من المنح والعطايا ، فيتلذذون بذلك ويفرحون به فرح غيرهم بالنعم الظاهرة بل أعظم ، لأن هذه نعم دائمة ولاانقطاع لها ولانفاد . والنعم الظاهرة نافذة منقطعة ، فأين مابين النعمتين ؟وفرق مابين المنتين ! ولاتظن أن ثواب المتحملين وأجر الصابرين يفوت هذه الفرقة ، بل أعظم المثوبات مع مانالوا من التعرفات وأنواع القربات . وأعظم مثوبة وأكرم بها من تحفة أن الحق سبحانه ينازل قلوبهم بلذيذ الخطاب وشهي الجواب ، ويكرمهم ويبجلهم بين أهل حضرته ، ويباهي بهم أهل مملكته . فانظر مافي واردات الأقدار من الألطاف ونيل الإسعاف . فأهل العلم والإيمان يتذكرون ما أصيب به ذووا المقامات العلية ومانزل بهم ومايصدر عنهم عند ذلك ، فلايرون منهم إلا صبرا جميلا ، فيكون عزاء على ما أصابهم ، وجبرا لما ألم قلوبهم ، فهم أبدا يتتبعون الآثار ويتحسسون الأخبار من نبي أوولي أوصديق أوشهيد ، فتكون لهم أسوة وبهم عبرة ، فلاشك عند

وقوفهم على أخبارهم . وبيان آثارهم في ذلك يورثهم التحمل والصبر ، وأهل اليقين والشهود يكون مشهدهم على وصف سيدهم وحسن اختياره لهم ورضاه عنهم ؛ وإيقافهم على فقرهم واضطرارهم وماهو المطلوب منهم بين يدي مليكهم ، فلاشك أن يورثهم الرضاء عنه فيما فعل ، واختيار مااختاره لهم ، فلايكون لهم معه اختيار ، ولم يتحسسوا على الآثار ويحثون على الأخبار لماهم يشاهدون من الأنوار وناظرون من الأسرار وحسن الإختيار لغيبة الآثار بظهور الواحد القهار ﴿ **وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ [الآية ٥٩ النمل] ولي في ذلك شعرا :

اللطف مقرون بالمقدوريعرف ذا   من حقق أن الإله الحق مخــــــتار
فلا تظن انفكاك اللطف في نفس   تشهد بذلك أحاديث وآثـــــــار
وكل قاصر عن هذا فذو نظـــر   عن ظاهـــر الحق مطموس ومختار
إياك تقصر عن تحقيق مشهد من   يشهد بعــــين الهدى مستور أنوار

ومن جملة الألطاف المقترنة بالمؤلمات العافية ما أعظم منها ، وماوعد الله عليها من عظيم الجزاء للمؤمنين ومعرفة ضدها ، فلولا الألم لم تعرف نعمة العافية ، ولولا الموت لم تعرف الحياة ، ولولا النار لم يعرف نعيم الجنة ولم يظهر شرف المطيع والمؤمن على الكافر والعاصي ، فاللطف لم يخل عنه شئ ، ولولا اللطف لم يظهر سر العدل ولاعرف نعيم الفضل . فالميمون من عرف لطفه في سائر أقضيته ولولاالطول ؟؟ فإن كنت لاتصادف من قلبك شهود اللطف في ممرات القضاء وملائماته وجميع الحركات والسكنات في سائر الأوقات ؛ فاعلم أن نظر قلبك قد صدى ، وأظلم عليه غلبة

الهوى ، واستولت على منظره المكدرات النفسانية والحاجبات الشيطانية ؛ والأسباب الدنياوية ورؤية الخلق وامتلاه بما فيه من فسيح العادة ، فاتخذ لنفسك بصيرا تهتدي بهديه ، وتقتدي بحسن أسوته ، وتتهذب بصافيات أحواله ، وتتأدب بصائبات أقواله لتعمل على جلاء بصيريتك وتنوير سريرتك ، ويزاح عنك الهوى وتلبيسه الذي يعمي عن رؤية الحق وأهله ، ومتى عملت على ماذكرنا وانجلا عن عين قلبك صدى الهوى وظلمة الجهل رأيت الطريق قد اتضح ، والباب قد انفتح . لذا قال المؤلف رضي الله عنه :

(لايخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك)

لايخاف عليك أيها السالك لطريق الحق ، والطالب منهج الهدى أن تلتبس وتشتبه عليك الطرق لوضوح الحق وبيان الهدى ، لأن الله سبحانه أنزل كتبه وأرسل رسله مبينين ومبشرين ومنذرين ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [الآية ١٦٥ النساء] وقال تعالى ﴿ **لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ [الآيات ١٥-١٦ المائدة] وما ضل من ضل وغوي من غوي إلا باتباع الهوى وغلبة الغفلة والجهل ، فرحم الله ابن الفارض حيث قال :

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنما الأهواء عمت فأعمت

والطرق هي ما أنزل الله من الهدى والبينات ، فكل إنسان من لدن آدم إلى آخر الخلق يجد فيه طريق موصل إلى الله إذا تمسك به أوصله وهداه سبل السلام .

ومن هنا قيل على التحقيق عن أهل الحق : أن القرآن كله ثابت لايطلق عليه النسخ ، لأنهم لم تنزل قطرة من ماء التنزيل إلا وجدت من أرض القلوب لها موضعا حال نزولها . وجميع أصناف الخلق كلا منهم على محجة منه أما لهم وأما عليهم ، فكل كلمة منه وكل آية وكل سورة لها في الخلق كلمة وآية وصورة ، وكل حرف له طرف ، ومجموع القرآن بكماله يخاطب كل إنسان على حدته بجميع أوامره ونواهيه ومواعظه وعجائبه وقصصه ، فيجد جميعه متوجه إليه بالخطاب ، وملاحظه بالمراقبة في جميع الحركات والسكنات ﴿ **وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ [الآية ١٩ الأنعام] فافهم هديت . وما أعمي من عمي عن ذلك إلا غلبة الهوى والإعراض عن ذكر المولى وتحكيم الجهل ، ونبذ العلم واستحسان العادات واتباع الشهوات ، ونسيان الرجوع إلى الله وطول الأمل ، وتسويف العمل ، والوقوع في الهفوات وكثرة التخليط والزلل . ولو انكشف عن القلوب غمرة أهوائها وظلمة شهواتها لرأيت الحق ظاهر لاخفاء عليه ، والباطل باطلا لامرية فيه . اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه . ولي في ذلك شعرا :

فلا يخاف التباس الحـــق ذا نظر   صاف عن الران سالم عن هوى خطل

إن شئت أن تهتدي سبل السلام فلا   تسلك طريق ذوي التخليط والزلل

واجعل أمامك خيرا تستفيد بـه   علما وحالا وهذا غاية الأمـــــل

وما أعز فتى في ذا الزمان لـــــه إلى العـــــــلا همة تأبا عن الكسل
ياطالبا من رغيد العيش أحسـنه اتبع رجالا سموا عن نفـــــلة الأمل
ثم لما كان الهوى من مقتضى البشر وهو مضاد ظهوره لظهور الحق ، علمنا أن الله سبحانه ببديع حكمته وسابق كلمته ستر الحق بظهوره ، وقد علمت أن ماسوى الحق باطل عدم فكيف يستر الحق ، فعلمنا أن ذلك تجلي سر قهره وغلبة أمره ، لذلك قال المؤلف متعجبا لذلك ومنزها أن يستره العدم أويدخل تحت غلبة ظهور الباطل ، فتحقق أن الباطل لم يستر الحق وإنما ستر الحق بالحق ، وإنما حجب الباطل بالباطل ؛ لذلك صدر هذه الحكمة بالتسبيح فقال :

(سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية)

التسبيح هو لتنزيه الحق سبحانه عن أن يتصف بوصف يناقض الكمال ، أويحول في ماهيته المثال ، أويحده بالحدود ، أوتحويه أكناف الوجود ، أويخلى عنه موجود ؟ والستر هو الصون والحفظ ، لامن القهر والإحاطة هنا ، وسر الخصوصية هو ما أودعه الله من سر توحيده أسرار خواص عبيده ، فكانوا بذلك الإختصاص عرفاء أدباء ، وأفادهم كل حال سني رضي ومقام علوي . والإختصاص هو امتنان لافي مقابلة عمل ولاوسيلة ولاعملة ولاحيلة ، بل لطيفة من نور كماله فيها مجموعات تجليات جماله وجلاله ، ومجموع عليات أوصافه ، أهل لها في سابق علمه وباطن أمره قوابل استخرجها من ظلمة العدم ، ثم أودع تلك القوابل وعين تلك الأعيان ذلك السر الإختصاصي والوهب الإمتناني والفيض الرباني والنفس

الرحماني ، ثم غار على سره أن يذاع لمن ليس له أهلا ، فألبس تلك اللطائف بمحيطات كثائف البشرية فافتقرت إلى مقيم يقيمها ، ورب يربيها ، ورزاق يطعمها ويسقيها ، فظهر عظمة الربوبية في ظهور سر العبودية وعظمة الربوبية هي أسماء القهر ، ولو لم يفتقر إليها لم يظهر سلطان تلك الأسماء ، ولاتغيبت مظاهرها ، فسبحانه ما ألطفه في ظهور عظمته ، وما أعظمه في لطيف حكمته ، فهذا سر العبودية ، وكلما كانت أصفا كان الظهور فيها أكمل ، فلايرقى إلى مقامات الكمال ولم يعرج إلى سني الوصال إلا في سلم العبودية ، وسلمها له إلى الكمال طرقان لايتم أحدهم إلا باستصحاب الآخر ، فأحدهما إلى العلو ويسمى قلبا ، والآخر إلى الخمول والذبول والإنكماش والإنطماس ويسمى نفسا ، فكلما نزلت النفس منزلا صفا للقلب منهلا ، وعلى الروح مقاما ، واكتسى السر تجليا . فهكذا فالعبودية بالقلوب وجود التعظيم والإجلال ، والإنطواء تحت محرقات الجلال . والعبودية بالأرواح حسن التأدب والإطراق والحياء وصيانة الجناب الإلهي ، وعبودية الأسرار بالإحتراق بنيران التجلي والذهاب في صفات الحق ، وعبودية النفس بالذلة والإفتقار ودوام الإنكسار والإستغفار ، وصفو الخدمة عن شائبات الإغترار ، وغير ذلك مما لاينقضي بانقضاء الأعمار . ولو ظهر سر الربوبية لانحل نظام العبودية ، فمن هنا لايجوز لما انكشف له إظهاره ؛ بل يصونه ويستره لبقاء هذا النظام والتحام هذا المقام . ولي في ذلك شعرا :

ففي العبودية أسرار ظـــهرت بها ... أسماء الإله وشرع الدين والحكم
فلو ظهر لم يقم ديـن كـذاك ولا ... تغيبت صــــور الأحكام والكلم

سر اختصاصات في الآزال من بها　　على لطائف أعيـان في القـدم

وإذا علمت أن عظمة الربوبية لم يكمل ظهورها ولم يشرق نورها إلا في رفعة العبودية ؛ وهي البقعة المباركة والزيتونة المضيئة ، والخصلة الرضية ، فيكون حينئذ من أقيم فيها وأحسن الإستقامة فيها فقد تكملت لدية المنة ، وعظمت عنده النعمة والعبودية ، كما علمت أماظاهرا أوباطنا . قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتطالب ربك بتأخر مطلبك ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك)

لاتطالب ربك وتأخره في أمر تطلبه منه فلاتستحق عليه حقا ، فالمربوب محكوم عليه والرب يتصرف من غير حجر عليه ولابينة فيما أمره إليه ، فإنه لايسأل عما يفعل لكمال ربوبيته وقهر ألوهيته ، وهم يسألون عن أداء حق ربهم ، وتعظيم جناب الهمم عن أن يشارك في مملكته ، أويعارض في أقضيته ، وليس جناب الربوبية محلا للمطالبة ؛ ومحل المطالبة مقام العبودية وهي النفس ، فمن عكس القضية فهو بالعبودية أجدر ، ومن وبيل النكال أحذر ، حيث طالب من هو مستد الأمر والتقدير لمن هو محل المطالبة بالقيام بحق ذلك المقدور الحكيم والسيد العليم ، فلايخفى ما في ذلك من سوء الأدب وفضيع الجهل من وجوه عديدة . فمن الإعتراض في أحكام الله بما هو ممنوع عنه ، والآخر التخير عليه بمالايعلم فيه بوجوه الخير ، والثالث الإستعجال واتهام الله في وعده ، وذلك هو الظن السوء ، بل حق العبد أن يطلب من الله مع التفويض بما هو الخير عنده والأصلح لديه ، ويكون طلبه عبودية لا لحظ يطلبه ، بل إن نال ذلك المطلوب فقد ظهر به أثر الإجابة ، وحققه بما لايظهر فهو من العلم

المستأثر به دون خلقه ، فليس له أن يطالبه بظهور ما هو مستأثر به ، بل يسكن ويطمئن ويحسن ظنه ولايقطع من فضل الله عزمه ، بل ينتظر على ممر الساعات والأوقات والأنفاس فلها أوقات تظهر فيها آثارها ، فقد تظهر من حيث لايحتسب الداعي أن ذلك من آثار الدعاء ، فالدعاء والمدعو به والداعي بأحكام أزلية مزمومة بيد قادر حكيم ، قد قدر الأوقات والأحوال ومقدار الأمور ، فلاشئ يتعدا وقته ولايتقاعد عنه ، فإذاعلم العبد ذلك فأحسن أحواله مطالبته نفسه بالأدب ، فهو المطلوب منه لهذا الحاكم القادر وهو ربه وسيده ومليكه ، ولي في ذلك شعرا :

فلاتطالب بالمطلـــــوب أن له وقت متى حان أبانه أتى عجـل

وطالب النفس بالحق الذي طلبا منها فذاك مقام العبد في العمل

ثم إذا أقامك الله فيما هو المطلوب منك وذلك بأن يقيم ظاهرك في خدمته وامتثال أوامره ، وباطنك مستسلما لحكمه ومنقاد لمشيئته ، يتلقى مواقع القدر بالرضا والتسليم ، ويقيم نفسه في الأحكام على حد الأمر لايتعداه ، ولايطلب القيام في سواه ، بل يكون غاية مطلبه امتثال لأمر سيده ، فإذا كان كذلك فلا مرية في أنه قد أكمل نعمته عليه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره ، ورزقك في الباطن الإستسلام لقهره ، فقد أعظم المنة عليك)

متى جعلك واستخلصك وثبتك في الظاهر ؛ أي في ظاهرات الأفعال وسنيات الأحوال في الأقوال وسائر الأعمال سواء كانت من قبيل الأمر أواجتناب النهي ، واجبا أومستحبا ، محرما أومكروها ممتثلا لأمره

ومثابرا عليه ، ومجموع الهم وفارغ القلب إليه ، مبادرا إلى ما ندبت إلى فعله ، متباعدا عما نهيت عن الإقدام عليه ، حريصا على اكتساب المحامد والمكارم ، مستصحب السنة في جميع ماتأخذ وتذر . وقوله : جعلك ؛ يشير إلى خلقك وفطرتك وإقامتك ، لأن الجعل بمعنى الخلق ؛ أي اقامك في عام خلقيتك وجبل خلقك وسجيتك ، إذ هو الذي طلب من العباد من غير التفات إلى جزاء على ذلك بل محض تعبد لمن هو أهل لذلك . ورزقك الإستسلام وهو الإنقياد للأحكام باطنا وعدم التعرض في الأقضية القهرية ، بل كما أنفذت بالإسلام ظاهرا الذي هو امتثال الأوامر واجتناب المناهي من غير توقف .

كذلك تكون منقادا للأحكام القهرية باطنا فهو الإسلام الإبراهيمي الذي قال الله لنبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم أسلم قال : أسلمت لرب العالمين ، فافهم أنه لم يكن قبل ورود ذلك الخطاب غير مسلما ظاهرا بل المراد من ذلك الإستسلام للربوبية باطنا ، فوفا بما قال ظاهرا إذ قال ممتثلا حيث أخذ ليطرح في النار : **حسبي الله** ، فهذا امتثالا لأمر ظاهر ، فوفا بمعنى قوله ذلك وهو الإستسلام باطنا لما تلقاه جبريل في الهوى فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فهذا معنى الإستسلام للحكم في حال وروده عليه ، فامتحن ليظهر صدق إسلامه في استسلامه مع ما هو عليه في تلك الساعة من الإحتياج إلى السلامة من التلف ، وأظهر سر إفتقاره إلى الله وعدم إغتناه في وقت اضطراره إليه ، ولم يقطع طمعه في هذا الوقت فقال : وأما إلى الله فبلى ، فامتحن باللطف من ذلك وأخفى سيما في حالة ورود الحكم ، فقال له : سله أن ينجيك ؟ فقال

مفصحا عن تسليمه وانطوائه عن إرداته واختياره ، وانطراحه عن حوله وقوته وصدق لجائه ، وتحقيق شهوده لمعبوده ، ورؤية قربه الذي لايراني واستغراق معيته في معية ربه ، وارتفاع الحجب الغيرية ، وذهاب المظاهر البشرية فقال : **حسبي عن سؤالي علمه بحالي** . فقوله أولا : حسبي الله فناء عن الخلق جملة ، وقوله : حسبي عن سؤالي فناء عن نفسه . فهذا مظهر تحقيق مقام القرب ، ومادون ذلك مقامات في طريق اليقين .

فإذا رزق سرك هذا الشهود وحقق قلبك بهذا الوجود ، وأقام ظاهرك بالقيام بحق المعبود ، فقد أكمل منته عليك ظاهرا وباطنا وأسبغ نعمته عليك ، فلا تطلب بعد ذلك حالا ، ولاتنتظر وراءه عطاء ، فكل من عبده لنيل مأرب أوحصول مطلب فعبادته مشوبة وأحواله محجوبة . فالعبد لاينتظر على خدمته لسيده جزاء بل يرى المنة لسيده حيث جعله لذلك أهلا . وإلا فمن أنت وماقيمة عملك فيما تظن ، وإلا فعملك منة منه متى تودي حق شكرها ؟ ومتى تقوم بواجب حكمها ؟ فما أجدرك بالحياء من الله في حال قيامك بها ، وما أحقك بالإزدياد منها طلبا للقيام بشكرها ، فضلا عن أن تطلب في مقابلة ذلك جزاء أونيل عطاء ، فأعظم بوجودها عطاء ، واستخلاصك لها من بين خلقه جزاء ، ولي في ذلك شعرا :

متى رزقت امتثال الأمر فارض به ... فذاك من أوفر الأقسام والمـــــنن

وأما إذا كنت مستسلم لحكمـــته ... في باطن الأمر سالم من هوى الفتن

فاعلم بأنه أتم إفضال نعمـــــــته ... لديك فاعرف بحق الله في المـــنن

فالتخصيص بالأقسام الظاهرة والأحوال والمقامات في الأفعال والأقوال والنيات أولا ، ثم التخليص عن رؤيتها ثانيا . فالتخلص منها مقام العرفان ، والتخصيص للعباد من الفضل والإمتنان لذلك ، ولايلزم من وجود أحدهما وجود الآخر ؛ فقد يخص بالأقسام الظاهرة من لم يكمل في مقامات العرفان تخلصه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ليس من ثبت تخصيصه كمل تخليصه)

ليس من ثبت في مقام الأعمال واختص منها بمزيد الفضل والإمتنان ، وظهرت عليه آثار العناية هي مايقيم الله فيه عبده من صنوف الطاعات وأنواع الموافقات ، التي هي شأن أرباب العبادات ، وثبتت لديه تكامل في مقام التخليص عن رؤية النفس وما منها ولها ، فالأول حال المريدين وفحول السالكين والتخليص وأكابر الصديقين المقربين ، فلهم التخليص بطريق أولوي حيث كان لهم التخليص ولاعكس ، فالأولون مطالبون بإخلاص الأعمال وتصفية الأحوال عن الشوائب القادحة في صدق العبودية ، والعارفين يطلبون الفناء عن رؤيتهم وشاهدهم ، وذلك لما هم مطالعون من سر التوحيد المفني لمظاهر التعديد ، الموقف على ذروة التفريد ، فشتان بين من يطلب تخليص عمله وبين من يطلب غيبته عن رؤيته وفناء آنيته . فأهل التخليص لهم الكرامات وخوارق العادات ، فبها يفرحون وإليها يسكنون ، ولايؤمن عليهم في سكونهم إليها من الصولة بها والخروج عن حد العبودية ، فيكون من أداة ثبوت التخصيص إلى حد يخرجه عن طور العبودية أقرب إلى المكر إن لم يتداركه بلطفه ويتولاه بعطفه ؛ فيرده عن استطالته ويوقفه على ذلته وفقره واضطراره . وكانوا

لايكترثون بها إغتناء بوجود الحق عنها ، واكتفاء بنظره إليهم دونها فلايستشرفون إليها ، وإن وقعت على أيديهم كفاحا لم يزدادوا بها فرحا ولايوجد منهم مرحا ، بل يكونون عبيد المعبود ، ولايتصرفون مقتا لأنفسهم أن تكون معه مزاحمة وفي أحكامه مشاركة .

وأهل التخصيص الذين أقيموا في الحال وساعدتهم العناية وتصرفت بتصرفهم القدرة لايحكم لهم بالتخلص ، بل حالهم أن لايأمنوا من أن يكون ذلك لهم اختبارا وامتحانا لصدق عبوديتهم ، فهم مع بروزها عنهم غير مأمون عليهم من فتنها والركون إليها . وأماالعارفون وخواص المقربين فلايطلبونها تحديا وإن وقعت على أيديهم فيرونها من جملة مقدورات الله وإن طلبوها في بعض الأحايين فالأمور اقتضت منهم أن يظهروها ، وذلك أما أن تظهر لهم في أنفسهم فذلك أضعف الإرادة والنية فيطلبونها تثبيتا لإرادته وتقوية لنيته ، وأما أن تظهر لهم من غير شعور منهم بل عناية من الله بهذا العبد الذي ظهرت له ولطفا بوليه ، ويكون الحق يظهر بمثاله لهداية عباده ، وهذا يكون للخليفة ومن قرب مقامه من أهل الكمال ، وأما أن يظهرون الكرامة لدفع ضرورة دينية ناجزة عن خصوص الخلق أوعمومهم ، وقليل مايتصرفون بها لما نزل بهم بل يكونون في النوازل الدنياوية كغيرهم بل أعظم تحملا وتجلدا ، ولايلنفتون إلى أن يجمعوا همتهم في رفع ذلك ، بل يفرحون بنزول البلايا الدنياوية ويغتبطون بها ولمن لهم به عناية أيضا من أصحابهم وخواصهم . وأما عن عموم المسلمين فيبذلون وسعهم في إيصال المنافع ودفع المضار عنهم ، فيدخل الواحد منهم خلوته فلايخرج منها إلا وقد شفعه في من اجتمعت همته له ، وإذا أراد الحق ما

أنزله به أما بأن يحجبه عنه أويكشف له عن وجه الصواب له في ذلك . وأكثر الخوارق والعادات تكون لمن خرق من نفسه العادات ، ومن البله الذين تجري عليهم من غير التفات منهم إليها .

وأما العارفون وأكابر الموحدين فقد أكرموا في أنفسهم بما فيه غناهم عن ظهور خارق لعادة ، فالأكوان لهم مهيعا والحضرة لهم منيرة ومتسعا ، والآيات لهم ناطقة ، والبصائر منهم خارقة ، والأنوار عليهم شارقة . فرؤيتهم أكبر الكرامات ، ومحبتهم أعظم المثوبات . فينظرون من وراء أستار الكون أسرار القدر ، تتجلا لهم وتناطقهم بما فيها من الأقدار ، فلا يكون عندهم فرق بينها وبين الأقدار الظاهرة بل يرونها من مظاهر الإسم الباطن ، ويرون ظواهر المقدورات وإحاطة الهوية الحقية قد أحاطت بكلا الإسمين لذلك لايلتفتون إليها لغناهم عنها بهوية الظاهر فيها حيث ماتقلبت الحالات ، وإلا فهي أي الكرامة مرتبة الربانيين وسبيل الروحانيين ، فلا تجهل ولاتستقبل إلا إذا قارنها الركون والإغترار بها ، فعدمها عند خوف ذلك أتم للمريد وأحسن وأكمل ، لأنه إذا لم تظهر عنه يبقى في ذلة إنكساره واضطراره ، لايرى لنفسه قدرا ، ولايشهد لها منزلا ولاخطرا ، وذلك أحمد أحوال المريدين وعمدة طريق السالكين . ولي في ذلك شعرا :

ما كل من ثبت التخصيص يكمل في   تخليص أحواله عن شائب القدر

فالمكرمات من التخصيص تظهر في   من حاله أن لايرى للكون من أثر

فلا تراها ترى في غالبا هـدفي   إلا على البله لايدري بها خــــبر

والعارفون لهم من أعظم الشر في   يحظون به في أعالي المنظر النضر

وأحوالهم في ظهور الكرامات وخوارق العادات خارجة عن الحصر ، وكل على حسب حاله ومقاله . فمنهم من يظهر له التأثيرات الوصفية وهم العارفين وأكابر المقربين ، ومنهم من يظهر له التأثيرات الفعلية وهم أهل الصدق من الزهاد وأهل الأخذ في طريق الأحوال ، فيتصرفون في الأكوان بالكلمة الجامعة التي بها تكون المكونات ، وظهرت عنهم المبدعات .

وأما بالذات فيختص به المقام النبوي وهو مجموع السبع الصفات وهو : الروح القدسي الذي نفخ في الروع المحمدي ، والعارفون يكون بمتفرق هذا المجموع فمنهم : بالبصير ، ومنهم بالسميع ، ومنهم بالحي ، ومنهم بالعالم ، ومنهم بالمتكلم ، ومنهم بالقادر ، ومنهم بالمريد . وكل من انفتح له في وصف كان مقامه أثر ذلك الوصف وهم بالتصرف بالأفعال أحرى ؛ لكن الأفعال فروع عن هذه الأوصاف . فكل من كان مقامه أصل من هذه الأصول أومن غيرها من الأسماء المدخرة المستأثرة عنده فتصرفه بها وينسحب على ماتفرع عنها في الوجود من الأفعال ، والله أعلم بسر ذلك وماعداه من الأسرار ومصونات الأسرار ومشرقات الأنوار . فكل مقام من هذه لوأخذنا في بيانه في الأطوار الخلقية لأداء إلى طول يخرج عن كونه شرحا ، فالشرح حكمه أن يبين المراد من الحكمة وما سمح من تفاصيل أحكامها ومتعلقاتها لاكل التفاصيل ، فإنك إن أردت ذلك لم تقف له على غاية تنتهي إليه ، لأن الإنتهاء إلى الله . ولاغاية تنتهي إليه أوصافه ، بل كل أوصافه بحر ، فلاساحل له ولاقعر .

فلنرجع إلى ما نحن بصدده من شرح كلام المصنف في ذلك ؛ والكرامات في البداية ربما تكون إمتحانا للمريد فإن وقف عند ظهورها ولم

يطلب ختاما غيرها فذلك لقلة حظه وعدم قسمه في مقام المعرفة ، ومن لم يقف عندها كذلك ولم يساكنها بل بقي مستمرا في طلبه ؛ مشمرا في سلوك إرادته ظفر بمراده . والمراد هنا الكرامات التي هي من طريق الأحوال في مظاهر الأفعال ، وأما الكرامات التي هي آثار الصفات فهي المعرفة بعينها ، إلا أن مقاماتها مختلفة باختلاف متعلقاتها ، فكلما كان أوسع في ذلك كان أكمل في المعرفة . فمن عرفه من كل صفاته ليس كمن عرفه من بعضها ، ومن عرفه من بعض أوسع وأعم ليس كمن عرفه من بعض أخص من حيث خصوص الحصر لامن حيث خصوص التشريف ، فإذا أطلق الخصوص في مقام الخلق فهو الأشرف ، وإذا ذكر في مقام الحقيقة فالعموم فيها أشرف ، لأن عموم الحقيقة إتساع ، وخصوصها حصر ، وخصوص الخلق تشريف واختصاص ، وعمومها إطلاق في عموم أكثرية الجهل والغفلة . وإذا عرفت أن طلب العارفين القيام بحق عبودية الله دون إلتفات إلى الحظوظ ؛ قال المؤلف رضي الله عنه :

(لايستحقر الورد إلا جهول)

الوارد يوجد في الدار الآخرة ، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار ، وأول مايعتنى بهم مايخلف عنك وجوده : الورد هو طالبه منك والوارد أنت تطلبه منه ، وأين ماهو طالبه منك مما هو مطلبك منه . لإستحقار إسقاط النظر عن المستحقر لقلته وعدم جدواه ، فيسقط الإهتمام بشأن المستحقر ولايراه بعين التعظيم . ولاخفا أن إستحقار الأوراد التي هي الأعمال بالسنة والإئتمار لأوامرها ظاهرا وباطنا نبذ للشريعة واستخفافا بشأنها واستهانة بمقامها ، وذلك جهل فضيع ومكر شنيع ، فالورد

مايستعمل العبد من العبادات ووظائف الخيرات ، ومحل الإستعمال والتهاء الجوارح ، والجوارح فرصة إمكانها الحياة ، فعند فنائها وانطواء ظهورها وانكساف نورها وانتهاك ستورها بمحتوم الموت المحتوم وانخرام الأجل المعلوم تبطل وتنعدم ، فلا يبقى للأعمال أنه يظهر بها فلاشك أنها منطوية بانطوائها ومنقضية بانقضائها ، فالعاقل الميمون أحق بان يتلافا ما يفوت بفوات حياته قبل هجوم مماته وفناء أوقاته . والوارد هو مايرد على القلوب والأرواح والأسرار من الألطاف ، ويتجلى على الأرواح من أسرار الجمال ، ويغمرها من لذيذ الوصال ، ويستغرق الأسرار ويكسيها من بدع الجمال ، ومايعمرها من تجلي الكمال .

وهذه المراتب كما قدمنا ذلك لاتفنى ولايتطرق إليها الإنعدام ، لأنها آثار وأنوار وأسرار أسمائه وصفية ذاتية ، وهذه الأوصاف الحقية والأسماء الإلهية لايتطرق إليها الفنا ولايعتورها التغير والبلا ، فهي باقية متأهلة لكل مايرد عليها ، ومتلقية مايصل إليها من الواردات وبديع الآيات ، فالعبد بما يفوت بفوات حياته ؛ وينقضي بانقضائه أولى بأن يعتنى بها ويغتنم بما سنح له منها ، وهي حق الحق من العبد . والورد حق العبد من الحق وأولى بالعبد أن يكون بحق سيده من أن يطالب سيده بحقه منه ، فلا يخفى مافي ذلك من إساءت الأدب أن يطلبه حظ ، ولاتطلب نفسك بحقه منك فأين المطلبين ؟ فالعارفين قائمين بحق معبودهم ومتمسكين بحبل عبوديته وإن تعاقبت عليهم واردات الألطاف وتوالت لديهم مزايا الإسعاف . فكلما أورد عليهم من ألطافه تضاعفت أعمالهم فتزكت أحوالهم ، فكل وارد أوثق صاحبه عن العمل مع إمكان فعله فلااعتداد به ولاالتفات إليه ، بل

ذلك نقص . والعلم من العالم على التحقيق أليق من عقد على جيد حسناء كما حكي ذلك عن الجنيد .

وأعمال العارفين مأمونة لأخذهم بها عن الله وقيامهم بها بالله ، فلايتطرقها قادح ولايداخلها محبط لفناهم عن أنفسهم فيها وذهاب رؤية الأغيار وتجلي ظهور الواحد القهار . فالعجب والرياء عنهم لايصدران ، والحسد منهم لايمكن ظهوره ، ومالم يصل المريد إلى صريح المعرفة لايؤمن عليه ورود هذه المحبطات . وماكان العارفين إلا أئمة للمتقين ومرشدين للطالبين . فليس المعرفة تقتضي أن يترك الأعمال ويطمئن إلى البطالة والملالة ، فلايظن ذو غباوة أن العارفين وأكابر الصديقين شأنهم ترك الأعمال وعدم التفقد في تصفية الأحوال ؛ فذلك الظن بهم ميل عن طريق الإعتدال ، وانهماك في أودية الضلال . فقد يغتر ذو فهم سقيم بظهور صورة كرامة أوإفصاح بصورة معرفة من تحقيق فيقف عند ذلك .

وقد قالوا : أن التعبير عن المقام قبل العثور عليه والإفصاح عنه قبل وصوله من ما يبتلي به كثير من المدعيين ، ويقف عنده جملة من المغرورين ، فيطلبون أن ليس ورى ماهم عليه مقام حيث تيسر لهم التشدق بالكلام وزخارف الخيالات من تحسين الحالات ، وذلك إنهماك في بحور الضلالات ، ووقوع في حبائل المهلكات ، فاالله لايجعل حظناعند الأقوال دون تحقيق الأحوال وتصفية الأعمال ، والذي يبقى في الآخرة هو ماعاملت به الله سبحانه من الأعمال الحسنة والأخلاق المرضية والحالات السنية . والأوراد كثيرة وكلها محمودة ولكن منها مايراد للفاتح والتي للكسب عليها تعويل ذوي الرغبات في نيل الدرجات في

الجنات ، والذي للفتح هي التي عليها تعويل أهل الصدق والإرادات ، وكل عبر عن ماكان له منهجا ولروحه معراجا ، فواحد قائل أفضل الأوراد الصلاة واستدل بذلك بدلالات واضحات ، ومنهم من قائل بتلاوة القرآن وله في ذلك أكبر دلالة وأفصح مقالة ، ومن قائل بأن أفضل الأوراد **لاإله إلا الله** لأنها لنفي الأغيار وجلب الأنوار وتحقيق الأسرار معراجا ، ولطريق المعرفة بالتوحيد الخاص منهاجا . ومنهم في التسبيح والتحميد لإستغراق روحه في بحار التنزيه والآلاء . ومنهم في الإستغفار لأنه لران الذنوب جلا ، ولتفريج الهموم أصلا . ومنهم في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها لكفاية الهموم دنيا وأخرى ، ونيل المطلوب برزخا ومقرا ، وللمقام ثباتا وعلى الحب برهانا ، وللقرب في المنازل الروحية سلما ، ومن المعضلات أمانا ، وكل سالك على طريق من هذه الأوراد محمود . ومنهم من اختار الجهر في الأذكار وحجته أنه لجنود الهوى قاهر ، وعلى جنود الضلال ظاهر . ومنهم من اختار الأسرار وحجته أنه أقرب إلى كونه عند المشاهدة أديبا ، ولخطاب السر مجنبا . ومنهم جعل هجره أذكار الروحانيين الصرف وهو إثبات من غير نفي . ومنهم من جعل ذكر الهوى أمامه ، واندرجت في ظهور الهوية أعلامه . ومنهم من كان في أذكار الإشارات لإدراج العبارات . ومنهم من ورده مراعاة الأحوال القلبيات وتحقيق الورادات الغيبيات ولايمكن استئصال أوراد جميع المقامات ، فكيف يستحقر هذه المواهب الربانيات ، أويستصغر هذه المنن الربانيات؟ أويستصف هذه المنن الربانيات ؟ أم كيف لايحافظ على فتح أبواب السعادات وأوراد العبادات ؛ أبواب الأسرار الملكوتيات والآيات الغيبيات

؟ فكيف يرغب عنها فضلا عن أن يستحقرها ذو عقل فلايقول بترك الأعمال والركون إلى اللذات والإنهماك في الشهوات إلا كل زائغ عن طريق الحق ، موسوم بسمة البعد والمكر . أعاذنا الله من ذلك ، وعافانا مما هنالك . فطريق المؤمنين وأهل التقوى والدين القيام بطاعات الله ، والنفرعن معاصيه واتباع مراضيه ولي في ذلك شعرا :

الورد حق الإله الحـــق فاحفظه ... ووارد اللطف موهوب من الكـرم

فلايفوت وإن طالت مسافـــته ... فكن بما ليس يدرك بعد بالعـــدم

فالجزم هذا وبعض الناس يجهلـــه ... ويحتقر ماهو المطلـــوب في الأمم

فقم بما يقتضيه الحق واجعلـــــه ... بدل لما فات من حـظ ومن قسم

ففتح باب العلا من حيث مطلبه ... في طاعة الله يدري ذا ذوي الفهم

فالواردات الحقية والإمدادات اللطفية تكون كما جرت به سنة الله على حسب الإستعدادات ، ونعني بالإستعداد قوة القابلية بالتعلق بالأمور المعنوية والأسار الغيبية . فكلما كانت أعلى وأقوى في الأخذ بالأسباب الموصلة إلى المراد كان حظها أوفر من ورود الإمداد ، لذلك ترى أرباب العزائم والأخذ في الحزم والقوة في الجهد أوفر الناس حظا وأقربهم رتبة . فلا أعلى من مراتب الأنبياء وأعظمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك ورمت قدماه ، وشد من السغب أحشاه ، حتى أتاه النداء من الله ﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ [الآيات ١-٢ طه] وكذلك كلما كانت المنزلة عند الله أقرب كان الأخذ في العزيمة أشد . ولو كان بالعكس لأدعى مراتب المقربين الأغبياء البطالين ، ولكن جملتها عن أن تدعى مرهفات إمداد المجاهدات وأسود المخالفات للأهوى ، فلا يختلج في صدر

بطال إدعاءها لما هو ملابسه من الشهوات ، والإنغمار في البطالات ، فلايستجري أن يدعي نيل أعلى المقامات وسني الدرجات ، فيحكم على نفسه إلا إذا تحكم عليه هوى وقوة جهل ، فربما يفتح إدعاءه ولكن لايثبت له ما ادعاه بل يرد عليه ويفتضح . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ورود الإمداد على قدر الإستعداد)

ورود الإمداد الربانية والفتوحات الرحمانية والمواهب الإمتنانية والعطايا الإلهية على حسب الإستعداد وعلى حسب ماناله من القسمة الأزلية والإختصاصات العلمية والأنوار الفطرية ، فكلما كان القسم الأزلي والإختصاص العلمي والنور الفطري أكمل ؛ كان الإستعداد والأخذ في الوسائل والقرب أكمل ، وكلما كان الإستعداد وقوة العزيمة كان ورود الإمداد ومواهب الإمتنان عليها أعظم ولديها أتم ، ومنها أقرب وبها أحرى . وعلى الندور من ترد عليه المواهب من غير شعور بما انطوى في سره من الإستعداد ؛ بل يروى عن جماعة من أهل الجذب من يجد في باطنه الإستعداد وإن كان ملابسا لأمور سبق بها الحكم وجرى بها القدر فيكون الإستعداد ثابتا لايتغير ، وإن ورد على المحل مايناقض المقام .

وكان بعض مشايخ اليمن يقال أنه صاحب المقام العيسوي أبو الغيث أنه : كان مقدما في اللصوص والنهب ، فكان له أوراد من أصناف الطاعات وحالات من أنواع المجاهدات في حال ملابسته للفعل ، وكان في حال نهبه وتلصيصه أحسن حال من أكثر الناسكين ، وأتم مقاما من جملة السالكين ، فلايقدرون أرباب المجاهدات وأهل السياحات على أقل مجاهداته في ذلك الحال ، فانظر ما أعطى الإستعداد وما أثمر من حسن نتائج الأعمال

، ثم كان ورود فتوحه ومواهب منوحه على حسب الإستعداد . فما ألطف الله بعباده ، وما أعجب حكمته في أقداره ومراده . والإستعداد هو الذي يعبر عنه بلسان أهل التحقيق بالدعاء الوجودي ويقولون : الفص على حسب الخاتم ، إذا الخاتم مثمنا أومسدسا أومربعا أومثلثا فالفص بحسبه ولايتعداه . ولي في ذلك شعرا :

ورود إمداد سر الغيب يقبـــــلها بحسب ماعنده تأتيه من مــــــثل

من كان ذا حسن إستعداد أنزلها من حيث ماتنزل الأسرارفي الأزل

والإمداد مختلفة بحسب اختلاف الإستعدادات في أطوار الوجودات ، وكما يكون الإمداد بحسب الإستعداد فكذلك تكون شروق الأنوار الربانيات على الأسرار الخلقيات بحسب ماهي عليه من الصفات من المكدرات ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(شروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار)

هذه الحكمة فرع عما قبلها إلا أن هذه في سر التحلية والتصفية عن المكدرات البشرية والعادات الطبيعية ، والملومات الهوائية والدواعي النفسية . والتي قبلها في التحلية والتخلية ، فالتخلية هوالإستعداد والتحلية هو ورود الإمداد في تعبيره ، والتصفية والتخلية أولا عند السالكين ومارتبوه في قانون المريدين ، فشروق الأنوار الخفية مثل نور الأسماء على القلوب ، ونور الأوصاف على الأرواح ، ونور الذات على الأسرار على حسب تخليتها عن الحاجيات الطبيعية والصفات الحيوانية والظلمات الأرضية الترابية ، فبحسب ماتتخلى من هذه تشرق عليها وتحليها تلك الأنوار ، وتواجهها تلك الأسرار ، وتطلع في أفق الأنفس قمر

الحال ، فتزكى منها الأحوال ، وتصلح منها الأفعال ، وتتضاعف عليها الآداب ، ويكشف لها عن مصون الجمال ، وتتيسر لها طرق الوصال .
ثم يطالع الروح شمس الشهود ، ويطالع فجر السعود . فيغيب لديه فلك النفس ، وتبزغ شمس التوحيد في سماء السر ؛ فيهتدي بعد ضلالة ، ويتوجه بوجهه للذي فطر السموات وأبدعها ، والأرض واخترعها ، حنيفا معتدلا غير مائل عن التعطيل ، ولاقابل بالتشبيه والتجسيم والتحليل ، ولاملتفتا إلى ماروعه من شواهد الأغيار ، ولاقفا مع ماواجهه من الأنوار ، ولامأسورا مع ماورد عليه من الأسرار ، بل دخل في جملة الأحرار عن رق الأغيار ، والتحق بالصفوة الأخيار ، مستسلما للواحد القهار ، غير مشركا به أحدا من الأغيار . فأعجب لذلك من صفي وأكرم به من ولي ، فهذا طرف من معنى قوله : شروق الأنوار .
والأنوار جمع والأسرار كذلك ، فسر القلب وسر الروح وسر السر ونور الأسماء ونور الصفات ونور الذات . فتتحلى كل مرتبة من هذه على حسب صفاء القابل وصفاء القلب عن الإلتفات إلى النفس ودواعيها ، وصفاء الروح عن الوقوف مع مايشاهده من بديع الآيات وغرائب المصنوعات دون المبدع الصانع ، وصفاء السر عن النظر إلى وجود سوى والتفات لغير ، وكل ماسوى الله فهو غير سوى وأفعالها وصفاتها ؛ فضلا شهود موجود غير ، فهو بالأخروية يكون عنه غائبا ومن وجوده فانيا ، ولي في ذلك شعرا :

ورود الأنـــــوار بالأسرار تحكيها	بحسب ماهي من التأهيل تأتيها
شروق شمس الصفات إن كنت تدريها	على قدر ماممحا من وصفنا فـيها

وذلك شواهد في ظواهر الأفعال يدل على قدر مقامه في التوحيد ، وقد علمت أن أول مراتب التوحيد في الأفعال ، فإذا تحقق بها دل ذلك على ثبوت مقامه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الغافل إذا أصبح نظر فيما ذا يفعله ، والعاقل إذا أصبح نظر فيما ذا يفعل به)

الغافل هو المحجوب السابق إليه نظره الغالب على قلبه شهود الأغيار ، والمطموس في ظلمة كثائف الآثار ، ولم يحط من التوحيد الأفعال الذي هو أول مرتبة في التوحيد فضلا عن أن يتطلع إلى مقام الفناء في الأوصاف ؛ فضلا عما وراء ذلك من التلاشي في شروق شمس الذات علامته ، وظاهر دلالة غفلته مايرد عليه عند مبادئ أول يقظته وانتشار ظهور حركته ، وتأمل ثواقب فكرته . فالغافل أول ماينظر إلى نفسه وظهور حركته ، فينظر ماذا يفعل وما ذا أبدع ، فتستغرقه الهموم وتغريه العموم ، وترادف عليه مشمومات الأحوال ، ويوكل نفسه وما يظهر من ظواهر جنسه من الأقوال والأفعال في سائر الأحوال ، وتتشتت إرادته وتتشعب همومه ، وتتضاعف غمومه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " من أصبح والدنيا همه شتت الله همه " وهذه أحوال الغافلين والحمقاء المغرورين لإنتزاع قلوبهم إلى غير ماهو جل أشغالهم وهي الدنيا وأسبابها ومتشتتات أشغالها .

وأما العاقل وهو من عقل عن الله خطابه ، وتأمل محكم كتابه فيرى للأشياء صانعا قادرا عالما مريدا سميعا بصيرا حيا متكلما ورى تلك القدرة ، ونفوذ تلك الإرادة وكمال ذلك العلم وشهود ذلك البصير ، وإدراك ذلك

السميع ، ودوام تلك الحياة واستمرار الكلام على الدوام . فلاجرم أن يذهل الكمال هذه الأوصاف فيرى صدور جميع الكائنات عنها ، وفيضانها منها ، ويرى نفسه من جملة المفعولات ، وخلق من جملة المخلوقات ، مصرفه تحت أحكام الإرادة ، مقهور تحت سطوات هذه القدرة النافذة المقدرة ، فلايعطيه نظره إلا الإنكماش والطمس عن أفعاله ، وسائر إراداته واختياراته ، ولغلبة نور العقل في قلبه وإيقاده في أرجائه يظهر له لامحالة الأسباب المعنوية ، والحركات العلوية ، والتدبيرات الحقية ، والإختيارات الإلهية ، والتصرفات الغيبية . فيرى أسباب سماوية ، بحركات الأجسام خلقية أرضية ، ويريه نور العقل ماورى ذلك من الأسرار ، وماحملت به الأرض ومسكت به السماء من سر الإقتدار ، فيرى نفسه وغيره من سائر الآثار تحت حكم قهار جارية عليه ومتصرفة فيه ، فلاينظر إلا إلى مايفعل به ذلك القادر الجبار ، فيكون فانيا عن التدبير والإختيار ـ وذلك أول مرتبة في التوحيد يدركها العقلاء ، ويحظى به السادة النبلاء ، فيستوي حينئذ لديه الشدة والرخاء والنعمة والبلاء ، ويكون ناظرا إلى محبوبه ومايتصرف به فيه من الحركات في سائر اللحظات واستمرار الخطرات . فلا يعتب على أحد ولايلوي على أهل ولاولد ، بل الكل منه في أمان وهو من الكل في أمان ، وهذه علامة الإيمان إن سرى منه الأمان إلى سائر الحيوان ، فلاتستوحش منه الوحوش ولاتفر منه لما ترى ماهو عليه من صريح الإيمان . وبهذا التوحيد الأفعالي صحبوا البوادي والفيافي متطلبين لظهور كماله ، إذا واجهتهم كراهية الأقدار تلقوها بالرضاء وصحبوها بجميل الصبر لمواقع القضاء ، فلاينال منهم ماينال من غيرهم عند نزول

القضاء . قال سيدنا عمر ابن الخطاب : أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء . ولي في ذلك شعرا :

الغافلين عن الحق الصريح عمـــوا وكان همهم الأكوان والغـــــير
فلاقلوب ترى حسن التصرف في كل الوجود من الأرواح والصور
واهل العقول أولوا الألباب مطلبهم أن ينظروا فعل مختار ومقـتدر
لايبرحون وقوفا لإرادتـــــــــه لايلمحون إلى الأغيار بالنظـــر

فلما لم يكن ظاهرا غيره في الوجود ، ولاحقيقة لسواه في الشهود ؛ فهو الظاهر في الوجود بأفعاله وتأثير أسمائه وشوارق أوصافه ، وهو الباطن بذاته . لذلك لايستوحش عن الأكوان إلا محجوب بوهم وجود غيريتها ومثبت بثبوتها ، ومتى لم يرى لها وجود ولاتأثير في كل موجود لم تستوحش منها ولم تطمئن إليها لاشك بموجدها والمعثر فيها ، وغناك عنها به لأنه مالك أزمتها . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شئ ، لغيبتهم عن الله في كل شئ ، فلوشهدوه لم يستوحشوا من شئ)

إنما استوحش العباد وهم الذين أقيموا في مقام التكليف ، ولم يحظوا بعد بشهود التعريف . وحاصل نظرهم أن يحكموا الأعمال بشرائطها ، ويقيموها بسائر وظائفها ، وتتبع الآثار والتمسك بالأخيار ، ويتخلصون من كثائف الأغيار بغاية جهدهم ووسع طاقتهم ، لأنها متحكمة فيهم ومترشحة عندهم في شهودهم ، فطرقت أسماعهم الأخبار وشوقتهم لوامع الأنوار اللائحة لهم من غيب الأسرار ، فطلبوا الفرار من ظلمات الأغيار ، واستغاثوا إلى الله في كرور الليل والنهار ، واستأنسوا إلى البراري والقفار ، ودوام التضرع

والإستغفار في الأسحار ، ومطلبهم كشف هذه الأستار ، ومحو هذه الأغيار عن قلوبهم ، والمثول بين يدي محبوبهم .
والزهاد أيضا أرفع حالا وأخص منزلة ومقاما ، قد زهدوا في الدنيا وأهلها رغبة فيما عندالله من عظيم الكرامة ، وماوعدهم الله به في دار المقامة . ولايزال بهم الزهد حتى يكشف عنهم الحجب الظلمانية ، ويفضي بهم إلى الأحوال النورانية حتى يتخلصوا عن شؤم الظلم فيلوح من وراء هذه الأحوال كلمات سببية ، فعند ذلك تظهر لهم معالم العرفان ، وتضمحل في نظرهم وجود الأكوان ، فتشرق لهم في صفحات الوجود بواهر صفاته ، ومجلي من وراء سجف الغيوب لوائح أنوار ذاته . فلايجهلونه في شئ كما ينزهونه عن أن يكون في شئ أوعلى شئ ، بل قاموا على حد قوله ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ تنزيه له عن مشاكلة الأشياء أومماثلة الأعيان والألوان ، ولم يعطلوه عن الأشياء ، بل هو السميع بسمع لايشبهه سمع البصير ببصر لاتماثله الأبصار ، بل هو باطنه لاتدركه الأبصار ، وألوهيته ظاهرة لاتخفى على أولي الأبصار . فعند مايرون استغراق معيته لكل موجود بالإحاطة والشهود ، استغراقا لايدع للأشياء معه ظهور ، لأن الحادث إذا قرن بالقديم اضمحل فلم يبق له عندهم وجود ، ولافي بصائرهم شهود . فلذلك لم يستوحشوا عنها وهربوا منها لغيبتهم عن كون قيوميته هي التي قامت بها أعيان الوجود . وبحياته حيي كل ذي حياة ، وبسمعه سمع كل سامع ، وببصره أبصر كل مبصر ، وبعلمه علم كل عالم ، وبكلامه تكلم كل متكلم ، وبقدرته وإرادته تكون كل متكون . فكيف يغيب الحاضر الرقيب ! أم

كيف يبعد الحافظ المجيب ! أم كيف يستوحش عمن قام به وجودك ؛ وظهرت به من دمجه العدم حدودك .

يروى في مثل ذلك المعنى عن ذي النون المصري رضي الله عنه قال : مررت ليلة في سواد الليل بوادي كنعان فسمعت صوتا يقرأ هذه الآية ﴿ **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون** ﴾ [الآية ٤٧ الزمر] فوقفت حتى دنا مني فإذا هي إمرأة ، فردت علي السلام ثم قالت : من أنت؟ فقلت غريب ! فقالت : ويحك ياذا النون هل معه غريب ؛ فبكيت فقالت : إني أرى لك مع الله حالا ، وماهذا شأن الأولياء الأقويا إنما هذا سمت الضعفاء ، إنما حال الأقوياء النحيب والزفير ، تعني من غير بكا ، فكأن البكا ينفس بعض مايجده المحزون الكئيب ؛ ثم ولت عني في الوادي وتركتني . فانظر دلته على مقام المعرفة فقالت : وهل معه غريب ؟ حيث استغراق المعية لجميع أعيان الوجود . ولي في ذلك شعرا :

يستوحشون عن الأشياء لغيبتهم عن سر من قامت الأشياء به علنا
لوزال عنهم ظلم وهم الوجود لهـا رأوا لمعـــناه سار في الفؤاد دنـــا

فلما لم يكن إلى رؤيته في هذه من غير النظر في مرآة الكون سبيلا أمرك أن تنظر إليه في الدار الكثيفة الضيقة عن اتساع الرؤية التي لايمارى فيها ، أمرك أن تنظر إليه باطنا في بدائع المخترعات ، وظاهرا في مظاهر المصطنعات ، لترى في الظواهر آثار الصفات ؛ وفي البواطن وحدة الذات . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته ؛ وسينكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته)

أمرك في هذه الدار أي دار الدنيا بالنظر والإستكشاف بالفكر على بواهر العبر ، فقال عز من قائل ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات** ﴾ [الآية ١٠١ يونس] من ترتيب أمره وأسرار قدره والأرض من عجائب اختراعه ولطائف حكمه ، فتقلع بكم سفينة هذا النظر ، في لطائف الآيات والعبر ، إلى ساحل الشهود والعيان ، ولكن في هذه الدار بالجنان وفي الدار الآخرة بالعيان ، ورؤية العباد في الدار الآخرة على قدر ماتجلى على القلوب في الدنيا ، فلاتداني رؤية الأنبياء رؤية المؤمنين الأولياء ، كما لاتداني رؤيتهم رؤيته صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، فلعدم أهلية الدنيا لتلك الرؤية وضيقها عن أن تتسع لعظيم النعيم ، أخرها للدار الآخرة لاعن بخل ، ولكن لعدم اجتماع الفناء بالبقاء والظلمة والضياء والكدورة والصفاء ، فلذلك كان اختلاف العلماء في رؤيته صلى الله عليه وسلم والثابت عندهم بل الذي أجمع أكابر العلماء على وقوعها له صلى الله عليه وسلم ، وجواز وقوعها لغيره أيضا ، لأن الله سبحانه وتعالى في تلك الليلة طوى عالم حلقيته ، وأظهر شهودد حقيقته ، وطوى له عالم الملك والملكوت ، وتجلى له في عالم الجبروت ، وطوى ظهور الناسوت ، وأبرى عالم اللاهوت ، فشهد عيانا وحقق رؤيته بيانا . فلم يماري فيما شهد ، ولم يعارض فيما وجد ، فلذلك قال عز من قائل ﴿ **أفتمارونه على مايرى** ﴾ [الآية ١٢ النجم] وشاهده المقربون في هذه الدار بالأسرار ، ويشهدونه في الآخرة بالأبصار

كما اجمع عليه أهل السنة بشاهد قوله عز وجل ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ [الآية ٢١-٢٢ عبس] وقوله صلى الله عليه وسلم " سترون ربكم كما ترون البدر لاتمارون في رؤيته " فيتجلى لعباده عن كمال ذاته كما تحلى لهم في دار الدنيا بمحاسن صفاته وبواهر آياته ، ففي الدنيا الذات باطنة عن الإدراك والصفات ظاهرة ، وفي الدار الآخرة تبطن الصفات وتظهر الذات بكمالها . ولاتظن أن الصفات تبطن وتنعدم وتغيب ، ولكن عن ظهور الموصوف وحضوره تستغني عن الإستئصاف ، وإلا فالموصوف لايفارقه وصف ، ولكن عند احتجابه تظهر الأوصاف ويستدل بها على كمال الموصوف بها . وعندما ينكشف لأوليائه عن كمال ذاته يندرج فيها جميع المحاسن ، ويغيب عند ظهورها في لذاتها نعيم الجنان . ففي اول نظرة يحظون بها تندرج جميع النعائم المحسوسات والمعنويات ، وكيف مابعد ذلك . وقد أخبر بالتضعيف عند مايكشف خزائن الصفات لأسرار معاني الذات ، وإدراك التفاوت غير منكور ، كما ترى التفاوت بين من قدمهم الملك إلى مجلسه ، وأحضرهم في محلته في مجمع واحد ، كيف ترى لذة الوزراء على من دونهم في المنزلة عنده من بقية الأمراء وأهل الوظائف على غيرهم من سائر الخدم . ولي في ذلك شعرا :

أمرك بالفــــكر في الدنيا لتشهده ... في الكائنات بغير القلب ياانسان
وسوف يظهر في الأخرى بلاحجب ... لسادة كان في العليــــاء لهم شان
يمشون في الناس مايدرون ماحدثت ... في الكائنات بروح القدس أخدان
لايصبرون على الهجران ماهجعت ... عيونهم في ظلام الليــــل وسنان

قلوب المشتاقين إلى محبوبهم تواقة ، وأرواحهم إلى لقائه مشتاقة . فلما علم ذلك منهم وعلم أن لاصبر لهم رحمهم ، فأنزل نسمات من روح الوصال خفاقة ، وأهما عليهم من سحاب الأسرار سيول دفاقة . وحملهم على نجائب الأنوار ، وتوجهم بتيجان الوقار ، لذلك قال المصنف رضي الله عنه :

(علم منك أنك لاتصبر عنه ، فأشهدك مابرز منه)

علم منك سبحانه وعلمه القديم الأزلي ، وقد علم بعلمه ماهو الحال منك قبل بروز روحانيتك ، وشخوص جسمانيتك قبل أن يتوجه خطاب التكوين إلى المكونات ، وعلمه وصف من صفاته . وقد علم سبحانه منك ومن سواك من كل كائن ماكان ومايكون وما لايكون لوكان كيف يكون ، من أنكر سبق العلم بالأشياء ولوازمها فقد أتى عظيمة وارتكب وصيمة ، كالفلاسفة قبح الله رأيهم ، ومن قال بقدوم الأشياء بلابداية بتخليط وتخبيط ، وعكر عليه رأيه شاهد الحدوث وطرو التغيير ، وذلك لايصح على القديم الأزلي . ولكن القول الفصل قدم علم الله بها دونها ، وذلك مما يدلك عليه من غير ضرب مثل لله ولأوصافه ، ولكن ليقرب فهمك الضعيف بمثل فيك لطيف ؛ أنك تريد تبني دارا فتراها بجميع أجزائها مشهودة لكن قبل بنائها ، فكن بما أرشدتك إليه في هذه في العلم خبير ، ولها متحقق وجدير . وقد كسا الله سبحانه أعيان ذوات المشتاقين حلة الوجدان ، وغذاهم بحلاوة الولوع به والتوله والتبذل في رياض جماله وحياض وصاله ، وعلو طمع أسرارهم في شهود كماله ، فلم تصبر عن شهود ذلك الجمال ، ومثال ذلك الوصال العال ، ولم يطف تعطشها بدون الكرع في ذلك الينبوع ، وهذه الدار لاتصلح لطهور كمال المحبوب ، ولم

يكن فيها متسع لعذوبة ذلك المشروب ، وقد حكم في علمه عليها أن تقيم مدة يسيرة كما حكم لها بذلك ، وذلك ليتم لها كمال نعيمها ، لأنه لايعرف شئ إلا بضده . فلم تستقر أسرارهم في هذه المدة حتى أظهر لهم أثر من آثار قدرته يؤنسهم بوجود القادر ، ويتحفهم بلطيف قربه وذلك لطفا بهم ؛ إذاتلطف بهم ولطف بهم بوجود سر وجوده في الأشياء كما حجب به قوم . فسبحانه ما ألطفه في عظمته وما أعظمه في لطفه ، وما أقربه في علوه ، وما أعلاه في دنوه ، وما أظهره في بطونه ، وما أبطنه في ظهوره . لطف بقوم فعرفوه ، ولو تلطف بآخرين لما جحدوه . ولي في ذلك شعرا :

قد علم الله أن لاصبر عنه كـــذا   كما حكم بظهور الكون والغـــير
فابرز شواهد آلاء ظـــــهرت به   فاستأنس البايس المكروب في الصور

ولما كانت النفس هي المطية إلى نيل المطلوب وحصول المرغوب وهي بطبعها وجبلتها مجبولة على الملل والسآمة ، والحدة والشآمة ، وذلك لما فيها من التركيب التربيعي من الحرارة واليبوسة تكون حدتها وشرها ، وعن البرودة والرطوبة تتولد سآمتها ومللها ، وتلك الخصال كلها تحت خبطة الطبع الأرضي ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات ، وعلم مافيك من الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات ، ليكون همك إقامة الصلاة لاوجود الصلاة ، فما كل مصل مقيم)

هذا تفصيل للحكم العلمية ، وتبيين المعاني الأزلية ، ففصل القضايا على حسب المقضيات ، ورتب المقتضيات على حسب قيام الهياكل واستعداد الآلات . فأشار بقوله علم العلم إلى علم الحق سبحانه للأشياء حقا صرفا

قبل المرح بوسائط الخلقية ، وقد علم ما أنت عليه من التركيب الجبلي فوضع حكمته على حسب علمه ، فلايأمرك بما لم يكن في وسعك ، ولم ينهاك عما لم يكن في رسمك ، بل أمر ونهى وأوعد ووعد على حسب ما أنت فاعل ، وما أنت إليه في مالك واصل .

والملل فتور يوجد في الطبع سببه طول الأمل وقسوة القلب والشره حدة توجد عند ابتداء الأخذ في العمل مع خوف فوت الأمل ، والقصور في العمل ومنشأ هذه الصفتين كما علمت الطبع الجبلي ؛ والمعدن الترابي الأرضي . والأرواح العلوية لما كان منشأهم سالم عن تلك الصفتين لم تتلون لهم ولم تحجر عليهم ؛ بل كانوا كلا منهم على عبادة واحدة لاينتقل عنها ، فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم ومنهم في ذكر واحد لايخرج عنه أبدا ، ولايطرقهم الفتور ولم تعلوهم السآمة والملل . قال الله ﴿ **لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون * يسبحون الليل والنهار لايفترون** ﴾ [الآيات ١٩-٢٠ الأنبياء] وذلك لسلامة شأنهم عن لوث الطبع الجبلي والثقل الترابي ، وقد جعل الله سبحانه الإنسان جامع بين العالمين وذروة النشأتين ، فكلفه من حيث نشأته الروحانية جميع وظائف الروحانيين ، فمامنهم أحد في وظيفة إلا وعلى الإنسان كمالها ولونها ، وحجرها عليه في بعض الأوقات لما فيه من الجمادية الترابية ، لأن عبودية الجماد لله سكونها وخضوعها واستكانتها ، واطراحها في حظيظ ذلتها ، وجعل الحركة في الماء لما فيه من الكونية ، فالماء بحركته ولينه وبرودته قوام عوالم الخلق ، والصلاة بصورتها تجمع الأمرين ، فجوارح الإنسان وخضوعها وخشوعها وإطراقها وركوعها

وسجودها عبودية الحق من عالم الخلق ، ومن حيث مافيها من المناجاة والتملق والتعلق والشهوة والتوله في ذات المعبود وشهود أوصافه ، والتحقق بأسمائه من مشرقات أنوار جماله ومحرقات جلاله ؛ عبودية الحق من عالم الأمر . فقد جمع الله في الصلاة كمال صورة العبودية ، وبحسب ماتكمل العبودية يكون عليها من كمال شهود ظهور الربوبية ، وعند القيام إليها والتحفظ على إكمالها بما ندبك إليه من الآداب الباطنة والظاهرة يكون عند الله أحظى ؛ وبمدحه لك أولى لإقامتك لعبادته ، فإذا أقمتها على حسب ما أمرك فيها ظاهرا وندبك إليه باطنا صارت كصورة من برزت عنه في حسن الهيئة وملاحة السمت والسيرة ؛ صورة قائمة وهوية دائمة بين يدي المعبود تشفع لمن برزت عنه ، ووجدت سنة تصلي عليه وتثني إلى يوم تعبدالله الخلائق ، ويرد كل إناء إلى وطنه وكل ضاعن إلى سكنه ، فتعود من حضرة الجود مبشرة بالفلاح مبوئية لصاحبها منازل القرب وحضائر القرب والشهود . ولاتكون كذلك حية إلا القائمة ، والقيام هو الحياة . فإذا كانت حية بالإخلاص باطنا والآداب ظاهرا وانتصاب القلب بين يدي المعبود تقضي منه أن لايكون له إلى غيره التفات ، فإذا التفت عنه باطنا احتجب عنه جل جلاله . كماورد " أن العبد إذا التفت في صلاة يقول الله عز وجل : أسدلوا الحجاب بيني وبين عبدي فقد أعرض عني . ومادام القلب منتصبا قائما فالحق قبلته والسر وجهته ، ويخاطب حبيبا في موطن بما هو لائق به . ففي القيام بالثناء والإعتراف والدعاء والإجلال والقنوت والإقبال والكبرياء ، وفي الركوع بالتعظيم والخضوع ، وفي السجود بالإضمحلال عن الرسوم والخشوع ، وفي الجلوس بالتملق

والترقي في مراتب الفضائل والتوسل بأعظم الوسائل . فأعظم بها من رتبة جمعت هذه المراتب ، واحتوت على هذه الرغائب ، فهي الوصلة بين العبد والمعبود ، وهي سلم إلى نيل المقصود . جعلنا الله من القائمين بها الحافظين لأوامرها وآدابها ، الدائمين العكوف في مشهدها . وكل وقت يدعوك لها كانت مواجهة عديدة وهدية جديدة ، وكرامة القادم على الداعي جزيلة ؛ ليس كمن لم يخرج من مجلسه ولافارق أسوته .

وأما من كانت صلاته بغير هذا الوصف وعلى غير هذا النعت فلايطلق عليه المدح ، ولم يحظى بسني الكرامة ، وإنما يدخل في غمار من في خطر المشيئة ، وقسم المغفرة من هذه الأمة المحمدية ، ومن جملة أهل القبلة المحكوم عليهم بأنهم متبعين ، وإلا فالأمر في صلاتهم كسائر أعمالهم إلى الله إن شاء جعلها قربة وكساها بكشف الكرم كأمثالنا ، وإن شاء ردها بحكم العدل ، ولكن الرجاء من فضله العميم وكرمه الجسيم أن يقبل منا من غير مناقشة ولاتفتيش ، هذا إذا قد بلغ فيها من الآداب الظاهرة والباطنة حد طاقته ومنتهى قدرته ، وإلا إذا كان لايكترث بها ولا بآدابها ولايعتد لها بل يقوم بحسب العادة المعتادة ، أوليرآئى بها غير الله سبحانه ؛ فلا شك في إحباطها ومقت صاحبها . أعاذنا الله من أن نقصد بطاعته سواه ، وأن نريد مطلبا سواه . ولي في ذلك نظما :

لما علم جل مافيـــــنا من الملل ‏ ‏ ‏ ‏ وماجمعنا من الآفـــات والعلل

ومافي الطبع من طيش ومن خلل ‏ ‏ ‏ ‏ ....

لون صنوف عن الطاعات من بها ‏ ‏ ‏ ‏ على النفوس من الإفراط والكلل

وذاك حكمة بارينا وقـــــدرته ‏ ‏ ‏ ‏ ليجعل العبد في الحالات ممـتـثل

فالصلاة ذروة سنام الدين وعماد الإيمان ، وفيها جميع صنوف الطاعات مندرجة قولا وفعلا ، لذلك عبر بها من جملة الطاعات ، فقال المؤلف رضي الله عنه :

(الصلاة طهرة القلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب)

الصلاة صلة للمحبوب ومكفرة لكبائر الذنوب ، ومطهرة من أدناس أرجاس العيوب ، وجالية كثائف الظلمات عن القلوب . ومزيحة للمحب عن الأرواح ، ومبشرة بالفلاح ومؤذنة بالنجاح ، ومريحة عن أعباء أثقال مقاسات الأغيار ، ومايغان على القلوب من مختلفات الآثار " أرحنا بها يابلال ؟ الحديث . وإشارته بالطهارة بالصلاة من الذنوب حسن ، فالصلاة رحمة من الله لعباده ، وتحفة من حضرة رأفته ووداده . لما علم سبحانه بأن هذا العالم الإنساني محفوف بصنوف المعاصي من عليه بما يزيل قدرها ، ويمحوا عن محل المناجاة أثرها . وتلك هي الصلاة الخمس لحديث : الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر . وفي الحديث أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما مثل الصلاة الخمس كنهر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات ، فما ترون ذلك يبقي من درنه شيئا . الحديث . وتمثيله صلى الله عليه وسلم بالنهر لجريانه من غير كلفة في سوقه ، ولكن من تعرض له غمرته منته وعمته رحمته من غير أن يكون له فيه إحتيال بل تعرض لنواله ، فكذلك الصلاة هي مجرى الواردات الوهبية والنفحات الوقتية ، والإختصاصات القربية ، واستفتاح أبواب الغيوب الملكوتية ، والأسرار الجبروتية ، والرحمات العرشية . فالغفلة عن الله والإنهماك في العادات

الأرضية والشهوات الحيوانية حجب عن تلك المشاهد ، وأبواب عن تلك المقاصد . فجعل الله مفتاحها ومجلى كثائف أستارها في الصلاة ، فاستفتاح صفة القيومية ، وانسحاب الديمومية بالقيام ، واستفتاح الخزائن الوصفية والذخائر العرشية في الركوع ، واستفتاح سر الأحدية وانفراد الألوهية وفناء الموجودات واتحاد الذات وبطون الأسماء والصفات في السجود . فما أعظمها من قربة ، وما أتمها من وصلة . فسبحان المتفضل على عباده بفواضل إحسانه ، والمتطول عليهم بسوابغ إمتنانه ، من غير طلب منهم لذلك ، ولاعلم لهم بما هنالك . ولي في ذلك شعرا :

إن الصلاة من الرحمـــن مكرمة　　خص العباد بها فضل وإحســــان
تزيل عنهم حجاب البعد مرحمــــة　　من قبل أن يعلموها إنس ولاجـان
ويفتحون بها أبواب الغيــوب فمـا　　بعد البلوغ إلى غايـــــاتها شان
يجلى بها عن مراة السر ماآكتسبت　　من الخطايا ومايعلـــــوه مزران

فإذا انفتحت أبواب الغيوب وطهرت القلوب من لوث الذنوب صلحت لمناجاة المحبوب ، واطلعت على مصونات الأسرار ، وحظيت بتجليات الأنوار ، وانكشاف الحجب والأستار . قال المؤلف رضي الله عنه :

(الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة ، تتسع فيها ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار)

الصلاة إذا خلصت عن محبطاتها ، والحاجبات عن بلوغ مرامها ؛ هي محل المناجاة ، جعلها الله باب أهل حضرته وموعد أهل قربته ، فيها يناجيهم ويناجونه ، وفيها تتسع أسرارهم وتعلوا أحوالهم في منازل القرب وفسيح الحضرة القدسية ، وتشرق أنوارهم في أرجاء الوجود ، وتحظى أسرارهم

بالكشف والشهود . وفيها المصافاة عند تجلي الصفات العلا ، فتصفا عند ذلك الأسرار من كدورات الأغيار ، وتخرج عن مضيق الآثار إلى التنزه في الإشباع الحقي .

يروى أن المصلي إذا قام إلى الصلاة متوجها إلى حضرة ربه طالبا بعبادته قربه ومبتغيا به حبه ، ضربت عليه سرادق من نور ولم يحم حوله شيطان ، ولم تشغله الأكوان ، فيكبر الله معظما ، ويتوجه مسلما مسلما ، يرى محبوبه قبلته وأوصافه وجهته ، وأفعاله محركته ومسكنته ، فيكبره ويمجده ويعظمه بمجده وعظمته ، كما هو أهل لذلك ومستحقا له لابه ولامنه ، بل صدر ذلك من حضرة إسمه الماجد العظيم الكبير ، فإذا كبر وعظم صدقه الملك وتشعشع نور من قلبه إلى العرش ، ويبقى صورة مستمرة الوجود متصلة بالمقام المحمود . وإذا كان على غير ذلك الوصف وبغير ذلك النعت متلبسا وهو أن يكون محجوبا ، وبالظلمات مصحوبا ، ولا يرى إلا الدنيا وأشغالها ، والنفس ومطالباتها ودنيات أحوالها ، احتوشت حوله الشياطين وجنودها ، واستلبت قلبه وحجبت سره واسترقته بتمانيها ، وسندبات خدعها ، فلم تدع له وجها ولاوجهة إلا إليها ، ولاتعويل إلا عليها ، أغلقت عنه أبواب الملكوت ، وأسجنته في قفص الناسوت . أعاذنا الله من ذلك ، وسلك بنا طريق أصفياه ، وبوأنا مقعد أولياه الذين آووا إلى جنابه ، والتاذوا بجماه فحماهم ، ولزموا بابه فاجتباهم وآواهم ولاجعل للشيطان علينا سلطان . ولي في ذلك شعرا :

إن الصلاة تحـــــل النفس بالله ومعدن لمصـــــــــافاة لمتصف
فادخل حماها بقلب غير ملتفت إلى الوجود وعن أغيار منصرف

وتشرق أنوار مـن في الحب آواه ويتسع سر أسرار لمعـــــترف

ولما علم ما أنت مجبول عليه من الضعف من حيث بشريتك ، وما أنت عنده من القدر والحب من حيث إنسانية روحانيتك ؛ قلل أعداد الطاعات لتكون لها فاعلا ، وكثر إمدادها لتكون بها واصلا ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(علم فيك الضعف فقلل أعدادها ، وعلم إحتياجك فكثر إمدادها)

علم سبحانه وعلمه البالغ الذي لايدخله تناقض وتغيير ، وعلمه للأشياء قبل إيجاد أعيانها وجميع تفاصيلها وجملها ، فلذلك استوت في علمه الحالات المتضادات ، ولم تشغله عدة الأعيان المخنلفات ، بل قدرها وأبرزها على وفق ماهو العلم فيها قبل إيجادها ، وسيق إليها ألطافه قبل استعدادها وإعداداتها ، لأنها في جميع أطوراها وترتيب أحوالها وأفعالها وجميع سكناتها وحركاتها وسعادتها وشقاوتها ، فخرجت كل ذرة متهيئة لما هو المراد منها ، وأكمل الله سبحانه على هذه الأمة منته ، وأسبغ عليهم نعمته . فعلم ضعفها وماهي عليه من الثقل الترابي ، ومارکن فيها من الطبع الحيواني ، فلم تستطع أن تعم المراتب الروحانية في آن واحد ، فجمع جميع اللطائف ويسر عليها تلك المعارف ، فجعل خمس صلوات فيها أسرار خمسين ، وفي كل ركن منها طور أمري وفعل خلقي ، فأكمل لها غاية مرامها ، ويسر لها طريق تمامها ، وسر جعلها وترا في العدد الإجمالي ، وشفعا في العدد التفضيلي ؛ مشيرا إلى رتبة الكمال ، واتصاف الواحد المتعال بأنه واحد في ذاته ، متكثر في صفاته .

وإن كنت تقول أنها في العدد التفصيلي شفع وصلاة المغرب ثلاث ؛ فقد شفعت صلاة الليل بالوتر وترا ، كما صحت بتلك النقول ، وطابق المنقول فيها المعقول . ولنرجع عن ذلك ؛ فإن الدخول في أسرار الصلاة يطول فيه الجولان ، ويكثر فيه القول وهو حري بأن ترتع في ساحة الطرس القلم ، وتبدي ما كتب في طيها نون والقلم ، ولكن المراد شرح هذا الكتاب على أوجز مقال وأقرب مثال . ولي في ذلك شعرا :

العبد محتاج إلى وصل الحبيب وما فيه اتساع لما كلفه من عمـــــــــل

فقربت منه الجـــــود الذي علما واستودعت ذاك كالألفاظ في المثل

فالخمس خمسين في المعنى الذي فهما في سر تضعيف سنبل ثابت العمل

فمتى عقلت عن منة الله عليك في إقامته لك في العمل ، ولم تنل منتهى السؤل والأمل . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى طلبت عوضا على عمل ، طولبت بوجود الصدق فيه ، ويكفي المريد وجدان السلامة)

متى طلبت على عمل عوضا فقد فقدت الإخلاص الذي هو شرط في قبوله ، فمن شروط قبوله الإخلاص ، والإخلاص هو أن لاتقصد بعملك غير وجه الله فقد الإخلاص بينا في طلب الإعراض في مقابلة ما أنت عامله ، فيكفي المريد من عدم الإخلاص وتقصير في مأمور ، واقتحام منهي أوفعل على غير أمر من الله ، وبصيرة السلامة من آفات القوادح في الإخلاص والنقائص في الأحوال ، والتقصير عن كمال ظواهر الأعمال فضلا عن الوصول إلى استقامة بواطنها . فما أعظم جهل من يطلب سيده بجزاء أعماله التي برزت من حضرة الفضل الأزلي الذي ابتداه به قبل أن

يطلبه ، وخوله إياه قبل أن يسأله ، فالفضل له عليه حيث أباحه خدمته ، وأظهر عليه آثار عنايته ومنته ، فالأعراض قيد عن التروع عن مواطن القرب والدخول في حضائر الحب ، فما أعرف من قام لله لهذه المعاوضات إلا ناقص الهمة فاتر العزمة ، ولي في ذلك شعرا :

إذا طلبت على الأعمال أعواضــا طولبت فيها بالإخلاص لم تجـد
إن الحريص على الخيرات معتاضا بها فلا شك أن يعطى الذي يرد
لكن عن الرتبة العليــاء يقصر ذا وعن حياض الهنا الفياض لم يـرد

فالأعمال إلى طلب العفو أحوج منها لطلب العوض ، وذلك لما يلزمها من القصور والآفات القادحة فيها كما قاله الشيوخ رضي الله عنهم ، فارتجاء فضله وفيض فضله خير من أن تطلب جزاء على ما صدر على صورتك من النقص والتقصير ، وإذا نظرت بنور التوحيد وجدت ما صدر عنك مجازا لاحقيقة . فحقيقة صدور الأشياء من اختراع مشيئته وإبداع قدرته ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتطلب عوضا على عمل لست له فاعلا ، يكفي من الجزاء لك على العمل إن كان له قابلا)

فالحكمة الأولى تشير إلى إسقاط رؤية العمل من حيث التقصير فيه وهو مشهد أهل الصدق في المعاملة من السالكين بظواهر العلم ، وهذه تشير إلى إسقاط رؤية العمل بشهود التوحيد ، وبلسان الفناء في الأفعال وهي طريقة الأبدال ، الغائبين عن الأعمال وسائر الأفعال ، لتحققهم بالوصال والتوله في بديع الجمال ، والخضوع تحت خوف سطوات الجلال فتسموا منهم الأحوال وتزكوا منهم الأعمال لخلوصهم عن رؤية أنفسهم فيها فضلا عن

أن يشركوا فيها غير معبودهم ، أوتتوجه قلوبهم إلى غير مقصودهم ، فكيف يتصور ممن مشهده هذا الحال أن يطلب عوضا وهو يرى أنه ليس فاعلا ، فيكون جل هم الصادقين خوف رد الأعمال وعدم صلاحيتها ، لأن تعرض بين يدي الله . فأعظم به جزاء إذا ارتضى ذلك منهم وقبله ؛ فقبوله أعظم جزاء . ولولا محض كرمه وعفوه عن العاملين لما صلحت أعمال البشر أن تذكر في منيرة حضرته لما عليها من القصور ، والتلوث بقاذورات الشهوات وظلمات الغفلات ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء** ﴾ [الآية ٢١ النور] ولي في ذلك شعرا :

فكيف تطلب أن تجزى على عمل   نزل من آثار قدرة منشئ الصور
كفى جزاء أن يكون الله قابلـــه   وستر مافيه من نقص ومن ضرر

فنسبة العمل إلى العباد مجاز ، والحكمة في نسبتها إليهم ظهور الفضل والكرم عليهم ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إذا أراد أن يظهر فضله عليك ، خلق ونسب إليك)

إذا أراد أن يظهر فضله عليك أيها الإنسان ؛ والإرادة متفرعة عن سبق علمه بذلك ، والإرادة هي التي تخصصت بها الأشياء وافترقت بها مجملات الأمور ، وبرز على وفقها كل كائن مقدور ، على وفقها كل كائن مقدور . والفضل هو ماقدره لعبده في سابق من سابقة الحسنى بأن يخلق فيه الأفعال المحمودة ويجنبه الخصال الملومة ، ويلبسه الألطاف ويحليه بحلية جميل الأوصاف . فتتوجه إليه مكارم الأخلاق ، ويعامل في جميع أحواله بمعاملة المحب المشفق بحبيبه ، ويدنيه دنو متقرب لقريبه . فإذا ارتفع بينه

وبينه الحجاب فأذن له في الخطاب ، وابتداه بما يطلب منه فيه الجواب ، انطلق لسانه في مسامرة حبيبه ، فيقول له المولى بمحكم كتابه المنزل على نبيه بإثبات العباد وأفعالهم ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** ﴾ [الآية ٢٢ الإنسان] ﴿ **فلاتعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [الآية ١٧ السجدة] فلما قرع أسماعهم ذكر الجزاء على ما أجراه من صالح العمل ففهموا منه الإذن في نسبة ذلك إليهم ، فبسطوا أكف ضراعة القلوب فقالوا : تقبل منا ماحققت نسبته إلينا ، وأعربت أسباب هدايتك علينا . ثم لما علموا ما الله موصوف به من جميل الصفات غاروا على أن ينسبوا إلى صفته مالايليق بشرف رتبتها من نسبة مالا يوصف به فقالوا ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ [الآية ٢٣ الأعراف] فلو لم يطلق نسبة الأعمال إليهم لم يحتوي أسرارهم أن يختلج فيها أن لها ومنها ، ولكن نسبة الفعل لم تختلف فيها القول بنسبته إليه . وماكان من قبيل تحلي العدل فعند أهل السنة أنه مختار لفعلها في حال إخباره ، وتخير في حال اختياره . فلسان الشرع لاتنطق بلسان الذم إلا على العبد في فعله للمعصية ، ولسان الحق لاتنطق إلا بالعدل ﴿ **وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته** ﴾ [الآية ١١٥ الأنعام] وحق العبد أن يضيف إلى نفسه مالايليق نسبته إلى ربه مع ماهو متحقق فيه ذلك ؛ كاللبن بين دم القدر ، وفرث الجبر ، فالعبد يقول عند بروز الطاعة عنه : أنت المقدر والهادي والمعين والمادح والمثيب ، فهذه

عدة نعم تقصر دونها ويعجز في جنبها شكر الشاكرين . وعند بروز المعصية عنه يقول : يارب عصيت وأخطيت فاغفر لي فأنت الغفور الرحيم . ولي في ذلك شعرا :

إذا أراد إله الخـــــلق يظهر من فضائل جات في شخص من البشر

خلق له كل محبوب ينـــــال به ثناه عند إلـــــــــه جل مقتدر

فنسبة الفعل في الأشياء وإن حسنت مجازة ليس للأغـــــــيار من أثر

فإذا علمت أن أصل العبد العدم وفصله العجز ، علمت أن العدم ظلمة وليس عليه جل وعلا أن ينيرها إلا أن يتكرم ويرحم ، قال جل من قائل ﴿ **وماظلمهم الله** ﴾ [الآية ٣٥ النحل] إذا الظالم من تصرف في حق غيره ولم يصادف لغيره ملكا ، وإذا لم يجعل لهم نورا فلا ظلم منه لهم ، وإذا لم يجعل لهم نورا ولم يهبهم من فضله فمذامهم غير متناهية ، وإذا ألبسهم من نور وجوده وأظهر عليهم عناية وجوده فلا جرم لاتفرغ مدائحهم ولاتسامى مراتبهم ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لانهاية لمذامك إن أرجعك إليك ، ولاتفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك)

لانهاية توصل إليها لبعد عنايتها وغموض نهايتها لمذامك لأنها متأصلة فيك ، ولانهاية للعدم الذي هو ظاهر صورته الظلمة ، ومعناه عدم الحقيقة التي يرجع إليها ويعتمد عليها ، فالمذام إن أرجعك إلى إصالتك لانهاية لها ، ولاتفرغ مدائحك إن أظهر جوده وهو نور وجوده وتحقيق شهوده ، لأنه إذا ألبس ظلمة وجودك وجلاء قبائح صفاتك فايض فضله وعميم جوده اضمحل العدم وبقي الأصل الموجود ، والظاهر في الأعيان الشهود ، وكان

هو الشاهد والمشهود ، فلاتفرغ لمدائح الصفات العلية والتجليات السنية . فمن أرجعه الله لنفسه أرجعه إلى ظلمة ونقص وقد رسم عليه برسم البعد ، وأظهر عليه علامة الطرد عن حضرة القرب ، ومن كان عن حضرة الله بعيدا ومن بابه طريدا فلانهاية لمذامه ومخازيه ، ومن أتحفه وقربه وجعله من خواصه وأهل حضرته فقد أسبغ نعمته عليه ، وأفاض فايض جوده لديه ، فمتى يفرغ من مدحه وقربه خالقه ومالكه . ولي في ذلك شعرا :

فلانهاية لذم العـــبد إن بعدت   به عن القرب من مولاه أسبابا

ومدحه ليس يفرغ منه إن قربت   من ربه جل من للفضل وهـابا

فإذا عرفت ذلك وتحققت لامحالة أن للمدوح وجود الحق لاغير ، وإن وجودك إلا بفناك عن وجود آنيتك ومحو ثنويتك ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(كن بأوصاف ربوبيته متعلقا ، وبأوصاف عبوديتك متحققا)

كن بأوصاف ربوبيته متعلقا بأن تكون شاهدا لوجوده وجميع أوصافه ، غايبا عن وهمية وجودك ، فانيا عن مظهر شهودك لاترى لك برؤية حياة ولاسمعا ولابصرا ولاقدرة ولا إرادة ولاعلما ولاكلاما ولاحركة ولاسكونا إلا به ، وقائما بقيمومته وحيا بحياته ومريدا وقادرا وعالما ومتكلما بإرادته وعلمه وكلامه ، ومتحركا بحركته ، ومتصرفا بتصريفه . فالتعلق بألوهية الإله للمألوه ، وبربوبية الرب للمربوب نعت ، وبها يظهر شرفه ويثمر له ظهوره نسبة . وحيث تكن القضية بأن تعلق بالأوصاف العدمية ، وغفل عن الصفات الأزلية العلية ؛ فهو الحقيق باسم الجحود والمبعد المطرود . أعاذنا الله من البعدوالطرد ، فكلما كنت متحققا بأوصافك من قصورك وعجزك وفقرك

وذلك ، وعدم حولك وقوتك كنت من التعلق بأوصافه أتم وأكمل وأخص . ولي في ذلك شعرا :

فكن بأوصافه العـــظماء منتسبا ... وعن قواك عديم الحول منـــعدم
واشهد وجود الصفات الست معتمدا ... بأن خالقنا موصوف في القـــدم
ينلك والسبع مبدا كل كائنـــة ... وكل مســـتأثر في الغيب منكتم
من كل أوصـــافه أوكل مانعتت ... به من أسمائها الحسنى بذاك سمي
فاقطع بهذا وكن في القول محتسبا ... عن مايحول في الإلحــــاد أويحم

وإذا فهمت معنى التخلق والتعلق الذي يشيرون إليه أهل الأذواق والعلماء الحذاق ، علمت أن المطلوب من العبد أن يعترف بأوصافه ، ويكون متعلقا بأوصاف الله ، ناظرا في بواطن مصنوعاته ، فالحكمة في العبادة الإعتراف بذلك . ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(منعك أن تدعي ماليس لك مماهو للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين ! ؟)

منعك وحضر عليك وأوعدك على دعواك حقوق عبادالله المالية الدنياوية التي خولهم إياها وأنزلهم عليها ؛ مع أن الملك فيها حقيقة لله ، ومع ذلك قال ﴿ **لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ [الآية ٢٩ النساء] والباطل هو إدعاها بغير حق ، أفيبيح أن تدعي وصفه وهو رب العالمين ومالك الدارين ، هذا غاية الظلم والتعدي لأن تنازع سيدك وخالقك في صفاته ، أوتشاركه في نعوت كماله ، أوتشرك معه غيره في عبادته ، أوتشهد معه سواه في مملكته . فلو أباح لك ذلك لم تتجاسر على الإقدام عليه حياء منه ، وإجلالا وتعظيما لجنابه العلي عن أن ينازع في صفاته أويساهم في نعوت كماله . كما

يروى عن سادات الصوفية رضي الله عنهم حكايات في ذلك عديدة وآثار ، ومتواترات أخبار أن أحدهم يعرض له التصرف المطلق في الوجود بإذن صريح وذوق صحيح، فيمتنع أدبا وهربا منه فرقا ، فيستعيذ بالله ويلوذ بجنابه من أن يكون له إختيارا ، ويغار على جنابه أن يكون لغيره ذكرا في نهي أوأمر لالنفسه ولاغيره ، ويغضي عند تبرح الآيات وظهور خوارق الكرامات خوفا أن يساكنها أويفرح بوجودها ، فيكون مشركا في محبته غيره فيشتد نكيره . فلهذا المرمى استعاذوا به مما سوا من مايتطرق إلى القلب محبته ، أويخامر النفس مساكنته . لذلك قال قائلهم : اشتاقت فإذا بدأ أطرقت من إجلاله لاخيفة بل هيبة وصيانة لجماله . وعند ظهور تجلي المحبوب على المحب مع فرط التعطش إلى اللقاء يشتد عليهم الصبر مع هذه الحالة . وهذا هو صبر الصيانة والإجلال لمظهر الجمال ، والغيرة على مخدرات غيد المعارف ومصونات حجال اللطائف والوصال . فلايطيق الصبر في هذا المشهد الرفيع مع إباحته إياه إلا نادرا من محققي العارفين ، والمتمكنين من آحاد المقربين . وعندما يتحمل أعبائه يتضاعف عليه مظاهر ولائه وسوابغ آلائه .

فانظر كيف أدا بهم الأدب لمقام الربوبية في صفو مقام العبودية إلى أن صانوا شهود وجوده عن أنفسهم ، ونزهوا محل محبته عن مقصودهم تعلقا وتحققا ، فضلا عن أن يدعوا لأنفسهم حالا ، أويثبتوا لها مقاما ، فضلا عن أن يشاركوه أويشركوا معه . فإذا رأيت شرف هذا المقصد وبعد مرماه وعلو شانه ، ورأيت ما الخلق عليه مكبون ومحبون وفيه يتنافسون من قذورات الدنيا والتطاول في هذا العالم الأدنى ، علمت أن هذا الطريق قد

اندرس بالكلية إلا البقايا الذين تحت قباب الغيرة أولوا البقية . وليت شعري من لك واحد منهم ؛ أوهل ترى مخبرا عنهم ، وأن يظهر في زيهم من يدعي شرائف أحوالهم وبمحرف بتزويق ألفاظ تحاكي ألفاظهم كذبه شاهد حاله ، ونم عليه قبيح فعاله ، فليتق الله المتجاهل المتعامي العالم بما هو عليه من قبيح الحال وسوء الفعال ، وهو مع ذلك يدعي مقامات أبطال الرجال ، ويتبجح في بيد الدعاوي وهو عن مقامات القرب خالي ، وفي سندبان الأهوى هاوي . فبالله ياأخي وإياي هل أحد منا نال لذيذ وصالهم ، أوتحلى بصفي أحوالهم ، أوتأدب بمكارم أخلاقهم . فكيف وقد وعد الحق من نازعه في صفاته ، وأشرك غيره في عبادته بوبيل عذابه وأليم عقابه ، فقال عز من قائل محذرا ، وعن الإشراك معه زاجرا ﴿ **وإياي فارهبون** ﴾ عن أن يشاركوني في صفاتي ﴿ **وإياي فاتقون** ﴾ عن أن تشركوا معي في عبادتي . وعلى لسان نبيه في القدسيات " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما أدخلته النار " أشار إلى اختصاصه بهذه الأوصاف كاختصاص الشخص بالرداء والإزار ، فلا أبلغ من هذا الإنذار ، ولاأعظم على من نازعه منه إنكار . إن من نازع شخصا في ردائه وإزاره فقد بارزه بأعظم إنكاره . فانظر واعتبر وإياك والكبر فإنه المصيبة الكبرى ، فإن قليله مانع من دخول الجنة كما ورد : أنه لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر ، ولايخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة أوحبة من إيمان " وشرح ذلك غامض عن الأفهام عند النظر في أصله ومبداه ، وغايته وانتهاه . فالكبر المنهي عنه خلق إبليس لعنه الله ، وهو خلق من

نار والنار مادامت متأصلة في القلب . وإن قلت فهي تجذبه إلى أصلها مالايتمكن من دخول الجنة ، كذلك الإيمان لايزال يجذب صاحبه حتى يرده إلى أصله ، وأصله نور الجمال الذي نعيم الجنة منزله ، وفيها سلطانه ومظهره . ولقد مال بنا الشرح أونجذب البعض إلى بعض ، ولي في ذلك شعرا :

منعك أن تدعي حق العبـاد فما   للعبد أن يدعي وصفا لمــــــولاه
فما لغيره أن يعبد سواه ومـــــا   معبود في الملك والملكوت إلا هـــو
من نازع الله في أوصـــافه قسما   أن لايذوق في الفردوس أحــــلاه

فإذا سمعت بمن أظهره الله عليه من أوليائه شئ من ماهو من مقتضى التصرف الإلهي فلا يختلج في عقلك أن ذلك بطلب واختيار ، ومع بقاء رؤية الأغيار والتلطخ بكثائف العوائد وظلم الآثار ، وإنما ذاك بعد تحقق مقام الفنا . وأما مع الإقامة على العوائد الطبيعية والشهوات الحيوانية لايخرق أستار الغيوب ، ولاتبدوا مخبآت الأسرار تحت الحكمة ، وسر القدر لايظهر إلا بعد ذهاب وصف البشر ، لذلك قال المؤلف متعجبا :

(كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد)

كيف يتصور أن تخترق لك أستار الغيوب وأنت بعد لم تتب من هفوات الذنوب !؟ أم كيف تخترق العوائد والأقدار وأنت متصف بالغفلة ومقيم على الإصرار؟ أم كيف تشرق عليك شوارق الأنوار وأنت لم تصفى منك الأسرار عن الظلم والأكدار ! كيف تطمع في نيل أقصى المرام والتحلي بأعلى مقام وأنت لم تعرف الحقوق على التمام ! ولم تصح منك الإنابة على الدوام ، فخرق العوائد بأن تأتي ويظهر على يديه مايستحيل في العادة

الإتيان بمثله ، وذلك عند انكشاف سر القدر وذهاب ظلم العوائد . وكثيف البشر وخرق العوائد النفسانية مفتاح الأبواب الروحانية ، وخرقها بأن تأتي على خلاف المعتاد من ماهي مقيمة عليه ومطمئنة إليه من الركون والسكون إلى ما لايلائمها ويوافقها من ملاذها ، ويحملها على الإجتهاد مايخرجها عن معتاد طبعها ، فعند ردها عن مرادها ومقتضى حظها وحملها على غاية الوسع ومنتهى الطاقة في عبادة ربها تخرج من حيز النفوس ، وتلتحق بعالم القدوس ، مع الأرواح العلوية واللطائف السماوية الصافية . فعند ذلك لاجرم أن تخرق العادة البشرية بأن تطير في الهوى وعلى الماء ، ويستوي عندها البعد المكاني إذ لامسافة في العالم العلوي مكانية . وتتجلى عليه الصفات العلوية فتكون مظهرا لها ومجلا لسرها . لأن كل سماء يتحكم فيها سر وصفي وروح قدسي ، روحانيته مستمدة ومستعدة لينزل نور وصف إلهي . وهنا علم يطلب ستره عن غير أهله فلا يذاع ولايستودعه إلا كل قلب قدسي يشأكله ، فلانطيل فيه . ولي في ذلك شعرا :

فكيف تطلب مظهر غاية القدر ... وأنت مكبول في سجن من البشر

إن شيئت تخترق السبع الطباق على ... براق عزم وحضرة منتهى النظر

هذا وبعد انتهى سير الوقود إلى ... عزيز وصل بجنح أطيار ذاك طر

إنسان عيني سعدت إن جرت ثم على ... وجه جميل بلا تكييف منحصر

وهذه الخوارق هي ظهور الآيات ووجود الكرامات ، وهي لاتظهر لمن بقت عليه من نفسه بقية ، وإن ظهرت صورتها فهي عند الرضا بها والسكون إليها والفرح بوجودها خديعة . فعدم ظهورها على من فيه من بقية الهوى ووجود الدعوى أتم لصلاح حاله ، فستر الكرامات وظهور

الآيات على يد من لم يتأهل للإرادة ولم تحنكه رياضات السالكين ، ولم يكشف له عن مقام المحققين من رحمة الله به وعنايته . والكرامة تكون أما من قبيل الأفعال أومن حيز الأقوال ، أومن لطائف الأحوال . فالأفعال كأن يمشي في الهوى وعلى الماء وطي مسافات الأرض البعيدة ، وإحضار الطعام في غير أوان وجوده ، وإجراء الماء من غير أن يكون هناك ، أوزيادة في شئ منه بأن يكون القليل كثير ، أوإنقلاب الأحجار ذهبا وماشاكل ذلك مما هو من جائزات القدرة ، أومن الأقوال لإجابة الدعاء ، وتيسير العلوم الغريبة والمعارف العزيزة ، وإبراز العلم المكنون الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم " إن من العلم كهيئة المكنون لايعرفه إلا العلماء بالله " فإذا نطقوا به فلا ينكره عليهم إلا أهل العزة بالله .

وأما من الأحوال كالإتصاف بصفة الروح في تشكلها وتنقلها من صورة إلى صورة ، أوبكثرة الصور أوالظهور بهيئة تخالف هيئة البشر ، وذلك من أعز مايجدونه أهل المواجيد ، ولايكون إلا بعد أن يذهب في التوحيد وينكمش في حضرة التفريد ، ويخرج عن حيز التعديد .

وأما الكرامات بالأقوال فعند جماعة من أرباب الكشف قالوا : مايكون مجابا فيما يدعوا إلامن لم يكتب عليه ملك الشمال عشرين سيئة أوأكثر خطيئة ، وهذا لايبعد عن أرباب اليقظة ؛ سيما وقد ثبت أن ملك الشمال مطاع لملك اليمين فيقول : قف ولاتكتب لعله يستغفر بعد ساعة ، وقيل ثلاث . واختلف العلماء هل الساعات هي الفلكية أوهي ساعات لطيفة كما هو العرف أن الزمان القريب يسمونه الخلق ساعة كخلافهم في ساعة الجمعة ، والله أعلم بالمراد من ذلك .

وأما بالأفعال فطريق الواصلين إليه بعد توفيق الله وهدايته وعونه بتصفية الرياضات وترك المألوفات والمعتادات فيها تنخرق لهم العادات . وبالجملة فالستر في حق الضعفاء أسلم ، والكشف في حق الأقوياء أقوم وأدوم . والأقوياء لايعتمدون على مايبرز على أيديهم ولايرونه كثيرجدوى ، ولايزيدهم تبيانا ، بل يرونه من جملة أقدار الله الجارية لثبوت يقينهم ، وتحقيق تمكينهم . وجل نظرهم في الإستغراق في جلال الله وجماله . ولي في ذلك شعرا :

العارفون لهم في القدس جولان — يزيد أرواحهم شــوق وأشجان

فهم في العلا تدور بهم أحوال ؟ — قربى لهم في القــرب ميدان ؟

وفي مسامر أرجـاء الوصال لهم — مناقب آيات في الأسماء وعرفان

والسالكين على نهج السبيل فلا — المطلوب منهم له إلا محـو لعيان

يلقون ثم جيوش النفس خائضة — في غمرة الموت ركبان وفــرسان

وكان خرق عوائد النفس بالطلب لأنها حق الحق من العبد ، فأولى الأحوال أن يكون في الطلب متصفا بالأدب ، والأدب هو أن يكون طلب إمتثالا وتعبدا ، لاوجود حظه وموافقة مراده ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ما الشان وجود الطلب ، وإنما الشان أن ترزق حسن الأدب)

ما الشان المراد من العبد في حضرة سيده وإعطاء ربوبيته حقها ، بأن تكون طالبا لحوائجك منه ، ولكن الشان المراد من العارفين والعلماء المحققين أن تكون متأدبا بين يديه لايكون لك مراد غير مراده ، ولامطلوبا غير شهود ذاته ، والتحقق بأسمائه وصفاته بأن تدعوه عبودية ، وتفوض

إليه في كل ماتطلب . فمن دعاه بلسان العبودية لالينال شئ ولايرى نفسه أهلا ، فحقيق بأن يجاب فيما سأله من المحاب ، وأن يلج الباب في زمرة الأحباب . ومن كان مع الله على غير هذه الحالة في سؤاله وجميع أفعاله وسأل وحاجته أمامه حاجبة لدعاه أن يلج ، فلاجرم أنه ما أوفا الربوبية حقها ، ولاأعطى الحضرة مستحقها . وحسن الأدب في الباطن هو تفويض الأمر إلى المشيئة والإنطماس في حضرة المعية ، لايشهد في الوجود ثنوية . والأدب ظاهرا هو القيام بالوظائف الشرعية والحقوق الدينية ، وأفضلها الآداب النبوية الذي أدب الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم اتباع أخلاق الأئمة الصوفية والعصبة المصطفوية أولي الأخلاق الرضية والشيم المرضية والأحوال السنية والهمم العلوية والمقامات العلية ، فبهم فاقتد ، وبهداهم فاهتد ، رضي الله عنهم .

ومن تأدب بغيرهم ممن هو محبوس في مضيق الرسوم فلايجي منه شئ وإن طالت صحبته وعظمت أسوته ، لأن غاية علماء الرسوم أن يبينوا له ماعندهم مما هو مشاهد ، ويصفون له وصف الطبيب الذي يعرف اسم الدوى ولايعرف عينه . فمازاد على الجاهل به إلابمعرفة الإسم فلو احتاجه لنفسه لم يهتد إليه إلا بدلالة طبيب عارف بعينه ولو كان جاهل باسمه ، فكيف وهو لم يتخذ الله من ولي جاهل وإن اتخذ علمه . والصوفية في عالم الأرواح أقرب الخلق إلى الروح المحمدي في عالم الخلق هم أحسن إتباعا لدينه الحنيفي . ولي في ذلك شعرا :

مالشان منك وجود اللفظ في الطلب   ولكن الشان منك منتهى الأدب
فكل من كان بالأخيار مقــــتديا   ينال من سر ذلك منتهى الأرب

فالأدب أن ترى نفسك ولاترى لها ، بل تكون محو في وجود سيدك ومولاك ، وتكون في دعائك مضطرا فقيرا حقيرا ذليلا ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماطلب لك شئ مثل الإضطرار ، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والإفتقار)

ماطلب بلسان الحال للعبد الذليل العاجز من سيده الكبير المتعال . لك أيها الطالب الراغب فيما عند الله من المواهب وسني الرغايب شئ من الوسائل للذي يكون بها وسائل ، وترجو بها حصول ما أنت آمل وله محاول ، من الأوصاف الذي يستحق بها نيل مطلوبك وغاية مقصودك ، مثل حالة اضطرارك وافتقارك وذلتك لمعبودك . والإضطرار قمين بالإجابة ومقرون بها ، كما قال جل ذكره ﴿ **أمن يجيب المضطر** ﴾ قاله بلسان التمدح بذلك ، فماذا ترى مايواجه به المضطرين إليه من الألطاف ، وماينيلهم من الإسعاف . والمضطر الذي لايرى لكشف بلائه سبب يستند إليه ، ولاحول يعتمد عليه ، بل يكون طريحا في فقره واضطراره ، وبيد التجائه متدرعا ثياب ذلته ومسكنته ، ناظرا في أرجاء رجائه ، غريقا في لجة افتقاره ، لايجد غيرا يلتفت إليه ، ولامتوسلا يلجاء سوى من بيده ملكوت كل شئ ، ومنه مبتدأ كل شئ وإليه منتهاه ، متوسلا بكرم مولاه وناظرا إلى جنابه ورامقا إلى فسيح بابه في ذهابه وإيابه . فالذلة هي خضوع العبد بين يدي المعبود وهي روح العبادات ومنتهى القربات . وبها يتدرعون وفي رياضها يتقلبون ، لأن ألذ الأحوال عند المحب التملق لمحبوبه ، وتمسكنه بين يديه . والإفتقار يجلب العطف من الغني بأن تترادف عليه

مواهبه ، وتجلب لديه ألطافه ، وتدنوا عليه تعطفاته ، إنما تفتح أبواب العطايا الربانية والمنح الرحمانية لمن صح افتقاره وتحققت ذلته واضطراره . ومن احتجب بالعزة النفسية الهوائية واستغنى بالأغراض العدمية الدنياوية ، والتجا إلى ما منه ومالديه كائنا ماكان رد إليه ووكل عليه ، وهو سلمه أحوج مايكون إليه فلك فيمن سلف أسوة ، ولك في مشاهدة الغير عبرة ، فدلك على المقصود ، وتوضح لك طريق الهدى ، فاعتبر بمن هو المراد من القربة ومن هو المعني بالشهوة ، فقال في أهل السعادة ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾ [الآية ١٢٣آل عمران] وقال في أهل الشقاء والإستكبار ﴿ **وإنا فوقهم قاهرون * قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا** ﴾ [الآية ١٢٧-١٢٨ الأعراف] فانظر كيف لما كانوا بالله مستغيثين وعليه متوكلين ، كيف أورثهم الأرض وبوأهم نواحيها ، ودمر من على نفسه عول وبأمواله ودولته صال وطال ، فقال ﴿ **ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون** ﴾ [الآية ١٣٧ الأعراف] ولي في ذلك شعرا :

فما طلب شئ للراجين من سبب مثل اضطرار بصدق ينجح الطلبا
فكن فقيرا طريحا لست منتسب إلى احتيال ولاحـــــال ولانسبا
بذلة يعتري المحـــزون في كئب تأتي مواهب منـــــــان بما طلبا
في ضمن ذاك منـون طـيها أدب بها انتصر من بها في بدرنا غلـــبا

فإذا حققت اضطرارك وصدقت في ذلك وافتقارك تولاك بصنوف الألطاف والمواهب ، وبوأك حضائر القرب والرغايب . وذلك عند

التجائك إلى حوله وقوته ويأسك من احتيالك وعملك وعلمك وحالك وسائر أفعالك ، فلا منك ولالك . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لو أنك لاتصل إليه إلا بعد محو دعاويك وفناء مساويك ، لم تصل إليه أبدا)

لو أنك أيها الطالب لحضرته ، والراغب في وصلته ، والمقبل في خدمته ؛ لاتصل إليه وتنال مالديه ، ووصولك إليه وصولك إلى حقيقة العلم به ، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شئ أويمازجه أويسامته أويجاذبه أويشاكله أويماثله ، تعالى الله علوا كبيرا عن سائر ضروب الأشكال ، أومضادة الأنداد والأمثال ، بل الوصول بلسان الخاصة وصول شهود لاتكييف ، ومنازلة حق بلا مثل ولاشبيه ، وعلم بلاريب ولاتوقف ، وإيمان بلانكر ، وإسلام بلاكفر ، ومعرفة بلانكر ، ومعلوم ذات صفات وأسماء وأفعال بلا أين ولاكيف ولاند ، ولاافتقار ولا احتياج إلى الآلات والأدوات ، وارتقاب الأوقات والساعات ، يفعل مايشاء كما يشاء كيف شاء متى ماشاء ، موصوف بصفات الكمال ، منعوت بنعوت الجمال والجلال ، ولاتضرب فيه الأمثال ، ولاتختلف في ألوهيته الأقوال . ولو كنت لاتصل إلى هذا المعتقد في الوصل إلا بعد فناء مساويك وهي كل فعل تكون به مسيئا في نظر العلم الحق لم تصل إليه أبدا ، لأن مساويك لانهاية لها لأنك بكونك فعلت وبكونك أحسنت مسيئا في دعواك ، إذ لا فاعل على التحقيق إلا الله . والإحسان أمر يقتضي فناك عن كونك كما ورد في الحديث بمعناه ، فأين الإحسان مع شهود وجود الثان ، لذلك مادمت متصفا بوصف الغيرية محكوم عليك تحت حكم البشرية ، لم تزل مدعيا في

أفعالك ، محجوبا في سائر أحوالك . ومالم ينفك عنك ذلك لم تصل ولم تحسن فلاتصل إليه أبدا دواما سرمدا . ولي في ذلك شعرا :

لو كنت لاتحظى بالوصل الذي عملوا   إلا بمحو دعاوي النفس لم تصل

أوكنت لم تنل العليا الذي نسبوا   مالم تكن فانيا في الله لم تنـــل

ولكن الله سبحانه بلطيف حكمته وبالغ أمره إذا أراد أن يوصل عبدا من عباده إلى بغيته ومراده ؛ هيأ له أسبابا مقربة له من مطلوبه ، وميسرا له أسباب مقصوده ، فأطلع له من عنايته نجوم سعوده ، وكمت له إبليس وجنوده ، وأعانه على جهاد النفس وصغر عنده الدنيا وقلل أيامها وأراه من فناها ، وإقبال الآخرة وما أعد فيها لطلابها ، وغطا وصفه بوصفه بأن يكون الله له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ، وهذا ثمرة المحبة الخالصة . وستر نعته الموصوف بالمعايب بنعته المنعوت به من جميل الثناء وحسن المعاملة والكمال والوفا . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطا وصفك بوصفه ، وغطا نعتك بنعته ، فوصلك إليه بما منه إليك لابما منك إليه)

الوصول لايكون ومع العبد منه بقية من حظ أوشهوة أوتدبير أواختيار ، فإذا سبقت له من الله عناية ، وقسم له من فضله سر ولائه غطا أوصافه الناقصة القاصرة الفانية التي هي من يعتمد عليه دون الله ، ومالم يفنى عن وجودها صارت له حجابا ، ومعنى غطا ستر ، والستر هنا يشير إلى بقاها إلا أنها كلا موجودة وهو كما قال . وتغطية النعوت الناقصة الملوثة بضروب النقائص بالنعوت القدسية ، والصفات العلية هو عين ماسبق من العناية من مواهب الولاية ، وأول مايقيم الله العبد به في هذا المقام

بأداء الفرائض مع شهود التبري من الحول والقوة ، ثم يرقيه في معارج النوافل مع الإلتجاء إلى الله من الفتن العائقة ، والآفات القادحة حتى توصله يد عناية الله له إلى مقام المحبة الخاص ، ومكنون العناية بأن الله قد أحب فلان فأحبه ياجبريل ، فيحبه الشاووش وينشر له الذكر الجميل والثناء الحسن في أهل حضرته ، ويؤذن بالقبول في سائر مملكته وذلك بما تفضل به عليه وأوصله من مواهبه . ولوكان بنفسه لم يتخلص له عمل ولم يصل إليه من هذه الفضائل مدد ، بل ما من العبد دون الله مشوب بضروب النقص والتقصير . وأعظم خطيئة رؤيته أنه برز عنه أوصدر منه ، ولو نالته العناية الأزلية لرأى تقدير الله ومشيئته في سابق علمه ، وهدايته هي التي خصصته بين أجناسه ، وهو معنى تغطية النعت بالنعت بأن يغيب عن كونه عاملا وفاعلا ، ويرى انفراد سيده بذلك ويشهد منته عليه دون استحقاق له في شئ ، فيرى ما من الله ولايشهد مامنه ، فبهذا الشهود تخلص أعماله وتتزكى أحواله وتنموا طاعاته ، ويثيبه الله مقام المحبة وينزله مقام القرب ، ويلبسه ملابس الإتصال ، ويثبته في المقام ويسدده في الأقوال وسائر الأفعال . فبذلك يتحقق له الإتصال لأنه شاهد مامن الله له من الحول والقوة والتأييد والنصرة . فعندما يتجلى عليه بنور أفعاله سبحانه يشهده الجزاء الموعود وهو أول مبادئ النور الإلهي يظهر للسالكين في الآفاق العلوية ، والأرجاء الروحية ، فيريه قبح الدنيا والركون إليها ، وحسن الآخرة والإنزواء إليها . ثم يشرق من وراء سجف فطر البشر ومرايا الصور فيتعلق طلبه بالحسن الأقدس والمحل الأنفس ، فيطالع نور القدم فيرى استحالة العدم ، وأن الكل منه من سائر

مستحسن فزهد في الآخرة طلبا للمشهد الرفيع والعالم الوسيع ، ويطلب المطلب الذي وحدت همم الأنبياء وأكابر الصديقين ومحققي المقربين العارفين إليه ، وهو طلب القرب من الله إليه لذاته وجميل صفاته لالشئ . فعند ذلك ينزل سر الحبيب على المحب ، ويكسى حلة الإصطفاء ، ويتوج بتاج الإجتباء . وهذا والله أعلم هو معنى : غطا نعتك بنعته ، ووصفك بوصفه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ولي في ذلك شعرا :

لو كنت لم تدن من قرب الحبيب سوا   بمحو دعواك لم تخلص من العـــلل
لكن إذا راد أن يوصل إليـه فنـا   كساه وصف العلي الموصوف بالأزل
وفاض فياض بحر الفضل منه على   قلب المحب فحقق غاية الأمـــل
يشهدك أنه بما منه إليك بـــدا   وأنت محجوب بالدعوى وبالحـــيل
فاستنقذك منه بالأغيار مبتدئـــا   إليك بالحب قبل الأخـذ في العـمل

والنعت هومايمدح به من علي الوصف وحسن الفعل ، فهو أعم من الوصف ، ولما كان العبد كما علمت منعوت بالنقص وموصوف بالعجز لم تخرج أعماله إلا مشاكلة لحاله ، فلولا أنه كساها بجميل عفوه وكثيف ستره لم يصلح أن يقابل بها حضرته ، ولم تعرض في ميادين خدمته . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لولا جميل ستره ؛ لم يكن عملك أهلا للقبول)

وجميل الستر هو مايكسى به من نور جمال الله وتحسينه إياه على ماهو عليه من النقايص ، ومتلبس به من المعايب . فلربما يعثر ذوعلم ناقص ويصير عن مقام التحقيق ناكص فيفرح بما يصدر منه من الأعمال معتمدا

عليها ، ناظرا بكليته إليه دون الله ، ولربما كان يدل بها إذا كانت هذه حالته ، ويرى على الله الفضل بها وينسى فضل الله تيسيرها عليه وإعانته عليها ، وهدايته إليها وماعليها من النقص والقوادح المانعة لها عن حضرة القبول ، الحاجبة لها عن الوصول كما هو شان المحجوبين والجهال المغرورين ، فلاتخلوا أعماله عن شوب شرك أما برؤية الخلق وسمعتهم ، أوبرؤية النفس وحولها وقوتها ، وكل ذلك محبط للعمل قادح فيه ، فلذلك يكون اعتماد المريد على الله لا على علمه وعمله وكل صنائعه ، بل يعمل ويستحق من الله من خفايا لايعلمها . فقد يظن أنه أحكم عمله ولربما يعرض على الله وفيه شائبة مما يوجب مقته عنده ، ولكن ستر الله أعظم وحلمه أتم وأجمل .

ويقال : أن لكل إنسان مشهد في العالم العرشي تظهر فيه أعماله وتعرض فيه أحواله بين أهل ذلك العالم القدسي ، فإذا عمل عملا صالحا خالصا أظهره الله في ذلك المشهد وأعلنه بين أهل الملاء الأعلى ، فيرى له نور كنور الشمس فيغبطونه أهل الملاء الأعلى ، وإذا عمل سيئة أوعملا غيرمقبول أسبل الله عليه ستره وأضفا عليه وفور حلمه في مكنون علمه ؛ إن شاء عاقب صاحبه وإن شاء غفر له لئلا ينكشف ستر عبده المؤمن بين أهل ذلك الملاء ويفتضح في أهل السماء . فما أعظم كرم الله على عباده المؤمنين وما أتم فضله على أوليائه المقربين وما أصبغ نعمته على خاصة صفوته العارفين ، وما أوسع عطائه وأجزل وفائه لخواص عباده الموحدين . وإلا فكيف يزكوا عمل عبد وهو متلبس بالمعايب باطنا وظاهرا إلابتزكية الله له ، ولايخلص إلا بتخليصه . فنسأل الله حسن توليه وستر

مانسره ونبديه ، من فضيع جرائمنا وقبيح معايبنا بين يديه ، وأن يتولانا فيما ناخذ ونذر ونسر ونعلن ونتحرك ونسكن ، بل فيما لا اطلاع لنا عليه من خفايا الأحوال ودقائق الأعمال ، وأن لايخلينا عنه في جميع الأحوال ، دنيا وأخرى وبرزخا ومقرا ، وفيما بعد ذلك ومابين ذلك ، إنه الجواد المفضال . ولي في ذلك شعرا :

لولا جميل ستور الله كائـــنة　　للعبد لم يخلص الأعمـال والحالا

ولم يكن فيه أهلا للقبول ومـا　　لم يستر الله أفعالا وأقـــوا لا

لم يصف للعبد حال بل يمازجه　　عيب بصد ونقص منه في الحالا

ولما كانت الطاعة فيها مالايخفى من الشرف وعلو المنزلة عند الله وعند الخلق كانت معرضة لامحالة لأخطار شديدة ومهالك عديدة ، وكانت المعصية لمن أراد الإقلاع عنها معرضة لأحوال محمودة لما يعتري صاحبها من ذلتها وقبح رؤيتها . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أنت إلى حلمه إذا أطعته ، أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته)

أنت في الطاعة إلى حلمه وعفوه من جرائمك وملومات فضائحك أحوج منك وأجدر بطلب الإقالة من عمل أدخلت فيه شرك لسواه ، أوغبت فيه عن شهود منته ، وتقدم محبته وتيسير قدرته ، وتخصيص إرادته وتوفيق مشيئته وإبراز حكمته لذلك العمل وتسديد ذلك الخلل ، كيف لا وقد علمت مايصحب الطاعة من معاصي القلوب وكبائر الذنوب إن لم يتولى الله حالة العبد فيخلصه من ورطاتها ومهاوي مهلكاتها ؛ كالرياء والإعجاب والسمعة وحب الثناء وارتفاع الصيت والشهرة والتصنع وغير ذلك مما يطول عده ، ولايوقف عند حده . فلذلك يكون العبد أحوج إلى

العلم لخوفه من أن يتلبس بخصلة من هذه الخصال ظاهرا ، بأن يغلبه هواه على الإصرار على فعلها ومحبتها والمقام عليها ، حالة من انتصب لطلب المنزلة عند الخلق فإنه يعلم أنه غير مصيب في ذلك ، ولايقدر على النزوع عنه لكونه مترشح في قلبه وغالب على طبعه . ومع ذلك هو عالم من قبح الحال وخسة الفعال . وأما أن يصحبه باطنا فلايتفطن له وذلك لجهله بالتفتيش عن دقائق الأحوال ولطائف الأعمال ، وقلة تيقظه للزيارة والنقصان ، وخفاء أسرار علم المعاملة عليه وغفلته عن التطلع إلى مبادي تأسيس العمل وطرائق التقوى ، فيقيم على حاله مستحسنا لفعاله ، فيهلك من حيث يظن السلامة ، ويحصل على وبيل الحسرة ويحترق بنار الندامة عند معاينة حقائق علمه عند كشف الغطاء عن الأعمال ، ورفع الستور عن الأحوال ، بهتك أستار الحياة ومعاينة علامات الوفاة . فكيف لايكون إلى حلمه وعفوه أحوج لصحبته لهذه المهالك الخطيرة وسلوك هذه الطرق إلى غيره العميقة .

والمعصية عند الإقلاع عنها والرجوع إلى الله منها لايصحبها إلا الذلة والندامة والإلتجاء والإفتقار واللهوج بالإستغفار ، وطلب الإعتذار . وذلك أن الله جعل الذل مقرون بالعصيان إن استقصاه في هذه الدار ، وأقام بالإعتذار مقرا بالخطاء معتذرا من الجفاء ، فقد بري عنه في الدار الآخرة ، وأمن حلول كل بلية وفاقرة ، وإن أصر عليه وتمادى وبارز بالمعاصي وعاد ، أظهرت عليه ذلتها ونادته ندامتها ، وتعلقت به بليتها في دار الدوام ومحل الإنتقام ، واعتذر في حيث لم ينفع المعذرة ، وندم في حيث لايجاب إلى الإقالة ، فيخسر خسارة لاربح فيها ، ويندم ندامة

لايقال فيها . فالمعصية عند الرجوع عنها في الدنيا أسلم من صحبة الآفات في الطاعات منها ، وذلك لئلا يأيس عاص ولايأمن مطيع ، فما أعظمه في لطفه ، وما ألطفه في عظمته ، وما أقربه في علوه ، وما أبعده في دنوه . فاعمل على حذر من هذه الآفات ، وارجع عن الذنوب وبادر من خوف الفوات . ولي في ذلك شعرا :

العبد يحتاج في طاعـــاته فمتى لم يصحبه حلم من مولاه ذي الكرم
كانت جنايته تربوا فتوبــــــته من ذلك أن يستقبل الله بالنــــدم
ومن تقادم في الأسوى صناعته فليرجعن إلى الإحسان والســـــلم

والخلق في طلب الستر على قسمين : خاصة وعامة ، فالخاصة جل نظرهم وغاية حيائهم من سيدهم والمشرف على خفي ضمائرهم ومكنون سرائرهم لشهودهم له ، والعامة بالضد من ذلك فحيائهم من الخلق ، لأن الغالب عليهم شهودهم وظهوروجودهم ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الستر على قسمين : ستر عن المعصية وستر فيها ، فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق ، والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق)

الستر كما علمت هو تغطية المعايب التي تورث حياء وتكسب ذلة وخجلا عند من يحتشم ويخشى ، والستر على قسمين من حيث أحوال الخلق الطالبين لامن حيث كونه سترا . أما من حيث كونه فهو لاينقسم ، فالذي يطلبونه العامة المحجوبين والجهال المسلوبين عن نور العلم ، الموصوفين بالكثرة الذي لافقه في قلوبهم ، ولا أبصار في أعينهم ولاسمع للآيات والأخبار في آذانهم يرون قبح المعصية وشؤمها ومذلتها في أعين الخلق ،

وسقوط رتبة من اتصف بها في أعينهم ، وتوبيخهم إياه وعن من لم يعملها ورفعة من لم يتصف بها ، وغاية مطلبهم ومنتهى مقصدهم الرفعة عندهم والمنزلة في أعينهم ، وغابوا عن شهود الله لهم وإيعاده على المعاصي بوبيل العقاب وأليم العذاب وضرب الحجاب . فلذلك إذا بارزوه بقبائح الأحوال وخبايث الأفعال ، ولم يبالوا بنظره إليهم ولا باطلاعه عليهم فلم يكترثوا بالوقوع فيها والإنكباب عليها ، ولكن يطلبون الستر فيها عن أعين الخلق لئلا يطلعوا عليهم فيها ، فيمقتونهم وتسقط منزلتهم عندهم . فغاية طلبهم أن يستروا فيها وإن داموا عليها .

والخاصة الذين حظوا من الله بمحبته ، وكشف عن قلوبهم حجب الجهل والغفلة ، وأباحهم منازل القرب والوصلة لم يشهدوا سواه ولم يعولوا على غيره ولم يخافوا إلا إياه . وكانت بصائر قلوبهم إليه ناظرة ، وأرواحهم في منتزه حضرته حاضرة ، وأسرارهم في بحار شهوده غارقة ، وأنوار جماله على زوايانفوسهم شارقة ، ولم يلتفتوا إلى الأغيار ، ولم يحجبوا بالآثار ، سواء عندهم من الخلق الإقبال والإدبار . يطلبون من الله الستر عنها بأن يحميهم عن الوقوع منها والحوم حول مراعيها لئلا تنال منهم ، فيراهم سيدهم وينظرهم مليكهم متلبسين مازجرهم عنه ، ومواقعين مانهاهم منه ، فتسقط مراتبهم عنده ، وتحجب مشاهدهم منه ، فتغيب عنهم شموس الأسرار ، وتحجب بدور الأحوال وتظلم منهم الأنوار ، وتستولي على قلوبهم ظلم الأغيار وكثائف الآثار ، ويستوجبون دخول النار وسخط الجبار . فشتان بين الفريقين في طلب الستر ، فاين المطلوب من المطلوب . فما أقبح حال من جعل الله في غيره أهون الناظرين ، وما أسوا أفعال من غاب عن

مراقبة أسرع الحاسبين ، وما أحسن حال من جعله كل مطلوبه وفيما لديه جل مرغوبه يصون عن جناب الحق قبائح عيوبه ، ويتباعد عن مصائدها وأسبابها ، ويهرب إليه من الوقوع في حبائلها ، فما أسعدها حال من سلم من شؤمها وبلائها ، وما أحسن فعال من استمر طعم مألوف ضيرها ، واستنكر ماعرفه من طريق مساكنها ، واشمأز من حضورها على مخيلته ، واستبدل بها حلاوة الطاعات ، والتضرع في الخلوات ، واستلذ بمناجاة المحبوب في غياهب الظلم حين يغفل عنه النوام البطالين . ولي في ذلك شعرا :

السترمنه على قسمين في النظر والخلق في ذاك حسبك إن تكن خبر
إلى عموم ومحجـــــوبين بالأثر ومن خصوص حظوا من خالق البشر
بنور قرب عليهم يستضاء بـــه ويستلينوا بنور الله في الصـــور

فالطاعة شريفة تشرف المطاع ، والمعصية قبيحة ومشومة عند الخلق ، وذلك أن الفطر فطرت على الطاعة فلذلك تكون الطاعة محبوبه وصاحبها محترم عند من لم يعملها ، وذلك لما في أصل الفطرة ، والمعصية مذمومة وصاحبها ملوم عند من يتعاطاها ، وذلك لما في النشأة الفطرية من النفرة إلى المخالفة ، فلذلك يكرم ذوو الطاعة ويهان أهل المخالفات والمعايب والزلات . وقد علمت استحالة خلوص أعمال العبد عن الآفات إلا بتوفيق الله وعونه وتأييده ، ولايخلو عن العيوب المبعدات إلا بستر الله وجميل عطفه ، وإحاطة عنايته ولطفه . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك)

من أكرمك من العباد واحترمك وبجلك ونظر إليك بعين التعظيم ، وتقرب إليك بأصناف التكريم ؛ فإنما ذلك الإكرام والتقرب بالتوقير والإحترام لما شهد فيك من مشاهد الإحسان ، وظهر عليك من مظاهر الإمتنان . فغطا عيوبك وقبائح مؤبقات ذنوبك ، وما أكرم من أكرم إلا ذلك ، وما أعظم إلا بما تفضل به الإله المفضال ذي الكبرياء والكمال والجلال والجمال . فالإكرام على أصناف : منها إكرام بالثناء والمدح وبالبذل بالمحبوب من أحضر ماعنده من المال ، وبالإحترام والتعظيم وطلب الدعاء ورؤية المنزلة عند الله ، وأنه من خواص عباد الله . وغير ذلك من صنوف الإكرام ، والإكرام نفسه هو بذلك لمن أكرمته من غير طلب مجازاة ، بل محبة وطلبا لحصول المنزلة عند من أكرمته . ولولا جميل الستر الذي ظهر عليك جماله ، وتمم نقائصك كماله ، وستر معايبك بإنعامه وإفضاله ، لما أكرمت وما عظمت . فعلى الحقيقة ما أكرم إلا ما أظهره الله عليك من لطيف فضله ، فالحمد وهو الثناء لمن سترك فأكرمك المكرم ، وماذاك إلا لما أظهره عليك ، وأسبغه من كثيف ستره لديك . فالحمد لله مستحقا على كل حال ، لأن سائر الأحوال وكل مظاهر الأفعال صادرة عن حضرة واحدة لاتغاير فيها من حيث كونها منسوبة إليه ، ولكن من حيث ظهورها على صفائح الأغيار واكتسائها بملابس الآثار . والحمد والشكر بينهما خصوص وعموم وجهين ؛ فحمد غيره سبحانه على المجاز ، وكذا شكره ولم يكن مستحقا إلا له ، فالحمد ثناء باللسان ، والشكر عمل بالأركان واعتراف بالجنان وثناء باللسان ، وهي في مقابلة النعم وغيرها ، فهذا وجه عمومه وخصوصه ، ولايتصور الحمد من الخلق للخلق إلا بمعنى الشكر إلا عند غلبة المحبة .

ولايكون أيضا عاما بل خاصا من أفراد الخلق ببعض إفراد الحمد وهو أقلها ، إذ كل مايصدر من الناقص لايكون إلا ناقصا ، وما الحمد الكامل إلا ماكان من حضرة الكمال وهو حمد الله نفسه بنفسه في أزله قبل ظهور أعيان خلقه وهو قوله : **الحمد لله رب العالمين** ، فأخبر سبحانه خلقه كيف يحمدون فحمدوه بما حمد به نفسه ، فجمع لهم شتات متفرقات المحامد في هذه اللفظة الوجيزة لينالوا بها كمال الرتبة العزيزة . فالحمد حقيقة لمن سترك وجملك لا لمن أثنا عليك وأنعم ، لأنه لم يثن إلا لما أشهده الله من الجمال ، وأشعره من الكمال ، فالحمدلله وما أنعم وأسدا وبذل إلا لما يرى فيك من أهلية الإفضال ، وما أوصله أيضا ليس حقيقة وصوله ومنتهى حصوله إلا من حضرة فضله وعميم كرمه ، وتتابع عطائه وفضله . فصار الحمد فيما يصل إليك من الإفضال ، أويتحدث به من الثناء والجمال حمد مجاز بحمدهم بحسب ما أمرت به من المكافأة بالدعاء وبذل النداء وكف الأذى من جملة حمد الله وشكره ، مع ما أنت عاقد عليه نفسك أنه الله مسخره وحكمه مدبره ليس منه ولا إليه ، فلايجمع بين حقيقة الحمد لله وإتيان حقوق الله إلا كمل الصديقين ، وأكابر محققي العارفين . وغالب الخلق أما محجوب عن الله يرى الأشياء من الخلق فيجرد الحمد لهم ويوجه الثناء إليهم عند إيصال المنافع على أيديهم فلايمتري في خطاء رأيه وقبح فعاله ، وإذا وصل الذم منهم بوجه بالمعاداة وقبائح الأخلاق فهو واقع في إحدى المذمتين فلايدري أيهما أقبح ؛ أمدح الخلق وشكرهم على نعم الله مع قطع النظر عن الله كما هو شان أهل الحجاب ، ويقع سبب ذلك في معاصي القلوب وكبائر الذنوب ، أعاذنا الله منها .

وأما المصطلم في سكر الحال فلايرى للأغيار أثرا ولايسمع منهم خبرا ، فلوكلف على إثبات الأغيار ما استطاع أن يرى لهم فعلا ولاوصفا ولاذاتا حقيقة ولامجازا ، ولكن قصر عن كونهم ثابتين بإثبات الله لهم وهو مغدور لغيبته عن شاهده ، متلاش تحت سلطان الجمال ، ماخوذ عن إحساسه في حضائر الوصال وشهود الكمال . ومتى عاد إلى إحساسه وحضر معه أناسه فلايكون إلا مثبت ما أثبته الله ، مؤتمرا بأوامره منتهيا عن زواجره . فحمد الخلق مجازا كما أن ثناهم مجازا ، وشكرهم أيضا كذلك ، كما أنهم أوصلوه إليك على أيديهم حكمه مجازا . وحقيقة الحمد والشكر لمن ثناه وإنعامه عليك ثابتا وفضله إليك واصلا . ولي في ذلك شعرا :

من أكرمك من عباد الله مبتغيا حمدا فلا يستحق الحمد إلا هو
كم من عيوب في الإنسان خافية وظاهرات تـــولى سترها الله
فليس أهلا لحمد الخلق قاطـبة سوى الذي عمت الأكـوان آلاه

فمن أراد صحبتك وأظهر محبتك إذا برز منك مايناقض الكمال نقصك عنده لامحالة ، والعبد أبدا لاينفك عن نقص وعيب ، فصحبة الخلق معك على ما ظهر من وصف الكمال وانستر عنهم من قبيح الأفعال ، ولاظهر ما ظهر من الجميل واستتر ما استتر من العيوب ، وتغطا من فضائح الذنوب إلا بكثيف ستره وجميل عفوه وبره . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماصحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عليم ، وليس ذاك إلا مولاك الكريم)

ماصحبك حقيقة وتكرم عليه تطولا منه إلا مولاك ، إذ هو الذي لم يقطع عنك أفضاله ، ولم يحرمك فضله ونواله ، مايعلمه منك من قبائح الأفعال

ومذمومات الأخلاق والأحوال ؟ فالصاحب من كان كذلك صنيعه ، فلا أحق بإخلاص الوداد والحب بكلية الفؤاد منه لأنه لم يملك على كثر جناياتك عليه ، ولم يبعدك لكثرة هفواتك وتهافت زلاتك لديه ، والخلق يقلونك ويملونك ويمقتونك إذا اطلعوا على أقل فضيحة ، مع أنهم لم يكلفوا ولم يندبوا إلى ذلك ، بل مأمورين بعذر الخاطي وعفو الجاني ، والجناية أيضا ليست إليهم . فكن متعلقا بصحبته ومولعا بجنابه ومؤثرا لخدمته ، ومدمنا قرع أبواب وصلته ، ومدانيا لمواضع محبته وخاصته من بريته . والصحبة مع الله ليس هي الصحبة مع الخلق ، لأن صحبته مصحوبة بالتنزيه عن الجنسية والمشاكلة ومامعناها ، إلا ماجاء في تقرير محبته لخلقه ومحبتهم له بأن تشاهد القلوب الصفات القدسية والنعوت الأزلية ، فيكون تعلقها بها وتولهها فيها ، مغيبا لشاهدته المشاهد المتوله عن غيرها ، وتفنيه عن وجود سواها ، فعلى هذا المثال يظهر وجه الصحبة مع الله والمحبة له . فعيوب العباد كسائر أفعالهم معلومة لله قبل إيجادهم وبعد وجودهم ، لايعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء ، ومع ذلك هو ربك وكاليك ومغذيك وحافظك ، ولايكون ذلك لغيره ، إذ الخلق لايصحبونك إذا اطلعوا منك على العيوب ولم يسبق لهم علم ، ولم يلحق لهم خبر فيما مضى وما هو آت لاكليتها ، وليس ذلك إلا مولاك الكريم . أي ليس يصحبك مع العلم بالعيوب وقبائح الذنوب إلا مولاك الكريم الذي يتكرم عليك بأصناف النعم وجلائل المنن ، مع مايعلمه منك من جرائم الذنوب وعظائم الفواحش ، فالكريم لايستقصي وعند الإعتراف لايستقصي ، فموالاته لعبده لاينفك عنه على ممر الأنفاس ، وهو يواليك بجميل كرمه

وإحسانه ، وعميم فضله وامتنانه . فالموالاة خاصة وعامة ، ويطلق على الإستيئلا والقهر والسلطان وعلى النصرة والعون والعطف واللطف . فقال جل من قائل في الولاية ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم** ﴾ [الآية ١١ محمد] أي لاناصر ولامعين . وقال أيضا ﴿ **والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾ [الآية ٣٥ محمد] وقال في الولاية العامة ﴿ **إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا** ﴾ [الآية ٩٣ مريم] والسيد هو المولى . ومراد المصنف هنا ولاية التعطف واللطف والصفح والكرم ، إذ عبر بمولاك الكريم ، وفي بعض الأخبار عن الله عز وجل " **لويرى العاصي رحمتي به والمدبر عني لتقطع إلي شوقا** " ولي في ذلك شعرا :

فما صحبك وأنزل فيك منـــته   إلا من اصحبك وهو يعلم منك بالخطل
وليس يفعل إلا من بنعمـــته   علم الوجـــــــــود في الآباد والأزل

فصحبة الخلق معلولة مدخولة فلا يصحبك إلا لعلة دنياوية أوأخراوية فلا بد من ذلك ، وحال ماينا مطلوبه أوأيس من وجوده على يديك قلاك وتركك ، فالصاحب من يصحبك لالشئ منك يعود إليه وليس ذلك إلا الله عز وجل . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(خير من تصحب من يطلبك لالشئ منك يعود منك إليه)

خير من تصحب وتحب وتؤثر وتوالي ويطاع ويصبر المتصبرون ، ويتحمل في حبه المتحملون ، ويتنافس في قربه المتنافسون ؛ من يطلبك لالشئ من المنافع ولالدفع مضرة عنه ، وليس ذلك إلا مولاك كما علمت ، فالخلق لاتخلوا صحبتهم وطلبهم عن علة للزوم فقرهم ، وهو سبحانه طلبك لك

لالشئ يعود عليه منك لأنه الغني بذاته وصفاته وأفعاله ، فلايكون ناقصا فتكمله ، ولامحتاجا فتوازره وتظاهره ، يتعالى الله عن الإفتقار إلى الأغيار وإن تكمله الآثار ، فندبك لينيلك ، وزجرك ليقيك ، وحذرك نفسه وشدة بطشه لعظم رأفته عليك .

وإذا نظرت ما أسبغ عليك من الآلاء علمت أن جنابه لايهمل وذكره لايغفل ، وعلمت أن جميع تخويفه لك وزجرك من جملة نعمه الواصلة إليك ومنته الحاضرة لديك . أما تستمع قوله سبحانه ﴿ **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران** ﴾ ثم قال بأثر ذلك ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ [الآيات ٣٥-٣٦ الرحمن] فعد ذلك من جملة الآلاء . ولي في ذلك شعرا :

فخير من يصحب الإنسان خالقه   ذي الطول والفضل والإحسان والكرم
فلو رأيت الذي هو منك طالبه   رأيت ذلك أجل الفضل والنـــعم

ومن أدام المجالسة مع الله وراقب الصحبة وآدابها فلاجرم ينكشف عن قلبه غطاء الغفلة وظلمة الجهل ، ويشرق فيه نور اليقين ، فعند ذلك تزكوا أعماله وتصلح أحواله ، فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها)

لو أشرق نور اليقين من أفق الفتح المبين . والشروق هو العلم الكشفي الذي لايداخله لبس ولايبقى معه داعي شيطان ولانفس ، وهو بمنزلة إضاءة من الشمس الحاصلة بإزا مابسط عليه الشعاع ، فيبين لصاحبه الكائن فيه لامحالة الحق من الباطل ، ويتضح لديك العالي عن السافل

والثابت والآفل فيختار الثابت . كما قال الخليل صلى الله عليه وسلم عند شروق كوكب العلم في قلبه ﴿ **لاأحب الآفلين** ﴾ وهذا العلم اليقين أول مبادئ الكشف وعلامته وبيان حاله من قام به العزوف عن الدنيا لفناها ، واضمحلالها وزوال نعيمها وذبول رونقها وسرعة تقلبها ، فعند ماينكشف عن قلبه هذا الغطاء وتنبسط في صدره أنوار هذا الضياء ينفسح ويتسع منه الأرجاء . لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم **" إن النور إذا دخل الصدر انشرح وانفسح ، قيل يارسول الله هل لذلك من علامة ؟ قال نعم ! التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإستعداد للموت قبل نزوله "** وذلك بالحرص على وظائف الطاعات في ممر الأوقات خشية الفوات ، والتباعد عن الهفوات ومجانبة الغفلات ، ومبادرة الساعات بأربح البضاعات وأغبط التجارات عند عالم الخفيات .

فحكايات أهل هذا المشهد أكثر من أن تحصر وأبين من أن تشهر من اختيار النقلة إلى الأخرى على البقاء في الحياة الدنيا ، وتقذير الدنيا واستقلالها في أعينهم ، ومجانبة المتلطخين بقاذوراتها والمتشبكين في حبائلها . فمن إذا قيل له ماذا تريد نشتريه لك إذاسافرنا ؟ فيقول الموت إذا وجدتموه لي . ومن المستعدين من لم يأكل الخبز اليابس بل يشرب السويق ويقول بين ذلك ومضغ الخبز سبعين تسبيحة ، وبين من يطلبه ويشتاق إليه إشتياق الغريب الكئيب إلى وطنه . كما في رواية حارثة الأنصاري وغيره من أجلاء الصحابة كأنس ابن النضر في يوم أحد "كان مقبلا لما أدبر الناس وهو يقول : ياسعد الجنة تنفح دون أحد ، ويقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعني الكفار ، وأعتذر إليك مما صنع

هؤلاء المسلمين . فدخل العدو ولم يرده ما رآه من شدة بأسهم حتى وجد قتيلا ـ أصيب ببضع وثمانين بين طعنة برمح أونكنة سهم ، وذلك أنه لم يحضر بدر فقال : أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحضرها ، لئن أشهدني الله غزوة بعدها ليرى الله صدقي . قالوا : وكانوا يرون أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه من المؤمنين ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا** ﴾ [الآية ٢٣ الأحزاب] فهذا ثمرة شروق نور اليقين في صور المتقين الذين صابروا الأعداء وناجزوا النفوس وعمروا معاني التقوى ، وتجنبوا دواعي الأهوى ، فأثمر لهم ذلك العلم اليقيني ، ونازلهم الصدق في سائر الأحوال والأقوال والأفعال . وهذا العلم لا للكسب فيه مدخل بل يقذفه الله في قلوب أهل الصدق فيرون بواطن الأمور إذا رأى المحجوبين ظواهرها ، وينذون ببصائرهم إلى حقائقها إذا وقف المغرورون على صورها ، فيزهدون فيما رغب فيه البطالون ، ويعرفون ماجهله الأغبياء الغافلون ، فهم يعجبون لغيرهم كيف أغبر بهذا السراب والخلق يرونهم مجانين من سكر هذا الشراب ، فالجهال إذا مروا بهم يضحكون وهم عليهم من حسرة الموت مشفقون ، فأعجب لذلك المشهد المصون ، وأعظم بذلك السر المكنون . وبعد ذلك تنفتح لهم خزائن الأسرار ، وتلوح لهم لوائح الأنوار من سنا صفات الواحد القهار . فيرجعون بالإعتذار ويلمحون للخلق الأعذار ، فتخترق لهم العوالم ، وتبين لهم المعالم ، فلايختارون غير مايختار

، والكون في ذلك العلم هو شراب الأبرار الممزوج من عقار تسنيم عين المقربين الأحرار من رق الأغيار . ولي في ذلك شعرا :

نور اليقين يريك السر ما كمنت من الحقائق في مستودع الصـــور
يريك أن زهرة الدنـياء في فناء وغـــايب في ستور الكون محتضر
من طهر الله عن الأغيار فطرته يشهد بلا ليس ما في الأفق من عبر

فإذا حكم المريد هذه المرتبة ، أي مرتبة العلم فليطلب المزيد مما هناك ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾ فلياخذ في الترقي إلى رتبة العيان وفناء رؤية الأعيان من سائر الحدثان . فالدنيا حجاب المحرومين والمتعدين والأغبياء الجهال المغرورين ، وهي حجاب ظلماني تنشأ منه كبائر الذنوب والوقوع في ورطات البعد والجحود ، والآخرة حجاب أيضا عند أرباب الكشف والشهود ، والمشغوفين بحب الإله المعبود . فهي بالإعتبار عندهم للواقفين عندها من الصعود إلى رفع الحجاب ، والدخول في زمرة الأحباب المخطوبين المرادين بشهود الإقتراب ، ولكن حجاب نوراني عنده محتد سير أصحاب اليمين . فلما كان النفوس عن رؤية الأغيار من جنة أونار مطلب المقربين الأحرار . لذلك أشار المؤلف رضي الله عنه :

(ماحجبك عن الله بوجود موجود معه إذ لاشئ معه ، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه)

ماحجبك عن الله أي عن وجوده وشهوده ذاتا ووصفا وفعلا وجود موجود معه إذ لاموجود معه ، فيكون له ندا وشريكا فيكون له ضدا ، وإنما حجبك وهم قام في مخيلتك ، وإلا فيتعالى عن أن يحجبه شئ ، إذ لو حجبه

لستره ولو ستره لقهره وهو القاهر فوق عباده . ولو حجبه لكان محيطا وهو بكل شئ محيط ، ولسبق وجود ذلك لوجوده . وقد علمت وجود قدمه واستحالة عدمه ، ولو كان كما يظنه من يشبهه بالأجسام المحصورة في جهة لانعكس الحكم ، أي لصار القديم حادثا والواجب جائزا والجائز واجبا ، ولاقايل به . بل الحجاب مايقوم بالعبد من صفة من صفة القصور عن إدراك حقائق الأمور ، وعدم قابليته لقوة الظهور ، فكلما قويت قابليته لذلك ونما استعداده لما هنالك انكشف لها من ظهور الحق الظاهر والنور الباهر بحسب مافيها من الإستعداد ، وذلك متوقف على ماوصلها من مواهب الإمداد ، ولاتزال هذه الإمداد تتواصل ، ولاتزال هذه الحجب تنكشف أبدا في عمر الآخرة الطويل ، وتتضاعف بحسب التضعيف الأخروي ، فكلما كشف لها عن محل ترقت به إلى أكمل ، فلانهاية لكماله فكلما شرب كاس زاد إلى الشراب شبقا ، وثبوت ماسواه شرعا لايناقض كونه واحدا بلاند لإثباته أدل على توحد موجده وقدرته وإرداته ، وباقي صفاته من قدم الصانع ، والظل لايحجب عن شخصه المنبسط عنه بل يدل من له عقل ، اللهم إلا أن يكون أكمه البصيرة مطموس النور والسريرة ، أوكان خفاش لايطيق فيضان نور الشمس فقد يفوته تحقيق وجود ذلك لاالعلم به ، ولكن علم قهر وعلم أمر ، فعلم الأمر هو مانزل في القلوب ، وعلم القهر هو شهادة أهل الجحود بنفس الوجود ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ [الآية ٨٧ الزخرف] ولي في ذلك شعرا :

ليس الحجاب وجــود ثالث فلذا   قلنا الحجاب توهم صورة الحجب

فلا نظير ولاند يكون لــــــــه ولاشبيه ولا مثـــــل ولانسب
فاعجب لمن ينكر أن الله خالقـه أوغائبا عنه هذا غـــاية العجب

فبظهوره ظهرت ، وبنوره عرفت ، وبحسب أسمائه تميزت . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لولا ظهوره في المكونات ماوقع عليها وجود إبصار ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته)

لولا ظهوره الباهر ونوره الظاهر في سائر المظاهر المحيط عليها حيطة التكوين ، لما ظهرت جهات النائين، فالمكونات فرع عن تكوينه ، والمغيبات من العوالم الملكوتيات والجبروتيات ، وظواهر المشاهدات الملكيات الحسيات مظاهر وآيات وبيان دلالات ، على ماصدر عنه من الأسماء والصفات ، فلولا قيامه بها في وجودها واختزانها في قدم أعيانها وإبداعه لصورها في فطرها وأجسامها ، لما ظهرت ولاتغيبت ولاتصورت ، فبحكمته في احتجابه بها ظهرت وظهر منها ماهو مقتضى علمه فيها وبها ومنها ، فلوظهرت الصفات لاندرجت آثارها وغابت مظاهر شموسها وأقمارها لإنقهارها تحت سلطان ظهوره ، واحتراقها بإشراق نوره . ولكنه سبحانه بحكمته البالغة وكلمته السابقة اتصف بالعلم ، والعلم يطلب ظهوره بمعلوم ، ولابد من تخصيص معلوم من معلوم ، فاتصف بالإرادة ولابد لنفوذها من قدرة تامة تمضي ما خصصته هذه ـ فاتصف بكونه قادرا ، وكذلك بقية الصفات يطلب ظهورها بتأثير خاص ، فاقتضى الكمال الإلهي كمال كل وصف من أوصافه ، وظهور كل نعت من نعوته ، فأبدع الكائنات على حسب مايقتضيه ظهور التغاير لذهب صورة التكاثر الذي

إلهامه من تفرق في وهم التغاير . فلو ظهرت الصفات لذهبت الجهات ، واحترقت بنورها كلما أدركته السبحات ، بذلك جاءت الأخبار والدلالات ، فأين البصر والإبصار والمبصر ، وأين التعداد في ظهور الوحدة ، فلم يبق إلا وصف الموصوف ، وعند تجلي الموصوف يندرج الوصف في ظهوره ، وتنطمس الأنوار في إشراق نوره ، ويكون هو الموصوف بوصفه لنفسه . ولي في ذلك شعرا :

لولا ظهور وجود الحق في الصـور   مابان للكون من عـين ولا أثر
ظهرت حتى جعلت الكل منعدم   وباطن أنت محجوب عن البصر
بحجب عزك حتى ظـن ذو سفه   إن ثم غير تعالى الله ذو القـدر

وعلى الحقيقة لم يكن ثم وجود إلا ما أظهره تأثير اسمه الظاهر ، ولايظن إلا حقيقة اسمه الباطن ، ولا أول إلا وهو من نور اسمه الأول ، ولا آخر إلا متوجه إلى اسمه الآخر . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أظهر كل شئ لأنه الباطن ، وطوى وجود كل شئ لأنه الظاهر)

أظهر وجود الأكوان وأبدع صور الأعيان لأنه الباطن فلايكون معه بطون لشئ ، فهويته القائمة وربوبيته الدائمة تقتضي أن لايكون معه شريك في اختصاصه برتبة الربوبية ، وطوى وجود كل شئ بنور ظهوره وسلطان قهره وعظيم ألوهيته لأنه الظاهر في أعيانها بالحكم والقهر والتصرف والإقتدار ، فكل الأشياء متصرفة تحت حيطة اسمه القهار الجبار ، ومشرق وجودها بقيومة الإله الستار ، الذي ستر وجوده بما أظهر من مخترعات وجوده بما أظهر من مخترعات وجوده ، وعمها بإفضاله وجوده . ولي في ذلك شعرا :

أظهرت أشياء لكيلا أن يكون سوا   بطونك الساري المحجوب في الصور
وأظهرت قهر فيها كي يكون لـــها   ربا وتستوجب التنزيه بالنـــــظر

فلذلك أدلك وأحالك على النظر فيها ، ومادلك لسبب عبريتها ولكن لتعرف نسبة الحقائق فيها . قال المؤلف رضي الله عنه :

(أباح لك أن تنظر ما في المكونات ، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات ﴿ قل انظروا ماذا في السموات ﴾ [الآية ١٠ يونس] **)**

قل انظروا ما ذا في السموات ، فتح لك باب الأفهام ولم يقل أنظروا السموات لئلا يدلك على الأجرام أباح لك أيها الناظر في تحقيق اسمه الفاطر لتكون إلى وصف قدرته ناظر ، ولتعرف حقيقة اسمه القادر ، فقال : **قل** أنت ليفهموا خطابي من وراء سجف مخلوقاتي ، إذ القوابل البشرية لم تقوى على مكالمة الخطاب الإلهي من غير ترجمان يأنس به ، ولم تقوى على شهود ذلك الجمال من غير مراده في الظاهر ومراده في الباطن لتنظر إلى ظهور كماله ، وتتعرف صفة جماله وجلاله ، فجعل مرآة اسمه الباطن القلوب والأسرار ، وجعل مرآة اسمه الظاهر السموات والأرض والبحار ، والشموس والأقمار والجنة والنار . فأحب أن تشهد وتنظر إليه في هذه الدار بالإستبصار وبالأبصار في دار القرار ، فخاطب الترجمان سر الأسرار ونور الأنوار القابل عنه خطابه ، والمتلقي منه الأمر مجملا وللخبر عنه مفصلا محمد صلى الله عليه وسلم الداعي من تشتيت الفرق إلى موصلات الجمع ، فقال سبحانه **(قل)** ودل على شهودنا بما أعطيناك من أسرار خطابنا ، وأوضح ظهورنا في مسطور كتاب وجودنا ، فهي رسائل منا ووسائل إلينا لمن له عندنا سابقة في علمنا أنه من خواص

عبادنا ، ومصطنع لخالص ودادنا . قوله : أباح لك ، الإباحة لها معان ، ففي لسان الفقهاء أنها أمر يستوي فعله وتركه من غير ترجيح لأحد الجانبين ، وفي لسان المحققين هو الإذن في الدخول في حضائر القرب والوصول والإغراء على كنزية السر المصون الغائب عن بواطن العيون ، ولم تحم حول شهوده الظنون ، بل أباح وفتح وأذن لك في الدخول وذلك بأن تنظر مافيها ، فلم تجد غير ظهور وإشراق تجليات نوره سبحانه من غير حلول ولاملامسة ولااستقرار ، بل ظاهر بأوصافه ، وحاكم فيها بمقتضى ظهور أسمائه ، مباين الأشياء بذاته وصفاته وأفعاله . وما أذن لك أن تقف مع المكونات دون شهود مكونها فتكون محجوبا دون وجود موجدها ، فقال : أنظروا ما ذا في السموات من الأنوار والأطوار والأسرار والأرض من الإنقهار تحت أحكام الواحد القهار ، فتفهموا عنه أسرار قدرته ، وتشهدون ثبوت حكمته . فترون في صفاء سمواته وتمكنها ثبوت أمره ، وتمكنه ،فتفهم سر قوله ﴿ **والسموات مطويات بيمينه** ﴾ وترى ما استولى على الأرض من بأ مره قبضته ، وإن الإنفلات لموجود من هذه القبضة فتفهم قوله ﴿ **والأرض جميعا قبضته** ﴾ [الآية ٦٧ الزمر] فتلج باب قوله ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه** ﴾ [الآية ٥ السجدة] ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ وقد أرشدناك إلى باب عظيم من أبواب العلم المكنون الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم " **إن من العلم كهيئة المكنون** " فإن كنت ذا فهم فالية ، فدونك بحار يحار فيها ذوي الألباب وينبه فيها ذوي العقول وينكرها كل مغرور جهول . فلو قال

: أنظروا السموات لكان دلالته على الأغيار ، وهدايته إلى الأجرام والآثار ، ولكن ذلك على مافيها من ظهور آياته ودلالات وجوده واقتداره ، وما أودع فيها من أنوار وجوده فلا تزال تسير في بحر الوجود في سفينة الأفكار الجارية برياح الأذكار إلى أن يلقى في باحات المعارف فتلتقط ثم من جواهر الأسرار ودرر اللطائف ، ولي في ذلك شعرا :

أنظر إلى ما في الأكوان من حكم ترى الوجود بنور الله موجود
فذاك من نوره يحكي الوجود كما يحكي الظلال بنور الله ممـدود
فافتح من القلب أبوابا مقـــفلة تريك في ذاك سر الله مشهود
وكل من كان ذا فهم يكـون لـه في كل شئ دلالات وتمهـــيد

فالوجود كله من سماء وأرض وكرسي وعرش وماحواه اسم العالم مخترع من قدرته ، ومبدع ببالغ حكمته . ولم يكن غير ذاته ظاهر ، فأراد سبحانه ظهور صفاته وثبوت أسمائه فبطنت الذات وظهرت الصفات . فظهرت تلك الصفات ،فسميت بالكائنات . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الأكوان ثابتة بإثباته ، وممحوة بأحدية ذاته)

فنعت الذات بالأحدية التي لم تبق ظهورا للتنويه فهي مبالغة في نعت الوحدة ، والأحدية وصف الذات إذا ظهرت وبطنت الصفات . والأكوان من حيث هي أصالة معدومة لاوجود لها عند ظهورالذات ، لأن الأكوان آثار الصفات . وقد علمت إندراج الصفات عند تجلي الذات ، فالأكوان الآن معدومة ممحوة ، فأحق ما هنا أن يقول الصفات مندرجة والآثار ممحوة . وحيث بطنت الذات فظهرت الصفات فالصفات مؤثرات ولا بد لظهورها من أثر توجه إليها بالإثبات ثبتت ، وحيث خصها بالتعيين

تعينت . فالكلام في ذلك تابع للنظر؛ فإن نظرنا إلى الذات ونعتها انمحت الأكوان وذهبت الأعيان وفني المكان ، ولم يبق إلا الواحد الأحد . فالواحد وصفه والأحد نعته ، وإن نظرنا إلى الصفات وتعدد مظاهرها قلنا بثبوت ما أثبتته ، وتخصيص ما خصصته وإتقان ماعلمته ، وتقدير ما قدرته هذه الأوصاف وغيرها من ما أظهره من صفاته وأسمائه ، فلا يظهر وصف ولايتحقق اسم مالم يشهد أثره ولم يسمع غيره . ولي في ذلك شعرا :

المحو نعت لكل الكون إن نظرت إليه دون وجود الواحـــــد الأحد
وثابت إن رأيت الله مثبـــــته فوحدة الذات تنفي كثرة العـــــدد
فكن حريصا على تحقيق ذاك فما في الكون موجود إلا الواحد الصمد

وحكمة ظهور الكون ظهور فيما يظهر تجلي كمال الربوبية على رفعة العبودية ، فإذا أثبتك فمقام العبودية يقتضي المحاسبة وتصحيح المعاملة ، ومقتضى ذلك أن تكون متهما لنفسك ومعاتبا لها في سائر أحوالك ، فلاترضى عنها فذلك مقتضى العبودية . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الناس يمدحونك بما يظنون فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها)

الناس هم الشر المأنوس بهم بعضهم ببعض ، وواحدهم إنسان ، والناس بالضرورة يمدحون من ظنوا منه الأفعال الجميلة والخصال الحميدة ، فبالضرورة يثنون عليه ويمدحونه من أنسوا منه ذلك . وذلك كما علمنا آنفا نعمة من الله أن ستر عيوبك وقبائح ذنوبك التي لو اطلع عليها أود الناس إليك لمقتك عليها ولقالك وهجرك من أجلها ، فإذا علمت أن ذلك ستر الله هو الذي جمل أفعالك وسدد أقوالك وأصلح أعمالك ؛ فحقك أن تشكر الله بما اظهره عليك من الجميل وستر من القبيح ، وأنت عليم بما أنت عليه

من العيوب ومقارفه من الذنوب . فكن ذاما لها على ماتعلمه من سوء أفعالها وقبح أحوالها ، ولايغتر بظن الناس ويترك يقين ما عنده إلا جهول لايميز بين محاسن الأحوال وقبائحها ، فلايرى ماهو عليه من النقص والإهمال لمعظم ما ندب إليه من الأعمال ، وارتكاب مانهي من الأفعال ، وبتقدير إحسانه فهو من فضل الله وسابغ نعمته وسابق منته . فكيف يسنح إلى مدح الخلق أويطمئن إلى ثنائهم . ومدح المادح وبال على ضعفاء اليقين الذين لم ترسخ أقدامهم في حقائق التمكين .

وكان السلف الصالح يكرهون المدح وينكرون على المادح ويرون أن ذلك نقص لأحوالهم وجالب لمفسدات أعمالهم ؛ كالرياء والعجب والتصنع وحب الشهرة ، وهذا إذا كان فيهم مامدحوا به ، وأما إذا كان مامدحوا به غير موجود عندهم فذاك أعظم قبحا وأشد حربا . ومانقل من المدح والثناء على أكابر الصديقين والعلماء فذلك بما فيهم مع ماهم عليه من اليقين ، ويرون ذلك من الله بارز ومنه واصل ، لفناهم عن أنفسهم عن أن تستحق مدحا ، ويرون الخلق ومايجري عليهم رسل من الله إليهم ، فلايزيدهم المدح إلا نشاطا ، ولايورث عنهم إلا شكرا لمن وصل إليهم من حضرته وثناء . وأما ضعفاء اليقين فلم يحظوا بهذا المقام ولم يخرجوا عن رؤية نفوسهم ورؤية الأغيار ، فالمدح عليهم ضار ومقامهم يأبى ذلك ، بل الأنفع في حقهم إجناب الخلق عنهم وازدرائهم لهم ورؤية ذلتهم وذبولهم وخمولهم ، ومن حقهم أن يسكنوا إلى من يذمهم ويغض من مقامهم أولى من سكونهم إلى من يمدحهم ويكرمهم ، اللهم إلا أن يفارقون من تولع بذم الطائعين لعصيانه وانتهاكه لحرمات الله ، واستصغاره لشعائره فلاجرم أن

يهجروه بهذه النية ، ولايتحقق بهذا المقام على التمام ويحرز هذه النيات إلا من قد خامر اليقين قلبه ، وامتزج الإخلاص بلحمه ودمه . وكذلك سكونه إلى من يكرمه . ومحبته له إنما أحبه وواصله وخالله لما عظم من شعائر الله ، وأكرم من انتسب إلى جناب الله فلاحرج في ذلك أيضا عند صحة النية وصدق الطوية . ويصدق ذلك أنه لو أكرم أحد أقرانه ووقره أكثر منه لم ينقص منزلته عنده ، ولم يتغير عما كان عليه ، وعلامة كونه هجر الأول أنه لومدح واستصغر أحد أقرانه من أهل الدين أنه يهجره ويقلاه لذلك وإن كان به برار وله مساعدا ، فللصدق دلائل أحوال وقرائن تبين ماكان لله مما كان لغيره . فحق المريد السالك أن لايسكن إلى المدح ولايرضاه مادام لنفسه عنده وجود ، ويرى من ذمه أنه أهدى إليه معايبه التي غفل عنها ونبهه عليها ومناصرا له وموازرا . ومن لم يجد ذلك ولم يقدر عليه فلا أقل من أن لا يعاديه ولايحقد عليه ، فذلك أقل مراتب الصادقين . وأما إذا قام لها مخاصما ومن أجلها معاديا فلايخفى أنه لم يشم رائحة الصدق . فإياك والإنكار على من رأيته ممن ينسب إلى الطريق بهذه الحالة ، فقد يكون للصادقين مقاصد محمودة في مايتعاطونه ، أما رأفة به أي المعادي لئلا يتجرى على عبادالله ، أوليدفعون عنه بردهم عليه ما هو أعظم من انتقام الله ، وانتصاره لمن ترك مراده إكتفاء به . فانتقام الله ونصره على من انتهك من التجاء إليه واكتفى بنظره أسرع من السيل إلى محله ، فقد يخاصمون لهذه النية فلا اعتراض عليهم فيما تعاطوه . فإذا ثبت اختصاص الله لهم ، وتوليه فلا يظن أنهم ينتقمون لأنفسهم ، ويخاصمون لأجلها ؛ فهم أجل من ذلك . ولي في ذلك شعرا :

الناس يثنون والتحقـــيق أنهم   أهدوا إليك غرورا لست تـدريها
لايتركن يقينا منك ظـــــــنهم   ففيك عن مدحهم شغل بما فـيها
ففي النفوس عيوب فاحتقارهم   خير لمن في طريق الصدق يدريها

ومقت النفس وعدم الإلتفات إلى رؤية الأوصاف منها علامة الإيمان ، والإيمان بما أخبرالله عنها واجب . وقد أخبر سبحانه بقوله ﴿ **وإن تعدل كل عدل لايؤخذ منها** ﴾ [الآية ٧٠ الأنعام] وقال في وصف عدم براءتها عن الأسوى واتباع الأهوى ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ [الآية ٥٥ يوسف] لذلك كان المؤمن لايزال متهما لها وذاما لها في جميع أفعالها إلا مامدحه الله .

قال المؤلف رضي الله عنه :

(المؤمن إذا مدح استحيا من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لايشهده من نفسه)

المؤمن الصادق والإيمان له إطلاقات كثيرة ، فقد يطلق بإزاء الكفر وقد يطلق مقابلا للإسلام وقد يطلق مقابلا لغيره من الأحوال الظاهرة ، وقد يراد به غاية الكمال وأعالي مراتب الوصال . والإيمان هو التصديق بالجنان تصديقا لايداخله إرتياب ولايشوبه شك ، وعمل بمقتضى ذلك التصديق مما هو واجب في حق الحق سبحانه وجائز ومستحيل . وكذلك في حق الرسول صلى الله عليه وسلم كسائر الأنبياء والملائكة والكتب والإخبارات عن الأمور المغيبات عن العيان : كإعادة الخلق وسؤال الملكين في القبر وتنعيمه فيه وتعذيبه فيه ، وبعث الأجسام والحساب والميزان والصراط والحوض والجنة والنار ، وكل ماجاء عن الله مما أخبرنا به على لسان

أنبيائه وأنزله في كتبه ، وكل ما أخبر به الأنبياء كذلك ، فهذا حد الإيمان ؛ وبهذا يسمى مؤمنا ويخرج حيز الجاحدين وزمرة المنكرين . والمراد هنا المؤمن الكامل الذي يتلقى علوم اليقين كشفا وهو إذا مدح استحيا لتحققه بمشهود صفات سيده المستحق لكل المحامد ، ويرى صدور كل المحاسن الممدوح عليها بارزة من حضرة فضله ، فلا يرى فيها استحقاق . فرتبة الإيمان شعار صاحبها الحياء من الله والإجلال والتعظيم ، فإذا مدح استحيا لمشاركته في رتبة الحمد التي هي مستحقة لله ، ومن إضافة الأفعال إليه ، وهو يراها من الله لايرى بغيره معه فعل ولا وصف يقتضي أن يثنى عليه به أويمدحه به فهكذا الايمان . والإيمان من صفات القلوب ومطالعاتها للمغيبات بنور الإيمان ومن وراء سجف الأكوان ، وهو بين رتبة الإحسان التي مقتضاها محو الأغيار وانطماس الآثار بالكلية كما أشار لذلك صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان . فصاحب الإيمان متلون لبقاء شهود الغيرية ، وصاحب الإحسان متمكن لفناها عنه بالكلية . فصاحب الإسلام يتبع الأخبار ويطلب الدلائل والآثار ، يرجو الجنة ويخاف النار وهو لم يصل إلى مقام الأبرار ، فغاية حاله الوقوف لايتعدى ذلك . ولي في ذلك شعرا :

الإيمان يعطي لمن كانت بصـيرته   تنظر عيوب بدائع صورة الحكم
إذا مـدح ذاك يستحيي سريرته   إن يثن عنه بما هو فيه منـعدم

وعندما تطلق عليه الألسن بالمدح وهو يعلم ما هو عليه من القصور فلاجرم ينزاد شكره لربه ومقته لنفسه إذا كان ذا علم وبصيرة ، وبضد ذلك تكون حالة الجهال والمغرورين أنهم يرون قصورهم ؛ فإذا أثني عليهم بحالة لم

تكن فيهم فرحوا وطالت نفوسهم ، وشاركوا الحق في صفاته ونسوا ماستره عليهم من قبائحهم وموابق فضائحهم ، فكانوا لذلك أجهل الناس . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أجهل الناس من ترك يقين ماعنده ، لظن ماعند الناس)

وكان أجهل الناس لأنه اغتر مع ظهور اليقين ، والناس جهال بحاله حيث ظنوا مامدحوا لأجله فيه ، فكانوا جهال بحاله ، وحاله غيب عنهم وهو اغتر بمدحهم وهو متيقن أنه ليس عنده مامدح به وأثني عليه به ، فكان أجهلهم لذلك ، ومن عظم جهله وشدة حماقته أن يناصح عن نفسه ويخاصم لها ويزكيها ويبريها عن العيوب بعد ما سمع من العالم بها قبل انبرائها ، المطلع على خفايا عيوبها ، فقال ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ وقال ﴿ **فلاتزكوا أنفسكم** ﴾ وأكثر خصال الجهال ومعاداتهم من أجل مايلحقها من الذم والتنقيص من بعضهم بعضا . فإذا أردت أن تعرف أن أكثر الناس لايعلمون كما وصفهم الله بذلك ، فابحث عن هذا تجده عيانا بأوضح حجة وبرهانا . والمادح أما أن يكون من أهل الدين فقد حصل خيرا بظنه لكن فاته قصم ظهر أخيه كما جاء في الحديث . وأما إن كان من العوام والأشرار فيما مدحوا إلاماوافقهم ، ولايوافقهم إلا ماكان من جنس ماهم عليه من الأخلاق اللئيمة والخصال المذمومة ، فليكن المريد أشد خوفا لذلك .

ولي في ذلك شعرا :

أشد الناس في الجهال جهلا   إذا أثني عليه رضي واستبشرا ؟

ونسي معايبه وعظم ذنوبه   وستر فضائح والإله بها لها يرى ؟

فإن قلت أنا كاره للمدح ولست أهلا له ، فما كفارة ذلك وما الذي يخرجني عند ربي ! فإذا أطلق الخلق ألسنتهم بثنائك وأنت تعلم أنك لست أهلا ولاقدرة لك في رد مدحهم ، فاعلم أن ذلك نعمة من الله عليك أن سترك وجملك ، فاشكره على ذلك وأثن عليه بما هو أهله كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل ، فأثن عليه بما أهله)

إذا أطلق وأثنى بجميل الثناء عليك أيها المؤمن الكاره لمدح المخلوقين ، المبتغي رضا رب العالمين ، المكتفي بنظره إليك ، الوجل من اختراع المعاصي بين يديه وليس فيك أهلية الثناء لنظر عيوب نفسك ، وسوء أحوالها وقبح أفعالها ، ورأيت عجزها وتقصيرها في القيام بما به يثنى وعليه يمدح . فاعلم أن هذه نعمة من الله أسبغها وعافية جللها ، فلاتغفل عن شكرها ، فاشتغالك بالشكر لله عليها أولى بك من مدافعتها وإبانها ، فكن له شاكرا ولآلائه ذاكرا وبنفسك غير مباليا ولالها مصغيا ، وعن خدعها مجانبا ولها معاتبا . فالمؤمن لايزال لنعمه شاكرا ولآلائه ذاكرا ولنفسه متهما ، ولايرى لنفسه أهلية أن يثنى عليها أو أن تضاف المحامد إليها ، ويرى أهلية الحمد ومنتهى المجد لله في كل حال ومصدر فعال ، فلايتصور منه أن يظلم أو أن لايتصف بصفات الكمال وخلال الجلال ، فهو المحمود في أفعاله ، وهو أهل كل نعمة ومنتهى كل رغبة ومطلب كل منه ، كيف والعالم شاهد بذلك حالا ومقالا ، كل له قانت وله ساجد وشاكر وحامد . ومتى لغيره وصف وبصفة من صفات الكمال ، فالكل مستمد وهو مستبد ، فله الحمد

في كل حال ﴿ **وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم** ﴾ [الآية ٤٤ الإسراء] ولي في ذلك شعرا :

إذا أطلقت لك ألسن الخلق بالثناء　　فكن شاكرا رب البرية حامـــدا
وإن كنت لم تشهد شهود مـــزية　　لنفسك زد مادون وسعك زائدا
فأهل الثناء والمجد حقـــا هو الذي　　بنعمائه عادت إلينا عوائــــــدا

وصاحب هذا المقام لم يخرج بعد عن رؤية نفسه ، وأهل الكشف والعيان بالضد من ذلك كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الحق ، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق)

الزهاد هم الذين أخذوا في تصفية قلوبهم وإخلاص أعمالهم وإخراج رؤية الخلق عن نظرهم ، فهم وإن كانوا أهل مقام شريف وحال منيف لم يخرجوا بعد من الحجاب برؤية الأغيار ومكابدة الآثار ، كما هو حال الموحدين وكمل العارفين وأهل الشهود المقربين ، الذين غابت عندهم شواهد الخليقة ، وأشرقت عليهم شموس أنوار الحقيقة ، فلايرون ولايسمعون ولايحادثون ولايجالسون سواه ، ولايشهدون إلا إياه . فعنه يأخذون الخطاب مجملا ، ويميزونه على الطالبين مفصلا ، فلايسمعون خطاب ولاينظرون في البعد والإقتراب إلا عنه وإياه ، فإذا مدحوا الزهاد انقبضوا لشهودهم له من الخلق ، فيخافون انبساط نفوسهم إليه ، واعتمادها عليه . فينقصهم ذلك من منزلتهم عند سيدهم ويوقفهم دون مطلبهم ، فلاجرم أن ينقبضون لذلك ويهربون منه . والعارفون لما لم يشهدوا للخلق في ذلك وجود ، أو لم يروا لهم في الحقيقة شهود ، شهدوا ذلك من سيدهم ، وفرحوا حيث مدحهم

وأثنا عليهم مليكهم ، فلاجرم أن تتصدع القلوب سرورا ، وتمتلي الآفاق حبورا ، ويعتريهم من الوجد بذلك مالايطاق ، كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما استقرأ أبي بن كعب بسورة لم يكن ، فقال : أقراها عليك وعليك أنزل ، فقال : إن الله أمرني أن يقرأ عليك أبيا ، فقال يارسول الله ذكر أبيا ! فقال نعم ، فقام وخجل ومازال يردد قوله : الله ذكر أبيا . فهذا وهو أخذ ذلك بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا أخذه صاحب الكشف على الكشف والعيان ، فلايرى مايحصل لهم من الفرح ، وصاحب هذا الحال لايزيد عنده من مدحه من الخلق على من ذمه ، فإذا ذمه ذام لم ينقبض عليه ورآه رسول من سيده واصل إليه ويرجع إلى نفسه بالمعاتبة والمحاسبة والتأديب ، حيث قلت الأدب على الله ، فعاتبها الحق سبحانه على لسان من وصل إليه منه الذم . وتحقيق ذلك أن يعلم أولي الأحوال العلية والأخلاق السنية أثنوا على أنفسهم وأثني عليهم ولم يحصل عندهم انقباض لذلك ، بل زادهم شكرا عليه وهم عالمون حضرة المدح على من بقيت فيه بقية من رؤية شهوده للخلق واحتجابه بالنفس . فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترك المدح ، وتركه على حسب أحوال الممدوحين . فأهل كمال اليقين والواصلين إلى أعالي أحوال التمكين أثنى عليهم بحضورهم كالصديق رضي الله عنه حيث قال له " **لست ممن يفعل ذلك خيلاء** " وغير ذلك مما أخبره به من مزايا الفضائل . وعمر ابن الخطاب رضي الله عنه حيث قال " **إن الشيطان يسلك غير الفج تسلكه** " وغير ذلك من فخام الفضائل . ولعلي رضي الله عنه " **أنت مني بمنزلة هارون من موسى** " ولعثمان رضي الله عنه بشره بالجنة ، وغير

ذلك . وجماعة من الصحابة كأبي بن كعب لما قال له صلى الله عليه وسلم **" أي أعظم آية في كتاب الله ؟ فقال : آية الكرسي ، قال له صلى الله عليه وسلم " ليهنك العلم أبا المنذر "** وماذكر به أبي قتادة وسلمة بن الأكوع يوم أغير على سرج المدينة ، وغيرهم لمامدحه من مدحه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قال له **" قطعت ظهر أخيك "** فهذا لايكون تنزيل المدح وتركه على حسب حالة الممدوح إن كان كاملا متمكنا لم يؤثر عنده مدح الخلق ظهور نفس واستشراف إلى حظ ـ فلاعليه فيه نقص ، ومادام يجد به ظهور في النفس ولم تدع حاجة إلى ذلك فتركه وكراهيته من شيم الزهاد والمريدين والعباد . ومع كونه لم يؤثر في الإنسان فتركه أولى بكل حال إلا في مواطن يحتاج إليه يطول تعدادها . ولي في ذلك شعرا :

الزاهدون لهم حال ومـــــنزلة تعطيهم القبض إن فاهت به الغير
والعارفون كذاك المدح يبسطهم لكونهم خرجوا عن رؤيـــة البشر

وللموحدين علامات تعرف بها أحوالهم ، وتثبت بها مقاماتهم ، وبها يخرجون عن المدعين لمقامهم من غير تحقق . فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى كنت إذا اعطيت بسطك العطاء ، وإذا منعت قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك ، وعدم صدقك في عبوديتك)

هذا ميزان تعرف به ما أنت عليه من الحال ، فمن نصح نفسه ولم يكابر أنصف عند ماتشاهده الدلالة وتشاهده العلامة من نفسه ، فمتى كان بحظه لم يخرج عنه ولا انتزع منه فليتق الله في دعوى التوحيد وإخلاص العبودية ، فليسأل الله ويلجاء إليه أن يحققه له ويلحقه بعمار أهله ، فإنه

بعد لم يخرج عن حظ نفسه ولم يخلص العبودية لربه ، فمتى أعطيت حظك ونلت مآرب نفسك بسطك العطاء لاالمعطي ، فإذا منعت عن حظك ولم تنل حاجتك الناجزة قبضك المنع لا المانع ، فاستدل بذلك ؛ أي بهذه الحالة على طفوليتك في أهل الله . والطفيلي هو الذي يتطفل في الولائم من غير أن يدعى إليها فينتسب أنه من أهلها وهو أجنبي عنها ، فيترك تكرما من أهلها أوحياء ، فالمستجيبين منه نفوسهم تمقته ، والكرماء قلوبهم ترحمه لما يرون من ضعف همته وسفاهته وقلة عقبه . وأول من تسمى بذلك رجل كوفي كان يدعى طفيلي الأعراس ، وذلك أيضا دليل على عدم الصدق في عبوديتك ، لأن صدق العبودية يعطي الصادق أن يكون مستغرق الهم في أوصاف معبوده ، ولايفرق بين مايصدر عنه من الأفعال فهو عنده في كلا الأحوال ، فلاتكون إلا ناظرا إلى حسن تدبيره واختياره ، فانيا عن سائر الحظوظ .

وقال : متى بسط العطاء ، أما لوكنت في بسطك لأنه برز من حضرة اسمه الباسط فلاحرج عليك أن تنبسط بفعل ربك لابالفعل مجردا عن فاعله ، وكذلك بالقبض لو انقبض لكونه أثر اسمه القابض فلا حرج أيضا أن ينقبض لما يعطيه الكشف من تجلي الإسم القابض ، فيكون مع الفاعل لامع الفعل . فليفهم الفرق بين البسط والقبض بالله وهما بغيره . فأكثر المنتسبين إلى الطريق قد يظنون صدقهم في عبودية ربهم ، فإذا طرقهم أمر مما يناقض مرادهم أويخالف حظوظهم بانت لهم غرور دعواهم ، فعبيد الحروف الواقفين مع الظروف خاسرين ، وعن مقاصد الصدق ناكبين كما وصفهم في كتابه بقوله ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه**

خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴾ [الآية ١١ الحج] خسر الدنيا بفوات مراده والآخرة بعدم صدقه في عبوديته .
ولي في ذلك شعرا :

متى تكون بما تعـــطاه منبسطا   وعند منع تكن بالقبض موصـــوف
فاعلم بأنك طفيـــــلي بمذهبهم   كما يـــرى ذاك بين القوم معروف
وليس لك في طريق الصدق مشربهم   فعبد حـــــق تكن بالله مشغوف
لايوحشك قط بلــوى في محبتهم   ولا العطاء بل لديه الكل مـــألوف

فإذا كان الكل فائض من حضرة فضله أوحضرة عدله ، فلابد من تعاقب الأحوال على العبد بحسب ظهور هذه الأوصاف ، فلذلك لما علم الله أنه سيكون ظهورها مايناقض العبودية لتنمحي آثار ذلك المظهر الطارئ على محل الفضل ، فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبب ليأسك من حصول الإستقامة مع ربك ، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك)

إذا وقع منك أيها المؤمن السالك لطريق العبودية المتوجه بقلبك إلى حضرة الربوبية ذنب مما يناقض استقامتك على سبيل الهفوة والفلتة ؛ والذنوب تختلف باختلاف الخلق ، فمنها ماهو من ذنوب الخاصة وتدق عن نظر العامة ، ومنها ذنوب العموم وهو ظاهر يعرفه كل أحد ، وهو ماظهر من قبيل الأفعال الحسية ، وأما باطن من قبيل الخطرات والنيات القلبية . والذنوب حجاب عن مطالعات أسرار الغيوب ، وبها يكون التعرف من نيل كل مطلوب ، وسبب مقارفتها يكون البعدعن حضرة المحبوب . والذنوب منها مايكون بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى ، ومنها مايكون بين العبد

وبين العباد . وماكان للعباد أما أن يكون في دم أوعرض يدخل فيه كل ما يتألم منه الإنسان ولوفي أهله وأصدقائه ، ولاسبيل للخروج من حقوق العبادد إلا بالأداء أوبالإستحلال ، فبذلك يخرج عن الإصرار الذي ينافي وجود صحة التوبة وماتعذرأداؤه ، كأن لم يوجد صاحب المال أولم يعرف عينه فينبغي أن يتصدق بقدره في وجوه الخير ، وينوي أنه إن ظهر صاحبه رده إليه ، فبذلك يرجى له صحة التوبة ، أوكان الذنب في العرض مما يورث الإستحلال منه زيادة نفرة فينبغي أن يستغفر لصاحبه ويكثر في مقابلته من الطاعات ، ويضرع إلى الله بصدق نية أن يرضيه عنه ، فالمرجو أيضا أن يرضيه وتصح توبته ، هذا إذا لم يبلغه فلا بد من استرضائه ، والدم أما بالتمكين من استيفائه أوبالعفو على مال وعلى غير مال ، أوبالكفارة إن كان قاتلا .

وأما بين العبد وبين الله فيكفي فيه التوبة بشرائطها وهو أن يعزم على أن لايعود إليه ولا إلى مثله ، فيقلع عنه حالا ويندم على فعله ، ولايترك التوبة لعظم الذنب عنده ، فما عندالله من المغفرة أعظم ، والتائب من الذنب كمن لاذنب له ، والتائب حبيب الله . ولايتركه لخوف العود إليه فهذه خدعة من خدع الشيطان يخدع بها الجهال فيبقون على الإصرار خشية العود عليها . والإصرار أعظم من الذنب نفسه ، ولعل ذلك آخر ذنب قدره الله عليك ، فالذنب مقدور مابقي ؛ وإلا تائب نادم ، ومصر قادم . وأما نفس الذنب فلايشقى من سبقت له من الله عناية ، ولاحظته رعاية . فقد جعل لك من كل ضيق مخرجا ، فجعل مخرج التوبة من ضيق المعصية . ووردت أحاديث في فضائل التوبة وآيات ، فمن

الآيات قوله سبحانه ﴿ **إن الله يحب التوابين** ﴾ وناهيك بها رتبة أرفع المراتب ، ومنتهى المطالب ، وهي التي وجدت بها الأطوار والعوالم ، وإليها ينتهي علم العارفين ، وتقيم فيها أسرار المقربين . فهي أول مبادئ الطريق ، وغايتها نهاية التحقيق .

ومن الأحاديث القدسية " أن العبد إذا أذنب فقال رب اغفر لي يقول الله سبحانه وتعالى : عبدي أذنب ذنبا فعرف أن له ربا يغفر الذنب وياخذ به ، إذهب فقد غفرت لك . وثانيا وثالثا كذلك ؛ قال : فليفعل عبدي ماشاء ، أي مادام يذنب ويستغفر فأنا أغفر له حتى يتولى فيصر ويستكبر ، فعند ذلك يجازى العبد بصنيعه . فالإستقامة بعد التوبة على حد العبودية غير مستبعد ولامستنكر ، والفزع والتفحش يحسن قبل فعلها ، وأما بعد الفعل فلا أحسب ذلك إلا عقوبة فعلها ، وهو أن سلط على العبد خواطر تؤيسه من رحمة الله ، ويضيق صدره من محبة الله . فلاينبغي إلأ حسن الظن بالله فهو بعدها شأن الموفقين من السالكين ، والعلماء بصفات الله ، الواقفين على نظر تقدير الله ، وغالب حكمه الذي لاراد له ولامعقب .

وعبر المؤلف رضي الله عنه بقوله : مع ربك ، تأنيس للعبد باسم الربوبية الذي هو أخص أسماء الجمال ، وفيه مجامع العطف والرأفة والرحمة ، فالرب هو الذي يربي ، أي يرحم ويتعطف ويرأف ، وهو سبحانه رب العالمين ، أي مالك كل العوالم ومافيها ، فهو رب الأرباب ، ولولا ربوبيته وسبوغ رحمته وشمول محبته لجميع خلقه لهلك العاصي في ملابسة معصيته ، وذلك عدل ، وليت شعري من الذي لم يبارزه بمعصية ظاهرة أوباطنة غير

المعصومين ، ومع ذلك لم يقطع عنهم إمداده ، ولاحرمهم إسعاف جوده وإرشاده . فسبحانه ما ألطفه وأعطفه ﴿ **ولو يواخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة** ﴾ [الآية ٤٥ فاطر] فالذي لايتصور منه الذنب لعدم تكليفه بمن حصل منه وإلا فالكل مكلفين بتكليف القيام بحق الربوبية ولاقائم به فما قدره غيره ، فسبحانه اللطيف الخبير . ولي في ذلك شعرا :

لايؤيسنك ماقارفت من عمل   من استقامتك فإن الله تـــــواب

فشأننا دائمـــــا نعصي ممارسة   وشأنك الفضل منك الدوب سكاب

فالمطلوب من العبد الإعتدال بين خوفه ورجائه ، وهما حالتان ينشيئان عن سببين ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد مامنه إليك ، وإذا أردت أن يفتح لك باب الحزن فاشهدد مامنك إليه)

إذا أردت أيها السالك طريق الخوف أن تفتح روحك على قلبك بروح الرجاء لئلا يستولي عليه الخوف ليخرجه إلى القنوط من رحمة الله واليأس من روحه ؛ فلفتح ذلك الملكوتي سبب ، وأعظم ذلك وأقواه أن تشهد مامنه إليك من الفضل والإحسان ، وسوابغ الرحمة والإمتنان ، من غير سبق طلب لذلك ولاتعرض ، وما يواليك بعد الوجود من الإمداد وما أنت عليه من التقصير فيما أمرك ، ومقارفة مانهى ، وقبول توبة الخطائين وإن عظمت عليهم ، وذلك من غير استخفاف لأحد عليه ، ولافي مقابلة عمل ولامستقبل أمل ، بل فضل من الإله المفضال ، وتعبيره بالفتح لتعلم أن لن تنال فتح أبواب الغيوب إلا بمعاملات أحوال القلوب ، والشهود

لايكون إلا بالإعتبار والإبصار القلبي . فبالإعتبار يعبر من الشاهد إلى الغائب ، وعند فتح ذلك الباب تشرق فيه أسرار أنوار الجمال ، فلا يكاد يتماسك إليها ولايعرج إليها . فهذه أول مبادئ الفتوح ، التي من أسرار الجمال تلوح . وإذا أردت أن تفتح باب الحزن الذي هو علامة الخائفين أن خشيت الوقوع في الرجاء حتى يخرجك إلى الأمن من مكر الله والإدلال على الله ، فاشهد مامنك من الذنوب ، والتلطخ بقاذورات قبائح العيوب ، وعند فتح ذلك الباب يغلب على المريد شهود آثار صفة الجمال من السلاسل والأغلال ، فيكسبه الذبول والإضمحلال ، تحت محرقات مظاهر الجلال . فلا يزال كذلك حتى يقول لسان حاله منشدا :

فدهشت بين جلاله وجماله　　وغدا لسان الحال عني مخبرا

فهذه دهشة الفناء الكلي عن الوصف الخلقي ، والتعلق بالكمال الحقي ، فيكون لسان الحال عنه مخبرا كما قال العبد في ذلك :

شاهد جمالك يورثـــــني مخالجة　　تخامر النفس حتى تذهب الفـكر
وشاهدات جلالك لاتبين لـــــه　　من حاله شاهد يظهر ولاخـــــبر
وناب عنه كمال الله فاسألـــــه　　عما بدا لك من مجلولــــــه النظر
إن كنت تطلب أن تشهد جلالته　　تجد معايـــــنه عمت سائر القطر

والعبد لايزال يتحرى ماهو الأولى به ، وأقرب إلى الأدب في حضرة ربه ، فالقبض أصل الحزن ، والبسط أصل الرجاء ، وعنه يظهر على العبد علائمه ، فارتفاعه عن هذين الحالين كان نعته ، ووصف مقامه القبض والبسط ، لذلك فرع المؤلف كلامه عليه فقال :

(ربما أفادك في ليل القبض مالم تستفده في إشراق نهار البسط ﴿ لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ [الآية ١١ النساء] **)**

ربما تأتي للتقليل وقد تراد للتكثير ، وهنا المراد ربما للتقليل ، فأدرك الظفر بمقصودك ومرادك سكونك في ليل القبض الكف عن مناقضات العبودية ، وهو أي الكف قسيم للسعي في ابتغاء تحصيل الأوامر ، وقد يؤثرون الكف عن المنهيات مع السلامة من الآفات على الإتيان بوظائف العبادات ، مع تطرق الآفات ، وتوقع مصائد المهلكات . وهذا نادر حيث عبر بربما ، والأغلب أن الإبتغاء يصحبه مزيد البركات ومفاتيح أبواب السعادات ، فالتعبير بالليل للقبض وبالنهار للبسط من أبدع العبارات وأوضح الإشارات ، فالليل نعمته السكون ، والنهار نعمته الإبتغاء ، ولاتدرون أيهم لكم نفعا ، فربما أفاد السكون من السلامة مالم تستفده في الإبتغاء من الغنيمة . ومن رحمته جعل الليل فهو المقدم في الرتبة الخلقية ، لأن الأصل السكون والكمون ، والأصل في الشئون الحقية الإشراق والظهور ، فلذلك كان اعتماد طريق العبودية الكف ، وجل الصفات الحقية الإبتغاء ، والترقي في المعارج الوصفية ، وتعبيره بربه محققة ماذكرنا لك من تلك الحكمة المصونة والدرة المكنونة . ومن فوائد القبض الذي يحصل للعبد مايورده الحق على غير مقتضى الطبع وخلاف الهوى من البلايا والمحن ، من عظيم الأجر وجزيل العطاء ، ولي في ذلك :

وربما يستفيد العبد مكـــــرمة   في ليل قبض فكن عني بذا خبرا
وفي شروق النهار البسط عافية   لم تدر أيهما خـــــــيرا فتنتظرا

فكلما جاء ففيه ألطاف خافيـة ونعمة لذوي التحقيق والنـــظرا

فأنوار تجلي الحق سبحانه غير محسوسة ولامدركة بالحواس الظاهرة ـ أعني أنوار ذاته وصفاته وأفعاله ، وأنما هذه الأنوار الذي ترى آثار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(مطالع الأنوار القلوب والأسرار)

مطالع الأفلاك الحقية والصفات الأزلية ، والنعوت الذاتية ؛ القلوب المطهرة والأسرار المنورة التي لم تتلوث بلوث الأغيار ، ولم تتدنس بدنس الآثار ؛ قلوب الأولياء المقربين ، والصفوة الأخيار . فالقلوب لتلقي واردات المواهب الربانية ، والعلوم الإصطفائية ، وتتقلب في حلل الأسماء الحقية . والأسرار تتنزه في رياض الصفات العلية ، وتكرع في حياض المناهل الحسية ، واللطائف القربية . فنجوم العلوم وأقمار الإيمان وشموس الإحسان ، والشهود والعيان مطالعها القلوب وليس لها غروب كما تغرب الأفلاك الحسية ، ويطوى عليها التغيير واختلاف التقدير بين كبير وصغير ، وإلى الفناء تصير . وأنوار القلوب والأسرار ليس تتغير ولم تتلون ؛ بل هي متمكنة في سموات أعلى الصفات ، وباقية ليس لها انقطاع ، ولا لورودها امتناع ، تتجلى كل حين بكمال لايتصور بمثال ، ولايدخل تحت حيطة الأشكال . وهذه قلوب عرفت مقاصد الحقائق ودقائق الطرائق ، لاتوثقها عن مقصدها العوائق ، ولم تتشبث بها ظلم الشهوات والعلائق ، بل سارحة في رياض الأنس ، ومتبوئة فسيح حضرة القدس ، قلوب الأولياء المقربين الذين اصطنعهم لنفسه ، فلو بدت أنوارهم وأشرقت مصونات أسرارهم ؛ لتعطلت هذه الأنوار الظواهر ، ولولهت فيها العقول

والنواظر ، فسبحان من ستر سر اختصاصه في خواص عباده ، وأدرج مضيئات أنوارهم وحجبهم عن عباده ، في أكناف بلاده . ولي في ذلك :

إن القلوب مطالـــع نور قدرته تطلع عليها طوالـــع نوره النضرا
كذلك السر يعطـــيه ويلبسه من وصفه العلم هو والسمع والبصرا
فلاتزول وإن زالت شواهدهـــا على دوام وجود الله فاعتـــــبرا

فأنوار القلوب مستمدها من أنوار الصفات كما تستمد النجوم الفلكية من نور الشمس الحسية ، كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(نور مستودع في القلوب مَمده النور الوارد من خزائن الغيوب)

نور من نور وجوده سبحانه ، هيأه لما علم أنه يكون منه وله ، والنور هو الوجود ، والظلمة هي العدم ، وهذا نور استودعه الله القلوب وجعله محل خطابه ، وأرضا لنزول ألوهيته ، ومستقر رحمته ، وظهور منته ، وهو المعبر عنه بالقلب حقيقة . والقلب له معان كثيرة ، فعند المحققين هو ماذكرنا من الوجود ، وعند علماء الطريقة هو مايظهر من آثار الأسماء وتنشأ عنه الحركات المدركات الحسية ، الدالة عليه هذه اللحمة الصنوبرية الكائنة في الجهة اليسرة من البنية البشرية ، والأطباء في علم التركيب يقفون عند هذه ويسمونها قلبا ، والكل راجع إلى ماذكرناه أنه نور وجودي يتلقى ماتجلى من أسرار الغيوب ، ويستمد من مجموع الصفات وهو الروع الذي يتلقى الأنفاس القدسية ، ويشهد اللطائف الروحية السماوية ، والحقائق العرشية . وبهذا ظهر شرف الإنسان على سائر الأكوان إذ لم يتسع الحق سواه ، ولذلك قال سبحانه في بعض الأحاديث القدسية " **ماوسعني سمواتي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي** "

فلاتزال الأنوار الوصفية عليه مشرقة ، وفي أرجائه مضيئة على دوام الديمومية الحقية . ولي في ذلك :

نور اليقين بسر القلب مودعه تمدها من ظهور أوصافه الحكم

فيحمل الأمر يقبله مشاهـده بفضله في معاني أحرف الكلم

فالنور منه نور باطن في القلب تدرك به أسرار الغيوب ، ونور ظاهر من أثر اسمه الظاهر ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(نور يكشف لك به عن آثاره ، ونور يكشف لك به عن أوصافه)

نور يكشف به عن آثاره في أرضه وسمائه ، وفي آفاق جهات مبتدعاته ، وهو من الأنوار العامة الفلكية ؛ كالشمس والقمر والنجوم والفجر والشفق ، وإما محصورة مخصوصة من جملة الحركات الأرضية : كالنار ، ولابد لهذه الأنوار من ظاهر يقبلها كنور البصر الظاهر ، وهي أي هذه الأنوار الظاهر فيها اعتبار ودلائل للواقفين على مشاهدة الضوء تدل على وجود موجدها ، وتدحض حجة المعاند لباريها ، كما قال الله سبحانه في حجة خليله على من ادعى المشاركة في الألوهية حيث قال ﴿ **فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر**﴾ [الآية ٢٥٨ البقرة] وندب العباد إلى النظر في بديع حكمته وباهر قدرته في غير آية من كتابه ؛ هذا في الأنوار الظاهرة المحسوسة ، ونور باطن مخصوص به ذووالأسرارالطاهرة والأرواح الزاهرة ، والوجوه الناضرة التي إلى ربها ناظرة ، وذلك النور هو نور وجوده ، وبه يكشف عن حقائق شهوده في دوام وجوده ، كما كشف بنور البصيرة الظاهر عن الأنوار الظاهرة ، فإذا لم

تكن في العيان الظاهرة أبصار فما ذا تغني عنه الشموس والأقمار ، وإذا لم يكن في البصائر الباطنة أنوار فماذا يدركه الإستبصار ، وماذا يغني عنه ظهور الحقائق والأسرار ﴿ **ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور** ﴾ [الآية ٤٠ النور] فالنور المجعول هو الذي هيأه لقبول نور وجوده ، وأهله لتجلي شهوده ، فما يقبل أسرار تجليه إلا حقائق أنوار توليه . ولي في ذلك :

نور الظواهر يكشف مايؤثـــــره في الكون من سائر الأجسام والصور
ونور باطن يكشف غيب قدرتـه ويشهد أوصافه في باطن القــــــدر

فالأنوار الغيبية والأسرار القلبية آثار اسمه الباطن ، كما أن الآثار الخلقية أثر اسمه الظاهر فهما في الغيرية سواء لمن يتقيد بظواهر الآثار ، وأوقف عند مشرقات الأنوار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه حاكيا عن الوقوف مع مايظهر له من الأنوار :

(ربما وقفت القلوب مع الأنوار ، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار)

ربما للتقليل ؛ فقليل من يقف مع غير الله بعد مايكشف له عن صريح العلم ووفور المعرفة ، والقلوب وقوفها عند مايظهر لها من الآيات ، ويلوح من الكرامات حجاب ، لكنه حجاب نوراني لطيف ، ووقوف النفوس مع مقتضى الطبع والهوى والإنغمار في ظلمات الشهوات ، والإنقياد للعادات حجاب كثيف ، والنفس من حيث طبعها الحيواني الأرضي ظلمة ، فكان حجابها مما يشاكلها من الشهوات الحيوانية ، والعادات البشرية ، والقلب من حيث وضعه نوراني فكان حجابه الوقوف مع الأغيار وإن كانت من قبيل الملاطفات والأنوار ، والوقوف مع غير الله كائنا ماكان حجاب عنه ، ومطلب الصادقين الفناء عما سواه ومن أنفسهم وشهودهم وأحوالهم

ومعارفهم وعلومهم ومقاماتهم وكراماتهم ، فلايقف بهم عن مرادهم مراد ، ولايوثقهم دون محبوبهم وثاق . فالمريد سهم خرج عن قوس لايقف دون غرضه ، وكلما عارضه من المشغلات قطعه ، وكلما بقي عليه من الحظوظ وضعه ، ولايلتفت عن مقصده ولايقر دون محتده ، والخلق في أصل إرادتهم مختلفين بحسب اختلافهم فيما سبق لهم من الأقسام ، فمنهم من لايقسم له إلا في العمل بمقتضى مقام الإسلام ، ومنهم من يكون مستقرا سيره إلى حالة الإيمان ، ومنهم من يكون له شهود حضرة الإحسان ، والتحلي بحلي ملابس الشهود والعرفان ، ومبتدأ سلوك كل من سر مقامه يجذبه إليه ويوحيه فيه ، فلايتعدى به عنه ، وكل مقام أعلى فقد أخر مادونه وزاد بما اختص به من الزلفى ، وكثير ممن يقف ثم يتدارك بعناية ، أما بأن يكشف له في سره مايزيل إلتباسه ويحققه بحجبيته فيوخذ في الطلب إلى المقصد . ومنهم من لم يكشف له عن ذلك من نفسه ولكن يقيض الله من يأخذ بيده من ورطته ويعرفه أن ثم مطلب أرفع مما هو مقيم عليه ويدنيه الله بواسطته إليه ، ويرزقه القبول لذلك ، ويقيض على يديه من ظهور سر العناية مايستدل به على علو مقامه . ومنهم من يقف ولايأخذ ممن أتاه ولايهتدي إلى المقصد المطلوب بنفسه ، فيبقى يتردد في مفازته ، ولم يظفر بمقتضى إرادته . ولي في ذلك :

فربما يقف القلب السدوح على ... مالاح له من بها الأنـــوار والعبر
كما تقف ثم نفس عند مطلبها ... من حظها الأرضي الموصوف بالغير

فإذا تحققت أن أنوار القلوب والسرائر أبهى وأعلا من أنوار الظواهر وأجل وأسنى ، فلما ظهر الأدنى واختفا الأعلا كما قال المؤلف منبها على حكمه : سترهابكثائف الظواهر ، فقال رضي الله عنه :

(ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالا أن تبتذل بوجود الإظهار ، وينادى عليها بلسان الإشتهار)

ستر أي غطا وحجب أنوار السرائر التي سبق ذكرها التي مطالعها القلوب ، كنور الأسماء والصفات ، وتجلي كمال الذات على قلوب الأنبياء والصديقين المقربين ، والسادات الأولياء العارفين ، أهل حق اليقين وعينه وعلمه ، الذي لوكشف نورأدناهم لغطا نور الشمس الذي هو أعظم الأنوار الظاهرة ، وقد غطا هذه الأسرار ومشرقات الأنوار بكشف البشرية تحت أصداف الغير ، وحجبها عن النظر بمباني الصور ، وذلك حكمة منه وغيرة لجنابها وصونا لحسنها وجمالها أن يناله غير أهله ، ونقابا على عرائسها العزيزة ، ومناصبها الحريزة أن يبتذل لها الأجناب ، وينتهكها الأسقاب ، فلايكشف نقابها ويرقى جنابها إلا من كان من خطابها ، ولايداني صبرها إلا من كان من أحبابها ، ومرتضعين بإمراء صعابها ، فيغار على إظهار كل نفيس ، ويصير على إشهار كل أريس ، فإشهار ذلك وإظهاره لغير أهله نقص من قدره ، وكل نفيس لابد له من صوان ، فسبحان العليم الحكيم .

ولي في ذلك :

سترت أنوار أسرار الوجـــود كما يكون كل عـــزيز القدر محجوب

وذاك حكمة علام الغيـــوب فما في حكمة الله كالأشياء معـــتوب

وأنوار السرائر مجلاها وكهف إكتنافها قلوب الأولياء المقربين ، والأبدال المحبوبين ، أهل عين اليقين وأهل الشهود والتمكين ، لذلك نعتهم بنعته ووصفهم بوصفه ، لما توالت عليهم الأنوار ، وغمرتهم الأسرار ، فكانوا عن نعوتهم وأوصافهم الخلقية فانيين ، وبأوصافه ونعوته الحقية باقين ، وبصفاء جمال حضرته متصفين ، لذلك أصفاهم . قال المؤلف رضي الله عنه :

(سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه)

سبحان من لم يجعل الدليل عليهم ، أي الأولياء والسادات البدلاء ، والعارفين الأصفياء ، والمقربين الأخفياء ؛ تنزه وترفع أن يوصل إليه بغيره ، ويستدل عليه بسواه ، فلم يجعل لأحد إلى معرفته سبيلا إلا بماتفضل به وتطول من إفاضة منته ، وأسبغ من عميم رحمته ماد ل به من سبقت له منه عناية ، وغمرته منه ولاية ، فأفاض عليه من أنوار ألطافه وأسرار أوصافه ما أشعر بوجوده ، وحقق للعارفين شهوده ، وأمد قلوب أوليائه بأنواره وجنوده . فلاحت لهم كواكب العلوم ، وأشرقت عليهم بحور الفهوم ، وطلعت لديهم شموس المعارف ، وتجلت لهم الحقائق ، وتنزلت عليهم من سموات الأسرار المواهب واللطائف ، فكانوا بها متصفين ، وبجمالها متمتعين ، فذهلوا عن وجودهم عند تجلي شهودهم ، فلذلك اصطفاهم ، وبحبه وسابق لطفه تولاهم وأدناهم ، فكان لهم من غيرته عليهم سترا ، وفي ملكوته بين الملاء ذكرا ، فنزههم بتنزيهه عن أن يوصل إليهم بسبب دونه ، ما أوصل إليه من سابق عنايته وتلطفه وولايته ، ولم يوصل إليهم أي إلى التحقيق بمقاماتهم والكروع في حياض معارفهم ، والدخول في غمار طوائفهم

إلا من أراد أن يوصله إليه ، أي بالتحقيق لمعرفته ، والتمتع بشهوده ومحبته ، ويدخله في أهل وده ، والجذب إلى الترقي إلى فسيح حضرته ، مع خاصته الصالحين لخدمته ، والعاكفين بقلوبهم على الإقبال بالغدو والآصال ، المخصوصين بالتولي والإجلال في جميع الأحوال ، أهل الهمم العوال ، والأدباء في جميع الأحوال والأقوال والأفعال . فمعرفتهم بمعرفته ، ومحبتهم بمحبته ، ووصلتهم بوصلته ، ولكنهم طبقات : فمنهم من يظهره الله رحمة للعباد ، وغيثا ومربعا للبلاد ، ويصلح بهم الخليقة ، ويوضح بهم المحجة على من استكبر ، وتولى عن الله وأدبر ، فيمشون بين الناس بالنصيحة الخالصة ، ويدعونهم بالكلمة الجامعة ، ويؤلفون العباد على الله ويحببونهم إليه ، ويحببونه إليهم كما ورد بذلك الخبر ، فهم البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض . ومنهم : من أظهره الله للخاصة دون العامة ، فبه تنتعش أسرارهم ، وإليه تدنوا وحوله تطوف وتحنوا ، وتستمد من روائحه نسائم الوصال ، وتدنوا من دوحته ثمار الحكمة ، وتقتبس من جذوته الأنوار ؛ لاتعرفه الأغمار ولايظفر به الأغيار ، ولم تستبعده العوائد . يبدوا لمن أذن الحق له بالتقريب ، وهو من الأغيار غريب ، وللطالبين قريب ، قد جعل الحق عليه قبابا ، ونصب في الملكوت محرابا ، وجعل جنود الأنوار له إحرابا ، والقلوب مآبا ، يسوق الله إليه من أراد من عباده ، ويكتنفه بسر غيرته بين أكناف بلاده ، وهم الذين برؤيتهم يذكر ، وغيره بحضورهم ينكر ، يفرون منهم مطموسين البصائر ، كما يفر الخفاش من إشراق الشموس البواهر ، لكل أحد عند رؤيتهم مثال يظهر فيهم حقيقته ، وتستبين به طريقته .

ولو أخذنا في وصفهم ، وبسطنا الكلام في فسيح نعتهم ، لما وجدنا إلى الإنتهاء سبيلا ، لأنه سبحانه ألبسهم من خلع أوصافه ، وأفاض عليهم من أنوار ذاته . فمن الذي يقدر على أن ينعت ذلك ، فما يعرفهم حق المعرفة غيره ، كما أنه واهب أسرارهم ، وموضح أنوارهم ، ومتولي أفعالهم في إقبالهم وإدبارهم ، فهم صفاته من خليقته ، والمخصوصين بمنته بين بريته ، أوجدهم وأوجد لهم ، فسبحان المتفضل المنان ، والمتعطف بالحنان .

وقوم أظهرهم له دون أن يظهر لخاصة وعامة ، فلم يعلم مابينهم وبينه غيره ، فيغيبون عن الملائكة الكرام ، ولم يعلم بهم أهل كل مقام ، يلقونه بما أودعهم مصونا ، فيتولى أمرهم ، فلم تظفر بهم الأكوان ، ويراهم الزمان ، قدستروا في كهوف الأمن والأمان ، معشعش أرواحهم عرش الرحمن ، غائبين عن الأكوان ، مهيمين في جمال ذاته لا أخبارلهم بسواه ، ولايشهدون في الدارين إلا إياه ، لاتعدوا عليهم الأغيار ، ولاتطمع منهم جنة ولانار ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ؛ الرحمن ، ومعرفة الأولياء لمن يريد سلوك منهجهم ، واتباع أثرهم من أخص ما منح به المريد ، وذلك بأن تطوى عنه الصفات البشرية ، ويظهر له صفات الخصوصية . وإذا أراد الله حجابه عمن أبعده عن بابه طوى سر الخصوص في صفة البشر ، كما عنه أخبر عمن كفر ، وعن الحق استتر ﴿ **ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون** ﴾ [الآية ٣٣ المؤمنون] فمعرفة سر الخصوصية في الإنسان غامض عن العيان ، لم يدركه الأنوار إيمان وشروق عرفان . وأما معرفة الله فيعرفها الثقلان لما هو عليه من وضوح الظهور الذي لاينكر ،

والتحقيق الذي لايستر ، الذي عقل من لربوبيته أنكر ، ولألوهيته جحد واستكبر ﴿ **فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين** ﴾ [الآية ٢٥٨ البقرة] لما من سره استأثر ، وطوى من نور خصوصيته تحت سجف البشر ، الذي حجه به صاحب الحجة ، فلو هدي إلى سر ذلك لبهرته الشمس الإبراهيمية ، المحجوبة في الصورة الخلقية ، إذ لو ظهرت لعنت لها هذه الشمس الظاهرة ، ولخفيت عندها البدور الباهرة . فانظر إلى عظيم قهره وعزيز أمره ، كيف حجب هذه وبهت من هذه ، فما أعظم غباوة المنكرين لشموس الإنسانية ، والخصوصيات الخفائية ، والتنزلات الرحمانية ، التي تستمد منها سائرالعوالم ، وتحيا بوجودها سائر المعالم ، أرواحهم عمد السموات العلوية ، وأشباحهم رواسي الأشباح الأرضية ، وأنفاسهم مجاري الأقدار ، وتمتد عنها ساعات الليل والنهار ، وبها تدور الدوائر الفلكية ، وتجري الأرزاق المائية إلى الأرواح الهوائية والترابية والمعدنية والنبات والحيوان ، وتثبت بوجودهم الأديان ، وتقوم ظواهر الأبدان ، مظهر سر رحمانيته ، ومشهد سر أنيسه ، ولكنه سبحانه لحكمته ورحمته بخليقته سترهم ، إذ لو ظهرهم وبسره أشهرهم لما كان لأحد أن يأتي على خلاف ما أشاروا إليه ، وإن أبى ذلك فقد باء بغضب من الله ، ولما كان لأحد عليهم نعمة يتقرب بها إليهم ، ولهلك كل من احتقر ، وفي إجلاهم قصر في حال وقته ، ولم يؤجر من اصطنع إليهم معروفا ، لأنهم مظهر ألوهيته ، وبواطنهم تجلي هويته . فأين من تمده ممن أنت تخاطب ؛ وبين من تحاور وإلى من أنت ناظر ، ولكن

ستر سر الخصوص عن الأبصار والعيان ، ولم يظهر منه إلاقدر يحصل به الإيمان ، لمن اختصه من عباده .

وإلى ماذكرنا أشار الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه حيث قال : لو ظهر سر الولي لعُبد . فهم العرائس المخدرون في حجال الأنس ومخادع الحضرة ، ينظر الله بسرعنايته ويواليهم أنوار نظراته ، وينادون في الأقطار بالتحيات عليهم من الله أفضل السلام والبركات ، تحف بهم المنن والألطاف في السر والعلن ، وتشمل من حضر المواهب السنية ، والفتوحات الهنية ، ولي في ذلك شعرا :

قوم إلى الملاء الأعـــلى تشوفهم   تظهر لهم في رياض القرب آيـات

إذا دجى الليل تلقا حين تسمعهم   إلى مليك لهم في الذكر رنـــــات

وفي القلوب لواعج شوق سيدهم   والوجد يبدي ويجري فيض عبرات

تسمع زفير إذا أرخوا أعنــــتهم   من النحيب وفي أحــــيان أنات

فلهذا السر العجيب والنازح القريب والآهلي الغريب سبح المؤلف في ذلك متعجبا وله متطلبا ، مع أنه ماغاب فيطلب ، ولاظهر فيغرب ، بل هو الموجود وماسواه مفقود .

واعلم أن الإطلاع على أضرب من حيث الكشف ، فمنه ماهو على الآيات والمعاني ، ومنه ماهو على الغيوب الخمسة : الغيب العرشي ، والغيب الكرسي ، والغيب الملكوتي ، والغيب الجبروتي ، والغيب السماوي . وكل غيب من هذه الغيوب يظهر شاهده في الدار الآخرة صور متشاكلة ، وفي عالم الدنيا تظهر صور ممزوجة بما لايعطي كشفها على التمام ، فلذلك مظاهر في الإنسان ، والغيب الإنساني إذا انكشف أدركت

فيه سائر العوالم ، وقد يكشف عن العوالم هذه ولم يُدرَك كنه عالم الإنسان ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما أطلعك على أسرار ملكوته ، وحجب عنك الإستشراف على أسرار العباد)

ربما فتح لك وأطلعك وكشف غطاك ، وفي رياض الملكوت بواك ، وبأسرار تدليه وتوليه أسعفك وولاك ، وحجب عنك الإستشراف على أسرار العباد من سوابق الأقدار ، ولواحق الإقتدار ، فيذاع ماستر وبغيبه وعلمه استأثر . وأسرار العباد محتمل أن يكون ماستر فيهم من سابقة القضاء المقدور والعلم المأثور ، وإن منهم تقي وكفور ، وبر وفجور ، وشاكر وكفور ، ومقرب محبور ، ومبعد مثبور . وقد أودع الله في غيب سرائرهم ومكنون ضمائرهم ذلك ، فبالإستشراف عليها ينتهك هذا الحجاب ، وينحل نظام الشرائع ، ويظهر مستورات الودائع ، فينظر بالعلم الموضوع والأمر المشروع والخبر المسموع ، كما سيصرح بذلك . وأما أن يكون المراد بأسرار العباد من تقدم ذكرهم لعزة ظهوره ؛ فذلك أيضا جائز أن يراد ،كيف ولو أطلعك على أسرارهم وحققك بشهود أنوارهم ثم غطا أمرهم ، وكيف لوتحقق سرهم واستهأن شانهم لكان ظهورهم على من لم يتأهل لمقامهم حجة ، ولكن من رحمته جعل ليل بشريتهم ستر لنهار ظهور نهار وجودهم ، وغطاء كثيف على شمس شهودهم ، وأسرار الملكوت مافي غيب السموات ، وماحوته ألفاظ العبارات ، وأومت إليه الإشارات ، وتصور في مرايا الخيالات من العجائب وصور المعاني ولطائف الأرواح ، فهذا كله وغير ذلك مما لايدخل تحت العبارة ملكوت ، والأسرار هي

لطائف معاني تتشكل على حسب الأطوار من لطيف وألطف . فمن الأطوار النفس والقلب والروح والسر ، وهي تحكي سر العرش وسر الكرسي وسر السموات والأرض ، وأسرار العباد تتشكل بحسب ماسامتته من العوالم الغيبية ، والعوالم الغيبية تتلقى عن الأسماء الحقية ، ولابد لكل اسم من مشهد في الأسرار ، وأثر في الآثار ، فبحسب تغايرها تتغاير أسرار العباد ، ولي في ذلك شعرا :

فربما أطلع الله المـــــريد على أسرار ملكوته المحجوب بالأثـــر
وستر الله أسـرار العبـاد لكي يذاع ماصانه من سابق القـدر
فلو بدا من علوم الغيب كامنة مابان في الكون للأغيار من أثر

فإذا تمكن العارف من معرفة الله ، وتحقق بصفات الله ، وأن الأشياء المقتضيات مراد الله ؛ لم يجري شئ في الأكوان على خلاف إرادته ، علم أن له حكمه فيما قضا وعلم فيما أمضى ، فلايكون معها إلا كما الله أراد لها . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية ، كان اطلاعه فتنة عليه ، وسببا لجر الوبال إليه)

من اطلع وكوشف بأسرار العباد وماهم عليه من الحكم المراد فيهم مما حتم فعله عليهم من كل فعل يلام عليه العباد ، ويستحق به العقاب ، والعتب والعذاب من معاصي الله التي جرت على أيديهم أسبابها ، وظهرت منهم اختيار ، فربما يذهل عن سابق العلم فيهم ، وحكم المشيئة عليهم ، ويكون واقفا عندمامنهم ، فيداخله عتب عليهم . وكيف وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلق بأخلاق الله من الرحمة والعطف والرأفة والحنان ،

بقدر ما عند الإنسان ، فمن حقه أن يرحم المذنبين ، ويعفو عن الخاطئين ، ويكرم الخلق على قدر ماهم عندالله ، فإن الله سبحانه وله الحمد لم يقطع مدده عن العصاة المذنبين ، ولم يعاجل الفجار وعتاة الكفار حلما منه وصفحا ، بل يكون رحيما بالمؤمنين راحما للمذنبين ، يسعى فيما يقربهم من ربهم ، وينفرهم عما يباعدهم عنه مع ماباطنه عاقد عليه أن الأمر ليس إليهم .

ومن ذلك شوهد من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد علم بتعليم الله له ماكان وماهو كائن ، وكان يكافح ويناخ في الله ، أقامه لدين الله ، وإحياء لسنة الله ، ولم يمنعه ماعلمه من سوابقهم . ولاتظنن أن من رضي بالمعاصي والفساد في الأرض انه موفق فيه مراد الله ، كلا ؛ إن الله لايرضى لعباده الكفر﴿ **والله لايحب الفساد** ﴾ [الآية ٢٠٥ البقرة] وهنا حصل غلط القدرية قبح الله رأيهم ، فجعلوا الأمر هو المراد ، ولم تكشف بصائرهم عن أن المراد قد يكون من آثاره العصيان كما تكون المحبة ـ فلا يكون عاصيا غير مريد له ، ولايكون راضيا غير مريد ، فالإرادة كلما تعلقت به سميت به ، ولله في المراد حكم يختص به دون خلقه ، ولهم أثر من ذلك يكونون ببواطنهم مشاهدين لوصفه وكمال نعته ، وبظواهرهم ممتثلين لأمره ، ومن لم يكن كذلك أي متخلق بالأخلاق الإلهية ، فاطلاعه فتنة عليه ، لأنه إذا شهد ما من الخلق وغفل عما من الله كما مر كان مدعيا ماليس له من الكمال والعزة والكبرياء ، فيرى له عليهم فضلا من غير نظر إلى منة الله وعنايته هي التي خصصته ، كما أن مشيئة الله في ذلك العاصي هي التي حكمت عليه بما سبق وحق من كلمته ، فحقه أن

يخاف أن يحكم عليه كما حكم عليه ، وإن يقع فيما جرى القدرية عليه فحقه الرحمة واللجاء والإستغاثة في أن يحفظه من الوقوع في ذلك ، ويترك الدخول فيما بين العباد وسيدهم ، فحسابهم عليه ، وجزاؤهم عليه ، فله فيهم ودائع ، ولديهم صنائع ، لايعلم العباد ما هم عليه لتخلقه بالرحمة والرأفة والحنان ، والعطف والإمتنان . ولو علموا ذلك لما عصوه ولكانوا لأمره طائعين ، ولجنابه مؤثرين . ولكن حجبوا عن ذلك بكثيف حجاب الجهل ، فهو يطلبهم وإن أدبروا ، ويرحمهم وإن جفوا ، ويتكرم عليهم وإن بخلوا . وأي فتنة أعظم على الإنسان من رؤية نفسه على خلق الله ، وأي بلية ووبال أشد من الدعوى في فعل من الأفعال دون الكبير المتعال ، فإذا لم يتمكن المريد في العرفان ، وكوشف بأسرار العباد ؛ فربما يكون كشفه سبب البعد والإفتتنان ، ولي في ذلك شعرا :

سر العباد مصون لم يشاهده إلا حفيظ على الأسرار يكتمها

ومن رآها ولم يرحم ملامسها ففتنة ووبال الخزي أقـــربها

ولما كانت النفس هي الحجاب الأعظم فيما بين العبد وبين الله ، وماذاك إلا بما ابتليت به من الحظوظ الظاهرة والباطنة ، فلها في كل شئ حظ ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(حظ النفس في المعصية ظاهر ، وحظها في الطاعة باطن خفي ، ومداواة مايخفى صعب علاجه)

الحظ من حيث هو كل ما اطمأنت إليه النفس وسكنت إليه ، وكل حظ مانع عن الوفاء بحق فالحقوق مطالبة بها النفس لله ، وهي من شأنها النفرة عنه والإستنكاف منه ، وإن كان في ظاهر الحس محبوبا ، والسعي فيه

يسيرا ، والحظ يستخف وإن كان مؤلما ثقيلا . وحظوظ النفس في المعاصي ظاهرة يعرفها كل أحد ، بل قد تعرف النفس قبحه في حال السعي فيه ، فمداوته يسيرة يعرفه كل أحد ، فأي علاج واجهه رجي شفاؤه به من سقم المعصية . وحظها في الطاعة باطن خفي لايعرفه إلا السماسرة الحذاق من أهل الأذواق ، الذين أحرقت كثائف ظلمات قلوبهم نيران الأشواق . فعندما يصفو القلب من لوث الهوى ويتحلى بحلية الوفاء ، وتعلق بالمولى ظهر له ما استكن فيها من تلابيس الهوى ، فلايزالون الصادقون يتفقدون أحوالهم في تلبسهم بأعمالهم ، فكلما رأوا النفس سكنت إلى عمل نقلوها إلى غيره ، فإن استوت عندها الطاعات وكانت لله لم تستخف أمرا على غيره إلا لزيادة تظهر لها ؛ أما بإشارة خصه الله وأما بنص بيان ودليل وبرهان . ومن مكائد النفس وخدعها المسارعة إلى النوافل قبل أداء ما وجب من الفرائض ، وطلب أمر كثير وترك أمر قليل ، وذلك لحظ يظهر فيه بحسب ظهورها ، وهذا لأنه لايظهر لها فيه بدونها فتستخف الكثير الشديد لما فيه من حظها الخفي ، وتستثقل ذلك القليل لخلوه عن الحظ ، ومن تفقد أحوالها وصدق في البحث عن قبيح أفعالها وجد أعظم طاعة مشوبة بحظ ، ومدخولة بهوى إلا ماتفضل المولى وتطول به من عفوه الواسع العظيم ، وفضله الفائض الكريم .

وكلما كان الداء أخفى وأعضل كان العلاج أصعب وأشكل ، ولكن للصادقين عليها شواهد ، وفي سائر الأعمال مقاصد لاتزال معايير الحقيقة عليها منصوبة ، ونواظرهم إليها مصبوبة ، فلاتميل عن صوب الحقيقة إلا ظهر لهم إعوجاجها وإن كانت عما تدعيه طاعة فيردونها بحسن سياسة إلى

الطريق المثلى ، ويقومونها على المحجة السمحاء ، فبذلك تزكت أحوالهم وصلحت أعمالهم ، واستقام لهم النهج القويم ، ومشوا على طريق الإستقامة سراعا ، ونصب لهم في سفينة النجاة شراعا .

وأما من كان مبتلى بالحظوظ النفسانية ، ومقيد بالشهوات الحيوانية فلاتستقيم لهم الأحوال ، بل ينفخ في عير صرم ، ويستمد كل ورم ، ولي في ذلك شعرا :

حظوظ نفسك في العصيان ظاهرة   مشهورة لامرا فيها ولاجـــــدل

ويختفي عند ما تمدح بمكـــــــرمة   على الجهول بما في ذاك من علل

وأغمض من ذلك أن تجتهد في دوائك من عضال دائك ، فتجهل الدوى فيصعب بالإسم دون تجربته ، فيكون لقصور فهمك وكلال علمك ماظننت انه دوى داء ماله دوى ، بأن تستأنف ما أنت فيه وتبتديه ، فتأتي إلى طبيب لبيب أديب يعرفك مقاصد الدوى ، وحمية الداء هذا صعب مما قبله . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما دخل الرياء عليك ، من حيث لاينظر الخلق إليك)

ربما لقلة هذا النوع وخفائه وقلة من يتفطن له ويتيقظ ، ودخول الرياء في الأعمال دقيق ، والرياء محبط للعمل ، وصاد عن بلوغ الأمل ، وهو أعضل داء يبتلي به المريدين ، ويمزج العمل على العاملين ، وهو بقدر مايدخل على الإنسان منه يدخله في النفاق ، وصرفه صرف النفاق ، الذي هو أشد طرق الكفر والشقاق ، ومرجه سيما العصاة والفساق . والرياء هو أن يعمل العمل الذي يراد به وجه الله لغير الله ، فظاهره أنه مبتغى به وجه الله وباطنه يريد غيره ، وهويجري في سائر أعمال البر ؛ بأن

يظهر الخشوع وهو غير خاشع ، والتكرم وغيره من سائر أعمال البر ، فلاخفا أن ذلك من أقبح الأحوال أن يرآئي الناس بأعمال هي لله ، والرياء مأخوذ من الرآئي هو الذي يعمل بمرآء من الخلق لتكون له المنزلة في قلوبهم ، فلا جرم يصدق عليه قوله تعالى ﴿ **يرآءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا** ﴾ [الآية ١٤٢ النساء] وقوله ﴿ **يخادعون الله** ﴾ بصورة العمل ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ بإظهار ماهم بخلافه ﴿ **ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون** ﴾ [الآية ٩ البقرة] ويضاده الإخلاص في العمل ، أي إخلاص العمل لله ، فالإخلاص مؤذن بقبوله وموصل إلى لقائه ، والرياء المحض محبط ونازل بصاحبه إلى دركات البعد . وإذا توارد الأمران فالأغلب يكون أقرب بالعامل إليه وأبعد عن صاحبه ، ولكن يحط في الترقي إلى الدرجات بحسب مالابسه ، ويرتفع عن الدركات بحسب ماخالطه ، وإذا استوى الأمران تساقطا ، لأن الله لايظلم مثقال ذرة ، ولكل طبقة رياء في ماهي فيه عند من يعتد به ، ولكن أكثره دخولا على القراء الذين يكرمون عند الناس ويتبرك بهم ويسعى لخدمتهم .

وعلامات الرياء الجلي ظاهر لايحتاج إلى كثرة بيان ، وأما الرياء الخفي فله علامات عند أرباب البصائر المنيرة ، فمن جملتها : حبه بأن يعرفه الناس أنه يحب أن لايعرفه الناس ، واستشعاره بتعظيه عند الناس ، وأن له منزلة على غيره من خلق الله ، وأنه مستوحش من الخلق ، هارب من شرهم وماذاك إلا لغموض عيوب النفس عليه . فلو تفقد غوائلها لوجد أن الخلق لم يسلموا من شره ، فمن ذلك وهو أعظمها سوء ظنه بعباد الله ،

واستحسانه أحواله . وقد كان الصادقين يفرحون بمذمة الناس لهم ونفرتهم عنهم ، واتخذوا لذلك أشياء مباحة تسقط منزلتهم عند العوام . والسلامة من دقائق الرياء عسر جدا إلامن أيده الله بنورالتوحيد فيرى الخلق كالعدم ، لايرجو منهم ولايخاف منهم ضرا ، فعند إياسه منهم تصفوا أعماله وتخلص من الشوائب وإن كان بين أظهرهم ، ومالم يتأيد بنور المعرفة ويشاهد صرف التوحيد فلايخلوا وإن دقق وأنصف وجده مقيما على مقتضى موافقة الطبع والهوى ، وناظر إلى حب المدح والثناء والطلب والأعواض والجزاء أحسن أحواله .

وقد علمت أن ذلك يقدح في إخلاص العبودية لله سبحانه حتى يكتب قلم اليقين سطور الإيقان في دست القلب ، فعند ذلك يحصل التأثير للروح فيخلص عن رؤية الأوهام ، ويوافي الأعمال على التمام ، ولي في ذلك شعرا :

فربما يدخل الشرك الخفي على　　　مباين الخلق بالأشباح والصـور

مخالطا للهوى حظ يقوم بــــه　　　يخامر القلب يطلب رؤية البشر

ومن دلائل الرياء الخفي ماسيذكره بعد حيث قال رضي الله عنه :

(إستشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك ، دليل على عدم صدقك في عبوديتك)

استشراف القلب واستشعاره إعلام الخلق بخصوصيته ، والخصوصية كلما اختص لله به عبده من المواهب والمنح ، ومايفتح به عليه من الفهم في العلوم ، ومايفضل به عليه من عطائه وإحسانه واجتبائه واصطفائه له ، وتقريبه في غمار أهل حضرته . وأصناف الإختصاص لايحاط بها لكثرة

وجوهها ، فمتى اختص عبد بخصوصية فأحب أن يطلع عليها فذلك دليل على عدم صدقه في عبوديته لربه ، ونقص توحيده وعدم مزيده حيث لم يكتفي بنظر الله إليه وشهد الأغيار ، وأثبت الآثار ، وآثرها بها دون الإكتفاء به ، وكان من حقه أن يكتفي به دون غيره ، فكيف وهو تعالى يقول ﴿ **أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد** ﴾ [الآية ٥٣ فصلت] ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [الآية ٣ الطلاق] وهو أن يكتفي بنظر الله دون خلقه ، ومن لم يكن وافر المعرفة كامل التوحيد ولم يتفقد معها الإخلاص خيف عليه الإنخراط في سلك المبعدين ، والإنزواء في حيز الغافلين ، فيصانع الخلق بما ليس فيه ، ويدعي من الأحوال والأعمال مالم يدريه ، ولم يخلص فيه ، فإذا لم يصدق الله في الأعمال وقع في الرياء واتباع الهوى .

وقد كان الصادقون يظهرون مايحقرهم عند الخلق ، ومهما وجدوا إلى إخفاء العمل سبيلا لم يعلنوه ، ويبالغون في كتم أحوالهم قدر إمكانهم ، حتى كان أحدهم يمضي عليهم أعصار لم يطلع عليهم أهله ، ويبالغون في إسقاط محلهم عند الخلق ، هذا ماداموا في شهود الخلق ، وأما بعد تحقيق الفناء فإن أبقاهم تولاهم وإلى كنف ولايته آواهم ، وجعل على قلوبهم سرادقات عنايته ، وعلى أسرارهم قباب محبته ، كيلا يتطرق إلى أسرارهم هوى ، ولايخامرقلوبهم رياء . فأول ماتلمح أسرارهم سر وجوده في الأشياء ، وأجل ما تشهد أرواحهم بها حسنه وبديع جماله ، وأعظم ماتنظر قلوبهم إلى قيوميته وفيض إقتداره وبلوغ حكمته ، فلاترى ماليس له في نظرها

وجود عند تجلي الحق المشهود ، فيستوي الإخفاء والإظهار ، والإعلان والإسرار . بل قد يكون بهم لغيرهم إقتدا وإلى طريق الحق إهتدا ، فيكون إعلان أعمالهم لهم فيه الزلفى ، كما كان للعمل المتعدي على القاصر على العمل مالايخفى من تضعيفه أبدا ماعمل به واهتدى . ومن هنا لاتنقطع أعمال الأنبياء وسادات العارفين وأكابر العلماء ، ومرادهم إن كان ذلك إليهم أولم يكن كقوله ﴿ **ماكان لهم الخيرة** ﴾ في الإخفاء ، ولكن لما تحققوا بصفو العبودية لم يختاروا عليه ، بل هم وقوف على اختياره ؛ إن أظهرهم وأظهر عليهم فهم فانين عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ، شاهدين فعل سيدهم وصفه وتجلي ذاته ، ولي في ذلك شعرا :

إذا طمعت بإظهار تكون به   عند الخلائق مشهور فذاك ريـــاء

فلا دليل على أمر تكون به   أدل من شمس ظهر في وجود ضيا

فالخلق لايخرجون عن القلب إلا بوارد إلهي يشهد الخلق ويبطل الباطل وماسواه باطل ، ومالم يخرج الخلق عن نظر المريد لم يتخلص من الآفات ، وإذا أظهر الله سر العناية شهد أن لا نافع ولاضار ولامعطي ولامانع إلا الله ، فيكون معوله على من بيده مايرجوه ، ولديه مايؤمله ودفع مايخشاه ، وأنه عالم بسره ونجواه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك)

غيب شهود تحقيقك ودقة علمك ووفور حلمك عن نظر الخلق الذي أصالتهم العدم ووصفهم العجز ، وانظر إلى كمال وصفه سبحانه وعظيم نعته وحقارة من دونه بشهود وحدانيته ، وانفراده في مملكته وصمدانيته في

وحدته ، وكمال ألوهيته وإحاطة ربوبيته ، وكن على نظره إليك معولا ، ولوحدانيته مشاهدا ، وعلى فضله معتمدا ، وبألوهيته متعلقا وبصمدانيته واثقا ، ولربوبيته محتسبا ، ولما منه منتظرا وعن الأغيار غائبا ، وعن الحظوظ فانيا ، ولمصائد المهلكات مجانبا ، وكن بنظره مكتفيا .

واعلم بأن من نظر إلى الخلق وطلب رضاهم لم يصل إلى غاية ، ولايرجع إلى نهاية ، فلم يفلح من ناظرهم ولم ينجح من عاملهم ، فإن من طلب رضاهم وآثر جنابهم ولم يرضوا عنه ولم ينصروه وأسلموه ؛ أحوج مايكون إليهم والا لله وناصره وناظره وعامله كفاه عنهم ، فصرف أعباء تكليف مراضيهم وأرضاهم عليه ، والصادق لايبالي إذا صلح حاله وحسنت أفعاله بإقبال من الخلق ولا إدبار ولامدح ولاذم ، بل قد يؤثر ذمهم على مدحهم ومباينتهم على مواصلتهم وخشونتهم على لطفهم ومحبتهم ، لما في ذلك من المزيد وصفو الوقت عن المكدرات والآفات الداخلة على من انتصب بين الخلق وعرف لهم منه القبول ، فيرد عليهم مع كل إنسان حالة تباين حالة الآخر ، فيحتاج إلى أن يعامل كل إنسان بما يناسب فيطول في ذلك عناه وتعبه ، ويحتاج إلى علم وافر يمشي عليه يكون له صراطا على متن جهنم كل نفس ، ويتحفظ عن شوكها المتخطفة ، وآفاتها المتلفة ، والغيبة عن الأعمال ، فغب عن نظرهم إلى أعمالك بنظر الله إليها ومايعلمه منها ، فجردها عنده وتحقيقها لديه ، وغب عن إقبالهم لك على ماظهر لهم من حسن أحوالك بإقبال الله إليك ، فأين تعظيمهم من تعظيمه ، ومايضرك إذا ذمك الخلق ومدحك الخالق ، وماعسى ينفعك إذا مدحك الخلق وذمك

الخالق ، فمدحه لك يجمع فيها سائر المحامد ، وذمه يجمع عليك كل المذام .
ولي في ذلك شعرا :

غيب شهود وجود الخلق عن نظرك   بمشهد الواحد الحق الولي الصمدا
ولايغرك إقبال يكن خـــــبرك   إن الخلائق لاتسدي إليك يـــدا
فا الله يدني إلى نجواك في سحرك   كذاك إن كنت تعقل عنه سر هُدا

ثم أرشد المؤلف إلى برهان كلامه غيبة الخلق بوجود الملك الحق فقال رضي الله عنه :

(من عرف الحق شهده في كل شئ ، ومن فني به غاب به عن كل شئ ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شئ)

هذه براهين العارفين ودلالات المقربين وسيما المحبين ، فأما من عرف الحق بالوجود الدائم والشهود اللازم ، وعرفه من طريق العلم بوجود ذاته وصفاته وأفعاله وغناه ، وافتقارالأشياء إليه افتقار إضطراري في قيامه إلى مقيم ، وفي تحريكه إلى محرك ومسكن ، وفي حياته إلى محيي ، وفي مماته إلى مميت ، وفي وجوده وبقائه إلى موجد ومبقي وفي جموده ، وكل ماكان من أحواله لاشك في أنه إذا حقق ذلك العلم ونظر إليه بعين التحقيق ، أن يرى الله في كل شئ بالتصرف والإقتدار كيف ماكانت الأحوال ، وكلما اختلفت الأطوار والأفعال ، وسر ألوهيته حاكمة ، واستمرار قيوميته دائمة . ومن ترقى عن ذلك ففني عن شهوده ، وإن غيره شهد فيكون العبد محوا في وجوده ، فيكون هو الشهود والشاهد والمشهود غاب لامحالة عن الأشياء ، فأين وجود الأشياء عند وضوح تجلي موجدها ومنشيها ، فلايقوم العدم إذا تجلى سر القدم فإذا قارنه اضمحل وانمحا عن القلب ،

وهمته وجود وتصور شهده ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شئ ، فيعول على إقباله أوإدباره بل يكون بكلية همته مجموع على مرضات محبوبه ، ومنكمشا في إدراك منيته ومطلوبه ، فلايؤثر الأشياء بإقبال أوشهود على الإله المعبود ، ولي في ذلك شعرا :

من كان مشهده العـرفان يشهده　　في كل شئ بلا حد ومقـــــــدار
بل ذاك علم وجود الحق فاقصده　　إن كنت تطلب فاكشف عنه أستار
ومن به قد فني عن كنه همـــته　　غيب شهود السوى في جنب قهار
ومن أحب إله الخلــق يكسبه　　أن لايؤثر على حضرته أغـــــيار

فإذا طلبت أن ترى الأغيار لم ترى لها وجودا ، فإن قلت إذا لم يكن للأشياء وجود فلما أحجبت عن الحق بما ليس موجود ؛ فنقول : إنما حجب الحق عنك شدة القرب كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك)

فما ثم حجاب إلا شدة القرب ، كما احتجب صورة الهوى عن النظر لشدة قربه ، فالبعد حجاب عن الصور المحسوسة ، والقرب حجاب عن المشاهد ، والحق أن ليس ثم سوى الحق فلاغير يطلب ، ولاوجود ينسب ، ولابعد يقرب ، ولاقرب يبعد ، بل معيته استغرقت سائر المشاهدة ، وفني الشاهد والمشهود ، فلم يبق إلا الموجود الواحد ، فإلى أين تطلب وجود زائد فلاتجد ، فارجع عنك إليه تجده حاضرا وإليك ناظرا ، وفيك آمرا ولك زاجرا ، فأنت مصدر الحضرات ، وإليك انتهت حقائقها ، ومنك صعود عروج تكويناتها في بروج سمائها وأفلاكها ، في تنزيه صفاتها

وتقديس ذاتها ، فلها الإحاطة ومنها دوائر المحيطات ، وارتفعت طباق السموات ، وانفتحت أقفال صور المكونات ، ولي في ذلك شعرا :

الحق حق فلا تخفى مظاهــــره   وأنت تطلب إدراكا بلابصــــــر
قد كل دون شهود الذات ناظره   ففي الجنان ترى حقا بلابصــــر
فكيف يدرك في دار دوائـــرها   يضيق عن كنه مايستودع النظر

فشدة الظهور قد تكون حجابا في بصر الناظر إلى المنظور ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما احتجب لشدة ظهوره ، وخفي عن الأبصار لعظم نوره)

إنما احتجب ولم تدرك العقول كيف احتجب ، ولايكيف كيفية الإدراك ، فذلك غير مستبعد كما تراه في تأثيره في دائرة الأفلاك ، فكلما كانت أشد ظهورا وأعظم في الإشراق نورا ، كانت عن التكييفات بعد ذلك ، لا لشئ في نفس فلكه ، ولكن العدم احتمال الأبصار لفائضات نوره فلم تقف على النظر ولم تحتمل شدة الضياء لضعف البصر . ولي في ذلك شعرا :

فليس ثم حجاب فيه تعـــتبرا   ولاستور محيطات ولاغـــير
إلا ظهور على الآفاق مشتهر   لاحت عجائبه في هيكل الصور

فإذا عرفت كماله وكمال صفاته ونفوذ إرادته ، وأن علمه السابق وحكمه اللاحق ؛ علمت أن أفعال العباد كلها لادخل لها في إيجاد ولا إعدام ، ولا إقدام ولاإحجام ، وقد جعل الله بحكمته البالغة بعض الأمور يقارب بعضها في الوجود ؛ مثل الظفر بأمر يطلبه العبد أويطلب مثلا صرفه ، وقد سبق أنه سيعطيه عند ذلك أويصرفه عنه ، كذلك فالدعاء ليس سببا

لوجود عطائه الأزلي ، ولكنه عبادة مستقلة جرت سنة الله أنه يعطى عنده ، وقد يكون الدعاء لأمر ويعطي الداعي به غير ذلك مما هو أصلح له ، فإذا عرفت أن دعاك له محض عبودية فادعه لأنه أمرك كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(لايكن طلبك سببا إلى العطاء فيقل فهمك عنه ، وليكن طلبك لإظهار العبودية ، وقياما بحق الربوبية)

لايكن طلبك أيها المريد الطالب من الله المزيد ، ففوض إليه الأمر فيما تريد ، وليكن طلبك ودعاؤك وتضرعك إمتثالا لأمره حيث ندبك لذلك وأمرك ن فقال ﴿ **أدعوني** ﴾ فكن داع له ، وقال ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه** ﴾ فكن مضطرا يائسا بين يديه ، فانيا عن حظوظك ، فارغا عن مرادك ، مفوضا إليه جميع حوائجك ، راض بما أنزله بك . وعلامة من يدعوه كذلك أن لاينتهي دعاؤه ووقوفه بباب سيده ومولاه بما نال من مآربه ، وظفر به من حوائجه ، فإن نقص اضطراره عند ذلك وانتهى دعاؤه فهو داع لحظه لاقائما بعبودية سيده ، ولامؤديا لحق ربوبيته ، لأنه لم يزل لك ربا وأنت له عبدا . ومتى تنفك عنك ربوبيته ، وأما من كان عبدالله لايزائله اضطراره إليه وإن أعطي كل فضيلة ، وبلغ كل وسيلة ، فهو مضطر إليه ومحتاج لديه ، فهذا مشهد أهل الفهم عنه الذين أيدوا بتأييده ، ووقفوا لهدايته وتسديده ، فلايزالون وقوف ببابه ، لايصرفهم عنه وجود غطاء ، ولايوثقهم دونه ورود بلاء ، فعندهم أكبر العطايا ساعة يشهدون اضطرارهم بين يديه ، ويتحققون بافتقارهم إليه ، فلايتقيد بوجد

ولافقد ، ولقد نبهك على سوء أدب من يدعوه عندنزول بلائه ، ونسيانه عند كشفه عنه ، فقال ﴿ **وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم** ﴾ [الآية ٦٧ الإسراء] وقال ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض** ﴾ [الآية ٥١ فصلت] وقال في وصف من دعاه عبودية له ووفاء ﴿ **وأنه لما قام عبدالله يدعوه** ﴾ [الآية ١٩ الجن] فذكره بوصف العبودية ولم يقل دعا لكذا ولا من كذا ، بل قال قام إشارة إلى أنه قياما بحق ربوبية سيده ، وبقوله عبدالله وفاء بحق عبوديته ، فهذا مشهد الفهم عن الله في كلامه ، وتلقي ورود الهامة . وأما المحجوبين بالحظوظ ، الموسومين بالإعراض في جميع مايعاملون به الخالق والخلق ، فهم بعد محبوسون في مضيق الجهل ؛ محجوبون العقل . فنسأل الله حسن الفهم ودوام التلقي منه ، ولي في ذلك شعرا :

إذا سألت فكن بالله مشتغلا   عن كل حظ فهـــذا موضع الأدب

وافرغ إليه تكن بالله ممتـــثلا   دون أن تنال الذي ترجوه من أرب

فالعبد حادث وما منه حادث موسوم بالحدوث ، والحق قديم وأوصافه وجميع أقضيته ومعلوماته معلومة قبل إيجاد أعيانها ، وبروز ألوانها ، لذلك قال المؤلف مستشهدا بأن الأفعال الحادثة الخلقية لاتوجد إلا وسببها الأفعال القديمة الحقية ، فقال متعجبا ممن يظن ذلك :

(كيف يكون طلبك اللاحق سببا في عطائه السابق ! ؟)

هذا مما لايتصور في العقل ثبوته ، فلوكان كذلك لقصور وجود المتسبب عن السبب ولاقائل بذلك ، ولكان الحادث قديما ، والقديم حادث ، وذلك هو من منشأه إنطماس نور العقل ، فالعبد وما منه حادث ، والحق قديم موجود في علمه ، أي معلوماته ، فهو أبدا وأزلا لاحصر لعلمه ، مشهودة له بجميع شرائطها وأسبابها ، وأنها ستكون كذا في حال إيجادها وإبراز صورها مقارنة لكذا وقتا ومكانا وحالا ، فصح إنما الدعاء الإمتثال للأمر ، وقد علم سبحانه أن بعض القضايا مقارنة وجودها وجود ذلك الدعاء ، وقد يكون المراد من الدعاء عند الله غير المراد منه من العبد ، وماكان من مراد الله فهو الأصلح للداعي ، فعليه المثول بين يدي السيد الكريم ، وهو يفعل ما أراده لايرجع مراده على مراد ، بل يكون راضيا كما سبق ذلك . ولي في ذلك شعرا :

فكيف ماكان بالحدثان موسوم يكون موجد مافي العلم مرسوم

هـــذا لعمري لايحكم به أحد إلا ضعيف عن التحقيق مزكوم

فالأحكام الأزلية لاتنضاف إلى الأسباب الخلقية ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل)

جل وتعظم وتقدس حكم الأزل الحقي الذي تسميه الطائفة : أزل الأزل ، وهو العلم القديم الذي برز من الذات ، فتعين للذات قبل بروز سائر الصفات ، فعلم الحق نفسه وعلم أوصافه وأفعاله ومؤثرات صفاته وأفعاله قبل برزوها ، علما لايدخله نقص ولامجموع عن محص ، ولايتبدل بزيادة ولانقص ، فهو القول الذي لايبدل ، والحكم الذي لايتحول ، فكيف

ينضاف إلى العلل الحادثة !؟ أويستند إلى الآراء المخالفة ! ؟ تقدس عن ذلك وتعالى علوا كبيرا . ولي في ذلك شعرا :

حكم تقدم في الآزال مظــــهره   فكيف ينضاف للأعراض والعلل
فالحكم لله لايســـند إلى سبب   جل الإلـــه عن الآلات والحيل
ذو الحول والطول والشان الرفيع وما   لايدري الخلق جل الله عن مثل

فالحق سبحانه وله الحمد يرى مقادير الأمور وأحكامها قبل إيجادها ، وظهور أحوالها وأعمالها ، فكيف تستجلب بحيلة ، أوتنال بوسيلة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(عنايته فيك لالشئ منك ، واين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته !؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمال ، ولاوجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال)

عنايته فيك التي خصصتك ودبرت أمورك ، وأظهرتك من محض العدم في سابق القدم ، لالشئ منك مما تظن أنه لك موصلا ، ولسعادتك محصلا من أعمالك وصفو أحوالك ، ولالشئ يرجع إليه منك ، فلا يفتقر في غناه إلى زيادة استكمال بوجود الأعمال ، بل ثبت غناه عن العالمين كل مايطلق عليه اسم عالم ، وهو ماسوى الله . فإن قلت أن مني إليه عمل زكي ؛ أوحال مرضي ، قيل لك وأين كنت حين لاحين واجهتك بالإيجاد عنايته ، وقابلتك بالتخصيص رعايته ، وأنت بعد لم تكن شيئا مذكورا ، فإياك والدعوى على شئ يكون منك فذلك أقبح وجوه الجهل أنك تنسى كونك عدم ، واعتنابك وأوجدك منك ولك ، ثم تقول : أنا ومني ولي !؟ وقد سمعت شاهد ذلك في غير آية من كفاية . فمنها دليل عدميتك قوله

عز من قائل ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا** ﴾ [الآية ١ الإنسان] بل لم يكن هناك يعني في الأزل لاحال ولاعمل ، وما هناك إلا محض ، أي خالص الإفضال من غير امتزاج بتوهم علة أوسبب سالم عن شوائب الدعاوي وتلبس العلل ، فلا أبين من كونه تفضل عليك وأنت معدوم لاروح ولاسوح ، وعظيم نواله الذي لايقابل . ومن جملة ذلك الإيجاد وصنوف النعم والمنن ، وتوالي الإمداد الذي يعجز عن إحصائها غير منيلها ، والممتن بها من النعم الظاهرة والباطنة الذي سبقها عميم كرمه ، وأوجدها عظيم طوله وإحسانه ، وأبرزها ضافي منته ، قبل ظهور تركيب خليقته ؛ بروز اليوم الخلقي السماوي والأرضي ، والكواكب والأقمار ، وظلام الليل وأضاء النهار ، بل لم يكن في حضرة العندية الأزلية ليل ولانهار ، كما أشار إليه الحديث أشار بقوله **" ليس عند ربك ليل ولانهار "** ولي في ذلك شعرا :

عناية الله في الإنسان سابقة ... قبل البروز ليوم الخلق فاعتبر
قد واجهتك عناية منه واصلة ... وقابلتك مزايا الفضل في السور

هذا سابق قبل تكونك ، فإذا التفت الخلق إلى هذه العناية الحقية في الرقعة البشرية ، دلهم ذلك على تخصيص مشيئته ، وقد علم الله العباد قبل إيجادهم ، وعلم مايكون منهم ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(علم أن العباد يتشوفون إلى سر العناية ، فقال ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ وعلم أنه لو خلاهم وذلك ؛ لتركوا العمل إعتمادا على الأزل ، فقال ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾)

علم سبحانه بعلم لايدخله نقص غير مكتسب عن فحص نظر ، بل ذلك وصف من أوصافه العلية ، ونعت من نعوته الأزلية ، وحضرة العلم أوسع حضرات الصفات ، لأنه سبحانه علمه يشمل الواجب والجائز والمستحيل ، ويعلم الأشياء جملة وتفصيلا ، ولايكون لغيره أن يعلم الأشياء على التفصيل . وقد علم سبحانه أنه يخلق خلقا ويوسمهم بوسم العبودية العامة ، والعبودية الخاصة ، وهم : أما روحانيين عُلويين ، وأما أرواح سماوية عنصريين ، وأما أرواح هوائية وأرضين ، وأما أشباح ذوات الأرواح آدميين ، وهم المراد هنا والله أعلم من كلام المصنف .

فعلم أنهم يتشوفون إلى ظهور هذه العناية الأزلية ، والرحمة السابقة بالحيل والأسباب ، والتقرب بالإحتساب والأنساب ، فقال سبحانه كاشفا عن جهل من توهم حصولها بشئ من ذلك يختص بمشيئته السابقة ، ومنته اللاحقة من شاء ، من غير علة ولاسبب ، فلمشيئته التخصيص لما أتقنه العلم ، فبرزت على من اختصته مقترنة ومتلبسة بسبب من مظاهر قدرته في أعيان خليقته ، وقد تظهر مجردة عن التلبس الخلقي ، والمزج الوهمي ؛ فتسميه الخلق وهبي ، وسمي الأول كسبي . والكل تخصيص أزلي لابعلة ولالعلة ولالسبب ولابسبب ، وعلم أيضا سبحانه مايكون منهم عند ارتفاع هذا الحجاب الجهلي إذا نظروا لها ، أي العناية الأزلية ، وتيقنوا أن

الحركات الخلقية لادخل لها في إيجاد ولا وصول إمداد ، فبقي عليهم من الجهل حجاب خلقي يعتريه من لم يتداركه تأييد ، فيتكل على ذلك فيترك الأعمال المقربة التي شرعها الله لعباده ، ويرفض الشرائع بالكلية ، فقال سبحانه ﴿ **إن رحمت الله** ﴾ التي قسمها وخصص بها أسرار العباد ﴿ **قريب من المحسنين** ﴾ لله أعمالهم ، الفانين عن أحوالهم وأفعالهم ، القائمين لله بالله في كل شئ ، الشاهدين وجوده قبل وجود كل شئ ومع كل شئ ، لاينفكون عن ذلك المقام ، يوفون العبودية على التمام ، فهي أدل دليل على وجود الإختصاص الأزلي ، بل هي من أعظم مااختص الله به عباده ، في سابق مراده إن هيأ هم وأهلهم لخدمته ، وهداهم لطريق هدايته ، فلايرغب عنها إلا كل ذي عقل ناقص ، وعقب ناكص ، فظهور رحمته وعلامة محبته وأثر ملته على من اختصه بها وأهله لها ؛ إقامته إياه في خدمته ، وتقريبه له في عبادته ، كما يشير إلى ذلك قوله : إذا عرفت أن تعرف منزلتك عنده فانظر ما ذا أقامك فيه ، ولي في ذلك شعرا :

لما علم جل أن الخلق قائـلة   بأن ما مـــنه بالأسباب يكتسب
فقال يختص فافهم سر سابقة   وهو قريب لذي الإحسان والأدب

فلو احتاج إلى انصباب عطاه إلى سبب لكان ذلك نقص ، ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إلى المشيئة يستند كل شئ ، ولاتستند هي إلى شئ)

الأزلية والقدرة الغالبة يستند كل شئ في إيجاده ودوام قيامه ، وجميع مايصدر إليه ومنه ، إذ لو استند شئ إلى غيرها لكان ذلك الغير من

الكمال مالها ، ويتعالى الله عن ان يكون له ضدا ، أويماثله ندا ، ويكون معه شريك أويوجد له نظير في ذات أوصفات أوأفعال ، بل هو المنفرد بالخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شئ ، لايشذ عن قدرته شئ ، فلو احتاج إلى علة أوسبب لكان مفتقرا إلى ذلك ، وقد ثبت غناه ، واستحالة النقص عليه ، فكيف يكتسب ماعنده بالأسباب والحيل ، أوينال مالديه بعمل ، فلايزيده في كمال وجوده موجود ، ولاينقص ظهور جماله فقد مفقود ، بل لم يزل بنعوت الكمال وصنوف الإفضال مقصود . فإذا تحقق العبد ذلك صح إفتقاره ، وحسن إنتظاره ، فبري عن الدعاوي في حميع حركاته وسكناته ، فكان انتظاره لما عند الله بلا سبب ، فيعلم أن منته غير مشوبة لعلة ، ولامدركة بعلة ، فتتوالى عليه عند ذلك مواهبه ، ويلقى عليه رعايته وفاء بقوله و ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ وأي شكر يزيد على أن يعلم أن مابك من نعمة فمن الله بلا واسطة . ومن جملتها ما أتحفك به من الطاعات ، وألهمك من صنوف العبادات ، وصرف عنك من قبائح العادات ورذائل الشهوات ، وأقالك من الهفوات ، وتاب عليك عند رجوعك إليه بعد إقتحام فضيع المعاصي وورود مناهل الهفوات ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها** ﴾ فلا أهم للعبد من معرفة صفات الله وماهو متصف به من نعوت كماله ، ومخترع من ظاهر أفعاله وقيامه بذاته ، وذوات مبتدعات خليقته ، ليعمل الله على وصف العبودية المطلوبة لله من عباده ، وهي أن يعبدوه لغير طلب حظ من الحظوظ العاجلة والآجلة ، بل لما هو أهله من الربوبية ، وعظم الألوهية ، ويكون كلية نظره إلى

من الله هذه الأحوال الأدباء . وأما من غفل عن ذلك فلا تصفو أحواله عن كدر شوب الحظوظ الجلية والخفية ، حتى يتداركه الله فيكشف له عن ذلك فيجدد توبة عن طاعاته كما يتوب العاصي عن عصيانه ، ولي في ذلك شعرا :

إلى المشيئة كل الخلق يستندوا فيما برز عنهم من ظاهـــــر القدر
ولالها من سواها في الفعال يد بل ذاك محض اختيار الله ذي القدر

فإذا تحقق العبد أن الأسباب غير مؤثرة في إيجاد ولا إعدام ، فيتحقق أن دعاءه من جملة الأسباب ، فربما يستحي من دعائه في استجلاب مالا يكتسب بحيلة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ؛ إعتمادا على قسمته ، واشتغالا بذكره عن مسألته)

وهذا لمن أكمل في المعرفة مقامه ، فكرع من التحقيق تمامه ، فيكون عند تجلي السر والعلي ، وشروق الصبح الأزلي منطوي السر والروح والسوح ، لايشعر بغير مشهوده ، ولايعرج على حظ دون معبوده ، فيعينه العيان عن اللسان . هذا تحقيق حال من قام بمشهد ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ [الآية ٤٨ الطور] وأما من كان عاملا على مقتضى العلم ، غائبا عن شهود باطن الحكم ؛ فلايترك الدعاء ، كيف وقد ورد أنه مخ العبادة ، لكن يكون في دعائه فارغا عن حظوظه مشتغلا بوفاء الربوبية حقها ، وإعطاء الألوهية مستحقها ، وتحققا بافتقاره ، وإظهارا بين سيده لإستكانته واضطراره . وبين هاتين الحالتين حالة تسمى الوقت ، ومرادهم

ماتنجلي به الأسماء فتكون هذه لأهل القلوب ، لأن القلب مظهر تقلب الأسماء فيكون بحكم ماتجلى عليه منها ؛ فمنها مايقتضي السكون تحت جريان الحكم ، ومنها مايقتضي الإنبساط في بساط الكرم ، ويظهر لهؤلاء شاهد ذلك في قلوبهم بإشارات ، فيكونون بحكمها ، وهذه لمن كشف الله عن تجلي أسمائه ظاهرة في كل مشهود ، متجلية عن كل موجود ، فيرى الخلق مصرفين تحت هذه الدائرة ، وأشجار ذواتهم مستمدة من هذه المشاهرة ، فاختلفت الأثمار في الأشجار إلى الحلو والقار ، مع اتحاد مآبها واستوى سمائها ، ولي في ذلك شعرا :

فربما دل ذو التحقيــــق والأدب على السكون عن الإمعان في الطلب

منه إعتمادا على إتقـــــان قسمته وشغل ذكر لمشهود ومقـــــــــترب

فعندما يتحقق بالكشف والشهود ، ويرى ماهو سبحانه عليه من صفات الكمال ، يعلم يقينا انه دعاه العبد لحظه ومستعجلا لمراده فذلك سوء أدب ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال ، وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال)

الإعقال والإهمال أمران ينافيان الكمال ، ويؤذنان بالنقص ومماثلة الحدثان ، وذلك محال في حقه سبحانه وتعالى عما تتوهمه القلوب المحجوبة عن العيان ، التي لم تؤيد بنور الإيمان ، وعن كل ما يتخيل إلى النفوس الملومة ، من أنهم يذكرون الله بما هو مخترعا له ، ومعلوما عنده أنه يكون أولايكون ، فلايذكر إلا من يجوزعليه الإغفال وهو مستحيل في حقه سبحانه ، لأن الإغفال نقص ، وقد علمت استحالة النقائص عليه ، والإغفال يكون للمعلوم ، فبالتذكير يذكر ، والإهمال يكون للموجود الحاضر بالشخص

والمعنى ، فكيف يهمل وهو لم يقم إلا سر قيوميته سبحانه ، أوكيف يجهل وهو لم يخلق إلا بخلقه له ﴿ **ألا يعلم من خلق** ﴾ فما يدعون أهل اليقين إلا مع التفويض والرضا والطمأنينة عند مجاري القضاء ، فيكتفون بعلمه ، ويستسلمون لقضائه ، وعند حقيقة هذا الحال وبلوغ هذا المنال ؛ دعاهم بالحال من غير سؤال وتحكم في حال ، فلاعليه يختارون ، ولافي مملكته يتنازعون ، بل يكونون وفق مراده ، ونفوذ مشيئته في عباده ، في تقريبه وإبعاده ، وإضلاله وإرشاده ، مؤتمرين لأمره ظاهرا ، مستأصلين لحكمه باطنا ، لايريدون غير ما أراد ، يأتمرون لأمره ، وينتهون لنهيه ، مع تبرئتهم عن الأحوال والقوى ، وشهود تفرد الحق بالإختراع والإنشاء ، ولي في ذلك شعرا :

فما يذكر إلا من عليه كذا يجوز أن يتصف بالنقص والعلل
وما ينبه إلا من يغيب إذا طرقه أمر سهى عن حاله الأول

ومن المريدين الصادقين من لايدعو في كشف مانزل به لأنه في حال نزوله به ، واقف على باب سيده ، متحقق بفقره وذلته ، منكسر تحت سلطان عظمته ، متخلق بأخص أوصاف عبوديته لخالقه . وأي حالة أعود على المريدين بالخيرات ، من الإتصاف بهذه الحالات ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ورود الفاقات أعياد المريدين)

ورود الفاقات على المريد لطريق الله ، الطالب للقرب من الله عيد وسرور ، وتحف وحبور ، ولايكون كذلك إلا حيث شهد ورودها من الله ، وفهم فيها أن سيده اختصه بمحبته ورضيه أن يكون من أهل

حضرته ، هو أن تحضر نفسك منخلعة عن الحول والقوة ، مفتقرة إلى سيدها ذليلة لديه ، منطرحة بين يديه ، ولاترى لكشف مانزل بها رافعا ، ولادونه نافعا . فمتى ورد على المريد مايوقفه على هذه الأحوال الشريفة ، والمشاهد العالية المنيفة ، فقد علا عليه بعوائده الجميلة ، الذي عاد فيها من الأعراض إلى الإقبال ، ومن الإنفصال إلى الإتصال ، فيكون ذلك لديهم عيدا ، ولأحوالهم مزيدا ، سيما وفرح كل مريد في نيل مراده . ومراد الصادقين التحقق بذلتهم ، والنزول على أرض مسكنتهم ، والوقوف على باب مليكهم ، والإنطواء تحت كبريائه ، واضطرارهم بين يديه ، وفاقتهم لديه . وأفراح الصادقين ومسراتهم في إنزال مابهم على سيدهم ومالكهم .

وأما أعياد بني الدنيا الغافلين ، الذين بشهواتهم الدنياوية وحظوظهم البهيمية من المأكل والمشرب والمنكح والملبس ، فعيدهم بنيل هذه المرادات الذاتية ، والحظوظ العاجلة ، فما أبعد مابين الفريقين ، وما أبون مابين الطريقين ، ولي في ذلك شعرا :

ورود فاقات أهل الصدق في الطلب على الوقوف بباب الله ذي الكرم
كما يكون كذاعيد لهم فكـــــذا تكون ضدا على الغر الغبي الفـدم

فقد يحزنون الصادقين أهل الإرادة عند دخول الراحة عليهم في الجسم ، وتيسر الأسباب العاجلة ، لما يخافون من فوت حظوظهم في الآخرة ، لأنه ورد : ما أعطي ابن آدم من الدنيا حظ إلا نقص من حظه في الآخرة بقدره . أوكما قال . إلا سليمان بن داود عليه السلام فإن الله سبحانه قال في شأنه ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب * وإن له عندنا**

لزلفى وحسن مآب ﴾ [الآيات ٣٩-٤٠ ص] فكان السلف الصالح إذا أقبل الغنى قالوا ذنب عجلت عقوبته ، وإذا أقبل الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين ، وذلك لما يجدون من المزيد في صفاء أحوالهم ، والإنشراح في صدورهم مالو وجده أهل الثروة والجد في الدنيا لهان عليهم دونها فوق جميع ماهم عليه مكبون ، وله من الدنيا محبون . وفي الفاقات التي هي التعرفات من الله لعبده مالايخفى من عظيم الزلفى ، وكريم الوفاء ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما وجد المريد في الفاقات ، مالايجده في الصوم والصلوات)

ربما وجد من ثمرة الفاقة وورود المحنة ونزول البلية من المزيد المبتدي المتبقي برؤية نفسه ، وما منها في الفاقة التي تعرف من الحق مباينة للهوى ، مؤلمة للنفس من صفو الحال مالايوجد في كثير من الأعمال التي أعظمها الصوم والصلاة ، وذلك لما يخاف عليه في ذلك من دخول الآفات والتباسه عليه فيضل سعيه ، وذلك مفقود في البلية مأمون منه فيها ، فلذلك كان وجدانه لثمرتها أقرب وأبعد عن تطرق الفساد ، وذلك في حق المريدين والعلماء الربانيين الحكماء العارفين ، فسيئان في حقهم كلما يرد من سيدهم ، فكلما ورد عليهم تلقوه بما يقتضيه الوقت منهم فيه ، إن كان بلية تلقوه بالصبر ، أونعمة فبالشكر ، وإن كان طاعة فبشهود المنة فية ، وإن كان معصية فبالإستغفار والتضرع في آناء الليل والنهار ، فهم وقف على مراد سيدهم فيما يفعله بهم ويورد عليهم ، وقليل ماهم ، أولئك معروفة أسماؤهم وظاهرة أوصافهم ، خافية في الخلق أعيانهم ، عاكفة في العلا ذواتهم ، راتعة في الملكوت أرواحهم ، سائحة في الجبروت قلوبهم ، كارعة

في حياض شهود بديع الجمال أسرارهم ، قد شغلهم شهوده عن ورود الواردات الحلقية عليهم من الله سلام وتحية ، ولي في ذلك شعرا :

فربما يجد البـــــادون فاقتهم تربوا على ماصدر منهم من العمـل
أما المرادون أهل القرب ثالثهم من ربهم نفحة تعـــلوا على زحل
لاينظرون إلى الأكوان همـتهم أن يدركوا منتهى الغايات في الأمل

فالفاقة من المريد إلى سيده أنجح ما يحصل عندها نزول الفتوحات الوهبية ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الفاقة بسط المواهب)

الفاقة إلى الله وإلى ما منه نعت العباد والزهاد ، والعارفين الأفراد . فاقة العارفين إلى الله دون شئ آخر ، لذلك لاتزايلهم الفاقة والإضطرار ، والفاقة إلى ما منه من الفضل والإمتنان نعت الصادقين ، وأما غيرهم ففاقته موقوفة عند حظه العاجل ، وغالبا يكون ناظرا إلى الأغيار حيث رآها تجري على أيديهم ، أويقارن وجودها وجود موجودا آخر ، فلقصر النظر تطمس البصيرة ، والبصر عمي عن الغير واستغنى دون المؤثر بالأثر . والفاقة بسط المواهب على أرض الفاقة والإضطرار تنزل رحمة أمطار الأنوار ، من سموات الأسرار ، على ينابيع القلوب ، فتفيض أنوار العلوم ، وتجري عيون الفهوم ، فتغمر أصلاد النفوس فتصبح الأرض النفسانية مخضرة بما وصل إليها من الألطاف ، ونالها من الإسعاف ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها** ﴾ [الآية ٥٠ الروم] ولي في ذلك شعرا :

بساط سر المواهب إن نظرت كذا في فاقة العبد إلى إحسان مولاه
فذاك أنجح مايرجى لديـــه إذا حققته كنت ممن صح رجــــواه

فإذا علمت أن الفاقة بسط المواهب وهي من لازمك ، فمالك وريبة الإستغناء ، وتعاطي الكلفة والعنا ، فكل من تحقق بافتقاره وحسن تعلقه وانتظاره ، فهو حري بأن يعطى وفي حسابه ، واقتضى جزائه ، أن لايستغني عليه ، ويصرف عنه عواصف مصادر القضاء ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إن أردت ورود المواهب عليك ، صحح الفقر والفاقة لديك ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾)

إن أردت أيها المتعرض لمواهب الله ، المتعطش إلى ورود منن الله ، فنفحات الله جارية لاتنقطع ، ومواهبه متواصلة لاتمتنع ، ومابقي ثم إلاعدم التأهل والميل عن جاد سبيلها ، فإذا أحسنت ماهنا فهي عليك واردة ومنك دانية ، وتصحيح ذلك بأن تحقق به وتراه لازما لك ، ويكون عندك حالا ونعتا وصفة ، لاترى لك من وصف العناء شئ ، وإن نلت كل شئ . والفقر مقام شريف من مقامات الرجال ، وهو عندهم من أشرف الخصال ، وأرفع الخلال . ولم يتحقق لكليته إلا من استكمل في مقام القرب حاله ، وثبت نور الإيقان في صميم مركزه وشرحه ، وعلامة من هو حالته وكيفية طريق الصوفية ، وتفوات درجاتهم ، وتباين أحوالهم إلى فاضل وأفضل ويخرج عن غرض الشرح .

والفقير أسود الوجه أبدا ، والفاقة من لازمه ووصفا من صفاته ، بل ركنه الأعظم ، وهي أثرة على ظاهر العبد ، وبها يستبين على ماظهرت عليه : إنما الصدقات الورادات ، والمنح الواصلات ، والرحمات النازلات للفقراء إليها ، والمتعرضين لسبيلها " إن لله في أيام دهركم نفحات فكونوا متعرضين لها . واستشهاده على الصدقات الحقية والمنن الوهبية ، بهذه الصدقات المفترضة المالية ، مما ينبه أولي الألباب ، ويوقف أهل الإستبصار على أشرف الإفتقار ، ولطف الملك الجبار بأهل الإضطرار ، وذلك شاهد ظاهر وحق سافر ، لكل مستنصر ناظر . وصفة الإفتقار ما سيذكره الآن بأثر هذه من الأوصاف الخلقية ، والتعلق بالصفات الحقية ، ولي في ذلك شعرا :

إذا أردت ورود الوهب والمنن عليك صحح إليه الفقر واعـــتبر
فيما افترضه إله الخلق رازقـــهم في المال فاعبر إلى مقصودنا النصر

فإذا تحققت بوصفك كنت عبدا أديبا ، ومن حضرته قريبا ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(تحقق بأوصافك بأن تعلم ما أنت عليه من الإضطرار إليه ، يمدك بأوصافه بأن يجعل لك بدل كل وصف تكون فيه عنك فانيا ، وصف من أوصافه أن تكون به متعلقا)

وكذا كل اسم من أسمائه تعالى تكن به متخلقا ، عدى اسم الوهبية فلايكن به إلا متعلقا . ثم فسر أوصافك الذي طلب منك أن تكون بها متحققا وبها متخلقا ، الذي من بعضها الضعف والذلة والفقر والعجز ، فكل ماتحققت بوصف من أوصافك مدك بوصف من صفاته العلية ، التي هي

مستودع مواهبه السنية ، فقال : تحقق بذلك يمدك بعزته التي أعز الله بها عباده المؤمنين . تحقق بعجزك يمدك بقدرته التي بها برزت الأعيان ، وانبرأت الأكوان . تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته الذي لم يبال بسوء من كانت له ، ولم يعدوا الأسوى على من انتصبت له ، فكل من كان كذلك طريحا مسكينا لم يرى له دون سيده ناصر ، ولالضعفه معينا إلا إياه ؛ كان له بالعون والنصرة والمدد والعزة ممسا ، فناده بلسان عبوديتك وعدم حولك وقوتك ، وتلبس أثواب ذلتك ، واطرح في تراب أرض مسكنتك ، يكون له بربوبيته متوليا ، وبأسرار محبته متدليا ، ولي في ذلك شعرا :

إن التحقق بالأوصـف في البشر ينيلك الرتبـــــة العلياء والعمل
يمدك الله من أوصافه فكـــــذا يكون كل أديب صالح العـــمل
فضعف عبد مع فقر وذلـــــته وعجزه سلم التحقيق فانتـــــقل
عن وصف عبد مهين الأصل مفتقر إلى جمال صفات الساميات تـلي

والتحقق بهذه الصفات لاتكون إلا لعبد مخطوب ، وحظي موهوب ، يكون متجليا باطنا بالإيمان ، وظاهرا بالإتيان بالعمل على وفق الأمر ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الإستقامة)

وهذا نادر ؛ فالكرامة غالبا لاتنال ولاتكون إلا نتيجة حسن الإستقامة ، وكل كرامة ظهرت مع الإعوجاج عن سنن الإستقامة فهي من باب المكر والإستدراج ، أعاذنا الله منها .

فالكرامة هي مايظهر من سر القدر على خلاف العادة المتبعة ، فالنفوس لها متشوقة ولشأنها معظمة ، وهي حقيقة بذلك ، لكن الشان كل الشان

فيما يكرم الله به عباده من مزيد الإيمان ، ويبادي به قلوبهم من أنوار الإيقان ، ويتحف به أسرارهم من الشهود والعيان ، فلايلتفتون إلى غير ذلك المطلب ، ولايعرجون عل ذلك المأرب . والإستقامة هي القيام بالأمر ظاهرا ، والفناء عن الأغيار باطنا لايعطل نور إيمانه شرائع أعماله ، ولاتعطى دقائق طرائق أعماله أنوار عرفانه ، فأمر الله لايتجاوزه أمر وإن دق ، فانيا عن سائر أوصافه وأفعاله وإن جل ، لاإحساس له بنفسه لإستغراقه في حضرة قدسه ، وتوالي شهود أنسه ، ولاغيبة له عن أمر خالقه . فالإستقامة أعز مقام عند ذوي التحقيق ، وأقصى مرام عند أولي التوفيق ، لايطلبون دونها حالا ، ولايشتغلون عنها بظهور آية ، فالكرامة كل الكرامة مايكون به عند الله كريما ، والإهانة كل الإهانة ماتصير به عنده مهينا .

وكان من أخلاق السلف الصالح عدم الإلتفات إلى ظهور الآيات ، وإن ظهرت على أيديهم فمن باب الإتفاق - لايرون أن ذلك كل المطلوب ، والكرامة شاهدة بحسن الإستقامة لأنها ثمرتها ، وإن حصلت عنهم أوبرزت منهم فيكون فرحهم من حيث صحة إستقامتهم لامن حيث بروز كرامتهم . ولهم في ذلك كلام ذويق ، فيه تشويق إلى النفوذ إلى التحقيق ، يزعجون به المريدون عن السلوك إليها والإعتماد عليها ، والإستقامة ظاهرا موافقة الأوامر الشرعية أمرا ونهيا وجوبا وحضرا كراهية وندبا وتخلقا وتكرما ، وتنزها وتحفظا ، بجميع الجوارح باطنا وظاهرا ، قلبا ولسانا وعينا وسمعا ويدا ورجلا وبطنا وفرجا وكلية ، فكل ماحوت هذه الجمل هو أحد سقي السعادة ، والنظر في الطرف الآخر إيمانا ويقينا وشهودا وعيانا وحفظا

وتأدبا ، سرا وروحا ، وعقلا وقلبا وكشفا ، وكمالها القيام بمقتضى الإسلام ظاهرا ، وبمقتضى الإيمان وهو الإستسلام باطنا ، ومن أعطي ذلك وجعل يتشوف إلى غيره فهو ناقص الفهم أعمى البصيرة ، فالإستقامة حق الحق منك ، والكرامة حظ النفس وبها تقضي وطرها من إنتشار خبرها وظهور أثرها ، حتى أن بعض العارفين يقول : من لم يكن ظهور الكرامة منه كظهور المعصية فليس من الصدق في شئ . أوكما قال .

ولحالة تكون فيها بحق الله أولى من حالة تكون فيها بحظ نفسك كما تقدم معنى ذلك أول الكتاب . وكمال الإستقامة باستقامة العبد بكلا شقيها وجمع طرفيها ، ومن كان كذلك كان من أخص المقربين وكمل العارفين وأفراد الموحدين ، ومن قام بطرف الظاهر دون إحكام توحيد اليقين فهو يعد من زمرة أصحاب اليمين ، ومن طمع في نيل باطنها دون إحكام ظاهرها وقع في ورطة المعطلين والجهال المغرورين ، ومن تحقق بباطنها وأحكم ظواهرها فهو من العلماء الربانيين والهداة المهتدين . جعلنا الله منهم ، ونهج بنا نهجهم . ولي في ذلك شعرا :

فالإستقامة أقصى مايراد ومن لم يسلك السبل لم يستفتح السفر

إن الكرامة وإن جلت مراتبها علامة في سلوك السادة الغـــــرر

والإستقامة بدر هي نتائجــها كما نتج من فنون الشجرة الثمـــــر

وللإستقامة المراد بها المرضية علامات وأمارات ليكون العبد فيها قائما ، فكل عمل تنشأ صورته عن العبد فلااعتبار به دون الله تعالى ، وكل ما أقيم فيه من الله فهو الكثير وإن قل صورة ، فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من علامة إقامة الحق لك في الشئ ، إقامته إياك فيه ، مع حصول النتائج)

فمن علامة إقامة الله للعبد في الشئ الملابس له ، والحالة الراهنة عنده ليميز عن مقام الإنسان في الشئ بنفسه الذي لا إعتداد به عند ذوي البصائر ، الناظرين بغير التحقيق في طرائق التدقيق ، من أقامة الحق إياك في الشئ الذي هو عين مايحصل به الأدب مع الله حالا وفعلا ، وإن تناءت عنه أفهام المحجوبين بالنظر إلى ظواهرالصوربكثيف طبع البشر ، دون النظر إلى الأسرار الغيبية والمعاني الملكوتية ، ولذلك علامات وظواهر أمارات ، فأوضحها وأثبتها ماذكره المؤلف رحمه الله من إقامة الحق لك فيه ، وإقامة الحق لا يصحبها مايخالف أمره ويتعدى طوره ، لئلا يظن ذو جهل أنه قائم في المعاصي بالله أمرا ورضاء ، ولكن قهرا واقتدارا ، وليس المراد هنا إلا الإقامة المرضية الموافقة لأمره المحبوبة لديه فيها عنى ولها أراد في عبارته وعلامات قبولها ، فمن أقيم فيها وأنها عنده مرضية حصول النتائج القربية ، لأن ثواب الطاعات في الدنيا تيسير الحسنات ، وفعل القربات ، وتوالي أفعال الخيرات ، وفي الآخرة رفع الدرجات في الجنات ، وتوالي المثوبات . فإن أشكل على السالك حاله فليفرض هذه الحكمة عليه ، فإن وجد ذلك فليحمد الله ، وليتخذ الجد له مساقا ، وليداوم عمله ولايطلب الخروج عنه حتى يكون الحق هو الذي يتولى إخراجه ، وينصب معراجه ، إلى ماهو أرفع وأقرب عنده ، ولايزال كذلك أبدا ، وليجعل من دعائه ﴿ **وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني**

مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ [الآية ٨٠ الإسراء] ومتى كان العبد على غير ذلك أما بأن يقوم في غير مطلوب منه شرعا ، ويقول لأني قائم بالله فيه ، أويقوم في الشئ بنفسه ويرى حوله وقوته ، ويغيب عن الله فيما منه وعنه فقد أخطا الأدب ، وتعرض لمواقع الطلب ، ولم ينل منه ماطلب . ولي في ذلك شعرا :

فمن علامات أن الحق قائد من   في فعـــــله كلما يأتيه محبوب
أدامه منه تيسير لـــــذاك وإن   يصحبه إنتاج ماهو منه مطلوب

فمن كان بشهود ما من الله ليس من كان بشهود مامنه إلى الله وهذه علامة على صحة توحيد السالك ، وبيان ماهو سالكه من الطرق والمسالك . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من عبر من بساط إحسانه ، أصمتته الإساءة مع ربه ، ومن عبر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء)

هذا بيان لحالتي الواصلين ، والمجذوبين المحبوبين المرادين ، ويعبر عنهم بأهل التعريف ، لأن الله إبتداهم منه بتعريفه وتعرفه ، وأهل التكليف المريدين المحبين السالكين الراحلين إليه من شهود الأغيار وظلمات الآثار ، الحاملين أعباء مشقات مقاسات مجاهدة النفوس ، ومباينة النحوس ، يتسللون عن مضائق الشهوات وضنك الرموس ، يتحرون ما هو الأولى في نظرهم ، وماهو الأجدى في فكرهم ، يزنون بموازين العقول والنقول مايأخذون ويذرون ، ويرون أن أفعالهم لهم مملوكة ، وأحوالهم لهم ممسوكة ، وذلك عند العارفين الفانيين عن وجودهم ، الغائبين عن حجاب شرودهم ، المقبلين بكلية بواطنهم وظواهرهم على ما منه إليهم ، فالأول حال الزهاد

والعباد ، وتلازمهم الأحزان ، فإن وعظوا أونصحوا نظروا إلى مامنهم إلى الله من المخالفة وقلة الحياء ، فيصمتون لامحالة ، ويرجعون إلى نفوسهم بالذم والملامة . والعارفون ناظرون إلى ما من الله إليهم فلايرون لهم في إيجاد الأفعال وتقويم الأحوال دخلا ، فتنطلق ألسنتهم كيف كانوا لفناهم عنهم .

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه : حدثت عن بعض هذه الطائفة قال : كان قد بقي في نفسي شئ من القدر وكنت أستكشفه من العلماء فلاينكشف حتى قيض لي بعض الأبدال فاستكشفته إياه ، فقال : ويحك ماتصنع بالإحتجاج ، نحن نكشف سر الملكوت فننظر إلى الطاعات تنزل صورا من السماء حتى تقع على جوارح قوم فتتحرك الجوارح بها ، وننظر إلى المعاصي صور مصورة تنزل بمشاهدة القدر . وقال أيضا : كنت قبل أن ينكشف لي مشاهدة علم اليقين ، فرأيت في النوم كأن قائلا يقول : القدر من القدرة ، والقدرة صفة القادر ، فيقع القدر على الحركة فلاتتبين ، فتظهر الأفعال من الجوارح ، أوقال : فتتحرك الجوارح بالأفعال ولاتبين . انتهى .

فهذا مشاهدة أهل التعريف وماشاكله من مشاهدة الأفعال على الكشف من الله صادرة ، والعباد فيها كالآلات المسخرة ، فكيف يصمته شئ ليس إليه ولامنه ، وإن نسب فبحكم العدل ومنع الفضل ، لأن له في إيجاد الأفعال قدرة ، والمحجوبون عن شهود ذلك في عما يطولون بألسنتهم عند ماتظهر لهم الموافقات ، ويخجلون ويصمتون إذا برزت على أيديهم المخالفات ، وذلك لأنهم شاهدين لأفعالهم ، ومثبتين لوجودهم . فهم وإن

خرجوا عن ظاهر الشرك لاينفكون عن باطنه ، ووراء ذلك قوم احترقت ذواتهم تحت سطوات ظهور الأحدية فلم يبق لهم غيبة ولا أينية ، يرون مامنه إليه غائبين عن الوجود ، متلاشين في الشهود ، لاأخبارلهم عن أنفسهم حتى يرون منها أواليها ، فهؤلاء أهل التوحيد الخالص عن شوب رؤية الأغيار ، ومزج ظلمة الآثار ، لايتعثرون في أذيال الأفكار ، ولم يقفوا عند جنة أونار ، بل انتهكت عن بصائرهم الأستار ، وتجلى عليهم جمال سيدهم ، وتوالت عليهم منحه وعطاياه ، وتنزل عليهم الألطاف ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم** ﴾ مايكل عن وصف الوصاف ، عاينوا صرف الحق كفاحا ، وأشرق من أفق الشهود صباحا . ولي في ذلك شعرا :

فمن يعبر عن بسط الشهود فما تصمت وإن كان في حال الخفا أسرا

ومن يعبر عما منه ذاك فما يناله حجله الحاني عليه ترا

وكل من كان بالله حقيق أن تطول لسانه ولايصمتها عروض سبب ، أويصدها حصول أرب ، ومن كان يرى نفسه وأفعالها وسوء اجتراحها وجرأتها وتعديها على حدود سيدها واقتحام شهواتها ، واتباع هوائها من غير مبالاة منها ، صمت من سوء مايراه من إجتراء على مولاه . فهو إن برزت عنه طاعة تكلم وانبسط ، وإن حصلت عنه هفوة صمت وانقبض ، وهذا حال السالك قبل عثوره على كنز المعرفة بالله التي لاتتعلل بالعلل ، فحري أن لايقبل عنه عند سامعه موعظة ، ولاتصل إلى قلبه نور حكمة ، لما عليها من بقية رؤية النفس ، والعارف ليس كذلك يكون بالله غائبا عن نفسه وصفاتها ، ونسبة أفعالها ، فيتكلم بالله فيقبل منه لامحالة قوله ،

وتصل إلى قلوب السامعين موعظته ، فينتفعون بذلك أتم إنتفاع ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيث صار التنوير وصل التعبير)

تسبق أنوار الحكماء وهي أنوار الحضور الكائنة عند رفع الستور ؛ كنور اليقين وعينه وحقه الذي محل تنزلها الأسرار والأرواح والقلوب ، وهذه كلها أسرارغيبية ، وأحوال وهبية ، لايكون بعمل ولاتنال بحيلة ، بل إنما يحظى بها المجذوبون ، المرادون غالبا قبل وجود تأهل منهم لها ، أوتطلع منهم إليها ، بل يفجاهم كفاحا ، ويلقى عليهم أنفاس الوقت أرواحا . فأول مايقع منهم النظر إلى الوهاب المبتدي بالإمتنان ، ومفيض الفضل والإحسان ، وغيرهم ممن أخذ في طريق الترقي في مدارج السلوك ليس كذلك ، أول مايرى نفسه وأوصافها وأفعالها ، فالحكيم هو العالم بالله دون غيره من سائر علماء الرسوم ، لأن شعاره مخافة الله وهي رأس الحكمة كما ورد : الحكمة مخافة الله عز وجل ، وخوف الحكماء من الله صرفا لايمزجه خوف سبب من الأسباب ، بل خوف إنصاف كالهيبة بإزاء الجلال ، والإنقباض والإنطواء تحت سطوات العظمة ، فهذا وماجرى مجراه من خوف العلماء بالله ، المعبر عنه بالخشية ، إذ هي أعم لذلك المعنى الذي عنا الله بقوله ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ وخوف السالكين وطوائف العباد والزهاد لأسباب نصبها الله مزعجة لهم إليه وسائقة لهم إلى عبادته ، وأسباب مشوقة تدعوهم إلى دخول حضرته ، كما قال الله عز وجل ﴿ **ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون** ﴾ [الآية ١٦ الزمر] فافهم

الإشارة في قوله : ياعبادي الخاصين فاتقون ، والحكماء إذا أرادوا أن يتكلموا أوقصدوا إرشاد طالب أول ما يفزعون إلى الله في أن يوصل إليه كما أوصل إليهم ، فيتكلمون مع الخروج عن رؤيتهم في حضرة سيدهم ، فيصل التعبير حيث وصل التنوير ؛ إن كان من أنوار القلوب وصل التعبير إلى القلوب فانبسطت عليها أنوار الإيمان ، وامتلأت بإشراق الإيقان ، وإن كان من أنوار الأرواح وصل التعبير إلى روح السامع فيرتاح شوقا ويطرب حبا فلا يتمالك الروح عند سماع ذكر الحبيب ، ولايستقر دون التطلع على أخباره ، فيتدله لذلك الروح ، ويسبي السوح ، فتبدوا لوامع ولموح ، وتنزل مواهب وفتوح منوح . وإن كان من أنوار السرائر العلية وصل التعبير إلى سر السامع فيستغرق في الشهود ، ويطيح في الوجود ، ويغيب في الشهود عن الوجود ، وتتوالى هناك عليه تجليات أزلية ، وجمالات سرمدية ، تتصل بالعوالم الديمومية ؛ فما أعجب هذه العبارة حيث قال : وحيث كان التنوير وصل التعبير ، ولي في ذلك شعرا :

السابقون إلى عـــين اليقين تكن   أقوالهم تبع والنور قائـدها
فسارعت حين كان القايلون يكن   للسامعين قراء في موائدها

فالكلام ترجمان الجنان ، فكل جنان مؤيد بنفس رحماني وسر إمتناني ، خرج الكلام مغمور بالنور ، موجد عند السامع السرور ، وممنحه غايات الأماني والحبور ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

كل كلام برز من باطن إلى ظاهر فهو دليل مابرز عنه من أي اللطيفتين ، إن كان من اللطيفية القلبية النورانية الربانية المقدسة عن دنس لوث

الأكوان وغبار قتر الأغيار خرجت صافية رائقة ، ماصادفت لطيفة مودوعة إلا كانت في الفؤاد غرسة مزروعة ، يصادف منها كل من سمعها سر الحياة ، كما تصادف الأرض عند نزول وابل المطر الحياة ، ولكن الأرض بعد ذلك تفترق إلى قيعان وأرض طيبة ووحدات حافظة كما ورد ذلك مستوفى المعنى في الحديث النبوي ، ويشاهد ذلك عند السامعين ظاهر ، فإن الحكمة الواحدة يتكلم بها واحد فتقبل منه ويتكلم بها الآخر فترد ، وماذلك في الحكمة وإنما هو بحسب من برزت عنه من الصفاء القلبي ، والكدورة النفسانية ، والظلمة الشهوانية الهوائية الأرضية . فالشاهد في المعنى الذوق الموجود في الكلام ، فما يتميز إلا به ، ويعرف ذلك من زاحم الحكماء ومارس كلام العلماء ، فإنك تجد في كلام بعضهم مالاتجده في كلام الآخر مع استوائهما في العبارة ، بل قد يكون من هو أرك في ظاهر اللفظ أقوى تأثيرا في الباطن ، وذلك لما عنده من وفور اليقين ، وكمال الصحو والتمكين ، وذاك الذي قد تحسن عبارته ظاهرا من غير قوة يقين في الباطن وكمال تحقيق تجده دون ذاك .

وقد كنت أجد عند حضوري بمجلس سيدي وحيد عصره عمر بن الرحمن أنه يتكلم مع العوام فيما يتكلمون وأجد له من التأثير ما لا أجده في كلام غيره من المصنفين ، وكثيرا ما يحصل من غيره مذاكرة وأجد القلب عند ذاك ساكن لايعبأ بها ، فإذا تكلم أنصت القلب وتعشق إلى كلامه تعشقا ذوقيا ، فلو اطلع ذو غباوة على ما أجده في بعض كلامه لعجب مني كل العجب ، فالحمد لله ، فلو أخذت فيما وجد من كلامه من الفوائد

لما وجدت لها حصرا ، وبقيت في بقية مدتي أتصفح كلامه فأجد لها أوجه ، وذلك لما هو عليه من كمال التمكين في مقامات اليقين .

وكان يروي لنا عن شيخه قدوة الأنام ، المشهود له عند الخاص والعام بأنه الختام ، حسين بن سيدنا الشيخ أبي بكر نفع الله بهم ، ونظمنا في سلكهم ، وجمعنا معهم مع الأحبة في دار السلام ؛ كلاما يرويه استخرج منه علوما لطيفة ـ وأحوالا منيفة ، مع أنه كان ذلك الكلام مما يتداولونه العوام ، وقد أفردناه في نبذة لطيفة ، فليطلب منها هناك يعثر على صواب إشاراتهم في بواطن عباراتهم ، ولي في ذلك شعرا :

إن اللسان دليل السامعين على ... مافي القلوب من الأنوار مستور

فكل قول تجـــده السامعون لج ... في القلب فاعلم بأن السر مغمور

ومايرده سمع السامعين لـــــه ... دليل يخبر بأن القلب مســـتور

والإذن من الله لعبده أصل النفع ، والإذن لايعرف إلا بدليل يدل على الله مأذون له في الكلام ، مرضي له في القول ، وكلام غير الماذون لاجدوى له وإن تمنى وتزخرف ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه منبها على دلالة الإذن :

(من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته ، وجليت إليهم إشارته)

من أذن له من الواصلين ، والعلماء المحققين ، والسادات المقربين في التعبير عما يجده من كشف العلوم وإيضاح الحقائق ، وبيان طرائق الهدى بعد تمكنه منها ، وتحققه فيها على المحجة البيضاء ، والحنيفية السمحاء ـ الذي لايدخل فيه إرتياب ، ولم يغطى بكثيف حجاب ، بإيصال النفع والدعاء إلى

الجمع ، فلذلك دليل وعلامة ، فعند صاحبه بأن يجد في سره من الله أمرا لايمكنه خلافه ؛ بأخذه عن الكشف واليقين ، فيتكلم بالله لابنفسه ، ولله لالهوى ولاطلب حظ ، ومن الله أدبا واستضعافا واستئذانا ، وإلى الله إلتجاء ولياذا واعتمادا . ودليل ذلك للمتلقي أمور ظاهرة وأمور باطنة ، فمن الظاهرة حسن الإستقامة واتباع السنة والورع والزهد والإنابة وغير ذلك من شعائر الدين ، والدليل باطنا بأن يجد لكلامه إستماعا وقبولا وفهما وتعشقا ، وللإشارة فهما وفتوحا . فإذا فهمت العبارة ، وتجلت لك الإشارة ؛ فاقبل ولاتنكر فتكون من حيز أهل العزة بالله ، لقوله صلى الله عليه وسلم " إن من العلم كهيئة المكنون لايعرفه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لاينكره عليهم إلا أهل العزة بالله ، ولي في ذلك شعرا :

علامة الإذن في إظهار معرفة — للسامعين أمور تحـــــتوي فيها
وجود فهم لما عبر مطـــــابقة — وتجتلي من علوم الكشف خافيها

وإذا لم يكن هناك إذن للمتكلم فلايسوغ لسامع ولايروق لديه ، بل يخرج وعليه سماجة الهوى وظلمة الدعوى كماقال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ؛ إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار)

ربما وقليل بروزها مع وجود الهوى إلا نادرا ، مستعارة من كلام غيرها : كلابس ثوب لم ينسج عليه ، وجالب تحفة لم تهدى إليه ، فبرزت صورة حقيقية مقبولة من حيث الحكم ، ولكنها مكسوفة الأنوار كما يظلم الكسوف بضوء النهار ، وذلك أن شمس السر الكائنة في برج الروح الدائر في سماء القلب لم يكتسى من نور الكشف مايظهر به إستنارته في آفاقه ، فلاتتبين بوجوده ، ولم يظهر بشهوده أسرار الملكوت ، ولم تترآء

فيه حقائق الجبروت ، فيكون مكسف لامحالة ، فلا تعرف نفاسة الحقائق هنا لما غشيها من ظلمة أخلاق النفس الأرضية الحيوانية ، وغطا جمالها من غبار الكثائف الغيرية ، فلو برزت هذه الحقائق النفيسة في أرض مشرقة بنور ربها لحصل لها القبول ، وحصلت على كلية المأمول ، فربما تخرج الحقيقة الواحدة على أثنين فتقبل من واحد لما عليه من نور جمال الوصال ، وترد على الآخر لماعليه من ظلمة الطبع وكثافة الهوى ، وذلك مشاهد بالذوق لمن له قلب حي يجده لديه عتيد ، فإذا لم يستكمل أوصاف العراف ، ولم يحظى بورود الألطاف ، ولم تتيسر له العبارة ، ولم تنكشف له سر الإشارة ، فذلك دليل على عدم الإذن ، وأنه لم يأذن له أن يكشف الحقائق ، ويوضح مشكلات الطرائق ، فيلزم الأدب حتى يأتي له الإذن في ذلك ، وعلامة ما أوضحناه آنفا ، ومنه تيسير العبارة له في كل ماتوجه إليه مع السلامة من الآفات القادحة في الإخلاص ، فإذا حصل له ذلك كان كالإذن في إبرازها ، وهو دليل الرضاء من الله ، فلم لم يراد لذلك لم يتيسر له صعابها ، ولم تنكشف له نقابها ، وعند نزولها حينئذ لايمتري فيه إلا ذو حسد وعناد ، لم يحظى بصفو الوداد ، فيقوم معارضا فيحرق دودة نفسه كمدا ، ولم يجد لباطله من الحق مسعدا ، فيرجع خائبا ، ويصير جده بنار الحق ذائبا . اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا إجتنابه ، ولي في ذلك شعرا :

وربما تـبرز الأسرار مكسفـة لما عليها من الآثار والغـــــير
وذاك فيها دليل أرباب معرفة على استتار وجود الحق بالبشر

وعباراتهم ومصونات إشاراتهم لايكونون فيها مختارين ، بل لمعان فيها ، فلايستعجلون وجودها مالم تظهر الحكمة في ذلك ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(عبارتهم إما لفيضان وجد ، أولقصد هداية مريد ، فالأول حال السالكين ، والثاني حال أرباب المكنة والمتحققين)

عبارة الطائفة فيما يظهرون من مغيبات الأسرار ومصونات الأنوار لأمرين لفريقين وهم : أما سالكين ومريدين ، وأما واصلين متمكنين في أحوالهم ومقاماتهم ، يحكمون على مايجدونه من المواجيد ، لما عندهم من الثبوت في التوحيد والعبارة عن الحقائق ، وظهور الآيات عند السالكين غلبة وتحكما من الوارد عليهم ، فلايجدون عن التعبير مندوحة فيترجمون عن الحال الحاكم عليهم وهم عنهم فيما يبرز منهم ، فهم معذورون ويصحبهم التأييد والحفظ ، وإن كان على غير ماذكرنا فذلك من سوء أدب المريد ، والتفات منه عن مهيع المزيد ، فيتخلف عنه التأييد ولايصحبه التسديد ، كما يشير إلى ذلك حديث عبدالله بن عمر حيث قال له صلى الله عليه وسلم " **ياعبدالله بن عمر لاتطلب الإمارة ؛ فإنك إن طلبت لها أعنت عليها ، وإن طلبتها وكلت إليه** " أوكما قال .

وأما أهل التمكين فإنهم فانيين عن أنفسهم باقين بربهم ، فلاتغلبهم الأحوال ، ولايغتروا بما يغتر به الأغرار والجهال ، فلم يتكلموا عنده لإظهار تغرر ودعوى ، بل يكونون عاكفين بأسرارهم في حضرته ، باهتين لما يلقى من سر الخطاب ، ولذيذ المناجاة وشهور الإقتراب ، فلم يلوون عن ذلك إلا لإرشار العباد ، وإيضاح طرق الرشاد ، والدعاء إلى الله على البصيرة

المنيرة ، والمحجة المستنيرة ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾ [الآية ١٠٨ يوسف] فافهم هديت قوله ﴿ **ومن اتبعني** ﴾ تعثر على سر قوله صلى الله عليه وسلم " **واشوقاه إلى إخواني في آخر الزمان** " ولي في ذلك شعرا :

عبارة القوم عن تحقيق مشهدهم	أما لغلبة حالة سكر مــن شربا
والواصلين لغاية نيـــل مطلبهم	يفوح منهم عبير يهـــدي الطلبا
وغير ذلك عيب عنـــد سادتهم	أولي العزائم من ساداتنا النجباء

فالعبارة هي مايعثر عليها من ظاهر الغيب ومن لفظ المعنى ومن صورة لسورة ، فلذلك افترقت العبارة بحسب افتراق القوابل ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(العبارة قوت لعائلة المستمعين ، وليس لك إلا ما أنت له آكل)

العبارة تبرز من خزانة الغيب مجملة ، فيقع على القوابل الفهمية بواسطة ألفاظ محسوسة ، أوإفهام بمعنى غير اللفظ ، أما مشهود أومتخيل ، أومشكل بصورة المحسوس ، فتوجد عند الواحد لشئ من هذه المعاني غير معنى لطيف على حسب ماعنده من الفهم ، فعبر من ظاهر اللفظ إلى باطن المعنى ، وهو أما من عالم اليمين والفضل وهو المراد للمصنف هنا ، وأما من عالم العدل ، وهنا يتجه أن يراد به السماع عند الطائفة واختلافهم فيه على طرق شتى . وأفضل ماسمع عنه وأنصت القول المعجز البليغ الذي احتوى على مصونات الحقائق ، وتضمن نفائس الرقائق ، واجتمعت فيه متفرقات الطرائق ، وهو كلام الله المجيد الذي من قال به صدق ،

ومن إقتدى به إهتدى . والقلوب في عبارته يشير به إلى مايرد على الأسرار والقلوب من خزائن الغيوب ، لأن للأرواح أقوات ، وللأشباح أرزاق ممزوجة بأقوات وغير ممزوجة ، فالقوت الصرف للأرواح العلوية والرزق الصرف من غير إمتزاج بقوت للنفوس الأرضية البهيمية ، والظلم الشيطانية . والرزق الممزوج بالقوت للقوالب الآدمية والأسرار الإنسانية . وإليه والله أعلم يشير الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال **" اللهم اجعل رزق أمة محمد قوتا "** أي صرف معرفة ومحبة وشهود ، أونزول أسرار ولطائف وجود ، فالعائلة المحتاجين إلى فهم هذه المعاني اللطيفة والمشاهد الشريفة يتلقون معاني الغيب بحسن إستماع ، واستكشاف واستجماع ، فهم أهل السماع المتعين من القول أحسنه ، أهل البشارة بما أومت إليه الإشارة في طي العبارة بالهداية في معاني الوجود بنور إلهي ، المتلقيين للفيض الصفاتي بلبابه سويداء القلوب السامتة بالمعنى ؛ من غير تحير أوجهة لروح المعاني ، بل كما يفهمه من عرفه ، فالأقوات مختلفة فمنها : ماهو من تجلي الأسماء والأفعال ، فتتلقاه القلوب الزكية النقية ، وتلقيه على صفحات الصدور فتتسع وتنشرح ، ومنها ماينزل من سماء الأوصاف العلية ، فتتلقاه الأرواح والعقول الصافية الوفية ، ومنها : ماينزل عن الأسرار من سواطع الأنوار ولوامع مصون مكنون مشهد الأحدية الذاتية ، وكل يصلح له مالايصلح لغيره ممن دونه ، فالأمزجة الروحانية تحاكي الأمزجة الجسمانية ، فكل مزاج له علاج .

وقد كان المشايخ الصوفية يعبرون للمريدين على حسب أحوالهم من اليقين ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه بمزيد

كشف ، ويعم بعض ويصفح عن بعض ، ويعفو عن بعض ، ويكلم البعض بأقرب مايكون إلى فهمه ، ويستكشف عن تحقيق مقاله بعض ، ويقبل من بعض من غير استكشاف لمايرى عنده من وضوح الكشف فلايسأله عن مصداق قوله وحقيقة إيمانه . وهكذا كان التابعين يسمعون الكلام الواحد الجامع ثم يفترقون في فهمه ، فيعبرون كلا بعبارة غير ماعبر به غيره من السامعين ، كما يتفاوت طعم الماء في طعوم الأشجار إلى الحلو والقار ، مع وحدة الماء واختلاف طبائع الأشجار ، واختلافها إلى البارد والحار ، والرطب واليابس والأوراق والأزهار ، وغير ذلك . فالحكمة حاكمة على من قامت به بعدم الخطاء فهي من الحكم الذي يحكم به الشئ من الإنقلاب ، وليس لكل سامع منها إلا ماهو غذاء فهمه ، وفتاح سابقة قسمته ، فلأولي القلوب في إشارات الوجود لطائف تناجي بها أسرارهم وتتسع أنوارهم ، جعلنا الله ممن فهم عن الله في كل ماواجهه حسا ومعنى ، ولي في ذلك شعرا :

إن الحكيم له في الكـــــون متسع   يجول في روضة الكشف البهي النظر
فالجسم في الأرض يسعى في مدرعة   والقلب بالعـرش يطلب أثره الحضر
تراه يسري في الأكوان أجمعـــــها   تطوى له مثل طي إليـاس والخضر
يامن يريـــــد جمالا من محاسنها   أنظر تجد مايـــــروق السمع والبصر

فالمقام يعبر عنه بالكلام من غير وصول إلى حقيقة كشف ، والكون في حالة الذوق ، ولايميز إلا لذوي البصائر ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ، وربما عبر عنه من وصل إليه ، وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة)

ربما عبر عن المقام ، أي مقام عبر عنه صدق عليه ذلك فلايختص بمقام معلوم ، ولكن الغالب على الصوفية الإشارة به لمقامات اليقين ؛ لأهل المعارف الواصلين إلى الكشف والعيان ، والتمتع بالشهود والعرفان . ولربما عبر عنه ذو لطيفة وذكاء وهو بعد لم يصل إلى التحقيق به ، وذلك لمن وقف عليه دون أن يطلب حقيقة علمه مكر وغرور ، لأنه يقف به دون أن يطلب مزيد ، وكثير ممن توقف بهم تلك الأماني وقصدهم هذه الأشجار الورقة من غير ثمار ، فيحرمون المزيد ، فينجر بهم الأمر إلى الرجوع إلى طلب المنزلة عند الخلق ، والتقرب إليهم ورفع الصيت لديهم ، فلاتراها ماتنفتح عليهم من قبائح الأفعال ورذائل الأحوال ، فيغمرون في غمرة الهوى ، ويتلبسون بملابس الدعوى ، ويعرضون عن القرب السنية ، والهمم العلية ، وهم يستدرجون شيئا شيئا ولايعلمون ذلك . أعاذنا الله من ذلك ، ولطف بنا مماهنالك ، فذلك لاينفك عنه سالك إلا من لطف به اللطيف ، فتعلق قلبه بالجمال الأزلي ، والمشهد الأسنى العلي ، فيقول لسان حاله : ألا ليس لي في غير ذلك مطمع ولا أرب دون اللقاء يسنح ، وربما عبر عن المقام من وصل إليه وتحقق به ، وألقيت ملابسه عليه ، وذلك ملتبس على عموم الخلق ، فلذلك قل نفعهم وتفرق جمعهم ، لأن المدعي للمقام والمتصدي للكلام قبل أوان الآهلية ، يقل نفع المستمع له ، ولايرفع المبتدي عن حظيظه الجبلي إلانظر سني ، ونفس أقدسي ، عن الأغيار نقي ، وقليل ماهم ، كما أنشد لسان الحال عنهم :

فذو همة علياء يطير بسالك　　　إلى أوجه العلوي وممتده السني
عليـــه سلام كلما لاح أيكه　　　على دوحة تزهو في الريح تنثني

وذوي البصائر سماسرة الحقائق نقاد خالص الحق من ربقة يعرفون المتكلم في الكلام ، ويعرفون السالك في النظام ، لايخفى عليهم الحق بتلبس الباطل . فبعضهم يعرف الحديث النبوي من كلام الصحابي ومن كلام التابعي ، وبعضهم يعرف الشريف العلوي بكلامه وإن لم يره ، ويميزون أهل كل مقام في فحوى الكلام ، فللصادقين أعلام يعرفها أولي الأفهام . ومن الصدق أن لايتكلم المريد السالك إلا بإذن أوغلبة كما تقدمت الإشارة إليه . قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته ، فإن ذلك يقل عملها في قلبه ، ويمنعه وجود الصدق مع ربه)

لاينبغي للسالك وهو السالك إلى الله على نهج الصدق الذي لم يقصد في سلوكه سوى الله سبحانه ، وكل طالب لمقصد سمي سالك في سبيله ، وشرف السالك والسبيل شرف المقصد ، وأشرف المقاصد وجه الله ، أي ذاته الكريم . وأشرف الطريق طريق الله ، وأشرف السالكين السالك إلى الله ، ولايستحق أن يسمى سالك ، وكل سالك لغيره فهو هالك لاسالك . فإذا وردت على السالك بشائر الوصال وسوابق الإفضال من الكبير المتعال ، مما يجل عن المثال ، ويكيف بمثال ، ويضيق عن إبرازه نطاق المقال ، لاينزل من حضرة الجمع والإجمال ، فيحتاج من يريد إظهاره ولم يقدر على إضماره إلى العبارة ليكشف عنه ستاره ، ومادام المريد في أوان التخلص عن ظهور النفس ورؤيتها ، لاينبغي له ان يبادر إلى التعبير

بما ورد عليه من ذلك السر المصون ، والعلم المكنون . لأن في ذلك شهرة النفس وإظهار فضيلتها ، وبظهورها يظلم نورها فيقل إنتفاعه لامحالة ، ويمنعه وجود الصدق مع الله ، لأن الصدق يقتضي أن يكتفي بنظر الله وعلمه فيه عن نظر المخلوقين ، ويقنع بالله عما سواه من الكونين حتى يراد لذلك ، وليس كما يظن فيكتب في جريدة أرباب الفضول الذين احتبسوا في مضايق النقول والعقول ، ولم يشموا رائحة الوصول إلى المأمول . فنسأل الله أن يهدينا لما هو الحق عنده والصواب لديه ، إنه ولي الهداية وواهبها ، ومنيل الفضائل وسائقها .

والمطلوب للمريد الإنتفاع بما يرد عليه ، والإزدياد في التحقيق بالصدق فيما لديه ، فإذا عدم نفع وارده وحرم صدق مراده ، فهو إلى البعد أقرب ، ومن درك الصدق أهرب . ولي في ذلك شعرا :

فالسالك الصدق لايفشي إلى أحد ... من سره كلما وافاه من مـــنن

إياك تستعجلن القـــول فيه إذا ... أردت أن تبلغن بالسير للوطن

فالسالك كما علمت هو الذي تجرد عن الأكوان جملة لطلب المقصد ، وله أحكام في سلوكه ؛ إما أن يكون متجردا في الظاهر والباطن ، وإما أن يكون متجردا بالباطن دون الظاهر ، وإما أن يكون متجردا بالظاهر دون الباطن ، وإما أن يكون مختبلا بالظاهر والباطن ، وذلك أمره ظاهر لايحتاج إلى بيان ، ولايرفع به في طريق القوم شان ، بل يترك وشانه الذي أقيم فيه ، ولايتعرض له إلا من جهة النصح لعموم الخلق ، ونفي الثلاثة الأقسام ؛ فبيان الصادق منهم ماترجم عنه المصنف حيث قال : لاتمدن يدك إلى الأخذ من الخلق إلا أن ترى المعطي فيهم مولاك ، فإذا كنت

كذلك فخذ ما وافق العلم ، هذا معناه ظاهرا في بيان الحق من التلبيس ، بما يتعاطاه الجهال المفاليس ، الذين صحبوا الدعوى واتبعوا الأهوى ، وظنوا أن ذلك توحيد ؛ وليس كما ظنوا ، فالتوحيد لاينافي ثبوت السنة بل يؤيدها ، فلذلك بين حال الصادقين عن المدعين بقوله : لاتمدن يدك إلى الأخذ من الخلق إن كنت صادق ، لأن ذلك ينافي الصدق في التوحيد ، ويناقض الثبوت على التجريد ، لأنك تطلب المراد وتفتقر إلى المريد ، وتطلب التوحيد وتثبت التعديد ، فلا تمد يدك بسؤال إلى غير الكبير المتعال ، فعنده تقف المطالب والآمال ، وإليه يرغب العباد في السؤال ، فإن كنت متجردا ظاهرا دون الباطن فعلامته الإفتقار إلى الخلق والتذلل لهم ، وابتذال المروءة من أجلهم ، والتعبد لهم ، وانتظار ما يصدر منهم وعنهم ، فيمدحهم لما يجريه الله له على أيديهم ، ويذمهم إذا لم يقدر له عندهم ، وينال إعراضهم بالغيبة والتنقيص والشتم إذا وصله أذى على أيديهم ، وذلك دليل على إظلام سريرته ، وانطماس بصيرته . ولايخفى رداءة همة من هذا وصفه ، وبقي قسمين : فسالك منتسب ظاهرا ومتجرد باطنا ، وذلك لصحة توحيده لم يختار على الله ، بل اختار ما اختاره الله له في أي حالة أقامه فيها ، ولم يذمها عليه لسان الشرع ، فالذي يطلب التجرد من غير أن يراد له مستعجل للراحة ، ولايحصل له المطلوب منه ، لأنه قام فيه بنفسه ، وكل ماقام فيه بها لايتم ، ولافرق عند أرباب الفهم في الفضل بين القائم في الشئ بالله والخارج عنه بالله ، ولافي في أدب الخارج عن الشئ بنفسه ، والقائم فيه بنفسه . وذلك إذا علمت أن الله سبحانه قدر في سابق علمه أنه يقيم خلقا في دار ويلازمهم

فيها الإحتياج إلى أرزاق قدرها لهم ، وحكم عليهم بها ، وبها يظهر سر قهره وغلبة أمره فيهم ، وهذه الأرزاق منها مايأتي بتسبب وسعي في طلبها ، ومنها ما يأتي من غير تسبب ولاسعي . فالأول يقام فيه المتسببين وهو حالهم فيحتاجون فيه إلى العلم بما يأخذون ومايذرون مايحل أخذه ويجب تركه ، فكل من أراد أن يتسبب بسبب فلابد فيه من علم يكون فيه محسنا وفيه متأدبا ، وإلا وقع في ورطات الحرام ومهالك الجهل ، وعلامته حصول النتائج من أعمال البر ، وإيصال ما أمر الله به أن يوصل . وأما مايأتي بلا سبب ولاسعي وهو رزق المتجردين ولهم أحكام وآداب ، فمن حكم المتجرد الصادق أن لا تتعدى همته مولاه الكريم ، ولاتستشرف نفسه إلى المخلوقين ، فذلك قدح في توحيده وشرك في تفريده ، فقد يأتيه عدوه ويحظه على التعلق بالمخلوقين ، وطلب الرزق من المسترزقين ، فيحتاج قوة يقين يدفع بها تسويلاته ، ويحتج بها بحجج قاطعة له عن مناواته ، وليس ذلك إلا لصدق التوكل وقوة اليقين ، ونفوذ العزيمة وعلو الهمة ، إلى جناب من بيده ملكوت كل شئ ، وعنده خزائن السموات والأرض ، ويرى عجز الخلق عن أن ينفعوا نفوسهم فضلا عن غيرهم ، فيعتمد لامحالة على عميم فضله ، ويستند إلى منيع جنابه ، وينتظر رفع مانزل به من الفاقة ، ودفع ما ألم به من البلاء من سيده لايتعدى إلى غيره . ومن علامة ذلك ترك الشكوى إلى الخلق والرضا عن المولى بما قضى ، والإكتفاء بنظره في جميع الأحوال ، فإذا أكمل توحيده ورسخ في المقام تجريده فلابد من أن يأتيه ماقدر له من الرزق المقسوم .

وله في تناوله آداب ظاهرة وآداب باطنة ، فمن الآداب الظاهرة أن يراعي ماحضره العلم عليه من التناول من الأيدي وإلا وقع في الحرام والشبهة ، فمنها مايكون التناول حرام ، ومنها مايكون شبهة قوية وشبهة قليلة ، فمن الحرام التناول من يد من ليس له كسب إلا من محرم كمعامل الخمر وعامل الرباء الذي ليس بيده غيره ـ أوما بأيدي أهل الزنا الذين ليس لهم حرفة يستندون إليها ، وأهل الغصب من العمال السلطانية دون مواتيهم ، فإن أموالهم شبهة قوية لما قد يدخل أيديهم من الأموال الضائعة والفيئ وغير ذلك ممالايبعد وجود الحل في أموالهم ، وأما عمالهم فهم الذين لم يوجد في أيديهم إلا سحت الحرام فليحذر منهم أشد الحذر من الملوك نفوسهم ، وممن تقوى الشبهة فيما أيديهم الجند الذين لم ينتظم لهم بيت المال بل يأخذون ما بأيديهم بالشوكة والتغلب كما هو الموجود في هذه الأعصار في سائر الأمصار ، ويلحق بهم المخالطين لهم والمتشبهين لهم في الزي والهيئة ، وأرباب الصناعات المكروهة كالصياغة ، ومن يباشر حرف الظلمة كائنة ماكانت ، ويلحق بهم أعمال الأعراب ومن لايكترث بالسنة ولم يعامل بالعلم ، وأرباب الأوقاف المتهورين فيها الذين اتخذوها دولة ويحسبونها من جملة أموالهم ، ويصفرفونها بحسب أهوائهم على غير ماشرطوها الواقفون ، وسائر الولايات الدنياوية : كالحكام وقضاة الأمصار والعراف وأهل الإحتساب ، ومن يأكل بدينه ويظهر غير ماهو عليه من التصوف ، ليعطى مما هو موقوف على الصوفية ، أويظهر العلم وليس كذلك ليعطى مما هو موقوف عليهم ، أوليعطى من غير وقف لذلك ، والمتجرد متعرض لذلك كله ، والسبب مع السلامة من هذه المهالك أولى . فهذا بعض

الآداب الظاهرة ، وإن أردت استقصاها على الكمال فعليك بمطالعة كتاب الحلال والحرام من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .

ومن الآداب الباطنة عدم التطلع والإستشراف إلى الخلق والطمع فيما أيديهم ، وتعلق الباطن بإقبالهم وإدبارهم ، واتباع إشارة القلب الأولى في ترك ماتجد نفرته منه في أول وهلة ، ورد النفس فيما تدعو إليه ، ويجتنب إرفاق الأحداث والنسوان الذين لم تحتنكهم الآداب ما أمكن ، فإن قبول إرفاقهم أدعى بالقرب والموادة والمخالطة ، ومخالطتهم منهي عنها كما علمت من قواعد أهل الطريق ، وأوقع في قلب المريد لسريان أخلاقهم إليه الذي هو مطالب باجتنابها ، والخروج منها ، وليس الإنسان على الإستشراف على الرزق من حالته ملوم ، لانه ضعيف محتاج ، بل فيه إظهار لما هو المطلوب منه من الذلة وقلة الحيلة بين يدي ذي القوة المتين ، فإذا قام بحيلة الإضطرار فلا حرج في السؤال لما يسكن به داعية الطبع ، فمن مات جوعا وهو يقدر أن يسأل مايرد به رمقه مات قاتل نفسه ، كما ورد معنى ذلك الحديث ، هذا إذا لم يؤيده الله بقوة في حالة تغنيه عن ذلك ، وأما أهل الصدق الذين باشر قلوبهم روح اليقين فلايحتاجون إلى السؤال ، بل همته لاتخطي سجادته إن كان جالس ، ولاتخطي خطواته إن كان سائرا ، يسير على مهل لايستفزه الحرص على إدراك ماهو غائب عنه ، ولا الإستعجال لما هو حاضر لديه لعلمه أنه إن كان له قسما لم يفته وإن تأنى ، وإن لم يكن لم يدركه وإن تعنى ، كمثل ذلك اطمأنت القلوب إلى جناب المحبوب ، وسكنت عن اضطرابها وسلمت من وباء الشك ، ووقفت عند حسن الإختيار ، وصح لها مقام الإنتظار ، وطابت لها

الأوقات بالأذكار وصفت بها الأفكار ، آناء الليل والنهار . فإذا حكمت مقام التجريد ، ورفعت الهمة عن النظر إلى العبيد ، إلى الحميد المجيد ، فخذ ما أتاك من يد مولاك ، فإن كان فاضلا عن غناك ، زائدا على كفايتك فأخرجه من يدك حالا لئلا يكون حائلا بينك وبين مولاك ، واحذر آفة الرد بعد ماتستكمل الأدب في الأخذ ، فإذا ساق الله إليك غنا فاقبل عطيته وأكرم هديته ، ثم ضعها في موضعها . ثم الفقراء والزهاد في الإدخال على حسب ماعندهم من اليقين ، فمنهم من لايحبس شيئا لغد ، ومنهم من يدخر لأربعين يوما ، وآخرهم مقاما من يدخر لسنة ، وفوق السنة يخرج به إلى حيز الراغبين في الدنيا ، المتكاثرين والمتهورين في الأسباب ، الذين لم يبالوا بموقف الحساب وطول العتاب ، هذا في أحكام المريدين السالكين ، وأما المتحققين والنجباء الموحدين والسادات العارفين ، فهم ثلاثة أقسام : قسم لايسألون وإن اعطوا لم يقبلوا ، وقسم لايسألون وإن أعطوا قبلوا ، وقسم يسألون عند تحقق الفاقة . فالأول هم الروحانيون ، والثاني هم الصادقون ، والثالث هم المتقون . ولي في ذلك شعرا :

فلا تمد إلى غير الإلـــــه يد   فذاك شرك خفي عند ذي النظر
إذا صفا صرف توحيد فمايجد   فاستعمل العلم تلقا غاية الظـــفر

فإذا كان النظر إلى الخلق شرك فيما يأتيك من أمر الرزق ، ففي طريق العارفين النظر إلى النفس وحظها نقص ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما استحياء العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه لإكتفائه بمشيئته ، فكيف لايستحي أن يرفعها إلى خليقته)

ربما استحيا العارف في حال تجلي كمال شهود الحقيقة على قلبه ، واستغراقها لسره وامتلاء روحه في لمحات الجمال ، ولايحات الجلال ، واستشعار دنو الوصال إلى حضرة الكمال ، وهذا لايكون كليا في هذه الدار ، فلم يفتقر إلى الأغيار ، ولم تظهر عنده الآثار التي من جملتها لهيب النار ، فكان شاكر بشرب عقار ، فهناك بانت له الأنوار ، وخاطبته الأرواح ، وواصلته الأفراح ، فكان مطلبه وغاية ملمحه الكمال الذاتي الذي يعطى البقاء به الغيبة عن النفس ، واضمحلال الحس ، فكان بعلمه مستغنيا عن الرجوع إلى ما منه من الدعاء ، والعارف هو العارف بالله ولو من بعض وجوه المعرفة ، وبصفاته وأفعاله معرفة تعطيه ذوق العلم الذي لايتطرق إليه جهل فيما علمه ، ولاريب فيما فهمه العارف بدين الله وأحكامه ذوقا وتحققا ، أيضا يعمل على البصيرة المنيرة والحجة المستنيرة ، ففي حال إصطلامه في شهود الكمال يستحيي لامحالة عن رفع الحوائج لتحققه بأنه لاينال من مولاه غير ماقدرله ، وإن دعا مع ذلك فهو بحكم العبودية لا أنه ينال بدعائه غير ماقدرله ، فهو في حال تحققه بهذه الحالة ، وإشارة الحال له بالسكون في هذه تستحيي من مولاه أن يستدركه عليه في علمه ، أويشاركه في حكمه ، أويذكره ماقدره في سابق علمه . وكيف يذكر من لايجوز عليه الإغفال وقد علمت أن الغفلة نقص ، وهو مستحيل عليه النقائص تعالى الله علوا كبيرا . فإذا كان مستحيا من الله أن يرفع إليه حاجته فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى غيره ، فذلك أحرى ، وفي أغلب أوقات السؤال بحكم الإمتثال فيسأل قليل حاجته وكثيرها منه ، فإنها لاتوجد عند غيره وإن قلت ، ولاتنال إلا منه وإن جلت ، فسؤال

الأغيار قبيح عند ذوي البصائر الأحرار ، فكيف وقد أمرهم بالفرار ، فأرواحهم إلى ظل أحديته ساكنة متسترة ، وعند رؤية الغيرية في ظلمة البشرية مفتقرة إلى حبرة مستجيرة من صبره ، فعند أولي الهمم العلية والمشاهد السنية ، سؤال الخليقة أشد من لهيب النار ، لمايعتريهم من الخجل والعار ، بين يدي الواحد القهار ، أن يكونوا لغيره مثبتين ، وفي أحديته مشركين ، فهم الذين يلقونه وحوائجهم تختلج في صدورهم ، لايبثون بثهم إلى سواه ، ولاينزلون حوائجهم بغيره .

يروى أن بعض الصادقين الذائقين شراب المقربين ، كان يرقبه إنسان كلما خرج طاف بالبيت ، ثم نظر إلى رقعة كانت معه ، فلما كان يوم من الأيام تنحى ثم خر لوجهه ميتا ، قال : فنظرت في تلك الرقعة فإذا فيها ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ [الآية ٤٨ الطور] قال فعرفت أنه كانت به فاقة فاستحيا من خالقه أن ينزلها بغيره حتى قبض . ولامنافاة بين هذا الكلام وماتقدم من معنى الحديث " **من مات جوعا وهو قادر على أن يسأل مات قاتل نفسه** " فإذا قال قائل : كيف يسوغ له مع قدرته على السؤال يموت ، فنقول : موته بذلك غير محقق ، وبتقدير ذلك فاعلم أن هذا رجل غلبت عليه شهود أحدية الواحد الحق ، فلم يظهر للأغيار آثار عند غلبته عند تجلي مشرقات الأنوار حتى أجله المعلوم وهو فيها مصطلم ، وبها عن نفسه منعدم ، لاإحساس عنده بالألم ، بل انطمس كما يتوهم من مؤلم وملائم في يم العدم ، فلاحرج ولا إثم هناك له ، ولاعليه يقول اللوم من عتبا :

بل عينه رمقت صرف الشهود فما في ذاك إلا وجود الكون قد ذهبا
فإن أردت ثبوتا لامحاولة عنه تقول هوى فيه شبيه هبا

فالحوائج لاتنزل إلا عليه ، والمطالب لاترفع إلا إليه . قال سهل بن عبدالله : إن الله مطلع على النفوس والقلوب ، فأيما نفس أوقلب وجد فيه حاجة إلى غيره سلط عليه إبليس . انتهى .

وكما أن القلب موضع نظر الحق فإذاجعل فيه غيره فقد جعله مصروفا إليه ومقبلا عليه ، لأنه أي إبليس مفتاح طريق البعد ، وقائد ركب الضلال يستهوي الحمقاء والجهال بالشكوك وأماني الغرور ، ويلقي قول الزور ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر** ﴾ وكل من افتقر إلى شئ دون الله فهو من وعده الباطل ، وتزويره المائل ﴿ **والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** ﴾ [الآية ٢٦٨ البقرة] فأي الوعدين أنت به أوثق فأنت به أحق ، وبقائله أصدق ، وبنسله أحق ، ولشهوده أرمق . وتعلق المقربين بالله دون الخلق جملة لايرمقون مرادا دونه ، ولايؤثرون حالا ولامقاما عليه ، بل هم وقف على التعلق بمليكهم ، قطعوا أطماعهم من إيصال إنتفاعهم أودفع مضارهم إلا منه وبه .

فهم كما قلت :

علقت قلوب الأولياء بربهم لايؤثرون من الوجود مرادا
فهم الرجال القائمون فكن بهم في سبلهم وسلوكهم مرتادا
إن الوجود بأسره في قربهم كسراب يشهد من نفوع بعادا
فلربما استحيوا لغلبة شربهم أن يرفعوا حاجات ثم عنادا
هذا فكيف تكون نازلة بهم في غيره الآمال إلا تعادا

حيا الإله أحبتي في حزبهم كم من مسلسل ثابت الإسنادا
يرويه خاصية الحنان بجبهم عمن له التصوير والإيجـــادا

فلأهل البصائر معايير لطيفة يميزون بها بين حقائق الأعمال ولطائف الأحوال لايعرفها غيرهم ، والقائمون على الرسوم الظاهرة تلتبس عليهم الأعمال ، فليس ثم غير أن يعرضوها على أنفسهم ، فكلما استثقلته فهو الأرجح والأحرى ، كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه ، فإنه لايثقل عليها إلا ماكان حقا)

هذا ميزان لأرباب النفوس المحجوبة المجبولة على اتباع الهوى وإيثار الشهوة ، وأما النفوس الزكية المطمئنة فلا ينصب لها هذا الميزان ، فقد تستثقل الباطل وتستخف الحق لإتصافها بصفة القلب ، وهذا الإلتباس في الأمور الدينية ، أما واجبات أومندوبات ، وأما مانص على حضره أوكراهته الشرع أوعلى وجوبه أوندبه فلا التباس في المأمورات والمباحات ، وذلك أن النفس الحيوانية من طبعها وجبلتها إيثار ما هو الأصل ، وأصل النفس من حيث امتزاجها بأركان العالم السفلي : النار والتراب والماء والهوى ، فهي أبدا تطلب هذه الأصول : فالنار بما فيها من الدواعي الشيطانية ، والتراب بما فيه من الذلة ، والحياة الحيوانية ، والثقل عن المنازع العلوية ، والمشاهد الروحانية . وقد علمت أن هذه الصفات عدمية باطلة ظلمانية ، وبما فيه من لطافة الهوى وليونة الماء التي هي من صفات القلب والروح تكون الداوعي القلبية وطلب الأفضلية ، فيحصل لامحالة الإلتباس ، فيحتاج العرض على هذه النفس فإنها تسارع إلى حظها مافيه نيل غرضها

، بحسب مافيها من العجلة والقوة النارية ، فهي تسارع مايقتضي الجبلة ، فالحق ثقيل عليها لمخالفته لعالمها الظلماني الجبلي ، كما علمت أن ما فيها من النور القلب اللطيف والسر الروحي العالي يطلبان أصلهما ، وهم نازحين عنه غريبين عن وطنهم ، والغريب لايكون له من الحكم ماللآهل ، فكان مطلبهما صعب مادامت القوة الشيطانية النارية والشهوة الأرضية متحكمتان على المحل ، فلايتأتى مطلب القلب والروح إلا بعد مزيد مجاهدة وشدة عنا ، فإذا غلب الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، لأن النار وإن كانت قوية فإذا سلط الماء عليها قهرها وأذهب سلطانها واحتبس شيطانها ، فتحقق أن الباطل لايقوم الحق إلا إذا تحكم على المحل وكان باطل صرف ، وأما حيث تقاوما وتصادما فقليل حق يذهب ماظهر في صوركثير من الباطل ، والقلب والروح حق ، والنفس والشيطان باطل ، وللنفس والشيطان مخادع وغوائل ومبايل في الأعمال ، يصادمها الحمقاء الجهال ، ويميزها الأبطال من فحول العلماء ونجباء السالكين حتى يترقون إلى شهود عين اليقين ، فيغنون بنور اليقين عن نصب الموازين . والنفس عند الطائفة لها إطلاقات كثيرة : فنفس أمارة رضية هوائية حيوانية ، ونفس لوامة لدنوها من الأنوار القلبية ، ونفس مطمئنة روحانية ؛ وهل المراد بالنفس المذمومة الفعل المذموم أومحله ؟ فقائل يقول نفس الفعل ، وقائل يقول : محله. ولافائدة في ترجيح أحد القولين على الآخر . ومن الموازين المحققة للباطل من الخق عرض الحالة الراهنة على الموت ، فكل أمر لو أتاك الموت وأنت عليه لم تطلب الإنتقال إلى غيره فهو حق ، وكل أمر يكون على غير ذلك فهو باطل . ولي في ذلك شعرا :

إذا التبس من أمور الدين أحسنها　　على المريد سلوك الصدق في الطلب
فليعرضن على النفس الجموح فما　　تختار إلا الـذي هو يعقب العطب
فالنفس في كثرة الأطوار عـدتها　　مع توحدها في حضرة القـــــرب

فمن جملة إقتران الهوى بالعمل ودخول آفة الجهل فيه ماذكره المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

(من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات)

هذه علامة ظاهرة لأهل البصائر الناظرة والعقول الباهرة ، يتميز بهام ماكان لله مما كان لغيره ، ويعرف العمل المشوب بالهوى المعمول على حسب مقتضى النفس ، وأبغض إله عبد في الأرض الهوى ، فالعامل بالهوى لايأتي منه إلا ماينتجه الهوى من التندح بالدعوى ، والإدلاء على المولى ، وقبائح الإعجاب وفضائح الرياء ، وطلب عاجل حظوظ الدنيا ، ودلالته على من قام به أنه يسارع إلى نوافل الخيرات من التصدق والتكرم بالمال ، مع أنه لم يؤدي ماهو متعين عليه من الزكوات ، أويطلب ويأخذ في نوافل الصلوات ولم يقضى مافرط فيه من الواجبات ، ويهجر الخلق ولم يهجر الخطايا ورذائل الهفوات ، ويخرج الجوائز والصلات وهو يتناول الغصوبات والشبهات .

ومن أمعن النظر في ذلك رأى معظم أحواله وجملة أعماله تفريط وتخليط يجب التوبة منها ، وهو يظنه من قسم الطاعات والقربات ، لذلك قال بعض الشارحين : إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول ؛ فإذا ابتدأ في السلوك وأقبل على الله بالتوبة أخذ في تحصيل النوافل والسعي في مهامه

القفار ، آناء الليل والنهار ، والتردد في الأسفار إلى المشاعر ورؤية الأخيار ، ولم يرد مظلمة ولا استحل من حريمه ولا أدى واجب مافرط فيه ، مع أنه أهم مما هو ساع فيه ، ومن نظر بنظر أولي الأبصار ظهرت له مهاوي الإغترار ، وعرف ماهو النافع في علاج دائه وماهو الضار، فاشتغل بما هو الأهم والأولى ، وبعد مايحكم المقام على التمام ثبت له القيام بالتقرب بنوافل الصلاة والصيام والصدقة والحج وسائر واجبات الإسلام ، فهي الأساس الذي تبنى عليه مراتب السالكين ، والنهج الذي يسلك عليه المريدين . والقليل من العمل مع السلامة من دواخل العلل في الأعمال خير من الكثير مع الوقوع في حبائل الغرور ، ومخايل الزور ، واتباع هوى النفس وقيام إنتصارها ، ورؤيتها أن لها ومنها ، وأنها أهل الفضيلة أومحل الوسيلة ، فالكثير مع إهمال التفقد في دقائق أخلاقها ورذائل أحوالها غير نافع ، ولايعتد به أهل الأفهام الثاقبة . فالتفقد في تطهير الأخلاق مفترض عند أولي الفهم الصافي عن كدورة الهوى ، فلا أهم للمريد من تفقد أخلاقه وتصفية أحواله . ولي في ذلك شعرا :

كمون سر الهوى في النفس يعرفه … من كان ذا بصر في الـدين معتبر

ومن علامة ذلك أن تـــــراه إلى … كسب النوافل دون الفرض يبتدر

فكيف تهدي صنوف البر وانت على … محرم أوواجب جا عنـــــه مقتصر

إن الأساس هو التقوى عليه إذا … أردت أن تبني الأركان فاعــــتبر

فإذا علمت أن أفضل ماتقرب به العبد إلى الله هو أداء مافترضه الله عليه ، وجعل الإتيان بها مقدما على كل مايقرب العبد إليه ، فكانت أبواب منها تدخل كل فضيلة ، وتبتغي كل وسيلة ، حث عليها عباده حثا

أكيدا ، وعلم أن منهم من يستفزه الشره ، ومهم من يغلب عليه الكسل ، فقيد بأوقات لينهض إليه من غلب عليه الثقل الجبلي ، ووسع عليهم تلك الأوقات ليبقى لهم فيها مايتأهبون به ويتفرغون عن الشواغل فيه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(قيد الطاعات بأعيان الأوقات كي لايمنعك عنها وجود التسويف ، ووسع عليك الوقت كي تبقى لك حصة في الإختيار)

قيد بالأمر الجازم والحكم اللازم ، والقيد هنا تخصيص كل صنف من أصناف الطاعات بوقت من الأوقات ، وذلك لأن الأوقات خزائن تبرز من عالم الغيب فكأنها رسائل أتتك من الله تودع ضمنها ذخيرة تدخر عنده ، وأوسع الذخائر وأنفسها عندالله هو ما افترضه الله عليك من الأمر ، وهو أمر جازم ، وأما غير جازم ، فالأمر الجازم هو الفرائض ، ثم لما علم مافي جبلة الإنسان من التثاقل الذي هو التسويف جعل له وقت معين ، فبإخراج ما افترضه عليه عن ذلك يكون عاصيا مستحقا للعقوبة ، ولايتخلص عنه إلا بصدق التوبة ، وذلك رحمة منه وعناية بنا ـ حيث ندبنا إلى مافيه فلاحنا ونيل بغيتنا .

ثم لما علم سبحانه مايغلب على النفوس من الغفلة وقلة التحفظ امتن علينا بما يكمل ذلك المفترض ، كل فريضة نوع مما يشبهها ، فيكون جبرا لما عسى أنه فرط ، فترجع تلك الخزائن الوقتية بذخائرها ، ونفائس ما استودع فيها من أنوار الطاعات شاكرة للإنسان بصلاح الشان وصحة الإيمان ، فيكون مستحقا للإكرام من الله والرضاء عنه كما أكرم من نزل عليه بأحسن قرى ، ثم امتن على العبد بنعمة أخرى وهي أن وسع عليه الوقت كي لايكون في

الحرج ، وقد قال سبحانه ﴿ **وماجعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ [الآية ٧٨ الحج] فبتوسعتها عليه ترتفع عنه ، ويقضي ماهو بصدده من مصالحه ، وتفرغ قلبه عن الأسباب الشاغلة له عن إكمالها ، فيأتي بنشاط وطرب وشوق وارتياح ، ليكون على أكمل وصف وأتم نعت ، كما قلت في ذلك :

قيد لك الأمر كي تأتي إليه ولا ... يمنعك عنه وجود الطبع بالكسل

ووسعه كي يكون العبد ممتهلا ... إلى فراغ من الأشغال والعلل

وتلك نعمته أسدى إليه فلا ... للعبد أن يدخل التسويف في العمل

وإيجابه سبحانه أمره ، وأمره صادر عن علمه ، وعلمه قديم بالأشياء وأحوالها وماهي عليه ، فهي معلومة له معدومة لأنفسها ، ويعطيها العلم بأحوالها عند بروز الأحوال والأعمال عليها في عالم خلقتها وشهادتها حكمة منه ، وأما علمه بأحوالها وكيفياتها وكمياتها وإجمالها وتفصيلها فقديم أزلي ، لايدخل في إلتباس ولايتطرق إليه تبديل ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(علم قلة نهوض العباد إلى معاملته ، فأوجب عليهم وجود طاعته ، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب : عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ")

علم سبحانه بعلم قديم ، وعلمه محيط بالأشياء أولا وآخرا ، باطنا وظاهرا ، وجوبا وجوازا واستحالة ، فالخلق وأحوالهم وأعمالهم معلومون له في قدمه ؛ كيف يكونون في حال بروز خلقتهم ، فهم معلومون له حاضرون لديه ، لايعزب عنه منهم حال ولاعمل ولاحركة ولاسكنة ولا أقل من ذلك ولاأكثر ، وأما لأنفسهم فمعدومون حتى يعطيهم العلم بها وبما أراد من

تفاصيل أحواله لاكليتها ، فذلك له في حضرة عنديته التي هي مفاتح الغيب التي لايعلمها إلاهو ، وينكشف لها من عجائب القدرة بحسب ماينكشف لها منها ، فهي لاتتعدى فوق ما أعطيت من ذواتها ، فهنا يجب علينا قبض العنان ، ولنرجع إلى حل كلام المؤلف .

قال : علم قلة نهوض العباد إلى معاملته لما هم عليه من الثقل الترابي الذي منه منشأ صورهم وظهور أثرهم ، ومعاملته هي مادعاك إليه من الأوامر التي تقرب إليه وتزلف بها لديه ، وتدخل بها في حضرته ، وتستحق بها محبته ، فلم ينهض لما غلب عليك من الكثافة الترابية الأرضية . وعبارة : بالسلاسل للواجبات الشرعية بديع وهو قريب من قود الأسير الكافر إلى الدخول في الإسلام الذي فيه نجاته ، فبجميل لطفه لم يترك العباد ومقتضى طبائعهم ، بل ساقهم بتخويفات العقوبات ورجاء المثوبات فهو المتفضل في ذلك ، وهو مقتضى لطف الربوبية بالمربوب ، وتكليف الحبيب بالمحبوب . فالخلق مربوون تحت كنف ربوبيته يربيهم كما يربي الوالد الشفيق المحب الرفيق لطفله الجاهل بما يعود عليه من الصلاح ، فإذا كشف عند كماله ماسبق إليه وأكلف عليه شكر صنيع والده ، فكذلك إذا كشف الله لعباده في الدار الآخرة ما أعده لهم من الكرامة على ما استعملهم فيه ؛ كيف تراهم يقولون ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هداناالله** ﴾ [الآية ٨٤ الأعراف] ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأو من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾ [الآية ٧٤ الزمر] وهذا وماورى هذا مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، ثم

ماساقهم إليه وندبهم وأوجب عليهم وحثهم على فعله لينالوا هذا الفوزالعظيم والحظ الوافر العميم .

والسلاسل مايوضع في الرقبة للقود بالعنوة والزجر ، والعجب من الله جائز بالكتاب والسنة لكنه من السمعيات ، ومن قسم الصفات التي تحتار تركها على ماجاءت ، فيؤمن بها ويترك على ماأراد من ذلك كسائر ماجاء من ذلك أسلم إلا إذا اضطر إلى التأويل فيبحث عن تأويل العلماء الربانيين فيها ، فيجدها على أكمل محل ثابتة شرعا وعقلا ، ولي في ذلك شعرا :

لما علم جل مولانا وموجـــــدنا　　　إنا كما قال لم ننهض إلى العمل

أوجب علينا وحذر سوء عادتنا　　　وقادنا قود إيجاب نصيح جلي

فالإيجاب من مقتضى قهر الألوهية ومستحق الربوبية ، فمقهور ظاهر بالعدل وباطن بالفضل وهو القهر على الواجبات المفترضات ، فإذا نظرت مايعود بسبب ذلك من الفضل العظيم والجزاء الجسيم ، علمت أنه ما أوجب عليك إلا ماهو عائد إليك نفعه ، وصائر إليك غنمه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أوجب عليك وجود خدمته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته والتعرض لنفحات منته ، وإتحاف نعمته ، وسبوغ رحمته)

فسبحانه ما ألطفه بعباده ، وما أتقنه لمراده ، إذ خزن خزائن الفضل في خزائن العدل ، وطوى وبيل العدل في ما صوره بصورة الفضل . فهذه عبارة تشير إلى ماقبلها وتفسر معناها ، فحيث علمت أن الإيجاب والقود من مقتضى القهر بين مافي ذلك من عظيم الفضل العميم بضروب العذاب

الأليم والخزي الدائم المقيم ، وجعل الواجبات سائقات وقائدات ومزعجات عن الركون إلى مقتضى الحالات ، ومخرجات عن حيز البهائم والجمادات ، ومنيلا لأعالي الدرجات ، وتكسبا لأشرف المثوبات . هذا لمن غلب عليه الحجاب ، ووقفت به عن منهج الأحباب ، ومنازل الإقتراب بسطوات الإغتراب . وما أهل القرب المشغوفين بحبه والمتمتعين بقربه فلايحتاجون إلى القود القهري بل يأتون بحكم الطوع والفرح ، فالأسباب تسوق أهل الحجاب الموسومين بسمة الغافلين والأجناب ، والصفات تهذب السادات الأنجاب .

فالعارفين من العلماء والمقربين من النجباء لايزعجهم خوف الأسباب الغيرية ، ولاتسوقهم المحبوبات الأثرية ، بل خوفهم هيبة وإشفاقا وإجلالا وتعظيما واحتراما وخشية ، وهذه الأحوال كلها لاتكون لغيرهم ؛ لأن العظمة والكبرياء والجلال والقهر والغلبة لم يتصف بها سواه ، وكل مخوف وإن إشتد هوله وعظم أمره إنما هو صادر عن تأثيره واختراعه ، وناشيئ عن تصويره وإبداعه ، فناهيك بهيبة تصدر عن مشاهدة وصف ذي الجلال ، القائم بها صفة الحال ، الفائضة آثارها على سائر الأفعال ، وذلك معنى ما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم " **نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه** " وأما من كان بغته الحجاب فخوفه يحاكي ما هو متصف به كما قال عز من قائل ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم** ﴾ [الآيات ١٥ – ١٦ المطففين] فخوف العامة المحجوبين برؤية الأغيار المضروبة دونهم الأستار خوف النار ، ورجاؤهم ما أعد في نعيم الجنة من طيب

الأثمار ، وإطراد الأنهار ، وافتضاض الأبكار ، وطمع نظر العارفين إلى رفع الحجب والأستار ، وتجلي الجمال البهار ؛ فشتان بين الفريقين وبون بين المقامين ؛ أهل عليين يرونهم كما ترون الكواكب الدرية الغائرة في أفق السماء كما ورد في الحديث . فسبحان المتفضل على الكل بما منه وشهوده ، فنعمة العامة بما أوجبه عليهم وافترضه ، وجعل الفرائض مفاتيح القرب لم يحجر عليها دون التوصل إليه بأصناف القرب ، بل فتح لهم من كل فريضة بابا مهيعا إلى محبته ، واستعطاف رحمته ، واستدرار نعمته **" لايزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه "** فالحمد لله ، فالطرق إليه مطيفة بك ظاهرا وباطنا ، قولا وفعلا ، حركة وسكونا ، نظرا وسمعا ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن لم يوصلك إليه من طريق تعرفه وإبتدأ حديثه ، وسبق إختياره ومشيئته ، أوصلك إليه شان هدايته ، والترقي في معارج إثابته

﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ [الآية ١٣ الشورى]

فطريق الجنة هو عينه سبيل الإنابة على وفق المحبة ، والإعانة على القيام بمقتضى الهداية ، وقد أباح للعبد مواسم المغانم وفوز الغنائم ، وجعلها في طي التعبدات . وأصناف المفترضات مطوية كطي النخل في النوى ، والزروع في الحب ، وجعل الكل فرض متمم من جنسه ليكون جابرا مافيه من التقصير ، وموفرا مافيه من التخسير ، ومتمما ماكان من التحيير ، ووعد على فعله من الفضل مايتضمن له كل طالب ، ويقضي به كل مأرب . وحذر من التقصير وأوعد على تركه بما يزعج به الغافل عن غفلته ، ويوقظه من سنة شهوته ، هذا لمن غلبت عليه الكثائف الأرضية ، والطبائع الحيوانية ، وأما من نور الله قلبه وشرح صدره بنور هدايته ،

وتوجه بنور ولايته ، فلايعبد الله على المخارجة بل يعبده على المحبة ، فلايبرز نفس من الغيب إلا أكسبه سرا وأوجده علما ، فشهده من حيث صدر فيبتدره بالإكرام ، وينزهه عن مقارفة الآثام ، فالوقت كله لهم وقت واحد : منهم أهل الصلاة الدائمة والكلمة الجامعه ، ولي في ذلك شعرا :

ما أوجب الحق من فرض وحث على — طاعات نفل فمرجع ذلك العـمل
إليك إن كنت ذا فهم سليم فـلا — يحتاج حتى متى وهو الغني الأزل
أوجب عليك لكي يدخلك جنته — ويبلغك فــوق ماترجو من الأمل

فباب فضل الله واسع ، ورحمته عامة ، ومنته تامة ، وهو الغني عن أعمال العباد ، المسمى بالكريم والجواد ، ينيل من لم يرجوه ولم يؤمل ماعنده ؛ فكيف من علقت به مطامعه وانبسطت إليه حوائجه ، ورفعت إليه شكايته ، وضرع إليه وتوسل به إليه ، وانبسطت إليه حوائجه ، ورفعت إليه شكايته ، وضرع إليه وتوسل به إليه ، وبكل من له عنده جاه ، فلايستغرب ولايستبعد أن يقبله ويمنحه غايات الآمال ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية { وكان الله على كل شئ مقتدرا } [الآية ٤٥ الكهف] **)**

من استغرب واستبعد وقوع ممكن من الممكنات ، أودفع نازل من النازلات مما هو من قسم الجائزات من سائر المقتدرات وإن جلت ، ودفع نازلة من النازلات وإن عظمت ، وإدراك مسمى من المسميات وإن دقت ، فذاك لقصور فهمه وغلبة سلطان وهمه على درك ماهو وصف من

صفات الله الجلية ، ونعت من نعوته العلية ، إذ من صفة القدرة وصلاحيتها لكل ما خصصته المشيئة الأزلية ، وسواء كان من الأعيان الحسية والأجسام الصورية ، أومن المعاني الغيبية الملكوتية ، والجواهر الروحية ، أومن الأعراض المعنوية ، أومن مجموع ذلك وفوق ذلك من كل ممكن . والشهوة عرض من هذه الأعراض لايعجز الله عن تبديلها ، ولايؤوده تحويلها إلى ضدها ، فالتبديل للشيئآن من الله لعباده التائبين مألوف ، وضد ذلك غير معروف ، فمن فضله الفائض العميم أن أخبر بذلك ونبه على ماهنالك بقوله وقوله الحق ﴿ **إلا من تاب وآمن** ﴾ فالإيمان يقتضي حسن الظن بالله أنه ما ألهمه التوبة ويسر أسبابها وفتح له أبوابها إلا وهو يريد به أن يجعله من خواص أحبابه ، ويدنيه من حضرة شهوده واقترابه ، فليحمل على المسارعة إلى الخيرات واستعمال الصالحات ، ولايصده عن بابه ماقارفه من السيئات، وماطالت فيه ممارسته للخطايا والهفوات واتباع الشهوات ، فقال عز من قائل متقربا إليه ومتعطفا عليه ، ومواصلا له بعد القطيعة ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** } [الآية ٧٠ الفرقان] ويرفع حسناتهم درجاتهم ، ودرجاتهم مشاهدات ، ومشاهداتهم مواصلات ، ومواهب ألطاف ونيل إسعاف وتنزل ودنو وغير ذلك مما لايسع العقل فهمه . والشهوة شئ مما هو مقدور لقدرته ، ومقهور تحت قهر ألوهيته ، والغفلة وهم يضمحل عند إشراق أنوار مشاهدته . فكيف ييأس من تمكنت منه أسبابها ؛ بل يطلب من فضله أن ينقذه منها فهي عليه يسيرة وإن عظمت ، وقليل وإن كثرت . كلما رأيت وشاهدت من

أحوال من سبقت منهم كبائر الذنوب وفضائع الأمور وعادوا بفضل الله سادة قادة ، وأعلام لمنار السعادة ، فلايحصى عدهم ولايمكن حصرهم ممن قد تلبس بزنار وعابد صنم ونار وكوكب من الكفار من الذين سبقت لهم من الله عناية لم يضرهم ماقارفوا ، وممن لبث أزمان على إدمان المعاصي وتدورك من الله ونال أعلى المنازل ؛ كسادة العارفين : فخر الدين ابي الغيث وغيره مثل ربيع المافودي كما روى عن نفسه : أنه كان في سالف الزمان مقدما لجماعة قطاع الطريق فتدورك فأصبح قطب التحقيق ، وغيره من أكابر هذه الأمة ، فلايقطعن عن فضله يأسك ، ولاتردن عن بابه رأسك . فعند إدمان الطلب تدرك الأرب ، فعطاؤه لايحجبه السبب ، ولايجلبه النسب والحسب . فالعبد مالم يغرغر ولم تطلع الشمس من مغربها معرض للتوبة ، ومتسبب للأوبة . فيرحم الله الأبوصيري حيث قال :

يانفس لاتقنطي من زلة عظمت   إن الكبائر في الغفران كاللمم

فمن استغرب ذلك فقد نسب القدرة الإلهية إلى العجز المستحيل عليه كسائر النقائص ، واستشهاده بالآية الجامعة لعموم سائر الأشياء من أبلغ الدلائل ، وأوضح العلامات وأنجح الوسائل ، فلايختص بهاشئ دون شئ ، بل الأشياء كلها داخلة تحتها ولم تخرج أنت ولاشهوتك عن الأشياء فتكون مستغربا ، وماوصف به نفسه من قوله ﴿ **وكان الله على كل شئ مقتدرا** ﴾ [الآية ٤٥ الكهف] فقوله : كان الله ، فهذا وصفه والأشياء لم تكن بعد ، لكنها له معلومة وجميع تفاصيل أحوالها ومعانيها ، فالكان وصفه والكون فعله وهو قوله صلى الله عليه وسلم " **كان الله ولاشئ** " ولم

يفارقه هذا الوصف دائما سرمدا ، وقوله ﴿ **مقتدرا** ﴾ أي فاعلا ومخترعا ومبدعا ، فكيف تستغرب منه فعل ماهو موصوف باختراعه ومستبدا بإبداعه ، ولي في ذلك شعرا :

فكيف يستغرب أن الله ينقـذه من شهوة طال ماقد كان يأتـيها
إن الكبائر لاتعـــــظم فتحسبه عن نيل فضل وإن طالب مبانيها
إن واجهتك صفات الفضل منه فلا شئ من الذنب والأعمال يثـــنيها

هذا لمن قصدته المعاصي من غير تعمد معاندة لله وانتهاكا من غير مبالاة ورجع إلى مواطن التوبة ، فليس هو المعني هنا ، فهذا أي حسن الظن والمبالغة في الرجاء إلا عند إقبال العبد إلى مولاه ورجوعه إلى بابه ، فينبغي أن يرغب في ذلك ويلاطف بمثل هذه الروايات ، فإن الله إذا رجع عبده إليه قبله على ماكان من العمل كما وردت به الأحاديث والآيات . وأما المصرين فليسوا من ذلك في شئ ، والمؤمن ربما يرد عليه ماصورته معصية وذنب فيتكدر لذلك بصفاه وتظلم أرجاه ، فيعرف مقدار منة الله عليه وإدامة فضله إليه ، فيزداد تعظيما لنعمة الله ويزداد فرارا وإبعادا لما أذاقه من مرارة وورود الظلم . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما من به عليك)

ربما وردت ظلم ليل البعد على نهار القرب والكشف لتعرف قدر المنة عليك فيما من به من كشف ظلم الأغيار ، ومدلهم ليل الآثار بتجلي الأنوار وشهود الأسرار المعبر عنه بالنهار، لتعرفها بأضدادها ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار** ﴾ [الآية ٧٣ القصص] وكل ذلك لطفا بعباده لئلا

يجهلون ورود الظلم فلايعرفون قدر النعم ، فيقفون دون شكرها فيحرمون المزيد ، فأورد ضدها ليكون ذلك سببا لشكرها وهو سبب مزيدها لديهم ودوامها عليهم ، ولو لم ترد عليهم هذه الأضداد فلربما جهلوا ورود الإمداد ، ولوقفوا دون شكرها فكان ورود الظلم عند الإعتبار في حقهم من جملة النعم ، هذا نادر لبعض أفراد الخلق ، أما أصالة ورود الظلم فلايكون إلا عقوبة عن ذنب أوسوء أدب ، فإن لم ينزع عما هو مقارفه خيف أن يتسع في القلب أثرها فتصدر عنه أعظم فتتراكم كذلك حتى يعلوا عليه الران ، نعوذ بالله من ذلك ، ولي في ذلك شعرا :

فربما وردت شوم الذنوب لكي يعرف العبد ماقد كان يجـهله
ويستزيد كذا شكرا عليه لمـــا قد كان في سابق الآزال أهله

وفي الحديث **" لو لم يكن الذنب خير للمؤمن من العجز ماقدر عليه "** أوكماقال . فإذا عرفت أن ورود الظلم منه للشكر على وجود الأنوار ، وحاثا على التحفظ من إقتراف الأوزار ، ومامنه أعظم على العبد من الإيمان العمل بمقتضاه فليحافظ عليه وليجتهد كل الجهد في الإقبال إليه والإهتمام به ، وذلك أن كل فائت عنه خلف إلا الإيمان ، فليجتهد العبد في الشكر وهو في حال تلبسه به ، والعاقل يشكر النعم بوجدانها ، والجاهل لايعرفها إلا بفقدانها كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(من لم يعرف النعم بوجدانها ، عرفها بوجود فقدانها)

فأكثر الخلق حالهم الجهل بالنعم والغفلة عن مقتضى الشكر عليها ، فيقبلون بفقدها مع عدم الصبر عنها ، والمعرفة تكون بالقلب وهي شكر القلب ، وبالجوارح وهي العمل بمقتضى النعمة وهو شكرها ، قال الله سبحانه ﴿

إعملوا آل داود شكرا ﴾ [الآية ١٣ سباء] وفي أخبار داود **" إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي قال : إذا عرفت هذا فقد شكرتني "** فعرفت أن المعرفة كلية الشكر وعنها تصدر أسبابه . والنعمة هو كل أمر تحمد عاقبته في المآل وإن كان مؤلما ، ومالا فليس بنعمة وإن كان ملائما ، ومن هنا يقال : ليس لله نعمة على كافر وإنما ملاذه إستدراجا ، وإذا عرف النعمة في حال وجودها كما هو حالة الأكياس فقد تعرض لفتح باب المزيد الذي يلهمه كل موفق رشيد ، ويفهمه كل ذي رأي سديد ، بشاهد قوله عز من قائل ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** ﴾ [الآية ٧ إبراهيم] فانظر كيف قرن الشدة بتعذيب من كفر بالنعم ، فمن ضيع النعم بعدم الشكر عليها فقد تعرض للنقم ، ومعرفة النعمة بفقدانها لايكون شكرا وإنما هي تحسرا وتأسفا لايفيد صاحبه إلا حسرة إلى حسرة تتوالى ، والله أعلم أن توالي الحسرات هي الشدة التي أومت إليها الآية في قوله سبحانه ﴿ **إن عذابي لشديد** ﴾ ولي في ذلك شعرا :

من ليس يشكر رب العالمين على ماساداه من فائض الأنعام والمنن

لاشك يحسر عند الفقد منه ولا تغنيه حسرته في السر والعلن

والشكر من أجل النعم من الله على عبده أنه أعطاه ونسب إليه ، فما أعظم فضله وأوسع بره وبذله ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ؛ فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك)

لاتدهشك وتعجزك كثرة الآلاء وترادف النعماء فترى نفسك عاجزة عن شكرها والقيام بحقوقها ، فإن الله سبحانه وله الحمد قد رفع مقدار عبده وأهله لكل فضله ،وجعل له إلى كل مقام وسيلة ، فهي وإن قلت في لفظها فنسبتها إليه لايوازنها كثير العطاء ، فالحمد لله بالله لايقوم له عديل ناهيك أن جميع مافي الجنة مالايقدر أحد على أن يصف أقل قليل منها ، ولاتماثله الدنيا بما فيها ، وجعل آخر سكانها بعد مامن به عليهم ﴿ **أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ فكل نعمة وإن جلت فالحمد أجل ، وكل علم وعمل حال فبالإضافة إلى حمده أقل ﴿ **وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ [الآية ٥٩ النمل] وورد في بعض الأحاديث القدسية : خلقت الخلق ليربحوا علي " فنعمة الحمد وتيسير العمل أعظم من النعمة الذي جعلته بإزائها ، وهكذا ، فشكر الورى قاصر عن بلوغ الحمد المنعم المفضل ، فما نشكر على نعمة إلا ويحتاج شكرها إلى شكر أبلغ منه ، وقصارى ذلك أن ترى عجزك عن القيام بشكره ، وترى مابك من نعمة منه ، وتشهد لطيف نعمه على ممر أنفاسك ؛ وسواء كنت في حالة ملائمة ظاهرة أوفي حالة بلية ، فالنعمة فيها باطنة تشهدها القلوب ، ويظهر من وراء أسجاف الغيوب ، فشكر من فتح الله عين قلبه عليها أعظم من شكر ماظهر ، ومن زعم أن ليس ثم إلا الصبر فذلك لحجابه عن النظر بالقلب في لطف الحبيب ، ومايجريه من التعرفات لخواص عباده ، ومايصرف عنهم به مما هو أشد منه ، فالشكر على النعم الباطنة غير منكور عند أرباب القلوب السليمة والأسرار المستقيمة ، فالحمد يجمع أصناف المحامد ،

فما ثناء أبلغ منه وإن بلغت النعم مابلغت ، فما يصل مقدارها إلى سياق الحمد لله لأنه حمد به نفسه في كتابه ، وجعله مبتدأ الكتاب وخاتمة خطاب الأحباب عند كشف الحجاب ، فأي نعمة توازية ، وأي منة تعادله ، فلاتجهل قدرك فقد جعلك خليفته في حمده كي تجمع لك الفضائل ، وتنبسط إليك المنن والمواهب ، ولي في ذلك شعرا :

لايدهشك عن مقام الشكر ماوردت   عليك من واردات الفضل والمنن

فليس يعدل سر الحمـد إن عظمت   فالحمد في نعمة المـــولى هو الثمن

هذا عند فراغ القلب عن الأغيار ، وصحته عن آلام الآثار ، وأما إذا مرض القلب واعترته أمراض الهوى فربما ينعكس الأمر فيستحيل مايستمره أرباب الصحة ، فيجد لتمكن ألم القلب لمرض الهوى حلاوة كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال)

تمكن حلاوة الهوى هو استحكامه حتى لايبقى لداعية الإيمان بقية ، ولالحكم البيان مزية . وعند التمكن يستحليه ويتحكم له ، والهوى هو كل ماجاء من دواعي النفس على خلاف الأمر واتباع الشهوة على حكم الطبع ، فإذا رسخ في القلب واتسع داؤه فيه فربما لايجد لدوائه متسعا ، ودواءه هو ماسيذكره المؤلف رحمه الله بأثر هذه الحكمة ، والداء المعضل هو الذي لم يجد إلى دوائه سبيلا ، فيعيا الحكيم في استنباط حيلة إخراجه عنه لشدة تلبثه وغلبة تحكمه ، ولي في ذلك شعرا :

إذا تمكن في قلب المريد فمـــــا   تعينه حيـلة الطب ولاحكم

ذاك الهوى من قلوب السالكين كما   لاينفع الطب مايستحكم الألم

ومن حكمة الله وجاري سنته أنه ماخلق داء إلا وخلق له دوى ، ولاداء أضر ولا أشد على الإنسان من الهوى لأنه مبتدأ كل شر دنيا وأخرى ، فكم من صريع من حسام هوائه ، وكم من نعيم زلزلتها يد الأهوى ، وبه يكون هلاك روح المرء وخسرانه في آخرته وفوات غنائمه ، ولكن لرجاء مايداوي علته ويبري به من وخيم محنته شيئين وهو ماقاله المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

(لايخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ، أوشوق مقلق)

فإخراج الشهوة التي هي مركز الهوى وعنها تتشعب طرقه إلا خوف وعيده الذي لايطاق ، وأليم عقابه أشفق له كل شامخ صليب ، وتشقق منه شناخيب صم الجبال ، وذابت له النفوس وتحولت منه الأحوال . والخوف على مراتب بحسب مقامات الواحدين : فخوف العامة من هول الطامة ﴿ **لهم من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده** ﴾ [الآية ١٦ الزمر] وخوف الخاصة من المريدين وأولي العزائم من السالكين هو خوف الإنقطاع وحرمان الإجتماع . وخوف الواصلين من العتاب وإرخاء الحجاب ، والبعد بعد الإقتراب . وخوف المشاهدين من المكر في غيب الأمر ، ومابين ذلك مقامات من الخوف بحسب الأحوال ولايمكن حصرها على التفصيل ، فهذا الخوف فرع عن تجلي جلال لقلع الهوى من القلب ، ويزيل الشهوة ويقطع أثرها ويحسم مادتها بالكلية ، أوشوق مقلق ؛ فقلق الشوق لأهل المواجيد الذائقين حلاوة الحب ، والكارعين مناهل الوصال ـ فوهجه شديد وناره تلهب تقول هل من مزيد

، فأنى يبقى للشهوة مع ذلك أثر أوتسمع لها خبر ، وهذا الحال من المواهب القربية لامن الأعمال الكسبية ، فإذا وردت على المحل قرع عن كل شئ سواها ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا عن غيره ، والشوق مقدمة الذوق وهو منه ، فمن لاذوق له لاشوق له ، لكن يكون التمكن لهن الوصال ومن ضرورة الشوق القلق المفرط ، ومن علامة الخوف الإنزعاج عن الأخلاق اللئيمات ، والركون إلى المحبوبات ، فلايقلع تشبث الشهوة من القلب إلا هذين الواردين وماسواهما لاينجع فيه لأنهما أول ميادين الأحوال الوهبية ، ودونهما أعمال كسبية لاتقوى على إزالة الشهوة من القلب ، ولي في ذلك شعرا :

القلب مغمور في شهواته فمـتى ... ورد عليه فتـوح الغيب ينتبها

وأول الفتح خوف مـــزعج فإذا ... ورد عليه بسطــــوة قهره تيها

أوشوق مقلق حياة للقلوب إلى ... وصال محبوب في الأرواح أنبتها

فالأعمال فرع عن صدق الأحوال ، فمتى كانت الأحوال صافية خرجت الأعمال خالصة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(كما لايحب العمل المشترك ؛ كذلك لايحب القلب المشترك)

كما علمت أن العمل شيب بشوائب الرياء والإعجاب ومحبته ظهور الصيت ومسلوب عن المحصول ، وذلك لغلبة رؤية الخلق وتعظيمهم عند العامل ، واحتجابه عن الله وعن عظمة الله كما كان ذلك ، أي إشراك الخلق في الأعمال مانع عن قبول ذلك ، بل أولى القلب المشترك الذي هو موضع نظر الله من الإنسان إذا أشرك فيه غيره بالمحبة والإعتماد ، فذلك مانع لامحالة من ورود الأنوار وتجلي الأسرار الذي يحظى بها الصادقون من

أولي البصائر الصافية ، والعقول الوافية ، ومحبة الله رضاه عن العبد في الأعمال ، وتجليه له في القلب بورود تجلي الأسماء من وراء أسجاف الغيب الذي يعبرون عنها بالأحوال ، فإذا منع عدم الإخلاص عن القبول الذي هو الرضا به الذي يحصل به المثوبة والقربة المؤدين إلى المحبة ، فالقلب أولى أن لايشرك فيه غير من هو محل نظره ولايعتمد على سواه ، فالشرك فيه لامحالة حجاب عن صدق الإقبال ، والشرك في الأعمال لاينتجها رؤية الخلق في الأعمال وعدم القبول ، ونتيجة رؤية عدم النفس عدم الإقبال كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(العمل المشترك لايقبله ، والقلب المشترك لايقبل عليه)

لأن شرط القبول في الأعمال التقوى ، ولاتقوى لمن يتقي رؤية الخلق برؤية الله ، قال الله ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ [الآية ٢٧] ولايكون إقبال من الله على القلوب وفيها غيره محبوب أومرهوب ، لأنه لايتقاوما الضدان ، فوجود الحق لايقاوم له الباطل ، وماسوى الله باطل ، فأي شئ كان في القلب كائنا ماكان ، فاستدل على أنه لم يقبل الله عليه ، ومتى فرغ عن الآثار وخلي عن الأغيار لاجرم أن الله قد واجهه وأقبل عليه ، فلتكن من ذلك على بصيرة ، ولي في ذلك شعرا :

فكل عاقل لايخلص عن الغير لايقبل الله منه القول والعـمل
وكل قلب لايصفو من الكدر لايقبل الله كما قد صح في المثل

الأنوار يعبر عنها بحالة العبد الراهنة ، فمن الخلق من يكون في مقام الإسلام ، ومنهم من يكون في مقام الإيمان ، ومنهم من مقامه الإحسان ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه مشيرا إلى ذلك فقال :

(أنوار أذن لها في الوصول ، وأنوار أذن لها في الدخول)

أشار بقوله : أنوار أذن لها من الله لأنها واردة منه في الوصول إلى ساحات القلوب بأن يظهر لها كوامن الهوى ، ويتبين لها تغرير الشيطان ، وتنبسط عليها أنوار السكينة ، وتعلم نفاسة الأعمال ومخادع الآمال ، ومخافة إنقطاع الإمهال ، ويكون متحريا في طلب الحلال ، ويبحث عن القصص والآثار وتحقيق الأقوال . وأنوار أذن لها في الدخول إلى باطن القلب وهي أنوار الإيمان ، لأن باطن القلب موضع الإيمان ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ [الآية ١٤ الحجرات] فدل التغاير بين المقامين ، وذلك أن الإسلام قول باللسان وعمل بالأركان ، ذلك أيضا مع مصاحبة تصديق الجنان ، وللإيمان مراتب في نفسه : فمنه القوي البالغ ويعبر عنه باليقين الذي لايتطرق إليه الشك بحال ، ومنه الضعيف وهو الذي يتجدد ويخلق ، ومنه الكامن وهو الذي تثيره المواعظ القرآنية ، ومنه الظاهر وهو أصل الأحكام الظاهرة العملية ، وتتمشى فيه الإجتهادات الإستنباطية الفقهية .

واسم الإيمان يعم سائر المراتب القربية على اختلاف الأقوال والأفعال ، وتغاير الأحاديث في وصف المؤمن من حيث قال ﴿ **يؤمنون بالغيب** ﴾ وقال ﴿ **يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ [الآية ٤ البقرة] وفي الحديث " **لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما** " ومن المعلوم أن الجم الغفير من المؤمنين يؤثرون بعض المحبوبات

على محبة الله ورسوله فلم يخرجهم ذلك عن اسم الإيمان . والكلام فيه يحتاج إلى إفراد كتاب مستقل حافل لأقوال العلماء فيه ، واختلاف عباراتهم وتنزيل إحتمالاتهم ، وقصدنا شرح كلام المؤلف والدخول في باطن القلب أيضا متفاوت ، فمنه الداخل إلى التجويف الأول من تجويفات القلب ، ومنه البالغ إلى سويداه ، والواصل إلى لبابته وعنده تتجلى أسرار الصفات ، وتخترق البصيرة العوالم الجبروتيات ، فهذه أنوار أذن لها في الوصول إلى غاية المأمول ، كما أذن لأنوار الإيمان في الدخول والنفوذ عن الوقوف عن حصر المعقول والمنقول ، وعلم تأويل النزول بلا تعطيل ولاحلول . فالوصول إلى ظاهر القلب هو مايكون العبد ممتثلا به ظاهرا ، والدخول إلى باطنه هو مايكون مستسلما لأحكام الحقيقة باطنا ، والوصول إلى السويداء هو مايكون عنه فانيا ويمكن ذلك يكون به باقيا ، ويعبر عنه بالإحسان الذي يعبدالله به على العيان . والنور الداخل هو الإيمان الذي باشر الجنان ، والنور الواصل إلى الظاهر هو الإسلام الذي هو عمل الأركان ، وبه يكون الأمان على الأموال والأبدان ، ولي في ذلك شعرا :

أنوار أهل الظواهر واصلان إلى ظواهر القلب موقوف على العمل
ونور أهل السرائر ذا خلاف فلا يبقى من الشك والأدران والعلل
ونور يظهر من سر الغيوب على صفائح القلب يكشف عالم الأزل

فالأنوار ترد من باب المواهب الربانية لا إعتمال للعبد فيها إلا أنها إذا وردت ووجدت محلا صالحا لنزولها قابلا للوصول تمكنت واستودعت

فيه كإستيداع الماء في الأرض الطيبة ، وإذا لم تتأهل مرت عليه كمرور الماء على الأرض السبخة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار ، فارتحلت من حيث نزلت ، فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار)

ربما وردت على ندور عليك أيها الإنسان ، وورود مالايختص بوقت دون وقت ، ولابزمان دون زمان ، ولا بإنسان دون إنسان ، والأنوار الوهبية قد ترد على العبد وهو غير متأهل لها فلا تجد في القلب موضعا لغلبة الشهوات الحيوانية ، والطبائع البهيمية ، والكثائف الأرضية ، وهي منزهة مقدسة لاتصلح لمجاورة هذه القاذورات ، وهي ضيف نزل ومن شأنه الإكرام عند الأحرار الكرام ، فمن إكرامه تطهير محله وتفريغه عن هذه القاذورات المباينة لعالمها الروحاني ، وتخلية المحل بما يصلح لها كذلك مما هو من عالمها من صنوف الطاعات ، وتجري الموافقات في جميع الأوقات ، فعساها تجمده حال نزولها فارغا عن كثائف الأغيار ، ومطهرا من تلويث الآثار ، فتحفه الأنوار وتمتلي شهود الأسرار . ولهذا أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وهو الصادق المصدوق حيث قال " **إن لله في أيام دهركم نفحات فكونوا لها متعرضين** " وتعرضك لنفحاته لايكون إلا بالمثابرة على الطاعات والإقلاع عن المخالفات . وأما عند إمتلاء حواشي القلب بالصور الوهميات والكثائف الأرضيات فأين تنزل المعاني الملكوتيات والأسرار القدسيات ، وأين ترقم العلوم الكشفيات وقد أحاطت بلوح القلب الحروف الجسمانيات . فإن أردت أن ترقم قلم الأزل في ورق القلب علومه ؛ ففرغه عن هذه بتحري الرياضات واختيار الخلوة

وركوب الفلوات ، فللتحلي أسباب يتوصل بها إلى فراغ القلب عن الأغيار ، وطهارته بها عن الآثار معروفة عند أرباب الصدق في المجاهدة التي هي طريق المشاهدة ، وضعها الله لعباده بحكمه وسابق علمه أن رزق بعض المريدين من السالكين ؛ لايأتيه إلا بعد مزيد إجتهاد ، وبعضهم يأتيه رزقه المعنوي بدون ذلك كما هو مشاهد في الأرزاق الظاهرة ، فيسمى مجذوب وسالك ، وأما في الأرزاق الظاهرة يسمى منتسب ومتجرد ، ولي في ذلك شعرا :

فربما ترد الأسرار واصـــــلة   من عالم القدس مشهد حضرة الأزل
فيلتقي القلب محشوا مخائلـه   من عالم الحس والآثــــار مشتغل
فترتقي بعد من الأوطان قافلة   وقل مرجعـــــــها في ذلك السبل
ففر عنه فما عن ذاك حائلـة   على شهود بلا كيف ولامـــــثل

فإذا عرفت أن الأسرار لاتباشر القلب عند إشتغاله بالصور والآثار ، وأن الأنوار لاترد إلا بعد التفرغ عن الأغيار ، قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتستبطئ منه النوال ؛ ولكن إستبطئ من نفسك وجود الإقبال)

لاتستبطئ أيها الطالب المتعرض لنواله وفيض إفضاله ، أي من الفضل المنيل لصنوف الألطاف ووجود الإسعاف النوال الذي أنت له متعرض وفيه متسبب ، فإنه مستمر مدرار ، ومايخلف عنك إلا لعدم تأهلك وهو إقبالك بكلية همتك وبذل وسع جهدك ، وليس هناك إلا الإقبال إليه ، ودعاء غيره لك مشهود ، وفي مرآة قلبك موجود ﴿ **ماجعل**

الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ [الآية ٤ الأحزاب] فليس للقلب إلا وجهة ، فمتى كان غيره عندك مشهود فأنت مدبر منه ومعرض عنه ، ومتى قابلته إضمحلت عندك سائر الموجودات ، وفنيت لذلك سائر المشهودات ، ولي في ذلك شعرا :

نوال ربك فيـــــــاض ومنسجم   على دوام تجلي الوصف بالكـرم
فقابل إن شئت وجه الأمر واحتكم   تأتيك ألطاف مافي حضرة القدم

والإقبال هو أن تكون بحقه مبادرا ، وإذاكنت كذلك لم تجد وقت إلا وله عليك فيه حق ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها ، وحقوق الأوقات لايمكن قضاؤها ، إذ ما من وقت يرد إلاولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد ، فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقضي حق الله فيه !؟)

الحقوق التي في الأوقات هي التكاليف المفترضة على العبد بحكم الرب ، فوسع الله على العباد فيها لئلا يصيرون في الحرج بالمواخذة على مافات التي تضاد وضع الأصر عن هذه الأمة ، فكل مفترض شرعي في وقت مخصوص إذا فات أمكن أن يقضى في غيره من الأوقات ، لأن الزمان الوقتي طرف للأمر الشرعي وذلك من لطفه بعباده فهي ممكنة لهم كلما عادوا ، وأما حقوق الأوقات التي هي معاملة أرباب القلوب بحسن المراقبة للمحبوب فترى الأوقات كلها خزائن تظهر من حضرة الغيب ، والخلق يودعون فيها صنوف الأعمال وهي راجعة شاهدة ممن أودع فيها خير وعلى من أودع فيها شرا ومن فرعها فتكون بين يدي الله إلى يوم المرجع والمآب ، فتنتشر تلك الصحائف وتظهر تلك اللطائف ، فحق العبد

حسن المعاملة لله فيها ، فإنها تطالبه كل حالة بقيام بحق ، وهو لايخلو أما يكون من عالم الفضل أومن عالم العدل ، فعالم الفضل يجعل الشكر له مقابلا ، والشكر أما عمل بالظاهر وأما ابتهاج بالباطن ، وعالم العدل يقابل بالتسليم والإحتكام تحت جريان الأحكام وهو باطنا من أعمال القلوب ويسمى استسلاما ورضا ، ويسمى صبرا واستعبارا ، وكل حالة من هذه الأحوال مقابلة لوارد من تجليات الغيب ، فلايخلوا العبد لحظة عن هذه التجليات فلا يغفل عن هذه المعاملات والحقوق في الأوقات يخاطب بها العموم ، وحقوق الأوقات يخاطب بها الخصوص ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم **" من أعطي فشكر ، وابتلي فصبر ، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر ؛ فسكت فقيل ماله يارسول الله فقال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون فهم الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم "** وذلك لايكون إلا لأهل الشهود والعيان ، الذين لم يدنسوا حلل الإيمان ، ولم يشوبوا شهود الإيقان ، اهتدوا إليه ثم هم مهتدون به ، فآمنوا بتحقيق عن أن يكونوا متلبسين بظلم ، وهو أن يصرفون نفسا من أنفاسهم في غير ماخلقوا له ، والأوقات أساس مباني الدرجات لمن راعى حقوقها ، والأوقات راس مال الصوفية ففيها يتجرون البضاعات الأخروية ، وهي من أعز ماعندهم ، فالأنبياء يراعون الحقوق في الأنفاس ، والشهداء يراعون الحقوق في لطائف الحواس ، والصالحون يراعون الحقوق في الأعمال وتطهير الأخلاق عن شوب العلل وطرق الملل ، والمؤمنون يراعون الحقوق على ممر الساعات وتعاقب الأوقات ، والله أعلم .

وتحت هذه الأصول الأربعة الحاصلة من ضرب اثنين وهو الباطن والظاهر والفضل والعدل فروع كثيرة ، ففي الشكر والصبر جميع المأمورات واجتناب المنهيات الظاهرة والباطنة ، وفي الإبتهاج والشهود جميع الأحوال الباطنة ، فحاصل أن الوقت لكل من أهل المقامات بحسب مقامه ، ويكون تفاضلهم في الدرجات بحسب ماهم الآن عليه من الكمال ، ولي في ذلك شعرا :

إن الحقوق في الأوقات يعرفهـا كل الـبرية من قاص ومن داني

وثم للوقت شئ ليس يهمـلهـا إلا جهول على التحقيق ولهـاني

إذا تحقق ذلك علمت أن الحقوق التي في الوقت ممكن فيها القضاء ، وحق الوقت لايمكن قضاؤه لعدم الإتساع ، إذ الوقت الذي تريد القضاء فيه مطالب أنت فيه بحقه ، فمتى تفرغ عن الأداء لتأنى بالقضاء . ومن هنا بكى الأكابر الدماء على ضياع الوقت ؛ فالحاضر مقدم على حق الفائت .

قال بعض المحققين : ذلك طريق في إيفاء الأوقات حقها في وقت واحد ، وهو أن لك في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس أن تقول كل يوم أربعة وعشرون ألف من الجلالة ، تقول : الله الله فإنك تأتي بها في قريب من ساعة وثلث ، قال : فتبعث في زمرة من لم يغفل عن الله نفس ، وهذا من باب المعاملة الظاهرة . وأما أهل القلوب الصافية فإنهم مع الله أبدا لاينفكون عن شهود وجوده في كل مرئي ومسموع ومحسوس بأي الحواس ، فوجه الحق لهم سافر ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ ونوره على صفائح الوجود ظاهر ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ فهم الذين

وفوا بحق الوقت وكان الوقت لهم وقت . وأما الواقفين على رؤية الأغيار والمطموسين تحت ظلمة الآثار فهم صار عليهم مقت ، فلذلك كان الوقت عزيزا عند العلماء بالله الشاهدين للعالم الأخروي الذي تنعكس فيه ما أسلفت في العالم الدنيوي صورا أخروية ، فمن حافظ على العمر الذي هو المراد بالوقت ، وفيه تزرع أصناف السعادات بإقتناء العبادات ، فلاترى مايحصل له من عظيم السعادة الأخروية ومن فوته ماترى أيضا مايترادف عليه من الحسرات على الفوات ، والوقوع في حبائل المعاصي والشهوات ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(مافات من عمرك فلاعوض له ، وماحصل لك منه لاقيمة له)

عمر العبد هو مدة إمكانه وفسحة زمانه ، وهو مزرعة السعادات وبذر المكاشفات ، وأصل دوحة القربات ، ومنها تمتد أفنان الدرجات ، ومن الذي يحيط بما تحت ذلك فضلا عن أن يكون ثمنا ؛ كيف وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا ومافيها ، وأقل جزاء من يدخلها يعطى مثل الدنيا مرات كما ورد ، فمن الذي يقدر ثمن ذلك . وأصل كل ذلك ما أسلفه في هذه الأيام والساعات القليلات ، وقد ورد : مايتحسرون أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم في الدنيا لم يذكروا الله فيها ، وأين عوض عن الساعة الماضية ، هذا عند عامة أهل الولاية ، وأما خواصهم فما يتحسرون عليها لفوت حظ من الحظوظ العاجلة أوالآجلة إنما يتحسرون على فوات مجالسة المحبوب كما ورد : **أن داود عليه السلام مازال يبكي حتى قال الله له : ياداود هذا البكى إن كان من الذنب فقد غفرته ، وإن كان من الخصم فقد أرضيته ، فقال : يارب ليس من ذلك لكن من الساعة**

التي واقعت فيها ماواقعته هل تعود لي معك ؟ فقال : ياداود فات مافات ، أوكما قال مما هذا معناه .

وكان السلف الصالح يحرصون على الوقت الحرص الشديد ، ويحافظون عليه الحفظ الأكيد كما روي أن بعض المريدين رأى بثوبه وسخ فقيل له ألا تغسله ؟ فقال : مافرغت له . وقال بعض المشايخ : مازالت عن قلبي حلاوة قوله مافرغت له، ولذلك سوغوا لهم لبس الملونات لحمل الوسخ لقلة فراغهم عن مراعاة ساعات العمر ، لأنهم يبادرون خروجهم عن حد الإمكان كل آن ، سيما وقد طرق أسماعهم قوله ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ماسعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ [الآيات ٣٩ – ٤١ النجم] كيف لا وفي مفاوز المجاهدات لنيل رفع الدرجات ، ومشاهدة رب البريات الذي بها حسنت المستحسنات ، وراقت بوجودها الجنات ، وتزخرفت ونارت فدخول الجنة بالرحمة والدرجات ، بحسب الأخذ في الباقيات الصالحات ، ففيها الخير الوافر والمقام الفاخر ، الذي لايحصره حصر حاصر المدخر عنه في خزائن الألطاف العندية ، والذخائر الوصفية ، ولي في ذلك شعرا :

العمر ميدان أرباح فبـــــادره … إن كنت ترجو هناك الفوز فابتدر
تحظى لما لارأت عـين ولاسمعت … أذن ولاينحصر في خاطـر البشر
وسوف تشهد وتسمع إن ظفرت به … في حضرة القرب والإتحاف بالنظر
فالسابقون لدى العلياء منازلـــهم … من العلا في سماء التحقيق كالقـمر

وكلما علقت القلوب به وجبلت جبلتها ، انقادت له بعباداتها ، وتركت في حب عاداتها ، فخلصت له لامحالة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا ؛ إذ هو لايرضى أن تكون لغيره عبدا)

ما أحببت أيها الإنسان شيئا من جميع الحدثان وسائر الأعيان والألوان إلا كنت بالضرورة له عبدا ، إذ العبودية هي إنقياد القلب للمحبوب على الطوع والفرح والإغتباط به ، والمحبة تنشأ من صميم القلب كما ينشأ الحب من الماء فينجذب الغالب لامحالة معه ، لأن أعمال الغالبية حظ الماء القلبي الناشي منه المنشي بالحب ، والأشياء كائنة ماكانت آثار زائلة وآرى باطلة ماعدى الواحد الحق ، فإذا تعلقت بباطل زائل فهي باطلة زائلة ، وإذا تعلقت بحق موجود وثابت مشهود فهي لاشك ثابتة ، وهويته تأبى الثنوية في الأفعال والأقوال والأفعال بذاتها ، فمحبته بلا علة بل هي صفة ثابتة واجبة ، ومحبة غيره جائزة زائلة ، فلأن يكون بمحبته لك أولى من أن يكون بمحبتك أنت ، وهو لايحب لك أن تكون لغيره عبدا ، والأغيار كلها عدم لاثبات لها ، فذلك رحمة منه ولطفا مااستعبدك لما هو في نفسه عدم باطل ، وماهو في وصفه زائل . والعبودية للأغيار الفانية قبيح وظلم إذ نوه على من استعبده بالنفس والإنتكاس على أم الراس إذ قال صلى الله عليه وسلم " **تعس عبد الدينار والدرهم والخميصة** " وغيرها مثلها في التقبيح بل أولى ، لأن هذه أرفعها عند أربابها ، فإذا قبح الرفيع فما دونه أحق بالتقبيح . وفي الحديث " **من أحب شيئا عبده** "

بمعنى إنقاد له باطنه واستعبد ظاهره ، وفي ذلك القبيح قال الله ﴿ **وتحبون المال حبا جما** ﴾ [الآية ٢٠ الفجر] ولي في ذلك شعرا :

من حب شيئا فهو عبد له فكذا يكون خالص أعمال وتوحيد
فليس يرضاك إلا أن تكون لـه عبدا عتيدا بإخلاص وتفريد

وإذا كان لايحب أن يكون لغيره عبدا لأن الأشياء متوجهة إليك بسر التسخير إلا وأنت لم تندب إلا بالإقبال عليه والتوجه بالكلية إليه ؛ علمت أن محبته لالعلة ولابعلة ، بل محض فضل وإنعام وتطول وإكرام ، كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتنفعه طاعتك ولاتضره معصيتك ، وإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه ، لمايعود عليك)

لاتنفعه سبحانه وتعالى وتنزه عن إيصال النفع إليه منه ، فكيف من غيره إذ وصفه الغني المطلق ، والأعراض والوسائل لايجوز أن يكون مفتقرا إليها ، والطاعة عرض تعود منفعته على فاعله ، والضر أيضا لايجوز طروه عليه لأنه منزه عن النقائص بل عن ما ليس فيه كماقال ، والضر يقهر على من نزل عليه ومبينا عجز من حل به وتسلط عليه ، وهو سبحانه الضار النافع ، فكيف تضره معاصي العباد ومعاصيهم ؛ صادرون عن فعله بارزون عن خلقه ، فكيف ينفعه أويضره ماهو من جملة مخترعاته ، وصنف من أصناف مبتدعاته ﴿ **والله خلقكم وماتعملون** ﴾ وإنما أي الحكمة في إيجابه وندبه عباده إلى الطاعات ، وزجره عن المعاصي وضروب المخالفات بما يعود عليهم من نفع الطاعات وضرالمخالفات ، فالطاعات وسائل إلى قربه

وحبه ورضاه ، والمعاصي وسائل إلى البعد منه والتهدف لسخطه ، وشدة أليم عقابه .

وأي منفعة تعود على العبد أعظم وأفضل وأجل من القرب منه إليه والمحبة والرضا ، وأي مصيبة أعظم وأشد من الطرد عن بابه وضرب حجابه ، وشدة سخطه وعقابه . عافانا الله وأحبابنا منه ، وذلك فضلا منه ونعمة كما تقدم الكلام عليه ، وذلك من مقتضى تفصيله العميم وعطائه الجسيم وعوائده الجميلة ، إذ قال ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم** ﴾ عن أدناس المعاصي ﴿ **ويعلمهم الكتاب** ﴾ مفتتح العلوم الدينيات والأسرار الملكوتيات ﴿ **والحكمة** ﴾ وهي الترقي إلى العلوم الكسبيات والأسرار الجلاليات والجماليات ، والنزول في مجاورة المنازل القدسيات ﴿ **وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ [الآية ١٦٤ آل عمران] فالحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . ولي في ذلك شعرا :

فليس تنفعه الطاعات والعمل ولاتضره ما نأتيه من زلـــــــــل

وإنما ذاك عائد إليك مبتذل ؟ عليك يرجع شؤم الذنب والخطل

ثم لما أعلمك أنه لاتنفعه طاعتك لثبوت غناه ، ولاتضره معصيتك لوجوب كماله وعلو جلاله أردف كلامه بما يزيل وهمك عن توهم زيادة تحصيل له بطاعتك لم تكن له تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وحصول

نقص عن وصف الكمال فتعالى الله عن الزيادة في صفاته بوجود موجوداته ، والنقصان بوجود النقصان ، فقال المؤلف رضي الله عنه :

(لايزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ، ولاينقص من عزه إدبار من أدبر عنه)

الزيادة لايقبلها إلا من اتصف بالإفتقار إلى التكميل ، وجاز في حقه التنقل والتحويل ، وقد علمت إستحالة ذلك على الله تعالى والعزة من أخص صفاته العلية ، إذ عند تجليه لايبقى لصفات الحدوث بقية ، فإذا كان أثر هذه الصفة تعجز عن تحويلها وتبديلها سائر البرية ، فكيف تتطرق الأسباب إليها بحصول الزيادة أوحدوث النقص وإقبال الخلق وإدبارهم تحت حكم عزته القاهرة ، ومسخرون لقدرته الباهرة ، فكيف يكمله أوينقصه ما هو من جملة إختراعه وأثر حكمته وابتداعه ، والإقبال والإدبار من حيث الجهة والتحير تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل الإقبال هو إمتثال الأمر المرضي عنه والإدبار إعراض عنه إلى غيره إذ لاغير معه ، ولكن الإدبار هو نبذ أمره وترك ماندبك إليه وارتكاب ماحذرك عنه ، وإلا فألوهيته محيطة ومطيفة بجميع حركاتك وسكناتك وخطراتك من سائر جهاتك ، لاينفلت ولايشذ عنها مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك مما يعجز تحصيله وتكييفه وغموضه ودقته نطاق البشر ، ولا أكثر مالاتطيق فضله حاسة النظر من عظام الصور كما قال عند تخليه سيد البشر " **زملوني** " لعظم إرتعاد الفرائص ولم يسكن حتى غاب عن رؤيته واستتر ، ولي في ذلك شعرا :

فعزة الله تأبى أن يكون لــها　　　بغيرها من كمال ليس هو فيــها

كذاك لايعتريها النقص أن لها   من الكمالات ما عن ذاك يغنيها

فهذا تنزيه في المعاملة واصطلاح لأربابها يشيرون بالإقبال إلى الإمتثال ، ويشيرون بالإدبار إلى التهور في المعاصي والإصرار ، وأهل الأذواق والمشايخ الحذاق لهم إشارات إلى مقاماتهم في اليقين والكشف عنه بالوصول والإتصال ، وذلك إشارة منهم إلى مواصلات وتحف ربانية ، فبين المؤلف مايزيل الشبهة عن إشاراتهم عند من لافهم له بمعانيهم ، فقال رضي الله عنه :

(وصوله إليه وصولك إلى المعرفة به ، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شئ أوهو يتصل بشئ)

وصولك أيها الطالب للوصول التارك لترهات الفضول ، المتمسك بما جوزه المعقول وأثبته المنقول من التنزيه عن المماسة والحلول هو وصولك إلى أن تعلم وجود ذاته وكمال صفاته ، وانفراده في قدمه وإيجاده وأحديته ، وكل علم يحصل عليه بما فيه دلالة على وجود أسمائه وصفاته وذاته يسمى وصولا إلى ذلك المشهد وأعلى العلوم الحاصلة من هذه المواصلات وأتم لطفا من هذه التنزلات هو العلم بالذات العلية والحضرة الأحدية هي مما يخص الله أنبيائه وأفراد من سادات أوليائه ، وتليها رتبة العلم بالصفات وهي الأمهات التي تصدر عن تجليها سائر المولدات الفعلية الروحانية والجسمانية ، الدنياوية والأخروية ، الملكية والملكوتية ، إذ كان غايات الوصول إلى أن توقف بالواصل على ذروة تجمع الموجودات ، وتفتح له رؤية المشاهدات ، فلا تجد إلى غاياتها إنتهاء . وكيف يحصل الوصول بالمتجلي إذا لم ينتهي إلى غاية التجليات ، فكلما تجدد نعيم في الجنة فعن

تجلي برز ، وهلم جرا ، لا إنتهاء لكمالاتها ولاوقوف على غاياتها ، وأما الوصول في هذه الدنيا إلى شهود الوجود الحقي بعين اليقين ، وقد يسري في كليات العبد لمح من شهود حق اليقين ، وإلا فجل ربنا عن ماتتوهمه عقول الزائغين عن طريق الحق واليقين ، إلى توهم الحلول والتمكين ، والمماسة في حديث الإستواء والنزول ، فهنا مزلة لأقدام الجهال ، فظن الإتصال بالذوات والصفات ، وكيف يتصل العدم بالوجود ؟ أم كيف يتماثل القدم والحدوث ؟ أم كيف يتصل من لاشبيه له ولامثيل بمن له شبيه ومثيل ؛ تعالى الله عمايقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، ولي في ذلك شعرا :

إن قيل وصل فقل علم ومعـــرفة   أوقيل فضل فغير الله معدوم

فلايناسب وصل الحق ما جمحت   به عقول سترها طل يحـموم

فإذا علمت استحالة الوصول المحسوس وإنما هو أمر أشار به إلى مقام من مقامات اليقين ، فالقرب أيضا كذلك يشيرون إليه أهل التحقيق فلا بد من إزالة شبهته ، بالقرب المحسوس بالملموس ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(قربك منه هو أن تكون مشاهدا لقربة ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟)

القرب هو الدنو أما حسا وهو مستحيل في حق الله سبحانه ، وأما معنى وهو المراد هنا . وللقرب مراتب : فأهل الكشف المؤيدين بنور اليقين يشهدون قرب الله إلى العباد بسبق المنة وتيسير الهداية ، والعون والقدرة في سائر الأحوال ، والكلاية والحفظ والمعية اللازمة الذي لاينفك

عنها موجود ، ولايخرج عن إحاطتها مشهود ، فيورثهم التأدب بين يديه والإستكانة والخشوع والمراقبة على الدوام ، وغير ذلك من سنيات الأحوال وزواكي الأعمال ، فيكون بذلك منه قريبا ، ويجدونه لدعائهم مجيبا ، ولقلوبهم حبيبا ، ولدائهم طبيبا . يأوون إليه كما يأوي الطير إلى وكره ، ويحنون إلى لقائه كما يحن الغائب إلى وطنه ، ويتضرعون بين يديه كما يتملق المحب إلى حبه .

وأما المساكين الذي لم يحظوا بالكشف بعد فهم في رؤية شهود قربهم منه من حيث ما أخبر به عن تقريب عبده منه وهو قوله في الحديث " **ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل** " فالعبد يتقرب والحق قريب ، وماتقرب إلا بعد سبق بعده الذي هو له وصف ولجماله نعت ، والحق وصفه القرب ونعته الحب بقوله ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** ﴾ وقوله : حتى أحبه فالوصف اللائق بالمحبة معرفته ببعده ، وقرب الله منه حتى كأنه يراه . ولي في ذلك شعرا :

من أنت والقرب لولا قرب رحمته   من العباد لصاروا في عمى القدم
هو القريب من الأشياء بحكمته   مع علا عزه الموصوف بالقدم

قد علمت أن القرب أما قرب كشف وعيان وهو لأهل الكشف والبيان ، وأما قرب بخلق معاني الإيمان وهو الترقي في معارج النوافل وهو على الحقيقة قرب من الله للعبد ، فيثبت أن الحقيقة أصل لمباني الشريعة ، والشريعة طريق ظهور الحقيقة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الحقائق ترد في حال التجلي مجملة ، وبعد الوعي يكون البيان ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾ [الآيات ١٨-١٩ القيامة] **)**

الحقائق القربية والأسرارالطيفية والعلوم الغيبية والتجليات الوصفية ؛ ترد على القلوب وهي متصفة بوصفها ومتحلية بنعت جمعها ، لاإفتراق في وحديتها ، والقرآن صفته الجمع . وإذا ألفي على صفحات القلوب وصف بكونه فرقان ، وإذا ظهر على اللسان يكون بيان ، فأول مايتجلى في مظهر الهوية وتجلي الأحدية ثم يتنزل في حلل الصفات الربانية ، ثم في المظاهر الأسمائية والقوابل الروحانية ، ثم في الصفائح القلبية ، ثم في اللسان البيانية الشرعية . وهذه الحقائق الوهبية قد ترد على القلب بصفة عالمها الجمعي وهو ماعليه من وصفه الفرقي ، فيتلقى الترجمان عنه كذلك ، ثم يعض على البيان فيجدها موطدة الأركان مشيدة البنيان ، موافقة لما شاهده العقل وحكم به البيان ، فتكون إستفادته بحديثه وتأمله ، وتكون حالة العبد حينئذ سالمة من الدعوى ، وطاهرة عن لوث الهوى كغيره ممن يسمعه لايثبت نفسه في وجوده لأنه لايعمل له فيه ، بل برز من عين المنة وصرف الرحمة ، وهو علم الوراثة الإلهية التي هي غير مكتسبة من دراسة ولا مجموعة من أقوال الخلق بل إلقاء من حكيم حميد .

والحقائق من حيث هي منسوبة إلى الحق من غيرمزج خلق فتسمى لها بإسمه لأنها ونعتها بنعته ، فقال الحقائق جمع حقيقة ، وقال : ترد والورود هو مايأتي من المحبوب من غير إستعداد له ولاشعور به ، وهو القريب الطارق والحقائق لعزته ، وبعد منالها عن الإدراك الخلقي تسمى واردات

فقال : يتجلى لأن التجلي من نعت الحق ، والتجلي هو ظهور وصف على موصوف به لمن يعرف ذلك الوصف قبل ، فاستقر الموصوف به عنه فعرفه من كان بذلك الوصل جاهلا ، وأتقنه من كان عنه ذاهلا ، ولكن لايعرف الأنوار لطيف من عالمه يكون متلقيا وبه خبيرا وبجماله بصيرا ، وإلا لم يجامع الظلمة النور ولا العدم الوجود ، ولا القدم الحدوث ، ويغني بذلك النور اللطيف تجلي الإسم الأول والوارد عليه تجلي الإسم الآخر ، وظهوره من خفي الإسم الباطن إلى شهادة الإسم الظاهر ، والقرآن تجلي هوية الحق والبيان ظهور ألوهيته ، فإذا ظهر الجمع أفن عنك البصر والسمع وكن متبعا له في جمعيته ، ثم تلت الألوهية فرقانها ، وميزت أعيانها وظهر بيانها ، وزخرفت جنانها ، وسعرت نيرانها ، ونصبت للأعمال ميزانها ، فشأنها شأنها ظهر من زوايا الحقائق من كمن وأعلن وبطن ﴿ **ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بمايفعلون *وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا** ﴾ [الآيات ٧٠ – ٧١ الزمر] ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا** ﴾ [الآيات ٧٣ الزمر] وهاهنا غيوب تفتح في روزان الإشارات المصونة تحت صرائح هذه العبارات . ولي في ذلك شعرا :

إن الحقائق حق في تجلـــيها   ترد وفي عالم الإنسان يحكيها

في حال ماتجتلي للعبد مجمـلة   لم يدر أين محله في مبانـــيها

حتى يرد إلى الأوطان فرقـته   فيعرف أن خلافا في معانـيها

إذا علمت أن الحقائق ترد بوصف الجمعية ونعت الحقيقة فلاجرم أن تضمحل لذلك الرسوم الخلقية والأوهام الغيرية ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(متى وردت الواردات الإلهية عليك ، هدمت العوائد عليك ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ [الآية ٣٤ النمل])

متى وردت عليك الواردات الإلهية ، وتجلت النعوت الأزلية ، وأشرقت الشموس الروحية ، وبرزت الأسرار الوصفية ؛ هدمت مباني الغيرية ، وعطلت الموارد النفسية ، وزلزلت العادات الخلقية ، ومحت الطبائع الجبلية ، ومحقت الخيالات الوهمية ، ووضعت بالملكة وشدة الغلبة والقهر لما ضادها وقصمت مادناها ، فإذا دخلت ملوك الأرض هدمت سور الظلمات ، وتقشعت الأستار ، واضمحلت متخيلات الأغيار ، وانمحت علوم الآثار ﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾ [الآية ١٦ غافر] وإذا دخلت الأنوار الحقية القربية النفسية ، انطمست الآثار العادية . إن النور إذا دخل الصدر إنشرح وانفسح ، قيل هل لذلك من علامة يارسول الله ؟ قال نعم : **التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإستعداد للموت قبل نزوله** " ولي في ذلك شعرا :

النور يقهر ما في النفس محتكم　　من العوائد والشهوات يرميها
حتى يصير بنـور الله منشرح　　وينفسح من ظلام راسخ فيها

واردات الأنوار لاتصادمها ظلم الأغيار كما لاثبات لظلمة الليل عند طلوع ضوء النهار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الوارد يأتي من حضرة قهار ، لأجل ذلك لايصادمه شئ إلا دمغه ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [الآية ١٨ الأنبياء] **)**

الواردات المذكورة آنفا التي من وصفها القهر والغلبة تأتي وهو بوصف هذه المواهب اللدنية بالإيتاء ، قال الله في وصف الحضرة بهذه العلوم ﴿ **وآتيناه من لدنا علما** ﴾ وقال ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ وهذه هي التقوى المؤتاه التي لاثبات معها لأحد سواه ، لأنها أتت من حضرة قهار يقهر كلما سواه ، وهو الله الغالب على أمره القاهر فوق عباده ، فلأجل كون هذه المواهب الواردة وردت من حضرة قهار أزالت ظلم الأغيار ، وكانت لجنود الإيمان في صورة نار ، فالظلمة هي العدم والنور هو الحق ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ وإذا قذف بالحق الوجود على الباطل العدم بطل واضمحل . ثم استشهد بهذه الآية القاطعة بأن الحق ظاهر دامغ لزاهق الباطل ، والزهوق وهو الزوال من الشبه في المثال في الذات والوصف والفعال ، فحيث ماتصفحت صفائح الوجود لم تر غير الحق مشهود ، ولا في الكون سواه موجود ، ولي في ذلك شعرا :

مادام في النفس والأغـيار مستكن أورد عليها تجلي إسم قـهـار
يخرق وجود السوى لم يبق له سكن ويظهر أن جميع الكون أنوار

لأجل ذلك شاهد وجود الحق ظاهر ، ووجه الحقيقة سافر في سائر المظاهر ينادي في كل مشهود أنه الظاهر ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(كيف يحتجب الحق بشئ ؛ والذي يحتجب به هو فيه ظاهر موجود حاضر !؟)

كيف يكون الحق يحتجب بشئ وقد علمت أن كل ماسوى الحق باطل والباطل زاهق ، أي زائل ، فإذا لاحجاب على الحق ولانقاب ، إذا كان مايحتجب به وهو الأغيار وصول الآثار هو ظاهر فيها بالتصرف والإقتدار الذي من جملتها تقلب الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ، وموجود حاضر بقيوميته واستغراق معيته ﴿ **مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾ [الآية ٧ المجادلة] ولي في ذلك شعرا :

فكيف يحجبه ماكان مظــهره معدوم لولا وجود الواحد الأحد

فالحق نور فلا الأغيار تستره فا الله حق عيانا باسمه الصمــد

فإذا وقع الكشف ذهب عن العبد العنا في سائر العبادات ، وتوالت عليه أنواع المسرات ، ومالم يكشف له الحجاب لم يزل في الأعمال متعوب وللأحزان مصحوب ، ولكن الله بجميل لطفه وحنانه وعطفه ، جعل له ميزان يعرف بهم ماكان لله من غير إلتفات منه إلى حضور أوعدمه ، وذلك ماجعله له في الإختيار مما ينبوا عنه ثواقب الأبصار ، فقال ﴿ **وربك يخلق مايشاء ويختار** ﴾ فإذا عمل العبد عملا يكون فيه غير مختار بل يفوض ذلك إلى حسن الإختيار ، فربما يكون من الله لعبده إختيار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور ، فربما قبل من العمل مالم تدرك ثمرته عاجلا)

لاتيأس أيها المريد فإن اليأس من علامات الكافرين ولكن حسن الظن بالله في جميع أفعالك وأحوالك ، فإنه ورد " **أنا عند ظن عبدي بي** " والقبول من الله مأمول لأنه ماوفق للعمل إلا والمرجو من فضل الله أن يقبله ويتجاوز عن تقصير عبده وتفريطه فيما قصر وفرط ، وكفى العبد قصد التقرب إلى الله كائنا ماكان ، ولايقدح فيه إذا لم يجد له ثمره عاجلا من حضور وانشراح به وسرور وتنعم وحبور ، بل ذلك أي الذي لم يجد ذلك إذا كابد العمل صابره أقرب لأدب العبودية وأبعد عن شائب الحظ والملل ، وكان ثمرته مدخرة في الدار الآخرة فيجدها موفرة سالمة من الإعجاب بذلك العمل ، لأنه إذا لم يدرك ثمرته يسقط من عينه قدره ويقل خطره فسلم له لامحالة من مفسدات الأعمال ، وذلك غاية مطلب الصادقين سلامة أعمالهم عن دواخل الشرك ، فينبغي أن يعظم رجاء العامل ولاييأس من القبول ، ولي في ذلك شعرا :

لاييأس العبد من روح القبول إذا   لم يدرك الروح والإحسان في العمل
فربما كان يقبل منه مـــــــالم ؟   يدرك العبد من ثمراته الأمـــــــل

فثمر العمل هو الوارد على القلوب من أسرار الغيوب ، فإذا ورد على القلب وارد فلايبادر بتزكيته حتى يعلم حصول ثمرته ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتزكين واردا لاتعلم ثمرته ، فليس المراد من السحاب الأمطار ؛ وإنما المراد منه وجود الثمار)

لاتزكين وتعظم واردا من واجدات الوجدان وأنت بعد لم تعلم ثمرته ، فالوارد هو مايرد على القلب من أسرار القرب ، ويتوالى عليه من أنوار المعرفة وهو مراد لتبديل صفات القلب المذمومة إلى الصفات المحمودة ، ومحو آثار النفس وذهاب شهواتها ، وقلع الهوى وترك الدعوى ، والقيام بحق العبودية على الكمال ، إذ هذا هو بعض ثمرات الواردات . وكل وارد لاتصحبه الإستقامة لايؤمن أن يكون من الإغترار ونوع من المكر ، أعاذنا الله منه ، فتعبيره بالسحاب إشارة منه إلى تجلي الأسماء على القلب ، وبالأمطار إلى تنزل الأسرار الوصفية المحيية لموات أرض النفوس ، والباعثة من المعارف من الرموس ، والأمطار المتنزلة من سماء السر على أرض النفس منها حسن الأخلاق وزواكي الأحوال والأعمال ، كما تثير المطر ماكمن في الأرض من الشجر ، فتهتز وتربوا القلوب وتنبت الأرواح البهيجة والأنفاس العطرة الأريجة ، فتنفتح كمائم الإيمان بأنوار مشاهدات الإحسان ، وتتدلى ثمرات المعارف ولطائف الإمتنان ، فهذه هي ثمرات الواردات . فما كان على غير ذلك فلاتزكيه ، وتزكيته بأن تشهد منة الله عليك وتبتهج به فرحا ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ [الآية ٥٨ يونس] لاالتزكية التي هي رؤية النفس على عبادالله وتعظيم النفس وفرحها ومرحها ، فذلك منهي عنه ، قال جل ذكره في ذم قوم دلوا بعلمهم وفرحوا به دون النظر إلى ماهو المقصود منه فرحوا بما عندهم من العلم ، ولي في ذلك شعرا :

فلا تزكي وارد لست تعلم ما	يثمر لديك من الأخـــــلاق والشيم
فليس ثم سوى الأثمار تطلبها	من وابل السحب فافهم ذاك واستقم

الوارد هو كما علمت يكسب العبد أحوالا شريفة ومقامات منيفة ، وإذا ورد على العبد وأكسبه ذلك فيأخذ ما أتاه ويكون كلية إعتماده على مولاه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لاتطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك في الله غنى عن كل شئ ، وليس يغنيك عنه شئ)

طلبك لبقاء الأغيار واستئناسك بالآثار وسكونك إلى الأنوار دون منور الأنوار ، وخالق ما أكنه الليل وكشفه النهار ، وماوراء ذلك مما تقاصر عنه الأفكار ، مما دارت عليه الآكار ، وما أشرقت عليه مضيئات الأسرار من جنة أونار ، أوظلم أوأنوار ، وكل داخل تحت دائرة الإنقهار ، فهي أغيار إذا أوقفت الطالب دون منتهى الرغائب ، فليس إلى غيره سكون ، ولا إلى سواه ركون ، فمتى طلب بقاؤها واستوحش عند فراقها فقد ذلك الركون إليها والإعتماد عليه والأنس بغيره دليل الوحشة ودليل كونها غير إيقافك معها دون ، فقد توقف الأنوار كما تحجب الظلم والأغيار ، فإذا وصلت ماهو المقصود منها وهو بسط أنوارها وبث أسرارها على عوالمك القلبية وأرجائك النفسية ؛ فقد حصل المقصود الذي له تطلب وفيه ترغب ، وهو تبديل نعوتك وفناء أفعالك وأوصافك ، والمثول على سبيل الإستقامة المرضية عند الله ، فلو دام على أرضك وابلات الحقائق لتعطلت عليك وظائف عبوديتك ، وذلك في وقت ضعف السالك عن تحمل أعباء هذه الواردات تبرز لأحداث أوقات نزوله فيحيي بوجدانها كما يحيي موات الأراضي المجدبة بنزول الغيث ، فلو داوم عليها لهلكت أشجارها لضعفها عن ورود الماء عليها ، وعند كمال قوتها وإن دامت عليها الأمطار

وجرت بساحتها الأنهار فلاتزداد بذلك إلا كمالا وذلك لطفا من الله بعباده يتلطف لهم بأنواع الألطاف ، ويغذي أسرارهم بقدر مافيها من القوة والضعف ، ويربيهم في حجر الرحمة يهديهم من سطوات تخويف القطيعة وفوات حظهم من الحبيب ، وأن يربيهم بتجلي جماله وتدلي ألطافه والتمتع بوصاله ، فينجحون في المطلوب وينجز لهم الوعد في المرغوب . فإذا أجدبت أراضي قلوبهم بحرارة صيف الفراق هبت لهم صبا الوصال ، ووسم أراضيهم أغداق الوفاق ، وولاها ولي الإشتياق . فإذا عرفت حكمة الله في تربية عباده علمت أنه لم يرجع عنك وترحل إلاوالخيرة فيها ، وهو يغنيك عن كل محبوب ، ومن كان به لم يعوزه فقد غيره ، فالأشياء كلها لك مفارقة ، والإصالة لمعيته ، فسائر الوجود لادوام لخلطته حتى أعضاك وقواك . وأحوالك إنما هي صادرة عنه وممتسكة عليك به ، فله الثبوت في سائر الأحوال ، ومن كان بالأحوال دون محولها فهو لامحالة في محال ، ومن كان بالله فله في كل شئ مثال ، ومن كل شئ منال ، فمن كان بحال أومال أوأهل أوعيال أوعمل أومقام فهو له عقال عن مشهد الكمال ، فلاتغنيك عنه الأ غيار سواء كانت من حيز الظلم أوالأنوار أوجنة أونار ، فلك فيه عمى ومن كل شئ فرار ، ففروا إلى الله مع القرار مع الأغيار ، ولي في ذلك شعرا :

وبعد أن بسطت أنوارها فعـــلى ... مايحزن الواجدين ذاك موجود
يغنيك أن كنت ذا فهم فليس على ... وجوده مطلب يرجى ومقصود

فعلم أن تتطلع العبد إلى بقاء الأغيار واستئناسه إلى الآثار دليل على الإنقهار وعدم الإستبصار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(تطلعك على بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له ، واستيحاشك لفقدان ماسواه ، دليل على عدم وصلتك به)

تطلعك بحكم قلبك وتعقله على بقاء غيره في الدارين ، والسكون إلى سواه في أرضه وسماه وسره ونجواه ، ومنقلبه ومأواه ، دليل على عدم وجدانك له الذي هو غاية الآمال ، ومنتهى مطالب أهل الكمال ، فلو وجدته لم تتطلع إلى غيره ، إذ لاغير مع وجوده ولاظهور مع شهوده ، فكل مستحسن ومستلذ وإن بلغ غاية مبالغ الحسن والنعيم ، فعن حسنه صادرة ، ومن فضله وإحسانه ولطفه وامتنانه وجد ، فكيف بمن وجد ذلك الجمال ، وأتحف بذلك الوصال يلتفت إلى مقام أوحال ، أوعاجل أومآل ، أوجاه أومال ، أوعشيرة أوعيال ، فشاهد ذلك الحال الغني عن المقال ، أن كيف من ظهر بموجود لاله شبيه ولامثال ، يتطلع إلى من له شبيه ومثال ، فغاية مطلب العارفين ومنتهى رغبات الطالبين وجدان إله الأولين والآخرين بشهود يقين ، وتحقق وتمكين على الكشف والعيان ، ومتى يحظى بذلك المطلوب وهو يتطلع إلى محبوب سواه ، أويترقب مشهود ، أويلوح لقلبه وجود موجود ، فمن حظي بذلك فله دلالات وظهور علامات ، ومن دلالته الإستغناء بوجود محبوبه عن كل موجود ، واضمحلال في جنب شهوده سائر الوجود ، فلايكون له سواه مقصود ، بل مفردا سبق المفردون مستهترا بذكره غائبا عن فكره ، حاضرا في سكره ، واستيحاشك أيضا بفقدان سواه يدل على أنك مستأنس بذلك السوى ، ومن استأنس بسواه فهو في وحشته القطيعة منه سبحانه ، إذ لواستأنست له لأستوحشت من الأكوان ، ولفررت من الإنس والجان ،

وكنت معه في حضرة العيان ، لم يأويك مكان ولم يحويك زمان كان في حضرة كان الله ولاشئ معه ، مستقر روحك عرش الرحمن ، غائبا عن الملوان . فهؤلاء أقوام أحرقت كثائف غيريتهم بنيران الشهود ، وفنيت عندهم أعيان الوجود ؛ عند تجلي الحق الموجود ، فكيف تصدق الحب أوشهود القرب وعاد في قلبه بقية إلتفات إلى غير المحبوب .

يروى أن فتاة من الأعراب كان إنسان يدعي صدق المحبة لها ، ويظهر عظم التودد والتقرب إليها ، وكان يتلطف إليها ، فقال لها إني أحبك ! فقالت له : إن أختي أحسن مني لورأيتها لكنت فيها أرغب ؛ ذات جمال وهاهي ؟ فالتفت فلطمته وقالت : ياكذوب في دعوى المحبة لوكنت صادقا لم تلتفت إلى غيري .

فانظر واعتبر في هذه القصة يبن لك إفلاس أكثر الناس عن وجدان الحق ، وإنما هم مستأنسين بالأغيار ومتطلعين إلى الآثار ، فكم مدع الوصل والعشق والأنس والمحبة وعند الإمتحان بفراق المحبوبات الغيرية تكسف شمسه ، ويتكدر صفاه وأنسه . فكم من مدع الصبر والرضا والتوكل فيفتضح عند تغير الحال بما يظهر من الجزع والسخط ، فأين دعوى الأنس لمن لايقدر على فراق أدنى المحبوبات الدنياوية الفانية الظاهرة العداوة لمن ساكنها ، وأقربها نفسك وسائر قواك . فالقوة تعطي صاحبها أن لايكون مع شئ دون محبوبه وراثة إبراهيمية حيث قال ﴿ **فإنهم عدو لي إلا رب العالمين** ﴾ [الآية ٧٧ الشعراء] ومن كان على غير هذا فليتق الله في دعواه ووجدان الحق والمحبة له ، وليصحح مقام التوبة ويسلك على يد عارف

يخرجه من رعونات الدعوى ، وموافقة الأهوى ، ومن لايصحح ذلك المقام ولم يقبل ذلك الكلام بقي في غمار العوام ، متلبسا بصفات اللئام ، واعتبر بمن سلف من أئمة الإسلام ! هل على ما أنت عليه من التهافت في كبائر المعاصي وجمع الحطام ؟ كانوا زهاد أعلام ، يفرون من الشاغلات ويتحرون العبادات في الخلوات ، وينتجعون الفلوات ، ينتظرون الصلوات ويراعون الحركات والسكنات ، يتحفظون من الوقوع في مصائد الغفلات ، ويرفضون معاطب الشهوات ، ويطلع الله عليهم من فوق السموات ، فيجد قلوبهم مملوءة بمحبته ، وأجسامهم مشغولة بخدمته ، فيحييهم بأطيب التحيات ، ويرحم الله بهم الأحياء والأموات ، يرفضون ما أكب الناس عليه من العادات . فهذه بعض نعت الواجدين لله عيانا ، والمتحققين بمعرفته بيانا . وأما من كان همه الشهوات وديدنه الغفلات فكيف يدعي مقام الوجدان وهومتطلع إلى الحدثان ، ومستوحش بفقد الأعيان ، ونقول في ذلك شعرا :

من كان بالله عن الأكوان مشغول　　وقلبه فارغ والسر موصول
فذاك لاينتظر في العرض والطول　　لغير محبوبه ذي المن والطول
من يطلع لوجدان سواه فلا　　تشكن به إن القلب مكبول

فكل محبوب دنيا وأخرى إنما تم نعيمه إلا لكونه من فائض كرمه وفضله الذين هما متفرعان عن رضاه على من نعمه وقربه ولمن أتحفه ، وكل مؤلم ومنفر ومبغض إنما كان فائض عن سطوات عدله ، وفرع عن سخطه وحجابه على من عذبه ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه ، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه ، فسبب العذاب وجود الحجاب ؛ وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم)

النعيم كل مستلذ طبعا خاليا عن التكدير والتنفير ، ولايوجد ذلك في الدنيا إلا لأهل القلوب المتعلقة بالملإ الأعلى ، المجالسين لله على بساط الشهود ، وهم أيضا مع ذلك غيرمستكملين النعيم كلية الكمال ، لما يطرق عليهم في بعض الأحيان من هيبة سلطان الجلال ، وخوف الطرد والإنفصال . وأما المستلذات الطبيعية فلا تنفك في الدنيا عن التكدير ، ومايظهر تجلي النعيم في الدار الآخرة وهي مع ذلك تطلب الزيادة وتمامها ، وانتهاء درجات مقام النعيم بشهوده واقترابه وتلطفه وتعطفه لأحبابه ، وتجليه عليهم برضاه وخطوتهم بخطابه ونجواه ، وتمام سائر النعيم ومنتهى الأرب والهمم الذي تندرج فيه أنواع النعم كاندراج الكواكب عن إشراق نور الشمس الضاحية ؛ هو النظر إلى وجه الله كفاحا ، فعند ذلك تغيب سائر المحاسن في ظهور الحسن الذي اكتست حسنها من رشح بحوره المتلاطمة ، وسواكب فيوضه المتساجمة ، فياله من تمام ، وما أعزه من مرام ، وما أكرمه من مقام . والعذاب بأنواعه وسائر دركاته وعظم آلامه وشدة تغيظه واضطرامه ؛ إنما هو فرع عن وجود الحجاب الذي يتضاعف ألم العذاب وأصل مباديه . كما أن الرضا أصل النعيم والرؤية منتهى أمانيه فقال ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ [الآية ١٥ المطففين] وماذا ترى حسرة من حجب عن ربه ، وحيل بينه وبين حبه وأفرد عن صحبه ﴿

ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ [الآية ١٦ المطففين] ثم يقال لهم في انتهاه وشدة عقابه ﴿ **اخسئوا فيها ولاتكلمون** ﴾ فعندها تكلح الوجود وتزيد الأبدان وتغير الألوان ، وقال في الرؤية أن بها غاية النعيم ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ [الآيات ٢٢- ٢٣ القيامة] ندية عطرة مما ثم من عظم المسرات من مواجه الحور والغلمان وسائر الألوان ، والفواكه والرضا والحبور ، ناظرة بذلك ثم نضارتها وطهرت بسيادتها ، ولي في ذلك شعرا :

إن النعـيم وإن كانت مظاهره — كثيرة خارجة عن حـــيز الحصر

بما تجلى لهم من صرف منـته — ومنتهى الغاية القصوى هــو النظر

وكل نوع عذاب في مظـنـته — شؤم الحجاب ونار الحجب تستعر

فحققن فهذا في اكنـــــته — عن فهم كل بليد غير مــــدكر

فإذا كان النعيم الدائم والفرح لأهل القرب هو وجود مليكهم وعيان سيدهم ، والعذاب هو عندهم باحتجابه عن قلوبهم ، فلاجرم إن كل حزن وهم يرد على قلوبهم لايطرقهم إلا إذا امتنعت قلوبهم ذلك المشهد ، وحجبت عن ذلك المقصد ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماتجده القلوب من الهموم والأحزان ، فلأجل مامنعت من وجود العيان)

فالعيان لاتبقى معه الهموم ، فالهموم أما دنياوية وأما أخراوية أيضا كذلك . والهموم والأحزان الدنياوية أما محمودة وأما مذمومة ، فإن كانت محمودة كفارة لذنوب أقوام وماحقة لمعاصي وآثام ، وأما إن كانت أخراوية فهي

محمودة لم يخرج صاحبها عن روح الرجاء إلى القنوط . وهذه مراتب الزهاد والعباد وعموم العباد ، ومن أول المراتب الايمانية إلى شروق الشموس الفرقانية ، وظهور التجليات الإحسانية العيانية ، فعند ظهورها وإشراق بدورها تذهب الأحزان ، وتتفرج الهموم ، وتضمحل الهموم ، فالأرواح العلوية الصافية عن الكثائف الأرضية وهي أرواح المقربين متروحة بروح القرب ، متنعمة بنعيم الوصل والحب ، لاتلم بها الهموم الرديئة ، ولاتكدرها الكثائف الأرضية ، يتقلبون في حلل الجمال ويكرعون مناهل الوصال ﴿ **فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ الآيات ٨٨-٨٩ الواقعة] فالروح لأنهم روحانيين ، والسرور والفرح وسائر أصناف التنعمات كالنتيجة للروح فمنها فرحه بالله ، وهو غاية مطلبه ومنتهى إربه ، ولمحبوبه الكمال المطلق والبقاء السرمد والعز الأمجد ، جعلنا الله وأحبابنا في الله من أولئك ، وبوأنا وإياهم حضائر قربه ولذاذة حبه ، وتغمدنا وإياهم كذلك بتمام رحمته ومنه ، ولي في ذلك شعرا :

فكلما يطرق الألباب من حـــزن   بحسب مامنعت من مشهد المـــنن
فلو رأيت صفات الحـــق مسفرة   لما اعتراك ورود الهم والحـــــزن
بحسب ماتمتنع من قربه فكـــذا   تنال من شدة الأحزان والمحـــن
أرواح قرب عن الأكدار صافيــة   في طيب عيش برز من خالص المـنن
ومن يكن همه من شؤم معصـية   وفوت عالي نفيس الوقت والزمـــن
فحال مرضي لمن حالته سالمـــة   من ظلمة الشك والأدناس والـدرن

فالهموم والغموم إن كانت أخروية فهي درجات ورفع مقامات ، وإن كانت من الأمور الدنياوية المأذون للعبد في الإهتمام بها فهي كفارات ، كما ورد

معنى ذلك ممالايكفرها إلا هم المعاش أوكما قال ، فإذا علمت ذلك علمت أنه إذا أعطاك ماكفاك ومنعك الزيادة فذلك من عنايته بك ، فاشكره على ذلك . قال المؤلف رضي الله عنه :

(من تمام النعمة عليك أن يرزقك مايكفيك ، ويمنعك مايطغيك)

تمام النعمة أن يفتح لك باب الفهم عنه في جميع ما أنزله بك لتكون إليه واصلا ، والنعمة هي كل مستلذ طبعا أما باطنا أوظاهرا ، وأما عاجلا أوآجلا ، فالمستلذ في الرزق هو كل واصل إلى صاحبه مع القناعة به وعدم دخول العلم عليه وشهود التوحيد فيه وقلة العناء في طلبه ، وقلة الإعتماد عليه ، واتخاذه للتوصل به إل الأقسام الأخراوية ، والتقوي على الإتيان بالعبادة التي هي حكمة وجود الإنس والجان . فإذا رزق العبد مايكفيه عن التطلع إلى الإغيار ، والإبتذال في معانات الأسباب ، والإنغمار في الوسائط . وكانت تلك الكفاية مصحوبة بالقناعة ، فذلك من تمام النعمة وشمول المنة ، والكفاية هي كل مايسد الخلة وأقام الأود وهو الرزق المضمون ، ولايتعين له زمن دون زمن ولاطعام دون طعام . والكفاية روح الرزق ، فكل رزق بلاكفاية كالجسد بلاروح ، والكفاية بلا رزق روح بلا جسم ، فصح هذا الإعتبار أن هذا الرزق المصحوب بالكفاية قوت المؤمنين ، والكفاية بلارزق قوت الأرواح المجردة ، والرزق بلا كفاية رزق العصاة وتنشف من روائح رزقهم الشياطين . ومن تمام نعمة الرزق على المؤمنين وجود الكفاية فيه لئلا يبذلوا في طلبه ويتعبوا في تحصيله ، فتفوتهم جملة من أنواع العبادات وسني القربات ، فبوجود الرزق الكافي تستريح الأشباح لموافقة الأرواح على الدوب على الطاعات

، وتمنعه عما يطغيه من الثروة الملهية والكثرة المطغية التي بسط أكنافها على أعدائه ، وصرفها عن أنبيائه وخواص أوليائه كما ترى من فتنة المال والطغيان ، والطغيان بالأعوان ، والعيال والطغيان ، مركوز في جبلة النفس عند مساعدة الحظوظ وموافقة الأعراض ، وهو سبب تمرد الفراعنة واستطالتهم واستكبارهم عن طاعة سيدهم . فمن تمام النعمة على المؤمن من أن حماه من تلك المهالك ، وجنبه هذه المسالك ، المؤدية لسالكها إلى مالك ، وهذه مما يتعلق بالروح دون البدن ، كالحزن على مفارقة المحبوب ، وتشتت الفكر في حفظ الحاضر والزيادة من المفقود ، ومدافعة أرباب الولايات على سحتها واستدراك فانيها إلى مالا يتناهى من الأشغال المتعلقة بالروح .

وأما الأشغال المتعلقة بظاهر البدن فلا خفا فيها عند أربابها كالسعي في طلبها بالأسفار ، وركوب البراري ومتون البحار ، والسعي آناء الليل والنهار ، وتحمل مشاق الإنتظار ورخص الأسعار إلى غير ذلك . أيضا فإذا رزق العبد الكفاية ومنع الزائد المفضي به إلى هذه المتاعب الخطيرة ، فقد توفرت إليه النعم ، وتمت هذه في الأرزاق المحسوسة .

وأما الأرزاق المعنوية فمن تمام النعمة على المريد أن يرزق من الآداب القربية عند مفاجات الواردات الحسية مايمنعه عن أن يطغى بأن يتعدى على ماعنده ، أويدعي فوق مالديه ، أويطلب الخروج عما أقيم فيه حتى يطلب لذلك ويخطب له ، أويتخلف عما هو الحال عنده فيطلب رجوع ماجاوره كما كان ذلك من أجل مارزقه المصطفى وحظي به في مقامات الإسراء حيث أثنى الله عليه بذلك غاية الثناء فقال ﴿ **مازاغ البصر** ﴾

عما رآى من العجائب وعظيم تجليات الآيات العظيمة ﴿ **وماطغى** ﴾ إلى ما إليه له وصول ، بل وقف في كل ما أقيم فيه ممتثلا حتى رقى به عنه لما هو أعلى ، واحجم عند الإبتداء إحجام الأدباء مع ما هو بصدده من طلب الخطاب وسؤال الجواب ، حتى ابتدأ به وخاطبه بما هو مطلوبه ، ومنتهى مرغوبه ، فهذا هو أكفى رزق وأتم نصيب ، حسن الأدب مع الحبيب .
فهكذا ينبغي أن يطلب مايكفيه ويمنعه عما يستفزه ويطغيه .
والكفاية هي حفظ المكفي ، وإذا رزق عنده من أنوار اليقين مايحفظه عن الخروج إلى تعدي الحدود الذي هو عين الطغيان فقد اكمل عليه منته ، وأتم لديه نعمته . وهذا النور الذي يشرح الله به صدور أوليائه، فدانوا به على أقوم طريقة وأعدل محجة ، وبتمامه كمال النعمة في اليوم الديني ، فقال ممتنا ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت لكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [الآية ٣ المائدة] ولي في ذلك شعرا :

تمام نعمته للعبد ظـــــاهرة ... أن يرزقه من هني الرزق كافيه
ورزق كل إلى ما العين ناظرة ... ومنعه كل مايطغى ويلهـــــيه

وإذا كان المنع عن الطغي الملهي من تمام النعمة من الله ؛ فليتخذ العاقل من الأمور أحسنها عاقبة وأنفعها حالا ومآلا ، وذلك بأن يقلل من الأسباب الشاغلة له في العقبى والمؤلمة بفراقها في الدنيا ، وليتنصل منها حال وجدانها فيخف عنه ألمها عند فقدانها ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ليقل ماتفرح به يقل ماتحزن عليه)

التقلل من الدنيا وأسبابها من شان العقلاء الناظرين بنور البصائر إلى فنائها ، وكثرة عناها ، وقلة غناها ، وسرعة إنقلابها . وتنكرها على أحبابها ، ومواصلة أحزانها بفراق الأحباب وتغير الأسباب . فلما نظروا ذلك وماهو أعظم من فضيع المصائب وفوت الرغائب ، وعاينوا أشرف العقبى وأنهاء الحيوان ، تقللوا من مفرحات الدنيا وزخارفها ، ففارقوها إختيارا قبل أن يفارقونها أوتفارقهم إضطرارا كما هو حال الأغبياء المغترين ، فقلت أحزانهم وفارقوا الهموم ، وباينتهم المحن ونزعت عنهم الإحن ، واتصلوا بروح الروحانية فكانوا روحانيين ، ورقمت حروفهم في عليين ، أولئك السادات الأبرار ، والعقلاء الأخيار ، الناظرين بعين الإستبصار ، الذين نزعوا عن قلوبهم زخارف هذه الدار ، ورسخت قلوبهم في دار القرار ، عزفوا عن الدنيا نفوسهم ، ونزهوا عنها قلوبهم ، زهدوا حين رغبوا المغترين ، وسهروا حين نام الغافلون ، وبكوا حين ضحك اللاعبون ، فلم يفرحوا منها بأرب ، ولم تتعلق قلوبهم بسبب ، فباينتهم الأحزان ، واستأنست بهم الأوطان ، وصلت عليهم ملائكة الرحمن ، وأحبهم الله وأعد لهم الرضوان ، وأوقع لهم الحب في قلوب الإنس والجان ، بشاهد قوله صلى الله عليه وسلم " **إزهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس** "

ولي في ذلك شعرا :

ما قل من فرح الدنيا يكون لـه قليل حزن على فرقاه فاعتـــــــبر
وكل ماكان مفروحا به فكـــــذا يكـن له من خطوب الدهر من ضرر
فكل زائل عن قرب يكـــون إذا مالم تدعه شديد الهم فانتـــــــظر

ومفرحات الدنيا أما مال أوجاه أوغير ذلك من كل مافيه ملائمة للنفس وموافقة للطبع ، وهو أما أن يكون بطلب من الإنسان وتسبب في تحصيله ، وأما أن يكون بلاطلب ولااستعمال سبب ، فإن كان بلا طلب فسبيلك أن تطلب الخلاص منه ولاتفرح به ، وتبتهل إلى الله في أن يخرجك منه سالما ، وإن كان بطلب وسعي في سبب فذلك أشد ضررا وأخوف خطرا ، فسبيلك ترك التعرض له والسعي في طلبه . ويجمع معظم أسباب آفات الدنيا إتخاذ الولايات فهي الأمهات لسائر الآفات ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إذا أردت أن لاتعزل فلاتتولى ولاية لاتدوم لك)

هذا من أعظم مابتلى به من أولع بمحبة الجاه وملكه هواه ، أنه إذا كان متأمرا نافذ الأحكام ، متطاولا على الأنام ؛ ثم عزل عن المقام وجرت الأحكام وأوقف للخصام ، واشتد عليه اللزام ، فإذا تكلم رد عليه الكلام ، وإذا خاصم انقلب عليه الخصام ، أن له من الذل والهوان ماود أنه لم يكن له قبل ذلك ذكرا ، ولاظهر له أمرا ، فماذا ترى مايترادف عليه من الأحزان ، ومايناله من الهوان ، عافانا الله وأحبابنا من ذلك ، فالولاية التي تدوم هي التي تطلب ، وفيها ذووا العقول ترغب ، هي أن تكون لله ولأوليائه مواليا ، وعلى نفسك وهواك متوليا فلذلك فاطلب ، فهو الذي يدوم نفعه وتتزايد كرامته في الدار الآخرة ، وأنت في الدنيا عن المزاحمة فيه والتطابق على أمان ، وفي سلوك محجته على بيان ، فاختر إن شئت راغبا عز الأبد ونعيم السرمد أوحسرة الأبد وذل السرمد ، ولي في ذلك شعرا :

إن شئت عزا ولاتعزله عنك يدا   فلاتولي ولايات المعـازيل

إن الولايات في الدنيـــــا يلازمها   ذل عتيد بتحويل وتبديل

فالأمور لها بدايات ونهايات ، وظواهر وبواطن . فنور العقل ينظر إلى نهايات الأمور وبواطنها ، ومن لم ينظر بذلك النور يقف لامحالة عند بداياتها وظواهر زخارف زينتها ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات : إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن)

الرغبة في الشئ يقتضي الحب له وبذل الوسع في طلبه ، والزهد على العكس منه يقتضي نقصه وعدم الإكتراث به ، والدنيا بظاهر غرتها وزخرف زينتها في أول الأمر تروق في العيون الظاهرة لما ترى من تلك الملابس الفاخرة والزخارف المتظاهرة ، وتحتها كوامن من العطب وسيوف الرهب وقبح المنقلب ، فالعين الظاهرة تنظر إلى تلك الملابس الرائقة والأزهار الشارقة والطراوة الفائقة ، فتنظم إليها وتلمح لديها فترغب وإليها تطرب . والعين الباطنة تنظر إلى ماهناك من المعاطب الكامنة والقبائح المستورة تحت الملامح المنظورة ، فما أجدر بالفرار عنها حين عاين قبح الهلاك منصوبة تحت تلك الستائر ، والسم الذعاف مدموج بتلك المناظر فيزهد حين يرغب من عمي قلبه عن ذلك ، وينتهي حين يدعي غيره إلى ماهنالك . فالجهال مغرورون بظاهرها والعقلاء معتبرون بباطنها ، فلذلك سموا عقلاء كما أفتى إمامنا الشافعي رضي الله عنه بأنه لو وقف على أعقل الناس لصرف للزهاد ، وما أتى نبي ولاولي من لدن آدم إلا وحذر قومه من غرورها ، ونصحهم عن أن يطمئنوا إليها أويثقوا بحبل أمانيها وما أنصح من الله لعباده ، ولاكلام أبلغ من كلامه حيث قال والحق قوله ﴿

زين للناس حب الشهوات ﴾ إلى أن قال ﴿ **قل أنبئيكم** ﴾ إلى قوله ﴿ **ورضوان من الله** ﴾ وقوله ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾ [الآيات ٤٦ الكهف] وقوله ﴿ **إعلموا أنما الحياة الدنيا** ﴾ إلى ﴿ **متاع الغرور** ﴾ [الآية ٢٠ الحديد] وقوله صلى الله عليه وسلم " **إعلموا أن الدنيا خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون** " إلى غير ذلك من الآيات والأخبار .

وأما الآثار فتكاد تخرج عن الحصر فلنقتصر من ذلك على ما أوردناه من الآيات والأخبار ففيها كفاية لذوي العقول الثاقبة ، ولي في ذلك شعرا :

إن رغبتك بدايات الأمور فقـــد زهدك فيها نهايات المقاديـــر
كم غر فيها كما غر البلـــيد أسد بحسن قدر وتخطيط التصاوير
إن كنت تعقل أن العمر ليس أبد يأتي المنون ولاتغني المعاذيـــر

ورزايا الدنيا ومصائبها وفجائعها سائقة لذوي العقول إلى المثول بين يدي سيدهم ، ومزعجة لهم عن الإستئناس بغير محبوبهم ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما جعلها محلا للأغيار ، ومعدنا للأكدار ، تزهيدا لك فيها)

إنما جعل الله سبحانه الدنيا محلا للأغيار ومظهرا للمصائب وظهور الظلم الغيرية الموحشة للأسرار ، للإستئناس بها والركون إليها ، وخباء أنوار الوجود وتلألي الشهود إلى دار الخلود رحمة منه ولطفا بعباده ، لئلا ينقطع عنهم مايجدون من المشاهدة بانقطاع هذه الدار الفانية ، فجعل تمام ظهور

هذه الأنوار وشهود عجائب الأستار في دار القرار ، ووسمها بالتمام على الدوام ليكون الإنسان لعالم البقاء ختام ، ولذروة الكمال سنام ، وجعل هذه الدار السريعة الإنصرام والقريبة الإنعدام محل ظهور الغيرية الذي تعرف بتوهم وجودها الأرواح عن المشاهدة السنية والدرجات العلية ، وذلك لعدم أصالتها ، وجعل المصائب أيضا والمكدرات لمناسبتها لها ، وجعل سبحانه أمدها قصير ، وعيشها حقير ، ومخوفها خطير ، فلايمتري فيها ذو عقل سليم وقلب عليم فيزهد فيها ، وتنبو همته عنها لما تعلق به من جمال البقاء ونعيم اللقاء ، هذا لذوي البصائر النافذة .

وأما عموم المؤمنين والواقفين على ظواهر الأمر ولم ترفع لهم عن الحقائق الستور ؛ فيزهدون لما يرونه بمرآة العقل ، ويشاهدون من عجائب العبر واستماع النقل والخبر ، مما ينفر قلوبهم ويعزف نفوسهم ، من فجائع الدنيا بأهلها ، وانقلابها على أهل الثقة بها ، وورود البلاء مع كرور ليلها ونهارها ، وفوات المحبوب منها والقصور عن مأمولها ، فيزهدون لامحالة ليستريحوا من ألم فراقها ، ويحتموا من ذعاف سموم نوائبها ، فكل ماكان فيها من المسرات أقل كان من الفجائع والرزايا أميل ، فكل محبوب منها تقارنه لامحالة حسرتين ومصيبتين : حسرة فراقه ومصيبة ذهابه ، وحسرة فوات فوات النصيب الأخروي ومصيبة عدم التمكن من فعله ، لأنه كلما ذهب في شغل بأمر دنيوي ذهب بموسم من مواسم القرب ، وغنيمة من غنائم الآخرة فلايرجع الفائت من هذه ولم ينل الذاهب من تلك ، وحق لمن تأمل هذه العبارات وأنصف أن يزهد في ما هو سبب حرمانه من نيل الدرجات ، وماهو سبب هوانه بحلول المثلات ، فهذا وأمثاله مما زهد ذوي

العقول الثاقبة . وأما أهل البصائر الذين صفت منهم السرائر فزهدهم ما ألها أسرارهم من تلألي جمال المحبوب ، وغطا نعوتهم من جلاله ، لا إلتفات لقلوبهم إلى الأغيار ، ولاشوق إلى جنة ولاخوف من نار ، بل صارت عندهم الآثار محوا ، والوجود صحوا ، فالحمد لله الذي جعل لنا إليهم بتكرير بعض صفاتهم نسبة تكن لهم بها بشرط الصدق ندما وفي معرسهم خدما . ولي في ذلك شعر :

فما جعل هذه الـــدار التي كمنت فيها سهام البلايا موضع الغـــير
إلا محل البلايا مثـــل ماعلمت ومعدن آفات ليس العين كالخــبر
فزهدت كل ذي عقل بما ظــهرت مما حوت من وجود البؤس والكدر

إذا تأملت إنزواء الدنيا عن أولياء الله وأصفيائه وأهل وداده ، وتزخرفها وتزينها لأعدائه وأهل القطيعة ، علمت يقينا حسن اختياره لك ، ولطفه فيما زواه عنك منها ، فتشكره على ذلك شكر غيرك موافقة طبعه ونيل حظه ، بل أتم شكر لو علمت أنه اختار لك مااختاره لأنبيائه وخواص أوليائه ، فترتاح وتشتاق إلى لقائه ، ويظهر لك خسة الدنيا وضيقها ، فتأخذ في طلب المحبوب وتجد في طلب ماهو الأولى بك . ومصائب الدنيا وفجائعها نعمة من الله على عباده لئلا يستأنسون بها دونه ، ويطمئنون إليها ، فكانت هذه المصائب الدنياوية مزعجة لهم عن الركون والطمأنينة إليها ، وذلك لما علمه أن بعض عباده لايقبل النصح إلا بإزعاج وقهر ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(علم أنك لاتقبل النصح المجرد ، فذوقك من ذواقها ماسهل عليك وجود فراقها)

علم سبحانه وعلمه الحق الذي لايداخله جهل ، ولايمتري فيه شك ، بل علم الأشياء قبل إيجاد أعيانها بجملها وتفاصيلها ، فعلم بما بعض الأسرار عليه من وجود القرب وكمال اليقين ووفور المعرفة وكرامة السجية ، فتجلى لهم صرف الجمال ، وألمح بصائرهم تجلي الكمال ، وأشعر قلوبهم نيل الوصال ، وأذاق أرواحهم حلاوة الإتصال ، فأقبلوا إليه عما سواه من الأكوان ، تاركين لسائر ماطمحت إليه الأعيان من الألوان ، ومتجردين عن النفوس ، مقدسين بتقديس الملك القدوس ، فهؤلاء سمعوا قوله ﴿ **ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ فلما استجابوا علمهم علم القرب ليشهدوا به استغراق معيته فقال ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ [الآية ٢٤ الأنفال] فالإستجابة بامتثال ماشرعه ، والعلم نتيجته ، والشهود ثمرة العلم الذي أنتجه صدق الإستجابة ، فهؤلاء لم يحتاجوا إلى التجرية التي تورث غيرهم التجافي عن الدنيا ، فقبلوا النصيحة من غير توقف على استدلال على فراق الدنيا وقبحها ، وشرف الآخرة ونفاستها .

ولما علم سبحانه أن في عباده من لم يقبل النصح مجردا أظهر ما أظهره من شدائدها وفجائع مصائبها لينفر عنها من اغتر بزينتها من المؤمنين ، فكان ذلك تفضلا منه عليهم ورحمة بهم ، فله الحمد حيث لم يتركهم وما أرادوا من تيسر أسبابها وتزخرف محابها ، كما ترك من لا له عنده حظ يمرح في نعيمها ويتمتع بزخرف زهرتها ، قال عز من قائل ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة**

واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ [الآيات ٣٣ – ٣٥ الزخرف]

ولي في ذلك شعرا :

لما علم جل مولانا وخالقـــنا   أنا كما قد علم لم يقبل الخـــبر
أذاقنا من مرارات الفراق عنا   تسوق من حرب الأشياء بالغير

ولماكان استكشاف الأمور حسنها من قبيحها لم يعثر عليه إلا بنور العلم أخذ في بيان قوله نفعنا الله به :

(العلم النافع الذي يبسط في الصدر شعاعه ، ويكشف عن القلب قناعه)

العلم الحقيقي الذي يطلق بالمدح عليه ، ونشرت رأيات المجد لديه ؛ هو العلم الذي هو فائض عن الوصف الأزلي ، وهو النور التأييدي والنفث الأقدسي ، والصدر المتلقى له وهو الروع النقي منبع التقوى ، ومحل الفهم المتلقي من عالم الأمر الملقي بواسطته على العالم الخلقي أعمال الهدى وأسرار الإقتداء على المحجة البيضاء والحنيفية السمحاء ، قال الله في شرح صدر أكمل هذا العالم ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ [الآية ٣٨ الجاثية] فهذا هو العلم الملقي على من ألقي عليه وهو المستحق أن يسمى علما مجردا من الإضافات المكونية ، ثم قال جل ذكره مشيرا إلى ثمرة العلم ومبينا لشرفه ومنبها على من لم يحظ منه بشئ أنه غير عالم فقال ﴿ **فاتبعها** ﴾ إذ هي الموصلة إلى عين المشاهدة ويقين المواصلة ﴿ **ولاتتبع أهواء**

الذين لايعلمون ﴾ [الآية ١٨ الجاثية] هذه الشريعة الأمرية ، فمن أخذ علمه لا عن هذه فهو موصوف بالهوى أومقرونا بالدعوى ، فالعلوم النقلية المتلقاة من الخلق المتداول لفظها إذا لم يصحبها من هذه الأنوار القدسية ، ولم يحظى من المراتب العلمية بمزية ، لاتفارق صاحبها الآفات القادحة في إخلاص العبودية ، لأنها اتسمت باسم العلم ، وتلبست بلبسه بين العالم وسمي عالما عندهم ، مع أنه لايحرم حراما ماعلم حرامه ، ولم يأتي واجب ماعلم وجوبه ، فكان عند العموم عالما وعند الخصوص غمرا جاهلا ، إذا العلم عند المحققين ماباشرت القلوب أنواره ، وانبسط على النفوس شعاعه ، وظهر على الأركان حسن اتباعه . وقال جل ذكره في معنى ذلك في معرض الإمتنان بمافسح به الحنان ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ وشرحه هو اتساعه لقبول فيضان العلوم الحقية ، حتى علم الأولين والآخرين ، وقال في حق من اختصه باتباع محجته واقتفاء أسوته ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ [الآية ١٨ الزمر] كما قال للمتبوع ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ [الآية ١٨ الجاثية] فكل من أفيض عليه نور من هذه الشريعة بواسطة أي اسم كان مشهد الربوبية فيه ظاهر في مرآة المربوب ناظر ، وسائر الأسماء يسمى مجموع تجليها أمر ، فجعله قطب مدارها وشمس نهارها . والصدر هو المشكاة الذي ينبسط عليها نور الزجاجة التي تقبل نور المصباح من غير واسطة ، وهنا تظهر من العلوم مالوبدت لضاق عنها نطاق الخلق ، وطارت الألباب من محرقات السحاب

وتلاطم بحار أنوار الذات . فلنرجع إلى قوله : العلم النافع هو الذي ينتفع به العالم هو كل علم بالله وبصفاته وأسمائه وأفعاله وأمره ونهيه ، ومايزيد في خوفك من الله ويزيد في رجائك ، وكل علم تعلم به مفترضات الله عليك وماندبك إلى فعله وزجرك عن إتيانه من شرائعه وسنن أنبيائه ، والعلم النافع هو الذي تصل به إلى مرضاة الله وتتقي به سخطه . ويدخل في ذلك كل علم باطن أوظاهر خاص أوعام ، لكن بشرط حسن النية فيه وإخلاص القصد . فيدخل فيه علم فروض الأعيان وفروض الكفايات بهذا الشرط المذكور ، ولكن المقصود الأعظم هو علم الكشف والتجلي ، وعلم الحال والتحلي ، وعلم الفرض والتخلي . وهذه العلوم لايدركها إلا أهل الصفاء القائمين على نهج التحقيق والوفاء ، وأما علماء الرسوم الذين لم يعطوا نصيبا من المعلوم بل واقفين على مايسمعونه من الألفاظ ويتلقون من الرواية والحفاظ ، أوشئ يلفقونه بأفهامهم السقيمة بعلة الهوى والمتلوثة بقاذورات الدنيا ، فليسوا عند المحققين علماء وإنما يسمونهم نقال وأوعية . وكان مما يروى أن من العلماء يحشرون مع الأنبياء وآخرين يحشرون مع الأمراء والسلاطين ، ولي في ذلك شعرا :

العلم هـــو كل مايبسط مآثره　　　على الصدور شعاع النور فاعتبر

ويمحي عن شهود القلب ساتره　　　ويكسي الروح سربال من النظر

وكل علم من الأعمال ناظـــرة　　　بحسن قصد وفهم فيه معـــتبر

فذاك علم وسمت فيه مفخـــرة　　　وغـير ذاك هباء في هوى الفكر

ثم اعلم أن العلم قد يطلق على سائر العلوم ، والعلوم كثيرة بحسب المعلومات ، ومن كان ذا عقل وفهم نظر في العلوم خيرها وشرها ،

وخيرها هو كل مايعود على العالم به الظفر بخيرات الآخرة والدنيا ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(خير العلم ماكانت الخشية معه)

فإذا اعتبرت العلوم من حيث الإضافة إلى معلومها وجدت أشرف العلوم بالله وصفاته وأفعاله ، وخير مايتقرب به إلى الله هو أحوال القلوب ، فكان خير كل علم ماقارنته هذه الأحوال القلبية والمواجيد السرية التي من جملتها خشية الله ، إذ الخشية وصف العلماء بنص كلام الله إذ قال جل ذكره ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [الآية ٢٨ فاطر] والخوف شعارهم إذ قال وخافون ، يخافون ربهم ، وكل علم لم تصحبه الخشية ولم تقارنه المخافة ولم تدهشه الهيبة ولم يروحه الدجال ولم ينعم صاحبه الإنس ، ولم يحجزه الورع ، ولم يجانبه الطمع ، ولم يحقق طرائق السنة ، ولم يشيد مبانيها بالأعمال ، ويصفيها عن شوائب الآقات ، ولم يراعي حقوق الله على ممر الأوقات ، ولم يعزف نفسه عن الشهوات المألوفات ولم يتحقق صاحبه بالمقامات ، فليس على الحقيقة بعالم وإن جهل بعض العلوم المتعلقة بالقضايا والخصومات .

وقد كان للعلماء سمات يعرفون بها وعلوم تحقيقات وبيان أحوال وتفصيل مقامات ، فمنهم المدرك لها بالذوق وهم المرادون السادات ، ومنهم المذكورون بالعلم مع عدم الدعوى لحقيقتها وهم المريدون . فمن تلك العلوم علم طلب الحلال وعلم الورع في المكاسب والمعاملات ، وعلم الإخلاص وعلم آفات النفوس وفساد الأعمال ونفاق العلم والعمل ، والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس ، ومن إظهار النفس شهوتها وإخفائها ذلك ، والفرق

بين سكون القلب بالله تعالى وسكون النفس بالأسباب ، والفرق بين خواطر الروح والنفس وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل . ومن علوم الأحوال أيضا وأحوال العلماء وتفاوت مشاهدات العارفين وتلوينات الشواهد على المريدين .

ومن المقامات علم القبض والبسط والتحقق بصفات العبودية ، والتخلق بأخلاق الربوبية ، وتباين مقامات العلماء . فهذه العلوم والمقامات والأحوال بعض ما أورده أبوطالب المكي رضي الله عنه أنها من صفات العلماء تذاكرها وتعاهدها بين علماء السلف . فإذا نظرت في أحوال هؤلاء ومن يدعي العلم في هذه الأزمان تبين لك إفلاسهم عن العلم وماهم عليه من التهاون في الأركان ، والعمل بموافقة الهوى وطلب سحت الدنيا بأي وجه يتأملونها كما كان غيرهم من العلماء المحققين يتأملون مايقربهم من المولى ويحصل لهم عنده عظيم الزلفى ، عرفت ذهاب الدين وخمود أنوار اليقين في أهل زمانك ، وعرفت أن من عرف صفات العلماء والسير على سيرهم ، غريب يتنفس تنفس الصعداء لكثرة ظهور الأهوى وانتصار الأعداء واندراس العلم وأهله . فمن كانت الشهوات غاية مطلبه والهوى قائده والدنيا وجهته فما أبعده عن العلماء ، وما أسمج هذا الإسم عليه ، فكيف يكون من ورثة الأنبياء من باين صفاتهم التي من جملتها المثابرة على الطاعات ، والتخلق بالرحمة على سائر المخلوقات ، وخفض الجناح لأهل الإيمان والشدة في الدين ، والتنزه عن المترفين ، واللطف بالمساكين ، وإرشاد الضالين ، ونصيحة الكافة والخاصة ، وعدم الفضاضة والغلظة ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وطلب اللحوق بالرفيق الأعلى إلى مالايحصر

من مكارم الأخلاق . فكيف يدعي الوراثة لمن لم يتخلق من هذه بل على الضدمنها ، وتعبيره بمعية الخشية إذا المعية تستغرق جميع الأحوال والقوى الظاهرة والباطنة ، وكل حركة وسكون حتى يظهر لمن نظرهم أثرها على ظاهر الشخص ، فلايراهم رأئي إلا وتغشاه الخشية وتعتريه الهيبة والسكينة ، وتغمر من حضرهم الرحمة وتعمهم النعمة . هذا شاهدهم في ظاهر الحس في الأعين الحسية والمظاهر الخلقية . فهذه دلالات العلماء بالله العارفين والربانيين ، الذين تغنت أرجاء الوجود بوجودهم طربا ، وجليت إليهم حور المعارف أترابا عربا ، فهذه بعض عبارة من صفات العلماء ظهرت في عاصف القدر فألقتها على ذرة من ذرات الفؤاد ، فأفصحت بتحميد وتمجيد الجواد ، بما وهبها من لطف الوداد ، وعاد مما كاد أويكاد ، يضيئ من غير إيقاد . فنسأل الله تحقيق ذلك وأن يفيض علينا من الإمداد فوق المراد ، إنه كريم جواد . ولي في ذلك شعرا :

العلم من حيث كون العلم مكرمة   بخشية الله ذاك العــز والشرف
معية لاتفارق صرف مزحمـــــــة   يدري لذا كل من من بحره اغترف

فترتيب المؤلف رضي الله عنه هذا في فصل العلم ، فبين ماهو العلم أولا الذي يستحق أن يسمى علما ،ثم صفة العلم النافع ووصفه بمقارنة الخشية ، ثم أخذ في بيان أحوال العلماء وانقسام العلم بحسب من اتصف إلى ماهو لك وماهو عليك ، فقال بعد أن عرفك أن العلم تقارنه وتلازمه الخشية فقال :

(العلم إن قارنته الخشية فلك ، وإلا فعليك)

العلم من حيث ماهو علم عام ، ويطلق ويتخصص ويتقيد إلى محمود ومذموم ونافع وضار ، وهو من حيث تعلقه ونسبته إلى الجناب الإلهي شريف وهو أعم صفات المعالي كالكلام ، فمن حيث نسبته علم الحق الحايز لهم وقد عرفت ماهم عليه من التفاوت وانقسامهم إلى من يحمد شرعا فذلك المنسوب إليهم والمحمود شرعا علامة دالة ، وهي الخشية التي هي أشمل بصفات النفوس والقلوب والأرواح ، فالخشية تعم وتحتوي على مراتب القلوب وأحوال النفوس فهي أعم من الخوف ، وهي التي اتصف بها صهيبا حيث نعته صلى الله عليه وسلم ونوه بمقامه فقال : **نعم العبد صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه** " وذاك لما عنده من عظم الإجلال لجناب الله ووفور الخشية ، إذ لو لم يخف لأجل الجناب الإلهي عن العصيان ، والخشية من صفات علماء الآخرة الذين يدعون عظماء في ملكوت السماء ، وقد سماها داود صلى الله على نبينا وعليه وسلم باسم العلم ، فقال : ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك . والعلم إذا قارنته الخشية كان صاحبه من الله قريبا وله حبيبا ، ومن كان كذلك كان العلم له لأنه صار في كنف ولايته وحرز عنايته فكان له ، ومن لم يتصف في علمه بالخشية فيجتري لامحالة على محارم الله ، ويغش عبادالله ، ويستهين بأوامر الله ، ويهين أولياء الله ، ويستخف بسنة رسول الله ، ويؤثر الهوى والدنيا على محاب الله ، ويمدح ويذل ويعجب ويفخر إلى مالانهاية له من المعاصي الظاهرة والباطنة ، فيكون مقيتا عند الله في دنياه وأخراه ، لأن أفعاله تخالف أقواله ، وحاله يخالف العلم الذي به يتشرف وإليه ينتمي ﴿ **كبر مقتا عند الله أن تقولوا**

مالاتفعلون ﴾ [الآية ٣ الصف] فيأمر الناس ويترك نفسه ، ويذكر الناس وينسى ﴿ **أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ [الآية ٤٤ البقرة] فإذا كان كذلك كان العلم لامحالة عليه عائد بالضرورة ، فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة ؛ وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة . والعلماء : عالم قلب دون لسان وعالم لسان دون قلب ، وعالم قلب ولسان ، وجاهل لسان أغلف قلبه ـ فانقسم الأمر إلى أربعة أقسام : أثنان محمودة واثنان مذمومة ، والمحمودة أيضا قسم أعلى من الآخر ، فمثال العالم بالقلب دون اللسان كالفارس البصير على مركب أعمى فهو يهديه لامحالة ، ومثال عالم اللسان دون القلب كالفرس البصير والراكب أعمى فيرديه لامحالة أويتردى عنه ، ومثال عالم اللسان والقلب كراكب بصير وجوادا بصير ، فهذا يكون لقدم النبوة وارثا ، وبلسانالرسالة ناطقا ، وهو في الكواكب السماوية شمسا ، وفي الأعمال الظاهرة دابة ثابتة لايطفاها مطر ولاريحا ، فهو في نفسه مضيئا ولغيره هاديا ، تدفع به النوائب ويكفى به الحوائب والمصائب . والعلماء ربيع الخلق إذا كانوا كذلك كما قال بعضهم في وصفهم : مايراهم الغني إلا ويسره أن يكون فقيرا ، ولايراهم الصحيح إلا ويسره أن يكون مريضا ، أوكماقال . وكان أبناء الدنيا في مجلس سفيان أقل الخلق مقاما .

وصفات العلماء وفضائلهم لاتحصى عددا لكثرة مناقبهم وعظيم فضائلهم ، منه مايروى في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " **فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ، وفضل العالم كفضل القمر على الكواكب .**

أوكما قال ، ولعالم أشد على الشيطان من ألف عابد . فكل ما ورد من الأخبار وحكي من الآثار في فضائل العلم إنما هو ماقارنته الحنيفية ، وماروي من تفضيل العلماء إنما يراد بهم العلماء بالله وبأوامر الله ، وأما ماورد من الذم فليس هو إلا من اتصف به علماء السوء من الصفات المذمومة والأخلاق الملومة ، فالذم ليس على العلماء من حيث العلم بل من حيث مخالفتهم إياه من الرغبة في الدنيا ، وجمع حطامها والجدل والمماراة وحب الجاه المذموم ، فالعلم هو الذي نبه على قبح هذه الأحوال ، فلايذم العلم ذو عقل من حيث كونه علما إلا مانص على ذمه : كعلم السحر والنجوم والشعبذة وكل علم يتوصل به إلى منهي ، فلولا العلم لم يعرف قبح القبيح ولم يتبين الحسن . والعلم من حيث انقسامه إلى نظري وعقلي ومسموع ومطبوع ، فالمطبوع يسمى عقلا والمسموع يسمى نقلا ، ولم ينتفع بواحد دون الآخر . وقد وصف الله العلماء بالزهد وإيثار الآخرة على الدنيا فقال تعالى ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا** ﴾ [الآية ٨٠ القصص] فشعار العلماء بالله الخشية ، ولباسهم العمل الصالح ، والعلم وسيلة إلى العمل به ، فإن استعمله فيما أمر واجتنب مانهى كان له ، وإن لم يعمل به ولم يستعمله في مقتضى ماهو المطلوب إيتمارا وانتهاء كان عليه . ومن مقتضى العلم أن يكون العالم مسارعا إلى الخيرات حريصا على اقتناص الخيرات ، يتحرا إذا هجم الجهال ، ويزهد إذا رغب البطال ، وينتهي إذا اقتحم الضلال ، ينزجر السفهاء بسماع ذكره ، وينتفع الطالب بصائب أمره فعالا أكثر من أمره مقالا ، يصون عن الدنيا

جانبه ، ويحمي عن السفهاء حاجته، لايبتذل في طلب الأعراض والحظوظ فيكون سببا لإستعانة العلم في أعين الخلق فيحرمون نفعه . فالعالم يستغني بعلمه عن دنيا الراغبين ، ويفتقر إلى إفادته الطالبين ؛ لايتعلم مسألة إلا لينال بها قربة ، ولايعلم حكمة إلا وينال بها درجة ، وذلك ثمرة حسن النية في طلب العلم ، فمن طلب العلم على نية مانوى فإن كان نيته في طلبه الله كان من العلماء بالله ، وإن كان نيته التفقه في دين الله ليعرف أمرالله كان من علماء الآخرة ، وإن كان نيته طلب المنزلة ونيل الحظ من الدنيا ورفعة الصيت والمنصب ومزاحمة أرباب الولايات في القضايا والأحكام ، والظهور على الأقران والإستطالة على الإخوان وغير ذلك من المطالب الدنياوية والمآرب الهوائية ، فلايخفى قبح مقصده وخسة مطلبه عند ذوي القلوب السالمة من الهوى ، وأما نفوس الجهال المغرورين والحمقاء ، فلاجرم أنها ترى ذلك من أجل المراتب وأحسن المطالب ، فلاعبرة بهم عند أهل الحق . وأكثر من يكون لديهم معظما من نال عليهم المنزلة فيما هم بصدده من الحظوظ الدنياوية ، فهو أي من طلب العلم على هذا القصد أشد غرورا من الجهال ، لأنه يرى له المنزلة في الدنيا فيخيل إليه أن له في الآخرة الزلفى ، فيزداد من حمقه وجهله وغروره ، ويروح على العموم حسن مقامه ، ويدعو غمار الخلق ويلقى إليه من تزويره وتغريره أن ذلك فيه نجاتهم عند الله في الأخرى ، فيزدادون له تعظيما وتوقيرا ، وتسري إليهم رذائل أخلاقه وقبائح أحواله من حيث لايدرون إلا وقد أصيبوا بما أصاب ، وهلم جرا ينتهي من واحد إلى واحد ، ويكون من أئمة الضلال موسوما بسمة الدجال في الإضلال . قال صلى الله عليه وسلم **أنا من غير**

الدجال أخوف عليكم من الدجال علماء السوء . لأن الدجال غايته الإضلال ، ومثل هذا العالم إن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو داعي لهم إليها بأعماله وأحواله ، ولسان الحال أفصح من لسان المقال ، وطباع الناس إلى المساعدة في الأعمال أميل منها إلى المتابعة في الأقوال ، فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله ، إذ لا يستجرئ الجاهل على الرغبة في الدنيا إلا باستجراء العالم ، فقد صار علمه سببا لجرأة عبادالله على معاصيه ، ونفسه الجاهلة مع ذلك تمنيه وترجيه ، وتدعوه إلى أن يمن الله بعلمه ، وتخيل نفسه الخبيثة أنه خير من كثير من عبادالله ، فقد صرح بذلك الإمام حجة الإسلام أبوحامد الغزالي في وصف الذي اتخذ علمه ذريعة إلى نيل الحظوظ العاجلة ولم ينكشف له دناءة هذا المقصد ، ولم ينزله انعكاس من هذا المشهد ، عافانا الله والمسلمين من ذلك ، ولطف بنا من الجهل والإغترار . ولي في ذلك شعرا :

العـــلم نور إذا قارن مصاحبة من خشية الله ذاك العالم النبل
شعاره الخوف مع ذل ومسكنة وغير ذاك من التحقيق منـعـزل

فهذا القدر من التنبيه على أشرف العلم المقارنة له خشية الله ، وقبح كل من طلب العلم على غير نية صالحة كاف ، وقد أطال الكلام والمصنفين في الترغيب في العلم وفضيلته ، والتنفير والتحذير من الإغترار بما فيه كفاية سيما الإمام حجة الإسلام أبي حامد فإنه قد أوضح فيه مالايبقى معه ريب في شرف العلم ، وخسة من اتخذه وسيلة إلى نيل الحظوظ العاجلة ، فلنكتفي بذلك عن الإطالة . فلما أنهى الكلام على العلم وصفة العالم وماهو

العلم أخذ في بيان معاملة العبد مع الله ، فله دليل يجده أولوا البصائر المستنيرة ، لذلك قال في ذلك :

(متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أوتوجههم بالذم إليك ؛ فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لايقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم)

متى وجدت عدم إقبال الناس إليك بالإحترام والتوقير والإعتقاد والتبرك وطلب الدعاء منك ، وعملك فيما بينهم وعدم إكتراثهم بك حضرت أم غبت ، وترك إكرامك ومعرفتك بالفضل فألمك ذلك لغيبتك عن شهود سيدك وخالقك ، ومن بيده منافعك ومضارك ، فإقبال الخلق وإدبارهم عند من كان ذلك سيئان ، فإن كنت محجوبا عن وجود الحق فكن بالإيمان موافقا ، قال صلى الله عليه وسلم في وصيته لإبن عباس من جملة ما أوصاه به في حديث طويل محتوي على أصناف الحكم وجوامع الكلم : واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشئ لم يردك الله به لم يقدروا ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يقدروا ، رفعت الأقلام وجفت الصحف . ومن دوى ذلك الألم أن ترجع إلى علم الله فيك ، فإن كنت عنده كريما فما ذا عسى ضرك إدبارهم عنك ، وإدبارهم فيه لك من المنافع الدينية ، والسلامة من الآفات القادحة في الأعمال ، والحائلة بينك وبين الإقبال على الكبير المتعال مالايحصى شكره . كذمهم فإنهم إذا توجهوا إليك بالذم ألجوك لامحالة إليه ، وأوقفوك على دقائق كامنة لم تكن لك قبل عليها إطلاع ، فإن كنت من أولي العزائم السالكين فذلك أعون لك على ما أنت بصدده من صفو الوقت ، وعدم الإشتغال بهم والسعي في مايقيم

بواطنهم . وإن كنت من الواصلين فلا أحق منك بالشكر إن خليت بمن يحب وهو يعلم ماناالك في ذاته ، فأنت بكل حال متفضل عليك ، وإن كنت لاترضى بذلك ولم تفهم ماهنالك فمصيبتك أشد لأنك مصاب بضرب الحجاب ، ومعرض لنيل العقاب ، فما شانك إلا أن تتألم لذلك حيث لم تحظى من الكشف الصريح مايشهدك انعدام الخلق في شهود وجود الحق ، ولم تكن من أهل الإيمان المنتفعين بالسمع من الصادق المصدوق حيث أرشد إلى ذلك ودل على ماهنالك .

وأما أذى الخلق فهو خير بكل حال ولم يكن نقص ، ألم تر من إيذاء الأنبياء وسادات العلماء ، فلوكان ذلك نقص في منصبهم لما قال صلى الله عليه وسلم : نحن الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل . وفيه من تكثير الحسنات وجلب الخيرات مالايدخل تحت حيسوب ، وهو شاهد على وجود الإيمان كما قال سبحانه وتعالى ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون** ﴾ إلى آخر ماقال ﴿ **فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ [الآيات ١-٣] فدلت الآية على أن التألم بإيذاء الناس قادح في الصدق ومخرج عن تسمية الإيمان ، لأنه إن لم يكن كما قدمنا من أهل الكشف والعيان ؛ فلا أقل من أن يكون من أهل العلم والإيمان ، ولي في ذلك شعرا :

متى تألمت من إدبار مخـــــلوق لاشك أنك عن مولاك محجـــوب

كذا أذى الخلق لايعباه ذو طلب لمنهج الصدق طالب خير مطلوب

وأعظم المنن الظاهرة الأذى على أيدي الخلق وأبين الدلالة على تقريب من أولعوا الخلق به ، وتوجهوا إليه بالأذى ماقاله المؤلف رضي الله عنه حيث قال مبينا للحكمة في ذلك :

(إنما أجرى الأذى على أيديهم كيلا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شئ حتى لايشغلك عنه شئ)

إنما الخلق مظاهر لآثار الأقدار ومجرى تجري فيهم تجليات الأسرار ، فكل من جرت له في المظاهر الخلقية والمشاهد الغيرية مايزعجه عن السكون والوقوف لديها فذلك مخطوب العناية وموهوب الرعاية بأن تولى الله تربيته من أسجف الغيب ، فأزعجه منها لتحقق الفرار ، ولايكون له مع غيره قرار ، ليوقفه على حد الإضطرار وصدق الإفتقار ، ففروا إلى الله كما أرى الكليم عداوة العصى فكانت حية تسعى حتى هرب إليه فما كان معتمدا عليه ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار ، والتعبير بالناس أنه كل مأنوس من مال أوجاه أوغير ذلك من كل مايستأنس به والله أعلم . وأذاهم إنما يدرك ظاهرك ألمه والإقبال منهم والسكون إليهم يلحقك بعالم الظلمة ، ويميت قلبك الذي به توجهك إلى حضرة سيدك ، وبعمى روحك الذي يدرك به لذة شهود الحبيب ويبعده عن التقريب . فإذا جرى الأذى عليك على أيديهم إنما ذاك من عظيم عنايته ولطيف رعايته لكيلا تساكنهم فتوقف دون مطلبك وتحرم بسببه نيل بغيتك ، فأجرا عليها مايحرسك به إليه فينتكر عليك كما كنت تطمئن إليه من سائر الخلق من الأسباب والعشائر ، حتى تعاديك أعضاءك فتسلط عليك بالأذى والضر بل وأحبابك الذين كنت تستأنس بهم وسائر علومك وجاهك ومالك ومقامك

فلا تجد أنسا يسوى ، ولاتأوي إلى مأوى . وقد استعاذ بعض الفضلاء من الأحوال والمقامات ، ونسأل الله العفو عن حاج الخلق عليه كيلا يكون لغيره ساكنا أوبسواه مستأنسا ، ولي في ذلك شعرا :

أجرى عليك الأذى ممن تساكنهم   كيلا تكون مع الأغيار مأسور

وذاك من لطفه فيما يعاملـــــــهم   كما روي عن عباد الله مأثــور

والركون إلى الخلق والسكون إلى الأسباب بعد وحجاب ، والشيطان منشأ لسائر الأسباب المقصية للعبد عن باب الله ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إذا علمت أن الشيطان لايغفل عنك ، فلاتغفل أنت عمن ناصيتك بيده)

إذا علمت أن الشيطان المبعد لمن تولاه عن مولاه وأنت لم تدركه بالحاسة الظاهرة لأنه جار من ابن آدم مجرى الدم ، وله أعوان منك عليك وهي : نفسك التي بين جنبيك ، وقد علمت أن الله أمرك بالحذر منه والإستعاذة منه لشدة مخادعته وكثرة تغريره وتزويره ، وأنت سادج عن أكثر طرقه ، وقد أقيم داعيا إلى التفرقة والبعد ، وهو لايفتر في إظهار طريقته والدعاء إلى داره لأنه بالأصالة منها ، وليس هنا أنفع من الذكر ولاأحرز من العلم ولا أمنع من العقل . ولايدرك الشيطان من العبد حاجته إلا في حال غفلته ، فإذا داوم اللجاء إلى الله والتاذ بجنابه وكان ذوإيمان وتوكل وإحسان ، وحقق العبودية لسيده ، كان منه ومن كل قاطع في أمان ، ولم يكن لعدوه عليه سلطان ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم**

سلطان﴾ [الآية ٤٢ الحجر] مع التوكل عليه وتحقق الذلة والإفتقار بين يديه ، وكفى بربك وكيلا لمن توكل عليه ، فالشيطان لايملك التسلط والاغوى إلا على أهل الشرك والأهوى ﴿ **إن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ [الآية ١٠٠ النحل] وفيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس . وفي بعض الآثار أن الشيطان شكى إلى شيطان آخرر مالقي من العناء من هذه الأمة أنه طول يومه يتعب في تهيئة المعاصي والسعي فيها ، فإذا كان آخر النهار استغفرالله فغفر له ، فبطل سعيه وخاب أمله منه ، ورجع منه آيسا حتى يذنب العبد ، ولايدري أنه أذنب فيدرك منه مراده . وإذا صدق العبد مع الله في توكله وحقق إيمانه وقام له بصدق العبودية فقد حصل حرزالله وأمانه ، من شره وأعوانه .

ويروى أيضا أن الشيطان قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك لاأبرح أغوي بني آدم مادامت الأرواح فيهم ، قال له ربه : بعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني . فما يزال من هذه الأمة خائبا وسعيه فيهم باطلا لوفور إيمانهم وحسن توكلهم واستقامة عبوديتهم . قال بعض أهل التفسير : أن الفريق المستثنى من الذين صدق عليهم إبليس ظنه أنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهو وإن كان مسلطا مخادعا ضالا فهو لايتعدى حكم الله في عباده بما سبق لهم وعليهم في سابق علمه ، وإنما جعله الله منديلا يمسح به الأقذار عن جناب الله ومدية عن حضرة الإقتدار بصاف إليه

وسبب ، كما يصان عنه ذلك الجناب كالنسيان والإضلال والإغوى وغير ذلك من القاذورات الظلمانية والرذائل الشهوانية . وللتحصن أمور نصبها تحقيقا لعباده من شره ، فأعظمها ذكر الله منه ومن غيره كما ورد : **لاإله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي** . وأسباب العذاب أعماله المبعدة عن حضرة الله .

ويروى أن الذاكرين إذا رفعوا أصواتهم انعزل الشيطان عنهم يبكي ويقول : ياويلاه قد تحصنوا مني . ويروى أيضا أن الشيطان إذا سمع الأذان أدبر وله ضراط وذلك لئلا يسمع الذكر من الإنسان ، فيشهد له يوم القيامة ، لأنه لايسمع صوت الذاكر شئ ويشهد له حتى أعداؤه ، وهو أعداء الأعداء وهو عالم بذلك ، فلم يلبث عند سماع الذكر لئلا يتحمل الشهادة وهو منطوي على الحسد والعداوة للإنسان ، فعليك بالذكر لئلا يتسلط عليك فيملك قلبك فيلقي إليه الشك فيما وعد الله ويأمره بالفحشاء ليجري به في معاصي الله ثم ينظر به الشك في الموعود إلى الشك الموعد ، وينظر به من المعاصي والفحشاء الموقوع في ورطات الجحود ، أعاذنا الله من ذلك وحفظنا وأحبابنا والمسلمين ﴿ **الشيطان يعدكم الفقرويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾ [الآية ٢٦٨ البقرة] فأشار بسعة العلم إلى أنه لم يخرج عنه شئ من الأمرين ، ولي في ذلك شعرا :

إذا علمت أن داعي الشر لم ينم ولايزال لقلب العبد ملـــــتزم
لاتغفلن عن إله الخـــلق أجمعهم الخالق البارئ الموصوف بالصمد
يكفيك همك وهم الحاسب الخصم ويستدر منوح الفتح بالمـــدد

فإذا أردت أن تعرف الحكمة في تسليط هذا العدو الطريد على العبد فاعلم أنه لم يسلطه إلا ليوصلك إليه كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنما جعله عدوا لك ليوحشك به إليه ، وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه)

الحكمة في جعله عدوا لك وتحريك النفس إلى الميل إلى الطبع الجبلي ، وحرك الشيطان بشدة العدو وتحريضه على الإنسان بشياطين الإنس والجان ، فمنهم الرجال والفرسان ، واستئصال المال والولدان ، لتعلم أن لالك على محاربته قوة ، ولالمناضلته عدة إلا الإلتجاء إلى سيدك ليكفيك شره ، فهو القوي القادر الولي القاهرة ، الذي يقهر عن عباده كل عدو باطن وظاهر ، فكان بهذا الإعتبار نعمة من حيث أنك وصلت بسببه إلى صرف عبودية الله التي قطب دائرتها الإلتجاء والذلة والإفتقار ، وعدم الحول والقوة في دفع مانزل ، ووصول كل مراد إلا بالله ، وقد ألجأك به إلى ذلك الحال حيث نظرت شدة عداوته وحرصه على إهلاكك وكثرة جنوده ، ولاطاقة لك على مقاومته إلا بالله فاستعذت به لائذا .

وكذلك النفس حركها وتحركاتها بظفر سائر الأعداء من الشيطان والدنيا والهوى ، فيريد الإلتجاء والحذر ، وتشتد الإستعانة والإستغاثة والإستبصار بالمولى القوي القادر على كل من عاداه ، فكان في ذلك إقبال بكلية العبد باطنا وظاهرا ، فيكون أيضا نعمة عظيمة ومنة جسيمة في حق من رزق فهما لذلك ، لأنه كلما قوي العدو زادت الضراعة إلى الله في دفعه والسلامة منه وذلك مخ العبادة ، والنفس أشد من الشيطان لأن الشيطان لايصل إلا بواسطتها .

رأى بعض المكاشفين الشيطان فقال له : كيف تصل إلى الإنسان ؟ فقال : ياهذا مادامت الشوكة قائمة والكفتان معتدلتان لاسبيل لي عليه حتى تميل النفس إلى كفة الهوى فأتسلط عليه بالإغوى . ولي في ذلك شعرا :

ماجعل الله للشيطان ذي الحسد إلا ليلجيك إلى ذي الفضل والمدد

وحرك النفس كي تقبل إليـه ولا ترى لضعفك دون الله من عـدد

ثم لما أنهى الكلام على العدو البعيد أخذ يبين لك العدو القريب ، فعداوتها للإنسان عتيدة ، وفهم دقائقها بعيدة ، وهي في أصالتها تطلب العلوالمباين لمقام العبودية ، فأمر العبد بردها ووضعها دون مستحقها لتقوم على مستحقها فيردها لها واضعا وسمي متواضعا ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا ، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة ، فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر حقا)

من أثبت أحكم في ذهنه وحقق في مخيلته لنفسه التي نأت به عن حضرة ربه ، وأوقعته في بلقع قاع قطيعته ، وأثبت أن تواضع أي ردها عن علوها إلى محل ضعتها وذل عبوديتها ، فهو المتكبر حقا ، لأن استشعاره الرفعة لها عين الكبر وإن ظهر منها ضد ذلك ، فالشان أن يكون التواضع لها وصفا بأنه لم يردها إلى إلا إلى ماهو محلها فيكون متضعا لامتواضعا فيكون عند نفسه وضيع الأصل لأنه لايشهد عدمها ، ويحمل قدمها ، فبشهودها لأصلها يعرف لامحالة قدرها ومحلها ،فلايكون ردا لها إلا عن غير مستحقها ، وكافا لها عند اعتدائها إلى ماليس لها ، قال الله تعالى ﴿ **أولا يذكر الإنسان أنا**

خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ [الآية ٦٧ الإسراء] إشارة إلى معرفة الأصل ، فإذا كان الأصل العدم والفصل العجز فكيف لايكون وضيعا في نفسه ، ولي في ذلك شعرا :

من أثبت أن التواضع منه مفتعل فذاك كبر كذا يشهده من خبرا
ولكن الشان أنك غير منتـــقل من العدم هكذا يعرفه من نظرا

فإن قلت كيف الشان في التواضع والعبد مأمور به ؟ فنقول : أن تعمل كما قال المصنف رضي الله عنه حيث قال :

(ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى نفسه فوق ماصنع ـ ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى نفسه دون ماصنع)

هذا ميزان يقاس على الدوام يعرف به المتواضع ويظهربه أحوال المتواضعين من المتكبرين ، فالمتواضع حقيقة هو الذي كلما نزل منزلا من منازل الضعة رأى نفسه دون ذلك ، ولايزال كذلك حتى لايرى أنه فوق شئ من خلق الله ، ولايثبت لنفسه حالا ولامقاما ، حتى لو اجتهد كل حاسد وعدو في تنقيصه لم يقدروا على أن ينزلوه من الذلة منزلة ، فلايغضب إذا أوذي ، ولايضجر إذا استسخر به بل يرى ذلك كالعلامة ، ولايكره إذا رمي بكبائر الفواحش أوعظائم الخزايا ، ويرى أنه في الطاعات جار فيها بحكم الفضل ، لايرى نفسه أهلا للفضيلة ولامحلا لحصول وسيلة ، بل يرى صرف منة الله هي التي نالته ، ورحمته وصلته ، فنودي بذلك النظر لامحالة حق الشكر لله ، ويؤمن عليه من غائلات الدعوى وخدائع الإدلال ، والعجب ومعاطب الكبر وصرعات الفخر .

وللمتواضعين في ذلك آثار من ظهور التبذل في الهيئات والإظهار ، فمتى نظروا قلوبهم قد أبتليت بشئ من رؤيتها استعملوا مايناقض ماهي متخيلة ، وإذا اجتهدوا في تغيير الظاهر بحسن النية وثبات العزم هدى الله قلوبهم إلى تعبير ماهي به متصفة ، فالإجتهاد قمين بالهداية ، قال الله ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ جاهدوا فينا شريعة وعملا لنهدينهم طريقة وإخلاصا ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [الآية ١٠ العنكبوت] شهودا وثباتا وحقيقة وعيانا ، واستغراقا وتمكنا ، ولي في ذلك شعرا :

فللتواضع ميزان يقوم بـــــــــه لأهل المقامات تعديل ورجحان
فمن رأى أنه من دون موضـــــعه فذاك حقا هو الميمون ياانســان
ومن رأى نفسه من فوق ذاك فلا تشك في جهله إن كنت يقظان

فلما كانت الأعمال كلها من حيث نسبتها إلى العبد فهي ناقصة لاتخلو عن شائبة العيوب القادحة في قبولها ، ومن حيث ماالعبد فيها بشهود الله فهي النافعة السالمة من شوائب النقص ، ولايكون كذلك حتى يبادي نفسه وقلبه وروحه طوارق المنح الوهبية فتغمره بأنوارها ، فيزكوا ويصلح للتقريب من الحبيب ، ويدخل في زمرة الصادقين ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(التواضع الحقيقي هو ماكان ناشئا عن شهود عظمته وتجلي صفته)

إذا علمت التواضع وشرفه فاعلم أن منه حقيقة ومنه مجاز ، ومنه مايكون مستعملا ، ومنه مايكون اتصاف ؛ فمجاز التواضع هو مايستعمله العبد في ظاهر الحركات والسكنات ، وذلك متوقف على إخلاصه لله كسائر

الأعمال الحسية . ومن التواضع ماهو حقيقة وهو ماذكره المؤلف رحمه الله هاهنا وهو الناشيئ عن لمعان تجلي عظمة الله التي خضع لها كل طائل ، وتصاغر لديها كل كبير ، وقل لها كل خطير ، وتدكدكت لها صم الجبال ، وذابت نفوس الأبطال ، وتهيلت منها الصخور فصارت مهيل . وإذا تجلى نور العظمة على النفوس ذابت ولانت وسكنت ، ومالم يتجلى عليه نور العظمة ولايفارقها الكبر والإرتئاس ومشاركة الربوبية ، ودعوى كمال الألوهية ، فتواضعها بدون شهود العظمة تكبر عند تحقيق النظر وتحديد البصر ، والتواضع الحقيقي هو ماكان ناشئا عن تجلي سلطان الرهبوت وانبساط أنوار الجبروت ، وظهور حقائق اللاهوت ، فعند ذلك يندك تابوت الناسوت ، وتحيا المعالم القلبية ، وتموت الشهوات ، وتخمد نيران النفوس بانسجام سحائب التقديس ، وتذهب صورالتلبيس ، وتضمحل وساوس إبليس ، وتظهر أعلام الولاية وتنشر على جيد الأرواح أعلام الفلاح وآيات الصلاح ، ولي في ذلك شعرا :

إن التواضع حقـــــا كل مانتجت   أعلامه عن تجلي عظـمة الله
لايمحون صفات النفس إن ظفرت   إلا ظهور تجلي وصفه الضاهي

فالكبر وصف في النفس لايمحوه عنها إلا الوصف العلي والتجلي الأزلي ، كما أن الظلمة صفة في الليل لاتفارقه إلا بإشراق نور النهار وطلوع الكواكب والأقمار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لايخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف)

لايخرجك عن إيصاله عدمك وشائعتك ، وتنويه آنيتك ، وحجبته حسك ووصف غيريتك وحكم أثريتك إلا شهود وصفه الكامل الواجب الوجود ،

ونعته بالشروط لا بالإلتحاد كما يتوهمه أهل الإلحاد ، إلا أنه كلما كان أشد تعلقا وتخلقا بصفات الله كان بها أكثر تولعا وتعلقا ، وكلما كان كذلك كان عن صفاته أذهل وأغفل ، فلا يزال كذلك حتى ينسى صفاته ويبقى مستغرقا في صفات مشهوده ، وعن ذاته متلاشيا عند خطفات لمعان ذاته ، ولايكاد له شعور بوجوده لإستغراقه واحتراقه تحت تجليات أنوار موجوده حتى يكون بها ينطق لغيبته عن نطقه ، وبها يبصر لغيبته عن بصره كذلك بقية صفاته ، والوصف الذي يطلب الخروج منه وصف العبد والوصف المذكور ثانيا الذي يطلب التعلق به هو وصف الرب سبحانه ولي في ذلك شعرا :

لايخرجك عن وجود الوصف بالعدم إلا تجلي شهود الوصف بالقدم

إن الوجود إذاماكنت من عـدم يقوم لك شاهد والكل كالخدم

فأول ماتظهر علامات الإيمان على العبد بانكماشه في عبادة الرحمن ويظهر شكر الجنان بالثناء منه باللسان على ذي الطول والإحسان ، والعطاء والإمتنان ، قال المؤلف رضي الله عنه :

(المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرا ، ويشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا)

المؤمن الذي يعرف أنه مستعملا لله بحكم العبودية ، ومجبورا تحت حكم الربوبية ، ولايشهد أن له فيما يفعله من الأفعال الجميلة حقا بل يرى محض تفضيل من الله فلايطلب جزاء بل يحمله صدور الطاعات على يديه على إفراغ الوسع في شكر من من بها عليه وأهله لها ، فإذاشكرها أي النفس

في شئ ، أورأى أنه لها فيه فذلك لامحالة قادح في صدق العبودية ، ودليل على وجود الحجبية .

ومن لوازم الإيمان وشواهد الإيقان في سويداء الجنان أن ينسى العبد حظه في أداء حق ربه كائنا ذاك الحظ ماكان ، سواء دنيويا أوأخرويا يعيده ، لأنه أهلا للعبادة لاهربا من شقاوة أوطلب سعادة . وفي ذلك تقول رابعة العدوية رضي الله عنها : أحبك حبين ؛ حب الهوى وحب لأنك أحب لذاكا . ولي في ذلك شعرا :

إن الثناء على المنان يشغل مـــن إيمانه كامل في الله والقـــــــــدر

عن ان يرى نفسه في فعل مكرمة وضد ذاك هو المطلوب للغـــــير

وحق سيده أقصى مآربــــــــه يغيب عن حظه بل يطلب النظر

ثم بين شاهد الإيمان الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم " **لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مماسواهما** " فقال إذا كنت مؤمنا على ماذكرنا فأنت محب ، وللمحب علامات ، فقال في بعض دلالات المحبين :

(ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضا ، أويطلب منه غرضا ، فإن المحب من يبذل لك ، ليس المحسن من تبذل له)

ليس المحب الطالب مرضاة محبوبه والظفر بغاية مطلوبه يستقل بذل الوسع في كل أمر يقربه إليه ، بل يرى بذله كلية وسعة غاية القصور ، ورضاه عنه منتهى الحبور فضلا عن أن يكون راجيا في مقابلة مايبذله نيل حظ أوطلب جزاء إذا أقبل منه كليته . والمحب يشيرون به إلى السالك الطالب فهو يتعشق ويطلب الحبيب بطريق الأسباب ويقرع الباب ، ويديم التضرع والإنتحاب . وله علامات تدل على صدقه في محبته ، فمن جملة

تلك العلامات الإنكماش بالكلية في مرضاة محبوبه ، لايلتفت في ذلك إلى حظ ، ولايعرج عنه إلى وعظ ، يفرح بوجود البلاء فيه كفرح غيره بالنعمة ، يتلذذ بالدلال كتلذذ غيره بروح الوصال ، يغيب المستقبل والماضي والحال ، يتأله بذكر الحبيب ، تأله الوليد إلى الأم ، فيجري الذكر له مجرى الغذاء ، لايبقى بقية فيه لغيره ، ولايحب أن يكون له في الوجود التفات إلى سواه حتى يعيد في محبته قواه ، فالإلتفات إلى الأغيار والرجوع إلى الآثار أكبر عار عند المحبين الأخيار ، ولايعلقون الأطماع بجنة أوهرب من نار ، بل يخشون من عقار نظير من روحها أسرار نعيم في صورة نار . والمحبة من حيث محبة الله ومحبة غيره فمحبته سبحانه منزهة عن الأعراض وعلامات الأعراض ، بل هي أمر معنوي يستقصي كليات المحب من غير سبب حسي وهي أم المقامان وأعظم الكرامات ، بها قام الوجود وظهر ، وإليها ترجع كليات الأشياء وإليها ينتهي كل معنى سيما وقد جعلها عين معرفته لنفسه ولخلقه ، فتحركت قبضة المحبة في بطن الذات فتعينت الصفات ، ثم في أسرار الصفات فقامت الأسماء مفصحات بأعيان المكونات ومنترحة عن رفيع الدرجات ونظارة المقامات ، ومنازل الكرامات في الجنات ، وبسطت أوراق رحمتها على أكناف الأرض والسموات ، فوسعن الأشياء الحسيات والمعنويات برحمتها وعلمها . وأما من حيث الخلق وإطلاق اسم المحبة فيما بينهم فمرجعها إلى أمور محبوبه موافقة لمزاج المحبة من الألوان وحبل الصفات ولو بالعلم والدلالات ، كمحبة الأنبياء عند من لم يرهم ، والأولياء والعلماء عند أتباعهم ومقتفي طرقهم ، فيحبونهم لما انتقل إليهم من حسن الصفات . وأما ملاحة الصور المستحسنات

فيحبونه أيضا طبعا ، فإذا تقرر لك ذلك فالمحبة لله من خلقه بهذا الإعتبار لاتمايل لأنك إن اعتبرت حسن الصفات انتهت إليه سبحانه سائر الكمالات في سائر الصفات . وكل حسن فمستعار حسنه منها بطريق الفعل لابالذات ، وإن اعتبرت الملاحة فلا مناسبة بين الصور ومصورها ، والمبدعات ومبدعها ، كيف وقد علمت أنه إذا كشف لأهل الجنة في الجنة يندرج في أول نظرة النعيم جميع الجنان ، ويتلاشى في جنبها سائر الذات ، فهو محبوب بكل معنى ، وأقل مايجب من لايطمع نظره إلى هذه الملامح غذاه وقوام جسمه وملاذه الدنياوية ، وبالضرورة يعلم يقينا أنها لاتصدر عن سواه ، ولايأتي إلا من فضله وعميم بذله ، فلا أقل أن يحبه لمايغذاه . قال صلى الله عليه وسلم **أحبوا الله لمايغذوكم ، وأحبوني من أجله** . وللمحبين أعمال ولطائف أحوال ، فمن الأعمال أن لايراه حيث نهاه ، ولايفقده حيث أمره ، يراعي الحقوق في لطائف الأنفاس ومستمر الأوقات . ومن جملة لطائف الأحوال التعلق بذكره والتولع بحبه واستمرا علقم البلاء في جنبه ، فلايعباء بما يناله فيه وإن بلغ غايات التعب ، ولايطلب أيضا في مقابلة صبره على ذلك إحتماله مايتوقع غيره من الثواب ، بل هو وقف على محبته كيف ماكانت الحال . ولي في ذلك شعرا :

إن المحب وإن طالت بليـــــته لايجزعن عن البـــــلوى ولايسأم

إن كان حال عن الحب إرتضى سبب فلم يلم بقلب الصب مـــــــرتسم

لو كنت قد ذقت ماعنفت مرتقيا أن يرعوي عنـك ما نسعت يافـدم

فللمحبين ذنوب بين الخلق لم تكن لغيرهم وأعظمها إلتفات إلى غير محبوبهم أوقصد غير مقصودهم ، فيرحم الله الشيخ عمر بن الفارض حيث قال :

ولي عندها ذنب برؤية غيرها . ولهم معاملات دون غيرهم وهو أنهم يتحرون كلما يزيد في صفائهم وإن قل عند غيرهم ، واحتساب مايكدر عليهم شهودهم وإن كان خطيرا عند سواهم ، يتفقدون مراتع قلوبهم بصدق المعاملة ولطف المنازلة كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون ذلك في مزيد إيمانهم وشهود إحسانهم عند كل آية كما قال سبحانه في شأنهم ﴿ **وإذاما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون** ﴾ [الآية ١٢٤ التوبة] وهذه الزيادة لانهاية لها وهي عند كل إنسان بحسب ماعنده ، فمنهم الكثير ومنهم الأكثر . ومن دلائل المحبة الأنس بالمحبوب والإستئحاش مما سواه إذ لم يحبه إلا من عرفه ، ومن عرفه لم يستأنس إلى غيره ولم يرى في الأكوان وجود الغيرة ، ولي في ذلك شعرا :

إن المحب بأنس الله معـــــــمور   في روضة من رياض القلب محبور
فكيف يأنس أنس دون ســـــيده   أم كيف يسكن إلى الجنات والحور
لو لم يكن ثم منهم غير مكــــــرمة   ومن لطيف الرضا في مشرق النـور
وكشف حجب عن الأبصار قاطبة   ماطاب عيش ولاوصف القواريـــر

فإذا علمت أن المحب هو السالك فلابد للسلوك من تعريف ماهو وماحده ، وهذه حكمة من الله جارية ، وسنة في عباده أن جعلهم سالك ومجذوب ومحب ومحبوب ، وأن السالك أولا ياخذ في طريق التقرب والمحب في طريق التحبب ، ولم تكن هناك طريق حسية لوجوب التنزيه عن التجبر

والتميز والجهة ، فجعل الله النفس ميدان السلوك ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين ؛ إذ لامسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولاقطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)

لولا ماسبق في علمه وظهر في تبليغ حكمه من أنه يظهر سر عبوديته ليعرف كمال ربوبيته ، ويغاير بين مظاهر ألوهيته ليتحقق اتحاد هويته ، فجعل النفوس مظهر سر العبودية ، وجعل فيهاميادين الجهاد ، لأنه أودع فيها من أسرار الجمال وبدائعه وهي في مركز العدم والظلمة ، فما يلي منها جانب الجمال والوجود هو مركز القرب والشهود ، ومايلي منها جانب العدم والظلمة هو مظهر البعد والجحود ، لذلك كانت محل الجهاد ومعدن الضرب والطراد ، ونسل من عمودها حداد الإجتهاد ، وهذا هومراد الصوفية رضي الله عنهم فيما يعبرون ويشيرون إليه من الطريق ، ومواضع هذه الطريق كثيرة بحسب ما أودع في النفس من لطائف الوجود وبدائع الشهود ، كذلك لاينتهي ترقيها عند خروجها عن عالم الظلمات وحجبتها ، ويسمونه الطائفة الذهاب فيه والسير أيضا فيه بعد إنتهاء السير إليه الذي هو التخلص عن حجبها الظلمانية وكثائفها الظلمانية ، فبعد الفراغ عن المنازعات بين عالمي النور والظلمة ، والتخلص عن شدة اللزام وقوة الخصام يكون الإنضمام ، ويعود بدرها إلى التمام فتكون لسائر العوالم إمام في كل مقام ، كيف منتهى محتدها الختام الذي يختم به على كل عالم ومقام . ثم ياخذ في السير فيه به عند التمام فلاغاية له إلى مقام ، ولايعبر عما

وراء ذلك بكلام ، في عالم الديمومية وترقي الختام ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأول مسافات السالكين إلى الله التوبة ، وأول مفاتيح الأحوال الإخلاص ، وأول مفاتيح المقامات المحبة ، وبين هذه مسافات عديدة وأحوال ومقامات إلى مالا يتناهى ، فكل نازل منزل من منازل الطريق أومتحل بحال من أحوال أهل التحقيق ، أوقائم في مقامات أهل أعلى رفيق ، يكون مريدا لما لم ينل مرادا لغيره فمانال ، وكلما كان أعلى كان أشد تعطشا وأوفى طلبا وأكثر إفتقارا وهكذا أبدا . والقطعة التي تمحوها الوصلة الحسية محالة عليه سبحانه كما كان محالة عليه المسافة التي تقطعها الرحلة ، إذ القطعة هي البعد وهي أقرب إليك من حبل الوريد ، والمسافة التي يقطعها الرحلة لايتصور وهو الحائل بين المرء وقلبه ، وأقرب إليه من نفسه ومن كل شئ ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ إذا علمت استحالة هذه الإطلاقات عليه في ظاهر الحس والمعنى علمت أن مراد المصنف كغيره من مشايخ الطريق ، إن المسافة مسافة النفس وهي ترجع إلى معاملات ومنازلات يعبر عنها بعبارات ، فكانت تلك العبارات مفصحة عن لطيف هذه الأعمال ، وتحقيق هذه الإشارات ، وتعدادها يحتاج إلى إفراد كتاب كما أفرده الإمام الغزالي وحقق فيه المحاسبي وغيرهم : كأبي عبدالرحمن السلمي فأفرد لهذه الميادين أعداد كتب وهي حقيقة بذلك ، وجهاد النفس عندهم هو ما انتهى عن مقتضى طبعها الجبلي ، وفنا عالمها الحيواني ، وذهاب داعيها الشيطاني . ولذلك معاملات بها يتوصل إلى ذلك مع توفيق الله وتأييده ، فمن أعظمها وأقدمها أن تعرفها من غيرك ، ممن حقق

علمها وأتقن حكمها من مشايخ الطريق وعلماء التحقيق المتفرغين لإرشاد العباد ، بخفايا دقائق مطالباتها في سائر حركاتها وسكناتها وكليات معاملاتها فينبغي أولا للمريد أن يطلب مرشدا مفيدا يخرجه عن التلبيس ، ويعرفه صحة المقاييس ، ثم يعرض ذلك على نفسه فيراها متلبسة بكل فعل وكل قول وعمل ، ويراها متلخطة لكل قاذورة فيطلب التوبة النصوح ، ويعلمه طرقها وينهج به في سبيلها ، فياخذ في أسبابها ويجد في طلابها حتى تصح له التوبة ، وهكذا يرقيه من مقام إلى مقام حتى يبلغ به إلى أقصى مقام ، فيهذب ظاهره بصحيح كلامه المريد بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويربي باطنه ويغذيه بمنازلات أحواله وهواطل غمايم أسراره ، ويقيه ويحذوه من نار أنواره ، فيصطلي إذ ذاك في غلس ويخاطب من شجرته ويتحلى بأسرته . ومن لم ياخذ على ماذكرنا لايفلح وإن بلغ في المجاهدة كل مبلغ ، ولم يبلغ بل يتعثر في أذيال الهوى ويسدح بفضيع الدعوى ، لايرجع في أمره إلا إلى نفسه التي هو مأمور بالخروج عنها ، فكيف وقد أعلمه باريها وخالقها أن لايوخذ منها كل عدل ، فلو لم يكن إلا ذلك لكان كافيا لذوي العقول الصحيحة . وأما من سلك الطريق ولم يطلب الرفيق فمعرض للآفات والتعويق ، ففي الحديث " **الرفيق ثم الطريق** . والشيخ له علامات إذا وجدت صح الإقتداء به ، فإن كان عنده البعض فيما وجدت بحكمه بالمشيخة فيها ، ومافقدت فتعامله بالأخوة فيما لم توجد ، فمن جملة تلك العلامات العلم الصحيح فلايصح الإقتداء بمن لم يصح له في العلم مقال ، إذ بالعلم يبلغ منازل الرجال ، وذوق صريح فيما يعلمه يكون متصفا لاواصفا ، فعلم الواصف غير المتصف

لاينجع في القلوب ، ولاينقل إلى فتح الغيوب ، وهمة عالية عن كل مايوقف دون الله من سائر المطالب حتى يبرح بين يدي الله فيقول : هانت وربك ولانت وشيم مرضية عن كل فعلة دنية ، لاتعتريه الهموم الدنياوية ، ولايؤذي الجليس ولايوحش الأنيس ، لايرفع أحد السبب ولايطعن في نسب ، يكرم الخلق لله بحسب منازلهم لايتعدى مراد الله فيهم ، مع قيامه بأمر الله عليهم ، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق وبصيرة ناقدة ، ينزل كل طالب على حسب منزلته في غيب الأزل ، ويعلم من المريد خفايا العلل التي تنبوا عنها الأعين الظاهرة ، ولاتدرك بالحاسة الفاكرة ، بل بنور الفراسة التي نطق عنها الحديث حيث قال صلى الله عليه وسلم " **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** " فهذه العلامات من بعض علامات الشيوخ الذي يلقى المريد نفسه ، فإذا وجد من هذا نعته فقد عثر على أعز من الكبريت الأحمر في زمانه ، فلنعض عليه بالنواجد فإنه من الخلفاء الراشدين والهداة المهتدين ، الذين هم خلفاء سيد المرسلين في القيام بدعوته وإحياء سنته ، والهداة بهديه على واضح محجته وظاهر حجته ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾ [الآية ١٠٨ يوسف] وهذه الخصال تحتوي على منصة شرعية وواضح طريقته وصحة حقيقته ، فمن اتصف بها اتصف بها ووجدت عنده فقد حصل على كلية اتباع ، ومن كان كذلك كان داعيا على بصيرة من ربه ، وما أعز من هذا وصفه ، وأغرب من هذه الخصال نعته ، فإنه يحفظك في غيبته وينهضك في حضوره ، ويهديك في سائر أموره ، ويفيض عليك من فائضات نفحاته ، وتغمرك سابغات نظراته . بل كل وقت له من الله الخصوصية

ومزيد ، ينال بركاتها كل محب ومريد من قريب وبعيد ، فإذا حصل لسالك صريح الود في قلوبهم غمرته من الله مزيد الرحمات ، ونالته في كل أوان شوامل البركات ، لأن قلوبهم موضع نظره ، فما ترى شجرة في أرض قلوبهم كيف يغمرها هواطل سموات الصفات في كل نفس وحال ووقت ، فمعرفتهم وحبهم والإقتداء بهم من أجل مواهب الله لعباده . والشيخ هو من شهدت له ذاتك بالتقديم ، ودانت له نفسك بالتعظيم ، وهو الذي إذا واجهتك طلعته البهية غيبت عنك المظاهر الكونية ، ووافقتك أنواره على المشاهد الحقية ، فمن أخذك عن السوى وحضرت بحضوره مع المولى ، وذهبت دواعي الأهوى فهو الذي تسري فيك عبارته ، وتحلو لديك إمارته ، وهو الذي ينطوي عندك مظاهر بشريته ، ويبرح عليك أسرار خصوصيته ، فإذا طلعت عليك أشعة بدور ولايته ، وقابلتك أساريره وعمتك تباشيره ظهر من قلبك ترجمان الولاية ، وأشرقت في ليلك أفلاك العناية ، تبين لك صدق الخبر ومعاينة صحة الأثر ، وشاهدت صورة محكمة تحكيها صور ، فإن قلت من أين أجد من هذا وصفه فاعلم أنه لم يعوزك إلا عدم الصدق في الطلب ، فلو طلبت من يرشدك وياخذ بيدك واضطررت إليه لوجدته في وقتك قائمًا ينادي بباب الحبيب : هل من طالب أديب ، هل من مزمع منيب فالحق قريب ، وطالبه غريب ، فالوقت معمور ولايخلو عن قائم بأمر الله ، موضح بمحجة الله ، ولكن حجاب العادات صد عن معرفتهم والإهتداء بهديهم .

وأما حكم المريد في نفسه فينبغي له أن يكون له الجد في الطلب ولايشوب إرادته بالعلل ، بل يكون قصده طلب رضى ربه والقيام بحقوق ربوبيته ؛

لالينال رفيع مقال وسني حال ، فكل من سلك لينال لم ينال ، ومن سلك إمتثالا لأمر ذي الجلال فحري أن يكرع مناهل الوصال ، ويكون معظم تفقده لخفاياعيوب النفس ودواعيها لئلا يستحلي حال من أحوالها فيكون موقوفا معها . فقد قالوا : فترة المريد خير من وقفته ، فالفترة الرجوع لكن يصحبها الإعتراف فيرجى لصاحبها الرجوع إلى مواطن الإرادة بأن يتوب عما اجترمه . وصاحب الوقفة يقف عند حال من أحواله فيستحليه فيظنه أنه قد حصل على غاية المطلوب فكيف يتوب .

وليراعي المريد شره النفس في ابتداء الإرادة فإنها ربما تكلفه من الأعمال فوق مايطيق ، وتحب ذلك من غامض الخديعة أن تبغض إليه العمل فيطول له الأمل ويثقل العمل ، فقد يعمل مع التحشم ولايجده من حلاوة العبادة ولذتها مايجد من دخل في الأعمال على الإمهال والتثبت في الأحوال . وقد يدخل المريد في بعض الرياضات على حسب ماوجده في كتاب من غير مراعاة للقوانين الشرعية ؛ فيضر ببعض قواه فيتعطل عليه مركبه ويتعسر عليه مطلبه . وقد يوجد في التحلي على غير شرطه ولا إقتفاء فيه واضحة الطريق لجهله بها وبآدابها ، فتظهر أحوال من نتيجة الخلوة غير موافقة لما عليه أهل السنة فيظن أنه قد حصل على المراد ، فيزداد من البعاد والعناد ، وذلك كله حيث لم يسلك على إشارات الواصلين والعلماء المحققين أهل عين اليقين ، العاملين بأسباب الحقائق وقوانين السلوك .

ومن آفات السالك أن يبتلى بالقبول عند الخلق والإقبال منهم قبل أوان الإذن في المقام للتربية ، المؤيد بكمال الإستغراق في الشهود والتحقق بمقام الإنفراد عن مظاهر التعديد ، والبون مع الخلق بالسر مع كونه عبدا من

العبيد ، يقرب البعيد ويفهم البليد وللطالب يفيد وللفساد يبيد ، يرحم الصغير ويوقر الكبير ويشكر القليل والكثير ، روحه في معسكر الملاء الأعلى خطير ، وسره في الجبروت نظير وجسمه في فرش الأرض سمير ، يلقى من الله بالتحيات ، وتغمره أسرار الباقيات الصالحات ، وينوب عنه عند رب البريات في سائر الصفات ، ومن لم يكن كذلك ولم يحظ بماهنالك فإقبال الخلق عليه فتنة . كيف لا والنفس مجبولة على محبة العلو لما فيها من انفجاريته النارية ، فينبغي للصادق إن لم يجد من ياخذ بيده أن يلجاء إلى الله فيما يسر ويعلن في أن يوفقه لما هو المحبوب عنده .

وآداب المريدين في إرادتهم كثيرة فمنها : مايطلب منهم الإتيان به ، ومنها مايطلب منهم الإجتناب . ومن آفات السالك أن يفهم الإشارات للمحققين وينطق بعلومهم قبل أن يستكمل شرائط تحققه ويذوق مايعلمه ، فيظن أن ذلك أي الذي فهمه من الإشارة هو المقصود دون التحقق به فيقف عند ذلك ولايطلب الإرتقاء إلى مرتبة الذوق ، ولي في ذلك شعرا :

لولا ميادين ساحات النفوس لما ... تحققت في طريق الحق أسناها

فالسائرين إلى عين اليقين لهـــم ... من ربهم في منال القرب أعلاها

فلامسافة في بعد يكـــون ولا ... قطع فيمحوا بسير الحسن مثناها

لكن إشارات أقوام لهم همــــم ... في منهج الحق والمقصود علياهـا

فإذا علمت أن الله سبحانه بحكمته البالغة جمع في الإنسان النور من حيث لطائفه الروحانية كالقلب والروح والسر ، والظلمة من حيث النفس والهوى والشهوة ، وجعل فيه متسعا للأضداد المتنافية ، فذلك دليل على

أن أصل الوجود ومظهر الكمال المعبود ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه مشيرا إلى هذا المعنى :

(جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوناته)

جعلك أي صورك وقدرك ، فالجعل بمعنى التصوير والتقدير أيها الإنسان الظاهر في كنائس الجثمان الموسومة بسمة الحدثان ، في العالم المتوسط برزخا محيطا ليظهر تجلي الأسماء ، ويتعين أعيان الملوان ، وجعل لك وجهان : وجه في الملكوت والشهود ، ووجه في الملك والوجود ، وذلك ليظهر سر ماسبق في علمه أنه يخلق خلقا ويظهر فيهم فضلا وعدلا ، فانظر ماذا احتوى عليه هذا الإنسان من عظيم الشان تعلم أنه الكلمة الجامعة والليلة المباركة الذي يتنزل عليها إكمال الأمر على صغر جرمه في العيان ، ووسعه وإحاطته بسائر الأكوان ، فيرحم الله الإمام حيث قال :

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وهنا يفهم سر قوله سبحانه ﴿ **الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما** ﴾ [الآية ١٢ الطلاق] ويرحم الله القائل حيث قال في ذلك :

إذا كنت تعلم علم الحروف فشخصك لوح به أسطر

وتمثال ذاتك أنموذجـــــا لكل الوجـــود لمن يبصر

حروف معانيك لاتقـــتري لذى الجهل كلا ولاتظـهر

ومن يك غرا بأسرارهـــا فمعروفها عنده منـــكر

لئن كان جزءك جزء صغير ففيك انطوى العالم الأكبر

فلا ذرة فيك إلا غـــدت بها يوزن الكون بل أكثر

ولاقطـــرة منك إلا وفي ينابيع أسرارها أبحـــر

فكل الوجـــود إذا قسته إليك فذاك هو الأصغر

وما فيه من عـرض حاضر يزول وأنت به جوهـــر

فأنت الوجود وكل الوجود ومافيك يوجـــد لايحصر

وفيك أشعة لاهوتـــــه من البدر في نوره أنـــور

وشمس المعارف إشراقـــها من الشمس في ضوءها أظهر

لقد ظهرت في سماء القلوب خفايا الغيوب لمن يبصـــر

سماء على قطب توحـيده يذوب اشتياقا فلايقـصر

لها من أشعة برهانـــــه نجوم بإخلاصها تزهـــر

فمشرقها أفــــق سودائها ومغـــــربها سره المضمر

وعرش الصفاء بها مركـــز إليه انتهى كل مايســطر

هناك الملائك تجلى لهـــا وأوحى لها كلما يأمـــر

فقامت بتحقيق مأمـــوره على أنها أبدا تحـــذر

وترتاح مرتع أحـــبابها ولاعجب حيث لاتبـــصر

وعود الحمـــاء إذا زجرت فبرق الرجـاء لهـا مسفر

فـــروض رياضاتها منها وحب محبـــــتها مثمر

وإن أعوز الغيث حصبائها فما لحياء بها يعـــــطر

تمر بها نسمات القـــبول فيبدوا شذا المسك بل أعطر

ويسري إلى سر من عرفها — لطائف تطـوى ولاتنشر
فيسكر ناشق أنفـــاسها — ومن هو مــزكوم لايسكر
يطاف بكاسات آحـــانها — وفي حانها حـلل المسكر
وتبكي بساحات خانـــاتها — مثاني بالذكر لاتفـــــتر
فمن صم عن سمع ألحـــانها — فذاك الشقي هو الأخسر
ومن ضل عن بابها معرضا — فذاك الغوي هو الأحـقر

فإذا علمت ما أومت إليه هذه الأبيات من الأسرار المودعة في الغيب الإنساني ، وما أشارت التسوية في الشبح الجسماني ، فلايمتري أنه لبابه انطوت عليها قشور الأكوان ، فالأقشار اللطيفة السماوية ، والأقشار الكثيفة الأرضية ، والقوى المائية والهوائية والنارية والمعدنية والنباتية والحيوانية ، بين ذلك أن هذا الإنسان كعبة الوجود ومرآة الشهود ومحل نظر المعبود ، وأنه المقصود بالوجود غيره على التبع له ، متوجهة إليه العوالم العلوية بالنزول والإستغفار ، والخدمة بالدعاء آناء الليل والنهار ، والأفلاك والشمس بالإضاءة والقمر بالنور ، هذا لمصالحه في ظاهر خلقته ، وليعلموا ليحيى بالعلم غيب روحانيته . ثم قال جل من قائل ﴿ **ماخلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ [الآية ٥ يونس] فمحا بظهور حقيقة الماحية لظهور ثان معه أوظهير في تأثير لئلا ينخدع القاصر بالإضافة إليها في التأثير ، فمحا تلك الإضافة بقوله ﴿ **ماخلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ [الآيات ٣٢ يونس] أي العدم الذي لايضر ولاينفع ، ولايضع

ولايرفع لمحا ظاهر خلقيتها بظهور ألوهيته بقوله ﴿ **ماخلق الله** ﴾ وطمس باطنها بسلطان حقيقته بقوله ﴿ **ذلك إلا بالحق**﴾ وتوجه أيضا العالم السفلي إلى الإنسان بالصعود إليه والقنوت بين يديه ، فالمعادن إليه صاعدة ، والنبات نحوه مائدة ، والحيوان في تسخيره ساعية ، وهو لم يطلب منه التوجه إلى غير سيده ، فأمر بالعبودية بظاهره له ، وبالإستعانة بباطن حقيقته .

وشرف هذا الإنسان من حيث نسبته إلى الروح الأمرية قال في بعض كلام ساداتنا العلوية الشيخ الفاضل الحبر الكامل ، ذي الفرع الطائل والسيد الواصل : علي بن أبي بكر نفع الله به فيه أي الروح : هو رابع مراتبه ؛ الروح الأمري والسر الغيبي والجوهر القدسي الذي هو حقيقة الإنسانية ، ومحصول زبدة الخلقة البشرية ، الدرة النفيسة المكونية ، لاتشبه الصورة الهيكلية ، ولاتحاكي الخلقة الحسية ، بل هو روح أمري وجوهر نوري وأمر رباني وسر ملكوتي ، وروح غيبي ، مدرك بذاته لايفنى بخراب القالب وفنائه ، ولايموت بموت البدن ، ولايذهب بخراب بنائه ، ولايتوقف عليه إدراكاته وتألماته والتذاذاته بعد موت البدن على كمال حاله المعنوي ، أونقص صفاته في مقتضيات القوة العلمية ، وموجبات القوى العملية التي تتفرع من كمالاتها ونقصانها أسباب السعادت والشقاوات .

وعلى الجملةة اعلم أن الروح الإنساني من الأمور الربانية والجواهر الروحانية التي لايمكن الإحاطة بحقائقها ، والتحقيق بمعرفة كنه ذواتها إلا

بعوارض تميزه عما يتلبس به . انتهى كلامه في ذلك وهو حسن موافق لغرضنا في الكلام على بعض خصائص الإنسان الذي تميز به من سائر الأكوان ، وتشرف به على سائر الملوان . وفيه من كل عالم لطيفة هي لذلك العالم كالروح من الجسد من العوالم العلوية والعوالم السفلية ، فليعرف قدره ولايميل عن ذلك استقامته فتكسف شمسه ، ويوحش أنسه ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو ارؤسهم عند ربهم** ﴾ [الآية ١٢ السجدة] فالعندية حاصلة ، ولكن منهم من ترى هلاله بدرا وليلته قدرا وظلمته فجرا فيعود مروس وبربه مؤنس وبنوره مقتبس . ومنهم من تعود شمسه كاسفة وبدره خاسفة وروحه آسفة ، وهنا أسرار تغيب عن ثواقب الأفكار .

فلنرجع إلى مانحن بصدده فنقول : مابين عالم ملكه وكذا عوالم الغيب حتى تستكمل الشرف ، وتعلم أيضا بأنك جوهر ، فإذا رأيت أن صوان الكون كالصدف فإذا عرفت شرف الإنسان علمت إنما وسعه الكون من حيث الجثمان ولم يسعه من حيث الروح ووصف الإيمان ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إنماوسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك)

فوسع الكون للإنسان بالجثمان من حيث مايلائمه من الحظوظ الحسية لوجود المناسبة بينها وبين الشهوات الأرضية ، واللذات الحيوانية الجسمية ، ولم يسعه الكون من حيث الروحانية إذ الروح لايسكن إلى شئ دون جمال موجدها ، والمثول بين يدي سيدها ، فلا صبر لها عنه ولاسكون

بدونها ، فالقلوب لاتطمئن ولاتأنس بدون ذكر سيدها ، قال الله جل ذكره ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ [الآية ٢٨ الرعد] والطمأنينة هي السكون إلى المستلذ طبعا فلاسكون للأرواح إلى شئ من الأكوان دون مكونها ، فهي أبدا عاكفة على ذكره وشاخصة إلى سني جماله ومتطلعة إلى كمال وصاله ، وليس المراد في عبارة المؤلف بالوسع من حيث الظرفية فهذا مما يستغني عنه العارف فلايعرج عليه ، ولي في ذلك شعرا :

وسعك الكون من حيث المتاع به لعالم الخلق فافهم لطف حكمته

فالروح ليس لها وسع فمطلبها وغاية آمالها تحظى برؤيته

فمن بقي في وسعه الخلقي ولم يخرج عن طبعه الجبلي فهو مسجون مقيد بقيود ومقرن في صفود ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الكائن في الكون ولم يفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته)

الكائن في الكون بكلية مطلبه ومنتهى رغبته ، ولم يفتح له وسيعات ميادين الغيوب الروحانية ، وتبرج العرائس الحكمية ، وتلوح له اللوائح الحسية ، وتشرق على ليله الشموس الوصفية ، وتطلع في غياهبه الأقكار الإسمية ، وتزف إلى روحه المعارف الذاتية ، وتنصب له المنابر الكرسية ، وتنزل عليه مواهب الرحمن العرشية فهو لامحالة مسجون ، وفي صفقته مغبون ، وسجنه هو ما أحاط به من الأفهام العدمية والظلمات الأرضية ، وليس هذه المحيطات إلا حيث تخلفت عنه العناية الأزلية ، استولت عليه الدواعي الهوائية والضلالات الشيطانية والمطالب النفسانية ، فغطت عنه افلاكه وأدلهمت عليه ظلمات أحلاكه ، فبقي محصورا في هيكل ذاته ،

فكلما كانت أكثف كانت الظلمة أشد ، وكلما كانت أوسع كانت تعليق هذه المحيطات أضيق ، وتعود في اليوم الموعود قيود وصفود وإرهاق صعود وزبانية وجنود ، أعاذنا الله منها ، وجنبنا طرائق أسبابها وفتح لنا ميادين القلوب وأورد لنا مناهل الوداد والحب ، وجعل أرواحنا ترتع في رياض معارفه ، وتمتع بشهود مسربلة بسابغات سرابيل جوده ، إنه جواد كريم .
ولي في ذلك شعرا :

الكائنين في الأكـــوان بالطلب ولم يبيح لهم عن منتهى الطـلب
فهم في السجن في الدنيا وغايتها في عاقبة أمرهم في الهم والنصب

فمتى كان الغالب عليه شهود الأكوان واستحسان ملامح الألوان ، فاستدل بانك بعد لم تخرج عنها حتى يغيب عنك وجودها ، ويضمحل عنك شهودها ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(أنت من الأكوان مالم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك)

قد علمت فيما سبق أنك حيث أنت مع الأكوان بالرغبة فيها والطلب لها فأنت مسجون ومحصور ومأسور ، ولم تنفك عنك هذه القيود إلا شهود وحدانية المعبود ، ولم تذهب هذه المحيطات إلا بإشراق أنوار الصفات ، وإذا أشرقت عليك وتحققت بها كانت الأكوان معك لإفتقارك إليه بالطلب والتسخير الإلهي لما قد علمت من توجهها علويها وسفليها ، حيث كنت معه بالقيام حق العبودية والإنطوا تحت تجلي أسرار الربوبية ـ فإذا أخلص العبد عبوديته لربه وتوله في مشرقات تجليات صفاته ، وتعلق بكليته بالتوله في عزيز ذاته فلا شك ان كل من في الكون يتشرف به ، ويتبرك بدعائه ويستأنس إليه كما يستأنس الحب إلى حبه ، فما روي في هذا

المعنى من استئناس الوحوش بهم والسباع ماكاد يخرج عن الحصر ، فالأكوان تتوجه إلى الإنسان بالأمان عند كمال الإيمان ، فمن علامات هذا المقام أن لاينفر عنه المتوحشات من الأنعام ، وتأوي إليه ضواري السباع ، وتشتاق إليه البقاع ، ويطيب بذكره السماع ، وتلتذ بسماع خطابه الأسماع ، وتبري ببركاته الأوجاع ، وغير ذلك من تجلي أسرار الجمال وتلألي لوامع الكمال ، ولي في ذلك شعرا :

مالم يكن عن وجود الكون منخلعا بالله فانت إذا في ظلمة الحلك

وحيث كنت مع المولى فلا حرج أن تملك الكون بالتصريف كالملك

فإن قلت هل يلزم هذه الخصوصية عدم وصف البشرية ؛ قال المؤلف بأثر ذلك مفصحا بالجواب عما هنالك :

(لايلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ـ إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار : ظهرت في الأفق وليست منه ، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك ، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك إليك ، ولكنه وارد عليك)

إذا علمت سر الخصوصية الفائض عن تجليات الصفات العلية كفيضان النور على الأفلاك المضيئة فهل يلزم من شان من أفيضت عليه هذه الأنوار ، وتجلت عليه هذه الأسرار عدم وصف البشرية ، المفصح عن القصور عن المراتب العلية والأنوارالبهية ، فنقول كما قال المؤلف ضاربا لذلك الأمثال ، ومبينا فيه غاية البيان بظاهر المقال ، إنما مثل الخصوصية كإشراق النهار على ليل وجود الإنسان ، فالليل الظلمة العدمية متأصلة فيه والنهار عليه طارئ ، فمتى طرى فلاشك في انعدام ظلمة عدم الإنسان كما

ينعدم ظلمة الليل بإشراق النهار ، ومتى انسلخ عنه النهار رجع إلى عدمه المتأصل فيه ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾ [الآية ٣٧ يس] فافهم هديت ، فإذا علمت صحة هذا المثال وتحققت هذا المقال علمت أن الليل أصلك لاينفك عنك ، وأن النهار ليس إليك ولامنك ، فعند ذلك تعلم سر لاحول ولاقوة إلا بالله الذي هو كنز من كنوز الجنة ، فمتى عثرت عليه فقد حظيت بكيمياء السعادة ، وواجهت حقيقة العبادة ، فالخصوصية لاتدل على عدم وصف البشرية لأن البشرية متأصلة في الإنسان ، والخصوصية التي هي شروق شمس الأوصاف العلية واردة عليه ؛ إذا وردت اضمحلت معها الصفات العدمية وبقيت لها الهمية الأزلية والصفات الديمومية ، ومتى غابت عنه تلك الشموس في سحايب الأقدار وحجبت منه تلك الأنوار بارتفاع مجار الآثار عاد لامحالة إلى أصله ، والصفات العلية أفلاك شموسها المطالع النبوية والسرائر القربية ، والأسماء مطالعها المواضع القلبية والأرجاء النفسية والصوامع الروحية . وأما جمع الذات العلية فلا تقبل فيضانها إلا الحقيقة الأحمدية ولأهل الله الزيادة في كلا الحالين ، فأمافي حال شروق مايخصهم به من صفا تجلي الصفات وتلألي النعوت القدسيات فلئلا تتراكم عليهم كدورات البشريات ، ويحول بينهم وبين محبوبهم حجب الشهوات ، فكشف لهم مايحققهم فناء الأغيار وزوال كثائف الآثار ، ويردون إلى حجبهم في بعض الأوقات ليوفوا العبودية حقها ، وليعطوا الربوبية مستحقها لاليبعدوا بعد ماقربوا ، ويسلبون بعد ما أعطوا ، فليسوا مرادين بهذا وإنما هم في كلا الأحوال مرادون بالوصل ومخطوبون لمشهد الكمال ، وتعبيره للكشف عن الصفات الأزلية والنعوت

العلية بالنهار ، والرجوع إلى مواطن البشرية بالليل من أحسن صنيع لذلك ، ولي في ذلك شعرا :

فليس من لازم التخصيص بالمنن أن لايكون البشر يطـرا على السنن
بل ذاك أصدق شئ في اختصاص فتى وشاهد الفضل والإحسان والمـــنن
إن أشرقت شمس إشراق الصفات على ليل الوجود ترى من غيـــبه الكمن
وإن انسلخ عنه نور القلب عادإلى ظلامه ذاك أصل فيه يافطـــــــن

مبادات أنوار الصفات على المجذوبين من غير ترقب ولابعمل ولا استشعار بل ورود منة منه عليهم فتخطفهم على غير ميعاد ، وتجذبهم لمحتدها من غير ترتيب ، ومقدارماينزلون بها إلى الوجود مؤيدين بأنوارها مهتدين يستدلون بالمؤثر على الآثار ، وأهل السلوك المحبون ليس لهم ذلك ؛ بل يستدلون بالآثار على المؤثر ، لذلك قال المؤلف مبينا لطريقهم ، ودالا على ترتيب منهجهم ، لذلك قال :

(دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه . فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ، ثم يردهم إلى شهود صفاته ، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه ، ثم يردهم إلى شهود آثاره . والسالكون على عكس هذا ، فنهاية السالكين بداية المجذوبين ، وبداية السالكين نهاية المجذوبين ، لكن لابمعنى واحد ، فربما التقيا في الطريق هذا في ترقيه ، وهذا في تدليه)

فهذه الحكمة قسيمة للتي قبلها ، وآخرها لإظهار الستر لسر هذه الحكمتين ، وتفصيل لمعنى الفريقين ، وتبيين لنهج الطريقين . فالحكمة الأولى الذي

ذكر فيها ثبوت الخصوصية التي لايلزم من ثبوتها عدم ظهورها البشرية ، مشيرا فيها إلى أحوال المجذوبين ، وذلك أنهم رجعوا إلى أداء حقوق العبودية ، وإيفاء مقام الحكمة الخلقية حقه وإعطاه مستحقه ، ربما يظن ذوفهم سقيم أن ذلك ينافي اختصاصهم فرفع ذلك الوهم بما فصله في الحكمة الأولى ، وربما ينظر قاصر إلى هذا المقام فيظن أن لا طريق توصل إلى هذا المقام على التمام إلا بطريق الجذب فيترك الإجتهاد ، ولايتهيأ للإستعداد ، فبين المؤلف بالحكمة طريق السالكين ومن أين يكون ابتداء الأخذ في سلوكها ، فقال : دل أي نصب أعلام الدلالة على طريق وصاله وذلك أيضا إمتنان منه إذ هو نصب الأعلام وجعل فيك أهلية المقام وقابلية التعلم والإهتداء إلى معرفة الأحكام ، وجميع ماحوته دوائر الأكوان آثار عن آثار المؤثر فيها ، وأمهات الأسماء أربعة ، وقد علمت إحاطة هويته بجميعها وهي : الأول والآخر والظاهر والباطن ، فكل الأسماء ترجع رجوع الفرع إلى الأصل إلى هذه الأربعة ، والأسماء منها ماهو جمالي ومنها ماهو جلالي ، ودخل في ذلك أثر الفضل عن الأسماء الجمالية ، وأثر العدل وهو عن الأسماء الجلالية ، فصح أن الجمال وصف والجلال وصف من جملة صفات الواحد الحق ، فهويته تندرج في ظهور سائر الصفات ، وأحديته تضمحل عند ظهور التعديدات ، وظهور الآثار تقتضي المعاملة بالعلم ، وظهور الأسماء تقتضي المعاملة بالإيمان ، وظهور الوصف تقتضي المعاملة باليقين ، وظهور الذات يقتضي المعاملة بالشهود والعيان ، فنزول المجذوبين في الأكوان بالشهود والعيان ، لأنه أول ماكشف لهم عن كمال الذات فذلك لايفارقهم في ردهم إلى شهود الوصف فيشهدون الوصف بالموصوف ،

ورجوعهم إلى معرفة الأسماء بالمعروف ، ونزولهم إلى الآثار بالمؤثر مصحوبين بتأييد الأسرار وروح الأرواح وأنوار الأسماء ، فهم محمولون مؤيدون في جميع مايفعلون ويذرون ، مرفوع عنهم العناء ، مروح عليهم من كد المجاهدة ، فلايسلكون بالمريد إلا على المنوال . فأكثر المريدين وصولا أكملهم حصولا من سلك على أيدي هؤلاء ، والسالكون أولا يستدلون بالآثار على الأنوار وبالأنوار على الأسرار ، وبالأسرار على أحدية الواحد القهار ، فنهايتهم إلى ابتداءماينزل عنه المجذوبين ، وبدايتهم في سلوكهم ينتهي إليه تنزل المجذوبين ، لكن لابمعنى واحد ؛ فليس من دخل الأشياء بالله كمن خرج عنها إلى الله ، فلذا في دخولها زيادة بل زيادات ما أودع الحق فيها من حقائق الأسرار ، وأظهر فيها من بدائع الأنوار ، والسالك يتخلص عليها من حيث أنها ظلم وأغيار وكثائف وآثار ، فشتان بين المشهدين وفرق مابين النظرين ، فربما التقيا في الطريق المشار إليها هذا - أي المجذوب يتنزل في معارج الأسرار ، وبروج الأنوار ، وهذا أي السالك يترقى في معارج الأسماء عن دركات ظلمات الأغيار ، وشهود حجب الآثار ، لكن فرق مابين نازل في البروج والمدارج وبين صاعد في العقبات والمعارج ، والسالك على هؤلاء كثير التعني والتكلف لأنهم يسلكون به حيث سلكوا ، ولي في ذلك شعرا :

ذاك الدلـــيل على الأسماء بالأثر	وأيضا على محكم الأوصاف بالغير
والكل دل به بالأمر مقتـــــدر	على وجود ثبوت الذات فاختبر
فلاتقـــوم صفات دون متصف	بها فكـــــن عالم بالعلم فاختبر
فكان قوم على نجب الهوى يطر	وآخرون على الآثـــار والسير

فلما كانت هذه الدار لامناسبة بينها وبين ظهور الأنوار ، ولم يعرف قدرها إلا في دار القرار لوجود المناسبة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(لايعرف قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت ، كما لاتظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك)

لايعرف ، والمعرفة بالشئ هو التحقق بالشئ المعروف على ماهو عليه من الكمال والصفاء والتنزيه وكليات محاسنه ، أماعلما يكاد يكون عيانا ويسمى إيمانا ، وأما ذوقا محققا ويسمى كشفا وعيانا . وأنوار القلوب كما علمت من ظهور تجلي الأسماء والأسرار من تجلي الصفات العلية ، وهذه الدار لاتسع ماهذه الأسماء والصفات عليه من الكمال والصفا ، فسماء القلوب هو متسع الغيوب وذلك الأسرار هو التوحيد عن الأغيار ، كما أن سماء الأنوار الظاهرة التي منها النجوم والأقمار السماء الحسية المطبقة بعالم الملك الظاهر ، فأنوارالقلوب والأسرار لامقدار لها ولاتظهر مشرقات أنوارها إلا في متسعات أقطارها الغيبية ، ولاتجلى عرائسها إلا في قصورها القدسية ، إلا أن لأهل الإيمان نصيب في هذه الدار وهو الذي يحملهم على طلبها ، ويزعج قلوبهم ظهور مشهدها ، ولي في ذلك شعرا :

فليس يعرف مقـدارا لما وعدت   من مظهر أنوار ذاك المنظر الـنضر
إلا بكشف غطاء الأكوان عنه كما   لايظهر أنوار شمس الحس في النظر
إلا على عالم الملك الذي ظـهرت   فيه الكواكب للــــــرائين بالبصر

فللأعمال الحسية شواهد في الحس إذا وجدها الصادقين فذلك بشارة أوأمارة على أن العمل مقبول لديه ، فإذا أثمر في هذه الدار التي لاجزاء فيها

فهو أحرى بأن يثمر في دار الجزاء مالايدخل تحت الحصر ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(وجدان ثمرات الطاعات عاجلا ؛ بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا)

مايجده العاملون على الوفا وحسن الإقتفاء بشائر من الله لعبده وتسكينا لما يجده من خوف القطيعة ، فإذا ظهرت على العبد ثمرات الأعمال من نزول السكينة وحصول الفتوح وتوالي المنوح الإلهية ، فذلك دليل على قبولها عنده ، ويشار إلى ذلك بقوله عز من قائل ﴿ **فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا * ومغانم كثيرة يأخذونا فعجل لكم هذه** ﴾ [الآيات ١٨ – ١٩ الفتح] ولي في ذلك شعرا :

فكل مايظهر المولى على العمل   من روح قرب فذلك منتهى الأمل
إن المزايا إذا كانت مقـــارنة   للعاملــــــين جبر ماثم من خلل

فإذا ظهرت ثمرة العمل علمنا لامحالة أن هذه منة متجددة غير منة العمل نفسه من جملة المنن ، فلايطلب عوض عليه إلا من باب الوعد الصادق ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك)

كيف تطلب أيها العامل استحقاق عوض ماتعمل لاطلب افضال من فضله ، وتصدق من عميم بذله ، فلاحرج على العبد إذا طلب من هذا الوجه بل طلبه بهذا الوصف هو المطلوب منه لأن الطلب لاعلى

وجه الإستحقاق والإدلال هو مقتضى العبودية ، والإستكانة تحت عناء الربوبية . وأما الطلب بالإدلال والعمل ورؤية الإستحقاق عليه فذلك من نعت الزائغة القدرية ، فالعمل من جملة فضله على عبده نفسه من غير نظر إلى جزاء ولاغيره ، فالعوض هو من باب مقابلة الحسنات بأمثالها من الحسنات ، والجزاء هو الإحسان في الحسنات ، فجزاه من الإحسان يمحو الظلم الغيريات ، فذلك في مقابلة الصدق في المعاملة وهو أيضا من هداياه الغيبيات أي الصدق ، فكيف تطلب جزاء على ماهو من هداياه ، واختصاص من عظيم فضائله ومزاياه إذ قال في الحديث القدسي " **أنه سر من سري أودعه قلب من أشاء من عبادي** " ولي في ذلك شعرا :

فكيف تطلب على منك من عمـــــل عوض وذلك من إفضاله العمم

أم كيف تطلب جزا صدق حظيت به فذاك جهل بمن منه الهدى قدم

فالصدقة يشيرون بها إلى الأعمال الظاهرة ، والهدية يشيرون بها إلى الأعمال الباطنة ، ولايخفى مابينهما من تباين المنزلة ، وكان سلوك قوم بالأعمال الباطنة إلى تخليص الأعمال الظاهرة وسلوك قوم آخرين بالأعمال الظاهرة إلى التوصل بالأعمال الباطنة ، قال المؤلف رضي الله عنه :

(قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم ؛ ذاكر ذكر ليستنير قلبه ، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا)

القوم هم الجماعة من الناس كما ورد الولي في وقته كالنبي في وقته ، وقد يطلق على الأمة . وذكروا هنا لتقسم الفريقين وهم المجذوبين المرادين المحبوبين والسالكين المحبين ، وكلاهما على الحقيقة محبوبين مرادين ، وإنما وقع التفاوت بينهم من حيث الخفة والعناء ، ونسبة الفضل ونسبة الإجتهاد

، فالسبقية هي التي شهدت من وصلت إليه نسبة الفضل قبل نسبة الإجتهاد برتبة الإنفراد بالإيجاد قبل ظهور أفعال العباد فعرف أنه المراد بكل مراد ، فلا جرم أن تغيب عنه أوصاف العباد بظهور أوصاف الجواد ، فيسلم من نسبة الأفعال إليه فيسلم لامحالة من آفات الأعمال التي أبتلي بها السالكون والعباد ، ويكون مفاجأ بتحف كل وسيلة ، مخطوبا لكل فضيلة ، محمولا عنه التكلف في سائر الأعمال لأنها تفجأه أنوارها قبل ظهورها على أركانه ، فترتفع عنه الكلفة بما يجده من ثمرة الوارد ، والمجذوب على ماتقرر هو الذي طويت له مسافة الطريق وسخرت له رخاء المحبة فحملته على بساط المنة ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾ فهو من أهل الإختصاص بالفضل والإجتباء ، والسالك هو الآخذ في طريق الإجتهاد والتكلف وإلا فهو السالك إلى الله من طريق الأفعال يترقى بالإستدلال في مراتب الوجود حتى يأتي أبان وصوله ، ويعثر على كنز محصوله ، فيشهد الأنوار بعد تحري الأذكار وتصفية آناء الليل وأطراف النهار ، فوصل إلى الهداية بعد تحقيق الإجتهاد فاهتدى إليه وعرف حقيقة الطريق إليه ، فيستأنف نفسه ومأمنها ، ويأخذ في التعلق والتخلق أحرى حتى يغيب في القرب عنه وعلى مامنه ، ويشهد ماشهده المجذوب أولا أولية الحق في كل شئ ، والمجذوب يرحل عن هذا الشهود في أطوار الوجود ، متطلب لنهاية المقصود فتسير نفائس سفينته برياح جذبته فيصل مستقر الإسم الآخر ، فتظهر نفائس ومفاخر فياخذ في السير فيه به ، فتطلع له شمس البقاء ، وتلوح له بشائر اللقاء ، فيلتف الساق بالساق ، ولي في ذلك شعرا :

قوم لهـــــم تسبق الأنوار أذكار وآخرون ابتدوا منها بها ساروا
فمن ركب فوق ريح الجذب يسلك في ميدان عرفانه باطياره طـاروا

والذكر حقيقة هو ماكان عن شهود باطن ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماكان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر ، أشهدك من قبل أن استشهدك ، فنطقت بألوهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر)

فظاهر الذكر هو الذكر باللسان كما علمت أنها ترجمان عن الجنان ، فالباطن هو الجنان والظاهر هو اللسان ن فكلما تحكم في الجنان شهوده نطق اللسان بوجوده ، والشهود هو أثر نور الوصف ، والفكر هو أثر نور الفعل ، ومحتد نور الوصف هو الروحي ومحتد نور الفعل هو القلب ، فإذا شهد الروح نور الأزل أسرج في زجاجة القلب مصباحا فقابلت الأفعال الخفية تلك الزجاجة فانفتحت أبواب الأفكار في تصاريف الأقدار في مظاهر الأفعال فترى إحاطة القهار فتنطق بالأذكار وتذعن النفوس بالإقرار ، فإذا كان على هذا السبيل سيرك تحققت أنه أشهدك وجوده من قبل أن يستشهدك حقيقة وجوده ، فما شهده إلا نوره ولاعرفه إلا سر ظهوره ، فماذا أراد أن يشهد عنده جعل فيه أهلية لذلك الشهود وهو الوعاء الوجودي الذي يشير إليه أهل الله ، فإن أريد بالجذب كحل حدقة سره بنور اسمه الأول ، وإن أريد بالسلوك كحل سره بنور اسمه الآخر ، وذلك التكحيل هو تجليه سبحانه لأسرار أوليائه في عالم الغيب في الغيب ، فظهر بها بتجلي أحديته وظهور ألوهيته فشهدته الأسرار قبل ظهور

الهياكل الجسمانية ، فلما تلبست بهذه الهياكل الجسمانية طلب منها الشهود بما أشهدها في غيب أعيانها فنطقت القلوب والأسرار بأحديته ، وتقلقلت الألسن بظهور ألوهيته فشهدت بنور الإسم الأول صرف الأحدية وانفراد القيومية ، وشهدت بنور الآخر ظهور الألوهية وعلى هذا المشهد ينزل القول والكلام على الفريقين ، وتظهر آثار الطريقين الذين هم المجذوبين والسالكين بالجمع للقلوب والأسرار ، والفرق في ظواهر الأذكار واختلاف معاني الظهور تحت الحجب والأستار ، ولابد من ظهورهما جميعا فلايتم مظهر الكمال إلا بذلك وذلك أثر حكمته البالغة ، ولي في ذلك شعرا :

تزاحمت لظـــــهور الحق أسماء ... وذاك في حالتي جمع وتفريـق

فمن يذوق عقار الوجـد يصحبـه ... جمع مع حسن تثبيت وتوفيق

ومن يكن سالكا والفرق حالـته ... ويقصد الجمع في علم وتحقيـق

واهل الكمال لهم في الصحو مرتبة ... جمـع وفرق مع نسك وتمزيق

فإذا علمت سبق تجليه سبحانه وتعرفه إلى القلوب والسرائر قبل ظهور تصويرها بأنه الأحد الذي لايقبل التعدد في ذاته وصفاته وأفعاله قبل بروز آثارها ، فلما برزت في حال بروز كثرة الآثار استنشهدها بما أشهدها أولا ، فنطقت بألوهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر ، فمن لم يشهد هذه الأحدية لم يتأتى منه النطق بالألوهية وإن أشهدها لكن لامن قرب نطق كذلك لامن قرب ، وفي ذلك غاية الشان على ما سبق في حقيقة الأعيان ، فإذا علمت أنه لايذكر في عالم الشهادة بالألوهية إلا من أشهده صرف الأحدية ، فاعرف حق كرامته لك من بين أبناء جنسك

أن أكرمك بكرامات عديدة ، ولكن لما كانت لاتدخل تحت الحصر ذكر من جملتها ثلاثة خاصة بالذاكرين ، فقال رضي الله عنه :

(أكرمك بكرامات ثلاث : جعلك ذاكرا له ولولافضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك ، وجعلك مذكورا به إذ حقق نسبته لديك ، وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك)

أكرمك أيها الإنسان من بين سائر الأكوان قبل أن يكون لك ظهور عيان بقوله القرآن قبل وصف الفرقان ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم** ﴾ وأشار بتلك الكرامة إلى ماخصهم به من مزايا الإمتنان وشهادة العيان قبل بروزهم إلى الأكوان بدليل قوله بعد ذلك ﴿ **وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [الآية ٧٠ الإسراء] فذلك التفضيل الذي أتى به بصيغة المصدر إشارة إلى المبالغة في تفاوت التفضيل وذلك فرع تلك الكرامة السابقة في الظهور الخفي الجمعي الصرف ، ثم في التجلي الوصفي ثم في التخلي الفعلي والأثر الخلقي والظهور الجمعي هو قوله ﴿ **ولقد كرمنا** ﴾ والتجلي الوصفي قوله ﴿ **وحملناهم** ﴾ والتجلي الفعلي في الأثر الحقي قوله ﴿ **ورزقناهم** ﴾ وهذه الكرامات التي أشار إليها المؤلف رضي الله عنه من جملة تفاصيل هذه الكرامة الجمعية ، ولكنها من الكرامات الروحية والمواهب الحقية واللطائف القربية جعلك قبل كونك ذاكرا بقوله ﴿ **والذاكرين الله** ﴾ وأنت بعد في عالم صورتك ، ولولا فضله العظيم وكرمه العميم لم تكن لأنه كونك ، وذكر

بالتكوين قبل التايين والتعيين ، ثم تعنيت وتكونت أقل كون من ماء مهين برزت من عصارة طين، وفي عالم تعيينك هباء لم تبين ، أهلك بأن أودع فيك أهلية لذكره وموضعا لنزول أمره ونهيه ، ومن أين لك ذلك وأنت لم تتأهل هنالك ، ولكن بتخصيص فضله بأن أثبت لهم تلك الأخفية ، وهيأهم لتلك الأهلية فقال ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا** ﴾ إشارة منه بقوله كانوا إلى جمعهم في غيب الغيب ﴿ **أحق بها وأهلها وكان الله** ﴾ والكان وصفه بالجمع الذاتي والتجلي الأحمدي ، والإسم تجليه بالفرق الوصفي ، وأعيان الأشياء يتعين هناك ، هنا علمت أن كل شئ على جريان الذكر على الذاكرين في هذا الظهور الخلقي والعالم الملكي دليل الذكر في التجلي الحقي والظهور الوصفي ، وأكرمك أيضا بأن جعلك مذكورا به إذ حقق نسبته إليك ، ولولا تلك النسبة لما كنت ذاكرا ولاظهر لك علما ولاخبرا ولاعينا ولاأثرا ، وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك ، إذ ذكره لعبده هو الذي ينتهي إليه الكرامات سيما إذا حقق له الوصف بالعندية المفنية للمظاهر الغيريات والمحرقة للحجب الكونيات ، فلا أتم منها نعمة إذ من كان عنده مذكور وفي حضرته مشكور لايعلم ماله من الكرامات والزلفى ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ أي ذكر الله لعبده أكبر وأعظم من ذكر العبد له ، فلا يدري أي الكرامتان أعظم أن جعلك ذاكرا له أوجعلك مذكورا به ؟ وأما جعلك مذكورا عنده فقد حقق لعبده منتهى المطلوب ، وأناله غاية المرغوب ، فوصف العندية يقتضي النيابة من الله عن عبده في

سائر الحركات والسكنات في البطون والظهور ، ولاتبقا بقية يكون فيها متسع لظهور الغيرية ، ولي في ذلك شعرا :

أكرمك قبل ظهور الكون منان إذ كنت تذكره وإلا ماانت انسان
وكنت مذكور إذ نالك مشيئته من أنت حتى لذاك القرب إبـان
وعنده كنت مذكورا فذاك لنـا من منتهى غاية التقريب إحسان

قال يحيى بن معاذ الرازي : ياغفول ياجهول ؛ لوسمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لمت طربا . قلت : وصريره والله أعلم عند ذوي الأسرار مسموع لايفارق أسماع قلوبهم ، فلذلك لاتراهم يفترون عن الذكر ولايستحسرون وهم أهل العندية الكائنين في حضورحضرة الربوبية ﴿ **إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون** ﴾ [الآية ٢٧ الأعراف] والساعة من أعمارهم لايوازنها أعمار جمة ، لأن كل نسمة منهم لايوازنها عمل الثقلين ، ومن أين للثقلين أن يكونوا عنده ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(رب عمر اتسعت آماده وقلت إمداده ، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده)

رب تأتي للتقليل والتكثير ، والعمر هو مدة الحياة وقد يكون أمده كثير وقد يكون أمده قليل ، والعمر لايدخل له في الإمداد الإلهية التي يختص الله بها عباده ، والإمداد هي مايفيضه على قلوبهم من مزيد الإيمان ، ويتجلى به على أسرارهم من الكشف والعيان ، وهذا لايدخل تحت الأوان بل إذا اختص الله بها ذوعمر قصير صيرته طويلا منيلا ، وإذا لم

يقسم لذي عمر طويل صار وبيلا ، فالعمر إذا خلي عن الإمداد الإلهية كان حكمه حكم العدم إذا سلم من اقتراف الكبائر واللمم ، وإذا صحبه من الله الإمداد صار من أنفس الذخائر للمعاد . وقد ورد " **خيركم من طال عمره في طاعة الله** " ولاطاعة تزن عنده مثقال ذرة من الايمان فضلا عن شهود حضرة الإحسان ، والطاعة يكون كمالها ونقصانها بحسب ماعند الإنسان من مزيد الايمان . فقد ورد أن الرجلان يستويان في العمل وإن عمل أحدهم إلى جنب عمل الآخر كالذرة إلى جنب أحد ، وماذاك إلا بحسب ماعندهم من الايمان ، والايمان مودع في الفطر والقوالب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل سائر الأنبيا وأمته فضلت سائر الأمم على قصر عمره وأعمارهم بالنسبة إلى أعمار من قبلهم من الأمم ، فذاك بالبركة في الأعمار القصيرة تسير أعمالهم كثيرة ، وعلومهم غزيرة ، وشوارق أنوارهم منيرة ، فبالإمداد وعميم الفضل والوداد جعل لهم بركة السنة في الحج وبركات الليالي في ليلة القدر ، وبركة الأيام في الجمعة ، وبركات الشهور في رمضان ، وبركة ساعات الليالي في نصف كل ليلة ، وبركة ساعة النهار في صلاة العصر في كل يوم ، إلى غير ذلك من المدد على عددالأنفاس والحركات والسكنات ، فلو أخذنا من تعداد ما أودع الله لهذه الأمة من الإمداد لطال وخرج إلى حد الإكثار ، لأن الله سبحانه أودع عالم الإجمال والتفصيل ذخائر الفضل ، وعالم الإجمال إذا ظهر فيه الأمر المحكم أشرق في سائر العوالم التفصيلية كل شئ على حسبه وحسب استعداده يكون إمداده ، وذلك مستمر لا إنقطاع له ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله .

ونعني بعالم الجمال المتلقي للفيض الأقدس المفيض منه الفيض المقدس ، ذلك من حيث ظهور الروحانية هو الروح المحمدي ، ومن حيث العلم هو العلم الأعلى ، ومن حيث الصفا هو الدرة البيضاء ، ومن حيث الفهم والإحضا هو العقل حيث ماظهر تجلى لسمائه ولامته صلى الله عليه وسلم من هذا الجمع نصيب به كانت خيريتهم ، وبه قبلت على سائر الأمم شهادتهم ، وبه نالت مانالت من الفضائل التي لايحيط الفهم بكلية إحصائها . ومن جملة ذلك أن لاينزل مدد زماني أومكاني حسي أومعنوي لطيف أوظاهر إلا وقد شهد الشرع لهم فيه بمودع فضيلة ، فالحمد لله رب العالمين . ولي في ذلك شعرا :

فرب عمر طويل غير ذي مدد ... لم يغن عنه وسيع الدهر والمدد
ورب عمر قصير المد في العدد ... نالته ألطاف ماقـــــوم له الأود

فالبركة في الأعمار هي عمدة الأخيار ، وعليها تدوردوائر الأبرار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(من بورك له في عمره ؛ أدرك في يسير من الزمن من منن الله مالايدخل تحت دوائر العبادة ، ولاتلحقه الإشارة)

من بورك له من الله أيقظ قلبه وبصره بحقائق الأشياء فرأى خزائن السعادة تنادي من قريب ، وذخائر الغيب تقول : هل من مزيد ، ودواعي الحقيقة تقول : هل من مصاف أديب ، فنهض إليها مسرعا وعزم بهمته مزمعا ، فأوفى الحقوق وأقلع عن الآثام والعقوق ، فتدارك من أيامه ماسلف ، وكان كله في كل توجه إليه إقبال ووجه ويد وأذن ولسان وعقل وجنان ، ويكون كله جمع وبصر وسمع ، فلايدخل تحت العبارة

ماناله من منة الله ، إذ العبارة لاتسع إلاظواهر الأشياء ، وأما المنن الإلهية والألطاف الربانية والمواهب الغيبية فالعبارة عنها تنبوا ، والإشارة دونها تكبوا ، فالإشارة والعبارة أغيار صادرة عن إيثارات آثار لايدخل تحتها ماهو صادر عن حضرة قهار ، ولي في ذلك شعرا :

من بارك الله له في العمر ذا الزمن فذاك مخطوب للتقريب والمنن
فلا الإشارة يدري ذاك غايـــتها ولايكيف بالتعبير في العـــلن

فالعمر سلم ترقي في الأرواح وموضع تلقي المواهب والأفراح ، وهو بذر سعادة الأبد أوخسرانه ، وفيه تدرك نفائس الدرجات وتورد فيه مهالك الدركات ، والتوفيق اسم لموافقة العبد لله في سائر الحركات والسكنات لما هو المحبوب المرضي عنده سبحانه ، والخذلان والعياذ بالله ضده وهو مخالفة العبد للمحبوبات وتركه للمستحسنات ومقارفة السيئات ، ومتابعة رذائل الشهوات والقعود عن الخيرات ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لاتتوجه إليه ، وتقل عوائقك ثم لاترحل إليه)

الخذلان الذي هو ضد التوفيق كل الخذلان أي مجمع الخذلان وغاية منتهاه أن تتفرغ عن الشواغل المؤثقة الصادة عن الإرادة بأن تكفاها وتزاح عنك وتنقطع عنك أسبابها وتغلق دونها أبوابها ثم لاتتوجه إليه ، لأن من حق العبد الأخذ في قطعها وحسم أبوابها ليتهيأ له حسن التوجه ، فإذا لم يأخذ في ذلك كان ملوما وحاله مذموما ، وأما إذا انقطعت عنه من غير تعمل في ذلك ثم ترك التوجه إليه ، وقلت العوائق المؤثقة عنه ثم لم ترحل

إليه ، فما أجدرك بالندامة إذا وردت عرصات القيامة ، فمن حق العبد أن يرمي بالشواغل الصادة له عن الإقبال ، ويبتدر فرصة الإمهال ، ويطرح العوائق المؤثقة عن معشوق الجمال ، والحاجبة عن عاليات الأحوال ، وأما أنه بنعم الله عليه يقطعها ثم لايتوجه إليه أولى بأن يزجر أوراك العزائم ، ويشد حل أرائك الهمم ، وإلا فقد باء بندامة على ندامة ، ولي في ذلك شعرا :

من باينته شواغل كل نـائبـة   ولم يواجه بكل القلب مـــولاه
فذاك خذلان لا تعقبه مكرمة   بل حسرة بحريق الفوت تصلاه

فإذا تفكر العبد فيما ينيله الله من جزيل ثوابه ويقيه من وبيل عقابه نهض لامحالة في طريق العزيمة ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه في هذا الفصل :

(الفكرة هي سير القلب في ميادين الأغيار)

الفكرة التي هي نعت ذوي الأسرار الصافية والعبارات الوافية التي أمر الله بها تصريحا وتلويحا في محكم كتابه ، ونبه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في فصيح خطابه ، قال الله سبحانه ﴿ **أولم يتفكروا في أنفسهم** ﴾ [الآية ٨ الروم] وبتلك الفكرة يصل العارفون إلى صريح التوحيد في مواضع التفريد ، ويجمع متفرقات التعديد ويشاهد قوله في الآية نفسها ﴿ **ماخلق الله السموات والأرض إلا بالحق** ﴾ فعلى ذلك الكنز عثر المقربون فرأوا ماذا بعد الحق إلا الضلال والضلال هو العدم ، فانظر كيف سارت أسرارهم في نجح أفكارهم وأقلعت بهم في بحار الأكوان حتى أبانت

لهم نهج الحق الظاهر ونور القدس الباهر ، وعند ظهور ذلك تنقطع الفكر وتمحي الغير ، ويذهب شهود العبر والأثر ، والفكرة تكون بحسب المتفكرين ، فقوم يتفكرون في انصرام الدنيا وإدبارها وشرف الآخرة ودوامها فيحملهم على إيثار الشريف الدائم على ضده ، وقوم يتفكرون فيما أعد الله لأهل الجنان من الدرجات بحسب ماهم عليه من القيام بوظائف الطاعات واجتناب الهفوات ، فيحملهم ذلك على بذل الوسع في طلب ذلك ، وقوم يتفكرون في آلائه وحسن جماله في عطائه وبلائه فيحملهم ذلك على ازدياد المحبة للحبيب ، وقوم يتفكرون في تلوين الأنوار في الأطوار فيحملهم ذلك على حسن الإستبصار والأفكار في عجائب صنعه في الأقطار وتقلب الليل والنهار ، وبذلك تنجلي عن القلوب كثائف الظلم والأغيار ، وتفتح أبواب الغيوب والإعتبار لذوي الأبصار ، فاعتبروا ياأولي الأبصار . فإذا كان هذا من بعض أقسام الفكر علمت شرفه وأنه مخ العبادة كما ورد بذلك الخبر ، وهذا كله أي الفكر لايكون إلا في ميادين الأغيار ومطالعة الصور والآثار لافي ذات الواحد القهار ، ولي في ذلك شعرا :

الفكر سير قلوب السالكين إلى ... نهج الحقيقة والتوحيد في الغير
فيستدلون بالأشياء عليه ولا ... يكون في ذاته بالكيف والحصر

فالقلوب إذا خليت عن الأفكار انطمست بظلم الأغيار لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له ، الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان ، فالأولى لأرباب الإعتبار ، والثانية لأرباب الشهود والإستبصار)

الفكرة التي خص عليها وندب إليها ووقع المدح لصاحبها سراج القلب أي نوره فيها تعلوا تباشيره وهي الفكرة في عواقب الأمور ، والفرق بين الظلمة والنور فيما عليه العوالم تدور وفيما صاروا إليه أهل القبور ، وفيما يناله أهل الحبور والقصور ، وبما حظي به أهل الحضور من رفع الستور ودوام الحضور ، فبهذه التجارة التي لن تبور تشرح بأنوار الحضور في الصدور ، إن النور إذا دخل القلب انشرح وانفسح ، الحديث بطوله ، فإذا خلي القلب عن هذه الفكر ولم تباشره هذه الغير فلا إضاءة لإنطماسه وانحباسه في محصور أجناسه وأساسه ، ولكن الفكرة فكرتان كما قدمنا ذلك : ففكرة تصديق وإيمان وهي فكرة العباد والزهاد بما وصل إليهم من سماع قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ [الآية ٢٤ الأنفال] فأجابوا دعوته بالتصديق والإيمان فعبروا عن المشاهد من الأمور إلى الغائب ، وفكرة شهود وعيان وهي لذوي الشهود والإستبصار الذين باشر نور العلم قلوبهم ، وغمرت أنوار الشهود أسرارهم وهم المعنيين بتعليم الله لهم في آخر الآية حيث قال ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ ولم يكونوا عالمين بذلك حق العلم إلا باستهلاك سائر القوى منهم ، وفناء سائر الأحوال يتجلى أنوار الآزال ومالايداخله

المثال ولايحول حوله المقال من تجليات محرقات الجلال ومشرقات الجمال ، ولي في ذلك شعرا :

الفكر في القلب نور يستضاء بـه　　شهود نور وجود الحق فاعتـــــبر
وكل قلب خلي عن ذاك فهو على　　طمس العدم قط لم يخرج عن الغير
والفكر أيضا على قسمين فاعلم بأن　　القول يحكم باستبصار ذي النــظر
وكل من كان تحت الحجب يعلمـه　　بصدق إيمان تحقيق وبالعـــــــبر

وبعد ما أنهى الكلام في الفكرة أخذ يتكلم في نتيجتها وهو مايفتح من حسن المعاملة لله على صدق العزيمة وتجريد الهمة . ومما كتب به لبعض إخوانه بقوله : فإن البدايات محلات النهايات في كل الأمور ، فمن كان مبارك البداية كان ميمون النهاية ، ومن كانت بدايته بالله كانت إليه نهايته ، وكل مبتدي لأمر يكون انتهاءه إليه وتظهر ثمرة ذلك المقصد عليه كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(وأن من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته)

ومعنى البداية بالله أن يكون في أول كل أمر يبدأ فيه شاهدا لحوله وقوته كما ورد في الحديث "**كل أمر ذي بال** ، أي حال يهتم به **لايبدأ فيه بذكر الله فهو أجذم** " أي مجذوم مقطوع البركة ، والمريد الصادق إذا كان في أول بدايته مستعينا بالله دام سلوكه ووصل بغيته ومراده ، وهو انكشاف الأمر له شهودا أوعيانا بعد أن كان علما وإيمانا ، ومن كان أول بدايته بشهود نفسه وما منها انتهى إلى عجز وعدم ، فإذا كان المريد مستعينا في جميع حركاته وسكناته في بدايته على الغيب لاعلى الكشف انكشف له في نهايته حقيقة ذلك على الشهود والعيان ، فيبقى

قرير العين متسع الجنان لما يجد من ورود روح الرحمن الوارد بالتأييد على ممر الأزمان ، ولي في ذلك شعرا :

من كان بالله مبدا أمره فكـــذا يكون لله غايات النهايـــــات

ومن يكون على الأغيار معتمـدا فلم يحقق تحقيق البــــدايات

والسالكين على نهج السبيل لهم علم وعين وحـــق مستقيمات

فالعلم غيب ونور العين يكشفها للحق من وصفه المصيون آيات

وإذا كان المريد مجموع لهم عاكف السر على الله شغل لامحالة عن الأغيار وذهل عن الآثار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(والمشتغل به هو الذي أحبه وسارع إليه ، والمشتغل عنه هو المؤثر عليه)

ومن علامة تحقيق البداية للمشتغل به عما سواه ونفي كل شاغل إلا إياه مع المحبة والطوع والمسارعة إلى المحاب من غير ملل ولاسآمة ، فعلامة كونه محبوبا لك الشغل به عما سواه من جميع ماتحبه وتهواه وإيثاره على ماعداه ، وعلامة المشتغل عنه من المحبوبات الغيرية هو المؤثر عليه ، هذه علامة دالة عل إيثاره على الأغيار ولاتؤثر على محبوباتك الجبلية إلا إذا عرفت شرف ما أنت تطلب وترغب فيه من المشاهدات الروحية والتدليات اللطفية ، فلاشك يهون مفارقه وتؤثره لامحالة على كل مرغوب ، والشغل به هو طلب التحقق بمكارم الأخلاق والتعلق بمشاهدات الإلهية ، والخضوع لعظمة الربوبية ، والإنطوا والإستكانة في كهف العبودية مع المحبة لذلك والإغتباط به والمشتغل عنه هو الحظوظ والشهوات الأرضية

والطبائع الحيوانية ، عرفنا الله قدر مانطلب حتى يكون كل انشغالنا طلبه فنشتغل عن الحظوظ العاجلة ، ولي في ذلك شعرا :

فالشغل بالله دأب الصادقين فما لهم إلى غيره في الكون تعويل

يرون في الناس شعث لامقام لهم مابين أظهرهم غـــبرا مجاهيل

لايرثرون على المحبوب كان لهـم شغل عن ماسواه إلا مشاغيل

فاليقين أساس مباني المقامات والتوكل ثمرة شجرة الفتوحات ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه عاطفا على ما أسلفه من الكلام في هذا المقام :

(وإن من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه ، ومن علم أن الأمور بيدالله اجتمع بالتوكل عليه)

فمن أيقن واليقين ؛ هو السكون وعدم الإضطراب فمن أيقن أي استقر يقينه وتمكن إيمانه وباشر سويداء جنانه أن الله يطلبه بالوفاء بحق الربوبية ؛ صدق لامحالة في طلبه بأداء العبودية على أكمل وجه وأتم هيئة لما شاهد من عظمة الربوبية وكمال الألوهية ، فيحمله الحياء لامحالة والحب على الوفاء ويحثه على مباردة الصفا ، ويحمله على ترك الجفا فيوفي بهذا المشهد حق شريعته . ومن علم العلم الحقيقي الذي شاهده الخشية وهو ما كان من فتح الغيوب في لطائف الأسرار والقلوب ، الأمور الصادرة من خير وشر ونفع وضر وموت وحياة إلى غير ذلك من مقتضيات الشئون ، وآثار الأسماء بيد الله أي إرادته وقدرته وأمره وماهو مراده عنده في غيب علمه ، فاليد معلومة والكيفية مجهولة والسكوت في مثل هذه المتشابهات حسن محمود ، وردها إليه عند السلامة من المعارضات ، وأما أذا أحتيج

لتأويل لرد مبتدع أولم يجد الإنسان طمأنينة فيعدل إلى مثل هذه التأويلات ، فإذاعلم ذلك الإنسان علما قويا ثابتا حمله ذلك على التوكل على الله لامحالة ، والتوكل على الله هو عبودية القلوب لله لما يلوح للقلوب من لوائح الحقيقة ، فالإضطراب مع لمعان تلك السحاب خطا ويسمونه في تقسيم طريقه شهود صرف الحقيقة فيؤفي الحقيقة في ذلك المقام كما وفا بحق الشريعة في مقام الإيمان الذي عبر به باليقين ، ولي في ذلك شعرا :

من كان يوقن بأن الله يطلبه　　صدق له في مبادي ظاهر الطلب
ومن علم منه أن الأمر محكمه　　بيد الإله سلم من مـــورد العطب

وعطف أيضا بقوله على كلامه المتقدم :

(وأنه لابد لبناء هذا الوجود أن تهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه)

وأنك أيها الإنسان لايحزنك مايفوتك من هذه الحظوظ العاجلة واللذات الفانية والخيالات الكونية ، فإنها لامحالة أن تنهدم هذه البنيان المشيدة ، وأن تبيد هذه المحاسن العتيدة ، وتتفرق هذه الجموع العديدة ، وتفنى هذه الوجوه الناعمة النضرة ، وتزول هذه الروائح العطرة ، وتسلب الكرائم المحبوبة فتيتم الولدان وتجدد الأكفان ، وتتغير الألوان ، وترمل النسوان ، وتنتهب الجثمان طوارق الحدثان ، وتفرق الجموع وتذرف لفراقه الدموع ، وتبيد مجموع جسمه من الشتات سحائب هموع ، فكيف لايسلى عما هو عن قريب صائر إلى الفناء والشتات ، وإذا علمت أن هذه الملاذ المحبوبات لابد أن تزول عنك أوتزول عنها ، فلاجرم لاتعبأ بما فاتك منها إن كنت ذا عقل سليم ، ولي في ذلك شعرا :

لابد هذا البنا المشهود ظاهره أن ينهدم منه بنـــــيان وأركان
وكل ماكان من جمع يسر بـه سلب كرائم مافي الكون ياانسان

فإذا كان العقل سليما نظر في عواقب الأمور وبواطنها فلم يغتر بظاهر زينتها ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بماهو يفنى ، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره)

العاقل حقيقة من كان بما هو أبقا وهو الجزاء الأخروي الموعود لمن صبر عن هذه الدنيا الفانية وليس كذلك إلا الزاهدون كما أفتى بذلك إمامنا الشافعي رضي الله عنه حيث قال : **لووقف على أعقل الناس صرف إلى الزهاد في الدنيا** . قد أشرق نوره في سويداء قلبه كما ورد : أن النور إذا دخل الصدر انشرح بمعنى اتسع ، ولايتسع إلا بالنور عليه من الله ، وهو الذي أشهده بواطن الأمور وعواقبها لأنه نزل منه في الباطن ، قال الله ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ [الآية ٢٢ الزمر] وظهرت على الباطن تباشيره فأشرق على ظاهر البشر أنوار التباشير فتركت الأعمال والأقوال وحسنت منه الأحوال ، وأشرقت ظاهر الزجاجة وانبسط عليه شعاع المصباح ، فظهر على ظاهره شعاع الصلاح ، ولاح على وجهه شاهد الفلاح ، فتظهر منه أفعال حميدة وصفات جميلة ، ولي في ذلك شعرا :

العاقل الكامل الفـــرد الذكي إذا لم يؤثر الفاني الداني على البـاقي
قد أشرقت في سويداء القلب نور وما على الظـــواهر من آثار إشراق

أضا بزيت في المشكاة منه فمـــا   في القلب يظهر في سمع وأحداق

ومن علامات وصول النور إلى الصدر ماذكره المؤلف وهو مقتبس من معنى الحديث ، لذلك قال :

(فصدف عن هذه الدار مغضبا ، وأعرض عنها موليا ، فلم يتخذها وطنا ، ولاجعلها سكنا)

هذه غاية النفرة عن الدنيا وهو الصدوف يحتمي مسالكها ويجتنب مواطنها ولايوالي أبنائها ، وأهل الرغبة فيها قد غضيا عين قلبه عن زخارفها وقذا آفاتها لئلا يصيب قذاها عين بصيرته فيختلط نظرها ، ولحدقة البصيرة المنيرة أولى بالصيانة من الحدقة الظاهرة إذ بالحدقة الظاهرة ينظر الأغيار الفانية ، وبالبصيرة يشاهد الأسرار العلية والمقامات الأخروية ، وأعرض بظاهره موليا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه الأنصار فعرض بوجهه عنها فيقولون يارسول الله : إنا نعرض عليك كرائم أموالنا لتنظرها ، فيقول صلى الله عليه وسلم : إن ربي أمرني أن لا أنظر إلى زهرة الحياة الدنيا ، فقال جل ذكره ﴿ **ولاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾ [الآية ١٣١ طه] أوكما قال . فلم يتخذها وطنا بل كان كالمسافر العجل إلى الوطن المحبوب كما قال القائل في ذلك :

مستوفزون على رجل كأنهم   وقد يريدون أن يمضوا وقد رحلوا

فالإعراض عنها والتولي دليل على الإغضاء بالقلب عنها ، بل شهد الآخرة اقرب إليه منها ، وكان بكلية إهتمامه مقبلا عليها ومؤثرا لها ، هذا

نظر أولي العقول والعلماء الفحول ، تحروا فيها نظر أولي الألباب ، واقتفوا آثار الأنبياء وسادات الأولياء الذين لم يستوطنوها كما قال قائلهم :

إن لله عبـــادا فطنا　　طلقوا الدنيا وخافوا الفتـنا
نظروا فيها فلما علموا　　أنها ليست لحي وطـــــنا
جعلوها لجة واتخـذوا　　صالح الأعمال فيها سفـنا

ولي في ذلك شعرا :

قد أغمضوا عن زخارفها ومانظروا　　لزينة بل على الأغيار قد صـدفوا
وأعرضوا عن ظواهرها وماوقـفوا　　وباينوا كل مألوف قد اقـــترفوا
وخامرت قهوة العرفان فاتصفــوا　　بعالم القدس والتحقيق فاعترفـــوا

فإذا عرف فناء هذه الدار واضمحلال الأغيار لم يقر لمطية عزمه قرار ، وأنهج نهج الحقائق والأسرار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(بل أنهض الهمة فيها إلى الله ، وصار فيها مستعينا به في القدوم عليه)

هذا أصح طرق المريدين وأنجح وسائل السالكين ، وذلك بأن يجعل الله لهم همم علوية تنهض بهم إلى الأخذ بالكلية إلى المنازل القدسية والمشاهد الحقية ، ومع ذلك هم فيها مستعينين به فيما هم بصدده من الإنكماش في العبادات ، والتخلق بالأخلاق الحميدات ، واجتناب مصائد الشهوات ومعاطب الهفوات ، فهم قائمون بظواهرهم بكمال العبادات ومباينين حبائل العادات ، ومستمسكين بقلوبهم وأسرارهم بورود الألطاف وسوابغ المنن وتنزل الرحمات ، ونزول البركات والمعونات من خالق البريات . فمن كان بهذه الحالة فقد أدرك خالص الإرادة ونال ثمرة السعادة

ولم ينقطع عن الله بمألوف العادة ، فالحكم المتقدم ذكرها للمريد في التجلي وهو لم ياخذ في السير إلى الله . وقوله : بل انهض الهمة فيها ؛ أي الدنيا لأن فيها ميدان السلوك وهذه أي أنها ابتداء في السير وهو الأخذ في التجلي ويكون مستعينا في ذلك بالله ليصل إلى نيل بغيته وغاية مقصده ، لأن من كان بالله استعانته توالت من الله إعانته ، وإذا لم يكن من الله إعانة لم تغن عنه ظواهر الأدلة ولم تنفعه إضاءة الشموس وأنوار الأهلة ، ولي في ذلك شعرا :

من بعد مايخلي الإنسان ساحته عن الشوائب والأشغال بالغـــير
لاشك أن السبيل الحق بان لـه وشاهد السر مبسوطا على الصور

فإذا صحت هذه الحالة التي هي الإعتماد على فضل الله وإعانته لم تزل مطية العزم في السلوك جادة كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(فمازالت مطية عزمه لايقرقرارها دائما سيارها ، إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس ، محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة ، فصارت الحضرة معشعش قلوبهم ، إليهايأوون وإليها يسكنون)

فحيث كان المريد كما وصفنا من ظاهرته عن الأكدار ، وتخليه عن الأغيار ، وتصفيته عن كدر الآثار وكان مع ذلك آخذا في السير في أطوار الوجود قاصدا التجلي والشهود ، مازلت عن المقصد ولاحالت عن الطريق مطية عزمه ، ونسبته عزيمته وقوته أردنا بالمطية ، والمطية هي النجيبة من الإبل المختارة لقطع المسافة البعيدة في المدة القريبة ، وليست كل الإبل كذلك بل لا تسمى مطية إلا التي تستمطي السير وتمطي له من

بين الإبل لقوتها وصبرها ، فهذه عبارة حسنة كما هو عادته في كلامه الإستعارة في الأمور الحسية للأمور المعنوية ، ليفهم ذلك كل السامعين ، ويقرب إلى الأفهام معنى الكلام ، لايقر قرارها ؛ والقرار هو السكون والركون ، وعزيمة الصادق لاتسكن ولا إلى شئ دون المراد ، ومرادها ومنتهى مقصدها هو الكون في أطوار وأنوار التجلي والحضور ، ورفع الحجب والستور دائما في سيارها ، لم تقطع سيرها العوارض ولاتقيد العوائق ، فلم تزل كذلك جادة في السير قائلة : **لاضير إنا إلى ربنا منقلبون** ، إلى أن وصلت إلى غاية المراد ومنتهى قصد القصاد ويحل كرامة الرائدين والوفاد بفائضات المواهب والإمداد ، وحيث تنتج نجائب الطلاب بباب المفضل الوهاب ، وحيث يواجه الأحباب بالتجلي والخطاب ، وحيث يرفع عن الحبيب الستر والحجاب ، وحيث يؤذن بالسؤال والحجاب ، نهاية سير الهمم واستبانة الطريق الأهم والمنهج الأقوم ، وتجلي الأسرار وشروق أنوار الحضرة القدسية عن لوث رؤية الأغيار ، المنزهة عن كثافة الآثار ، حضيرة القدس والتقديس هو التطهير ، والقدس هو المحل الظاهر الأنفس الأعز ، وعند الكون في هذه الحضرة القدسية والرتبة الأريبية تظهر أسرار وشوارق أنوار فينمحي عن أنيته ويغيب عن شاهد عينيته ، فلايبقى له أثر ولايسمع له خبر ، فتتخلف هنالك عنه آثاره وتمحي عنه شواهد أفعاله وأوصافه ، فيأخذ في السير فيه بعد السير إليه .

وأشار المؤلف رحمه الله إلى بعض مايتجلى للواصلين من سنيات الأحوال وبساط الأنس ، فالإشارة بالنشاط إلى التجلي في حالة البسط وهو مايبسط الله لعبده من أسرار التولي والألطاف ، والتجلي مايحول

بينه وبين ربه وجود الأغيار وظهور الآثار ، فلايشهد جنة ولانار ، ويدار اليسرة على عقار تحت ملابس وخمار ، فيختار ولايعرج على سكن ولادار ولا أهل ولاعقار ، بل غريق في بحار لاتبين فيها الجهات والأقطار ، ومستبدل بالأنس عن الأنس فيوانس بأنواع ملاطفات ولذيذ محاورات وخفي مسارات وشهي مسامرات ، محل الفاتح بفتوح العلوم اللدنيات ، والخزائن العرشيات ، والذخائر الوصفيات ، والمعاني الذاتيات ، والمواجهة بالتجليات الوصفيات ، والمحاسن العليات في العلوم الجبروتيات ، والغيوب العرشيات ، والمجالس في الحضائر الذكريات **" أنا جليس من ذكرني "** والمحادثة بانكشاف معاني الكلم القدسيات ، والإشارات القربيات ، والمخاطبات الروحيات ، وانتشار مااستودع في الذوات من الخطاب في عالم الذرات ، يوم **ألست** بما كان وما هو كائن إلى يوم نشر الأموات وجمع الشتات ، ونشر الصحائف بالحسنات والسيئات ، والمشاهدة للتجليات الوصفيات ، والمطالعة للأنوار الذاتيات .

فإذا كان كذلك فلاشك أنه بين المشاهدات والمخاطبات لم يبق له بقية إلتفات إلى ماض ولا إلى آت ، بل صارت الحضرة لقلبه دار ولسره قرار ولروحه عقار ، فالإشارة بالمعشعش الذي هو مسكن الطير أولى من التعبير بغيره ، لأن القلب من العالم السماوي الروحي ، وأهل ذلك العالم موصوفون بالأجنحة أولي أجنحة ، والطير لاتسكن في غير وكرها ، ولاتقر دون معشعشها ، فإليها تأوي وفيها تسكن وتثوي ، إذا آوت النفوس إلى الشهوات وسكنت بالأسباب الدنيويات ، وتقيدت بالعادات الطبيعيات ، فأرواح الواصلين متنعمة في تلك الحضائر الأزليات الدائمة الأبديات ،

لايخشون من انقطاعها عنهم ولا انفلاتها منهم ، إذا صلي بحرارة الفراق وأقلق للمساق عن الأهل والمال من كان لها عشاق ، عند بلوغ الروح التراق ، فيحترق سره بنار الفراق وخوف الإشفاق مما هو لاق .

فهذه عبارات مليحة من بعض معاني يفتح الله بها على الصادقين ، وينتهي إليه سير السالكين ، فإن كان الله يريد أن يرجعه للإرشاد ويقرب أهل الإشقاق والعناد ، ويطوي برؤية المسافات البعاد ، ويوصل له إليه طوائف الزهاد والعباد ، أنزله في الوجود مسربلا بملابس الأسرار ، ومؤيدا بشوارق الأنوار ، ينزل في الأطوار ويتخلى عن الآثار بنور في صورة نار تحرق كثائف الأغيار ، ويلبس تجلي اسمه القهار ، فيقهر الظلم والأشرار ، وإن شاء سبحانه جعله غريق التجليات والأنوار ، فلاتسمع منه الأخبار ، فإذارد إلى الأغيار أناح بعد الإصطبار ، ردوا إلي حبيبي إلي فليس له عني اصطبار ، ولي في ذلك شعرا :

مطية العزم للعبادمقـــــــبلة فلم يقر بها من دونها الغـــــــير
مديمة السير عن ساق بلامهـــل ماعاقها حر هجير لا ولا مطــــر
حتى أناخت على عليـــا مقدسة وبسط أنس محـــل الفتح والظفر
وواجه القادم الوجه العــزيز وفي ذاك التجلي بــروق الناظر النضر
وجالس الضيف إكراما ولاطفـه طيب الحديث تمام الأنس بالسمر
وطالع أوصاف ما في الصون منكتم عن العيون وشاهد بره النظـــــر
فصارت الحضرة العليا معشعشهم يأوي إليها قلوب السادة الغـــرر
وساكنت خير مألــوف به ألفت من بعد طول بعـاد أورثت ضرر

فإن أنزلهم الله في الوجود بعد استكمال حقائق الشهود عاد إلى الأشياء بالله كما خرجوا عنه به كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(فإن نزلوا من سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين ، والرسوخ في اليقين)

فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ، بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله ، فإن أراد سبحانه صحوهم بعد محوهم وفرقهم بعد جمعهم أنزلهم مؤيدين بالروح الرباني منصورين بالعز الصمداني ، قاهرين بالدمع الحقاني ؛ أنزلهم في أطوار الوجود يكتسبون كمال الحق في مظاهر الوجود ، مؤيدين لحقائق الواحد المعبود ، فينزلون من منتهى نهاية الجمع الأحدي إلى سماء ظهور تجلي معاني الأسماء ومقتضيات الشئون ، فيرجعون إليها بالأدب واليقظة ، ونزلهم أيضا إلى أرض الحظوظ البشري ليس بالشهوة والمتعة كما ذلك شان أهل الحجاب والقطيعة دخول الأشياء بحكم الشهوة والطبيعة ، ورجوعهم تكميل للعباد ورحمة للبلاد ، فهم بطريق الإشارة الفرقة النافرة والعصابة الظافرة ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** ﴾ [الآية ١٢٣ التوبة] فاستفادوا الحسنيين : الفقه في الدين وشروق اليقين ، ويرجعون إلى الأشياء بهذه الأوصاف متصفين ، وبهذه الخلال متحليين ، فيدخلون في الأشياء بالفقه والبصيرة ، فلا ياخذون ولايذرون ولايعطون ولايمنعون ولايتحركون ولايسكنون إلا عن إذن من الله ، شاهد ذلك يترآى لهم في الوجود عيانا ، ولكن

يتأدبون مع الحكم الشرعي ، يحكمون على أنفسهم بما كوشفوا دون غيرهم إلا من طريق الفتوى ، فهم الذين وقعوا على حقيقة الأمر إذ هم المحجوبون وحكموا بالظنون ، فهم الذين يمشون بين الناس بالنور المجعول لهم ، فإذا كان الأمر لله شاهد اليقين ، فآمنوا فيه بالله لأنهم لم يزايلهم شهود جمعهم في فرقهم ولامحوهم في صحوهم ، فهم لظاهر خلقيتهم وشهود صوريتهم في الوجود مشهودين ، وبباطن روحانيتهم في الشهود مفقودين ، فالبصائر في الشهود دائمة ، والأبصار في الوجود نائمة .

ومعظم مواجيد هذه الحالات لاتعرف إلا لأربابها ذوقا وتحقيقا ، وغيرهم ممن لم يحظ بهذه المشاهد ولم يكرع هذه الحياض والموارد قد يفهم بعض إشاراتهم بكمال تخلقه في غريزته ، ولكن إن وقف عند علمها دون ذوقها وقع في مهاوات الدعوى ، حرم من المنن وحلاوة السلوى . ولابد أن يستدل بما هو خير الأدنى كما شوهد من خلق كثير الوقوف عند ما ظهر بمجرد القريحة في كتب المحققين ، وظنوا أنهم وقعوا على حقيقة من الوصال وهم يخبطون في عشوى وضلال وعمى وبطال ، لايميزون بين الوصال والإنفصال ، ولابين الأقوال والأفعال ، ولابين المقامات والأحوال ، بل بارزين في حلل الجدال ومصممين على مايظهر لهم في تخبيط وخبال وأوهام وخيال ، فنعوذ بالله من الإغترار بما يحلى به الأشرار من الظهور بزي الأخيار ، والتلبس بملابس الأخيار وهم من الذين قال الله فيهم ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** ﴾ [الآية ٥ الجمعة] فأهل الحق لهم سيما تميزهم وعلامات تعرفهم ، فإن دخلوا في

الأشياء فبالله مستعينين ، وبالله عائذين ، ومن الله بالإذن آخذين ، وإلى الله في جميع ذلك راجعين ، ولي في ذلك شعرا :

إذا أراد نزول القـــــوم أنزلهم إلى سماء حق معبود به نزلـــوا

وأرض حظ نفوس كان مرجعهم إليه منها وعن عاداتها إرتحلـــوا

لاينزلون إلى حـــــق بلا أدب ويقظة بل على التحقيق إن نزلوا

ولا الحظوظ بشهوة أومتاع الغافل المهمل فيدخل في الأشياء بالله بعد أن خرج عنها به ، وهذا والله معنى الآية التي استشهد بها المؤلف بهذا المعنى فقال :

({ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق } [الآية ٨٠ الإسراء] **ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني ، واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني)**

استشهد بهذه الآية الكريمة لما أسلفه من عبارته ، فبالدخول السلوك إلى الله والترقي في مراتب الشهود والتفاني عن الأغيار ، والتخلص عن رؤية الآثار ، ومدخل الصدق هو أن يكون في ذلك بالله ناظرا إلى حول الله في تخلصه عن كدورات الأغيار ، وقوته في مواجهة الحقائق والأسرار ، وورود المواهب والأنوار ، ولطائف المعاني والإستبصار عند تجلي أسرار الأقدار ، المدهشة للقلوب والأسرار ، وأخرجني مخرج صدق في رجوعي إلى التدلي في الأطوار ودخولي في الآثار ، فأكون مستسلما لك ومنقادا لمرادك مؤثرا لإرشاد العباد على ماهو المحبوب لدي وهو كوني طمسا ومحوا ، لا إنصراف لي إلى رؤية غير ، ولا ألوي نفع ولاضير ، ولكن الإستسلام يعطي إيثار مراد الله على مراد

المريد ليدخل في غمار العبيد ، ويشهد القرب في القريب والبعيد ، والبعد في البعيد والقريب ، فيكون حائرا بين هذه الروايا ومسطرا لرجوعه إلى خالص شهود محبوبه وصافي شراب ينبوعه ، ولي في ذلك شعرا :

كف الضراعة مدت نحـــو سيدها يدخلني الله مدخل صدق في الطلب
وذاك أن يشهد السالك لقـــــوته وحوله في الترقي في سما القـــرب
ومخرج الصدق في الرجعى لعـالمـه مؤيدا لحيـــــــــــود غير منقلب

فإذا عاد إلى الأكوان لله مستسلما ولحكمه محتكما حق على الله أن ينصره وينصر به كما قال :

(واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ينصرني وينصر بي ، ولاتنصر علي)

ينصرني على شهود نفسي وتغبيني عن دائرة حسي ، فالطالب حقيق بنيل المطلوب وحصول المرغوب والتفضل بالموهوب ، فالجعل هو العطاء المخصوص والإمتنان على طوائف الخصوص بعطاء غير منقوص أي اختصني بذلك ، والسلطان هو الأمر الغالب الذي يغلب به كل غالب ، ويتدارك به كل فائت من المطالب ، فيكون به منصورا نصرا عزيزا ، مجموع سر الخطاب وفتح أم الكتاب ينصرني على شاهد نفسي وتقهر به دائرة الحس المانعة عن التحقيق باستكمال مقام الفناء في الله ، وانصرني في إقبالي والأخذ في طريق بدايتي ليتم لي مقام إرادتي ، وتنقطع عني عوائقي في طريقتي إلى نيل بغيتي ومنتهى رغبتي ، وانصرني في رجوعي إلى الأكوان أهل صدق الرغبة من الإخوان لأكون سببا له في استخراج كيمياء سعادته ، وعونا له في طريق إرادته بما ألبستنيه من حلل

القبول ، ليحصل لمن اقتدى به كل مأمول . فالنصرة له أولا في حال سلوكه وإرادته ، والنصرة في حال رجوعه إلى الأكوان بعد استكمال مقام نهايته وهو السفر الثاني ، ولاينصر علي باستيئلا النفس علي وتحكم الهوى في ، وهذا غاية الإضلال والبعد .

وقد جمع في دعائه بين جلب النفع ودفع المحذور ، ودفع المحذور أحذر بالدعاء ، وكمال الدعاء أن يجمع الأمرين لأنه يسأل كريما لاتبرمه كثرة الحاجات ، ولاتتخطاه إلى غيره الآمال في جلب المصالح ودفع المهمات ، والفناء عن دائرة الحس هي نهاية الفناء في المقامات ، وثالث مقام في الفناءات ، ولي في ذلك شعرا :

اجعل لي النصر في مبدا البدايات ليحصل الوصل إلى أعلى النهايات
وفي رجوعي إلى الأكوان فانصرني وكل طالب من أهل البـــدايات
ولاتسلط علي ماكنت أحـــذره من سالف أيـــامي إني في مهمات
ودائرة حس أخرجها وكن عوضي عنها فهذا الــــذي أقصى إراداتي

ثم لما أنهى الكلام على ذلك أخذ يتكلم في فضل الشكر وجعل الكتابة ختما كغيره من المصنفين ، لأنه به تمام مقامات الواصلين إلى مقام المقربين ، لذلك قال رضي الله عنه :

(إن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في منته ، فالشريعة تقتضي أن لابد من شكر خليقته)

فالأمر الآن انتهى إلى غاية المأمول ونهاية المحصول ، فإذا عرفت حق هذه النعم الجسام والمنن التوام فلا بد من الشكر على ذلك ليستمر الدوام والزيادة من العطايا العظام ، والشكر عمل من أعمال الإنسان

ولكن له شاهدان ؛ شاهد القلب واللسان وسائر الأركان ، وعين القلب هي البصيرة ، والبصيرة مستغرقة في شهود وحدانية الحق غائبة عن الثان ، واللسان ظاهرة من عالم ظاهر اللسان ، وإذا وصلت نعمة على يد إنسان فعين القلب لانظر لها ولاملائكة ولا إنس ولا جان ، فتشكر الواحد المنان فهذا حق الحقيقة من الإنسان أن لايشهد معه في منته ثان ، ولسان الشريعة الظاهرة في مظهر العيان يقتضي أن تشكر من جعله الله طريقا في وصول الإحسان سواء كانت تلك دينية أودنياوية ، لأن من لايشكر القليل لايشكر الكثير ، ومن لايشكر الناس لم يشكر الله ، وشكر الله هو الثناء عليه بما هو أهله ، وصرف ماأنعم به عليك فيما أمرك به ، وشكر الناس هو الدعاء لهم بخير على حسن صنعهم كما جعلهم أهلا لذلك وأمرك ، فيكون شكرك لهم امتثالا له من جملة شكره لأنه هو الآمر بذلك مع أن عين قلبك لم تزايلها شهود انفراده في منته ، فهذا مقام العارفين المؤقنين بحق المقامين على تمامه ، والواصلين في الشكر إلى ذروة سنامه وهو إيفاء الشكر حقه والتخلق به ، كما أنك مأمور بذلك ومطالب بما هنالك ، ولي في ذلك شعرا :

إن كان بالقلب ينظر صرف منته   والكل معـــــدم لاعين ولا أثر
فالشرع يقضي بأن العبد يشكر من   قد ساقه الله بالإسداء من البشر

والناس فيما يأتيهم من النعم على أقسام ثلاثة كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(وأن الناس في ذلك على ثلاثة أقسام : غافل منهمك في غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه ، فنظر الإحسان من المخلوقين

ولم يشهده من رب العالمين ، أما اعتقادا فشرك جلي وأما إسنادا فشرك خفي)

هذا تقسيم في مقام الناس في شهود النعمة الواردة وهم أحد طرقين قاصيين ، ولكن أحد الطرقين محمود لأنه قاصر عن رتبة الكمال ، وأحد الطرقين مذموم لأنه في غاية البعد والضلال ، وهم المذكورين هاهنا حيث قال : أماغافل ، والغفلة أقبح مقامات الإنسان وأحط مراتب الثقلان لأن الله جعل رتبة الغافلين أحط من الأنعام السوام ، وأعظم أحوال الغفلة الإنهماك وهو الشواغل في دركات البعد من غير مبالاة ، والغفلة قوتها بحسب قوة دائرة الحس ، لذلك قال : قويت دائرة لأنها كلما استقوت دائر الحس قويت الدواعي الشهوانية وتعسفت إلى الطبائع الحيوانية ، فتمكنت شجرة الزقوم وكيف طلها اليحموم ، كلما كانت أقوى وأرسخت كانت حضرة قدسه إلى الإنطماس والغيبة أقرب ، وعلامة ذلك ظهور الطمع في المخلوقين والذلة للعبيد المسترزقين ، لأن انطماس حضرة القدس وقوة دائرة الحس يقتضي رؤية الأغيار وظهور الآثار ، والحجب عن شهود القاهر الجبار وثمرة الحجاب هو الشرك ، أما أن شهد مايصل إليه على أيدي الخلق اعتقادا فهذا كفر كما شهد بذلك الحديث **" أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قال أصبح بي من عبادي مؤمن بي كافر بالكواكب ، ومنهم كافر بي مؤمن بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب "** الحديث بطوله . وأما إسناد فهو شرك خفي كما عليه طائفة الفلاسفة قبح الله رأيهم . وهذا جار في سائر العادات والمعتادات حتى في

المطعومات والمشروبات والملبوسات وسائر المحسوسات ، فمن أضاف شئ إلى شئ دون الله أوشئ غير الله أوفي شئ فقد سلك أوعر الطرقات ، وارتكب عظيمة من القبائح المفضعات ، بل الأمر عند ذوي البصائر الصحيحة عن غشاوة الضلال أن القرآن في الأمور هو المحكوم به المعروف في العبارة بالعند أن الله يخلق هذا عند مجاري عادته وعلى مقتضى إرادته ، فمن شهد نعمة الله من غيره فلاشك أنه كفر نعمته فاستوجب وبيل نقمته ، فصرف ماكان لله من العبودية للمخلوقين ونسي رب العالمين وإله الأولين والآخرين ، فنعوذ بالله من طمس البصيرة وعمي السريرة ، ولي في ذلك شعرا :

فالغافلون هم الجـــهال إذ جعلوا   لله ندا معاذ الله حـاشـاه

من شهد الخلق دون الله حاصله   شرك فضيع فنار الله مأواه

وأما القسم الثاني وهو الطرف المصطلم بالحقيقة ولم يشهد الخليقة كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(وصاحب حقيقة غاب عن شهود الملك الحق ، وفني عن أسباب شهود مسبب الأسباب)

فهذا عند مواجهته بالحقيقة ظاهر عليه سناها ، سالك للطريقة قد استوى على مداها غير أنه غريق الأنوار ومطموس الآثار ، قد غلب سكره على صحوه وجمعه على فرقه ، وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره ، فصاحب الحقيقة هو الفاني بها عن كل مشهود سواها ، والحقيقة هو إقامة الله لعبده وتأهيله لشهود كمال ذاته العلية وصفاته السنية وتجلياته الأزلية ، فلاظهور هنالك للأغيار ولا بيان للآثار ويسمى هذا المشهد

الحق ، وذلك أن الباطل لاظهور له معه ، والملك القاهر لقهره لمن سواه ، ومن أقيم في هذا المقام يسمى فانيا وحالته الفناء عن الأسباب لأنه شهد مسببها وكل الخلق أفعالهم أسباب ، فلاجرم أن من أشهده كماله ومنحه قربه ووصاله أن يغيب عنها كما هو مشهود فيمن استغرقه مهم من الأمور الحسية يغيب بالإهتمام به عن الأشياء ، فهذا عبد مواجه بالحقيقة من الله مخطوب لحضرته ، مطموس تحت أنوار عظمته ، ظاهر عليه سناها ، مشرف عليه ضياها فغاب بها عن سواها ، سالك لطريق الحق تاركا لما وراه ، قد استولى أي وصل وحصل على مداها أي غايتها ، ومنتهى حضور قدسها ، والكون تحت ظل أنسها ، فهو الذي تولى الطل غير أنه غريق الأنوار مقهور تحت تجلي الإسم القهار للأغيار ، ومطموس الآثار في الغي في تيار بحار الأسرار ، لايدري ليل من نهار ، وقد غلب سكره بخمرة التجلي الغفار على صحوه ، وهو الإفاقة بالله وإثبات الأشياء به ، وأعطى وجود الحق حقه وجمعه بالله الذي لايعطي صاحبه تميز ولاتقرير لغلبة تجلي وصفه العزيز على فرقة المطلوب منه ، وهو الفرق الشرعي الذي يعطي الحقوق حقها ويوفي المقامات مستحقها ، وفناه بالله عن الأسباب على لقاه بمسببها وغيبته على حضوره . ومقام البقاء والحضور هو الذي يتم به السرور ويتوالى به الحبور ، ويتنعم الناظر بالمنظور ، وتنشرح به الصدور ، قال الله جل وعلا في الإمتنان على نبيه بذلك ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ وهنا ترفع الستور وتنجلي البدور الكائنة تحت الخدور ، فكل صاحب حقيقة غاب فيه به عن كل مشهود في الكونين إلا هو قد

لاح ظاهر سناها فيه منه له لكنه بعد لم يشهد خباياه ، وقسم ثالث وهم أهل الكمال الحاصلين على أعز منال وهو الذي جمع الأمرين وأحكم المقامين ، ونظر بالعينين كما قال المؤلف رضي الله عنه :

(وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوا ، وغاب فازداد حضورا ، فلاجمعه تحجبه عن فرقه ولافرقه تحجبه عن جمعه ، ولافناؤه يصرفه عن بقائه ، ولابقاؤه يصرفه عن فنائه ، يعطي كل ذي قسط قسطه ، ويؤتي كل ذي حق حقه)

هذ مقام أهل الكمال الواصلين إلى ذروة الوصال ، والحاكمين على الأحوال ولم يشطحوا في المقال ، ولم يقصروا في الأفعال ولكن يعطون كل ذي قسط من الأحكام الشرعية قسطه ، أي حكمه لاينقصهم مايتوالى على أسرارهم من سكر الشهود ولايوثقهم عن الوفاء بحق المعبود مايعتورهم من مخالفات الأحكام والحدود ، فلهم وجه في الشهود ووجه في الوجود ، وهذا مقام الصديقية ، ولي في ذلك شعرا :

أهل الكما لهم في القرب أحوال   عواليا في مقام عز مرمـــــاه
يوفون كل مقام مايكون لـــــه   وهم في القرب في غايات علياه

وانظر إلى كلام هذا المقام كيف وفوا فيه على التمام كما قال مفسرا لما قدمه من الكلام على المقامين بكلام الصديق الأكبر في ذلك حيث قال :

(وقد قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنه لما أنزلت برآتها من الإفك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائشة : أشكري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : والله لا أشكر

إلا الله ، دلها أبوبكر رضي الله عنه على المقام الأكمل ؛ مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار ، وقد قال الله تعالى ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وقال صلوات الله عليه وسلامه " لايشكر الله من لايشكر الناس ، فكانت هي في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار ، فلم تشهد إلا الواحد القهار)

هذا شرح منه لما أسلفه من كلامه على المقامين ، وقد أوضح فيه بغاية البيان حتى كاد أن يكون الأمر على العيان لشدة وقعه في الأذهان ، ودلوجه في الآذان وتمكن عبارته في الجنان ، فاستشهد في ذلك بحالة الصديق لأنه البارز فيه شهادة القرآن إذا قال فيه سبحانه ﴿ **والذي جاء بالصدق** ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ **وصدق به** ﴾ قيل أبي بكر ، فلما نزلت براءة عائشة التي هي من أجل المنن وأعظم النعم على سائر الخلق ، فلما توجه إليها الخطاب على لسان الأمين طالبها أبيها بوفاء تلك والقيام بها ، فقال : أشكري رسول الله يريد بالقول والفعال ولم يأمرها بشكرها لعلمه بما هي عليه من كمال الإستعداد ، فلم يكن أبوبكر أراد أنها تشكر رسول الله دون الله ولكن لما رآى مافاض من مقتضيات الشكر لله أراد أن توفي مقام الشرع حقه وهو شكر الخلق ، فقالت مترجمة عن حالها بمقالها : والله لأنه المشهود لديها لا أشكر إلا الله ، لأن مظاهر الألوهية لم يترك فيها مساغ لرؤية الثان ، والإصطلام في إصطلاح الطائفة هو الحيرة والدهش ، وهذه الحالة منها غير غالبة وإنما غالب أحوالها التمكين

والصحو ولكن لما وافقها في حالة الإصطلام عن شهود الأعلام أفصحت بهذا الكلام ، ولي في ذلك شعرا :

قد كان في ذلك الصديق أعلمها بما هو الشكر فاحتارت عن الغير

فالإصطلام له حال يكون بـــه غائب عن الكون لايشهد لـه أثـر

وعائشة هي زوجة النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين وهي من أحب أزواجه صلى الله عليه وسلم وقيل خديجة ، فتجب برآءتها من الإفك ، فمن رماها بالإفك بعد نزول القرآن في شان برائتها فهو كافر كمنكر صحبة أبيها رضي الله عنه لثبوت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع ، ولا اعتداد بخروج طوائف الرافضة قبح الله رأيهم وإخلاء الأرض منهم فذلك معلوم من الدين بضرورة ، فالحمد لله، وقد وردت في فضل أبي بكر وبنته عائشة من الأحاديث مالايكاد يمكن حصره للآحاد من كثرة الأعداد ، ويلي أبي بكر في الفضل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، ويليه عثمان ابن عفان ، ويليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عن الجميع ، ثم بقية العشرة سواء في الفضل ، ثم بقية أهل بدر ، ثم أهل بيعة الحديبية ، ثم بقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وهذا سؤال : سئل الشيخ رضي الله عنه عن قول النبي صلى الله عليه وسلم " **وجعلت قرة عيني في الصلاة** " هل ذلك خاص به كسائر مااختص به من المزايا والفضائل أم لغيره من تابعين هديه نصيب منه كما لهم في أمور من فضائله ؟ فأجاب رضي الله عنه بما هو الصواب عن رائق الجواب وفصيح الخطاب : إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود ، فالرسول صلوات الله عليه وسلامه ليس معرفة أحد

كمعرفته فليس قرة عين كقرته ، وإنما قلنا أن قرة عينه في صلاته بشهوده جلالة مشهوده (مراجع) لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لاتقر عينه بغير ربه فكيف وهو يدل على هذا المقام ومروياته من سواه صلوات الله وسلامه عليه " **أعبد الله كأنك تراه** " ومحال أن تراه وتشهد معه سواه ، قال القائل : قد تكون قرة عين بالصلاة لأنها فضل من الله تعالى وبارزة من منة الله عز وجل فكيف لايفرح بها ؟ وكيف لاتكون قرة العين وقد قال سبحانه ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ [الآية ٥٨ يونس] فاعلم أن الآية قد أومت إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب إذ قال ﴿ **فبذلك فليفرحوا** ﴾ وماقال فبذلك فافرح يامحمد ، قل لهم ليفرحوا بالإحسان والتفضل ، وليكن أنت فرحك أنت بالمتفضل كما قال في الآية الأخرى ﴿ **قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون** ﴾ [الآية ٩١ الأنعام] هذا سؤال جامع وجوابه مدرج فيه وهو بأن يتسلط عليه القول ، كيف وقد جمع فيه رأس العبادات وكعبة القربات وأول المفترضات وعمدة الديانات ، سيما صلاة أفضل البريات التي احتوت غاية الكمالات ، وأرفع الدرجات وعدة الحسنات التي خفي فيها بما قرت به العيون من كشف السر المصون ، والكنز المخزون تحت تجليات الشئون ، والشهود التام والمقام السام الذي يتقاصر عن نيله أكابر المرسلين وجهابذة العلماء والصديقين ، فكل مصل له قرة عين فيها ولكن قرة العين تتفاوت بحسب معرفة المعبود واضمحلال أعيان الوجود المتجلي

والشهود ، فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس معرف كمعرفته ، ولانال مقرب كقربه ، ولاحظي واصل بمثل وصله ، فلم يكن لأحد قرة عين كقرته . فإشارته بقوله فيها دال على أنه قرت عينه بمشاهدة الحبيب من قريب من غير حجاب ، لأن العبد إذا قام إلى الصلاة تجلى الله بوجهه له في قبلته . وقد أشار إلى هذا في بعض الأحاديث أنه أقرب إليه من مصلاه في سجوده ، وقال أيضا : لويعلم المصلي من يناجي ما أسد وهو صلى الله عليه وسلم حظي برتبة الشهود حيث قال ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ فهذا هو عين مشهد الرسول بعينه صلى الله عليه وسلم شهد هويته ظهور ألوهيته ، فهو الشاهد والمشهود ﴿ **والملائكة وأولوا العلم** ﴾ [الآية ١٨ آل عمران] أيضا شهد بما شهد به لنفسه ، فالحاصل من ذلك أنه لم يشهده حق شهود سواه ، ولاعرفه حق معرفته إلا إياه ، فالمعرفة هو مايعرفه العبد من نعوت سيده ومولاه ولايعرف إلا بقدرها ما أشهد سنا تجليه وظهور صفاته وعميم أياديه ، وهو صلى الله عليه وسلم لاتقر عينه بغير ربه لأنه عرفه ومن عرفه لايسكن إلى سواه ولايقر بغيره ، فتبين من ذلك أن لكل في الصلاة قرة عين بحسب ما أشهده من تجلي صفاته وظهور أسمائه وصفاته ، فكيف تكون له قرة عين بغير ربه وقد دل على أن قرة العين لاتكون إلا به بأمره صلى الله عليه وسلم حيث قال " **أعبدالله كأنك تراه** " ومحال أن تراه وترى معه سواه ، فدل على أن كمال العبادة بشهوده ولاتشهده وأنت شاهد لسواه لإستحالة الجمع بين الوجود والعدم ، والحدوث والقدم ، والجواز والوجوب ، والحق والباطل ، والنور

والظلم ، لذلك قال المؤلف : محال أن تراه وترى معه سواه فهذا جوابه عن معنى الحديث على منهج المقربين وطريقة العارفين ومشهد الصديقين .

فسأل السائل ثانيا عن حالة الأبرار وعموم المؤمنين بقوله : قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله تعالى وبارزة من منة الله عز وجل فكيف لايفرح بها وكيف لاتكون قرة العين بها ؟ قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ [الآية ٥٨ يونس] وصدق فيما قال في السؤال فهذا لرجال وذاك لرجال ، فقال له الشيخ مجيبا عن سؤاله ومبينا لمقاله : واعلم أن العلم في مثل هذا المقام هو الذي يحسن فيه الكلام لأنه مقام السائل وغنى الفقير العائل ، أن الآية الذي فهمته منها قد أومت بلطيف سرها إلى الجواب ، وهذا حكم الكلام الجامع المعجز المنزه عن الحدوث أنه يفهم لكل قوم منه على قدر مقامهم ، ويفصح لهم عن مجمل كلامهم ، ولكن أسراره لاتلوح إلا لمن تدبره وعرف ظاهره ومضمره وحقق معانية وفسره والسرورى ذلك كله لانهاية لتجليات أسراره ينتهي إليها في الدار الآخرة فضلا عن توقف على كليات أسراره ، أويشاهد مشرقات أنواره في هذه الدار ، ففهم في الآية السائل الفرح بالفضل وفهم فيها المسئول رحمة الفرح بالمفضل كما هو شان من وصل إلى مقامه ، وحصل على غاية مرامه ، وتجلى له بدر التجلي في تمامه أن يغيب برؤيته عن إنعامه .

وقرة العين مايجده فيها من عظيم اللذة والروح والسرور ، كيف لا وفيها مناجاة الحبيب قريب لقوله سبحانه ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ وقرة العين

فيها لاتكون ، وفي القلب المحادثات الكونية والخطرات الهوائية والشهوات الحيوانية ، والحظوظ النفسانية ، والدواعي الشيطانية ، والكثائف الأرضية الطبيعية . بل لمن فني عن نفسه بالكلية فتضرب بينه هذه الحجب سرادق التولي الخاص ، وتغشاه أنوار الإخلاص ، ويستريح عن مدافعة الأعداء فيكون لطيفة من لطائفه مشهد خاص في التكبير والتسليم للأمر والإنقياد للحكم ، وفي القراءة والقيام بالتخلق والمناجاة والتذلل ، وتبذل وتخضع وتخشع ، والترغب وغير ذلك مما تفاتح به القلوب وتكاشف به الأسرار من الأنوار ، فكيف لاتكون قرة العين فيها بهذا النعيم والروح والسرور والإقبال والحور . وأما إذا كان القلب مشحونا بالوساوس الشيطانية والشهوات الحيوانية والأسباب الدنياوية فكيف تنكشف له هذه المواهب والمنوح ، أويواجه بتلك المنن والفتوح ، فإذا رفع الحجاب ودنا الحبيب من الأحباب توالى الفرح به والسرور فيحق له أن لايفرح بغيره ، ويقال بلسان الحال في ذلك المقام ﴿ **قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون** ﴾ [الآية ٩١ الأنعام] ولي في ذلك شعرا :

فقـــرة العين بالمحبوب موضعها ... ففي العبادات حسب الطالب النظرا
كما روي عن عفيف الدين معربها ... كباير الله فاسمع ذا وكن حـــذرا
عن أن تصور في الأذهان له مثل ... ولاشبيه ولاند ولانظـــــــرا
لحضرة القرب أعلاها وأقـــربها ... ففي الصلاة روي ذا السادة الكبرا

ولما كان الفرح بالحبيب مطلوب من المحب ذكر المؤلف بأثر ذلك الفرح وحده فقال في بعض ماكتب به لبعض خواص الإخوان :

(الناس في ورود المنن على ثلاثة أقسام : فرح بالمنن لامن حيث مهديها ومنشيها ولكن بوجود متعته فيها ، فهذا عبد من الغافلين يصدق عليه قوله تعالى ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ [الآية ٤٤ الأنعام] **وفرح بالمنن من حيث أنها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها يصدق عليه قوله تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾** [الآية ٥٨ يونس] **وفرح بالله تعالى على ما شغله من المنن من ظاهر متعتها ولاباطن منتهى بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه ، فلاتشهد إلا إياه ، يصدق عليه قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾** [الآية ٩١ الأنعام] **)**

هذا تقسيم مناسب للتقسيم ، إلا أن هذا بالفرح بالنعمة من حيث هي نعمة ، وفرح بها من حيث هي فضل من سيده ، وفرح به دون ماسواه واكتفى به دون ماعداه . والفرح في القرآن ماهو منهي محض كقوله تعالى ﴿ **لاتفرح إن الله لايحب الفرحين** ﴾ [الآية ٧٦ القصص] ونحو قوله ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ ولكن هذا بالفرح بالأعراض الفانية والزخارف الملهية المشغلة عن الله ، الحاجبة عنه الصادة عن عبادته ؛ وهي النعم الدنياوية والحظوظ النفسانية . وفرح مندوب إليه بالفضل الصادر من المفضل الجواد من حيث أنه منه فضلا وذكرا وعناية تشابه قوله تعالى ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ لأنه صادر من

تفضلنا وتطولنا ، فالفضل ماظهر من ملائمات النعم ، والرحمة ما أشهده إياه من كونه منها رحمة وعناية وفناها شانه ، والله أعلم .

وأما القسم الثالث وهم أهل الكمال البالغين نهاياته ، والواصلين إلى أبعد شاياته من الأنبياء وسادات الأبدال وأكابر الأولياء فإنهم قد غابوا عن الأكوان بالكلية ، وباينوا النفوس وشربوا لذيذ الكوؤس من تجلي الملك القدوس ، وقسمته هذه حسب ماقدمه في أحوال الناس عند ورود النعم عليهم ، فمن فرح بها محجوب عن موردها ومنشيها فهي في حقه استدراج وتمتع وحجة وحجاب ، فيغفل عن شكر موردها فيذاق أليم عقاب كفرانها ونسيان المتفضل بها إلا أن يتدارك بالتوبة ، ومن كان حاله الفرح بالنعمة دون الله فلا يخفى ماهو عليه من دناءة الهمة وقبح الحال ورذالة الفعال ، فهو يسعى في غير منال ويطلب ما عاقبته عليه وبال ، فحاله أقبح من الأنعام لأنه في غاية البعد عن الشكر .

وقسم ثاني نال نصيبا من الشرف ، وحصل على حظ من القرب ونصيبا من الشكر ولكنه دون مرتبة القسم الثالث ، فالقسم الثاني هم العاملون على نيل الجزاء والقائمين على التقليد ، والإقتفاء على مناهج السلوك الذين لم يخرجوا بعد عن رؤية نفوسهم إن منها ولها فهم مطالبون بإخلاص ماعملوا وتحقيق ماعلموا ، وشرفهم من حيث أنهم ذكروا المنعم بورود نعمته فهم على مقام من الشكر غير أنهم لم ينالوا كل العناية ، فالشكر له مراتب ثلاث حسب حالة أرباب المقام : فمن الكامل والأكمل هو ، والفرح هو بالإبتهاج بالمفروح به ، والسرور وهو الشكر نفسه إلا أن الشكر يعم الباطن والظاهر والقول والفعل ، فأول مراتب الشكر

وأقربها على العباد هو أن لاتعصيه بنعمته ، وأوسطها أن تصرف ما أنعم به عليك فيما ندبك إليه ، وأكمل من هذا أن تغيب عن النعمة بالمنعم فتكون به لابشئ ولالشئ دونه فهذا هو الشكر المعرف بين هذه الأصناف بلاتعريف ، ولي في ذلك شعرا :

الناس في واردات الفضل والنعم ثلاثة ولهذا القـــــــول كن فطن
فيفرحون بها من حيث هي نعـم موافقة كل إسكاف وكـــــل دني
ومن يكن في مقام العـلم يشهده من حيث هو منه يفرح به ولاتكـن
لكن بكى فلاح الأحباب مطلبهم أن لايروا غيره في السر والعلـــــن

قال :

(وفي أخبار آل داود عليه السلام : قل للصديقين من عبادي بي فافرحوا وبذكري فتنعموا)

فلايكون صديقا وله إلى الأغيار نظر ولا إقبال ولاتحقق المقامات إلا بشواهد الأحوال والعلامات ، فعند ورود الأمر الواحد يتحقق المقر من الجاحد ، وتتمايز بالأفعال المقاصد فيظهر في مقامات الإمتحان الخرز من المرجان ، والفرحين بالله هم أهل الروح والطرب ويحق لهم حيث نالوا غاية المراد والأرب ، ولي في ذلك شعرا :

ومن نظر وجه من يهوى يحق له أن يطرب الكون من ألحان مغناه
ويعتريه عظيم الوجد كيف بـــــه لو أسفرت من حجاب البعد عيناه
دار الوجود ودار الكاس واطربا مما يعاين من أنوار عليـــــــــاه
كادت على ذاك أرواح تطير أسا إذا حـــــدى حادي الوجنا بمغناه

ولما كان الفرح بالله من أجل المراتب وأقصى المطالب طلب المؤلف رحمه الله الوصول إلى ذلك والتحلي بماهنالك فقال :

(والله يجعل فرحنا وإياك به والرضا عنه ، وأن لايجعلنا من الغافلين ، وأن يسلك بنا مسلك المتقين بمنه وكرمه)

فالله يجعلنا كذلك وأحبابنا في الدين والأولاد والوالدين ، ومن أحبنا في الله أوأحببناه ، ووالانا وواليناه ، وأن لايجعلنا من الغافلين الفرحين بالأغيار والمطموس على أسرارهم بظلم الآثار ، الذين سلكوا طريق الكفران وانقادوا بأزمة الهوى لداعي الشيطان ، ونسوا عبادة الرحمن ، وأنحجبوا بظواهر الأكوان ، وأن يسلك بنا مسالك المتقين الذين قدروه حق قدره ، وكانوا نصب نهيه وأمره ، بمنه الفائض وكرمه العميم ، آمين ، بعد الصلاة والتسليم على خاتم أنبيائه وسيد أصفيائه محمد الأمين وآله الأكرمين، وصحبه المكرمين نجوم الدين وأعلام اليقين .

وهنا أخذ في المناجاة لما انتهى إلى مقام المصافاة ، وبه تمام الكتاب ، فقال رضي الله عنه :

(إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لاأكون فقيرا في فقري ، إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي)

لما كان اسم الألوهية له التكبر ومحلى في سائر المظاهر الملكوتية والملكية والجبروتية الحسية والمعنوية الشهادية والغيبية ، وذلك لما اقتضت أعيان الوجود من التغاير والكثرة والإختلاف وهو مع وحدته إله بكل معنى وتعم سائر الأسماء الجلالية والجمالية الذي سائر الأكوان موجود من عن تأثيرها ، وظاهر بمظهريتها فيكون بهذا الإعتبار لذوي الأبصار الإله بمعنى المعبود

بحق ، والمستغني بذاته المفتقر إليه ماسواه ، والموجود والمرجو والمخوف والمحبوب والمقصود ، والموصوف بكوامل الأوصاف ، والمعروف بمحاسن الأفعال وغير ذلك من سائر مايظهر حسا ومعنى ، فالحق هو الإله ، وبمعنى الحق والظاهر وسائر الأسماء ، فلذلك كلما ظهر العبد في وصف من صفاته شهد حقيقة تلك الصفة فردها لمن هي له حقيقة ، واتصف بما هو الأصل له دون إلهه ، ولما تجلى له في شاهد سره بسر الغناء المطلق الديمومي ، وأثر ذلك الوصف الإلهي ظاهر أثره على صفحات الوجود ، ونادى مظهره على كل معاين موجود بالقيام به في كل حركة وسكون ظهر لامحالة افتقار العالم بأجمعه علوه وسفله إلى إقامة القيوم الدائم به ، وله في سائر الأحوال والقوى ، وإذا كان الأمر كذلك فالعبودية أن تعرف وصفك وماهو نعتك ليمدك من فائض فضله ، لأن كل اسم يظهر أثره يقتضي حقا من العبادة ، ولايكون عبادة حقيقة إلا ماكان صادر عن معرفة المعبود وكماله ، ومعرفة العبد ونقصه واضطراره وذلته تحت قهر المعبود وجلاله ، واسم الألوهية من أخص ما يتوسل به المالوه لأنه لايخفى من دعائه بهذا الإسم من الإعتراف لله بكمال ألوهيته وعظيم ربوبيته ، وما العبد عليه من الإتضاع في أرض إفتقاره وتراب ذلته فقال : إلهي ، فشهوده للألوهية أولا دليل كمال معرفته لأن لها الأصالة فاقتضى مقام العبودية لهذا الإله المعبود أن لابد للعبد من أبنية فقال : أنا الفقير ، وذلك من أحسن آداب العبيد أنها لاتظهر أبنية إلا مقترنة بوصفها ومتدرعة بنعتها ، والفقر له وصف في الذات والصفات والأفعال ، بل في كل نفس وجودها مفتقر إلى موجده أولا ، وقائم في حال وجوده وممد له مواد صفاته

ومجري له أسباب أفعاله فكان فقيرا لامحالة ، والسؤال بهذا الوصف أقرب للإجابة بل لا يقرع باب الرب بمثل التملق إليه بهذا الحال ، وإذا علم ذلك ، أي أصالة الفقر علم أنه فقير لايزايله إفتقاره ولايفارقه إضطراره في سائر أحواله ، وظهورر الغنى على العبد بالأسباب الدنياوية والدرجات الأخراوية لايزداد بها إلا إفتقار إلى إفتقار ، فعلم أن الفقر أبدا وصف للعبد ، وأن الغنى لله دائما سرمدا ، فإذاكنت فقيرا في غنائي فكيف لا أكون فقيرا في فقري إلى الأشياء في كل حين وأوان وزمان ومكان ، فالغنى هو أن تستغني عن الشئ المفتقر إليه ، والعبد لو كان مستغنيا به وذلك لامحالة يحتاج إلى كشف الغطا قلبه وهو أعز شانا لأنه لايدرك بحيلة ولا اكتساب فكان الإفتقار إليه أعظم ، فإذا كان فيما يرى أنه غنى فقير فكيف لايكون فقيرا وهو أبدا محتاج ومضطر إلى الأسباب ، وكذلك العلم لله وصفا وحقيقة ، وللعبد مجازا وإعطاء من جملة العطايا ، ومزية من جملة المزايا ، وهدية من سائر الهدايا . فإذا كان كذلك علمت أن الإصالة فيك الجهل ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا** ﴾ [الآية ٧٨ النحل] فلولا مددك إياي فيما أعلم في كوني عالما لما لم يثبت علمي معي ، ولولا حفظك له علي لم أكن حافظا ، ولولا أجراك أسبابه لي لم أكن له متيقظا ، فصح أني جاهل في علمي لووهبت لي سائر العلوم لأن نسبتها إلي مجازية ، فالعالم حقيقة من يعلم الأشياء وكيفياتها وهيئآتها في إجمالها وتفصيلها قبل إبراز صورها إلى عالم مظهريتها ، وليس ذلك إلا الله ، فأنا في حال توهمي أني عالم جاهل فكيف لا أكون جاهلا في جهلي سائر الأشياء فلا أعلم مجاري الغذاء مني ولاتصاريف الأقدار في ، كيف وقد وصف الله الإنسان

بالجهل كما وصف نفسه بالعلم فقال ﴿ **والله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ [الآية ٢١٦ البقرة] فقال في وصفه أيضا يعلم بالماضي يشير إلى قدم العلم له وأنتم لاتعلمون بالحال يشير أنكم لاتعلمون في حال وجودكم ، وقال تعالى ﴿ **وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ [الآية ٧٢ الأحزاب] ولكان هو الوصف كما وصف نفسه بالعلم بالأشياء ﴿ **فإن الله كان بكل شئ عليما** ﴾ [الآية ٥٤ الأحزاب] فإذا كنت جاهلا في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي وأنا كما أعلم ماذا يجري علي ، وكيف وأنا في عالم تركيبي الذي هو مشهود لي ، فلقد حقق الإعتراف وبين مقاصد الإنصاف ، وعرف ما للعبد من الأوصاف فجزاه الله خيرا ، ولي في ذلك شعرا :

من كان في وصفه لله مفتـــقرا فكيف لا وهو محتاج ومفتـــقرا
ومن يكن جاهلا في علمه فعلى مالايكن جاهلا في الجهل محتقرا

(إلهي إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين عن السكون إلى عطاء والياس منك في بلى)

فلما كان تجلى أولا عليه بصفة الغنى والعلم تلقاها بوصف الفقر والجهل الذين هما اللائقين به في هذا المقام ، فتجلى له بوصف إرادته وقدرته فأعطاها حقها فقال : **إلهي** ، لأنه تجلى بوصف الإرادة المتفرعة عن العلم ، ثم تجلى له بوصف الإقتدار فقال في مقام الإعتذار والتبهل بلسان الإضطرار ، والتعلق به في مختلفات الأقدار وواردات تعاقب الآثار في الأطوار ، فهذا هو الذي أوجب لذوي البصائر والأبصار أن لايسكنوا مع

الأغيار من جنة أونار ، فلما رأوا سرعة إقتداره واختلاف ظهور مشيئته في أقداره لم يسكنوا إلى مايجدون من الأحوال لأنها لامحالة حائلة ، فكأن هذا الذي أقلق قلوب المحبين وكدر صفو صفات المكاشفين خوف تبديل ماهم عليه ، كما جرت بذلك الأحكام على أقوام أنزلوا بعد رفعة المقام إلى مراتب العوام بل أقبح حال من الأنعام ، نعوذ بالله من سوء ماسبقت به الأقدار وانبرمت به الأحكام . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى سرعة تقلب القلوب تحت أستار الغيوب يقول في قسمه " **لاومقلب القلوب** " وكما أنها أورثت أن يسألوا حالا يكونون عليه من الأحوال السارة ، كذلك أورثتهم حسن الظن بالله وعدم اليأس من روحه ، وتفريج ماينزل بهم من المهمات ومعضلات البليات لسرعة تقليب الأحوال ، وسرعة حلول المقادير ، وهكذا تكون أحوال العارفين لايسكنون مع عطاء ولاييأسون عند حلول بلا ، ولي في ذلك شعرا :

إن اختلاف مقادير الإله على ... عباده لم تدع في الكون مأنوس

كذاك لم يك للبلوى مقاومــة ... لذي الشدائد والضراء والبـوس

ناداه ثالثا بما هو المعهود من جميل فعله وماهو اللائق بكمال نعته في مقابلة ما العبد عليه من النقص في الأفعال وارتكاب مايعتذر منه من الخلال ، فقال بلسان الإعتذار والإنطراح والإقرار : **إلهي** بمعنى الكريم المتطول والمنان المتفضل : **مني مايليق بلومي ومنك مايليق بكرمك** فلومي يقتضي معاقبتي ومعاتبتي ، ومنك مايليق بكرمك من العفو والتجاوز والصفح كما هو وصفك ، فشان العبد إذا أراد الدعاء للكريم المفضل أن لايقدم بين يدي دعائه إلا الإعتذار بين يدي القادر الجبار ، ودوام التضرع

والإستغفار من الذنوب والأوزار بين يدي العفو الغفار ، فإن الكبائر مع ذلك يرتجي غفرانها ، وتجلى عن القلوب ظلماتها ورانها ، ويشهد ماروي أن الله يفرح بتوبة عبده واعتذاره إليه .

ويروى أيضا أن العبد إذا أذنب الذنب وقال يارب فتحجب دعاه الملائكة عن الله حياء من الله أولا وثانيا وثالثا حتى يدعو رابعا ، فيقول الله عز وجل **" لبيك عبدي "** إلى كم تحجبو دعاء عبدي عني ، أوكما قال " فهذا وماورد في الكتاب والسنة مما يقتضي أن الله يحب من عبده الإعتذار إليه والرجوع بالتضرع والإستغفار له مما لايكاد يدخل تحت الحصروالعد ، وهذا هو الحكمة والله أعلم في تقدير الذنب على المؤمن كما ورد **" لو لم يكن الذنب في بعض خير للمؤمن من العجب ماقدر عليه "** ولي في ذلك شعرا :

فكل ماكان من لوم ومن زلل فلائق بي وشان الله غفران

فالعفو أرجى لأن الله متصف به ولاحرج أن يعف رحمن فاسمه العفو إذا تجلى محى ظلمات الآثار الحادثة والأوهام الزائلة وهو من أخص تجليات الجمال ، فعند تجليه تظهر الصفات الأزلية والتجليات اللطفية ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إلهي) بمعنى اللطيف في عظمته والعطوف في سابق منته **(وصفت نفسك باللطف والرأفة قبل وجود ضعفي ؛ أفتمنعني منها بعد وجود ضعفي)**

فوصفه لنفسه في أزله القديم الدائم قوله عز من قائل ﴿ **إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ وقوله أيضا ﴿ **الله لطيف بعباده** ﴾ هذا قبل وجود الخلق وصفاتهم التي هي الضعف والعجز وصفاته لابد وأن تظهر آثارها وتنجلي أسرارها ، والخلق وصفاتهم محل ظهورها ومجلا نورها ، فكيف يمكن إتصافه بهذه الصفات ولايظهر لهم محل ظهورها ومجلى كوامل بدورها دون العباد وصفاتهم . ومراد المصنف الوصف الذي يقتضي ظهوره وجود ضعف العباد لمقاومة تجليات العدل وغلبات الحكم والناس من الوسائل والحيل وصنوف السفاه وسيلان المقل على التفريط واقتراف الزلل وبيان مستتر العمل حين يتخلف عنك كل حبيب ، ويقلاك كل قريب ، وينساك كل حميم ونسيب ، فهناك يتحقق تجلي ظهورها وترتفع الحجب عن ستورها ، فيبدو للعباد مالم يكن لهم في حساب ولايسطر في كتاب من توالي العطاء والثواب يكون منه السؤال وعليه الجواب ، هو الحق كما نطق به الكتاب قوله عز وجل ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾ [الآية ١٠٩ المائدة] فهذا قوله بنفسه لنفسه في كلامه العزيز ، فكذلك يكون جواب الإتباع على ألسنة المتبوعين والمدعوين على ألسنة الداعين ، ولي في ذلك شعرا :

وصفت نفسك باللطف العميم ولا موجود غـــــيرك يافرد بلامثل
فكيف يمنع من قامت به حلـــــل ضعف وعجز وأنت المفضل الأزل

فلما كان العبد قد يظهر أفعالا محمودة وخصالا شريفة اعترف المؤلف بقوله :

(**إلهي**) بمعنى المنان المتفضل بصنوف الفضل والإحسان (**إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة ، وإن ظهرت المساوئ مني فبعدلك ولك الحجة علي**)

هذا من أحسن مايناجي به الحبيب ويتضرع به الأديب ، وهو الإعتراف لله بما أولاه من الإحسان وأفاضه عليه من النعم والإمتنان وإقامة النفس مقام الإعتذار ، لأن المحاسن المشار إليها في كلام المؤلف هو مايظهر على العبد من صنوف الطاعات وأفعال الموافقات وليس ذلك مقدور للعبد بل هذا فضل أبرزه عليه من عين منته ، وأفاضه لديه من سابغ رحمته ، وإلا فمن أنت حتى تقوم له بحق العبودية وأنت متلطخ بقاذورات البشرية منغمس في غمرات الشهوات ، فأنى يكون منك عمل صالح لأنه لم يخلص من رؤية الخلق أوظهور النفس ، وهذا لايصلح أن يقابل به أويعرض بين أهل حضرته ، وقد قال تعالى ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ فإذا حصل العبد على شئ مما يصلح للعرض عليه من خالص عمل أوحالة حميدة فإنما ذاك بارز على العبد من عين منته لامقدرة للعبد على تخليصه وتزكيته وإن ظهرت المساوي ورذائل الأحوال وقبائح الأعمال فبعدلك ولك الحجة على نسبة الأفعال الملومة والأخلاق المشومة إلي نسبة وإسنادا ، وإلى عدلك خلقا وإيجادا ، وهذه حالة الأدباء يشهدون المحاسن من الله لانسبة لهم فيها ولااقتدار لهم عليها ، ويشهدون نسبة المساوي إليهم فيندمون عليها مع ماهم مشاهدونه من سبق الإرادة بذلك ، وحكم الإقتدار فيما هنالك فهم معتذرون منها ظاهرا ، مستسلمون للحكم باطنا ، ولي في ذلك شعرا :

فرؤية الفضل والإحسان نسبتها إلى الإله فلا يأتي بها إلا هو

ومايكون من الأســـــواء نسبتها إلى العباد وحكم الله أنشــاه

وهذا مما يقتضي سرعة الإجابة والإسعاف والظفر بالمطلوب ، لأنه جاءه بوصفه واعترف له بنعمته عليه وفضله واعترف بتقصيره ، فلم يكن له إلتفات إلى غير فضله ، ومع ذلك هو مشاهد لتقديره وعدله فجدير بنيل المطلوب . فإذا كانت أسماؤه تقتضي ظهور آثارها أخذ في بيان تفاصيلها . وأسماء الجمال هي التي يحسن أن يتضرع بها ويبتهل إليه بمضمونها لأنها تضمنت للعباد دقائق اللطف والوداد قال :

(إلهي) بمعنى الوكيل الكافي الناصر الحفي وهو اللطيف **(كيف تكلني وقد توكلت لي ، وكيف أضام وأنت الناصر لي ، أم كيف أخيب وأنت الحفي بي)**

كيف تكلني إلى نفسي وتهملني تائها في ظلمات حسي وتحجبني عن مشاهدة أنسي وفسيح حضرات قدسي ، وقد تسميت قبل بروزي بأنك الوكيل الحافظ الكفيل ، فظهور اسمك الوكيل يقتضي توكلي في سائر أموري ، ولاتتركني موكولا إلى عجزي وضعفي وعدم علمي بما هو الأصلح لي ، بل يقتضي تأثيره في أن يتوكل لي في جميع حركاتي وسكوني وظهوري وبطوني وسائر أموري ، حتى تصرفني بحسن اختيارك فيما هو المطلوب مني واللائق بمقام الشهود مني ، فتقيمني بك لابي ، وتشهدني وجودك في الأكوان غائبا عني فانيا عن عالم تكويني ، باقيا بك في ديمومية ملكك ، فأحيا حياة الأبد بقيومية الواحد الأحد ، وكيف أضام بقهر الأيام وغلبة الأحكام وجور الحكام وأنت الناصر لي لأنك صرت لي وكيلا ، وبسرائر أموري كفيلا فلم يبق لي على سواك تعويلا ، فمن كنت له ناصرا ووكيلا

، ولأعدائه مقاوما فلم يظهر عليه المتظاهرون ، ولايعبأ بعدد الجنود المتناصرون ، قال صلى الله عليه وسلم **" يرحم الله لوط لقد آوى إلى الركن الشديد** " عند قوله ﴿ **أوآوي إلى ركن شديد** ﴾ أم كيف أخيب من فضلك العظيم وكرمك العميم الذي قال أهل الجحود والضلال ، وأنت الحفي اللطيف بي كما قلت ﴿ **الله لطيف بعباده** ﴾ وقلت في سبوغ نعمتك وتجليل منتك ﴿ **إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ فكيف تخيب آمالي من عطائك ، وكيف يرجع بخيبته من نصرتك وولائك ، أم كيف تعود آيسة من روح منتك ورجائك ، حاشا صفاتك العلية وتجلياتك الأزلية ، ولي في ذلك شعرا :

أنت الوكيل وكل الكون مفتقرا إليك ياكافي الذرات في الأزل

فلاتكلني إلى نفسي وأنت لها نعم الوكيل ونعم الناصر العدل

فلايضام نـــــزيل الله منتصر ولايخيب الذي بالله متصــل

ولطف الله بعبده لم يتخلف عنه في سائر أحواله وإن كانت مؤلمة له فهو أعلم بدقائق الألطاف فلايفارق العباد لطفه فمايحمله إلا هو ، وإذا علمت أن لاوسيلة للعبد أرجا من اعترافه بوصفه بين يدي سيده ، أخذ المؤلف رحمه الله في التوسل إلى الله فقال :

(ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك)

والتوسل بالفقر شان الأدباء أنهم لايرون وسيلة منهم أرجا ولا أنفع ولاأقرب من الإعتراف بذل العبودية عند مواجهة تجليات الربوبية ، فالإقرار بالإفتقار بين يدي الغني الجبار صفة الأخيار ، والوسيلة هي

مايقدمها المتوسل بين يدي من يتوسل إليه إذا كانت من خير الأعمال سميت وسيلة ، وإذا كان من الوسائط سمي شفيعا . وقد سمى الوسيلة شفيعا ، والشفيع وسيلة ، ولامشاحة في اللفظ إذا عرف المعنى ، فلا أرجا للعبد عند الله من الوسيلة مثل اعترافه له بصفات الكمال ، ولنفسه بالذبول والإضمحلال ، والإفلاس عن سائر الأعمال والغيبة عن الأفعال ، فلايجد مايتوسل به إلى مولاه إلا عدم حيلة وفقد علمه وعمله فيكون في حال قيامه في الأعمال غائبا عنها وفاقدا لها ، مفتقرا إلى سيده الكريم وخالقه الرحيم ، ولي في ذلك شعرا :

توسلي بافتقاري للذي نزلت   به الحوائج جل الواحد الأحد
فلاتروم نوالا قط ماعدلت   عن بابه من سواه الخير لم تجد

فلما كان التوسل بالفقر يقتضي أن لايكون للأغيار وجودا أوللأعيان شهودا ، والفقر لايناسب الغني ولا المناسبة بين الوجود والعدم ولابين الحدوث والقدم ، قال المؤلف رحمه الله :

(وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك)

كيف يكون التوسل إليك مني بفقري ولانسبة بين فقري وغناك ولابين نعتي ووصفك ، والمتوسل إلى المتوسل إليه لابد أن يكون نسبه يتوصل به إليه ، فكيف يتوصل إلى الله بما هو محال عليه ، فرؤية الفقر تنبي عن بقية رؤية شهود غير ، إذ الأحوال في حضرة التوحيد أغيار والفقر من جملة الأحوال ، فلاسبيل إلى تحقيق الفقر إلا بالغيبة عنه ، ومالم تغب عنه فأنت بعد لم تفن عن رؤية أحوالك ، وحضرة التوحيد

لايليق فيها شهود غير الواحد الأحد ، فإذا لاوسيلة إليه بسواه ، ولااعتماد على من دونه في جميع مايهواه ودفع ما يخشاه إلا إياه ،ولي في ذلك شعرا :

كيف التوسل في نيل المــراد بما لانسبة بينه والله مــــــولانا
هذا في القرب فاعرف حق رتبته أما إذا كنت في الأسباب فالآنا

وهذه رتبة في القرب ، وأما في مقام المعاملات فهو المطلوب منك كما قلت في البيت ، أما إذا كنت في الأسباب فالآنا لك آن لك أن تكون كذلك مقدما لإفتقارك وتقصيرك واعتذارك ، ولما كان حال القرب والشهود يقضي بأن الشكوى تشير إلى الغيبة عن المشهود قال المؤلف رضي الله عنه :

(أم كيف أشكو حالي وهو لايخفى عليك)

الشكوى هي شكوى الحال وإظهار الحال عن مكنون السؤال ، وذلك لايكون لمن غاب عنه مكنونات الأحوال وعزبت عنه خفيات الأفعال وذلك على الله محال ، كيف وهو العالم بها قبل بروز العالم من العدم وظهور أعيان الأمم ، وذلك أيضا عند شهود حقيقة الكشف والعيان مادب عن حضوره على الجنان بأن يتوهم عقله أونسيان ، وأما بروزه على اللسان بالتضرع إلى الديان فلا حرج إذا كان عبودية واستيقان أنه لايكون ماقد كان ، ولي في ذلك شعرا :

فكيف أشكو إليك الحـال ياصمد وأنت أعلم بما فيها من الشجن
أم كيف لا وانت أهلا أن تكون لها ربا إليك عظيم البث والحـزن

أم كيف أترجم إليك بمقالتي وهو منك برز إليك ؟ أم كيف أي عجبا كيف أترجم والترجم بالتفهيم باللسان عما انطوى عنه الجنان ؟ فكيف

أبين أمرا أنت الذي أبرزته على جناني قبل أن تنطق به لساني ، فعلمك المحيط الذي أحاط بأوائل الأمور وأواخرها وببواطن الأعيان وظواهرها ، فكيف الترجمة هنالك وإظهار هنالك ، إذ نشاهد الحقيقة ذلك اللهم إلا أن تكون الترجمة باللسان عبودية للرحمن وإظهار السر غناه في شهادة الأعيان ، فذلك مطلوب أيضا من الإنسان في الشرائع والأديان ، ولي في ذلك شعرا :

فالترجمان لمن لا يفهم الخبر　　　والله جل عن التشبيه بالبشر
لاتركنن إلى التمثيل بالغير　　　ولاتعطله عـــــين ولا أثر

(أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك ؟ أم كيف لاتحسن أحوالي وبك قامت وإليك)

فهذا من الصنف إنعطاف إلى نيل الظفر والإسعاف بمزيد الألطاف ، وتملق من عظيم الفضل والإتحاف بنيل مأمول الوصل وهذا تحقيق رجاء السالكين وبغية نجباء المريدين ، وثمرة غرس أعمال الصادقين أن يتحققوا في الله بحسن الظن أن لايخيب آمالهم الوافدة عليه ، والمتوجهة بكلية هممها إليه ، والوفد هو وصف القادم النازل المحبوب المفروح بقدومه ، كما قال الله ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ [الآية ٨٥ مريم]

(أم كيف لاتحسن حالة منتسبة إليك بفناها ؛ عن نسبتها سائر أحوالها وقواها)

وهذا من المصنف إشارة منه إلى تطوره في مظاهر الحقيقة وترقيه ، ولي في ذلك شعرا :

فكيف ترجع أمالينا وقد وفـــدت　　　إليك خائبة حاشاك ياصمدا

وكيف لا تحسن الأحوال وهي كذا   إليك نسبتها بالجود والمددا

فلما أنس من فضل الله مالم يكن له به استعداد ورأى من تجليات سر الوداد مازاد على المراد أخذ في الإعتراف له بذلك ، وعدم استحقاق نفسه بما هنالك ، وذلك مما يعطيه مقام المعرفة فقال :

(إلهي) بمعنى اللطيف بي والحليم عني **(ما ألطفك بي مع عظم جهلي ، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي)**

إلهي ومنتهى آمالي وبغية لطائف أحوالي ما ألطفك مع عظمتك وعلو كبريائك بي لمهانة صورتي وعظيم جهلي ، فلولا عظيم لطفك بي لما تخلفت عني عقوبة جرائمي وهذا شان أهل الإيمان كما روي في الحديث **" إن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخشى أن يقع عليه ، وأن المنافق يرى ذنبه كالذباب على وجهه قال به هكذا "** فرؤيته لذلك توجب الحياء من الله والوقوف على حد العبودية بالإفتقار والذلة والإنكسار وما أرحمك بي ، لأن سر رحمتك هو القيام بوجودي مع قبيح فعلي ، فقبيح الفعل مايجترحه العبد على خلاف أمر سيده ، فلا أقبح فاعلا ممن يستعين بعطائه وغوامر آلائه على معاصي سيده فهذا أقبح كل قبيح ، فلولا عميم رحمته وشمول رأفته لأدركت العاصين لله أنواع العقوبات على ممر الساعات واللحظات ، ولي في ذلك شعرا :

لطائف الله في الأكوان شاملة   وإن تعاظم جهل فالإله علي

ورحمة الله في الأكوان سابغة   لاتمتنع بقبيح الفعل والزلـل

قال المؤلف رضي الله عنه :

(إلهي) بمعنى اللطيف في عظمته والداني في رفعة تعاليه **(ما أقربك مني وما أبعدني عنك)**

ما أقربك في شمول إحاطتك بي واستغراق معيتك لباطني وظاهري وسائر لطائفي وقيام أمرك على سائر أحوالي وشهودك لسائر شئوني المتكونة وسائر أعمالي المتلونة ، وما أبعدني عنك في المناسبة والمشاكلة وفي الذات والصفات والأفعال ، وذلك لظهور حكمته البالغة أن أوجد الخلق وجعل لهم ذوات وصفات وأفعال ليظهر عظمة ربوبيته العلية ذاتا وصفاتا وأفعالا على هذه الرفعة العبدية ذاتا ووصفا وفعلا ، ولي في ذلك شعرا :

قرب الإله من الأشياء برحمـــــته وما أحاط به من علمـه الأزلي

وبعدها عنه من حيث الصفات كما بعد الذوات كذا الأفعال لامثل

فمقام رؤية البعد هو الذي يرد العبد إلى الطلب ، ومقام القرب هو الذي يعطيه كمال الأدب وكلا الحالين في حق أهل الله خير ، فإن أقيموا في رؤيتهم لوجودهم فلما يقتضيه منهم من حق العبودية ، ويسمى عندهم بعدا عن شهود تجلي أسرار الربوبية لا البعد الذي عنى به أهل الحجاب المبعدين في دركات العذاب ، وإذا تجلى عليهم بكمال صفاته ولاحت لأسرارهم أنوار ذاته كانوا بالحقيقة مجموعين ، وعن شهود الأغيار ممنوعين وهو القرب الذي أشار إليه ، وعند تجلي هذا المشهد الرحموتي قال المؤلف رضي الله عنه :

(ما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك)

لما رأى من عظيم القرب ماغيب عنه ظهور الأغيار وطمس عنه رؤية الآثار قال : ما أرأفك بي ، فاالرأفة من خصائص فائضات الرحمة فلذلك تسمى بالرءوف فقال ﴿ **إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ فالرأفة ظهور أثرالرحمة على المرحوم ، فما الذي يحجبني عنك وليس لي مشهود سواك ولا موجود إلا إياك ، ولي في ذلك شعرا :

في رأفتك علقت الآمال ياصمدا	وكشف نور جمال الحق مشهود
فكيف يحجب من منك له يدا	ولايضام نزيل الفضل والجـــود

فمن آثار تلك الرأفة وظهور تلك الرحمة ما أشهده قلوب أوليائه واختص به أرواح أصفيائه من ظهور رحمته في كل شئ ، فلا يواجهون في الأشياء إلا سر رحمته ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(**إلهي**) بمعنى الظاهر لي برحمته والمتجلي لي في كل شئ بتمام نعمته وكمال منته وعظيم محبته (**قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلى كل شئ حتى لا أجهلك في شئ**)

وهذا العلم الذي أشار إليه هو ما اختصه الله به من علمه المكنون وسره المخزون الذي من علمه إرتقى به إلى رتبة الكشف عن مادخل تحت تكوين الكاف والنون ، وإذا علم الله عبدا هذا العلم كان حكيما وهو الحكم التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا باطنا وظاهرا ، واختلافها أي الإثابة بنصره لذوي الأبصار ففيها مالايخفى من تصاريف الإعتبار ﴿ **فاعتبروا ياأولي الأبصار** ﴾ فعبر أهل الإعتبار إلى تحت ستور الآثار من اسمه النافع الضار وغير ذلك من تقلبات الآثار ، فلو كان أقمتني في حالة واحدة

لم تنقلني عنها ضارة أوسارة حلوة أوقارة لكنت ناقص المعرفة عن كمال ظهور في متعددات مظاهر ألوهيتك ، فإذا كان مايتجلى به من المؤلمات والملائمات مما يروث العارف زيادة معرفة فكانت له الأشياء كلها تعرفات خاصة ونعم من الله سابغة وهو بعض وجود الآية في قوله تعالى ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ [الآية ٢٠ لقمان] كما سمعنا ذلك غير مرة من شيخنا العارف السيد الشريف عمر بن عبدالرحمن علوي نفع الله به أن النعم الظاهرة هو ما ظهر من النعم ، والباطنة ما انطوى من التعرف في المحن ، وكتب بذلك مستشهدا به للشيخ علي بن محمد بامزاحم ساكن بروم لما شكى إليه بعض ماناله من المحن ، وإذا كان الأمر كذلك فالنعمة الباطنة فيها مالايخفى من المزيد لسائر العبيد ، أما المقربين فلما تزاد به معرفتهم التي يصغر إلى جنبها كل شئ من أصناف النعيم ، وأما أصحاب اليمين وعموم المؤمنين فلما ينالوا من الثواب الجسيم ويكفر عنهم من السيئات ويدفع عنهم من العقاب كما وردت بذلك كله الأخبار ، وشهدت به الآثار وهذه التاثيرات كثيرة : مثل الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والطاعة والمعصية ، ولك فيما ظهر منها تعرف خاص من تجلي اسم خاص ، ولايكون شاهد الإسم وغائبا عن المسمى ، وغاية النعيم ومنتهى كل مقصد ومطلب هو شهوده وتحقق وجوده ، وأما تنقلات الأطوار فهي تنقلات الأحوال ، وتغاير الواردات فهي من متعلقات القلوب وتجليات أسرار الغيوب فهي لأرباب القلوب مشهودة وعند ذوي الأطوار موجودة : كالقبض والبسط والخوف والرجاء والهيبة والأنس والوجد والفقد ، وكل

ذلك أيضا تعرفات وصفية وتجليات ذاتية يعرفها من وصل إليها وتحققها من طافت سره لديها ، وأما عموم الخلق فليس لهم إلى تنقلات الأطوار سبيل وإنما هم في شهود إختلاف الآثار والإرادة محيطة بكل ذلك لاتتقلب عنها لمحة ناظر ولافلتة خاطر ، ومن أشرف على علم الإرادة كان تاركا لإختياره راضيا عن الله في جميع مايوصله إليه من نفع وضر ، فلا أعز منه علما . فمن أراد غير ذلك أي رأى أن يكون بحالة يختارها لنفسه فقد أعوز المعرفة فعبد الله يسأل الله أن يشعره لطفه وحسن إختياره له فيما قضاه ولا يطلب أن ينقله عن حالة هو فيها ؛ إلا ماقد علم أنه لايرضاه له كالإيمان مثلا فإنه يطلب الثبوت عليه ، وكل ماعلم أنه لايرضاه له كالكفر وماوالاه فيطلب الله أن يحفظه منه ويعصمه منه ، ذلك لأن كل ذللك ليس من تدبير العبد واختياره بل من تدبير الله واختياره ، والشر فيه ظاهر والإيمان أيضا الخير فيه ظاهر بخلاف ماعدى ذلك من سائر الأحوال فالأمر فيه غيب لايدري العبد خيره من شره ، فيكون عبدالله حيث أقامه ولايكون ممن قل فهمه عن الله إن ورد عليه غير ملائم لطبعه وموافق لحظه سخط وتبرم ، فيصدق عليه قوله سبحانه ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ [الآية ١١ الحج] ولكن المطلوب من العبد أن يكون حريصا على حق العبودية لله في كل حال يرد عليه من الله ، فأما إن كانت من قبيل النعمة فحق العبد أن يقوم لله فيها بالشكر وإن كانت من قبيل الطاعة فشهود المنة لله ، وإن كانت من قبيل الذنب فالتوبة

والإستغفار ، وإن كانت من قبيل البلية فالصبر ، فالأمر دائر على هذه الأحوال ، ولي في ذلك شعرا :

لقد علمت بأن الله حكمـــــته في اختلافات آثار المقاديـــــر

ومايكون من حـــــال برحمته فيما كمن تحت مكنون التباشير

إن يشهد العارف أن الكل نعمته في كل وارد من حكم المقاديـر

له زيادة قرب أونـــــيل منته تحت المعاني وأطوار التصاوير

(**إلهي**) بمعنى المولى الكريم المتفضل المحسن ذو الصفات العلا والأسماء الحسنى **(كلما أخرسني لومي أنطقني كرمك ، وكلما آيستني أوصافي أطمعتني أوصافك)**

كلما يقتضي التكرار كذلك والعبد أبدا واقع في الأفعال التي تورث اللوم بين سيده ، لأن العبد ناقص في الأصل فلايصدر عنه من الأفعال إلا النقص ، والأفعال متفرعة عن الذات الصادرة عنها ، وقد علمت ماذاق العبد عليه من النقص فإذا شهد مامنه من الأفعال الناقصة الملومة والخصال الرذيلة المذمومة أخرست لسانه عن الكلام ، وإذا أشهد الصفات العلية والنعوت الكاملة الأزلية غابت عنه صفاته واضمحل عنه شهود ذاته فرأى الكمال العلي نطق وأوسع في الكلام ، كيف لا وقد لاح تيار الكرم والفضل العظيم ، فأنى يفنى المقال بعبارته أوتفصح المقالة بإشارته ، كلا ! لايصل تعبير المعبرين ومقال المتبحرين إلى غبرة من رماله أورشحة من بحار نواله ، فكيف يقصر في الكلام عند شهود مواهب ذي الكرم والجود ! أوكيف ييأس عند تجلي اسمه الرحيم الودود ، فهنا طمع في نيله أهل المعاصي والجحود بأهل الإيمان والشهود ، ولي في ذلك شعرا :

فكلما أخرستني قبح معصيتي لاشك تنطقني من وصفك الكـــرم
وكلما آيستني كل مفضـــــعة مني إليك طمـــع في فضلك العمم

ثم أخذ المؤلف في بعض بيان ما العبد متصف به من النقص فيما يصدر منه على صور الكمال فقال :

(**إلهي**) بمعنى الكامل الموصوف بصفات الكمال ، والمنعوت بنعوت الجمال والجلال (**من كانت محاسنه مساوي فكيف لاتكون مساويه مساوي ، ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لاتكون دعاويه دعاوي**)

إذا كانت المحاسن المنسوبة مساوي لما قارنها من النقص في النشأة ومايصحبها من القوادح الموجبة للعبد عليها إن لم يزكيها الله ويخلصها من ذميم الإرادات الدنية فكيف لاتكون المساوي الظاهرة منه مساوي ، والإنسان إذا لم يلاطفه الله ويتداركه بعصمته لايخلوا عن سيئة تستوجب العقوبة إن لم يتجاوز عنه الله ويعفو ، وذلك لأنه انطوت في طي جبلته جميع الطبائع الحيوانية والصفات البهيمية والأخلاق الضارية السبعية ، فكيف يتصور خلوه عن شئ طبع في أصل خلقته وانتقش في طي جبلته اللهم إلا أن يتفضل الله بفضله فتحيط به العناية الأزلية فتعلق فيه الصفات العلوية الصافية السماوية فتقهر تلك الصفات الأرضية ، وتتوالى عليه الواردات الإلهية والأسرار الحقية والأنوار الوصفية ، فلا جرم حينئذ أن يكون عليه من الكمال الإلهي مايرفعه عن حظيظه السافل ويلحقه بذروة الأوج الكامل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذ الفضل العظيم ، ولي في ذلك شعرا :

محاسن العبد إن ينظر إليه يـــرى فيها المساوي وكل فيه منـــــدرج

كيف المساوي إذا حققت ذاك فما   يخلوا عن السوء فيما قيل والحرج
ومن كانت حقائقه فيما يزعم أن هناك للعبد حقائق فهي دعاوي لأن مسندها إلى العدم ، والعجز لاتكون دعاويه الظاهرة التي لايخلوا عنها أيضا كل إنسان إلا من حققه الله بالشهود والعيان ، فمن جملتها شهود الغنى له في ذاته أوصفة أوفعل ، ونسيان الإفتقار كذلك أبدا فهذا من الدعاوي ، بل كل دعوى لم تصدر إلا فرعا عن هذا المشهد ، ولي في ذلك شعرا :

حقائق العبد في النسبة إليه سدى   فلالها مستند في الأصل يعضدها
فكيف ماكان من دعوى بغير يدا   بيان بطلانها أن ليس يشـــهدها

(إلهي) بمعنى القاهر الحكيم **(حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالا ، ولالذي حال حالا)**

شهود نفوذ الحكم من غير مبالاة بالأسباب وقهر المشيئة وغلبة الأمر هو الذي قطع قلوب الخائفين ودله ألباب العارفين فان رأى مقالة فصيحة فعليه الحكم ينقلب ، أي العام بعد أن كان كما قيل يكتب عند العلم من فاه كالحمام أوكما قيل ، وإن نظرت إلى رفعة المحل وقوة الحال فلا أنزه من صفيح السماء ، فإن إبليس غلب عليه سابق الحكم وانبرم على شقائه سجل الأمر أنزل كما ترى وطرد والعياذ بالله من سوء المقدور مع ماكان من رفعة الحال ورفعة المحل ، كما كان يعبدالله أربعة آلاف عام ، فكفى بذلك مخوفا لذوي العقول السليمة أن لايسكنوا إلى شئ مما يبدو منهم من العلم أوالعبادة ، وأن لايكون كلما ازدادوا علما ازدادوا خشية لله تعالى ، وخوفا من أليم المكر وشدة سطوة القهر ، ولي في ذلك شعرا :

نفوذ حكمك في الأشياء بلاسبب هـو الذي حير الألباب والمهـج
وللمشيئة قهـــــــــــــر لايغالبه حال فكم فيه من علم قد اندرج

ثم أخذ في بيان الأسرالتي يرجو بها العبد الفوز عند الله فقال رضي الله عنه :

(كم من طاعة بنيتها ، وحالة شيدتها ؛ هدم إعتمادي عليها عدلك ! بل أقالني منها فضلك)

كم من طاعة بنيتها ، والطاعة هي صفة قائم ظاهر العبد بالفعل المأمور به من قول أوفعل جازم وغير جازم هي الفرائض المعلومة من الدين بضرورة كفرائض الإسلام ، وغير الجازم كنوافل الطاعات ، وبنيتها هو الإتيان بها على وجه الإستقامة وحفظ سائر حدودها من أركان وشروط وسنن ، واجتناب منهياتها حرمة وكراهة ، وفعل ماهو الأولى فعله وترك ماالأولى تركه وغير ذلك من وجوه الحظ وتحري المحافظة ، والحالة التي شيدتها هي حالات القلب من تخليته من رذائله وتحليته بمحاسن صفاته وإمعان النظر بغاية الجهد في دقائق خطراته ولطائف حركاته حتى بلغت ماهو المقدور من جهدي في ذلك ، فاعتمدت على ذلك وأستندت إلى ماهنالك وطال لدي ذلك ، فلما انكشف لي عن نعوتك الجلية وصفاتك السنية وتجلياتك الأزلية التي لا تعلل بعلة ولاتكتسب بحيله ، وظهر من أسمائك الجلالية اسمك العدل الذي لايرد حكمه بسبب طاعة أوحسب أونسب ، تعذب من تشاء وإن كان طائعا ، وتغفر لمن تشاء وإن كان عاصيا هدم ذلك اعتمادي على ماكنت معتمدا عليه دونك فهربت منها إليك ومن كل شئ دونك ، فرأيت أن الإعتماد على الأسباب دون مسببها مما يوجب العقاب

، فاستقلتك مما كنت عليه معتمدا دونك ، فأقالني فضلك الذي هو معتمد الهاربين ومنتهى رغبات الآملين ، ولي في ذلك شعرا :

كم طاعة لك أحسنت القيام بها وكنت فيها كثـــير الهم مجتهدا
وحالة طالمـــاكنت اعتنيت لها بتزكيتها مع الأنفاس مرتصـــدا
لما تجلى ظهور العدل عطلـــها حتى علمت إنما غير الإله سدا

(**إلهي**) بمعنى معبودي العالم بتفاصيل أحوالي وجريان أفعالي قبل مظهر صورتي وصور أعمالي (**أنك تعلم وإن لم ترم الطاعة مني فعلا جزما فقد دامت محبة وعزما**)

كما أوجدت في وطبعت عليه جبلتي ، علمت لامحالة أن تعلم ذلك مني إذ لا تخفى عليك تفاصيل أحوالي وجريان أعمالي ، وأنا أجد إني وإن لم ترم الطاعة مني فعلا وجزما كما هو شان الدائبين على عبادتك ، والعاكفين في حضرة قدسك ، لايسأمون ولا يستكبرون عن خدمتك ، فأنا وإن كنت كذلك فعلا وجزما فأنا دائم محبة وعزما ، أي محب لها وللعاملين بها . وقد ورد على لسان نبيك " **المرء مع من أحب** " وأنا أحب أن أعمل بها وحب العاملين ، وعازما عل فعلها في كل آن ، فأكون بنية القصد والعزم عليها في زمرة العاملين ، وذلك غير مستنكر ولامستبعد كما وردت بذلك الأخبار الدالة على أن العازم على فعل الطاعة في طاعة ، والعزم هو عقد القلب على فعل ذلك فهو في ديوان الطاعات إن كان طاعة ، وفي ديوان المعاصي إن كان معصية ، لأن العزم هو تصميم القلب على الفعل فما بقي إلا عزم تقدير الحركة فيه والعجز عن الإتيان به ، ويبقى كذلك حتى يجد مساعدة

القدر له فيفعل متى وجد ذلك ولم ينهض له فليس بعازم ، ولي في ذلك شعرا :

فأنت تعـلم أني فيك مبتغيا لطاعتك ياعظيم الفضل والمنن
حبا وعزما بذاك السر مرتقيا إليك يامنتهى الآمـال والسنن

فالعزم تقتضي شهود العبد لأمر سيده ، والقهر مقتضى فناء العبد عن سائر أفعاله ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(إلهي) القاهر لمن سواه المعبود مستحق الإمتثال فمن عداه **(كيف أعزم وأنت القاهر ، وكف لا أعزم وأنت الآمر)**

هذا مقام يشير إلى النهاية والتمام إذ شهود القهر الذي هو وصف الحق يقتضى من العبد أن لايكون له حركة ولا سكون في كليات أفعاله وأحواله ، ولكن من وقف على ذلك دون شهود أمره وقع في التعطيل والجبر ، وكيف لاأعزم وأنت الآمر ، لأن شاهد العبد المبادرة لإمتثال أمر سيده إلى ماندبه إليه ، وانزجاره عما زجره عنه ، فإذا كان على ماذكرنا ممتثل الأمر ومنزجر عن المنهي مع شهود فناه عن سائر أفعاله واضمحلاله عن كليات أحواله فقد قام بحق العبودية ظاهر ، وتأدب للربوبية باطنا ، وهذا غاية مطلب العلماء إسقاط سائر الأحوال والقوى منهم باطنا والإستقامة على حد الأمر ظاهرا ، وبذلك وصلوا إلى صرف الحرية ، ووقفوا على حقيقة الأمر ، ولي في ذلك شعرا :

فكيف أعزم وأنت القاهر الأحد وكيف لا وانت حق الآمر الصمد
هذا الشهود مقـام العبد بالرصد يكون فان وباق طالب المـــــدد

(**إلهي**) بمعنى مقصودي ومنتهى آمالي ووجه قلبي ومرادي في توجهي وإرادتي (**ترددي في الآثار يوجب بعد المزار ، فاجمعني عليك بخدمة توديني إليك**)

التردد في الآثار هو الإنتقال في الأطوار وبقية التعلق بالأغيار ، والطمع في جنة أوخوف من نار ، أوترقب أنوار ، ومخاطبات المقامات والأسرار ، وتردد بين البراري والديار ، واستئناس بالأهل والجار ، والركون إلى المألوفات والإغترار بزخارف الأنعام والعقار ، وغير ذلك ولو إلى الألحان ومطربات الأوتار وتغريد الأطيار ، فكل ماسوى الأحد القهار فالركون إليه أستار وبعد مزار ، وقرب المزار هو رفع الحجب والأستار ، على الحسن الذي منه استعار كل ذي حسن حسنه وبنوره كل كائن استنار ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ وكلما نأت بالمحب عن حبه الديار تكاثرت مظاهر الآثار ، وتكاثفت الأستار ، فلما أحسن ذلك سارع إلى الفرار ومد أكف السؤال والإفتقار في أن يتداركه من هذه المهالك والأخطار ، فقال بلسان الإضطرار : فاجمعني عليك كثرة تغاير الأغيار ومدلهمات ظلمات الآثار ، فالجمع عليه بأن لايجعله فيه مساع لأرادة مراد غيره ، ولااتساع لشهود سواه ، فيفر إليه مما سواه حتى يفر إليه من فراره ، والخدمة المؤدية إليه هي إدامة ذكره وإتمام فرائضه وتكميلها بنوافل الخيرات ، مع فنائه عن شهود نفسه في ذلك وعدم إعتماده عليه ، وذلك لماروي في الحديث القدسي " **ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه** " الحديث بطوله . وإذا كان كذلك في الخدمة دائبا ، وللمنة شاهدا ، وللنعمة شاكرا ، وفي البلية صابرا ، وعن المعاصي تائبا فقد حصل بعون

الله على الإستقامة على جادة الطريق المثلى ، فالمرجو من فضل الله كما يسر له تلك الأسباب لمن يغلق دونه الباب ، إذ هو المتفضل الوهاب ، ولي في ذلك شعرا :

ترددي بين آثار وأغيار　　موجب لبعدي عن الأحباب والدار
فياغياث لملهوف ومحتار　　اجمع عليك بطاعـــــــات وإيثار

(إلهي) بمعنى الظاهر الأحد المبدع لأصناف الفطن ، والمظهر لسائر المعاني والصور **(كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى تكون المظهر لك ! متى غبت حتى يحتاج إلى دليل يدل عليك ! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك!)**

هذا تعجب من يظن أن الموجودات تدل عليك ، وإنما دلت عليه إلا من حيث ما أعطاها من الوجود ، ولو لم يكن ذلك لم يكن لها في ذواتها وجود ، فدل ذلك على أنما دل عليه من قبلها إلا وجوده فيها لاهي من حيث هي ، فهو الدليل على نفسه لاغير ، إذا افتقارها في إيجادها وإمدادها في قيام وجودها أول دليل على انعدامها ، وأبين برهان على ظهور توجدها ، وممدها في قيام وجودها . فمتى غاب ! ولوغاب لم يكن للوجد بأسره وجود فديموميته برهانها قيام العالم واستمرار وجوده ، فأرباب الشهود والعيان غنوا بما واجه قلوبهم من ظهوره وشروق نوره فلم يحتاجوا إلى الإستدلال عليه بما هو مفتقر في وجوده إليه ، وكلما سواه كذلك مرسوم بالإفتقار إليه ظهرت عليه سمة الإضطرار ، وله الغناء المطلق ، أيكون لغيره من الظهور ماليس له ! هذا تقبيح من أرباب الشهود

المستدلين بالأشياء عليه ، ولكن من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وليس تقبيح توبيخ إنما هو إغرا على هو الأولى وهذا يحسن في قيام مناجاة الحبيب ، وتذلل المحب مع الحبيب ، فالدلالة لاتكون إلاعلى غائب وأنت حاضر على خفيات الضمائر ، ولمحات النواظر ، وفلتات الخواطر ، سامع وناظر ﴿ **وماتكون في شان** ﴾ الآية ، فكيف توصل الآثار إليه والوصول إليه لايكون إلا متحيز في وجهه والله منزه عن الجهات ، فمتى بعد وهو القريب الداني ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون** ﴾ [الآية ٨٥ الواقعة] ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ [الآية ١٦ ق] قرب لايماثله قرب الأجسام ، من غير مماسة ولا استقرار ولاحلول ولاامتزاج ، بل على الأمر الذي وصف ، والوجه الذي عرف ، فلا يوصل إليه سواه ، ولايستدل عليه إلا إياه ، ولي في ذلك شعرا :

كيف استدل عليه المستدل بما ... هو من بدائعه في الذر والفطر
وكيف يوصل إليه مابه ظهرت ... أعيانه من بديع الخلق في الصور
تبارك الله مظهر كل كائنة ... ومنشي أصناف مافي الكون من أثر

(إلهي) بمعنى الرقيب علي **(عميت عين لاتراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا)**

عميت عين ، فعمى العين القلبية هو العمى حقيقة ، قال الله جل ذكره ﴿ **فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [الآية ٤٦ الحج] وعمى عين القلب أشد من عمى العين الظاهرة ، ومن كان في هذه أعمى

عن مراقبة الله وعن النظر في آيات الله والهجوم على محارم الله من غير حياء من الله ولامبالاة ن فهو في الآخرة أعمى عن النظر إلى جمال الله ، وما أعد فيها لأوليائه ورؤيته عليها من رقيب هو مقتضى الإيمان ، والمراقبة حالة قلبية تعطي المراقب حالة يرى أن الله يراه في جميع مايتعاطاه ، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه ، أويفقده حيث أمره ، وهي لأرباب القلوب ، وهي برزخ بين المحاسبة التي هي حالة أرباب الظواهر ، وبين المشاهدة التي هي لأرباب السرائر . قال بعض الحكماء في الدين : أن المراقبة نور ينبسط في الصدور وهو من شعاع نور شمس الإحسان كالضوء على الحيطان ، وخسرت صفقة عبد ، أي بيعته وماربحت تجارته إن لم تجعل له في سابق علمك من حبك نصيبا . والحب من الله لعبده هو أصل كل خير وغنم ، ومن جملته ثناه عليه ومدحه إياه الذي لايوازي بعمل ، ومن آثاره على الظاهر الهداية المحاب وصرفه عن المذام .

ومن محبته لعبده أن قد غفر له وبجله ومدحه وأعد له الجزاء قبل إيجاده ، وهيأ له أرضه وسمائه ، وجنته وسائر نعمه وآلائه ، قبل إبرازه من العدم بما نص عليه في كتابه القديم ، ووصفه العظيم الذي لم يسبق بفعل من أفعال المخلوقين المرتبة فيه المضافة إليهم إضافة تشريف ، ومحبة العبد لله فرع محبة الله له وهو مايتقرب به إلى الله من أنواع الطاعات واجتناب المنهيات ، والخطاب في قوله : من محبتك نصيبا إلى الله ، فإن الله يحبهم ابتداء من غير تقدم عمل منهم يقتضي أن يحبهم ، لعله يتعالى عن العلل في سائر أفعاله ، ويحبونه بما أظهره عليهم من آثار محبته لهم التي هي الطاعة كما بينا ذلك . ومن لم يجعل له من هذه المحبة المخصوصة نصيبا فقد بان غبنه

وخابت مطالبه ، وبانت خسارته بأن كره إنبعاثه فثبطه عن التوجه إليه ، والإقبال بوجه القلب عليه ، فنعوذ بالله من سوء القدر ، وماسبق به من حرمان الظفر بالوطر ، ولي في ذلك شعرا :

من لم يراك رقيبا ظل في ظـــلم حـــيران أعمى عن الأنوار منحجب
وخاب عبد خسر في بيع صفقته إن لم يكن لجنـــــاب الله منتسب
محبة الله في غيب القدم سبقت لأهل السوابق في العلياء بـلاسبب

(إلهي) بمعنى ولي أمري في الإدخال والإخراج الأمر لعبده في كليات الأحوال ، ومكالفة وظائف الأعمال **(أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الإستبصار ، حتى أرجع إليك منهامصون السر عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الإعتماد عليها ، إنك على كل شئ قدير)**

أمرت بالرجوع إلى الآثار لأداء ما توجه على العبد من الحقوق الواجبة وماسبق له من الأقسام العاجلة حتى يستكمل ماله منها ويودي ماوجب عليه ، فيرجع بعد كمال المعرفة واستخلاص التوحيد بجميع أطواره ، فسأل المؤلف حفظ ما شهد من التوحيد ، وأشرق عليه من أنوار التفريد أن يحفظ حال رجوعه إلى تفرقة التعديد ، وتوارد الأضداد الذي منها مايشير إلى القرب ، ومنها مايدعو إلى البعاد ، فإذا رجع إليها بكسوة الأنوار القدسية مؤيدا ، وبعز الأحدية مؤزرا ، وبالمعارف الحقية مستنصرا ، كان رجوعه إليه بالله لأنه صار له يدا ومؤيدا وبصرا وسمعا وغير ذلك من إستغراق أنوار المعية الحقية ما تعينت به الأعيان الخلقية ، فلاياخذ منها شيئا بل يأخذ منها ، ولايكون له إعتماد عليها ولانظر إليها ، وكيف ينظر

إليها وقد طويت بأنوار موجدها ، وكيف يعتمد عليها وقد إضمحلت في ظهور مبدعها ، فلا جرم أن يرجع إلى الله إذا كان كذلك محفوظ السر عليها ، مؤيدا بالنصر عليها كما دخل بالله خرج إليه به ، إذ لم يحجبه عن شهود سيده ﴿ **إنك على كل شئ قدير** ﴾ لأن الأشياء كلها على فلك إقتدارك دائرة ، وتحت سلطان مشيئتك ناظرة ، فلايعجزك حفظي عنها وأنا شئ من هذه الأشياء ، وإذا توجهت قدرتك إلي بالتاييد ومشيئتك بالتسديد لم تاخذني مظاهر التعديد ، ولم ينتصر علي كل معاند عنيد ، ولي في ذلك شعرا :

لأهل النهايات أمر بالرجــوع إلى مظاهر الخلق في الآثار والغــــير
ليكملوا كل نقص مثل ماكمـــــلوا وإيفا حق وجب في سابق القدر
إذا سبق ذاك فارجعني إليك كما دخلت منها مصون السير والنظر

(**إلهي**) بمعنى العزيز في قربه ، والقريب في عزه ، واللطيف في عظمته ، والعظيم في لطفه ، والمعبود بالإستحقاق على سائر العباد (**ذلي ظاهر بين يديك ، وحالي لايخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدني بنورك إليك ، وأقمني بصدق العبودية بين يديك**) الذلة هو صفة العبد بين يدي السيد العزيز ، والمتفضل الكريم وهو روح العبودية لله ، وبمثل هذه المناجاة تحسن عند المفاجاة ، وبها تفرغ خزائن العطاء ، وإذا أراد الله إعزاز عبد عرف ذل نفسه ودلول حسه وغيبه عن رؤية أبناء جنسه حتى تحلو له المناجاة ، وتصفو له المفاتحة . وإذا أراد الله إهانة عبدحجبه عن ذل نفسه وأراه الحسن منها ، وغطا عنه عيوبها ، وسلط الخلق ليشغلوه عن الله بالقيل والقال ، ووعر عليه مسالك

الوصال ، وزين له طريق الضلال ، ومخالطة الجهال وأهل الفسوق والضلال ، وحرمه مجالسة الأبدال ، وحصر إليه أهل الله أهل الكمال ، نعوذ بالله من هذا الحال ، وجنبنا طريق الجهال والغواة الجهال . منك أطلب الوصول إذ لايطلب الوصول إلا به ، وهذا حال العارفين لايجدون سببا يوصل إلأيه سواه ، ولاوسيلة يتوسل بها إلا إياه ، إذ لادليل عليك أظهر منك ، فكيف يستدل بغيره وهو الذي أظهره وبباهر قدرته قدره ، وبمشيئته دبره ، فاهدني بنورك إليك .

وهذا النور هو نور الإيمان الكائن في داخل الجنان ، وهو في القلب كالإنسان من العيان ، ويعبر عنه بالإيقان . والإقامة بصدق العبودية لايكون إلا بتأييد من الله لعبده ، وإلا يخلص من شوائب وآفات ، وإذا حصل التأييد والإقامة من الله كما ذكر حصل على الأدب ظاهرا وباطنا ، فاستسلم للأمر باطنا ، وانقاد للأحكام ظاهرا ، ولي في ذلك شعرا :

ذلي له ظاهر والحال باديـــه   لديه لم يخف حال العبد مولاه

فمنك نطلب مانرجو ولاحرج   لأن ماثم غير الله نرجـــــاه

(إلهي) بمعنى العالم بتفاصيل العلوم ، والمحيط بكل معلوم ، الوهاب أنوار الفهوم ، لمن اختصه من العموم **(علمني من علمك المخزون ، وصني بسر إسمك المصون ، الذي إذا قلت به للشئ كن فيكون)**

والعلم المخزون في خزائن ﴿ **ن * والقلم ومايسطرون** ﴾ فمن علم ذلك العلم الذي هو كهيئة المكنون ، الذي ينطق به العلماء بالله ، وينكره عليهم أهل العزة بالله ؛ هو العلم بما لايدخل تحت ظروف اللفظ والقول ، ويتعالى مشهده على مافوق الحول والطول ، ولايتناهى فيه إلى الوصول ،

وهو مفاتح خزائن الغيب في أسرار الصفات لمعاني الذات ، الذي تغنا عند التحقق بسائر اللذات حتى يغيب نعيم الجنان ولايذوقه إلا الذائقون من عبادالله الذين شربوا صرف شراب شهود نور الذات ، الممزوج من شرابهم لأهل صفو الحالات أهل مقام الشهادات ، ويعبرون عن أنموذج من ظهوره في الدنيا بالعلم اللدني الذي يلقيه الله لخواص عباده من غير تعلم ولادراسة ، فيكشف مدخور ما ادخره حرف من كلامه ، فينكشف ماوراء الغيوب الخمسة وهو : الغيب العرشي ، والغيب الكرسي ، والغيب السماوي ، والغيب الملكوتي ، والغيب الجبروتي . فعند انكشاف هذه الغيوب يطلع فجر الشموس الوصفية والمعاني الذاتية ، وما لم يخرج عن مضيق دائر الحس ولم يشم رائحة الكشف بل في تماويه وخيالات وغرور ودعاوي كاذبة وزور ، والصيانة بالإسم المصون هو أن يصون سره عن الإلتفات إلى الأغيار ، والإعتماد على الآثار ، والإنقهار تحت كثيف العادات ورذائل الشهوات ، فمن انصان تحت صوان الإسم الأعظم من هجوم بيان نعتات المهمات فيكون له حافظا ، وعليه محيطا وافيا ، ولي في ذلك شعرا :

علمني العـلم ذي من كان يعلمـه   نعده عالما في السادة الأمـــــنا
علمك إلى الله انصاف لجانـــبه   هو ما ادخر تحت صون الغيب واكتتما
وسر إسمك كنيان فعالمــــــه   لم يخشى ريبا ولم يعتب به الزمـــنا

(**إلهي**) بمعنى المولي بتدبيري في سائر أراداتي ؛ الواهب لمن يشاء الكنز الأعظم ، وهو التحقق بالمقام الأنها (**حققني بحقائق أهل القرب ، واسلك بي مسالك أهل الجذب**)

التحقق بالحقائق نهاية الفنا في المحبوب ، والظفر بالمنى ونيل نهاية المطلوب ، وهو البقا المحقق الذي من وصل إليه لم يجد وجود غير الملك الحق ، فيفنا به عن تدبيره لنفسه فضلا عن أن يكون له إلى الأغيار استناد في جلب نفع أودفع ضر ، ويخرق حجب الأكوان ببصيرته فيراها كشفا محققا ، فلا يعياء بالخيالات الوهمية ، ومسالك المؤهلون للمحبة في سابق العلم ، فهم المحبوبون المخطوبون للوصال الذين اختطفوا من الحظيظ الأدنى إلى بجبوح القرب الأنها من غير تعب ولاعنا ، بل محمولون في محفة المنة ، فالسابق إلى قلوبهم وجود محبوبهم ، فلايدخلون في الأشياء إلا به ، ولايخرجون عنها إلا به ، لأنه السابق لهم بمحبته ، والمتولي لهم برعايته ، فهم أهل الفتح المبين . ولي في ذلك شعرا :

يا من تحقق أسرار بمـــا وهبت   من منة القرب حتى طاب مثواها
في حضرة الحق من توحيده امتلأت   وكان في قاب قوس القرب مأواها
أسلك بنا مسلكا فاقت مراتبـــه   بجذبة منك واتحفنا برؤيـــاها

(إلهي) بمعنى المدبر المختار ﴿ **وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة** ﴾ [الآية ٦٨ القصص] **(أغنني بتدبيرك عن تدبيري ، وباختيارك عن اختياري ، ووفقني على مراكز اضطراري)**

الغنى بتدبير الله عن تدبير العبد لنفسه هي حالة الموحدين ، وسيما خواص عباد الله المقربين والإختيار كذلك ، لأن نور الكشف يعطى ذلك وضده هو المذموم هو تدبير العبد في أمر لم يدبره فيه الشرع ، واختياره لأمر لم يدري فيه غير الصواب كما هو شان المحجوبين والجهال المغرورين ،

فلذلك سأل المؤلف أن يغنيه عنه بما يكشفه له من حسن اختيار الله له وتدبيره ، ويوقفه على مستقر اضطراره ، وهذه حالة الأدباء أنهم لايفارقهم اضطرارهم إلى مولاهم في سائر الأحوال ومراجين عن مقاسات التدبير والإختيار لما حمله عنهم من واردات الأنوار ، وصولة سلطان الحقيقة على الأسرار ، فهنا يحصل الغنى عن التدبير والإختيار . ومن وقف علمه أوصفة وعرفها بما هي عليه من العجز والضعف والجهل بعواقب الأمور وقف لامحالة عما ليس هو من مقتضى الربوبية ، وسلم الأمر وانقاد ، وسلم عن المنازعة في أحكام الله والمعاندة ، ولزم مركز الإضطرار ، ولي في ذلك شعرا :

يامن هو القادر المختــار في الأزل — قبل البروز إلى الأشباح والصور

سلك أغنني بك عما مني من خطل — ونجني من حقوق الجهل والضــرر

(إلهي) بمعنى متولي أمري وقائد زمام أمري **(أخرجني من ذل نفسي ، وطهرني من شكي وشركي ، قبل حلول رمسي)**

الإخراج الحقيقي هو ماكان بالله لابالنفس والذل الذي طلب المؤلف الإخراج عنه ؛ ذل النفس لغير الله لغنى تتوهمه من وصول نفع أوحصول ضر ، وذلك لكثافة حجابها عن من بيده كل منافعها ومضارها ، وأن الخلق فيما يصل على أيديهم آلات مسخرة لاتتحرك ولاتسكن إلا بتحريكه وتسكينه ، فماله يخرج عن رؤية الأغيار وظلمة الآثار ذلت للمخلوقين لامحالة ، فطلب الخروج عن رق الأكوان إلى صرف عبودية الرحمن وهي الحرية المحققة التي من وصلها صارت الأشياء له منقادة له بحكم التسخير ، وهو الإنقياد لغير سيده ومولاه ، والشك هو سبب الحرص على الدنيا ،

الموقع في حبائل الطمع والبخل وكل رذيلة ، والشرك هو رؤيته أن لشئ من الأشياء تأثير دون الله في سائر المعتادات ، وهذه الأحوال مجانبة لحقيقة التوحيد ، مباينة لمعاني التفريد التي أتحف بها خواص العبيد ، وحد الشك ضيق الصدر لأمر ينزل فيتبرم لذلك ويعتريه الهم والخوف والسخط ، ويظلم القلب لذلك ، وكلما ازداد ظلمة ازداد حرجا وضيقا ، كأنما يصعد في السماء ، ويضاد شرح الصدر بنور اليقين ، وكلما نور اليقين أقوى كان الإنشراح أوسع ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ [الآية ١٢٥ الأنعام] والشرك هو انغمار القلب بظلمة البعد ، فينظر الأسباب هي المؤثرة فيتمكن الهوى من القلب ، وينكمش في طلب الأسباب من سائر وجوهها ، فتستعبده وتستهويه ، وكلما كان فيها أمكن كان من نور التوحيد أبعد ، عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه ، ولي في ذلك شعرا :

يامنقذ الغارق المكروب في اللجج   أخرجني أدركني انقذني من الحرج
من ذل نفسي لغير الله ذاك لها   سجن وقيد وعن طرق الهوى عوج
ومن شكوك عن الإيقان يأتيه   وشرك الأغيار مر قاطع سمج

فمن لم يتطهر من هذه القاذورات ولم يباين هذه المذمومات في الدنيا قبل حلول الرمس وهو الموت الطبيعي ، توالت عليه كرباتها في البرزخ ، وطالت معاناتها هنالك ، ولم يجد سبيلا إلى التدارك لما فات ، فتتوالى عليه مرارة الحسرات ، ومقاسات شدائد الكربات ، عافاناالله منها ، وزحزحنا من مهالكها ، ولطف بنا من مخاوفها وأحبابنا كذلك في الله وسائر المسلمين ، قال المؤلف رحمه الله :

(بك أستنصر فانصرني ، وعليك أتوكل فلاتكلني ، وإياك أسأل فلا تخيبني ، وفي فضلك أرغب فلاتحرمني ، ولجنابك أنتسب فلاتبعدني ، وببابك أقف فلاتطردني)

هذه المعارف بحسب ترقي المعارف في مراتب القرب ، لأن أول مفتاح أبواب الملكوت الذي من عالم القلوب هو الإيمان ، وثمرته وحقيقته هو التوكل على الله ، وحقيق بنيل ماطلب حيث صح له مقام التوكل لايوكل إلى نفسه ولا إلى غير سيده ، كما قال الله وهو أصدق قائل ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [الآية ٣ الطلاق] ثم لما أقيم في مقام العبودية لله بالدعاء فقال : وإياك أسأل لأنك مشهودي ، وأنت غاية مأمولي ومقصودي فلا تخيبني كما قلت بقولك الحق ﴿ **أدعوني أستجب لكم** ﴾ وفي فضلك الفائض الغامر لذرات الوجود أرغب وأطلب فلاتحرمني ، كما أنك أقضيته علي قبل سؤالي ، فالمأمول من وصلك أن لاتحرمني بعد طلبي وإيجادي ، والحرمان هو القطيعة من الخيرات ، ولجنابك الذي لايضام نزيله ولايخيب دخيلة ، أنتسب بالعبودية فلاتبعدني بأن تبدل مقامي ، وتغير اسمي بأن أكون عبدا لغيرك من هوى أودنيا ، وببابك أقف فلا تطردني ، وقوف العبد بباب سيده هو لزومه لطاعاته ، والتعلق بمظاهر تجلياته ، وهذا غاية المطلوب ومنتهى المرغوب ، والطرد بضد ذلك أن تجده مستعبدا بظاهر الأسباب ، ومتعلقا بباطنه بها ، فلا انفكاك له عنها ، ولاانفلات له منها ، وهذه المعاني كلها مما يتأكد على المريد مراعاتها ،

وإمعان النظر في مضمونها ، ليحذر من مهالك طرقاتها ، ففيها انقطع أكثر الخلق وهم لايشعرون ، ولي في ذلك شعرا :

عليك متكلي يامن هـــــو الله فلاتكلني فذاك السؤل والجاه
ياناصرا كل مستنصر بـه وعـلى كل النوائب والأحـوال يرجاه
إياك أسأل غوث الطالبين ومـن إليه يرغب فإن الله مـــولاه
في فضلك الغامر الفائض عليه فلا تحرم نزيلا ثوى في نزل مولاه
ومن جنابك فلا تبـعد لمنتسب أيضا ولاتطرد الواقف لحوبـاه

(**إلهي**) بمعنى الغني بذاته وصفاته وأفعاله (**تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة مني ، أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لاتكون غنيا عني**)

هذه العبارة ترقي في تجليات الأسماء والصفات ، وملاطفات من تعطفات ألطاف الذات ، فأول ماتجلت عليه من سماء الأسماء نجوم الأفعال الأزلية ، والمعاني الأمرية ورى ماهي عليه من التنزيه من العلل ، والآلات الخلقية لذلك المقام من ما يتعاطاه الجهال والعوام نسبتها إلى العلل الحادثة بأفعال الأنام ، فقال : تنزه رضاك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **أعوذ برضاك من سخطك** " ولم يستعذ من سخطه سبب من الأسباب لفناء الأسباب ، علل الإنتساب ورضاه أثر من آثار وصفه على شئ رضي عليه ، وإذا برزت آثارها على العباد تفرعت عنها أفعالهم من حسنها وسيئها ، فتسمى أفعالا ، وأفعاله مقدسة عن العلل لاكما يزعم المعتزلة قبح الله رأيهم ، بل فعله بمحض الإختيار ، فكل أفعاله وأحكامه كذلك لاعلة تبعثه على فعل شئ ، ولاعليه وجوبا لخلقه ، وماكان من المصالح فبمحض

الفضل والكرم . كذلك أنت الغني بذاتك كما أنت الغني بصفاتك وأفعالك عن أن يصل إليك النفع منك لوجوب غناك عن الأعراض المكملات لوجوب كمالك وثبوت جمالك وجلالك عن تطرق نقص ، ولي في ذلك شعرا :

تقدست صفة المــولى عن العلل   في سابق الأمر بل في حضرة الأزل
وهو الغني أبدا في عـــــز رتبته   عن أن يصل منه له نفع ولن يصــل
وكل أفعال من دونه ولو حسنت   لايستحق بها قطـــــــع ولاوصل

وهذا توطيئة منه لسؤاله وانطراحه تحت جريان الحكم لذلك قال :

(**إلهي**) بمعنى ذو القدرة القاهرة والمشيئة السابقة (**إن القضاء والقدر غلبني ، وأن الهوى بوثائق الشهوة أسرني ، فكن أنت النصير لي حتى تنصرني وتنصر بي ، وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي**)

إن القضاء السابق والحكم الغالب غلبني عن أن لا آتي إلا بما هو المراد من تقريب وإبعاد ، أوشقاء وإسعاد ، أوموافقة أوعناد ، وهذا من باب الإعتذار بين يدي الكريم الغفار ، اللطيف الستار ، ولكن من حق الأدب أن لايقطع النظر في الأفعال الملومة عنه بمرة واحدة ، بل يعطي الأدب حقه من إضافة هذه الأفعال إليه وإلى هواه وشهوته ، لتنزيه الجناب الإلهي عن مثل هذه الألفاظ ، فيشهد باطنا إنفراد الله بها دون علمه أوعمله ، وظاهرا يكون لائما لنفسه وذاما لها ، وإذا ألهم عبدا مثل هذا الإعتذار وقام فيه بالأدب باطنا وظاهرا فإن الله يريد أن يقبل عذره ، فكن أنت النصير لي على أعدائي حتى ينصرني عليهم بما أمددتني به من جنود أنوارك ، وواردات أسرارك ، وينصرني بعد كمال إرادتي ووصول

مأمولي وبغيتي ، لينصر بي من إقتفا أثرتي ، واجعل محبتي من أبناء وقتي بما نلقيه عني من فائضات حكمتك ومشرقات أنوار معرفتك ، وتلبسني من ملابس نفائس ولايتك ، فلا يراني عدو إلا ويرجع خاسئا حسيرا ولامسيئا ومحبا إلا ويكون قمرا منيرا ، ولايلوح لي ذكر في فكر إلا ويخنس منه كل خاطر نفس وهوى وشيطان ، فهكذا النصرة بالولي أنه جند الله لعباده الصادقين ، وسلم طريق السالكين ، وقدوة أسرار المريدين ، يتوب على الخاطي ويربي القاصي ويرحم العاصي ، وياخذ على صراط الله بالنواصي ، إذا رأى ذكر الله وانخنس كل شيطان من الإنس والجان ، يحكم على الأمور بأمر إلهي ، ولايحكم عليه شئ دون وليه .

وأغنني بك عن طلبي الفنا ففضل الله والإكتفاء بنظر الله ، والرضا بتدبير الله حتى أستغني ، فهذا دأب الموحدين ، وشان المؤمنين ، وطريقة المكاشفين ، وسمت العارفين ، كما أعتني عن الطلب الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم حيث قال في حال ورود الحكم عليه " **حسبي عن سؤالي علمه بحالي** " لما قال له جبريل حين رمي به بالمنجنيق إلى نار نمرود : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك لا ، وأما إلى الله فبلا ، قال سله أن ينجيك فقال **" حسبي عن سؤالي علمه بحالي** " فأغناه عن جبريل وعن الملائكة الذي عرضوا عليه في تلك الأسباب كملك الرياح وملك الماء فاغتنى بالفضل وتوالت عليه الألطاف ، وتوالت عليه أنوار القرب فأغنته عن السؤال ، ولي في ذلك شعرا :

إن القضا غالب والعبد مغـلوب وقوة القدرة القاضي على الـدوب

هذا لربك أما أنت يافـــــطن قل ياإلهى أوهنتني شـــهوة البشر

فكن نصيري على الأعداء قاطبة وانصر كذلك من بك كان منتصر
وأغنني بك ياذا الفضل ياسندي مني ومن سائر الأكوان والغــــير

فلا جرم إن سألتك هذا المقام العالي الذي يغني الأول والتالي ، وأنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك فبذلك صرت لهم وليا ، وبهم عمن سواك حفيا ، فبرز منهم مابرز من توحيدك ومعرفتك ، فليس لأحد إلى توحيدك سبيلا إلا بما منك من النور الذاتي ، ولالأحد إلى معرفتك وصولا ، إلا بما تجليت من التجلي الوصفي والنعت الفعلي ،فإشراق هذه الأنوار هو الذي أزال عنهم ظلمات الأغيار ، ومحا عن قلوبهم صور الآثار ، وقهر بهم كل عبد جبار . وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبابك حتى لم يحبوا غيرك ، ولم يكن لهم مطلوب سواك بما أفضته عليهم من حبك وولائك ، ولم يكن المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، فمقام الأنس بالله هو ثمرة محبته التي استخلصتهم عن الأغيار ، وأوحشتهم عن الآثار ، ولم يملكهم أهل ولاعقار ، ولاوطن ولادار ، وتغربوا عن الديار فرارا من الأغيار ، فآنسهم بمشرقات أنواره ، وألبسهم سرابيل أسراره ، وأعد لهم نزل عظيم ونعيم مقيم في دار وأي دار ، وأعد لهم مقعد صدق عند مليك مقتدر ، في جنة سقفها عرش الرحمن ، ينادون بالتحيات في أقطار الأرض والسموات ، ويلقون بأنواع الكرامات ، واخترقت من الأزل إلى الأبد أنوار الأكوان ، وشاهدوا سر هدية الملك الديان ، فدنت إليه أسرارهم دنو محب لحبيب ، فكانوا به أشد أنسا من الولد إلى أمه ، والمحب إلى حبه ، فكفاهم كل الهموم ، وباينتهم سائر الغموم . فالتولي هو إشراق الأنوار في القلوب الذي تنشا عنه المعرفة والتوحيد ، والمحبة ناشئة

عن المعرفة ، وثمرتها الأنس بالله وترك ماسواه ، والإدبار عما عداه ، ولي في ذلك شعرا :

أنت الذي في قلوب الأولياء شرقت أنوارك اللي بها نـــــار الحناديس

أزلت عنها ظلم الأغيار فاحـترقت كل السناديب من حقب الوساويس

أحباب صدق لهم أنس إذا رهقت في غيهب الليل أوجـــاه المفاليس

(وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم)

أنت الذي سبقت لهم منك الهداية إلى سبيل الولاية ، وحصلت منك لهم الرعاية ، حتى استقاموا على صراط العناية ، ولم تزل لهم حافظا وبهم ملاطفا ، حتى ظهر لهم سر وحدانيتك ، وحصلوا مقام فردانيتك ، وكحلت أبصار بصائرهم بنور معرفتك ، فشهدوك لهم قريبا ، وأظهرت سر لطفاك بهم فاتخذوك حبيبا ، ولي في ذلك شعرا :

أنت الذي أعطيت أنوار الهداية في ماهو مرادك من غي ومن رشد

هديت قوما إلى التحقيق فانظر إلى علم الإلـــــه ومايحويه من مدد

فإذا تحقق المريد بمقام التوحيد ، وفنيت عنده كثرة التعديد ، وشهد منه إليه أقرب من حبل الوريد ، غني به عن الأغيار ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(ماذا وجد من فقدك ، وماذا فقد من وجدك)

وجود الأغيار والإفتقار إلى الآثار دليل على انطماس البصائر وذهاب نور الأبصار ، وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ، فالحق ليس بمقصود بل هو الموجود دون كل موجود ، والحاضر عند كل شئ والشاهد على كل مشهود ، فماتفيض فائضة ولاتنطق لسان لافظة إلا كان عليها شاهد ولها

محصنا حافظا ، ﴿ **وماتكون في شان** ﴾ الآية ، فصح أن فقدان وجود الحق غاية العمى ومنتهى الفقد وغاية الطرد ، وماذا فقد من الأشياء العدمية من وجد الحق له حافظا ولديه حاضرا ، ومنه قريبا وله حبيبا ، ولسقمه طبيبا ، ولدعائه مجيبا ، ويوليه له واقيا ، ولفاقته كافيا ، فلاتغنيه عنه الأعراض ، ولاتسد دونه الأعراض ، بل يكون وقف عليه لايستغني عنه بالأعيان ، ولايكفيه دونه سائر الأكوان ، ولايلهي عن محبته إنس ولاجان ، ولايفتقر بعد وجوده إلى الأغيار ، ولي في ذلك شعرا :

ماذا وجد من فقد نور الإله وما　　يغنيه عنه جميع الكون والصور
ومن وجد ذاك نال الكل فيه فما　　غير الإله وجـــــود ثم معتبر

ثم لما بين حال الواجدين لله المستغنين بوجوده دون سائر الأكوان ، وخسارة أحوال المحجوبين عنه بكثائف الأغيار ، والمطموسين في ظلمات الآثار ، فقال مبينا لأحوالهم وذاما لسوء مقامهم فقال :

(لقد خاب من رضي عنك به بدلا ، ولقد خسر من بغا عنك متحولا ، فخيبته ظاهرة وتجارته بائرة)

من رضي واختار عنك بدلا فليت شعري مايعيضه بوجود سيده ، وما الذي يروي صدى قلبه إذا فقد شهود ربه ، فلكل شئ بدلا غيره ، ولكل شئ عوضا ، فلايعيض عنه شئ ، قال القائل في ذلك :

لكل شئ إذا فارقتــه عـوضا　　وليس لله إن فارقته عوض
فلا حرمنا وصال الإتصال به　　ففيه عافية مابعدها مـــرض

والخسارة وقوع النقص عند التعرض للربح ، واي صفقة أخسر وتجارة أبور ممن ابتغا عنه متحول ، ومن محال قربه تنقل ، وكل طالب لغيره كذلك في خسة وخسارة ، وبوار تجارة ، ولي في ذلك شعرا :

خاب الذي عنك يرضى بدلا فمتى يغنيه عنك وجود الهالك الفاني
وياخسارة من يبغا تحول عــــن قرب الحبيب فذاك المبعد العاني
كيف التحول أم كيف الشطون وما يلقا بديلا عن المولى ولاثــــاني

فإذا كان غير مقصود بل وجوده على الحقيقة مفقود ، تعجب المؤلف رحمه الله فقال :

(كيف يرجى سواك وأنت ماقطعت الإحسان ! وكيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الإمتنان)

الرجاء من غير الله من شان المحجوبين ، وعلامة البعد من رب العالمين ، فالرجاء هو تأميل أمر يترقب حصوله ، ومن كان الله مشهوده فلايكون لغيره في الحوائج مقصود ، ويشاهد حصول الآمال ونيل كل نوال دوام الإحسان ، فكيف ترجا غير من ألفت منه العوائد الجميلة ، والمنن الثقيلة ، وكيف تطلب من غيرك وغيرك لايملك لنفسه ضرا ولانفعا ، ولاموتا ولاحياة ولانشورا ، وأنت مع ذلك مابدلت عوائد الإمتنان ، بل لم تزل المنن مديمة ، والنعم لديهم مقيمة ، فلا يكون الطلب من غيره بعد ماعلمت عدم ماهو عليه من عدم تبديل عوائد الإمتنان محمود ، ولايكون غيره لمهات الأمور مقصود ، ولي في ذلك شعرا :

مايرتجي غير من بالفضل موصوف وعنــده فائض الإحسان مألوف
وكيف تطلب من لم يرجى منــتـه دون الإله الذي بالفضل موصوف

(يامن أذاق أحباءه حلاوة موانسته ، فقاموا بين يديه متملقين)

حلاوة الحب للمحبين تنسيهم كل نعيم ، والأنس يقتضي إنبساط المحب وتدلي المحبوب ، فهي لديهم ألذ من نعيم الجنان ، والأنس للمحبين خاصة ، ولهم في مقام الأنس وصوف إكرام وسبوغ إنعام ، فمنهم إذا أقيم فيه يقول : لوضع السيف على مفرقي وشقني نصفين لم أجد لذلك ألما . قال الجنيد رضي الله عنه : كنت في صغري أسمع ذلك من السري وكنت أستبعد لذلك من قبل حتى وجدته . أوكما قال . والموانسة تقتضي القيام بين يدي الحبيب ، فالقيام لايكون حقيقة إلا للمستأنسين الذين غابت معالم الأكوان لديهم ، وذهبت محاسن الألوان عن قلوبهم ، فلم يروا غيره ، فقاموا له بصدق العبودية بين يديه متملقين ، والتملق هو التلطف والتودد ، ولايحسن ذلك لغيره ، ولي في ذلك شعرا :

يا من أذاق أولي الألباب خيرته　　　شهد الشهود وصافي الأنس في الأزل
قاموا لـه بـين مشتاق ومكتئب　　　وشاكي من ضنا الأشجـــان منتحل

فمقام المحبة يقتضي الأنس بالحبيب ، ومقام التولي يقتضي الإستعزاز بالوالي العالي ، لذلك قال :

(ويامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين)

وليس الهيبة هي القاهرة لسائر الأعداء ودامغة لباطل كل عنيد ، وذلة لكل صادق مريد ، والهيبة هو مايجده كل من واجههم من القهر على امتثال أمرهم وتعظيم شانهم وإن كانوا من الجهال العوام ، والأجلاف الطغام ، حتى الوحوش والأنعام ، فإنها تدين لهم بالإجلال والإحترام ، إلا من برز في حلة الجدال من أهل الزيغ والضلال ، فإنه يتجاهل بهم ويغط

عن مقامهم مع ماهو متحقق به من علو مراتبهم ، والعزة هي رفع هممهم عن الأكوان ، وتعلق مطالبهم بجناب سيدهم ، واغتناهم به عن كل شئ سواه ، وعدم طلبهم لعرض إلا إياه ، فهذا من عزة المؤمن المتصلة بعزة الله ونبيه حيث قال ﴿ **إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ [الآية ٦٥ يونس] ولي في ذلك شعرا :

ياملبس السادة الأجناب هيبته القائمين بعـــــز الله كل ولي

فجانب الكون انصـــار لسنته في كل وقت ونهج الحق معتدل

فلما تخلقت المظاهر الخلقية المسبوقة بالعدم بلائح أنوار القدم ، عرف الشئ من أصله ، ورد الحق لأهله فقال :

(أنت الذاكر من قبل الذاكرين ، وأنت البادي بالإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت الجواد بالعطاء قبل طلب الطالبين ، وأنت الوهاب لنا ؛ ثم أنت لما وهبت لنا من المستقرضين)

هكذا شان الموحدين إذا كرعوا مناهل اليقين ، وظهر لهم الحق المبين ، يرون أولوية الحق في سائر الأفعال ، فالذكر من الذاكرين حسب ماسبق من ذكره لهم بماذكروه ، قال جل من قائل ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ أي ذكري لكم حسبما ذكرتموني ، وهذه فيه رائحة إخبار عن ذكره لهم لأن ذكره قديم ، وهذا على حسب ماذكرتموني أذكركم ، فالقرآن قديم وهم حادثين من أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ، ومن علم الحق فيهم وبهم قديم ، فهذا ذكره لهم قبل بروزهم من كتم العدم ، وبدو الإحسان كذلك إن أهلهم لطاعته وهيأهم لعبادته ، وقربهم لمحبته ، وواجههم برحمته قبل توجههم وتعبدهم ، فهو

البادي بالإحسان وفيض الإمتنان قبل ظهور الأعيان ، وانبراء الأكوان ، ووجود الإنس والجان بقوله ﴿ **لقد من الله على المؤمنين** ﴾ بما وهبهم من نور الإيمان وتنزيل القرآن على أكمل عالم الإنسان محمد المصطفى من عدنان ، وإرساله إلى كافة الإنس والجان ، وأهلهم للزوم كلمة التقوى بقوله ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ فالذكر مما يختص بالمقربين والصفوة الدائبين ، والإحسان مما يختص به أهل الإحسان المكاشفين بأنوار الصفات ، الشاربين عين اليقين ، والعطاء لأهل التلقي وعمار أصحاب اليمين الآخذين في علم اليقين ، فهم عالم الأفعال ووراء أسجاف الحكمة منتظرين ، وهو البادي بالعطا كما يحكم بذلك الشرع والعقل من قبل طلب الطالبين ، لأن العقل يحكم أن أفعال الخلق لاتعلل بعلة ، ولاتنال بفعلة ، فلا يكون طلب الطالبين يوجد أمرا لم يكن في علمه أنه لايكون ، وماكان في علمه أنه يكون ، فما يفيد الطالب ويكلف معاناة تعب السبب والإضافات إلى النسب وأنت الوهاب جميع ذلك ، والموصل إلينا ماهنالك ، ثم رفعت شان الإنسان على سائر الأكوان بأن نسبت إليه ما أنت واهبه ، واستقرضت منه ما أنت موجده ، ووعدته عليه بجزيل الجزاء وتمام الفضل في العقبى ، وتضعيف الثواب في الدنيا والمآب ، وأما في الدنيا فبالخلف الأكمل ، وفي العقبى بالجزاء الأوفى ، فالحمد لله فما أعظم منته وما أتم نعمه، يستقرض ما أعطاك ويثيبك عليه في عقباك ، وتنال به الثناء عنده في إعطاه ماهو ملكه ، ولي في ذلك شعرا :

ذكرك تقدم ذكر الذاكرين ومـــا يذكرك عبد فذاك الذكر منك بدا

يابادي الكل بالإحسان منك فما   للطائعين من الإحسان منك يدا
أنت الجواد بإعطا الفضل منك كما   بديت بالكل يامنـــــان ياصمدا
ثم أنت تستقرض العبد الضعيف أما   أنت الذي توجد الأعيان والمددا

(**إلهي**) بمعنى المبتدي بالإحسان ، والمتفضل بالعطاء والإمتنان (**أطلبني برحمتك حتى أصل إليك ، وأجذبني بمنتك حتى أقبل عليك**)

الطلب من الله لعبده برحمته هو عين ماهداه إليه من طرق المجاهدات ، والتقرب إليه بنوافل العبادات ، وعرفه من أنواع البر والكرامات ، لينالوا ماعنده من الفضل العظيم ، والنعيم الدائم المقيم ، ووقاية من العذاب الأليم ، فرحمهم بإرسال الرسل ونزل الكتاب ، وأعطاهم أهلية الفهم لذلك والقبول له ، وأعانهم على القيام بمقتضى ماعرفوه ، ثم مدحهم وأثابهم مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، وذلك مبتدأ منه من غير شعور لهم بشئ منه ، لأنهم في أول شانهم ومبتدأ خلقهم لاعلم لهم بشئ ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا** ﴾ [الآية ٧٨ النحل] فهذا من الطلب منه برحمته ، فوصلوا إليه بما رحمهم به ، وأجذبني بمنتك بعد الوصول إليك بالرحمة أوقبل الطلب ، وذلك بمعنى الجذب قبل سلوك وتحري طاعة كما كان لطوائف من المقربين ، والسادة المجذوبين ، والمخصوصين المحبوبين ، أمابعد سلوك فيتدارك بالجذب أوقبل ، بأن يختطف بجذبه إلهية ونفحة ربانية ، وعطية إمتنانية ، تخصه من بين أبناء جنسه ، وتوحده عن عالم حسه ، ويلقيه في بحر شهود الذات العلية ، وتشهده الأوصاف القدسية ، ويكون بحكم الأولوية ، ولايرى للأغيار وجود ولا للآثار في قلبه شهود

، بل مستغرق السر والروح والقلب في شهودالأحد المعبود ، وإن شاء الله به إرشاد العباد رده رحمة في البلاد ، ونعمة سابغة على العباد ، يبيد العناد ويزيل الفساد ، ويمنح من أطاعه صرف الوداد ، مؤيدا بالروح الإمتناني ومؤزرا بالسر الصمداني ، فهذا معنى جذبه المنة والإقبال على الله على الدوام ، لايكون إلا للمحبوبين والخواص المجذوبين ، فلايجدون للأغيار عندهم وجود ، ولاللآثار في قلوبهم شهود ـ فطلب المؤلف للوصول بالرحمة والجذب ثانيا بالمنة ليكون متحققا بكل المقامين ، عارفا بمعنى الإسمين الباطن الظاهر الأول الآخر ، كما هو لأهل الكمال الكارعين مناهل الوصال ، الحاكمين على الأحوال ، ولي في ذلك شعرا :

من كان بالرحمة الرحمن يطلبه إلى السلوك ونور الشرع يرعاه

ومن يكن ثم مجذوب بمنـــــته هو المهنا وكهف القرب مـأواه

(إلهي إن رجائي لاينقطع عنك وإن عصيتك ، وإن لومي لايزايلني وإن أطعتك)

ذكر الخوف والرجاء هنا تنبيها منه على سر هذين المقامين الشريفين ، لأن ظاهر الرجاء والخوف للعامة من العوارض الحادثة ، يخافون عند وجود عارض حادث ويرجون كذلك ، فإن أقيموا في مقام العدل الذي أثره في العبد المعصية وجزاؤها العقاب وأصناف العذاب خافوا ، وإن أقيموا في الطاعة التي هي أثر الفضل في العبد وجزاؤها الجنة رجوا ، والعارفون شاهدوا بواطن الأشياء إذا شاهد الخلق ظواهرها ، فيشاهدون الصفات العلية والأسماء العلوية وهي لابسة بينها وبين الأفعال الخلقية ، فلايزايلهم شهود العدل وإن أطاعوا ، ولاتغيب صفات الفضل وإن عصوا ، فهم

الذين قاموا بحكم العبودية من غير علة ، وإذا شاهدوا الأفعال الصادرة عنهم لم يجدوها شيئا بالإضافة إلى ماهم مشاهدين من الصفات الحقية ؛ إن نظروا إلى الطاعة الصادرة عنهم نادتهم الصفة العدلية وقوة نفوذها ، وعليه حكمها ، فلم يعتمدوا على طاعتهم ﴿ **فلايأمن مكرالله إلا القوم الخاسرون** ﴾ [الآية ٩٩ الأعراف] علما منهم بأنها أن تجلب بالحكم غلبتهم ، وإن نظروا إلى مابرز منهم من المعصية نادتهم الصفة الفصلية ﴿ **ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [الآية ٥٣ الزمر] ﴿ **ولاتيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ [الآية ٨٧ يوسف] فلم يزل بهم ذلك ، فلم تزايلهم هذه شهود الصفا ، ولاتغيرهم عما هم عليه مايبرز عنهم من الحسنات والسيئات ، هذا خلاف ما أهل الرسوم عليه ، وأما عموم الخلق مستندون إليه ، ولي في ذلك شعرا :

رجائي لاينقطع عن فضـلك العمم   وإن عصيت فشان العبد يانسان
والخوف من مكر جبار يكون وإن   كنت المطيع وثم للعـــــدل ميزان

(إلهي قد دفعتني العوالم عليك ، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك)

هذا مفسر لما تقدم من كلامه ، العوالم جمع عالم وهي كل ماسوى الله سبحانه ، إن إعتمدت على الطاعة لم أجدها مخلصة لي من عدلك إلا بما وعدت من جزيل كرمك وفضلك ، وإن شردت عنك بالمعصية ردني إليك بشمول رحمتك وسبوغ فضلك ، فعلى الحقيقة وإن العوالم كلها سير إليك

، فالخوف سائق إليك ، والرجاء داع لعبادك إليك ، وكل وصف من أوصافك أواسم من أسمائك أوفعل من أفعالك ناطق بوحدانيتك ، ومشيرا إلى صمدانيتك ، فاسمك الكريم يشيروا إلى أن الكريم لاتتخطاه الآمال ، ولاتنزل بغيره نوزال الأحوال ، وغيره كذلك ، والمصائب والنكبات المؤلمة ملجية للعبد إلى سيده ، والعوارض والعوائق محببة له وحاثة ، وكذلك النعم وسائر كل عالم من ملائم وألم ، ولي في ذلك شعرا :

إليك تدفعني الأكوان ياصمد   وعلمي أوقفني أن الفضل منك بدا

(إلهي : كيف أخيب وأنت أملي ، أم كيف أهين وعليك متكلي)

فلما تحقق ذلك عجب من أنه عبدالله ابتداه بالإحسان ، وناداه بفوائد الإمتنان قبل طلب منه لذلك ولالعرض ، فكيف يخيب بعد ما ألبسه العرفان ، وتوجه بتيجان الإيمان ﴿ **وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾ [الآية ٧ الحجرات] وكيف أهين بعد إعزازك إياي بنص القرآن بقولك ﴿ **إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ [الآية ٨ المنافقون] وقد أكرمتني بكرامة المحبة ، وأنلتني بفضلك رتبة القرب بقولك ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ فذلك منك بدا من غير طلب منا ولاتعرض منا له ، أفتراك تذيقنا بعد ماوهبتنا ، ولي في ذلك شعرا :

حاشا تخيبنا الإحسان يا أملي   ولاتهين الذي بالله متكلي

(إلهي : كيف أعز والذلة أركزتني ! أم كيف لاأستعز وإليك نسبتي - إلهي كيف لاأفتقر وفي الفقر أقمتني ، أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني)

هذه أمور متضادة ، وأوصاف متباينة ، يحير فيها أولي العقول ، وتتزاحم فيها الأحكام والنقول ، ولكن أرباب الكشف إذا كوشفوا بأسرار أعطيتهم الإستعانة والإعتراف بقربه ، وإذا وقفوا على ضف خلقتهم وذلة عبوديتهم أعطتهم أن الإفتقار لهم أصلا ، والذلة لهم وطنا ، فكلما نظروا بعين الخلقية والذلة الأرضية قال : واعجبا ! كيف أعز وفي الذلة أركزتني ، وجعلت فيها تصوير خلقتي وإليها مآب تربتي ، وإذا نظر إلى نسبة الخصوصية والرتبة الروحية ، والمنزلة العلوية ، قال كيف لا أستعز وإليك بنسبتي ﴿ **إن عبادي** ﴾ ﴿ **وياعبادي** ﴾ ﴿ **ياأيها الإنسان** ﴾ ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ وإذا نظر إلى قوله ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ قال كيف أستعز وفي الذلة أركزتني ، وذلك بين لذوي الأسرار لاغبار عليه ولااستتار ، ولي في ذلك شعرا :

فكيف أعز وفي ذلتي أركزتني حكم الإله وهذا الشان معلوم

أم كيف لا وإليك العبد نسبته تعطي بأنك للأكوان قيـــدوم

(أنت الذي لاإله غيرك تعرفت لكل شئ فماجهلك شئ ، وأنت الذي تعرفت إلي في كل شئ فرأيتك ظاهرا في كل شئ ، فأنت الظاهر لكل شئ ، وأنت الظاهر على كل شئ)

أنت الذي لاإله يقصد ولاربا يعبد غيرك ، إذ الغير متوجه إليه ، ومقبل بالطوع والإذعان بين يديه ، ينادي بلسان إفتقاره ، ويفصح عن فاقته واضطراره ، تعرفت لكل شئ بما أنت متجل به عليه ومتعرف بالإقتدار

عليه ، فماجهلك شي ، بل مسبح ومنزه وموقر ومعظم بقولك ﴿ **وإن من شئ إلا يسبح بحمده** ﴾ وبقولك ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ وتعرفت إلي خاصة بما وهبتني من سر معرفتك ، فما جهلتك في شئ بجمالك وجلالك وفضلك وعدلك ، حتى رأيتك ظاهرا في كل شئ بالحكم والقدرة والقيام والأمر ، فأنت الظاهر لكل شئ بالقدرة القاهرة ، والمشيئة النافذة ، والمحجة الظاهرة بالأفعال والصفات ، باطن عنها بالكنه والذات ، ولي في ذلك شعرا :

أنت الإله الذي لامثـل يشبهه ولانظير من الأنداد حاشاه

لكل شئ تعرف بالذي ظهرت من سر قدرته تبـارك الله

(يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبا في رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبا في عرشه)

العرش مستوى الرحمة التي وسعت الأشياء ، وأبرزت العوالم من ظلمة العمى ، وهي صفة من صفات الله ، إليها ينتهي مجموع أسرار الصفات ، فلها السبق على التفصيليات والإجماليات ، ومنها ظهر إختراع سائر الأكوان الملكيات والملكوتيات والجبروتيات ، والعرش سقف العوالم العلويات والسفليات ، والحسيات والمنعويات ، والجسمانيات والروحانيات ، وهي من العلم الأزلي كالصورة ، والعلم روحها ، والعرش من جملة الأركان وهو غيب فيها لسعتها ، ولها الأصالة والفرع عن الشي يكون غيبا فيه لامحالة ، وهو محلها ومحل ظهورها واستوائها ، وسائر الأكوان غيبا في العرش لأنها مصرفة له ومندرجة تحت سعته ، وبوجوده

ظهرت حكمة الله بإبراز كل ذي جسم وروح في هذا التجلي الذي هو محلا مجموع السبع الصفات المعبر عنه بروح القدس ، فالأكوان غيبا فيه ، كما أنه في الرحمة ، والرحمة صفة ذاتية ، فإسم الرحمن يدخل تحت الإسماء الإيجادية ، ولي في ذلك شعرا :

فيا الذي هو رحمن فرحمته بالإستوى صار عرش الله غيب هبا
كما العوالم فيه وهو مظهرها وذر فذاك لفـــعل الله منتسبا

(محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار)

محق الآثار بالآثار هو اضمحلالها واندراجها ، فالجنة والنار والسموات وسائر الأقطار آثار ، وكلها بالإضافة إلى العرش وسعته متلاشية ، والعرش متلاشية ، والعرش كما علمت وهو مصحوبا بأنوار الصفات العلية ، والتجليات الأزلية ، وفلك العرش هو الفلك الأطلس الذي لاينتهي سيره في الدنيا ولا في الآخرة ، وسائر الأفلاك تدور بدورانه ، وأفلاك الأسماء هي الأسماء الحسنى ، وأفلاك الأقطار هي مادون الأثير إلى الثرى ، وهنا أسرار لايجوز إذاعتها ، ولي في ذلك شعرا :

محقت كل وجود في وجـود إذا كل الوجود إلى العرش المجيد هنا
والعرش في رحمة الله الإله كذا محو فلايأتين الخلق منه نـــــبا

(يامن احتجب في سراداقات عزه عن أن تدركه الأبصار)

العزة وصف يقتضي إضمحلال ماسواه ، وفنا كل ماعداه ، والسرادق هو كل مايحتجب به من محرقات الأنوار ، وورد حجابه النار ، وكل منيع الوصل يسمى عزيزا ، والعزيز هو الذي لايجول على الخاطر الإرتقاء إلى

مناله ، ولايتصور لذي فهم أن يقصد بصورة تكييف بل إيمان بوجوده ، بلا كيف ولا أين ، شعرا :

يا من كذا في حجاب العز ممتنـع   فلا إلى دركه بالكيف تصوير
أنت الذي في جنان الخلد تتحفنا   برؤية لايشبها ريب تغـــــرير

(يامن تحلى بكمال بهائه ، فتحققت عظمته الأسرار)

كمال البهاء هو ماتجلي به لقلوب أوليائه من بديع لطفه حتى عرفوه ، وبتلطفه عرف ، وبقدر مايدنوا يكون اللطف أ رق .

(كيف تخفى وأنت الظاهر ! أم كيف تغيب وأنت الرقيب ، والله الموفق وبه أستعين)

ثم أخبر عن إفاضة الألطاف عليه حتى يشهده ظاهر ، وتعجب ممن يظن غيبته ، والرقيب هو المراقب لخطرات الباطن ولمحات النواظر بقوله ﴿ **يعلم خائنة الأعين** ﴾ وهو قائم على كل نفس بما كسبت ، بمعنى حاضر على كل نفس بما كسبت . والله الموفق لما هو الحق عنده ، والمقبول لديه ، وبه أستعين وهو خير معين ، والتوفيق في الأعمال البدنية والنيات القلبية إن وافقت ماهو الحق عند الله ، والإستعانة في كل أمر باطنا وظاهرا ، والله أعلم .

كان الفراغ من طباعة هذا الكتاب ظهر يوم الإثنين الخامس عشر من شهرجمادي الأولى سنة ١٤٣٨هجرية ، تم نقله من نسخة خطية تحصلنا عليها من مكتبة الأحقاف بتريم بواسطة السيد المجمل ولدنا عمر بن عبدالرحمن بن محمد بن طالب العطاس بقلم المحب عبد الرحيم بن عبدالله

بن عمر باعبده تاريخ نساختها الثالث من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٦هجرية . نسأل الله الكريم أن يحصل به النفع العام ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .